علي عزت بيغوفيتش

سيرة ذاتية وأسئلة لامفر منها



دار الفكر

علي عزت بيغوفتش

سيرة ذاتية وأسئلة لامفر منها

ترجمها إلى الإنجليزية

صبار سال الدين

ياسمينة عزت بيغوفتش



وترجمها منها إلى العربية

د. عبد الله الشناق د. رامي جرادات

قسم اللغة الإنجليزية - جامعة اليرموك



آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي: ١٧٥٤,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-275-x

الرقم الموضوعي: ٩٢٠

الموضوع: التراجم والسير والأنساب

العنوان: علي عزت بيغوفتش

سيرة ذاتية وأسئلة لامفر منها

التأليف: علي عزت بيغوفتش

الترجمة: د. عبد الله الشناق/ د. رامي جرادات

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت

عدد الصفحات: ٧٦٨ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

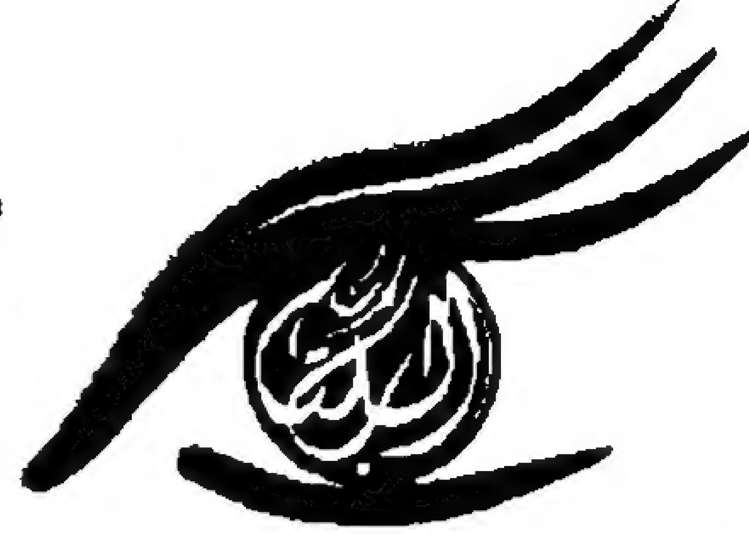
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى

ذو الحجة ١٤٢٤هـ

كانون ٢ (يناير) ٢٠٠٤م

Alija Izetbegović



Inescapable Questions

Autobiographical Notes

Translated by
Saba Rissaluddin & Jasmina Izetbegović

The Islamic Foundation
Leicester, England


CROATIA
Vinkovci
Bač. Palanka
N. Gradiška
Slavonski Brod
Vojvodina
Prijedor
Bihać
Banja Luka
Brčko
Doboj
Bijeljina
Republika Srpska
Ključ
Tuzla
Loznica
SERBIA
Zenica
Srebrenica
Knin
Glamoč
Gornji Vakuf
Sokolac
Žepa
CROATIA
Vogošća
Sarajevo
Bosniac-Croat Federation
Pale
Višegrad
Šibenik
Hrasnica
Goražde
Jablanica
Foča
Priboj
Pljevlja
Mostar
YUGOSLAVIA
Stolac
Belića
MONTENEGRO
Nikšić
Trebinje
Herceg Novi
Podgorica
Budva
BOSNIA AND HERZEGOVINA
International boundary
Inter-entity boundary
Republic boundary

المحتوى

جزء من حياتي

(مقدمة بديلة)

إن الصفحات التي بين يديكم تمثل أجزاء من حياتي، نظراً لأنني إما نسيت مقاطع كاملة منها أو لأنها خاصة بي وحدي. وما يتبقى هو عرض للأحداث أكثر من سيرة ذاتية، إنه وصف للأحداث التي مرت بي خلال حياتي أسوقها هنا، على أكبر درجة من الدقة والإخلاص التي يمكن أن تكون عليها الرواية الشخصية للأحداث.

لا أعرف كيف تكتب المذكرات. فلقد أدركت عند قراءتي لمذكرات تشيرشل الشهيرة، أن الكاتب في هذا النوع من الأدب، وكما يقول تشيرشل نفسه، يربط سجله للأحداث العسكرية والسياسية "بخيوط تجربته الشخصية". ولذلك فإن المذكرات هي دوماً وجهة نظر شخصية وليست موضوعية. وإنها ليست تاريخاً، حيث إنه لا يجب أن تتم كتابة التاريخ من قبل أولئك الذين يصنعونه أو يكونون جزءاً منه. ويتألف جزء كبير من هذا الكتاب من رسائل أو أجزاء من رسائلي، وخطاباتي ومقابلاتي الصحفية خلال تلك الفترة.

ولقد ارتأيت أن أقتبس بعضاً منها كاملة أو أجزاء طويلة منها، لأنها كانت ردود فعلي المباشرة، وتعليقاتي السريعة والفورية على الأحداث عند تكشّفها. ولذلك فإني أعد ردود فعلي تلك أصدق شاهد على تلك الأحداث. ولقد كان

اقتباس الرسائل والخطابات والتعليقات وسيلة لتفادي تقويم الأشياء بعد انقضائها الذي غالباً ما يطغى على الكتابات من هذا النوع.

وباختصار فإن السطور التالية هي الحقيقة كما أراها حقبة صعبة من تاريخنا.

سراييفو في: ٣١/آذار/٢٠٠١ **علي عزت بيغوفتش**

تاريخ البوسنة والهرسك الموجز

من كتاب لنويل مالكولم حمل العنوان نفسه

تقع البوسنة والهرسك في الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان ما بين خطي عرض ٤٢,٢٥° و٤٥,١٥° شمالاً، وخطي طول ١٥,٤٥° و١٩,١٤° شرقاً. وتحدها جمهورية كرواتية من الشمال ومن الغرب، وصربية والجبل الأسود من الجنوب والشرق. وتبلغ مساحتها نحو (٥١١٢٩ كم٢)، ويبلغ عدد سكانها نحو (٤,١٢٤,٢٥٦) نسمة حسب إحصاء سكان عام ١٩٩١، وتبلغ الكثافة السكانية نحو ٨١ شخصاً لكل كيلومتر مربع.

ويعود اسم الهرسك على المنطقة التي يشكلها حوض نهر النيرتيفا فيما يعود اسم البوسنة على المناطق الوسطى، والشرقية والغربية، وهي تشكل بذلك الجزء الأكبر من البلاد.

لقد كانت الحدود السياسية للبوسنة والهرسك نتاجاً لسلسلة من المعاهدات والاتفاقيات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في الفترة ما بين عامي ١٦٩٩ و١٨٧٨. ولقد تم اتخاذ قرار في الجلسة الثانية لمجلس التحرير الوطني المعادي للفاشية في يوغسلافية عام ١٩٤٣ أن يتم اعتماد حدود عام ١٩١٨ حدوداً للبلاد باستثناء بعض التغييرات قرب سوتدرينا وفي مناطق بوسانسكو غراهوفو وبيهاتش.

إن البوسنة والهرسك هي بلد أوروبي ذو تاريخ طويل. فلقد كانت كياناً جيوسياسياً طيلة الفترة الممتدة من العصور الوسطى وحتى الوقت الحاضر. ولقد كانت مملكة مستقلة طوال فترة طويلة خلال الحقبة الممتدة من عام ١١٨٠ وحتى عام ١٤٣٦، وأصبحت ما بين عامي ١٥٨٠ و١٨٧٨ عبارة عن (إيالت) وهو المصطلح المستخدم لتسمية أكبر وحدة من الأراضي ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت ما بين عامي ١٨٧٨ و١٩١٨ أرضاً تابعة للتاج الإمبراطوري في إمبراطورية النمسة والمجر. ومن ثم أصبحت في الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٩٢ إحدى الجمهوريات الاتحادية في يوغسلافية. وهكذا فإنها كانت خلال ٦٥٠ عاماً من الثماني مئة عام الماضية موجودة على الخرائط كياناً يطلق عليه اسم البوسنة.

إن أقدم سكان للبوسنة تتوافر لدينا تفاصيل تاريخية عنهم هم الإيليريون. حيث هاجر السلاف إلى شبه جزيرة البلقان في أواخر القرن السادس الميلادي، واستوطنوا في أقصى جنوب شبه الجزيرة في شمال اليونان.

إن أقدم وثيقة فيها ذكر للبوسنة هي من كتاب جغرافيٍّ سياسي، ألّفه الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بورفيروجينتوس عام ٩٥٨م.

ولقد توسع الحكم الهنغاري في عام ١١٠٢ ليشمل البوسنة، ولكن حكمها ما يسمى (بأليان) (وهو الحاكم البوسني في العصور الوسطى) لأنها كانت منطقة بعيدة وعصية. ولقد أصبحت سلطة (أليان) تزداد استقلالية يوماً بعد يوم. وبعد أواخر القرن الثاني عشر أصبحت البوسنة دولة مستقلة نوعاً ما لأول مرة في تاريخها.

وبرز ثلاثة من حكام البوسنة خلال فترة العصور الوسطى وهم بان كولين الذي حكم البلاد من عام ١١٨٠ وحتى ١٢٠٤، وبان ستيبان (ستيفن)

كوترومانتش (١٣٢٢-١٣٥٣) والملك سيتيان تفرتكو (١٣٥٣-١٣٩١). ولقد توسعت البوسنة تحت حكم ستيبان كوترومانتش لتشمل إمارتهم (الهرسك)، ثم توسعت الحدود أكثر باتجاه الجنوب لتشمل جزءاً كبيراً من ساحل دالماسيا تحت حكم الملك تفرتكو.

لقد كانت البوسنة مقطوعة عن مركز الإمبراطورية الرومانية حتى أواسط القرن الرابع عشر مع مجيء الفرانسيسكان. ولربما انفصلت الكنيسة البوسنية عن الكنيسة الكاثوليكية في وقت مبكر من ثلاثينيات القرن الثالث عشر حيث كبر الشرخ مع روما مع ازدياد استقلالية الكنيسة البوسنية.

وخضعت البوسنة في عام ١٤٦٣ للحكم التركي. ولقد أشار معلق غربي في عام ١٥٩٥ إلى أن اللغة السلافونية أصبحت اللغة الثالثة في الإمبراطورية العثمانية. ولقد كانت عائلة سوكولو في إسطنبول، والتي خرج منها العديد من رؤساء الوزارات من أصول بوسنية. فلقد كان هناك تسعة رؤساء وزارة من أصل بوسني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ويبقى دخول جزء كبير من سكان البوسنة في الإسلام أيام الحكم التركي أحد أهم المميزات للتاريخ البوسني الحديث. ولقد أعدّ القس والزائر الرسولي الألباني بيتر مازاريتشي تقريراً في عام ١٦٢٤ أوضح فيه أنه كان هناك ١٥٠ ألف كاثوليكي، و١٧٥ ألف أرثوذكسي، و٤٥٠ ألف مسلم في البوسنة في ذلك الوقت.

ولقد قام الأتراك خلال الخمس عشرة سنة الأولى من حكمهم ببناء مسجد في سراييفو التي كانت تدعى (فرهبوسنة) وتكية (مكان إقامة الدراويش) وخاناً (مسافرخانة)، وحماماً تركياً، وشيدوا جسراً فوق نهر ميلياتسكا، وصمموا نظاماً لنقل المياه بالأنابيب، وبنوا (السراي) وهي مقر الحاكم، وهذا ما أعطى المدينة اسمها (سراييفو) وكذلك تم بناء السوق الكبير أيضاً.

ولقد جرت العادة بأن يقوم الأثرياء بتخصيص وقف لتأمين الدخل للمؤسسات الهامة (ليس فقط المساجد) والمدارس، ولكن الخانات، والحمامات، والجسور) ويُعرف هذا باسم (فاكوف) أو (الوقف) باللغة العربية. ويقول بأن ثلث الأرض المزروعة كانت ملكاً للأوقاف عندما وقعت البوسنة تحت احتلال امبراطورية النمسا والمجر سنة ١٨٧٨.

ويرد ذكر القساوسة الأرثوذكس لأول مرة خلال الثمانينات في القرن الخامس عشر. فمن المعروف أن العديد من الأديرة المنتشرة في البوسنة قد تم بناؤها في القرن السادس عشر (مثل تافنا، ولومنيكا، وبابراتشا، وأوزرن وغوستوفتش) فيما ورد ذكر دير (رمانيه) الواقع في شمال غرب البوسنة ١٥١٥.

ولقد كانت حروب البوسنة عديدة حتى إنه لا يكاد يمضي جيلان حتى تأتي حرب جديدة. إن الحرب التي لم تتمكن بعدها الإمبراطورية العثمانية من استرداد عافيتها كانت ضد النمسة خلال أعوام ١٦٨٣-١٦٩٩. لقد احتل النمساويون هنغارية تدريجياً في الفترة ما بين ١٦٨٤ و١٦٨٧ مما دفع آلاف المسلمين أن يفرّوا جنوباً بعيداً عن أراضيهم حيث غصت البوسنة باللاجئين. وقد فرّ حوالي ٣٠ ألف مسلم من (ليكا) من الغرب بحلول عام ١٦٨٧. ولقد أدى هذا التدفق للاجئين من جميع الأنحاء إلى آثار هائلة على حجم وطبيعة سكان البوسنة. فهناك تقديرات تشير إلى أن حوالي ١٣٠ ألف لاجئ دخلوا البوسنة بسبب تلك الحرب.

ولقد استطاع حاكم البوسنة علي باشا هيتشموفتش أن يهزم الجيش النمساوي في معركة بانيالوكا عام ١٧٣٧، حيث تم ترسيم الحدود الشمالية للبوسنة الحديثة خلال اتفاقية السلام التي تلت تلك الحرب، وعرفت باسم (معاهدِة بلغراد عام ١٧٣٩).

ولقد كان للحرب النمساوية التي تلت ذلك عام ١٧٨٨ تداعيات سياسية خطرة. فلقد اتفق كل من الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني وإمبراطورة روسية كاترين العظمى على الاستيلاء على الأراضي العثمانية في البلقان واقتسامها فيما بينهما. ولقد أرسى هذا العمل نمط المصالح الجيوسياسية في البلقان، والذي سوف يؤدي في نهاية المطاف إلى قيام النمسة باحتلال البوسنة في عام ١٨٧٨ وضمها للنمسة بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ.

ولقد قررت القوى العظمى في أوروبة خلال اجتماعها في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ أن تصبح البوسنة تحت احتلال وإدارة النمسة وهنغارية على الرغم من أنها مازالت نظرياً تحت سيادة وسلطان العثمانيين. ولقد بدأت عملية الاحتلال النمساوي للبوسنة، وتمت خلال ثلاثة أشهر، ولقد كانت هناك مقاومة شرسة وهجمات ثوار متكررة، ولكن لم تزد خسائر النمساويين عن ٩٤٦ قتيلاً و٣٩٨٠ جريحاً.

ولقد تسبب الاحتلال النمساوي للبوسنة في موجة من اللاجئين المسلمين هرب معظمهم إلى تركية. ولقد أصدرت السلطات النمساوية الهنغارية أرقاماً رسمية تبيّن أن حوالي ٣٢٦٢٥ مهاجراً غادروا في الفترة ما بين عامي ١٨٨٣ و١٩٠٥ بالإضافة إلى ٢٤ ألفاً آخرين غادروا بين عامي ١٩٠٦ و١٩١٨. ولكن هذه الأرقام لا تتضمن أولئك الذين غادروا بشكل غير شرعي ولا أياً من أولئك الذين هربوا خلال أربع السنوات الأولى للاحتلال وحتى ١٨٨٣. ولقد ادعى بعض المؤرخين المسلمين أن العدد الكلي للهجرة الجماعية كان حوالي ٣٠٠ ألف، ولكن يبدو هذا الرقم أعلى من المعقول.

ولقد تم في عام ١٨٨٩ تدشين الكاتدرائية الكاثوليكية من سرايفو، وتبع ذلك إقامة كنسية القديس أنتوني الجديدة في بادوا.

ولقد كان حاكم البوسنة في الفترة ما بين ١٨٨٢ و١٩٠٣ هو المؤرخ النمساوي والدبلوماسي السابق بنيامين كالاي. وكانت سياسته البوسنية تعتمد على عزل البلاد عن تأثيرات المد القومي والحركات السياسية القومية في صربيا وكرواتية وكان يعكف في الوقت نفسه على إنشاء فكرة الأمة البوسنية بوصفه عاملاً موحِّداً مستقلاً عن العوامل الأخرى. ولقد كان من المهم لفكرته كي تنجح أن يكون المسلمون هم أول من يتبنى فكرة الأمة (الشعب) البوسنية.

وفي عام ١٩٠٩ تم منح المسلمين نظاماً يتيح لهم إدارة الأوقاف، وتم انتخاب برلمان بوسني في السنة اللاحقة خلال فترة تولي الوزير العام للمالية الليبرالي باردن لوريان الذي شغل ذلك المنصب ما بين عامي ١٩٠٣ و١٩١٢. وعلى الرغم من أنها كانت مبادرة ومنحة محدودة ولم تكن تملك أي سلطة تشريعية، فإنها مكنّت العديد من المنظمات التي أنشأتها المجتمعات المحلية حينها مثل المنظمة القومية للمسلمين (١٩٠٦) والمنظمة القومية للصرب (١٩٠٧)، والجمعية القومية الكرواتية (١٩٠٨) من أن تبدأ وظيفتها كأحزاب سياسية. وعلى الرغم من أن بعضاً من رجالات المسلمين المرموقين أعلنوا عن أنفسهم على أنهم كروات أو صرب فإن مثل هذه الأعمال الفردية لم تهدد وضع المسلمين بشكل عام، والذين أصبحوا في ذلك الوقت كياناً سياسياً معتبراً.

وبعد اغتيال الأرشيدوق فرانز فيرديناند في أواخر تموز من عام ١٩١٤ قامت النمسا والمجر بإعلان الحرب على صربيا. وبدأت الحرب العالمية الأولى، التي استمرت إلى عام ١٩١٨ حيث انتهت بهزيمة دول المحور.

ولقد صدر في الثلاثين من أيار من عام ١٩١٧ إعلان يدعو فيه السياسي السلوفيني كوريشتس وبعض من زملائه إلى توحيد السلوفيين والكروات والصرب في إطار دولة واحدة. ولقد أصدر البرلمان الكرواتي إعلاناً مشابهاً في

التاسع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩١٨. ولقد كان الحزب الذي لقي تأييد كل المسلمين (إلى حد احتكار كل تأييدهم). هو منظمة المسلمين اليوغسلاف، والذي تأسس في سراييفو في شباط (فبراير) من عام ١٩١٩. ولقد كان طرحُ قائد الحزب د. محمد سباهو يتمثل في أن تحافظ البوسنة على هويتها وحدة مستقلة ضمن الدولة اليوغسلافية. وعندما أجريت انتخابات في كل يوغسلافية في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام، ١٩٢٠ فاز حزب سباهو بكل أصوات المسلمين في البوسنة تقريباً مما مكّنه من شغل ٢٤ مقعداً في الجمعية التشريعية الوطنية.

وقام الملك ألكسندر في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩ بتعليق الدستور، وأعلن أن الدولة لن تعرف بعد اليوم باسم مملكة الصرب والكروات والسلوفيين، بل إن اسمها سيصبح يوغسلافية. ولقد تم تقسيم الدولة إلى تسع مقاطعات أو وحدات داخل المملكة نفسها تقطع الحدود القديمة للمقاطعة التي تشكل الدولة اليوغسلافية. فلقد تم تقسيم البوسنة إلى أربع مقاطعات هي فربساسكا التي ضمت أجزاء من كرواتية، ودينسكا التي ضمت جزءاً كبيراً من صربيا، وزيتسكا التي كانت تتألف من الجبل الأسود وبريمورسكا مع جزء من ساحل دالماسيا. وبهذا تم تقسيم البوسنة لأول مرة منذ ٤٠٠عام. ولم يكن المسلمون البوسنيون مسرورين لهذا التقسيم أبداً، فلقد كانوا أقلية في كل من المقاطعات الأربع.

ولم يقبل الكروات بدستور ألكسندر، فبدأت مرحلة طويلة من النزاع السياسي بين الصرب والكروات استمرت عشر سنوات. وفي آب (أغسطس) من عام ١٩٣٩ توصل كل من الوزير الصربي تسفيتكوفتش والزعيم الكرواتي ماتشيك إلى اتفاق حل الهيكلة الجديدة ليوغسلافية. ولقد كانت أولى النقاط التي اتفقا عليها هي تقسيم البوسنة والهرسك، ودمج المقاطعتين الكرواتيتين

الرئيسيتين وهما سافسكا وبريمورسكا (التي ضمت أجزاءً من البوسنة الهرسك) بحيث أصبحتا مقاطعة واحدة هي المقاطعة الكرواتية، وأن على سكان باقي أنحاء البوسنة أن يقرروا من خلال استفتاء عام إذا كانوا يريدون الانضمام إلى صربيا أو إلى كرواتية.

وتوفي محمد سباهو عام ١٩٣٩ أثناء أدق مراحل المفاوضات. ولقد دعا خلفه جعفر كوليتوفتش إلى إنشاء مقاطعة خاصة بالبوسنة ولكن تم تجاهل طلبه.

وفي السادس من نيسان (أبريل) من عام ١٩٤١ قامت القوات الألمانية بغزو يوغسلافية، وأعلنوا بعد أربعة أيام عن قيام دولة كرواتية المستقلة المعروفة باختصار باللغة الصربوكرواتية (NDH)، حيث ضمت جميع أجزاء البوسنة والهرسك، لكنها لم تكن دولة مستقلة بل كانت عبارة عن منطقتين محتلتين من قبل الألمان والطليان، حيث كان الخط الفاصل بين المنطقتين يمر بشكل قطري عبر البوسنة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

ولم يكن لدى الحزب الشيوعي اليوغسلافي الذي نظم انتفاضة ضد القوات الألمانية عام ١٩٤١، أدنى فكرة عما يجب أن يكون عليه وضع المسلمين البوسنيين. ولقد كتب في عام ١٩٣٦ المفكر الشيوعي السلوفيني إدوارد كارديليه قائلاً: "لا نستطيع أن نعتبر المسلمين على أنهم شعب، ولكن على أنهم جماعة عرقية خاصة".

وفي مؤتمر الحزب الذي عقد عام ١٩٤٠

استثنى ديلاس، ميلوفان المسؤول عن سياسة القوميات في الحزب الشيوعي المسلمين من قائمة الشعوب اليوغسلافية.

ولقد كان هناك اضطهاد للأقليات وبخاصة الصرب واليهود في ما يسمى بدولة كرواتية المستقلة ما بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥. وأصدر قادة مسلمون

بـارزون خـلال صيـف وخريـف عـام ١٩٤١ سلسـلة مـن القـرارات العامـة والاحتجاجات على حكم الرعب هـذا. فلقـد ظهـرت مثـل تلـك القـرارات في سرايیفو ويريدور، وموستار، وبانيالوكا، وبيليينا، وتوزلا.

واستولى الشيوعيون على السلطة في يوغسلافية عام ١٩٤٥. وبناء عليه فلقد تمَّ إنقاذ غالبية المسلمين: فبدلاً من أن يتم ابتلاعهـم مـن قبـل صربيـا أوكرواتيـا حصلوا على حل فدرالي تبقى فيه البوسنة موجـودة. ومـا كـان أهـم مـن ذلـك بالنسبة إليهم هو نهاية القتل. فيعتقد أنه هناك حوالـي ٧٥ ألـف مسـلم بوسـني قضوا في الحرب العالمية الثانيـة وهـي نسـبة تعـادل ٨,١٪ مـن مجمـوع السـكان المسلمين. تعامل الشيوعيون بقسوة مع كل من لم يقبل بحكمهم. ويقدر المؤرخ نويل مالكولم أن حوالي ٢٥٠ ألف شخص قد قضـوا في الإعدامـات الجماعيـة التي قام بهـا تيتـو، وفي مسـيرات المـوت الإجباريـة، ومعسـكرات الاعتقـال في الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٦.

ولقد كان الدستور الاتحادي اليوغسلافي الذي أعلن في كانون ثـاني (ينـاير) ١٩٤٦ نسخة عن الدستور السوفييتي الذي أعلـن قبيـل ذلـك بعشـر سـنوات. ولقد تضمن الدستور بنوداً تؤكدعلى أن يوغسلافية سـوف تحـافظ علـى حريـة المعتقد، ولكن الأمور كـانت مغـايرة لذلـك تمامـاً عنـد التطبيـق. ولقـد أغلقـت المحاكم الشرعية في عام ١٩٤٦، وتمَّ في عام ١٩٥٠ إغلاق آخر الكتاتيب التي كان الطلاب يتعلمون فيها معلومات أساسية عن القـرآن. فلقـد تـمَّ حـل جميـع الجمعيـات الإسـلامية الثقافيـة والتربويـة، مثـل جمعيـات "غـاجريت"، "نارودنـا أوزدانيتسـا" و"بريـورد" ولـم يتـم الإبقـاء إلا علـى الجمعيـة الدينيـة الإسـلامية الرسـمية ومدرسـتين شـرعيتين تخضعـان لرقابـة مشـددة. وتـمَّ إغـلاق المطبعـة الإسلامية في سرايیفو وتولت الدولة إدارة الهيئة المشـرفة علـى الأوقـاف. ولقـد كانت هناك مقاومة سرية ضد بعض تلك الإجراءات. إذ استمر الناس في تداول

الكتب الإسلامية، وكان الأطفال يتلقون التعليم في المساجد، وتابعت بعض الطرق الصوفية والدراويش الاحتفاء بمناسباتها في المنازل، واستمرت منظمة طلابية هي منظمة الشباب المسلم في مقاومة الحملة ضد الإسلام إلى أن تمَّ سجن مئات من أعضائها ما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٠. وعلى عكس اعتقاد الحزب الشيوعي اليوغسلافي من خلال سنيّ تيتو الأولى في الحكم، فإن قضية الهوية المسلمة في البوسنة لم تختف. وإنما كان السؤال يدور حول ماهية تلك الهوية: هل هي دينية، أم عرقية، أم قومية؟

ولقد أعطى إحصاء السكان عام ١٩٤٨ ثلاثة خيارات: إما أن يكتبوا أنهم مسلمون صرب، أو مسلمون كروات، أو مسلمون دون قومية معلنة. وكانت النتائج كما يلي: فلقد أعلن ٧٢ ألف أنفسهم على أنهم صرب، و٢٥ ألفاً على أنهم كروات ولكن سجل ٧٧٨ ألفاً أنفسهم على أنهم مسلمون فقط. وأظهر إحصاء السكان لعام ١٩٥٣ نتائج مماثلة. فيما ظهر في إحصاء السكان لعام ١٩٧١ ولأول مرة عبارة "مسلم بالمعنى القومي للكلمة".

ولقد أصبح الخلل في النظام الاقتصادي الاشتراكي واضحاً بعد وفاة تيتو وتزايدت التوترات القومية. فلقد ارتفع معدل التضخم السنوي في يوغسلافية إلى ١٢٠٪ في عام ١٩٨٧ وإلى ٢٥٠٪ في عام ١٩٨٨. و وصلت ديون يوغسلافية الخارجية في نهاية تلك السنة إلى عشرين مليار دولار أمريكي. وازدادت نسبة الفقر بين السكان مما أفسح المجال أمام المتعصبين القوميين في تحريضهم على سياسات الامتعاض والاستياء.

ولقد تجمع في يوم عيد القديس فيتوس في ٢٨ جزيران ١٩٨٩ مئات الآلاف من الصرب في موقع معركة (غازمستان) قرب بريشتينا عاصمة إقليم كوسوفو كي يحتفلوا بالذكرى المئوية السادسة لمعركة كوسوفو. ولقد خاطب سلوبودان ميلوشفتش الحشد قائلاً: "ها نحن الآن في معارك ونزاعات حتى بعد مضي ستة

قرون" وأضاف قائلاً: "إن هذه المعارك والنزاعات لم تصبح مسلحة بعد ولكن لا يمكننا أن نستبعد ذلك" فهلل الحشد لذلك.

إن الجدول الصغير للأحزاب السياسية المستقلة الذي بدأ يجري في يوغسلافية في عام ١٩٨٨ تحول إلى طوفان في كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٠. فلقد انسحب الشيوعيون السلوفينيون من مؤتمر الحزب الشيوعي اليوغسلافي، وقامت كل من سولوفينيا وكرواتية بإجراء التحضيرات لانتخابات متعددة الأحزاب في ربيع عام ١٩٩٠. وقد انتصر في تلك الانتخابات تحالف ليبرالي قومي فيما فاز في الانتخابات في كرواتية الحزب القومي الجديد في كرواتية، وهو الاتحاد الديمقراطي الكرواتي بزعامة فرانيوتودجمان.

أما في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٠ في البوسنة، فقد حصل حزب العمل الديمقراطي المسلم على ٨٦ مقعداً من بين ٢٤٠ مقعداً في الجمعية التشريعية فيما حصل مسلمون آخرون بما فيهم الاتحاد المسلم البوسني بزعامة ذو الفقارباشتش على ثلاثة عشر مقعداً. وحصل الحزب الديمقراطي الصربي بزعامة رادوفان كرادجيتش على ٧٢ مقعداً.

ولقد كان ميلوشفتش يصرّح منذ أوائل ١٩٩١ بأنه سوف يضم بالقوة مناطق من كرواتية والبوسنة إذا ما حصلت أي محاولة لاستبدال الهيكل الفدرالي ليوغسلافية بترتيب آخر أكثر تحرراً وذي طابع كونفدرالي. وقامت كل من سلوفينيا وكرواتية بإعلان استقلالهما في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩١. وهكذا أصبح من الضروري للبوسنة والهرسك أن تعلن استقلالها أيضاً وإلا فإنها ستبقى جزءاً ممسوخاً من يوغسلافية وتحت السيطرة الصربية. وفي السادس من نيسان (أبريل) عام ١٩٩٢ اعترف الاتحاد الأوروبي بالبوسنة والهرسك كدولة مستقلة. ولقد كان ذلك اليوم هو نفس اليوم الذي بدأ فيه العدوان على البلاد.

وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة قد اعترفت بالبوسنة والهرسك بتاريخ ١٩٩٢/٥/٢٢ وقبلت عضويتها إلا أن حظر الأسلحة السابق الذي فُرِضَ على يوغسلافية ككل لم يُرفع. بل كان الأمر وكأن شيئاً لم يكن ولم يتغير. فلقد كان القادة العسكريون الصرب يتفاخرون بأن لديهم أسلحة وذخيرة تكفي لخوض الحرب في البوسنة والهرسك لست أو سبع سنوات قادمة، حيث لن يكون للحظر أي تأثير فعلي على قدراتهم العسكرية. ولكن على العكس منهم كان للحظر تأثير كبير على دفاعات البوسنة، حيث يمكن اعتبار أن حظر الأسلحة بالنسبة لدفاعات البوسنة هو حكم بالإعدام على المدى الطويل.

وسرعان ما ضغطت الحكومتان الأمريكية والألمانية من أجل رفع الحظر، ولكن عارض وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد الفكرة بشدة، مدعياً أن ذلك "لن يؤدي إلا إلى إطالة أمد الحرب" فلم يتم رفع حظر الأسلحة، ولكن استمر القتال، وطال أمده إلى نهاية عام ١٩٩٥. فلقد انتهى القتال في الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٩٥ مع توقيع اتفاقية دايتون للسلام، التي تمَّ التوقيع عليها في باريس في الرابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٥.

الفصل الأول

مرحلة الشباب وفترة السجن الأولى

مرحلة الطفولة ومرض الوالد. طالب مدرسة عادي. أولى بوادر الإيمان والشك. الصرب يصلون إلى سدة الحكم. قرية أزيتشي المختلطة. فار من التجنيد. الشباب المسلمون. وصول الشيوعيين إلى السلطة. الصدام مع الشيوعيين. مبدأ "المساواة" الشيوعي. فترة سجن ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة. خالدة.

تبدو سني طفولتي بعيدة جداً الآن، تماماً كما لو كنت أنظر إلى الجبال في يوم صاف حيث باستطاعتي أن أرى رؤوس الجبال بشكل جيد ولكن ليس التفاصيل. إن الحياة ليست قصيرة فإني أجدها طويلة.

لقد ولدت قبل خمسة وسبعين عاماً في بوسانسكي شاماتس في منزل يطل على أكبر نهرين من أنهار البوسنة وهما نهر البوسنة ونهر السافا. وانتقلنا إلى سراييفو عندما كان عمري سنتين حيث انتظمت في المدرسة هناك. ولقد مررت يوماً بمبنى المدرسة التي أمضيت فيها ثماني سنوات من مرحلتي الطفولة والمراهقة. إنها المدرسة الثانوية الأولى للذكور أو ثانوية البرنامج العام. لقد كانت مدرسة مشهورة وكان الذي يتخرج منها يتحدث عن ذلك بفخر كبير.

وحصلت على درجة البكالوريوس في الحقوق في سراييفو مع أنني بدأت بدراسة تخصص الاقتصاد الزراعي في بادئ الأمر، ولكني قمت بتحويل

تخصصي إلى الحقوق بعد السنة الثالثة. أنتمي إلى عائلة كبيرة. فلقد كان لدى والدي ثلاث بنات وولدين من أمي وأنا أكبر الولدين ولكن تكبرني أختاي. وكان لدي أيضاً أخوان غير شقيقين من زوجة أبي الأولى التي توفيت قبل أن يتزوج والدتي في عام ١٩٢١.

ولدينا في العائلة ما يثبت أننا جئنا من بلغراد في نهايات القرن الماضي. فلقد وُلِد جدي هناك في بيت أخبرني المرحوم عمي أنه كان موجوداً في شارع فرانتسوسكا (فرنسة) حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن تم هدمه بعد ذلك من أجل إعادة الإعمار بعد الحرب. ولقد تزوج جدي الذي خدم في الجيش التركي من فتاة تركية تدعى (صدِّيقة) ولدت في إسكيودار إحدى ضواحي إسطنبول على الطرف الآخر من مضيق البوسفور. ولقد كان أبي يفهم بعض التركية، ولكنه على ما أذكر لم يكن قادراً على التحدث بها.

ولقد كان هذا يزعج والدتي أحياناً كونها لن تستطيع أن تفهم ما يدور في محادثاتهما بما أنها لا تتكلم التركية.

ولقد تأثرت طفولتي بمرض والدي. فلقد أصيب إصابة خطيرة في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الإيطالية في بييافه. ولقد تطورت هذه الإصابة إلى نوع من الشلل فيما بعد، حيث إنه أصبح حبيس الفراش في آخر عشر سنوات من حياته. ولقد اعتنت المرحومة والدتي به عناية جيدة، وكنا نحن الأطفال نساعد قدر الإمكان، ونحن نكبر ولدينا قدر كبير من الحرية.

لقد كانت عائلة والدي ثرية فيما مضى، حيث عمل هو بنفسه تاجراً في بوسانسكي شاماتس، ولكن سرعان ما انهار عمله في ظروف غامضة. ومن ثم انتقلنا للعيش في سراييفو حيث كانت الحياة أصعب بكثير بالنسبة إلينا، ولكن كان لذلك عدة فوائد؛ منها أننا حصلنا على التعليم فلو بقينا في بوسانسكي شاماتس لما كان الحصول على التعليم ممكناً.

لقد كانت المرحومة والدتي امرأة ورعة، ويعود الفضل في التزامي الديني إليها إلى حد ما. فلقد كانت تستيقظ دوماً وقت صلاة الفجر وتوقظني أيضاً كي أذهب إلى المسجد المحلي وهو مسجد هجيسكا بالقرب من البلدية. ولقد كنت أتثاقل عند الاستيقاظ في ذلك الوقت لكوني مازلت ابن اثني عشر إلى أربعة عشر عاماً، ولكنني كنت دائماً مسروراً عند عودتي بعد الصلاة، خاصة في أيام الربيع حيث كانت الشمس مشرقة. وفي المسجد كان هناك إمام مويزينوفتش العجوز. لقد كان دائماً يتلو سورة الرحمن الرائعة في الركعة الثانية من صلاة الفجر. إن المسجد بين أزهار الربيع، وصلاة الفجر، وسورة الرحمن، وذلك الإمام العالم الذي يوقّره جميع أهل الحي، كانت كلها صوراً جميلة ما زلت أراها بوضوح من بين ضباب السنين التي مضت.

ولقد كنت أجمع صفات والدي في كل شيء. فمن الناحية الجسدية كنت أشبه أمي وأخوالي، وهذا ما لم يسعدني لأنني كنت أريد أن أشبه والدي الذي كان أنيقاً وذا بنية جيدة. ولكنني كنت أشبه والدي من حيث الشخصية، فلقد كان جميع أقارب أمي منفتحين واجتماعيين بينما كنا نحن أبناء عائلة عزت بيغوفتش انطوائيين وقليلي الكلام.

ولقد كانت عائلة والدتي تحترم والدي كثيراً على الرغم من أنه جاء ليعيش بين أقارب والدتي في سراييفو. فعندما كان هناك نزاع عائلي أو مشاكل زواج فإنه كان يقوم بدور الحكم أو القاضي في فض النزاع. وكنت أعلم أن كل العائلة تنصت لما يقول، وكان هذا مثار إعجابي. وكأي طفل كنت أحب والدتي، وكنت لا أستطيع النوم عندما كانت تذهب مع والدي لزيارة ما حتى يعودان، فلقد كنت أبقى مستيقظاً إلى ساعة متأخرة أنتظر سماع صوتهما. وقد أكون في بعض الأحيان متعباً جداً فأغط في نوم عميق لكنني سرعان ما أستيقظ حالماً أسمع صوت فتح الباب ووقع خطوات أقدامهما عند دخولهما إلى المنزل.

لقد كنت شاباً يافعاً عندما حررت نفسي من تأثير والدي وأصبحت أعيش وفقاً لاختياري أنا. ولقد بدأ الشك يتسرب إلى إيماني عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري. وقد كنت أتحدث مع زملائي في تلك الأيام عن أي شيء وكنا نخوض في أي شيء. فلقد قرأنا كتابات شيوعية وإلحادية. وكانت يوغسلافية مليئة في تلك الأيام بالدعاية للأفكار الشيوعية حيث كان يتم توزيع المنشورات بشكل غير شرعي من شخص لآخر. وقد كان الشيوعيون يتقنون عمل ذلك. لقد كانت الشيوعية ردة فعل لظهور الأفكار الفاشية في أوروبة، ولكن لم تكن الشيوعية تفهم ما الديموقراطية. بل كانت في يوغسلافية حركة معادية للفاشية، وأيديولوجيا مضادة، وكانت فكراً لا يقل استبداداً عن غيره من الأفكار التوتاليتارية الاستبدادية. وإنما ظهرت التوتاليتارية الاستبدادية (الحمراء) لمواجهة التوتاليتارية الاستبدادية (السوداء).

لقد كان الشيوعيون ناشطين في مدرستنا الثانوية حتى إنه كان هناك عدد من المدرسين الذين ينتمون سراً إلى الحركة الشيوعية. ولقد وقعت يدي على بعض المنشورات التي كان يتم توزيعها سراً في غرف الصف، وبدأت أتفكر في مشكلة العدالة الاجتماعية، أو اللاعدالة كما كنت أراها حينها، وفي الله. فلقد كان الشيوعيون يروّجون لفكرة انعدام العدالة الإلهية نظراً لأن الشيوعيين رأوا الدين على أنه "أفيون الشعوب" وأنه وسيلة لتسكين وتهدئة تذمر الشعب حتى لا يكافحوا من أجل حياة أفضل في عالم واقعي. ولقد كان سهلاً جداً أن يقع المرء في شباك هذه الفكرة، ولكن لم أتقبلها مع ذلك. فلقد كنت أرى دائماً وبوضوح أن رسالة الدين هي روح المسؤولية. وهي نفس الرسالة التي يوجهها إلى الملوك والأباطرة: عليكم أن تتحلوا بروح المسؤولية، فحتى لو لم يكونوا يخافون السلطات كونها بيدهم، فإن الدين يخبرهم بأنهم مسؤولون عن كل ما يرتكبونه من عنف، وأنه لا مفر من الحساب. إنَّ كوناً بلا خالق ودون وجود الله هو كون بلا معنى بالنسبة إليَّ.

وهكذا عاد إيماني واستقر بعد فترة تأرجح لمدة عامين، ولكنه عاد على شاكلة أخرى. إن العديد من الثوابت الإيمانية نابعة عندي من تلك الشكوك التي ساورتني أثناء فترة الشباب. ولم يعد الإيمان هو ذلك الدين الذي ورثته عن أبوي، بل لقد أصبح ديناً جديداً تماماً اعتنقته عن قناعة وفهم. ولم أفقد إيماني به أبداً.

ولقد كتبت عدة مقالات فيما بعد حول مرحلة الشك والتردد تلك، ولكنني وجدت أن هذه المقالات هي إثبات إيماني لنفسي أنا وليس للآخرين.

ولقد تقلبت أيام المدرسة ما بين أن أكون طالباً مجداً في بعض الأحيان ومهملاً في أحيان أخرى. فقد كنت أدرس بمثابرة لفترة من الوقت، ثم أنسى أمر الكتب تماماً في فترات أخرى. فلقد تمَّ إعفائي من التقدم لامتحانات الصف الرابع لأنني أبليت بلاءً حسناً، ولكن تبع ذلك الحصول على معدل متدن في الصف الخامس. لقد كان ذلك بسبب مادة التاريخ على الرغم من أنني أحبّ مادة التاريخ جداً. ولذا فقد ألقيت باللوم على أستاذ التاريخ لحصولي على علامات سيئة. لقد كان أستاذ التاريخ رجلاً طويلاً جداً من صربيا. وكان يتحدث (الإكافية) وهي اللهجة الشرقية في صربيا، وغالباً ما قام بالتندر والاستهزاء بهذا الطالب المسلم أو ذاك. ولقد اعتقدت أن هذا كان سبباً كافياً كي ألومه على حصولي على علامات سيئة.

ولقد اعتمدت اعتماداً كبيراً على القراءة بدلاً من الدراسة عندما أصبحت في الصفوف الثانوية. فكنت أقرأ كل الأعمال الفلسفية الأوروبية الهامة، وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمري. ولم يعجبني هيغيل حينها، ولكني غيرت وجهة نظري فيما بعد. وأما الأعمال التي تركت أثراً فيّ وانطباعاً لدي فكانت كتاب بيرغسون (التطور البنّاء الإبداعي) و(نقد العقل المجرد) لكانت، وكتاب شبنغلر (انحطاط الغرب) الذي يقع في مجلدين.

لكنني لم أهجر المدرسة بالكلية فلقد أنهيت المدرسة في صيف عام ١٩٤٣ في منتصف الحرب العالمية الثانية بعد معركتي ستالينغراد والعلمين وقبيل الإنزال الأمريكي في صقلية وخالد كايتاز. ما زلت أذكر صوراً حية للحرب، ومشاهد سنتيّ الخطر والعوز الصعبة. وأذكر على سبيل المثال هنا مجاعة عام ١٩٤١ الكبرى، فلقد كنا نجوع أكثر مما نشبع حينها. ثم تحسنت الأمور فيما بعد بسبب تجار السوق السوداء الذين قاموا بتهريب كميات كبيرة من الغذاء إلى المنطقة. لقد كان كل شيء متوقفاً: لا بيع ولا شراء باستثناء السوق السوداء التي كانت تعمل وتدر ربحاً خيالياً. وتولى السلطة في سراييفو الأوتاشا (وهم نظام موال للنازية) ولقد كان من المفروض بعد إنهائي الامتحانات الثانوية العامة أن ألتحق بالخدمة العسكرية، ولكني لم أفعل ذلك. وأصبحت بدلاً من ذلك فاراً من التجنيد، وتمكنت من البقاء مختبئاً طوال عام ١٩٤٤. وعلمت في أحد الأيام أن السلطات العسكرية كانت تبحث عني فهربت إلى بوسافينا منطقة مسقط رأسي. وإن حادثة هروبي هذه لهي قضية بحد ذاتها، وإنها تجربة فريدة وفيرة مهمة في ربط وتسلسل الأحداث أثناء الحرب. فلقد رأيت وتعرفت على الكثير من المجموعات أثناء الحرب مثل التشتنيكوالأوتاشا، والأنصار، وحتى نحن المسلمين (فلقد كانت هناك ميليشيات إسلامية مسلحة تنشط في شمال البوسنة).

ولكننا قضينا أيضاً أوقاتاً ممتعة خلال مرحلة طفولتي. فلقد كنا نتردد كثيراً على أحد المنازل الذي ورثته والدتي في قرية أزيتشي في ستوب بالقرب من سراييفو. كان ذلك المنزل أو ما يسمى دجابيناكولا قد دُمِّر خلال الحرب الأخيرة. كان بيتاً أبيض يمكن للمرء رؤيته عن بعد ورؤية نوافذه الزرقاء النيلية على الجهات الأربع. ولقد كان في الحديقة شجرة وهي أكبر أشجار مروج سراييفو بالإضافة إلى بئر رومانية. وكنا نذهب في العطلة الصيفية إلى هناك

واستمرَّ الحال على هذا المنوال سبع أو ثماني سنوات ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٤٠ وكنا نذهب في بداية الأمر برفقة والدينا قبل تدهور صحة والدي. وبعدها أصبحنا نذهب هناك برفقة خالتي الأرملة تاركين والدينا وراءنا في سراييفو. لقد كانت أيام الصيف الريفية تلك هي أفضل أيام حياتي دون شك. ولقد كانت فترة الصباح فيها جميلة بشكل خاص وقد أصبحت هذه القطعة من الأرض التي كان عليها منزلنا على خط الجبهة خلال الحرب الأخيرة، ولكنّ تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي قضيت عليها أجمل أيام طفولتي بقيت تحت سيطرتنا وعلى بعد ٥٠ إلى ١٠٠ متر من الخنادق على خط الجبهة الأول.

لقد كانت آزيتشي قرية مختلطة فيما يخص الانتماءات الدينية والقومية. لقد كانت هناك عائلتان مسلمتان في القرية فيما كانت باقي العائلات إما أرثوذكسية أو كاثوليكية. وكان فيها كنيسة كاثوليكية دُمرت في الحرب، ولقد كانت الاحتفالات الشعبية تجري فيما مضى أمام تلك الكنيسة. وعندما أحاول أن أفهم وأحلل هذه الحرب فإني أتذكر على الفور صور أزيتشي، وذلك الخليط الديني من السكان. فعلى ما أذكر كان هناك احترام متبادل بين الجميع. أذكر أنه عندما كان جارنا ريستوبيريان وهو أحد المُلاك الصرب يمشي في القرية كان يسلم على كل امرأة يراها في حديقتها، ولكنه كان يدير وجهه للجانب الآخر عندما يسلم على النساء المسلمات كي لا يخدش أو يخالف تعاليم الإسلام بهذا الخصوص. هذا ما كان عليه الوضع بين الناس في آزيتشي بينما كانت الأمور مختلفة عن ذلك في الحكومة.

ولقد كان المقر الرسمي للبان (حاكم البوسنة) بين الحربين العالميتين بالمعنى الذي أستخدمه الآن وأنا عضو في مجلس رئاسة البوسنة والهرسك. ولقد كان اسم المقاطعة بدءاً من عام ١٩٢٩ مقاطعة دريتسكا وعاصمتها سراييفو. وكان البان الذي يحكمها صربياً على الدوام. وكان أول هؤلاء الحكام الصرب

للمقاطعة هو فيلمير بوبوفتش، وخلفه ليوبا دافيدوفتش، ومن ثم حاكم بنفس الاسم ليوبا، وآخر فيلمير، وكلها أسماء صربية، حيث كان الحكام دائماً من صربيا. وأذكر شيئاً مهماً في هذا الصدد: لقد كان معظم أساتذتي في المرحلة الابتدائية من الصرب. فلقد كانت معلمتي في الصفين الأول والثاني هي السيدة شوشلتش العجوز وهي من صربيا وكنت أحبها كثيراً. وأصبح أستاذي في الصف الثالث هو يبيليتشار وفي الرابع أصبح كرستتش وهما أيضاً صرب. ولقد كان هناك أستاذ مسلم عمل في مدرستنا لفترة قصيرة هو موهيتش. لقد كانت الحال مشابهة في كل مدارس البوسنة: لقد كانت محاولة متعمدة (لصربنة) المسلمين. فلقد كانوا يدرسوننا عن الملك ألكسندر الصربي الذي اغتيل في مرسيليا سنة ١٩٣٤ عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي. وكان على كل بيت في المدينة أن يقوم بتعليق علم أسود حداداً على مقتل الملك. وأذكر أن العلم الأسود بقي معلقاً على منزلنا من تشرين الأول (أكتوبر) حتى نيسان (أبريل): فلقد ظلت المدن تبدو كالغربان السود لمدة ستة أشهر من كثرة الأعلام السود المعلقة. وعلاوة على ذلك كان على الأطفال من جميع الديانات أن ينشدوا في بعض المدارس أناشيد عن القديس سافا (وهو القديس الخاص بالصرب). ثم أُلغيت هذه الممارسة فيما بعد، ولكن حتى عند ذلك كان دائماً يتم الاحتفال بيوم السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) على أنه عيد القديس سافا "منوِّر الشعب".

ولقد كان جميع رؤساء البلديات تقريباً وبخاصة رؤساء الأقاليم كانوا صرباً. واستمر ذلك حتى تاريخ توقيع تفاهم (تسفيتكوفتش–ما تشيك) حول تقسيم البوسنة – حيث تمَّ ضم أجزاء من البلاد لتصبح جزءاً مما كان يسمى بالمقاطعة الكرواتية قبيل الحرب العالمية الثانية بقليل. ولم يسفر التقسيم عن شيء حيث إنه سبقه غزو بولندة، واندلاع الحرب العالمية الثانية، ووصولها إلى يوغسلافية.

ولقد استمرت السيطرة الصربية المطلقة في ظل نظام الحكم الشيوعي. وحارب الحزب الشيوعي ذلك في بداية الأمر بوصفه حزباً يعادي النزعة القومية. إلا أن الصرب استولوا على السلطة من خلال أساليب أخرى: لقد قاموا بالانضمام إلى الحزب الشيوعي. إن انعدام التوازن القومي أو بعبارة أخرى سيطرة الصرب على كافة مؤسسات الحكم أدى في نهاية المطاف إلى انتفاضة السلوفينيين والكروات وتفكك يوغسلافية. ولقد كان مسلمو البوسنة منقسمين؛ فبدلاً من أن يكونوا مسلمين أو بشناق، كانوا إما مسلمين صرباً لديهم جمعيتهم الثقافية الخاصة (غاجريت)، أو مسلمين كرواتاً وشكلوا جمعية (نارودنا أوزدانيتسا) الخاصة بهم. وكانت هذه أيضاً محاولة لتقسيم البوسنة بين الصرب والكروات وهي المحاولة التي ستأخذ منحىً دموياً فيما بعد.

تعرفت على جماعة تعرف باسم "الشباب المسلم" قبيل سقوط يوغسلافية بيد الألمان. وكانت الجماعة تتألف من شباب معظمهم من طلاب جامعتي زغرب وبلغراد بالإضافة إلى بعض من طلاب المدرستين الثانويتين الأولى والثانية. وكانت إحدى المجموعات التابعة لهم تتألف من كل من طارق موفتيتش،طالب يدرس تخصص الغابات، وإسعاد كارادزو جوفتش، طالب في كلية الطب قتله الشيوعيون عام ١٩٤٥، أمين غرانوف طالب في كلية الهندسة، وهوسرف بشاغتش طالب هندسة مدنية غادر يوغسلافية عام ١٩٥١ ولم يعد إليها أبداً. وكان هناك من المجموعة أيضاً شاب يدرس الاقتصاد الزراعي واسمه إساف سرداريفتش. والذي قتله الشيوعيون أيضاً عام ١٩٤٤. ولقد قدّموا أفكاراً توافقت مع ما كنت أريد سماعه دوماً عن ديني الإسلام. لقد كان طرحاً مختلفاً عما تعلمناه في الكتاتيب، التعليم الديني الذي تلقيناه في المدرسة، والمحاضرات التي حضرناها والمقالات التي كنا نقرؤها في مجلات تلك الأيام. إنني أنظر إلى ذلك الطرح على أنه يقدم فهماً للدين يوضح العلاقة ما بين

الشكل والمضمون أو الجوهر بينما كنا نرى أن رجال الدين يعنون فقط بالطقوس أو أشكال العبادة ويهملون مضمون الإسلام وجوهره.

حاولنا في آذار (مارس) ١٩٤١ أن نؤسس جمعية الشبان المسلمين، وأن نسجلها بناء على التعليمات المطبقة تلك الأيام. فعقدنا مجلساً تأسيسياً تمَّ فيه تعيين مجلس لإدارة الأمور، ولكن عندما قام الألمان بغزو يوغسلافية في نيسان (أبريل) من نفس العام لم نتمكن من تسجيل الجمعية أبداً.

كانت معاداة الفاشية والشيوعية هي التي حددت أولويات حركة الشباب المسلم. فلقد كان النظامان الفاشي المُجسَّد بشخصية هيتلر والشيوعي في شخصية ستالين هما السمة العامة للنظام العالمي في ذلك الوقت. لقد كان الغرب جزءاً مهماً من المشهد ككل، ولكن كانت الفاشية والشيوعية هي التوجيهات الجديدة التي تتطلع إلى تدمير أو تغيير العالم القديم. ثم اتضح فيما بعد أن ذلك كله كان مجرد وهم، حيث استمر ما يسمى بالعالم القديم ليقوم بتغيير نفسه بنفسه.

لقد كان العالم الإسلامي يسير في طريق سيئ عندما ظهرت الحركة الشبابية المسلمة في أوائل الأربعينات. وكان هناك عدد قليل حينها من الدول المسلمة التي نالت استقلالها. واعتبرنا أن ذلك وضع سيئ ونظرنا إلى الإسلام على أنه فكرة حيّة يجب أن تحدِّث بعض الجوانب فيها بينما تحافظ على الجوهر. لم نكن مسرورين من كيفية سير الأمور في العالم الإسلامي الذي كان يسيطر عليه الأجانب عبر سطوة جيوشهم أو رؤوس أموالهم.

ولقد انتشرت منظمتنا بسرعة بين الشباب وبخاصة شباب الجامعات والمدارس الثانوية. وكان لدينا مئات من المؤيدين في كل مدينة من مدن البوسنة والهرسك، وجماعة طلاب قوية في زغرب أيضاً. وكان هناك خلال فترة الحرب بين ١٩٤١-١٩٤٥ أشبه ما يكون باتفاق غير معلن بتجنب المواجهة بيننا وبين

سلطات تلك الأيام. فلقد كنا نتفادى المواجهة المباشرة على الرغم من أننا كنا نعدُّ في المعارضة. وقد قلصت نشاطي في عام ١٩٤٤، وذلك لأنني لم أكن مسروراً من قيام المنظمة بعقد حلف مع منظمة علماء الدين (الهداية). ولم أتفق أبداً مع رابطة العلماء على الرغم من أنني أحترم الكثير منهم. لقد كنت أعتقد أنه لا ينبغي أن يكون هناك طبقة اجتماعية خاصة حكراً على العلماء أو المشايخ، وأن هؤلاء يمثلون ويروجون فهماً للإسلام بشكل يعيق تطوره الداخلي والخارجي.

لقد عبّرت عن آرائي تلك على الملأ وكانت النتيجة أنني اتهمت. ثم استأنفنا نشاطنا بعد نهاية الحرب مما أثار سخط السلطات الشيوعية. فحاولوا أن يثنونا عن عزمنا، وعندما لم يفلحوا بدؤوا باعتقالنا في أوائل عام ١٩٤٦ أو نحو ذلك.

كنت أرغب في أن أصبح محامياً حتى عندما كنت طفلاً. لقد كان طموحاً شاباً لديّ منذ أيام المدرسة. وعندما أردت الالتحاق بكلية القانون بعد خروجي من السجن عام ١٩٤٩ بعدما قضيت نحو ٣٦ شهراً هناك أقنعني خالي شكري بعدم القيام بذلك. وكذلك كان أبي يعتقد أنني لن أفلح في سلك القانون لكوني سجيناً سابقاً؛ لأن الشيوعيين لا ينسون ولا يغفرون، فالتحقت بتخصص الاقتصاد الزراعي حيث تابعت دراستي فيه لمدة ثلاث سنوات، اجتزت فيهنَّ ثلاثة عشر امتحاناً. لقد كنت طالباً نجيباً في تخصص الاقتصاد الزراعي، ولكنني فقدت الاهتمام والرغبة مع مضي فصول وسنوات الدراسة، ومن ثم قمت بالانتقال إلى تخصص الحقوق. ومع ذلك فإنني لا أنظر إلى السنوات الثلاث على أنها وقت ضائع. فلقد اجتزت امتحانات في الرياضيات والمساحة، واستصلاح الأراضي وحتى أربع امتحانات في الكيمياء العضوية، وغير العضوية والتحليلية والزراعية.

وأذكر إحدى التجارب في الكيمياء دون غيرها. لقد كانت النظرية القائلة بأن المادة والطاقة ثابتتان، وهي نظرية كانت سائدة أيام دراستي على الرغم من أن آينشتاين قد أثبت أن الأمر لم يكن كذلك. فلقد كان قد نشر حينها نظريته عن تحرير طاقة هائلة ونقصان الكتلة اللذين يحدثان عند انشطار الذرة. وهو ما عبر عنه في معادلته المشهورة $E=mc^2$ قبل ذلك بوقت طويل في عام ١٩٠٥، ولكن ومع ذلك فنحن مازلنا بعد ٣٥ عاماً من تلك النظرية ندرس الفيزياء النيوتونية ونعيش في عالم نيوتن: لقد كان عالماً منطقياً، ثابتاً، أحادي التوجه، ومستقيماً لقد عمل أينشتاين على تغيير تلك الفرضيات. إن الكون ملتوٍ، وإن الزمان والمكان نسبيان، وإن الطاقة متغيرة. ولقد أثبتت القنبلة الذرية فيما بعد أن هذه المفاهيم غير المعقولة كانت صحيحة، وأطلقت في الوقت نفسه عصر النسبيّة. وأعتقد أن ذلك كله كان له تأثير قوي على روح العصر، حيث تمت إعادة تشكيل نسبي للكثير من المفاهيم الواسعة الانتشار. إن ذلك هو السبب الذي جعلني أعتقد أنني عشت في حقبتين تاريخيتين مختلفتين. حيث كانت مرحلة شبابي تنتمي إلى الحقبة الأولى، فيما كانت مرحلة نضوجي وشيخوختي ضمن الحقبة الأخرى.

وفي نيسان (أبريل) من عام ١٩٤٥ دخل الشيوعيون سراييفو، وبدأت بذلك فترة حكمهم التي استمرت خمسة وأربعين عاماً. وقد نظمنا نحن الشباب المسلم تظاهرة ذلك العام بمناسبة تنظيم الجمعية المسلمة (بريبوردو) التي أراد الشيوعيون السيطرة عليها. وألقينا خطابات نارية معادية للشيوعية. وصفق لنا العديد من الحضور بحرارة وهتفوا لنا. مما أدى إلى اعتقالي مع آخرين مباشرة.

لقد كان واضحاً بعد "ثورتنا" هذه أن شرطة أمن الدولة اليوغسلافية ارتأت أنه من الأفضل أن تبقينا تحت المراقبة حيث قاموا بإطلاق سراحنا في اليوم التالي.

ولقد مضينا بعد ذلك في اجتماعاتنا قدماً حيث إنني كنت مندفعاً وشاباً طائشاً في العشرين من عمري، ولم نحسب حساب الحقيقة، وأنهم قد راقبوا كل شيء مما مكنهم من اعتقالنا بعد عدة أشهر ومن تقديمنا للمحاكمة. ولقد تمَّ اعتقالي في الأول من آذار (مارس) مع ١٤ آخرين ممن لهم نفس ميولي الفكرية وحكم علينا بالسجن ثلاث سنوات. ولم يكن الحكم مناسباً مقارنة بما كان سيلي ذلك، فلقد كنا أول مجموعة من الشبان المسلمين تمَّ توجيه التهم إلينا ومن ثم سجننا.

ولقد قرر الشيوعيون أن يغيروا في موقفهم وسلوكهم تجاه حركة الشبان المسلمين عندما تيقنوا أن المنظمة آخذة في التوسع على الرغم من الملاحقات والاعتقالات. ولقد كانت جميع الدلائل تشير إلى أن فكرة الشباب المسلم كانت توافق هوى في نفوس الناس وبخاصة الشباب منهم. ولقد تمَّ اعتقال مجموعة أخرى وأصدرت أحكام بحقها في عام ١٩٤٧، وتبع ذلك اعتقال مجموعة في العام التالي، وفي عام ١٩٤٩ اتخذ قرار بمواجهة نهائية مع الحركة. فلقد تمَّ اعتقال حوالي ألف شخص في البوسنة والهرسك. وكانت تلك الفترة هي أيام (الكومينفورم) أنصار ستالين واصطدام يوغسلافية مع ستالين، فلقد كانت السلطات تواجه ضغوطاً من ستالين باتهامه لها بالتراخي في قمع العناصر المناهضة للشيوعية. ولقد كانوا حريصين على أن يبرهنوا له على عكس ذلك. وقاموا بملاحقة واضطهاد كل من أنصار ستالين وأعضاء حركتنا، ولكن يمكن القول إن أنصار ستالين خرجوا من المواجهة بوضع أسوأ من الذي آلت إليه حركتنا. إنه من الصحيح أن بعضاً من أعضاء حركتنا صدرت بحقهم أحكام بالإعدام خلال محاكمات عام ١٩٤٩ إلا أن أنصار ستالين وجدوا معاملة أقسى بكثيرمن الناحية الإنسانية. فلقد تعرضت جماعتنا إلى تجارب مريرة ولكنهم لم يتعرضوا للإهانة والإذلال الذي تعرض له أنصار ستالين. كان أفراد حركتنا يتم

اعتقالهم ومن ثم يقررون إما الموت وإما الإذعان، أما أنصار ستالين فلقد تعرضوا إلى غسيل دماغ من قبل السلطات من أجل كسر شوكتهم أيديولوجياً (عقدياً).

كان الأكبر سناً بين رفاقنا الذين حكموا بالإعدام هو حسن بيير الذي كان يبلغ من العمر حينها ٢٧ عاماً. أمّا أصغرهم فكان نصرت الذي لم يكمل العشرين من عمره. ولقد قدمت عائلته التماساً يطلبون فيه الرحمة معللين ذلك بأن ابنهم كان مايزال طفلاً. ومع ذلك لم يلن قلب السلطات، ولقد وشّح رجل يعتبره الشيوعيون أنه "مهتم بحقوق الإنسان" الالتماس بتوقيعه رافضاً الإذعان لأهل نصرت. لقد كان ذلك الرجل هو موشا بييادو الذي كان يرأس اللجنة التنفيذية الدائمة في الحزب. وكان أحد أعضاء الحركة القومية الصربية هو غافلريلو بيرنينتس قد اغتال أرشيدوق النمسة فرانزمرديتا في عام ١٩١٤ في سراييفو. وعلى الرغم من أنه اغتال ولي العهد وزوجته الحامل فإن برنينتس لم يُحكَم عليه بالإعدام؛ لأنه لم يكن قد بلغ الحادية والعشرين من عمره. ولقد كان موشا بييادو "الإنساني" هو واضع القانون الجنائي اليوغسلافي الذي يسمح بإيقاع عقوبة الإعدام على القاصرين الذين هم في سن ١٦ إلى ١٨ سنة. ولقد وقع الشبان ضحية لهذا التشريع والممارسة، ولم تكن جريمتهم سوى أنهم كان لديهم رأي مخالف.

ولقد تنوعت التهم التي كانت توجه إليهم مثل الإرهاب الذي لم يرتكبوه قط. ومن المعروف جيداً الآن أن كل أنشطة المسلمين كانت تتمثل في الكتابة، والمراسلات والاجتماعات كنوع من المقاومة السيكولوجية والكلامية لنظام الحكم الشيوعي.

ولقد أمضيت ثلاث سنوات في السجن في الفترة ما بين آذار من عام ١٩٤٦ وآذار من عام ١٩٤٩. ولا يمكنني القول: إني قد تعرضت للتعذيب سوى بقائي جائعاً جداً معظم الأوقات.

ولقد تمَّ احتجازي في ثكنات المارشال تيتو العسكرية في سراييفو أثناء استجوابي قبيل إجراء المحاكمة، حيث كان المبنى قريباً من مبنى كلية الهندسة موقع المحكمة العسكرية. ولقد وضعت في غرفة نصف من فيها حكم عليهم بالإعدام، وكانوا ينتظرون نتائج الاستئناف الذي تقدموا به. لقد كان معظمهم مجرمين أو لصوصاً تشتنيك في أيام الحرب. ولقد قال جميعهم عندما حكم علي بثلاث سنوات سجن: إن ذلك ليس شيئاً هاماً إذا ما قورن بالآخرين. ومع ذلك فإن ثلاث سنوات في حياة طولها ٦٠ أو ٧٠ عاماً لهي أكثر من مجرد ألف يوم وألف ليلة. ولقد تمَّ نقلي بعد شهرين إلى سجن ستولاتس حيث بقيت هناك لمدة سبعة أشهر، ومن ثم تمَّ إرسالي إلى موقع إنشاءات بما أنني سجين لمدة قصيرة. وهناك على مواقع البناء عند بحيرة يوراتشكو عملت في إنشاء مبنى مركز للشرطة السرية، حيث كان أعضاء الشرطة السرية في أيام تيتو يذهبون هناك أثناء عطلهم. ومن ثم عملت لفترة في سراييفو في مشروع إنشاء المقر المستقبلي للجنة المركزية للرابطة الشيوعية. فلقد حملت بيدي الكثير من الطوب والإسمنت المستخدم في بناء تلك البناية. ولقد تمَّ نقلي خلال السنة الثالثة من سجني إلى معسكر على الحدود مع هنغارية في مزرعة ليلية قرب بيلي مناستير.

ولا يعرف المرء ما ينفعه وما يضره في الحياة. فلو لم يتم سجني في عام ١٩٤٦ وهو ما اعتبرناه أنا وعائلتي أمراً كارثياً، لكنت حتماً قُتِلت خلال عام ١٩٤٩ كما قُتِل المرحوم خالد كايتاز الذي تولى منصبي في المنظمة بعد اعتقالي. فلقد حُكِمَ على خالد بالإعدام رمياً بالرصاص في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٤٩. وهكذا أنقذ السجن حياتي. ومن ثم كان هناك النفي إلى الحدود الهنغارية. فلقد أرادوا معاقبتي بأن أرسلوني إلى مكان يبعد ٤٠٠ كم عن عائلتي، ولم يعرفوا أن ذلك سيكون في صالحي. لقد كانت

مزرعة كبيرة ومليئة بالطعام. فلقد كانت هناك أكوام كبيرة من البطاطا في كل مكان، كنا، نحن السجناء، نشويها ونأكلها.

لقد عملت هناك حطاباً. وأصبحت ماهراً في تلك المهنة بحيث إنني استفدت منها بعد ذلك في كسب الرزق كلما اضطررت لذلك. ولقد أصبحت أعمل في الأحراش وهي من أكثر الوظائف والأعمال الكبيرة التي عملت بها، وراقت لي من دونها كلها. ولقد أمضيت شتاء ١٩٤٨-١٩٤٩ كله في التحطيب وقطع الأخشاب. فلقد كنا نقطع الخشب لاستخدامه وقوداً، وكان يجب أن يتم قطعها بالمنشار اليدوي ليصبح طول كل قطعة متراً واحداً مقصوصة ومكدّسة. ولقد كان هناك نسبة يومية يجب إنجازها. وبما أن الطعام كان متوافراً بكثرة فلقد كنا نوقد ناراً ونشوي البطاطا. وهكذا كانت مدة ستة الشهور الأخيرة من فترة سجني مدة مريحة على عكس ما أراده رجال الشرطة السرية. وعندما أنهيت مدة سجني أصبح عمري ٢٤ عاماً وعادت إلي عافيتي وصحتي. وبكى أهلي من الفرح عندما رأوا أنني على ما يرام. وفعلاً: لقد كان العبد في التفكير والله في التدبير. فلقد قضى الله بأمر على عكس ما أراده رجال الشرطة السرية.

وبعد خروجي من السجن بفترة ليست بطويلة تزوجت بفتاة تعرفت إليها وأنا ابن ثمانية عشر عاماً. لقد كانت خالدة جميلة جداً، وهو ما لا يمكن قوله عني أنا. فلقد التقينا خلال الحرب، وكنا نلتقي كلما دوت صفارات الإنذار. ولقد تكرر ذلك كثيراً لعدة مرات في اليوم أحياناً، لأن الطائرات البريطانية التي كانت تقلع من إيطالية كانت تمر بسماء سراييفو في طريقها لقصف أهداف في هنغارية. ولقد قاموا في بعض الأحيان بإسقاط حمولتهم المدمرة على سراييفو. وبينما كان يهرع الناس ويهربون إلى الملاجئ كنت أنا وخالدة نبقى خارجاً في الشارع، نجلس على حجر، أو على أقرب مقعد، وكلنا إيمان بأنه لن

يحدث لنا شيء. لقد كنا كلانا الوحيدين اللذين كانا يسعدان لسماع صوت تلك الصفارات.

ولقد داومنا على تبادل الرسائل العاطفية طيلة فترة سجني حيث كانت تلك الرسائل تحتوي على كلمتين تتكرران دائماً وهما الحب (إلى الأبد) مصطلح يستخدمه الناس دونما استشعار لمعناه ووطأته. وأتخيل أن المسؤولين في رقابة السجن كانوا مندهشين من قراءة رسائلنا الملأى بكلمات عذبة. ولكن ذلك لم يزعجنا أبداً. فلقد أطلقنا العنان لمشاعرنا التي أججها الفراق والمعاناة.

ولقد كانت أول مرة أدرك فيها جمال امرأة هو عندما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري. ولقد كنت صبياً أرافق أمي في زياراتها كي لا تضطر للعودة وحدها. ولقد صحبتني في إحدى المرات إلى حفل زفاف في منزل إحدى الشيخات، حيث كانت تتم مراسم عقد النكاح. لقد كانت العروس جميلة جداً وكانت مغطاة بالذهب. ولقد بدت ساحرة بالنسبة إلي، ولم أستطع أن أخفض بصري عنها. هل كان ذلك مجرد إعجاب بحت؟ وأذكر أنني شعرت بنوع من الذنب بعدها.

وسرعان ما أحاطت بي نسوة العائلة بعد زواجي. بالإضافة إلى زوجتي خالدة رزقني الله ببنتين هما ليلى وسابينا، وبعد ذلك خمس حفيدات: لقد أصبح هناك ثمان من الجنس اللطيف في عائلتنا. ولقد رأيت عن كثب كيف كانت النساء يقضين حياتهن وما المشاكل التي كانت تواجههن. وحمدت الله على أن خلقني ذكراً، وبدا لي أنني أدين بنوع من التضامن مع النساء لأنهن النصف الأقل حظاً من المجتمع.

لقد ولدت أول حفيدة لي (سلمى) قبل أربعة وعشرين عاماً. إنني أحبها حباً شديداً ولقد تولد لدي شعور تجاه تلك الطفلة لم يكن لدي قبلها ولا بعدها. وأتذكر أمراً لطيفاً ومضحكاً كان لها دور فيه. فلقد حدث وأن

اضطررت للسفر إلى ليبيا والمكوث هناك مدة أسبوعين. وكانت ابنتي وزوجها وسلمى الصغيرة التي لم تبلغ عامين بعد قد ذهبوا إلى شاطئ البحر، ولم أرهم منذ أسبوعين. والآن كان علي أن أسافر ولا أرى سلمى لأسبوعين آخرين، ولم يكن ذلك ليرضيني البتة. ولقد ألححت على زوجتي بأن نذهب إلى البحر ولو ليوم واحد لرؤية سلمى ومن ثم نعود إلى سرايفو قبل أن أغادر إلى ليبيا. وأذكركم كانت خالدة غاضبة حينها ولسبب وجيه. فلقد كان علينا أن نستقل القطار، ومن ثم نركب قارباً إلى الجزيرة التي كانوا يقضون الإجازة فيها، ومن ثم نؤشر لإحدى السيارات كي تقلّنا كونه لم يكن هناك حافلات لنقل الركاب وكل ذلك في يوم صيفي حار. وأعتقد أنني كنت واحداً من الذين يجدون السعادة بسبب مسحة من الجنون لديهم.

وعاودت الانضمام لمنظمة الشباب المسلم بعد إطلاق سراحي عام ١٩٤٩ بمساعدة المرحوم حسن بيبر أحد أعضاء المنظمة البارزين. ولقد عرفت حسناً ورأيته لمدة تقل عن ٤٠ يوماً، حيث اعتقل في الحادي عشر من نيسان (أبريل). ولقد عرفت بعدها أن حسناً تعرض لضغط شديد كي يقر ويعترف بأنني قد انضممت ثانية للمنظمة. ولو أنه رضخ واعترف لكنت قد حصلت على حكم أطول بالسجن مرة ثانية. ولكنه صمد وأنكر أنه يعرف عن الموضوع شيئاً. وكذلك قال آخرون: إنهم لا يعرفون شيئاً، وهو ما كان واقعاً بحقهم. ولقد تمت محاكمة حسن بيبر في تموز من عام ١٩٤٩ ونُفِّذَ فيه حكم بالإعدام رمياً بالرصاص في تشرين الأول (أكتوبر).

كانت تلك المحاكمة جزءاً من المواجهة النهائية حيث كانت هناك اعتقالات واسعة في جميع أنحاء البوسنة، بدأ ذلك في غارة على مقر المنظمة في موستار في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ حيث تمت مصادرة ملفات ومحاضر اجتماع سرية. وتبع ذلك اعتقال مجموعة كبيرة من طلابنا في زغرب تبعها سلسلة من

المحاكمات كانت أكبرها وأكثرها مأساوية هي محاكمة سراييفو في تموز (يوليو) – آب (أغسطس) من عام ١٩٤٩. وبعد ذلك بفترة وجيزة تمَّ اعتقال صديقي العزيز ورفيقي تشامبارا أشرف الذي كان يعمل معلماً ومازال حياً حتى اليوم، وحُكِمَ عليه في سراييفو بالسجن لمدة أربع سنوات مع الأشغال الشاقة. لقد كانت هذه هي المرة الثانية التي يدخل فيها السجن حيث تمت إدانته في محاكمة ١٩٤٦ أيضاً. وعندما أقوم بجمع الأحكام الصادرة بحق الشباب المسلم في محاكمات تلك الفترة فإن الرقم يصل إلى آلاف السنين من مدد المحكومية. ولقد دُمِّرت المنظمة تماماً بفعل محاكمات عام ١٩٤٩-١٩٥١ وتم إيداع قادتها السجن فيما هرب الباقون أو اختبؤوا، مما كان يعني عملياً أن المنظمة لم تعد قائمة. وما بقي هو مجرد أفراد حافظوا على الفكرة لأنفسهم فقط. فكان الأصدقاء يلتقون ولكن بحذر وترقب شديدين. وكان ذلك نهاية الأنشطة المنظمة.

لقد واجه الشيوعيون أوقاتاً عصيبة في تنظيم أمور الحكم ناهيك عن أمور حياة الناس اليومية. ولقد أصبحوا مهووسين أكثر فأكثر بملاحقة خصومهم السياسيين فلقد كانت هذه هي طبيعة النظام الشيوعي من الصين إلى يوغسلافية. وعندما أنهيت فترة سجني وخرجت في ربيع عام ١٩٤٩ أي بعد أربع سنوات من نهاية الحرب وجدت سراييفو في حالة يرثى لها. ولقد كان الحال مشابهاً في جميع أنحاء البلاد. وإنني أتذكر بوضوح لحظة رأيت المدينة لأول مرة بعد فترة السجن، وأتذكر كم كان الأمر مروعاً عندما رأيت ما رأيت.

وعند مغادرتي للمعسكر على الحدود الهنغارية طلب إلي أحد السجناء السياسيين مثلي الذي كان يعمل مفتش تذاكر في (الترامواي) أن أوصل رسالة إلى زوجته. ولقد أوضح لي أن زوجته تعمل في محل بقالة في شارع يقع بين جسر القيصر وباشتشارشيا، وذهبت في اليوم التالي بعد عودتي أبحث عن زوجته. فوجدتها في المحل، وأخذت أقلب نظري في المحل بينما كانت هي

تقرأ الرسالة. ولكن لم يكن في محل البقالة شيء سوى خمس أو ست صناديق لفت أبيض. لقد كان الجو بارداً وكانت المرأة وصاحب المحل يضعون بطانيات لتدفئتهم حيث لم يكن هناك أي علامة على وجود تدفئة في المكان، وعندها سألتهما: "ماذا تبيعون هنا؟" فقالوا "ما تراه أمامك" حيث أخبروني أيضاً أنه في بعض الأحيان يتوافر لديهم بعض البطاطا، وعندما يحصل ذلك فإنك ستجد طابوراً أمام المحل فوراً. ومع ذلك فقد كان البعض "أكثر حظاً" من الآخرين. فكل ما كان متوافراً للناس العاديين الذين هم الأغلبية الساحقة من السكان وهو بعض الطحين، والسكر، والزيت، والملابس التي كان يتم شراؤها جميعاً بواسطة الكوبونات (قسائم). أما القلّة المحظوظة فقد كان هناك ما يسمى بالمحلات الوزارية، وتتألف من ثلاث طبقات، كانت أخت زوجتي تعمل في إحداهن وكان اسم المحل (الرقم ٣) مخصصاً للطبقة الثالثة من أولئك المحظوظين أصحاب الامتيازات. لقد كانت محلات (الرقم١) مخصصة لأسراب الطبقات العليا السياسية والعسكرية. ولقد كان يوجد كل شيء في تلك المحلات، بدءاً بالحليب الأمريكي المبستر وانتهاءً بكل أنواع الشوكولاته. لقد قلّد اليوغسلاف الروس في قضية توفير الرعاية الخاصة للطبقة الحاكمة. ففي واقع الأمر لقد كان هناك في بلاد ما يسمى (بالاشتراكية الحقيقية) وهي الاتحاد السوفييتي والبلدان التي تدور في فلكه، احتكار أفراد الحزب بسبب نظام التسمية. وهو عبارة عن قائمة بأهم المناصب السياسية والاقتصادية والثقافية التي لا يملك أحد إلا الحزب حق إعطائها أو حجبها عن أفراد معينين. ولقد كان نظام التسمية يتألف في واقع الأمر من قائمتين: واحدة بالمناصب التي يمكن الوصول إليها بموافقة الهيئة الحزبية المناسبة، فيما تتضمن الثانية قائمة بالأفراد الذي من الممكن تعيينهم في تلك المناصب. ولقد كانت كلتا القائمتان للنشر داخل أروقة الحزب فقط. إن الامتيازات التي كان يتم منحها لطبقة الحكم، والمعزولة عن الآخرين، كانت مرتبطة بنظام التسمية تتضمن (أجوراً عالية، وحجرات خاصة عند السفر في القطار، مدارس منفصلة، حرية الوصول إلى المؤسسات الطبية المغلقة في وجه

الآخرين، متاجر منفصلة وهكذا)، وكان يتم توزيع تلك الامتيازات حسب الرتبة، حيث تتناقص كمية وجودة ومدى تنوع الأشياء المعروضة كلما انخفضت الرتبة. ولقد قامت إيفابيركوفتس في كتاب لها بعنوان (التفاوت الاجتماعي في يوغسلافية)[1] بوصف نظام مشابه في بلدنا يشمل الأجور المرتفعة، و(الفلل)، والشقق، والسيارات، والمنتجعات الصيفية المدعومة، وهكذا دواليك حيث كانت تبدأ على المستوى الفدرالي ثم مستوى الجمهوريات كل على حدة ثم على مستوى البلديات المحلية. ولقد كتبت بير كوفتش تقول: "إن أي نقاش أو خوض في مسألة الامتيازات سواء في العلن أو داخل أروقة الحزب كان ممنوعاً باعتباره عملاً ضد الدولة وضد الاشتراكية، وأعتقد أنه أصبح من الواضح أن وجود نظام التسمية جعل من مبدأ الانعقاد غير ذي معنى مما حوله إلى مهزلة ينخدع بها السُّذّج".

لقد كانت متاجر سرايفو خاوية ولكن كانت السجون ممتلئة وخاصة من أنصار ستالين، والشباب المسلم، والساخرين. ولقد قام الشيوعيون بإنشاء معسكر اعتقال جديد في تشينغتش فيلا بعدما امتلأت سجون يوغسلافية القديمة ونظام الأوتاشا السابق. ولقد كان ذلك المعسكر يعرف باسم (المعسكر ٥٠٥) حين كان فيه آلاف السجناء. وبقيت الأمور على حالها حتى عام ١٩٥٢. فلقد كانت هذه هي العدالة السياسية والاجتماعية اليسارية! ولقد حكم يوغسلافية فعلياً حتى عام ١٩٦٦ قائد الشرطة الكسندر رانكوفتش ولم تتحسن الأمور إلاّ قليلاً في الفترة من ١٩٧٥ - ١٩٧٨، بعد أكثر من ثلاثين عاماً على الحكم الشيوعي، حيث أصبح المرء يشعر بشيء قليل من الحرية. ولكن ذلك جاء كله على حساب تنامي الديون الخارجية الّتي وصلت إلى ٢٠ مليار دولار مع انعدام حرية الكلام.

(١) هذه العبارة مقتبسة من (مزرعة الحيوانات) للكاتب الإنجليزي جورج أورويل الذي يهاجم فيها مساوئ الشيوعية والاشتراكية وكيف أن الحيوانات المسيطرة على المزرعة كانت تقول "الجميع متساوون ولكن بعض الحيوانات أكثر مساواة (محاباة) من بعضها الآخر". (توضيح المترجم)

الفصل الثاني

محاكمة سيرايبيفو

(البيان) الإعلان الإسلامي. حركة الثماني والستين. الإسلام بين الشرق والغرب. تأملات في حياة فاشلين كبار. اعتقالي في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٨٣ . التهم والمرافعة. الشهود يسحبون إفاداتهم. حكم بالسجن ١٤ عاماً. مرتكب الجنحة الكلامية. عريضة مثقفي بلغراد. سجن فوتشا. مع القتلة المجرمين في زنزانة واحدة. والألبان في سجن فوتشا.

التحقت أخيراً بكلية الحقوق في عام ١٩٥٤ حيث تخرجت في تشرين ثاني من عام ١٩٥٦ محققاً بذلك رغبة وحلم أيام الشباب.

كانت معظم الأعمال التي عملت بها لكسب الرزق هي من قطاع الإنشاءات، فلقد عملت مدة عشر سنوات في شركة إنشاءات لها سبعة فروع في الجبل الأسود، حيث كنت رئيساً لأحد المواقع لإنشاء محطة توليد الطاقة الكهروهيدروليكية في بيروتشيكا بالقرب من نيكشيتش. قامت الشركة التي أعمل فيها بإنشاء نفق ضغط كبير يبلغ طوله حوالي أربعة كيلومترات، والجسم الداخلي من المحطة، وخط الأنابيب الذي يغذي المولدات في محطة توليد الطاقة الكهروهيدروليكية في غلافا زيبته، وقامت أيضاً بعمل قناة التغذية، وردم الهوّات الكبيرة في سهل نيكشتش بحيث يتم توجيه جميع المياه من نهر زيتا إلى النفق ومن ثم إلى المولدات.

وكنت أعكف في ذلك الوقت على كتابة بعض المقالات عن الإسلام. ولم ينشر معظم تلك المقالات. ولقد أنهيت مسودة كتاب البيان (الإعلان الإسلامي)، في عام ١٩٦٩، حيث قمت بنشر النسخة الأخيرة والمعدلة في عام ١٩٧٠. ولم ينتبه أحد إلى هذا النص المكون من أربعين صفحة سوى بعد محاكمة سراييفو عام ١٩٨٣. فلقد هاجمه الكثيرون حينها ودافع عنه الكثيرون أيضاً.

وعلى الرغم من أنني كتبته في سراييفو، إلا أن جُل اهتمام الكتيّب كان منصباً على العالم الإسلامي، وليس يوغسلافية. حتى إنه لا يوجد ذكر ليوغسلافية في ذلك النص. وتدور الفكرة الرئيسية في الكتيّب حول المبدأ القائل: إن الإسلام هو وحده الذي يستطيع إعادة إحياء القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة بحيث يمكنهم مرة أخرى من أن يلعبوا دوراً فعالاً وإيجابياً في صنع تاريخهم.

إن الأفكار الغربية غير قادرة على فعل ذلك. ولقد هوجمت هذه الرسالة على أنها أصولية حيث إنها كانت كذلك فعلاً، ولكن من وجهة النظر التالية: لقد دعت إلى العودة إلى الأصول والمنابع، ونددت بأنظمة الحكم القمعية، ودعت إلى مزيد من الإنفاق على التعليم، وشجعت على تحسين وضع المرأة، ودعت إلى الابتعاد عن العنف، وضمان حقوق الأقليات. ولقد تلقى الغرب الكتيّب بشيء من التحفظ. وأعتقد بأنهم لم يقدروا أن يتحملوا وجود الإسلام في صميم الحل وصلب الموضوع.

ولقد اجتاحت حمّى حركة الثماني والستين العالم قبيل كتابتي لكتيّب (الإعلان الإسلامي) بقليل. كانت حركة (الثماني والستين) حركة من المثقفين الشباب المشبعين بأفكار اشتراكية قاموا بالثورة ضد المؤسسة القائمة. لقد أرادت الحركة أن تحقق شيئاً في تلك اللحظة من التاريخ. لقد أرادوا العودة

بالحياة إلى ماضٍ مثالي. ولقد أظهرت الأحداث فيما بعد بما فيها الحركة المحافظة في الغرب والصحوة الدينية والعالم أن مُثل ومبادئ حركة عام ١٩٦٨ كانت لا تمت للواقع بصلة ولا لمسار التاريخ بشكل عام. وفوق ذلك فإن مبادئ حركة ٦٨ لم تكن نفس تلك المبادئ والمثل الدينية التي كانت في بدايات القرن العشرين، بل أصبحت تلك المبادئ تعاني من عبء وتراكمات الأخطاء في التطبيق والممارسة.

ولقد شرعت خلال الفترة في كتابة (الإسلام بين الشرق والغرب). وأستطيع القول: إنني قد شرعت في ذلك الكتاب قبل ذلك بكثير ومنذ عام ١٩٤٦ قبل دخول السجن بقليل. فلقد بقيت المخطوطة الأصلية للكتاب مخبأة لأكثر من عشرين عاماً. قامت أختي أزارا (التي توفيت عام ١٩٩٧) بإخفاء المخطوطة بعد اعتقالي مباشرة حين خبأتها تحت العوارض الخشبية في عليّة منزلنا. وعندما عثرت عليها فيما بعد كانت عبارة عن لفة أوراق شبه مهترئة. قمت بإضافة معلومات جديدة وأعدت كتابتها وصياغتها وأرسلتها إلى صديق في كندا. وقام ناشر أمريكي بنشر الكتاب أخيراً في عام ١٩٨٤ عندما كنت في السجن أقضي مدة سجني الثانية لمدة ١٤ عاماً مع الأشغال الشاقة.

لقد كان هدفي في ذلك الكتاب هو أن أدرس المكانة التي يحتلها الإسلام في أفكار وحقائق عالم اليوم. ولقد بدا لي أن الإسلام يقع ما بين التفكير الشرقي والغربي تماماً كما هي حال الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي، حيث يقع ما بين الشرق والغرب. ولقد حاولت أن أبيّن أن بعضاً من الأفكار العامة والقيم هي أفكار وقيم تشترك فيها الإنسانية جمعاء. وفيما يلي محتويات الكتاب ملخصة بشكل موجز: يوجد هناك ثلاث وجهات نظر عالمية ولا يمكن أن يكون هناك أكثر من تلك الثلاث. وهن وجهة النظر الدينية، والمادية، والإسلامية. فلقد خلق كل شيء أزواجاً. إن الإنسان كائن ثنائي يتألف من الجسد والروح وإن

الجسد هو مجرد "حامل" للروح. ولقد تطور "الحامل" مما يعني أنه أصبح له تاريخ، ولكن لم تتطور "الروح" فلقد أملتها إرادة الله. وإن الجسد هو مدار اهتمام العلم فيما يهتم الدين والفن والأخلاق بالجزء الثاني. ولذلك فإن المرء يجد دوماً حقيقتين وروايتين عن طبيعة الإنسان. ويمثل هاتين النظريتين في الغرب كل من داروين ومايكل أنجلو. وليس لدى داروين ما يقوله عن إنسان مايكل أنجلو، وكذلك الثاني ليس له ما يقوله عن "إنسان" داروين. إن حقيقتيهما مختلفة لكن دون استثناء كليّ للطرف الآخر، وتعبر كلتا الحقيقتين عن نفسيهما من خلال المقابلة ما بين الحضارة والثقافة مع مرور الوقت.

وينتمي العلم والتكنولوجيا إلى عالم الحضارة فيما ينتمي الدين والفن إلى عالم الثقافة. إن العالم الأول يعبر عن الاحتياجات الإنسانية (كيف أعيش)، فيما يعبر الآخر عن الآمال والتطلعات البشرية (لماذا نعيش). إن هذا تناقض أيضاً ما بين عالم الكمال وعالم المآسي. إن عالم الكمال لا يعترف بالفرد، والمأساة، والأخلاق. إن الدراسة التحليلية والتأمل نشاطان روحيان مختلفان ولكن مع نقاط مركزية متقابلة: وإن نقطة تركيز الدراسة ذات توجه نحو الظاهر والخارج والطبيعة فيما يركز التأمل على الداخل وعلى الروح والنفس. إن كل أسلوب علمي سوف يقود إلى نفي الإله ونفي الإنسان بينما يتمسك الفن بالدين. فإذا لم يكن هناك إله فليس هناك بشر. ومن دون البشرية فإن مصطلحات مثل الإنسانية والكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان تصبح مجرد عبارات جوفاء. فيما لا تعترف الحضارة بمفاهيم الواجب، بينما تؤكد الثقافة على حق الضحية. إن هدف الحضارة هو إمبراطورية أرضية دون طرح مبدأ المساواة المثالي بينما يطلع الدين إلى "مملكة السماء" وهذا هو نفس المبدأ الذي يتحدث عنه مفهوم "مدينة الشمس" (Civitas Solis) لكامبانيلا في مقابل مفهوم "الجنّه" (Civitas Dei) للقديس أوغستين. ولا يمكن أن يكون هناك نظام

أخلاقي دون وجود الله، لأن الأخلاق هي شرط حسّي أساسي يفرضه الدين. وفيما يمكن اعتبار الحضارة أنها تطور فإن التاريخ والدين والفن لا تنطوي على تطور حقيقي. فلقد بدأ الدين نقياً وكاملاً منذ بدايته ودعوته للتوحيد. ويمكن أن يطرأ على من يمارسونه انحرافات عبر التاريخ كما هي الحال مع الفن والأخلاق. ولذا فإنه لدينا مثال المقابلة ما بين عيسى عليه السلام والكنيسة. إن كل قانون هو قانون مزدوج حقاً. وإن الطب ليس علماً صافياً. إن رسومات الإنسان القديم في الكهوف أو الأقنعة التي كان يستخدمها سكان منطقة جزر بولينزيا هي أعمال في جوهرها فن معبر ويوازي الابتكارات الحديثة. إن الحياة البشرية ككل داخلة ضمن الازدواجية هذه، حيث يمكن للمرء أن يجد علاماتها في كل ظاهرة ترتبط بين البشر. وهنا يكمن أيضاً الفرق من الناحية الروحية بين العهد القديم والعهد الجديد، وما بين موسى وعيسى عليهما السلام. فلقد كان موسى قائداً لشعبه فيما كان عيسى واعظاً للأخلاق. وهناك أيضاً تكمن الفروقات في أهداف وأنظمة عدالتهما المختلفة وهذه الأهداف هي أرض الميعاد للأول فيما كان الثاني يركز على مملكة السماء. إن البشرية والإسلام يجمعان هذين النقيضين بين النصرانية واليهودية. إن الإسلام هو تجميع ومقاربة، وهو الطريق الثالث الذي يشق خط سيره بين هذين القطبين اللذين يشكلان كل ما هو مهم للبشرية.

ويجب أن أعترف أنني كنت أخشى من الخبراء وقراءتهم الممحصة للكتاب سطراً بسطر. فلقد كنت واثقاً من أن القارئ الذي يتبع الصورة المجملة التي أحاول أن أقدمها أو أشير إليها في الكتاب سوف يجد فيه أكثر مما سيجد القارئ ذو العقل التحليلي المتعمق. وكنت أدرك أن محاولتي لتوضيح الصورة كانت أضعف مما كان يجب أن تكون عليه، وإنها كانت في بعض الأحيان غير مترابطة وحتى حدسية. فلقد أضفيتُ على عدد من المصطلحات المألوفة معاني

مجازية بدلاً من التقليدية المعروفة مثل: اليهودية، والنصرانية، والإسلام. وهكذا دواليك فلقد كنت أعتبرها مجرد مجازات واستعارات ذات معنى عام وليس خاصاً. فمثلاً كنت أنظر إلى الإسلام على أنه "الطريق الثالثة" مجازاً في كل مناحي الحياة عبر معادلة ترضي الشخصية الإنسانية. وفي واقع الأمر لم يكن الكتاب أكثر من مجرد شهادة وإقرار بنظرة خاصة عن العالم.

ولقد استمتعت بتحديد وتعريف وتوضيح المتوازيات الجديدة مثل الصدفة والتناسق، الفرضية ونقيضها، ومع ذلك لم يكن هذا هو الموضوع الذي أثار اهتمامي بشكل عميق. فلقد كانت هناك قضية واحدة تستحوذ على اهتمامي أكثر من أي قضية أخرى وهي قضية المشاهير من الفاشلين. إنني كنت ولا زلت أنظر إلى هذه القضية على أنها أعمق مشكلة دينية. ويمكن التعبير عنها وطرحها من خلال عدة طرق: أولها هي من أين جاء التمييز بين العنصرين المأساوي والعاطفي المثير للشفقة في عالم داروين وإقليدس؟ وما طبيعة الفاشلين العظام ولماذا نحترمهم إذا ما كانت هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي سنعيشها؟ هل كان كل من أنتيغونه وسقراط وعيسى فاشلين حقاً؟ وإذا ما كانوا كذلك فلماذا هم بنظرنا شخصيات عظيمة؟ ما أصل إعجابنا وتقديرنا للأبطال الذين يسقطون في المعركة وهو الشعور الذي واكبنا منذ أن نظم شعراء ما قبل التاريخ ملحمتي (الإلياذة) و(غلغامش)؟ ألا تقوم أرخص أفلام الغرب الأمريكي باستغلال تعاطفنا مع شفقتنا على الضحية (الخاسرة أو الفاشلة) وحبّنا لمقاومة الأمور الذاتية المحسومة بدقة؟ إن الشفقة تجاه الضحية هذا شيء لا نجده في الفكر، ولكن في الروح فقط، وما أعنيه بالروح هنا "هو ذلك الشيء الذي هو ليس من هذا العالم" وأقول: إن الشفقة ليست تفهماً؛ لأن ذلك لا يكون فهماً أو تفهماً. لا يوجد هناك قدر كافٍ من التوضيح العقلاني، والتأمل والتفكير، الحصافة والذكاء من شأنه أن يوضح أو يبرر حالة واحدة من التضحية بالنفس

في سبيل الحقيقة والعدالة. إنه شيء قريب ومستوعَب لكل نفس إنسانية، لكنه لا يمكن تفسيره من خلال كل العلوم والفلسفة التي لدينا. ولا يوجد هناك توسط ما بين العمل المقبول والعمل المستحسن، ولا يوجد أيضاً تقسيم للأسباب ما بين مؤيدة ومعارضة. ويمكن أن يذهب المرء إلى أبعد من ذلك ويقول: إنه قد لا يوجد هناك فاصل زمني بين الاثنين، إن القيام بذلك العمل هو رد فعل فوري للروح تجاه العدالة والخير اللتين هما شيئان متطابقان مع الروح نفسها. فلا يوجد مكان لما هو مأساوي. والمأساة في عالم يعتبر الملحدون أنه العالم الوحيد الموجود ولا شيء بعده. وبالتالي فإنهم يرون أن ما يحدث في هذا العالم هو مجرد حوادث، صدف، سوء حظ. وتجسد المأساة لنا نفسها في هذا الإطار على أنها مثل ديني أخلاقي. فما يحدث في المأساة هو أن الأشرار يسقطون فيما تعاني الأرواح الصادقة والعظيمة.

وبما أنه لا يوجد إجراء متعارف عليه فكرياً كي نطلق على هؤلاء الخاسرين لقب مجانين أو معتوهين، فإن القصة كلها ونهايتها المأساوية تظهر وكأنها الفصل الأول فقط في مأساة أكبر، وهي من الكبر بحيث لا يستطيع أحد أن يفكر فيها وبتفاصيلها إلا الله سبحانه وتعالى. ولذا فإن المعاناة والموت هما مجرد وقفة قصيرة بين فصلين من فصول المسرحية على عكس ما يعتقده العقل حين نعتبر الموت والمعاناة نهاية كل شيء. إن إعجابنا بناء على تعاطفنا مع الأبطال الذين يسقطون في أرض المعركة يصبحان بلا معنى تماماً من الناحية العقلية، ولكن ولهذا السبب بذاته فإن القضية قضية دينية بغض النظر عما كنا ندرك ذلك أم لا. فعندها فقط يصبح للموت أو الفشل أو الخسارة معنى مختلف تماماً.

ولقد أفردت لتلك المسألة صفحات عديدة في كتابي (الإسلام بين الشرق والغرب) باحثاً عن حل عبر طرق متنوعة، ولكني لم أخلص إلى جوانب مقنعة. وما زالت هذه القضية مستحوذة على تفكيري حتى هذه اللحظة.

لقد كانت مشكلة البلقان وما زالت مشكلة ديمقراطية. فإذا ما وضعنا التاريخ البعيد جانباً، وركزنا على قرننا الذي انتهى للتو لوجدنا أنه وخلال النصف الأول من القرن العشرين كان كل بلد في هذا الجزء من العالم تحت حكم ملكي استبدادي، وقد رزحت جميعها بعد الحرب العالمية الثانية تحت الحكم الشيوعي باستثناء اليونان. وباختصار فلم تكن دول البلقان محظوظة فيما يتعلق بالديموقراطية، أو لعلي أقول: إن الديموقراطية لم يكن لها حظ في البلقان.

إن تلك البلدان التي كانت تطلق على نفسها لقب بلدان اشتراكية تطورت بأشكال مختلفة فيما بعد. إن ما يدهش المرء فعلاً هو التأثير القوي لقادة تلك البلدان على بلدانهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعاً يشتركون في نفس المنظومة الأيديولوجية إلا أن الظروف المعيشية للناس العاديين تفاوتت من بلد لآخر اعتماداً على زعيم ذلك البلد مثل جيفكوف (بلغارية)، وخوجا (ألبانيا)، وتشاوتشيسكو (رومانية) وتيتو (يوغسلافية) حيث كانوا أربعة رجال مختلفين وأربعة أنظمة حكم مختلفة، لكن ذلك لم يغير من الطابع الاستبدادي لجوهر أنظمتهم.

ولقد استقبل تيتو في زيارته الأخيرة إلى مكان صيده المفضل في بوغونيو من عام ١٩٧٩ كلاً من سيرانكو ميلولتش ورائف ديزدارفتش وهما من القيادات الشيوعية البوسنية البارزة. ولم يكن صعباً على المرء أن يستخلص المواضيع التي تم مناقشتها في لقائهم من خلال أخبار تلك الليلة. فقد بث تلفزيون سرايبفو في نشرة الأخبار الرئيسية الرسالة التهديدية ليوسيب بروز تيتو. لقد طلب حرفياً من ميكولتش وديزاريفتش أن يقمعا وبكل قسوة "أية محاولات لإحياء القومية والوحدة الإسلامية في البوسنة والهرسك". وبدأت القبضة الحديدية تعود من جديد لتطغى على جو التراخي والليونة الذي فرض نفسه في بداية السبعينات.

وبدأت حملات وسائل الإعلام وخطبها الرنانة بهجوم على حسين دجوزو، العالم الإسلامي المعروف. وعندما اعتقلته الشرطة فلقد نأى المجتمع الإسلامي

رسمياً وعلناً بنفسه عن دجوزو. ومنذ ذلك الحين انسحب دجوزو ليعيش في عزلة تامة جاعلاً من الصمت سلامه، ومن ثم توفي إثر نوبة قلبية بعد وقت ليس بطويل.

لقد كان دجوزو صديقي. لقد عملت معه وتمكنت بمساعدته من أن أنشر مقالات في إحدى مجلدات المفكرة الإسلامية (التقويم)، ولقد كنت أوقع مقالاتي تلك بالأحرف (ل. س. ب) وهي الأحرف الأولى من أسماء أطفالي (ليلى، وسابينا، وبكر). وكانت تلك عبارة عن مقالات تتناول مشاكل النهضة الإسلامية. حيث كنت أتفق في تفكيري حيال تلك القضايا مع تفكير دجوزو.

ولقد ازدادت الأمور سوءاً بعد وفاة تيتو في عام ١٩٨٠ حيث بدأت أزمة كوسوفو، وأصبحت المحاكمات تعقد للألبان بصورة شبه يومية. ولم يكن لبعض الأصوات الغربية التي انتقدت تلك المحاكمات أي تأثير يذكر. فلقد أصبح الغرب معتاداً على مثل هذه التصرفات والإجراءات من قبل الشيوعيين، بالإضافة إلى أنه كان مهماً الإبقاء على يوغسلافية بعيدة عن الاتحاد السوفييتي. ولقد كانت كل الدلائل تشير إلى أن الاعتقالات السياسية ستبدأ من البوسنة مرة أخرى.

واستيقظت صباح الثالث والعشرين من آذار (مارس) عام ١٩٨٣ على قرع أحدهم بعنف على باب شقتي التي تقع في الدور الثالث في ١٤ شارع حسن كيكتش. وعندما فتحت الباب اندفع نحو الداخل مجموعة من حوالي عشرة من أفراد الشرطة السرية اليوغسلافية. وقال أحدهم: "نحن من أمن الدولة" ودخلوا إلى الشقة دون أن يخلعوا أحذيتهم وأظهروا لي مذكرة التفتيش التي بحوزتهم. ولقد بحثوا وقلّبوا في أشيائي، وفتشوا خلف كل شيء، وقطعوا الستائر وبحثوا في كل مكان، كما لو أنهم كانوا يعلمون بوجود متفجرات في الشقة. ولقد كان اهتمامهم الأكبر منصباً على كتبي وأوراقي حيث قاموا بتجميعها كلها في كومة واحدة.

واستمر التفتيش حتى إلى ما بعد العصر، ومن ثم أمروني أن أتوجه معهم إلى مقر قيادة أمن الدولة. وأعلموني عندما وصلنا إلى هناك أنه سوف يتم احتجازي لمدة ثلاثة أيام. ومن ثم تم تمديد المدة إلى ثلاثين يوماً ومن ثم إلى مدة غير محددة بانتظار المحاكمة. ولقد تم نقلي بعدها إلى سجن المقاطعة الذي قام النمساويون ببنائه قبل نحو مئة عام.

واستمرت عمليات الاستجواب أكثر من مئة يوم، وأستطيع أن أضيف مئة ليلة أيضاً كون الاستجواب الليلي كان غالباً ما يتكرر. ولقد أمضيت مئة اليوم تلك في زنزانة مساحتها ٤م × ٢م منها شباكان صغيران عليهما قضبان حديدية، يطلان على بئر السجن المركزي.

ولقد تم اعتقالي واستجواب المئات من جميع أنحاء البوسنة والهرسك. وكان واضحاً أن المحققين لم يكونوا مهتمين بمعرفة الحقيقة، بل كانت مهمتهم هي أن يوجهوا إلينا التهم وأن يثبتوا أننا كنا مذنبين. ولقد كانت وسيلتهم في تحقيق ذلك هي إجبار البعض على الإدلاء بشهادات كاذبة تحت التهديد بسجنهم. فلقد تم تهديد كل من يرفض الشهادة بأنه سيتم توجيه تهم إليه.

وعندما تم إعداد التهم في بداية تموز استطعت معرفة أولئك الذين وجهت إليهم التهم معي أولئك الذين شهدوا ضدنا. لقد كان أساس التهم الموجهة إلينا المادتين ١١٤ و١٣٣ من القانون الجنائي لجمهورية يوغسلافية الاتحادية الاشتراكية. فأما المادة الأولى فتتعلق بالتآمر ضد الدولة، وأما الثانية فتتعلق بالقانون الشهير "الجنحة الكلامية" وتظهر التهم أنه تم إسناد دور قيادة مجموعة لي، وهو ما كان محض افتراء وتلفيق، لأنه لم تكن هناك أي مجموعة أصلاً. حتى إنني لم أعرف بعض الأشخاص الموجودين معي في قفص الاتهام في المحكمة.

ولقد جاؤوا ليأخذونا في صباح الثامن عشر من تموز (يوليو). وهكذا بـدأت "محاكمة سراييفو". لقد أخرجونا من الزنزانات وجعلونا نصطف في الممـر. لقـد كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها بعضنا بعضاً منذ اعتقالنا، ولقد كنا جميعنا شاحبي الوجوه وتنقصنا التغذية. كـان روشيد يعـاني مـن صعوبـة في التنفـس. ولقد وجدت نفسي على رأس الطابور حيث كان يفصـل بـين كـل واحـد منـا رجل أمن. ومن ثم دخلنا قاعة المحكمة شـبه الفارغـة مـن بـاب خلفـي. ولقـد ألقيت التحية على الحاضرين في القاعة بقولي "السـلام عليكـم" ورفعـت يـدي. ولقـد رد بعضهـم. فحذرنـي القـاضي بصـوت عـال ألا أتحـدث مـع الجمهـور. فرددت أنه كان من حقي أن ألقي التحية على أولادي الذين كانوا جالسـين في القاعة.

ولقد طلب منا أن نشكل صفين على مقعدين خشبيين حيث كان يحيـط بنـا حاجز الشرطة من الخلف. وكان هناك عشرة مـن المحـامين الجالسـين إلى يميننـا وكـان يجلـس في الجهـة المقابلـة لهـم المدعـي العـام وهـي امـرأة عرفتهـا خـلال التحقيقات، ولم أعرف من القـاضي الـذي كـان يجلـس وخلفـه صـورة كـبيرة لرئيس يوغسلافية يوسيب بروز تيتو.

ولقد بدأت المحاكمة بمجادلة بيني وبـين القـاضي. فلقـد أبديـت احتجـاجي على عدم السـماح للعامـة بحضـور المحاكمـة. فلقـد كـان الحضـور يتـألف مـن القضاة، والمدعي العام، والشرطة، وأقربائنا وبعض الصحفيين المنتقين بعناية. فما كان مني إلا أن قلت: إنني سوف ألتزم الصمت كون الوضع كان على مـا هـو عليه. ولقد رُفعت الجلسة لفترة من أجل أن يقوم القـاضي باستشـارة جهـة مـا، ولعلها اللجنة المركزية للحزب. ولقد تم التوصـل إلى حـل وسـط حيـث سُـمح لعدد من الأشخاص بالحضور شريطة أن يكون معهم تصاريح تحمل أسـماءهم، أي إنهم يجب أن تكون الشرطة قد اختارتهم.

ولقد افتتح القاضي حدجتش مداولات الجلسة التي سوف تستمر شهراً فقال:

"يجب علينا أولاً أن نؤكد أن جميع المتهمين حاضرون وهم: علي عزت بيغوفتش، وعمر بهمن، حسن تشنغتش، وعصمت كاسوماتش، وأدهم بتشاكتشتش، وحسين جيفاليه، وروشيد بغودا، وصالح بهمن، ومصطفى سياهتش، وجمال لاتتش، ومليكة صالح بيغوفتش، ودرويش دجوردجفتش، ودجولايتشاكتش. بالإضافة إلى نفسي كرئيس للجلسة القاضي رضا حدجتش وعضو مجلس القضاة، والقاضي عاصم كانالنتش وثلاثة أعضاء من هيئة المحلفين من قوميات مختلفة وعلى وجه الخصوص من القوميات مسلم، وصربي، وكرواتي. ولقد طلبنا من المدعي العام أن يتلو التهم." هذا ما قاله القاضي مفتتحاً الجلسة وقام بعد ذلك بالطلب من المدعي العام أدينا رشيدوفتش أن يتكلم".

المدعي العام: لقد كان كل من علي عزت بيغوفتش وعمر بهمن في عام ١٩٧٤ مفتونين بفكرة النهضة الإسلامية، وأسلمة المسلمين، ولذا فقد اتفقا حينها على أن يلقيا مزيداً من الضوء على تلك الأفكار من خلال كتابة النصوص التي تثير اهتمام قطاع كبير من الشعب، وعليه فقد قام عزت بيغوفتش بتأليف ونشر العديد من تلك النصوص، وتبع ذلك النسخة الأولى من كتيبه (الإعلان الإسلامي) أو (البيان) حيث أعطاه لعمر بهمن وتوفيق فيلاغتش. وهما عضوان في تجمع المهاجرين المعادي ليوغسلافية في فيينا حيث قام بتضمين ملاحظاتهم ومقدماتهم في كتيبه. ولقد أكد في الكتاب على أنه من بين مبادئ الحركة والنهضة، الإسلامية هو "أنه لا توجد حادثة واحدة في التاريخ لم تكن فيها حركة إسلامية حقة وأصيلة حركة سياسية في نفس الوقت. إن السبب وراء ذلك هو أن الإسلام دين، ولكنه في نفس الوقت فلسفة، ومنظومة أخلاقية، وجو عام أو بعبارة أخرى إن الإسلام هو أسلوب حياة متكامل ... إن وجود قوانين كثيرة وتشريعات معقدة في مجتمع ما لهو دليل ومؤشر بشكل عام على وجود خطأ ما في ذلك المجتمع الذي يتوجب عليه التوقف عن إصدار القوانين، والبدء في تعليم أفراده كيفية التصرف... إن الحركة الإسلامية هي وحدة متكاملة

للدين والسياسة. إن المسلمين إخوة... إن بإمكان الحركة الإسلامية أن تتولى زمام الأمور حالما تصبح قوية كفاية من الناحية العددية والأخلاقية (المعنوية) ليس من أجل استبدال حكومة إسلامية، بأخرى غير إسلامية، وإنما من أجل خلق حكومة إسلامية جديدة. "ولقد تم ترجمة هذا الكتيب بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٣ إلى اللغات العربية، والتركية، والإنجليزية، والألمانية بهدف تشكيل تهديد معاد للثورة والنظام الاشتراكي في جمهورية يوغسلافية الاتحادية الاشتراكية". ولقد نشرت طبعات الكتيب بتلك اللغات مع مقدمة. وبهدف تشكيل مجموعة متفقه في آرائها وأفكارها في البلاد كتهديد وعمل معاد للثورة والنظام الاشتراكي بالطريقة والنهج اللذين يحدد أُطرهما كتيب (الإعلان الإسلامي). قام عزت بيغوفتش بتمرير نسخة من الكتيب إلى عدد كبير من المثقفين من أمثال: حسين دجوزو، محمد كوبوسوفتش وهوسو جيفاليه، وحسن تشنغتش، وروسيمير محمود تشيهايتش، ومحمد علي حدجتش، ومليكة صالح بيغوفتش، وأدهم بتشاكتشتش. وعليه فقد انضم للمجموعة حسن تشينفتش، وعصمت كاسوماغتش، وهو جيفاليه، وأدهم بتشاكتشتش..." إلخ...إلخ.

لقد كانت هذه الكلمات هي بداية المحتوى الرئيسي للتهم التي جاءت في عشرات من الصفحات المطبوعة بأسطر ذات فراغات قليلة.

ولقد تم توجيه الاتهام إلي أولاً. ومن ثم تم استدعائي للدفاع عن تلك التهم. ولكني صرّحت بأنني لدي ثلاثة اعتراضات على الناحية الإجرائية والمرافعاتية للمحاكمة قبل أن أشرع في مرافعتي:

"١- تنص الاتهامات الموجهة أن هناك ثلاثة عشر شخصاً مشتركين في القضية وسبعة منهم ليس لهم أية علاقة البتة بموضوع الاتهام (وهو تكوين مجموعة بناء على كتيب الإعلان) خمسة منهم لم أقابلهم أو أعرفهم في حياتي قط.

٢- لقد تم إصدار تصاريح تحمل أسماء معينة يسمح لها بالدخول فيما منع الجمهور والعامة من حضور هذه المحاكمة. إنني أطلب أن تتم محاكمتي علناً وحسب القانون. فليس لدي ما أخفيه، ولكن لربما لدى المحكمة ما تخفيه هي. إنني أرغب بالدفاع عن نفسي أمام أكبر حضور ممكن لأنني بريئ، ولن أقدم دفاعي للقاضي

حدجتش فقط، بل إلى كل رجل شريف وامرأة شريفة في يوغسلافية وخارجها، وإن أي شخص يخفي أي شيء فهو على خطأ كبير..

٣- أما اعتراضي الثالث فيتعلق بتصرف الصحافة. فلقد حكمت عليّ بعض الصحف وقبل بدء المحاكمة بأنني قومي متعصب، عدو للثورة والدولة، وقاموا بإدانتي قبل إجراء المحاكمة. إن هذا يُعد احتقاراً لهذه المحكمة، ولكني لست على علم بأي خطوة اتخذتها المحكمة لحماية سمعتها وكرامتها والقانون، إن لم تكن ترغب بحماية المتهم".

ولقد قمت بتقديم دفاعي وأجبت عن أسئلة المدعي العام، والقضاة والمحامين، بعد أن بيّنت أنني لست مذنباً في أي من التهم التي وردت في وقائع محضر الاتهام.

وتالياً بعضاً من الأسئلة التي وجهها إلي المدعي العام عدينا رشيد وفتش وإجاباتي عليها:

- "رشيدوفتش: هل صرحت ولو في جملة واحدة أن الإعلان الإسلامي لا يمت بصلة للجمهورية اليوغسلافية الاتحادية الاشتراكية؟

- عزت بيغوفتش: لا. نظراً لأنه لم يكن هناك ضرورة لذلك. فلقد كان ذلك واضحاً من نص الكتيّب نفسه.

- رشيدوفتش: من تعد من ضمن السبع مئة مليون مسلم في العالم؟ هل تعدني أنا من ضمن ذلك العالم الإسلامي؟

- عزت بيغوفتش:إنني أعد جزءاً من ذلك العالم كل من يقطن في البلدان التي أغلبية سكانها مسلمون من المغرب وحتى إندونيسية.

- رشيدوفتش: لقد قلت في دفاعك أن كتيب (الإعلان الإسلامي) يدعو إلى قيام نظام حديث وإنساني مبني على أساس ومبادئ الإسلام. ما طبيعة وماهية مثل هذا النظام الذي لا يذكر أو يلقي بالاً لذكر نظام عدم الانحياز والإدارة الذاتية؟ ... إلخ ... إلخ".

وطيلة الوقت كان صديقي العزيز روشيد برغودا الذي قضى عشر سنوات في السجن أيام شبابه يكاد لا يستطيع الجلوس على المقعد الخشبي. لقد كان مريضاً جداً. ولقد علمنا فيما بعد أنه قد كان مريضاً عندما تم اعتقاله وأنه قد عومل معاملة سيئة بالرغم من مرضه خلال التحقيقات. ولقد طلب محاميه نيكولا سوكنو أن يتم الاستئناس برأي طبيب بخصوص صحته. ولقد رضخ القاضي لذلك المطلب بعدما حاول أن يتهرب منه. ولقد أكد الطبيب أن روشيد كان غير لائق صحياً كي يمثل أمام المحكمة نظراً لتعرضه إلى نوبتين قلبيتين خلال التحقيقات. وأضاف أن حالته من السوء بحيث إنه قد يحصل ما لا يحمد عقباه في أي لحظة. ولقد تم تعليق إجراءات المحاكمة بحق روشيد بناء على التقرير الطبي. ولقد توفي روشيد بعد عام من تعليق محاكمته التي تلاها ثلاث جلسات وثلاث مرات تتأجل فيها محاكمته لأسباب طبية.

ولقد تلقينا فيما بعد من محامي روشيد إفادة خطية كتبها المتوفى أثناء إجراء التحقيقات معه حيث كان يريد أن يقدمها خلال المحاكمة حيث يقول:

" إن هذه محاكمة مشكوك في أمرها بالنسبة إلي. فمن الواضح أنه قد تم التلاعب بها، ولكنني لست أعلم لماذا. ولقد سبق وأن حكم علي بالسجن لمدة عشرين سنة مع الأشغال الشاقة في محاكمة مشكوك في أمرها ومتلاعب بها. ولكن كان ذلك خلال الحقبة الستالينية حيث كانت الأمور أسوأ مما هي عليه الآن عندما وجدت يوغسلافية نفسها مضطرة للإثبات بأنها شيوعية حقاً فوجدت أنه من الأسهل لها أن تضحي بالمسلمين. لقد كان الهجوم على البوسنة هو إحدى الوسائل التي تثبت لموسكو أن يوغسلافية بلد موالٍ وتابع، وطالب مثالي ومطبق ماهر للأساليب السوفييتية. ولقد كنت آمل أن تلك الأيام ولّت إلى غير رجعة ولكن يعمد الآن أولئك الذين كان يجب أن يكونوا أول من ينساها إلى تذكيرنا بها مرة أخرى. ما الضرورة لخلق أعداء وهميين للدولة وإلى تلفيق أحداث لم يقم أحد بارتكابها؟ لصالح مَنْ يُعمد إلى خلق ضحايا جدد وشهداء جدد، وإرهاب المواطنين المسالمين الأبرياء الذين يؤدون واجباتهم بكل إخلاص. هل المتدينون هم مواطنون من الدرجة الثانية في هذا البلد؟

مرة أخرى يتكرر الأمر نفسه مع المسلمين. هل تشعر هذه الدولة حقاً بأنها مهددة من قبل اثني عشر مسلماً من المثقفين وأساتذة الجامعة، والمحامين الاقتصاديين، والشعراء، والأئمة. وهم أفراد لا يعرف معظمهم بعضهم بعضاً؟ هل الهدف هو إرهاب واستفزاز المسلمين؟ ما ستقومون به سوف يجعلهم يشعرون بالمرارة. وإنني أقول لكم: إن هناك أسباباً كافية لوجود الشعور بالمرارة حتى دون حدوث هذه المحاكمة."

وكانت الحالة النفسية لـ "عمر بهمن" سيئة جداً، وهو الشخص الذي قضى إحدى عشرة سنة في السجن أيام شبابه. إنه لم يكن مريضاً، ولكن كان غير مبالٍ بشكل واضح، ومُرهَق، وشاحب. واستمرت جلسة محاكمته يومين. ولقد نجح في اجتياز اليوم الأول نوعاً ما، ولكنه أصبح أضعف بكثير في اليوم الثاني. ولقد بدأ في وقت من الأوقات يفقد توازنه. وكان ذلك خلال الجزء غير العلني من الجلسة. ولم يكن سوى ثلاثة أشخاص من الحضور في قاعة المحكمة وهم ابني بكر، وابنتي سابينا وزوجة عمر السيدة صالحة. وفقد عمر وعيه فجأة وسقط على الأرض. وعلى الرغم من أنهم لم يسمحوا لزوجته بالمساعدة ولم يستدعوا طبيباً، والأسوأ من ذلك أنهم لم يسمحوا لأحد منا بالاقتراب، فإن زوجته تجاهلت أوامر القاضي واندفعت نحوه وقامت برش بعض الماء عليه ومسحت وجهه، فتقيأ عمر بينما عيناه مغمضتان ورأسه يتأرجح. ولقد كانت شفتاه حمراوان ووجهه كذلك. ولقد طلب القاضي إحضار نقالة بعدما استعاد عمر وعيه وحمله الحراس خارجاً بالرغم من رفضه لذلك.

أما دفاع "صالح بهمن" الذي أمضى مدة ثماني سنوات في السجن أيضاً فقد استغرق نصف ساعة فقط. حيث قال ما يلي عن التهم: "إنها تهم ليست جديرة بالتعليق عليها أو حتى بالتفكير فيها ناهيك عن أنها بعيدة كل البعد عن أن تصلح لتكون أساساً لمحاكمة عادلة. إنها عبارة عن كذب ومحض افتراء. حتى إن التهم لا تحدد أوقاتاً أو زماناً معينة لتضفي نوعاً من المصداقية على

المعلومات، ناهيك عن عدم وجود أي اهتمام بمصداقية الدليل. لقد دعوت الله تعالى في حياتي كلها أن يرزقني الجنة، ولكنه سبحانه وتعالى منحني مكاناً مرة أخرى في التاريخ، في اشارة لتكرار ما حدث من تلفيق للتهم عام ١٩٤٩، ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ إن هذا هو قدري بلا شك وهو أن يعاقبني الناس على أفعال لم أرتكبها وأن يمتحنني الله وأنا في قبضة أولئك الناس". ولقد قال لي أحد أصدقائي عن صالح: "إن صالح هو أحد أولئك الأشخاص الذين يصعب عليك ألا تحبهم عندما تتعرف إليهم".

وبعد الاستماع للمتهمين الآخرين، استمرت المحاكمة بالاستماع لإفادات الشهود البالغ عددهم تسعة وخمسين لمدة خمسة عشر يوماً. ولقد غير حوالي نصف الشهود إفاداتهم التي أدلوا بها للشرطة خلال تحقيقات ما قبل المحاكمة قائلين: إنهم قد اعترفوا بما اعترفوا به تحت الإكراه والابتزاز.

ولقد كانت هناك لحظات مؤثرة. فلقد صرّح أحد الشهود وهو "سعاد سيليوباتس" عندما قال إنه يسحب إفادته التي أدلى بها للسلطات التي تولت التحقيق: "ويجب أن أؤكد هنا أن إفادتي ستكون مغايرة تماماً لما قلته للشـرطة". ولقد أنكر بعدها كل الإفادات التي تقدم بها أثناء التحقيق ضد تشنغتش، وسباهتش، ولاتتش.

واستشاطت المدعي العام رشيدوفتش غضباً. وأعلنت أنه سيتم توجيه تهم جنائية ضد سيليوباتس لإدلائه بإفادات كاذبة. وما عنته بكاذبة هي شهادته في المحكمة طبعاً. ولقد بث تلفزيون سراييفو التهديد ذلك المساء ونشر في صحيفة (أوسلوبودجنيه) اليوم التالي مع إضافة معلومة أنه يمكن أن يتم سجن سيلوباتس لمدة تصل إلى خمس سنوات هي عقوبة هذه الجريمة. لقد كان الهدف هو إرهاب الشهود الذين لم يدلوا بشهاداتهم في المحكمة بعد. ولقد حصل سعاد سيليوباتس على معاملة "خاصة" من الشرطة طيلة تلك الليلة واليوم التالي.

ولقد أعلن القاضي حدجتش بعد يومين أن سعاد سيليوباتس عاود الظهور في المحاكم وأنه أراد أن يدلي بشهادته مرة أخرى. وهو ما وافقت عليه المحكمة بالطبع. وفي هذه المرة أقر سعاد سيليوباتس بأن جميع الإفادات التي أدلى بها للشرطة صحيحة. ولدى سؤال القاضي له عن السبب الذي دفعه لتغيير إفادته قال: إنه تعرض لضغوط من قبل لوجادلاتش أخي المتهم لايتش ومن قبل نصرت تشانتسار الذي أخبره بأن ندجاد في حالة نفسية سوف تدفعه إلى قتل أي شاهد يشهد ضد أخيه. ثم التقى سعاد سيليوباتس بتدجاد ووعد بتغيير إفادته قائلاً: "بعد قيامي بالإدلاء بأقوالي في المرة الأولى إلى وزارة الداخلية حيث قررت أن أدلي بشهادة جديدة ولم أتأثر بما كتبته الصحافة من أنني قد أتهم بالتزوير". وطبعاً لم يصدق أحد هذه القصة.

ومع ذلك فإن العاصفة الحقيقية لما تأت بعد. فلقد كان من المفترض أن تمثل أمام المحكمة شاهدة الادعاء الرئيسية، أو هكذا كان من المفروض أن تكون. ولقد كانت نرمينا باشيرفيتش ستمثل أمام المحكمة للإدلاء بأقوالها وشهادتها للمرة الأولى في نفس اليوم الذي جاء فيه سعاد سيليوباتس للشهادة للمرة الثانية. فمع استمرار مسلسل إنكار الشهود لإفاداتهم أمام الشرطة أصبحت المحاكمة عبارة عن مهزلة. ولقد حاولت المحكمة تغيير مجرى الأمور بممارسة كل الضغوط على سعاد سيليوباتس وباشيرفتش ولكنها أخفقت مع الثانية فيما نجحت مع سعاد سيليوباتس. ولذا كان من الضروري أن تقوم نيرمينا بالإدلاء بشهادتها مرة أخرى كما كانت أمام الشرطة وأن تدعم من موقف الادعاء.

ولقد تم إجراء ترتيبات خاصة لليوم الذي سيظهر فيه سعاد سيليوباتس ونيرمينا في المحكمة. وكانت القاعة تغص بالغرباء بعدما كانت شبه فارغة في باقي الجلسات. وذهب القاضي إلى غرفة الشهود ولفت انتباههم إلى أن جلسة اليوم يحضرها صحفيون أجانب، وأنه كان من المؤسف قيام بعض الشهود بتغيير

إفاداتهم بداعي التعرض للتهديد والضرب، مما أساء إلى سمعة يوغسلافية في الخارج". ولقد منعت الشرطة حركة السير في شارع مبنى المحكمة وتعامل القضاة والمدعي العام مع الشهود والمتهمين بطريقة ألطف من الأيام السابقة.

وقبل أن تشرع نيرمينا في الإدلاء بشهادتها قام القاضي بتحذيرها من أنها يجب أن تقول الحقيقة فقط نظراً لأن شهادة الزور جنحة جنائية عقوبتها تصل إلى الحبس لمدة خمس سنوات. فردت عليه نرمينا متسائلة: "هل ستوفر المحكمة لي الحماية إذا ما قلت الحقيقة"؟

فرد القاضي بالإيجاب وعندها صرّحت نيرمينا بما صعق المدعي العام والمحكمة وجميع الحضور وقالت: "إن كل شيء وقعت عليه على أنه إفادتي خلال التحقيقات الأولية هو كاذب وغير صحيح." ومن ثم وضحت نيرمينا أنها تعرضت لضغوط أثناء الإدلاء بإفادتها فلقد ألّح المحققون عليها كثيراً أن تكرر عبارات معينة بحيث لم تعد تستطيع المقاومة في نهاية المطاف. فلقد تم استجوابها عدة مرات من ثم تم كتابة إفادتها وقالت: إنها أمضت ستة أيام في مركز الشرطة، وهم يحاولون إجبارها على أن تحفظ إفادتها عن ظهر قلب. ولقد استدعتها الشرطة أكثر من مرة قبل ذلك بيومين وحذروها أنها يجب عليها أن تقول في المحكمة ما أدلت به بالحرف في مركز الشرطة. وأخيراً قالت:" لقد أخبرتكم بالحقيقة، وأفضّل أن أمضي عقوبة خمس سنوات سجن بدلاً من أن أعيش يوماً واحداً وأنا أعلم أنني كنت مسؤولة عن قول أكاذيب تسببت في زج هؤلاء الأشخاص في السجن. فإذا ما أردتم يمكنكم أن تصدروا الحكم عليّ أنا أيضاً بمعيتهم". وساد الصمت التام المحكمة في تلك اللحظة. وكان القاضي صامتاً لبرهة قصيرة أيضاً ومن ثم أخبر الشاهدة أنه يمكنها الانصراف.

ولقد تخلل المحاكمة بعض من المشاهد المضحكة أثناء إدلاء الشهود بأقوالهم. وكان أحد هؤلاء الشهود هو أنور باشالتش أو الحجي باشو كما هو

معروف. كان رجلاً حكيماً حيث تظاهر بأنه أصم وأبله في المحكمة. فلقد أمضى ساعتين يستهزئ بالقاضي من خلال أجوبته التي لم تكن تمت بصلة للأسئلة الموجهة إليه. وعبثاً حاول القاضي أن يوقعه، ولكنه استمر في الحديث وخاض في أدق التفاصيل لأمور لم تكن مهمة أو مجدية. فلقد أمضى الحضور وقتاً ممتعاً مع مرور الوقت فيما أصبح القاضي سريع الغضب.

وعندما لفت القاضي انتباه باشالتش إلى أنه لم يكن يدلي بنفس الأقوال التي أدلى بها للشرطة، كان رده أنه كان يقول نفس الأشياء ولكن ربما أن الأوراق المكتوبة هي التي تغيرت وبما أنه قد تم التحقيق معه عدة مرات أضاف قائلاً: "لا أستطيع القول بأنني لم أقل الأشياء التي لا تتفق مع ما أقوله الآن". وبدأ القاضي في البحث في القاعة بنظرة عمن ينقذه من هذا المأزق ومن ثم أخبر الشاهد بأنه يمكنه الانصراف قائلاً لباشالتش "هيا يا أخي اذهب ولا تدعني أرى وجهك ثانية هنا" وهنا التفت الحجي باشو إلى المحكمة، واعتذر، ومن ثم التفت إلينا ملقياً علينا تحية المغادرة "في أمان الله" ورفع يديه بالطريقة البوسنية القديمة وانفجر جميع الحضور بالضحك باستثناء القاضي والمدعي العام بالطبع.

لقد تم استجواب ستة وخمسين شاهداً من أصل تسعة وخمسين من قبل الادعاء فيما استجوب الدفاع ثلاثة فقط. وكان ثلاثة وعشرون من بين هؤلاء ليس لهم علاقة لا من قريب ولا من بعيد لا بالادعاء ولا بالدفاع، حتى إن نص قرار الحكم لا يذكرهم. والتزم خمسة عشر من الستة والثلاثين الباقين بإفاداتهم التي أدلوا بها خلال إجراءات ما قبل المحاكمة، وهي كانت في معظمها في صالح الادعاء؛ بينما قام حوالي ٢١ من الشهود بتغيير إفاداتهم في المحكمة بشكل أو بآخر أو أنهم سحبوا تلك الإفادات بالكامل.

إنه أمر متوقع ومفهوم أن يقوم المتهمون بتغيير إفاداتهم، وهذا ما يحدث عادة. حيث إن تشريعات كل الدول المتحضرة تعطي المتهمين الحق في ذلك أو

ما يسمى "بحق الكذب" للمتهم، لكن أن يقوم الشهود بتغيير إفاداتهم فهذا أمر مختلف تماماً. إنه من المفترض بالشاهد أن يقول الحقيقة قبل المحاكمة أثناء التحقيقات وعند إجراء المحاكمة، وإذا زوّر أقواله فإنه سوف يواجه عقوبة السجن. لماذا إذن قام واحد وعشرون من الشهود بتغيير إفاداتهم وجازفوا باحتمال تعرضهم للعقوبة؟

ولقد أعطى الشهود إجابات مختلفة لهذا السؤال الذي طرحته عليهم المحكمة والدفاع، فلقد أوضح معظمهم أنه وبعد ساعات طويلة من التحقيق والاستجواب يقوم المحقق بكتابة إفادة لم يدلوا بها ويجبرهم على التوقيع عليها. وبعدما يرفضون القيام بذلك تبدأ عملية مرهقة من الإقناع، والضغط، والتهديد. لقد جرى كل هذا في نطاق الصمت المخيف الذي يخيم على مركز الاعتقال لما قبل المحاكمة في سجن سراييفو حيث وصف أحد الشهود بأن كل ما يمكن سماعه كان صوت فتح أو إغلاق الأبواب الحديدية ووقع خطوات الحراس في الممرات. ولقد روى أحد الشهود وهو أنيس كارتش كيف أن أحد المحققين حوّل شهادته البسيطة حول أحداث عادية إلى إفادة نارية. ولقد أعطى المثال التالي عندما طلب منه التوضيح.

"لقد كانت كلماتي هي: أخبرني تشنغتش أننا سوف نلتقي خارج دار السينما. فيكتب المحقق أنني قلت: لقد رتب تشنغتش للقاء معي خارج دار السينما." وبالطبع فلقد أعطت هذه الكلمات الإيحاء بأنه كان اجتماعاً سياسياً غير مشروع ومثال آخر: "أخبرته أنني كنت في تركية". تتحول بقلم المحقق لتصبح: "لقد سلمت إليه تقريراً عن زيارتي إلى تركيا".

وهكذا دواليك. وكما أوضح كاريتش: "لقد حاول ضابط التحقيق مراراً إقناعي بأن تلك الجمل تحمل نفس المعنى الذي قلته وأنه يتوجب علي أن أوقع على إفادتي كما كتبها هو، ولقد وقعت على الورقة بعد تسع ساعات من

الإقناع والضغط، لأنه لم يكن أمامي خيار آخر، ولكني قررت أن أخبر المحكمة بكل الظروف التي وقعت فيها على الأقوال وما كان صحيحاً وما كان غير صحيح في الورقة".

ولقد قال شاهد آخر وهو حلمي إيريموفتش: إن مقابلته مع المحقق استمرت أربعين ساعة تخللها بعض الاستراحات القصيرة، بهدف الوصول إلى إفادة مكونة من صفحة واحدة مطبوعة. ثم التحقيق مع شاهد آخر وهو فاهد كوزارتش لمدة ثلاثة أيام أيضاً دون أن يسمح له بالعودة إلى منزله مما حرمه فعلياً من حريته. ولقد أصيب في اليوم الثالث بنوبة قلبية وتم نقله إلى المستشفى حيث مكث هناك مدة عشرين يوماً. ولقد تم أخذه إلى مركز الشرطة ثانية بعد خروجه من المستشفى حيث وقع على الإفادة التي أصر المحقق على نصها خلال ثلاثة الأيام الأولى من التحقيقات. ولم يأت إلى المحكمة الشاهدان محمد عربتشتش، وحمزة علي حيدر على الرغم من أنه قد تم استجوابهم أثناء التحقيقات. والسبب في ذلك أن كليهما قد تعرض لانهيار عصبي، وكانوا يتلقون علاجاً نفسانياً أثناء انعقاد المحاكمة، ولذا فلم يعط مستشار الادعاء الحق باستجوابهم خلال المحاكمة. وقال رشيد حافظوفتش: إن المحقق قد وجه مسدساً نحوه أثناء التحقيق. وأخبره أنه لن يغادر البناية حتى يوقع على الإفادة مهما استغرق الأمر بعدما رفض التوقيع. فرد عليه حافظوفتش إنه لم يكن سجيناً، وإنما مواطناً حراً وقام بالتوجه نحو الباب. وعندها سحب الضابط المسدس ووجهه نحوه وأمره أن يتوقف فوراً لأنه لن يتمكن من إكمال ثلاث خطوات.

وشاهد آخر هو رشيد برشتش قال: إنه تم استجوابه لمدة خمسة أيام ولمدة تسع ساعات يومياً، وقد تعرض إلى معاملة مهينة جداً أثناء الاستجواب ويروي مصطفى سباهتش وهو أحد المتهمين الذين تمت إدانتهم أن ضباط التحقيق

عرضوا عليه أن يختار بين أن يوقع على إفادة يقر بها ويشهد على أحد المتهمين الثلاثة الأوائل (أياً كان المتهم وحسب اختياره) فيذهب حراً، أو أن يتم اتهامه هو نفسه. ولقد ذكر أسماء ضابطي التحقيق، وتاريخ تلك الواقعة خلال جلسة المحكمة العليا في ١٩٨٤/٣/١٤. وعندما رفض القيام بذلك تم توجيه الاتهام إليه وحكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات.

ولم يسبب أيّ مما حدث في المحكمة مشكلة للقاضي. علاوة على ذلك فإن كل شهادة لم تكن كما جاءت بها إفادة الشرطة لم يتم قبولها وإدراجها ضمن نص الحكم الذي أصدرته المحكمة. إن إمكانية اعتماد الإفادات في مركز الشرطة أثناء التحقيق وليس الأقوال أثناء المحاكمة، كانت استثناء منحته التشريعات للمحكمة التي حولت ذلك الاستثناء إلى قاعدة، ولم يكن هذا هو المثال الوحيد على تطبيق واستخدام الاستثناءات خلال مداولات وجلسات المحاكمة. فلقد كان القانون ينص على أن يتولّى قاضي تحقيقات ما قبل المحاكمة النظر فيما إذا كان الاستثناء هو تفويض الشرطة بعمل ذلك، وهنا أيضاً طبق الاستثناء. ولقد نص القانون على حضور محامي الدفاع خلال استجواب المتهمين والشهود ويمكن منع المحامي من ذلك استثناءً فقط. ومرة أخرى طبق الاستثناء. وهكذا وبتحويلها الاستثناءات إلى قواعد فإن السلطات الحكومية والمحكمة قد جعلت من الإجراءات القضائية مهزلة مستخفة بروح ونص القانون.

لقد كانت الطريقة التي بررت بها المحاكم لجوءها إلى الاستثناءات طريقة مميزة. وهكذا عللت المحكمة الابتدائية ذلك بقولها: "لقد قبلت المحكمة بإفادات الشهود قبل المحاكمة وليس أثناءها لأن المبررات التي ساقها الشهود لتبديل أقوالهم كانت مبررات غير منطقية وغير مقبولة. فلقد أعطى أولئك الشهود إفاداتهم دون إملاء من أحد، وما قالوه قد تم تدوينه في محاضر إفاداتهم

وكما قالوه، حيث إنهم وقعوا على ذلك بعد قراءته". (ص١٥٣ من حكم محكمة مقاطعة سرايفو). ولم تبين المحكمة الأسباب التي أدت بها لتعتقد أن تلك الإفادات لم يملها أحد على الشهود تحت أي ضغط على الرغم من أن كل شاهد تقريباً أكد عكس ذلك.

وكان هناك أيضاً البيان الذي أصدرته محكمة البوسنة والهرسك العليا: "إن التوضبحات التي قدمها الشهود بخصوص تغيير إفاداتهم المدونة بدعوى أن التغييرات حدثت عندما كانوا في حالة نفسية معينة وتحت التهديد وأن السلطات قامت بتغيير إفاداتهم المكتوبة... وعليه فإنه من الواضح أن المبررات التي ساقها الشهود لتغيير شهاداتهم هي مجرد شكوك لا أساس لها من الصحة حاولوا إضفاءها على عمل سلطات التحقيق" (ص٣٨، ٣٩ من نص قرار الحكم).

وأيضاً صرحت المحكمة الفدرالية أنه "لا يوجد دليل مثبت ولا يتم تقديم دليل يثبت أن إفادات الشهود قد تم استخراجها بالتهديد والابتزاز". (ص٢٦)

أما إحدى التهم الموجهة إلى ثالث المتهمين وهو حسن تشنغتش فكانت أنه قال: "أنه لا يجوز للمسلم أن يأخذ دماً من غير المسلم أو أن يتبرع بالدم له" ولقد أنكر تشنغتش دوماً أنه قال شيئاً من هذا القبيل. ومع ذلك فلقد حدث بمحض الصدفة أن تم الكشف عن أن تشنغتش هو متبرع معتاد بالدم ويملك بطاقة المتبرعين بالدم. ولقد قال شاهد الادعاء أنور باشالتش أنه فوجئ بمثل هذه التهم ضد تشنغتش عندما قرأ عنها في صحيفة (أوسلوبودجنيه) نظراً لأنه كان يعلم أن حسن تشنغتش كان كثيراً ما يتبرع بدمه في المدرسة الدينية. لقد صدمت هذه الشهادة قاعة المحكمة واعتقدنا أنه لا يوجد أفضل من هذه الشهادة لدحض التهمة.

ولكن المحكمة لم تشاركنا هذا الرأي بل ونص قرار الحكم على معاقبة المتبرعين بالدم على أنهم أناس معارضون للتبرع بالدم لأي شخص غير مسلم، على الرغم من أن الجميع يعرف بما فيهم حسن تشنغتش أنه لا يعلم من سيتلقى ذلك الدم عندما يتبرع به.

ولقد صرحت محكمة مقاطعة سراييفو لدى إعلان الحكم: "أنه من وجهة نظر هذه المحكمة فإنه لا يوجد أية ظروف تخفيفية للمتهمين". (ص١٧٨ من نص الحكم) إن المحاكم التي تحاكم مجرمي الحرب، والقتلة، وقطاع الطرق، وكل مرتكبي الجرائم الوحشية تبحث عن ظروف مخففة للحكم لصالح المتهم. وأنه من السائد لدى أشهر السلطات القضائية في العالم أنه لا يوجد متهم لا يمكن إيجاد عذر تخفيفي من أجله وأنه إذا تعذر ذلك فإنه يعد فشلاً للمحكمة وليس للمتهم، ولقد كان من بين الذين تمت محاكمتهم في هذه المحاكمة شاعران كانت التهم الموجهة إليهم هي الكلمات التي نظموها، وكان معظم المتهمين أصحاب عوائل، وبعضهم كان في الستين من عمره فيما كان هناك خمسة منهم لم يبلغوا الثلاثين من العمر.

ولقد مثل ثمانية منهم للمحاكمة لأول مرة في حياتهم، وبعد تلقي أحد المتهمين تقريراً من المنظمة التي كان يعمل بها لقاء إسهاماته المهنية، ووجد الأطباء أن الحالة الصحية لاثنين من المتهمين سيئة جداً وهكذا دواليك. إن كل تلك الحقائق يمكن أن تعتبرها أية محكمة أو قانون عوامل مخففة، ولكن محكمة مقاطعة سراييفو أهملتها في هذه المحاكمة، حتى إن المحكمة العليا للبوسنة والهرسك التي لم يشتهر عنها أنها محكمة موضوعية وحيادية صرّحت لدى سماعها استئناف المتهمين أن محكمة المقاطعة قد بالغت كثيراً. (ص٧١ من نص قرار حكم المحكمة العليا للبوسنة والهرسك).

ولكن ماذا عسى المرء أن ينتظر من قضاة ومدعين عامين وضباط تحقيق بدؤوا خبراتهم وتجاربهم القانونية بالتعريف الماركسي للعدالة على أنها "ترجمة إرادة الطبقات الحاكمة إلى قانون" وهي معادلة تناقض تماماً مفهوم العدالة؟

ولقد كان الوضع مشابهاً في العالم الشيوعي. فعندما تم عرض فيلم (ينتنس التوبة) المعادي للستالينية من إخراج تنغيز عبدو لاتزه في مدينة تبليسي في جورجية تم إجراء استطلاع للرأي في المدينة. لقد كان الناس مسرورين بالفيلم بشكل عام، ولكن كانت هناك استثناءات. ولكن من كانوا أولئك أصحاب الاستثناءات؟ لقد أجاب أبدولادزه عن هذا السؤال في معرض مقابلة أجريت معه كالتالي:

"لقد كانوا محامين وقضاة تتراوح أعمارهم بين ستين وسبعين عاماً. وهؤلاء هم الذين كانوا الذين يعذبون الناس ويرهبونهم؟"

إن هناك عنفاً وظلماً في كل المجتمعات. ولكن أهم ما يميز الاضطهاد الشيوعي هو عدم تقيده بالقانون رغم تستره تحت عباءة القانون والإصلاح. ولقد أوجد هذا النفاق والتباين بين النظرية والتطبيق ارتباكاً وتشويشاً واسع النطاق. فلقد عاش الكثير من الناس وماتوا في ظل تلك الأنظمة دون أن يعرفوا أبداً ما هو صحيح وما هو خطأ. لقد كانوا يعيشون في وهم دائم لأنهم كانوا يصدقون الصحافة بكل سذاجة، والسلطات، والبيانات الحكومية وإنهم كانوا بالتالي يساهمون في نشر الظلم والكذب دون قصد ودون وعي لذلك. إنهم مثل أولئك الأشخاص الذين يمكن أن يسمعهم المرء يصفون الخبر الساذج بقولهم "حسناً أليس ذلك هو ما تقوله الصحف؟" إن الديكتاتورية والجماهير المضللة والسفيهة تمضيان يداً بيد حيث يتغذى كل منهما على الآخر.

ولقد دنت المحاكمة التي استمرت شهراً من نهايتها. وعلى العكس من القاضي الذي تصرف "كمقاول" فإن المدعي العام نفذت وظيفتها بكل انفعال

واندماج. ففي خلاصة مرافعتها أقرت بأن الشهود قد غيروا من إفاداتهم في المحكمة. ولكن ذلك لم يكن أمراً مهماً من وجهة نظرها، نظراً لأنه قد تم إعلامهم عند إدلائهم بإفاداتهم في مراكز الشرطة أن عليهم أن يقولوا الحقيقة: وهكذا صرَّحت المدعي العام رشيدوفتش بمنطق ستاليني معهود: "ولهذا السبب فإن إفاداتهم التي أدلوا بها قبيل بدء إجراءات المحاكمة تعتبر إفادات دقيقة وصحيحة".

ولقد خلصت المدعي العام في النهاية إلى أنه اجتمع جرمان في حالة المتهمين الستة الأوائل وهما التجمع بغرض تهديد النظام الاشتراكي، والقيام بنشاطات معادية للثورة. فيما وجدت أن الستة الآخرين مذنبين بتهمة (الجنحة الكلامية) كما تنص عليها المادة ١٣٣ من القانون الجنائي. ولقد ناشدت المحكمة بإدانة كل المتهمين، وأن توقع بهم العقوبات المنصوص عليها في القانون معللة ذلك وموضحة كما يلي:

"إن كتاب (الإعلان الإسلامي) لهو هجوم على قيم نظامنا الاشتراكي. فهو يحتوي على الخطر المجرد وجرائم كلامية وكتابية، والدعوة إلى أنشطة معادية للثورة التي تشبه أنشطة دعاية العدو. ولكن هذه أيضاً قضية أنشطة متواصلة ودعاية مضادة مكثفة تدخل ضمن نطاق الأنشطة المعادية للثورة.؟

ولقد جادلت المدعي العام بالرغم من أنني كنت أعلم أنه لا طائل من ذلك فلقد تمت إدانتنا؛ فقلت في الخلاصة التي قدمتها:

"إنني أحب يوغسلافية، ولكني لا أحب حكومتها. وإنني أكرس كل حبي للحرية، ولا حب عندي للسلطات. إنني لا أحاكم هنا لأنني قد خالفت قوانين هذه البلاد لأنني لم أفعل. إنما تتم محاكمتي لتجاوزي لتعليمات غير مكتوبة يفرض فيها أصحاب القرار والسلطة معاييرهم ومقاييسهم لما هو محظور وما هو مسموح به دون أية مراعاة للدستور والقانون. ويبدو أنني قد تجاوزت تلك التعليمات غير المكتوبة كثيراً.

وبناءً عليه فإنني أقر بأني مسلم وسوف أبقى مسلماً. وأعتبر نفسي منافحاً عن قضايا الإسلام في العالم، وسأبقى أعتبر نفسي كذلك حتى مماتي. لأن الإسلام بالنسبة إلي هو كلمة أخرى لمعاني كل ما هو خيّر ونبيل، إنه اسم للوعد والأمل بمستقبل أفضل للشعوب المسلمة في العالم، وفي حقهم بالعيش بحرية وكرامة، وفي كل ما هو جدير بأن يحيا المرء من أجله."

أما عمر بهمن فلقد نطق بجملتين فقط: "بالنسبة إلي فإنني أسامح كل من اشترك بهذا الأمر من ضباط تحقيق وشهود كذلك." ثم التفت إلى المدعي العام رشيدوفتش وتابع كلامه قائلاً: "ولقد كانت هناك بعض الضربات (الخسيسة) تحت الحزام." ولخص الآخرون أيضاً ما لديهم ولكن لم يطلب أحد اللين والرحمة أو عبّر عن ندمه وتوبته.

كان العشرون من آب (أغسطس) هو يوم النطق بالحكم. ولقد كنت مستعداً ذهنياً لتلك اللحظة. وطلب القاضي منا أن نقف ولقد كانت أضواء الكاميرات كلها مركزة على وجهي. وثم سمعنا ما يلي: "وتالياً الأحكام عليهم: المتهم علي عزت بيغوفتش: بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً..." وهكذا دواليك.

لقد كان قلبي يخفق بسرعة، ولكني أبقيت رأسي مرفوعاً، وأبديت ملامحاً لا تظهر بأنني متأثر. فلقد كانت الكاميرا جاهزة لتسجل الصدمة على وجهي، ولكن كان كل ما سجلته هو تقليبي بصري في سقف القاعة. وتلا القاضي الأحكام الأخرى: خمسة عشر عاماً، عشرة، ثمانية، حيث بلغ مجموع الأحكام ٩٠ عام سجن وأنهى كلامه قائلاً: "إن هذا المجتمع سوف يقاوم ويحارب بشدة وحسب قوانين البلاد كل الهجمات على الأخوة والوحدة، وكل منجزات هذا المجتمع." ثم دوّى تصفيق حاد في القاعة من قبل جمهور تم إحضارهم لهذه الغاية بهذه المناسبة.

وعندما قرأت ما كتبته فريده فيدغوروفا عن محاكمة الشاعر يوسف برودسكي، (في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٤) الفائز بجائزة نوبل للآداب عام

١٩٨٧ قلت في نفسي: يا إلهي إنه نفس السيناريو من برلين وسراييفو إلى موسكو وفلاديفوستوك: إنهم نفس القضاة الحاقدين القساة والمحلفين غير المكترثين والغائبين ذهنياً والجمهور المنتقى مسبقاً. وإليكم جزءاً من ذلك الوصف: ..."سافليفا امرأة كئيبة في الأربعين من عمرها تبدو كربة منزل أنهكتها فضائح سكارى منتصف الليل أكثر منها قاضية وراعية للعدل. وإلى يمينها ويسارها كان المحلفون يترنحون لايكادون يدركون ما الذي يحدث، ويحدقون بشكل مريب باتجاه الباب الذي يقوم شبان بالصراخ خلفه. ولقد شكّلت الشرطة حاجزاً على الدرجات على اعتبار أنه لم يكن هناك متسع في قاعة المحكمة.." تماماً كما حدث في سراييفو عام ١٩٨٣.

وكتبت صحيفة (أوسلوبودجينه) غداة صدور الحكم قائلة:

"أعداء الدولة يحصلون على أحكام تصل إلى ٩٠ سنة سجن". ولقد حصلت أخيراً على جريدة بعد ما تمَّ احتجازي في عزلة كعزلة الناسك عن العالم، منذ أن تمَّ اعتقالي. ولقد كان تواصلي الوحيد مع العالم الخارجي هو من خلال رسائل أولادي حيث كتب لي ابني بكر أن ياسمينة حفيدتي قد وُلدت أثناء المحاكمة. ولقد كانت ياسمينة تبلغ من العمر خمس سنوات عندما رأيتها لأول مرة.

ولا يوجد تفسير عقلاني لتصرُّف النظام بهذه القسوة. هل كانت تلك خطوة يائسة من قبل حكومة بدأت تتهاوى؟ إن أنظمة الحكم القوية لا تدين الناس بسبب ما يقولونه. بينما تلجأ الحكومات الضعيفة إلى العنف في محاولة منها لإطالة أمد بقائها حيث إنها تخاف الزوال.

أما بالنسبة للرأي العام فغالباً ما نرى السجناء السياسيين على أنهم مذنبون لأسباب أنانية بحتة. إنه نوع من آلية الدفاع. فإن الناس لا يستطيعون أن يتقبلوا فكرة أنهم يعيشون في مجتمع لا يتمتعون فيه بحماية القانون والنظام. ومن ثم

تواجههم مسألة كيف يمكنهم أن يلتزموا جانب الصمت. إن ذلك ممكن لأنه من الأسهل بالنسبة لهم أن يعتقدوا أن الشخص المُدان هو مذنب وأنه لا بدَّ أنه خرق القوانين بشكل أو بآخر لأنه إذا لم يفعل ذلك فلماذا هو سجين ومُدان إذن؟ والسبب أيضاً أنه إذا ما اعتقد المرء أن شخصاً ما قد أُدين دون اعتبار القانون فإنه سوف يشعر بالخطر وانعدام الأمان، وهذا ما يرفضه الناس في حالة الدفاع عن النفس. وكلما كان الحكم أقسى كلما وصل الناس إلى ذلك الاستنتاج بسهولة وبسرعة أكبر. وفي حالة غياب الدليل فإن الحكم القاسي سوف يُعد دليلاً كافياً على أن الشخص مذنب. لأنه وكما يفكر ويعلل رجل الشارع العادي: "لو لم يكن المتهم مذنباً لما حصل على حكم بالسجن لخمسة عشر عاماً". ومع غياب دليل واضح ودامغ على الجرم، فإن الحكم المخفف سوف يلقي ظلالاً من الشك، وسوف يوحي بأنه حتى السلطات غير متأكدة ولا تدري ماذا تفعل. بينما الحكم القاسي بالسجن لمدة طويلة يعمل على تبديد تلك المخاوف والشكوك.

ولذلك فإن الرجل البريء سيُحكَم عليه بضعفي المدة دوماً. إن هذه خدعة قديمة اعتاد النازيون استخدامها ليس في مجال الحكم القاسي بل في قساوة ووحشية العقاب في معسكرات الاعتقال. فلربما كان رجل الشارع الألماني العادي يقول: "بالطبع لو لم يكونوا خونة لما تعاملوا معهم بهذه القسوة".

ولكن للحياة سنتها ومجراها برغم أنف من يرفض حيث أخذت أنظمة الحكم الشيوعية تضعف وتختفي كما حدث في الاتحاد السوفيتي، ورومانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندة، ويوغسلافيا على حد سواء. ولقد كان ذلك يحدث أثناء قضائنا لفترة سجننا.

وبعدما صدرت الأحكام ببقائنا في السجن، بدأت عرائض الالتماس في الوصول من داخل البلاد وخارجها، حيث عبّرت عن احتجاجها على إجراء

المحاكمة وطالبت بإطلاق سراحنا. ولقد قدم عشرون من أشهر مثقفي بلغراد بينهم اثنا عشر من الأكاديميين التماساً في ٦ تموز (يوليو) ١٩٨٦ إلى الرئاسة اليوغسلافية:

"لقد جرت محاكمة اثنا عشر من المثقفين المسلمين في سراييفو في الفترة ما بين ١٨ تموز (يوليو) و١٩ آب (أغسطس) ١٩٨٣. وسوف تبقى المحاكمة معروفة في تاريخ القضاء اليوغسلافي على أنها نمط للعقاب على الفكر والكلمة. فلقد أصدرت المحكمة الابتدائية أحكاماً جائرة بحق مخالفات في الرأي من نوع لم نعهده من قبل في ظروف بلدنا: فلقد حكم على ثلاثة من المتهمين بخمس سنوات سجن لكل متهم وحصل اثنان على ست سنوات، وأحدهم ست سنوات ونصف، وآخر سبع سنوات، واثنان حكما بعشر سنوات لكل منهما، وواحد أربع عشرة سنة، والأخير حكم بخمس عشرة سنة سجن. ولقد أصدرت المحكمة العليا في البوسنة والهرسك أحكاماً مخففة تتراوح بين ثلاث سنوات ونصف إلى اثنتي عشرة سنة، ومن ثم خفّضت المحكمة الفدرالية الأحكام إلى مدد تتراوح بين سنتين وثمانية أشهر إلى تسع سنوات سجن".

وأتبعت نفس المجموعة من مثقفي بلغراد التماسهم هذا بآخر بعد أربعة أشهر بتاريخ ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٦ حيث كتبوا فيها أن المحاكمة كانت ملفقة وغير قانونية وطالبت بإطلاق سراحنا فوراً.

إن التهمة الرئيسية التي وجهتها المحكمة الابتدائية في سراييفو تتعلق بجُرم خطير وهو التجمع لأغراض معادية بموجب المادة ١٣٦ المرتبطة بالمادة ١١٤ من القانون الجنائي لجمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية. ومن ثم أُضيفت إلى تلك التهمة تهمة أخرى وهي ما يسمى بجنحة الرأي -أي القيام بدعاية مساندة للعدو حسبما تنص عليه الفقرة الأولى من المادة ١٣٣ للقانون الجنائي اليوغسلافي. ولقد افترضت محكمة مقاطعة سراييفو أن تلك التهم قد ثبتت بحق المتهمين وأصدرت أحكاماً وصل أقصاها إلى ١٥ سنة سجن فيما تفاوتت الأخرى بين خمس وأربع عشرة سنة في الحالات الأخرى.

ولقد نقضت المحكمة الفدرالية في حكمها الصادر في ١٩٨٥/١٠/٣١ التهمة الرئيسية بتشكيل تجمع معاد لأغراض تقويض أسس النظام الاشتراكي وأنشطة معادية للثورة، على أنها تهمة قائمة على أسس واهية وغير مبررة. ولقد قامت المحكمة بتخفيض التهم إلى مجرد تصريحات مكتوبة وصفت على أنها دعاية معادية. ومع ذلك فلقد بقيت الأحكام قاسية. وعلى الرغم من أن أحكام مثل هذه التهم هي سنة أو سنتان إلا أن علي عزت بيغوفتش صدر بحقه حكم بالسجن لمدة تسع سنوات وأصدرت نفس المحكمة الفدرالية حكماً بسجن عمر بهمن لمدة ثماني سنوات، عصمت كاسوماغتش لمدة سبع سنوات، وحسن تشنغتش لمدة ست سنوات، وصالح بهمن لمدة أربع سنوات.

وإننا ننتهز هذه الفرصة لنلفت انتباهكم إلى عدم شرعية كل الإجراءات وعشوائية وإجحاف الأحكام. إن هناك شكوكاً وأموراً مريبة ظهرت بسبب قيام واحد وعشرين من الشهود الستة والثلاثين بتغيير إفاداتهم أمام المحكمة أو أنهم قاموا بسحبها. ولقد عبّر الشهود عن الأسباب التي دفعتهم إلى القيام بمثل ذلك العمل غير المألوف. إن الإفادات التي قيل إنهم أدلوا بها للشرطة ودون السماح لممثلي الدفاع بالحضور هي إفادات تمَّ إملاؤها تحت الإكراه من خلال تعريض الشهود لمعاملة سيئة ومرهقة ولمدة طويلة، وتوجيه تهديد جدّي لهم، وحتى في بعض الأحيان الضرب. ولم يكن أيٌّ من أولئك الذين استدعتهم الشرطة السرية يعلم بأنه سيصبح شاهداً أو يتم اتهامه في المحكمة أو العديد منهم من وثائق سفرهم كنوع آخر من الضغط والابتزاز، وإن أفضل مثال على صدق ذلك هي حالة مصطفى سباهتش الذي كان من المفروض أصلاً أن يكون شاهداً في المحاكمة. ولقد رُوي خلال جلسة محكمة العدل العليا بتارخ ١٩٨٤/٣/١٤ كيف أن ضابط التحقيق عرض عليه أحد أمرين: إما أن يعترف على أي من المتهمين الرئيسيين الثلاث (مقابل إطلاق سراحه) أو أن يتم توجيه الاتهام له هو شخصياً.

ولقد قيل له إن أقصر مدة للأحكام في المحاكمة القادمة ستكون خمس سنوات. ولقد ذكر سباهتش أسماء ضابطي التحقيقات اللذين قاما بذلك العمل ولقد تمَّ توجيه تهم إلى سباهتش، وحُكم عليه بخمس سنوات سجن بعد أن رفض أن يشهد ضد الآخرين.

إن كل ذلك يدعم اعتقادنا بأن التهم المبنية على تلك الشهادة أثناء التحقيقات هي محض تلفيق وافتراء، وأنه كان ينبغي للمحكمة أن تتعامل مع الإفادات التي أدلى بها الشهود في قاعة المحكمة كدليل غير موثوق. ومع ذلك فلقد آثرت المحكمة ألاّ تصدق ما ترى أو ما تسمع، ولكن أن تضع ثقتها في إفادات أخذت تحت الضغط والتهديد خلال التحقيقات وبدون حضور ممثل الدفاع. ولقد أصرت المحكمة على ذلك بشكل مدهش حتى عندما كان يتم تقديم دليل محسوس على بطلان تلك التهم. وهكذا فلقد تمَّ توجيه تهمة لحسن تشنغتش بأنه قال "لا يجوز للمسلم أن يقبل دماً من غير مسلم ولا أن يتبرع بالدم لغير المسلم أيضاً". ولقد تمَّ الإثبات خلال جلسة المحاكمة الرئيسية أن تشنغتش كان يتبرع بالدم بشكل دوري ولديه بطاقة لإثبات ذلك. وعلاوة على ذلك فلقد نظّم حملة تبرع بالدم في المدرسة الدينية. لقد أفادتنا هذه الحقيقة وحقائق أخرى كذلك إلى أن نصل إلى استنتاج مفاده أن تلك الأحكام لم تقم على أسس صحيحة وأن كل المحاكمة كانت ملفقة أصلاً".

وكذلك فإن المجلس على علم بمقترح المتهم الأول، علي عزت بيغوفتش بتوفير حماية قانونية ضد حكم المحكمة الفدرالية، ونتفق معه في أن هذه المحاكمة للمثقفين المسلمين كانت بمثابة انتصار لسياسة الأتوقراطية غير العقلانية على العدالة والمنطق والحقيقة. والآن لم يتم الدوس على العدالة فقط وإنما على حياة وصحة كل من علي عزت بيغوفتش، وعمربهمن، وحسن تشنغتش، وعصمت كاسوفاغتش وصالح بهمن التي أصبحت في خطر بعد أن قضوا ثلاث سنوات ونصف في السجن في ظروف مرعبة لا تكاد تطاق. ولذلك فإننا نحثكم مرة أخرى على أن تقوموا بإطلاق سراحهم لتجنب الأسوأ والأكثر مأساوية".

ولكن ذهب كل التماس واستئناف أدراج الرياح.

ولقد تمَّ نقلي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣ إلى سجن فوتشا ووضعت في الجناح إس-٢٠ كي أقضي مدة الحكم الصادرة بحقي وهي ١٤ سنة. وكان جناح إس-٢٠ يُعرف بأنه جناح القتلة حيث إن معظم المحكومين في ذلك الجناح قد ارتكبوا جريمة أو أكثر من ذلك النوع من الجرائم.

وفي واقع الأمر فإن المكان كان عبارة عن غرف عدة تشرف على مساحة مركزية واسعة بمثابة غرفة المعيشة وأربع عنابر للنوم، اثنان على اليمين وآخران على الشمال مع منافعهما. ولقد شكّل هذا أحد أجنحة السجن. وكان هناك حوالي ٨٠ إلى ١٠٠ شخص في ذلك المكان وكان من بينهم شخص ارتكب ثلاث جرائم قتل حُكِم عليه بالإعدام ومن ثم خفف إلى ٢٠ سنة سجن. وقد يبدو الأمر متناقضاً ولكنه كان من حسن حظي أنني أُرسلت إلى ذلك الجناح. فلقد كان بعض زملائي في المحاكمة في مكان أسوأ مع صغار اللصوص ومرتكبي الجرائم الصغيرة وهو ما يعد بمثابة سوء حظ في السجن. فإن أولئك أشخاص بدون شخصية، بينما ينتمي القتلة إلى طراز مختلف تماماً.

ولا أستطيع القول إنه قد أُسيئت معاملتي في السجن، على الرغم من أن الأشغال الشاقة هي بحد ذاتها تعذيب جسدي وذهني. ولكن ما زاد من سوء وضعي هو أنهم وضعونا نحن السجناء السياسيين مع المحكومين الآخرين في نفس القسم. ولم يكن هذا أمراً يعرفه الرأي العام لأن الشيوعيين الذين كان قد تمَّ اعتقالهم كسجناء سياسيين في يوغسلافيا القديمة كانوا يلقون معاملة جيدة ويتم احتجازهم بعيداً عن الآخرين. ولكن عندما جاء الشيوعيون إلى السلطة ألغوا تلك الامتيازات وحرموا خصومهم السياسيين منها. وعلاوة على ذلك فلقد كان وضع السجناء السياسيين في يوغسلافية الشيوعية أسوأ بكثير من سابقتها. فلقد كان لكل محكوم باستثناء السجناء السياسيين الحق في زيارات إلى خارج السجن والحصول على إذن مغادرة وإجازة عائلية سنوية. ولم يسمح لي خلال ست سنوات بالخروج خارج جدران السجن على الرغم من أن زملائي من السارقين، ومرتكبي الجرائم التجارية، وقطّاع الطرق، قد سُمح لهم بالقيام بعدة زيارات لمنازلهم أو إجازات أو أذونات مغادرة.

ولقد تمسكت ببعض الأمل إلى أن صدر قرار محكمة العدل العليا في البوسنة والهرسك. ففي بادئ الأمر لم أعتقد أنه من الممكن أن أموت في السجن

بسبب شيء كتبته بغض النظر عما قلته في تلك الكتابة. ولكن حينما أكدت المحكمة العليا على الحكم بعد سنة أدركت أن الشيطان كان له الكلمة الأخيرة حينها وأنهم كانوا جادين في ذلك. وماذا عساي أفعل؟ لقد تنهدت طويلاً وبدأت تلك الطريق الطويلة التي لا تُرى نهاية لها. ولقد شعرت وكأنني قد حُكِم عليّ بالسجن المؤبد. ولكني لا أعرف اليأس، بل ولقد كنت مبتهجاً في بعض الأحيان. ولست بطلاً ولكنها كانت مسألة ثبات؛ أن المرء يقول أشياء في حياته ويعتقد بها ويؤمن بها ومن ثم تأتي لحظة الحقيقة. إن من أحد أهم مبادئ الإسلام ولعلها أهمها كما يعتبره البعض هو أن يتقبل المرء كل ما يحصل له على أنها مشيئة الله سبحانه وتعالى. والحق يُقال أنني لم أفكر بذلك قبل اللحظة، ولكنني وعندما واجهت إمكانية أن أقضي حياتي كلها خلف القضبان وأن أموت بين المحكومين ذكّرت نفسي حينها بالمبدأ الأساسي ألا وهو الثبات والاستمرارية. فلقد احتفظت بعقل سليم وكان الأطباء يقولون أنني صحيح الجسم أيضاً. وأحمد الله على ذلك الإيمان الذي مكنني من الثبات بالإضافة إلى الولاء والمساندة المعنوية التي أبداها أولادي. ولطالما تفكّرت خلال الأيام الأولى التي تلت النطق بالحكم فيما إذا ما كنت سأمتلك الشجاعة لمجابهة ما ينتظرني. ومرت السنون ولم ألمس في نفسي فتوراً في إرادتي في البقاء على قيد الحياة، ولكنني أصبحت أفكر أكثر فأكثر في قضية أنني أصبحت كبيراً وأن الموت ليس ببعيد عني الآن. ولقد كانت تلك الفكرة مصدر ارتياح بالنسبة لي فلقد احتفظت بها لنفسي وكأنها سر كبير.

وأيضاً قلت لنفسي إن هذه الكارثة الكبيرة في حياتي لعلها أنقذتني من مئات الكوارث الصغيرة التي كانت ستنهكني يوماً بيوم ببطء ولكن بثبات أقول ربما. أو لعلها...

وفي أوقات أخرى كنت أحاول أن أسبر أعماق لغز كبير. فلقد كنت أتفكّر في قضية معينة دون كلل، لكوني كنت متأكداً من أن هناك حقيقة ما تحاول أن

تنفلت مني ولكنها موجودة وقريبة في نفس الوقت. لو أنني كنت رساماً لكان ذلك الوقت الذي لا تنفع فيه الكلمات فرصة لرسم تلك الصور الذهنية غير المفهومة التي كنت أتفكر فيها محتاراً، وكانت مليئة بالأسئلة. وأعتقد أنني قد فهمت الفن الحديث بطريقة لا يفهمها إلا من أوجد ذلك الفن.

ولقد شرعت في وقت من الأوقات بعد أن انتهت المحاكمة وكل شيء، في تدوين ملاحظاتي عن تأملات في الحياة والقدر، والدين والسياسة، وعن الكتب التي قرأت وعن مؤلفيها وعن كل الأشياء التي يمكن أن تخطر ببال سجين خلال ألفين من الأيام والليالي الطويلة. ولقد تحولت تلك الملاحظات إلى ١٣ مجلداً من ورق من قياس (A5) مكتوبة بخط صغير وغير مقروء، حيث إنني تعمدت ذلك. ولقد قام أحد الزملاء من النزلاء بتهريب تلك المجلدات إلى خارج السجن في علبة لعبة الشطرنج وبقيت تلك الأوراق على حالها حتى تمَّ نشرها على شكل كتاب بعنوان (هروبي إلى الحرية) صادر عن دار نشر سفيلوست في سراييفو عام ١٩٩٩[١] .

ولقد تضاءلت شجاعتي في مواجهة الواقع مع مرور الأيام. ولقد كان أسوأ وقت هو بداية المساء حيث كنت أعاني حينها من الكآبة. يبدو أنني كتبت عن ذلك دون تحفّظ وانتباه في رسالة إلى ابنتي سابينا لأنني تلقيت الرسالة التالية منها في يوم من الأيام:

"لا أدري إن كنت مررت بهذا الشعور من قبل، ولكن بالنسبة لي فإنني أشعر به مع هبوط الظلام. وابحث حينها عن شيء يشغلني كي أنساه ولو لفترة قصيرة. ويختلط في بعض الأحيان الشعور بالحزن مع الشعور بالخوف والوهن الجسدي. وأعلم أنه كان الأمر دوماً صعباً عليّ إذا ما أردت الخروج من ذلك الوقت. ولكن كنت عندما أخرج ويخيّم الظلام فإن ذلك الشعور يختفي. ويبدو لي أن كل مخاوفي وشكوكي وأحزاني اجتمعت في ذلك الشعور الغريب، وأدركت حينها أن تلك هي الحالة الذهنية التي

---

(١) وصدر بالعربية مترجماً إليها عن دار الفكر بدمشق عام ٢٠٠٢.

يقرر فيها العديد من الناس التوجه إلى الكحول أو المخدرات كي يتعدّوا تلك المرحلة. إنني أخبرك بذلك لأنني أريدك أن تعلم أنني أعرف وأدرك ذلك الشعور ولو جزئياً، وأنني أستطيع أن أتخيل ما هو شعورك. ويزيد السجن من صعوبة الأمر تماماً كما يجعل الإحساس بالحرية في هذا البيت من الأمور أسهل بكثير. ولعل أفضل ما يمكنك عمله عندما يتملكك هذا الشعور هو أن تقوم بشيء مسلٍّ، قم بقراءة شيء خفيف إذا ما استطعت، أو قم بحل الكلمات المتقاطعة، أو شاهد التلفاز. وأنا أعلم أنه ليس أمراً حميداً أن يستسلم المرء لمثل ذلك الشعور في هذه اللحظات العصيبة. إن ذلك سوف يجعل الأمور أكثر صعوبة.

وكما ترى فها أنا أنظّر عليك ثانية، ولكنني أحاول أن أخفف عنك. فحقيقة ما أنا أرغب به فعلاً في تلك الأوقات هو أن نجلس سوية في بيتي نحتسي القهوة. ولكن أنت تعلم أنني أفكر فيك دائماً وخاصة عندما يأتي المساء".

يمكن أن يكون المرء أستاذاً في الجامعة أو فيلسوفاً مشهوراً، ولكن ذلك لن يجدي نفعاً في جعل حياة المرء أسهل في السجن. أما بالنسبة للمحكومين أو السجناء فإنه من المهم أن تكون محامياً. ولقد كنت أنا المحامي الوحيد في ذلك القسم. فلقد طلب زملائي في المعاناة مني أن أكتب جميع أنواع المطالب، والالتماسات، والاستئناف بالنيابة عنهم. كانوا يطلعونني على تفاصيل قضاياهم بل إنهم كانوا يعترفون لي بأخطائهم وجرائمهم. كانت تلك تجربة مثيرة للاهتمام. عرفت كل قضية على حدة وفكرت كثيراً بهم. هل أتجرأ وأقول أن بعضاً من أولئك القتلة كانوا أناساً طيبين؟ فلقد ارتكب العديد من المحكومين جرائم قتل لأهداف إنسانية، وعلى الرغم من أنه لا يمكن تبرير القتل إلا أنه يمكن للمرء أن يتفهم السبب الكامن وراء ذلك. وكان أحد النزلاء في سجن فوتشا شاباً سُجِنَ بجريمة قتل أحدهم عندما كان يدافع عن أبيه. فلقد كان يقوم بأعمال في منزله عندما جاءه الخبر أن والده يتعرض للضرب في المطعم المحلي. وأسرع إلى هناك ليجد أباه المُسن ملقى على الأرض تحت الطاولة ويضربه أحد

أشقياء القرية. فما كان منه إلا أن سحب سكينه وطعن الرجل فقتله. وأعتقد أنني كنت سأقوم بالشيء نفسه في تلك الحالة. أما الشخص الآخر فهو يونوج كيتشو الذي كان يشاركني الغرفة لمدة ثلاث سنوات. إن يونوج رجل هادئ وتعيس واجه مصيراً حوّره عبدالله سيدران إلى سيناريو مؤثر لفيلم (كودوز).

وكان أحد السجناء يقضي حكماً بالسجن لمدة عشرين عاماً لقيامه بقتل زوجته الخائنة ووالدتها التي كانت تتستر عليها. ولقد حُكِمَ عليه بالإعدام وقضى وقتاً عصيباً لمدة سنة في كل المحاكم التي أكدت على نفس الحكم ألا وهو الإعدام.

وقد تمّ إبدال العقوبة بأخف منها في اللحظة الأخيرة مما مكّنه من البقاء على قيد الحياة. وقال لي أنه أجهش بالبكاء كالطفل عندما أخبروه أنه تمَّ إنقاذ حياته.

ويظهر أدب القرن التاسع عشر تفهماً معيناً للمجرمين والخاطئين. حيث يقول الكاتب المسرحي النرويجي أيبسن في مسرحيته (براند): "كن أي شيء تريده، ولكن عشه إلى أقصى حد". إن المجرم في بعض الحالات المتطرفة يظهر لنا وكأنه رجل حر. يتصرف بناءاً على قوانينه هو، بينما ترى الرجل الورع والمستقيم عبداً للتعليمات والقواعد. ويبدو أن السلوك الناتج عن أسلوب لا يستقي مصدره من الروح يبدو مرفوضاً بالنسبة لنا. وفي تلك الحالة فإننا نتعاطف تلقائياً مع الرجل الحر.

إن معظم الناس يرتكبون الخطأ من أجل مصلحتهم مثل الحصول على السلطة، والثروة، والمجد، والحب، أو ما شابه ذلك. ولكن يبقى هناك الشر من أجل الشر، ذلك الشر الذي هو في نفسه الغاية ذاتها. وهذا هو الجحيم بعينه. ولقد سنحت لي الفرصة مع الأسف للتعرف على أصحاب ومرتكبي مثل هذا الشر.

فلقد قتل أحد السجناء رجلاً بسبب الحسد. ولقد ركّز قرار الحكم على ذلك. وحُكِمَ عليه بالسجن مدة ٢٠ عاماً ولم ينقذه من حكم الإعدام سوى تقرير الطبيب النفسي الذي أكّد أن نسبة ذكائه متدنية جداً. لم يكن مجنوناً لأنه كان شخصاً طبيعياً ولكنه لديه إعاقة عقلية. فلقد قام في أحد المرات برمي كتاب كان يقرؤه نزيل آخر كنت "أتفلسف" معه ونناقش الفلسفة أحياناً. لقد رمى الكتاب من الشباك دونما سبب إلى المنطقة المحظورة، حيث لا يمكن استرجاع الكتاب الذي تركه صاحبه ليذهب إلى دورة المياه ولم يجد الكتاب لدى عودته، وأخبره سجين آخر فيما بعد بما جرى. وبالمقارنة مع أولئك الأنذال فإن اللصوص يبدون طبيعيين جداً ومقبولين. فهم يسرقون لأنهم بحاجة إلى ما لديك. لديهم نوعٌ من الدافع الإنساني الذي يمكن تفهّمه. ولقد أخبرني صديقي الذي فقد كتابه: "أنا أعلم أنك تؤمن بالله. ولست متأكداً من وجوده. ولكنني متأكد أن الشيطان موجود".

ولقد كان هناك العديد من الألبان في سجن فوتشا حيث تمَّ سجنهم لمشاركتهم في حركة المقاومة ضد النظام الصربي الذي ألغى الحكم الذاتي لإقليم كوسوفو. لقد كنت على علاقة ودّية معهم ولكننا لم نتخالط كثيراً. فلقد كانوا يتمرنون دوماً في الساحة الرئيسية في السجن، فيما نتمرن نحن في منطقة أخرى على الجانب البعيد للساحة. ولقد كان السجناء والحرّاس يحترمون قوانين وتعليمات السجن غير المكتوبة. ولقد كان الألبان كتومين وتآمريين وجادّين جداً. ولقد كانوا يتمادون في بعض الأحيان ويعلنون إضرابهم عن الطعام. ولقد أرادوا أن يقرؤوا كتابات ماركسية لم يسمح آمر السجن لهم بقراءتها. ولقد عينت إدارة السجن ضابطاً ألبانياً كانت وظيفته مراقبة أولئك (الانفصاليين).

وأما بالنسبة لنا فقد كنت أنا ورفيقيّ جمال وأدهم. ولقد سألنا الألبان عما نعتقده إزاء حركتهم. ولقد أجبت: "إن الألبان هم شعب مسلم وهذا هو

السبب الرئيس في مساندتنا لكفاحكم". ولقد ارتبكوا قليلاً بسبب تلك الإجابة. ولقد ردَّ رئيس مجموعتهم بأنه هناك مجموعة من وجهات النظر الخاطئة في إجابتي نظراً لأن الدين قد لعب دوراً سلبياً في تاريخ الشعب الألباني، وكان غالباً ما يتم تجنيده لخدمة مصالح المحتلين. ولقد أضاف "الرفيق" قائلاً: "لقد تجاوزنا الدين فلم يعد شعبنا يحتاجه في كفاحهم من أجل الحرية". فقلت حينها: "إذن لا بد أنكم الشعب الوحيد في العالم الذي يستطيع العيش بدون دين، ولكن تشير معلوماتنا إلى أن غالبية الشعب الألباني لا تشاطرك الرأي". فردَّ واثقاً: "إن الماركسية اللينينية هي التي جلبت التقدم والازدهار لشعبنا". حسناً اذهبوا في طريقكم فهذا شأنكم ولكننا سوف نستمر بدعم ومساندة المطالب الشرعية للشعب الألباني المتمثلة في الحرية والمساواة". وهكذا انتهت المحادثات ولكن بقينا أصدقاء بعد ذلك.

وبعدما رفضت محكمة العدل العليا كل التماساتنا واستئنافنا فلقد تمَّ تخفيض مدة حكمي من ١٤ إلى ١٢ سنة. وكان ما زال أمامنا فرصة بالتقدم بطلب التماس إلى المحكمة الفدرالية في بلغراد من أجل مراجعة قضائية غير اعتيادية للحكم. ولقد انتهزت تلك الفرصة.

ولقد بيّنت في الطلب المؤلف من ٣٠ صفحة، قدّمت دليلاً على أن تلك الاتهامات باطلة وأن هذا أدى إلى أن تقوم المحكمة بمخالفات إجرائية عديدة تمَّ فيها خرق القانون، حيث قلت:

"إن الأحكام غير القانونية التي تصدرها المحكمة هي نتاج لأخطاء أو ثغرات قانونية في إجراءات المحاكمة التي أدت إلى صدور ذلك القرار. ولكن العكس صحيح في هذه الحالة. إن الأساس الباطل الذي بُنيَت عليه التهم المتعلقة بطبيعة وأهداف كتيب البيان (الإعلان الإسلامي) والذي كان بطلانه واضحاً منذ اليوم الأول لإجراءات التحقيق أدى إلى قيام بعض سلطات التحقيق والمحكمة بارتكاب خروق للقوانين والتلفيق. ولعل الأمر يبدو متناقضاً إذا ما قلت إنني كنت سوف أتلقى محاكمة

عادلة. ولم أتلقَّ محاكمة عادلة لأنني كنت بريئاً. فلو أنني كنت مذنباً فعلاً لكان أشرف على التحقيق معي قاضٍ وليست الشرطة، ولكان سمح لمحامي الدفاع بحضور جلسات الاستجواب والتحقيق مع المتهمين ومنذ البداية كما ينص عليه القانون، حيث لم يتم تمكينهم من ممارسة هذا الحق إلا بعد توجيه التهم. ولو أنني كنت مذنباً لكان ممكناً أيضاً ألا يتم استخدام أساليب غير قانونية مع الشهود ولما أُسيء تفسير وفهم إفاداتهم، ولما كان على الصحافة أيضاً أن تخلق حالة من الضغط العصبي من خلال حملة غير مسبوقة من أجل إقناع الرأي العام بأن المتهمين مذنبون، وحتى إن كانت إجراءات التحقيق لم تنته بعد. وبالطبع ما كان ليتم محاكمتنا سراً لو أننا كنا مذنبين. ما كان ليكون أي شيء مما حدث ضرورياً، ولكن كان هناك سباق محموم لإيجاد ذنب حيث لا يتواجد أي ذنب ولإخفاء الحقيقة عن الرأي العام".

ولقد كتبت الصحافة العالمية، ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، وبعض العناصر الحرة من الصحافة اليوغسلافية مطولاً عن أن المحاكمة ملفقة. ولقد خلق ذلك جواً جعل من الممكن تغيير الحكم ولكن ذلك استغرق ثلاث سنوات، ولم يخفف حكم المحكمة الفدرالية من مدة سجني تخفيفاً كبيراً، ولكنه غيَّر طبيعة التهم الموجهة إلينا، بحيث أبقيت تهمة "الجنحة الكلامية" كما تنص عليها المادة ١٣٣ من القانون الجنائي. إن نص هذه المادة مفتوح للتفسير الحر لفحواها حيث إنها تقول: "إن أي شخص يقوم بإهانة أو مهاجمة نظام الدولة كلامياً، أو كتابياً، أو تصويرياً، سيعاقب بالسجن لمدة تصل إلى خمس سنوات". ولقد كان الحكم النهائي الصادر بحقي هو تسع سنوات سجن مع الأشغال الشاقة.

وعملياً فلقد أمضيت خمس سنوات وثمانية أشهر في السجن بسبب بعض الكلمات والكتابات والبيانات- أي بسبب معتقداتي.

لقد درسنا في المدرسة أن تاريخ البشرية بدأ وأصبح الإنسان "حيواناً تاريخياً" عندما تعلم الكتابة. ولكن الإنسان أصبح سلالة بشرية عندما تعلم الكلام وأن

يقول ما يفكر به. ومن ثم جاء أولئك الذين منعوه من الكلام واخترعوا قانون"الجنحة الكلامية" سيء السمعة، مخالفات وجنح بسبب كلمات. فأعادوا الإنسان بذلك إلى الظلمات التي كان الإنسان يعيش فيها.

ويعود "الفضل" من المنظور التاريخي في إنشاء مؤسسة "الجنحة الكلامية" بالمعنى الحديث للمصطلح إلى الدولة الاشتراكية الأولى ألا وهي الاتحاد السوفييتي. ولقد تقدم لينين في عام ١٩٢٢ بمقترح لتعديل القانون الجنائي في جمهورية روسية الاتحادية السوفييتية الاشتراكية، حيث أورد في ذلك المقترح دعاية العدو على أنها واحدة من ستة جرائم جدد يمكن أن تصل عقوبتها إلى الإعدام، ولقد برر لينين مقترحه على النحو التالي: "آمل أن المعنى الأساسي واضح. فيجب أن يكون هناك تعريف واسع وشامل قدر الإمكان نظراً لأن الوعي الثوري هو الذي يمكنه التضييق أو التوسع في التطبيق".(من رسالة إلى رئيس الدائرة العدلية، ديميتري كورسكي).

ولقد سألني أحد حضور محاضرة عامة في سرايفو عام ١٩٩٤ عن الرقابة: "سيدي الرئيس هل تقومون بمراقبة ما ينشر ويكتب فهذه حالة حرب كما تعلمون لماذا تسمحون بمثل تلك الكتابات؟ لماذا لا تقومون بممارسة الرقابة على ما ينشر؟ فكان ردي أنني لن أساند القيام بمثل ذلك الإجراء بعد كل ما مررت به في السابق. وإن هذه القضية ليست قضية مبدأ فقط وإنما قضية إنتاجية أيضاً. إن المنع والحظر والقوة لا تنتج شيئاً عندما نريد إقناع الناس. ولقد ذكرت أن القرآن الكريم نفسه يشير إلى هذه القضية في جملة إعجازية وواضحة في نفس الوقت وهي "لا إكراه في الدين" أي أنه لا يوجد إجبار للناس بوجوب الاعتقاد بالدين. وإذا ما توسعنا في تفسير ذلك بعض الشيء فإننا ندخل تحت ذلك أنه لا إجبار في ما يعتقده الناس ولا إكراه. ولقد كان الشيوعيون مستعدين لاستخدام التهديد لإيقاف بعض الأفكار وحتى استخدام الضرب، والشرطة

والسجون نظراً لكونها أساليب كثر استخدامهم لها أكثر من أي شيء آخر، ولقد برهنت تجربة النظام الشيوعي وهزيمته وبينت للأبد أنه نظام غير ممكن التطبيق في نوع من التجربة التاريخية.

وبوسع المرء أن يتعرف على الجو السائد في البيت المتأرجح بين الآمال وخيبات الأمل من خلال الرسائل التي كان أولادي يبعثون فيها إليّ.

فلقد كتبت سابينا في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٨٥ تقول:

"إنه ليس صحيحاً أن الزمن كفيل بعلاج كل شيء. إن الغضب والألم اللذين أشعر بهما يزدادان يوماً بعد يوم. وكلما مضى الوقت بعد المحاكمة كلما فكرت بها أكثر، وأعتقد أنني لم أعد أطيقها كما فعلت يوم المحاكمة نفسها. إنني أكتب إليك عن أشياء عادية يومية، لأنني لا أستطيع أن أكتب لك عن أفكاري وأحاسيسي اليومية تجاه كل ما عانينا ونعاني وما زلت لا أستطيع تقبله. وإنني أُسر بذلك إليك كي تعلم كل شيء. وفي نفس الوقت يجب أن أقول إنه لم يكن هناك أية حيلة للعدالة ولو للحظة واحدة بما حصل في تلك المحاكمة التي أُجريت باسم العدالة. وآمل أن يكون هناك شيء من العدالة في قرار المحكمة الفدرالية".

وكتبت أيضاً في الثالث من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ تقول:

"لقد ذهبت هذا الصباح إلى وزارة الداخلية كي أستعيد جواز سفري. وحقيقة فلقد ذهبت عدة مرات إلى هناك كي أطالب بجواز السفر، ولكن هذه المرة آمل أن يحصل شيء فلقد أعطوني نموذجاً لتعبئته قبل مغادرتي إلى شاطئ البحر. ولكن كان الأمر مجرد مضيعة للوقت مرة أخرى لكونهم أخبروني بأن طلبي قد تمّ رفضه وأنه سوف يتم تبليغي خطياً بذلك قريباً جداً، وهو توضيح لم يوضح الأسباب وراء مصادرة جواز سفري. لماذا لا يمكنني أنا من بين كل الناس أن أحصل على جواز السفر؟ لا أعلم، وإنني مهتمة فعلاً بان أعرف ما هي الأسباب التي كانت في ذهنهم عندما قاموا باتخاذ هذا القرار. وأنا مستعدة للموافقة على البقاء بدون جواز سفر ولكن أريد أن أعرف الأسباب فقط. ولكن يبدو أنني سأبقى بدون جواز سفر وبدون معرفة للأسباب.

وسابينا مرة أخرى في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥:

"إن أحد أهم ما تقوم به هذه الأيام هو أن تتأمل وتنتظر بفارغ الصبر قرار المحكمة الفدرالية، ولقد كنا على أعصابنا لأيام عدة كلما رنّ جرس الهاتف. ولكن لم يظهر شيء بعد. ولقد اتصل المحامي أورخان من بلغراد ليخبرنا أنه لم يتم النطق بالحكم بعد. إلى متى سيستمر هذا؟ ولكني أشعر أن شيئاً حدث وأننا سنحصل على أخبار قريباً. ولكن ما لا يروق لي هو شعوري بأن ذلك التفاؤل الذي لازمني أصبح يتضاءل شيئاً فشيئاً وأشعر بالخوف أكثر من الرجاء. ولكن الرجاء أو الأمل هو الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة لذا يجب أن لا أفقد الأمل".

سابينا في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥:

"إنني أفكّر فيك طوال الوقت. فاليوم من المنتظر أن تحصل على الرسالة التي كُتِبَت إليك بخصوص قرار المحكمة الفدرالية. كم أتمنى لو نستطيع أن نكون معك ولو لخمس دقائق فقط. وبالرغم من أنك تخبرنا أنك دائماً مستعد لمواجهة أي شيء إلا أنني أعلم أنه لن يكون الأمر سهلاً بالنسبة لك. إن هذا هو الحكم الأخير حيث انتهى التكهن. ولا أعلم مدى خيبة أملك ولكنها كانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة لنا".

وكتب ابني بكر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥ يقول:

"والدي العزيز أعتقد أنك قد تلقيت رسالة سابينا التي تخبرك بها أنه قد تمّ تخفيض مدة حكمك إلى تسع سنوات. إن ذلك أسوأ مما رجوناه، ولكن هكذا هي الأمور. فلا تجزع.

لقد خاب أملنا كثيراً. والله أعلم كيف ستكون حالتك عندما تعلم بالخبر ولعل ذلك يحدث الآن أثناء قراءتك الرسالة. ولقد فكرت في كلمات تهدئ من روعك، ولكنها هدأت من روعي أنا أيضاً وأنا أفكر بها. إن كلانا يؤمن بالقضاء والقدر وهو ما يعني أن تاريخ خروجك من السجن هو مكتوب أصلاً. أما الأرقام مثل ١٤، ٩، ١٢ فهي مجرد أرقام ولا يؤبه لها. ولقد عبرت أنت عن تلك الفكرة بأحسن طريقة في نهاية كتابك: إن عظمة الرجل تكمن في "الروح التي تقيس نفسها بالوقت". وبهذا

الشأن فلربما لديك فرصة كي تحيا حياة حقيقية، ولربما أنت الآن في المكان المناسب بينما تُركنا نحن على الهامش، أو أننا أصبحنا مجرد متفرجين في أحسن الأحوال. ولا تفقد رباطة جأشك ولا تشك في هذا كله أبداً".

إن نص قرار حكم المحكمة الفدرالية يعتبرك مذنباً بموجب المادة ١٣٣ ولربما لن يكون هناك المزيد من الأخبار المضللة كون الحكم في سراييفو، وما زال هناك أمل في إجراء تعديل على المادة أو أن يتم منحك عفواً عاماً أو في أن يطرأ تحسن على ظروف اعتقال السجناء السياسيين (حيث يتوجب علينا ممارسة المزيد من الضغط في هذا المجال وخاصة بيننا نحن أفراد العائلة).

وأما ليلى فكتبت إليّ بتاريخ ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٨٨ قائلة:

"والدي العزيز إن زياراتنا لك في السجن تمر كلمح البصر، فلا تكاد نبدأ نقول ما نريد حتى تنتهي. إن هذه سنين طويلة "أكلها الجراد" كما يقول بيكتش. ولكنني أذكر بكل ودّ ذكرى محادثتنا الأخيرة خارج محل البقالة إذا كنت ما زلت تذكر. سوف أحاول أن أربط ذكرى تلك اللحظة بالانتظار الطويل الذي تلا ذلك، ولكنني أعلم أننا سنقوم بتقسيم الحياة دوماً إلى الحياة قبل المحاكمة والحياة بعد المحاكمة. أما بالنسبة لهذه اللحظة فأعتقد أننا سنتجاوزها صدفة".

إن أكثر الكلمات التي يسمعها المرء عدا كلمات الشتم هما كلمتا العفو والعفو العام. فلقد كان السجناء يقدّمون دليلاً موثوقاً بعد كل زيارة من أهاليهم أن هناك عفو عام وشيك وهو ما لم يتحقق أبداً. وأنا أيضاً كنت آمل في سرّي أن يكون نوع من العغو العام. فلقد كنت متأكداً أنني لن أقضي مدة تسع سنوات سجن مع الأشغال الشاقة.

وفي صباح الأول من شباط (فبراير) ١٩٨٧ تمَّ استدعائي على غير العادة من أجل زيارة خاصة ولقد اتجهت إلى المبنى وأنا مشغول الفكر حيث قلت في نفسي إنه لا بد وأن شيئاً فظيعاً حدث. ولقد وجدت في جناح الزوار ابنتيَّ سابينا وليلى. وكانتا كما لو قرأتا أفكاري. وقامتا بتحيتي بالابتسامات كي

يشعرنني فوراً بأنهن لم تأتيا بأخبار سيئة. ومن ثم قالتا إنهما تحملان رسالة من مسؤول ذي منصب رفيع يطلب فيها مني أن أقوم بتقديم التماس من أجل العفو وأنه سيتم إطلاق سراحي. ولقد نقل الرسالة إليهما زميل ليلى أيام المدرسة ردرافكو دجورجيتش الذي يشغل منصب أمين سر لجنة الدولة للعفو ويظهر أن الرسالة جاءت أصلاً من نيكولا ستوباتوفيتش مسؤول حزبي رفيع ورئيس اللجنة نفسها. إن ردرافكو دجورجيتش الذي التقيت به بعد ذلك بسنوات عدة كان رجلاً طيباً ذا نوايا حسنة. قدّم النصح لبناتي بأن يتضمن التماس العفو كلمات تنم عن الندم وأخرى طيبة بحق نظام الحكم. فقامت ابنتاي بإحضار استدعاء مكتوبة كلماته مسبقاً بتلك الفحوى. ولقد رأيتها ولكنني لم أوقعها. واستمرت مدة سجني حيث كان ما زال أمامي خمس سنوات أخرى أقضيها.

ولقد كتبت في ذكرى ميلادي في الثامن من آب (أغسطس) عام ١٩٨٨ في ملاحظاتي التي نشرت عام ١٩٩٩ تحت عنوان (هروبي إلى الحرية: ملاحظات من السجن) ما يلي: "اليوم هو الثامن من آب (أغسطس) عام ١٩٨٨. أصبح عمري الآن ثلاث وستون سنة. ولقد قضيت حتى الآن خمس سنوات ونصف في السجن وما زال أمامي أقل من نصف مدة الحكم -ثلاث سنوات ونصف. ولا أستطيع سوى التطلع قدماً في خضم الأحداث المتقلبة في الخارج. وحتى ذلك التطلع هو أمر مهم. فإن المشهد مثير ومزعج في نفس الوقت". ص ٣٤٥.

ولقد تسارعت وتيرة الأحداث ولم أكن لأبقى مجرد مراقب. فلقد كنت سأمكث في السجن أربعة أشهر أخرى. ولقد تمَّ استدعائي إلى إدارة السجن بين الثالثة والرابعة من عصر يوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨. وهناك كان قائد الحرس مالكو كورومان يقف في زيّه الرسمي وقام بنبرة رسمية بتلاوة قرار الرئاسة اليوغسلافية بإطلاق سراحي قبل انتهاء مدة الحكم بالسجن التي عليّ أن أقضيها. كان ذلك اليوم هو اليوم الخامس

والسبعين بعد الألفين من فترة سجني. لقد أصبحت السنون "التي أكلها الجراد" خلفي.

وعندما حصلت على حريتي أُجريت معي عدة مقابلات حول المحاكمة. وكان أهم سؤال طُرِحَ عليّ بعد فوزي في انتخابات عام ١٩٩٠ هو هل سيكون هناك أعمال انتقامية ضد الشيوعيين على مافعلوه بي وبرفاقي. ولقد كان ردي أنه لن يكون هناك انتقام وهذا ما حدث بالفعل. فلقد استمر كل أولئك الذين شاركوا بالمحاكمة من ضباط التحقيق، والمدّعي العام، والقضاة، استمروا في حياتهم بشكل اعتيادي، والقيام بوظائفهم وحتى إن بعضهم احتفظ بالمنصب الذي كان يشغله في السابق. فلقد سامحتهم كسياسيّ. ولكنني لم أسامحهم كإنسان.

الفصل الثالث

تأسيس الحزب
ومحاولة لإعادة هيكلة يوغسلافية

الطمأنينة ومن ثم قلاقل في البلاد. بيان الأربعين. الجمعية التأسيسية والبيان الرسمي لحزب العمل الديموقراطي. السفر إلى أمريكا. اللقاء بمهاجري الصرب والكروات. مهرجان خطابي في فوتشا Foc'a.مهرجان آخر في فيليكا كلادوشا: نقاشات حول الانفصال عن يوغسلافيا وحول التسليح. ذو الفقار باشتش والانقسام. اللقاء الأول مع تودجمان. النصر في الانتخابات عضو رئاسة البوسنة والهرسك. لقاءات في بلغراد. وخطة غليغوروف، عزت بيغوفتش. زيارات إلى النمسا، وإيران، وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وإيطالية. اللقاء بالبابا، بطريرك الصرب الأرثوذكس. اللقاء الأول بميلوشيفيتش. تفكّك يوغسلافيا. الحرب في سلوفينيا وكرواتية. الاتفاقية التاريخية، كما سميت، بين ذوالفقارباشتش وفيليبوفتش. الردود على آلن كوبرمان. المحاولة الأخيرة: لقاء لاهاي. مؤتمر حزب العمل الديموقراطي الأول. اتفاقية سلام سرايفو وانتقال الحرب إلى البوسنة والهرسك.

لقد بدأت مرحلة حاسمة جديدة في حياتي مع اعتقالي في عام ١٩٨٣، تبع ذلك ست سنوات في السجن، وسنة راحة، ومن ثم حوالي عشر سنوات في رئاسة البوسنة والهرسك. لقد كانت السنة التي فصلت ما بين سنوات السجن والرئاسة سنة سلام واسترخاء. فعندما يقضي المرء ست سنوات في السجن،

يصبح كل ما يحدث بعدها معه رائعاً. وكذلك سافرتُ وقرأتُ، ومشيتُ وكنتُ محاطاً برعاية واهتمام أولادي. وما كان ذا أهمية أيضاً هو أنني شعرت بحالة من الطمأنينة التامة.

وعلى الجانب الآخر أصبح السلام في جمهوريتنا، البوسنة والهرسك، يميل أكثر فأكثر نحو عدم الاستقرار. ولقد هزّت فضيحتان البلاد خلال السنوات القليلة السابقة. حدثت أولى هاتين الفضيحتين قرب منطقة في شمال غرب البوسنة تعرف بوسانسكا كرايينا، ولقد أُطلق عليها (فضيحة أغروكوميرس) نسبة إلى اسم الشركة العملاقة التي ازدهرت في منطقة البوسنة والهرسك ذات الغالبية المسلمة. لقد تطوّرت الأزمة في تلك الشركة بشكل سريع جداً، بحيث أصبح من الواضح أنها كانت مدبرة ومخطط لها على دوافع سياسية خطيرة. وسرعان ما بدأت حملة انتحار العديد من اللاعبين الرئيسيين في القضية، وقُتل الصحفي الذي كشف الأمر أو مات فجأة! وكانت إجراءات التحقيق ومحاكمة الأطراف المذنبة المزعومة مثيرة للريبة.

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى كشف النقاب عن فضيحة جديدة في البوسنة والهرسك- حيث جاء الكشف عنها مرة أخرى في بلغراد. كانت هذه الفضيحة تتعلق بـ (فلل) القادة الشيوعيين للبوسنة في نيوم NEUM، ونيوم هي الجزء الصغير الجميل جداً من البوسنة والهرسك على الساحل الادرياتيكي. لقد صُدم الناس بمدى الرفاهية التي كان يعيش فيها قادة الجمهورية.

وبدأت قوى كنا نعدّها آنذاك قوى ديمقراطية تظهر على الساحة السياسية في يوغسلافية. ففي ذلك الوقت كانت بلغراد منفتحة أكثر من زغرب، وبالضرورة أكثر من سراييفو. فغالباً ما كانت تتم مهاجمة النظام الشيوعي وانتقاده في عاصمة الجمهورية الاشتراكية الاتحادية اليوغسلافية في العلن في كتابات بعض من الصحف، وكانت هناك مطالب بضرورة إتاحة المجال أمام

تعددية الحياة السياسية. لقد تمّت صياغة هذه المطالب في بلغراد مصحوبة بصبغة قومية تارة تتستر بالملكية الصربية، وتنتسب إلى التشتنيك[1] صراحة تارة أخرى. ولقد كانت الأصوات المطالبة بتغيرات في النظام الشيوعي في سلوفينيا أعلى من نظيراتها في بلغراد. وظهرت منشورتان جديدتان في ليوبليانا (عاصمة سلوفينيا) وهما (ملادينا) وهي مجلة أثارت صدمة ودهشة حتى لدى أكثر دعاة الديموقراطية حينها، والثانية (ديلو) وهي مجلة دورية نشرت مقالات نقدية جادة لأبرز الديموقراطيين والانفصاليين اليوغسلاف. وأطلقت العصبة الاشتراكية السلوفينية أفكاراً تحررية جديدة لم يكن لها أي علاقة بالنظام الحاكم في دولة يسيطر عليها الحزب الشيوعي. ولقد تم نشر التهديد في مقالات وكتب صدرت في بلغراد وليوبليانا تتحدث عن الجرائم التي ارتكبها الشيوعيون اليوغسلاف بحق شعبهم. ولقد كتبت الصحافة في هاتين المدينتين عن محاكمتنا التي جرت في عام ١٩٨٣، حيث كان ذلك سبباً كافياً لنفاد نسخ تلك الصحف خلال دقائق.

لقد كانت مسألة المؤسسات الوطنية للمسلمين اليوغسلاف مسألة مركزية في ذلك الوقت. ويظهر أحد التوجيهات كيف تم طرح هذه القضية الحساسة والتعامل معها بشكل غير دقيق.

لقد قامت مجلة (إنتيرفيو) في بلغراد بنشر وجهتي نظر مختلفتين حيال هذا الموضوع من خلال كلام كل من البروفيسور حمدي تشيمرلينس (في عددي ١٢/٤ و١٢/١٨ من عام ١٩٨٧) وذ.سليمان غروزدانتش (١٢/٣١) ١٩٨٧ وتلخصت وجهة نظر تشيمرلينس بالقول:

"إن لكل أمة مؤسسات لتشكيل هويتها. ولا يوجد لدى المسلمين مثل هذه

(١) التشتنيك هي الجناح العسكري لمنظمة صربيا الكبرى التي ارتكبت مجازر عرقية ضد المسلمين في البوسنة وضد السنجاق خلال الحرب العالمية الثانية.

"المؤسسات، فهذا هو الواقع. فلقد قررت السياسة أن مثل هذه المؤسسات لا داعي لها وعلى هذا بقيت الحال. ولذا يجب أن يتم تشكيل مؤسسة قومية شاملة تعنى فقط بالقضايا الخاصة بالمجتمع أو القومية المسلمة..... ولسوء الحظ فإن هيئة المجتمع الإسلامي الديني أو بالأحرى مجلسها الأعلى هو الممثل المؤسسي الوحيد للمسلمين في بلدنا."

أما وجهة نظر د.غروزدانيتش فتلخصت بالقول:

"بالطبع هذه ليست قضية جديدة. لقد كانت قضية مركزية خلال الستينيات. فأنا أذكر أنني وبكل تواضع طرحت الرأي الذي كان بعيداً عن السياسة والقائل بأننا لسنا بحاجة لمثل تلك المؤسسات بل على العكس تماماً. ما أعنيه هو أن المطالبة بوجود مؤسسات قومية غالباً ما يرتكز على أساس نظري لتعريف الهوية القومية يعطي تلك المؤسسات قيمة مطلقة، بينما يسهل واقع الحال وكيفية حدوث الأمور على أرض الواقع، إنه من الضرورة بمكان أن يكون كل شيء متشابهاً في كل مكان يستند دوماً إلى قاعدة من النظرية المطلقة. فهل يجب على كل أمة أن يكون لديها دوماً وفي كل مكان مؤسساتها القومية بمعزل عن القوميات الأخرى؟"

ولقد أجاب د.غروزدانتش عن سؤاله بنفسه بأنه لا يوجد داعٍ لذلك. ثم تابع موضحاً:

"لقد فرض الواقع الاجتماعي والتاريخي هنا في البوسنة والهرسك الحل الذي تمَّ التوصل إليه ألا وهو المعروف بالعيش العام أو التعايش. إنني أرى أن المسلمين ليسوا بحاجة إلى مؤسسات قومية خاصة بهم. فهم لديهم أصلاً مثل هذه المؤسسات من وجهة نظر جديدة، وغير تقليدية وربما لا سابق لها في التاريخ وخارج الإطار التنظيري، مما يشكل بما لا يدع مجالاً للشك نموذجاً

جديداً، وأكثر حداثة، وتطوراً وإنسانية لفهم الهوية القومية من الجانب التاريخي الذي افترض أو نص على الأقل على إمكانية وجود، وتقييد، وانفصال وتفرقة. فلدى المسلمين إذن مؤسساتهم القومية، ولكنها مؤسسات عامة تشمل أيضاً القوميات أو الشعوب الثلاثة والآخرين في البوسنة والهرسك. وهكذا نرى بأنَّ لدى المسلمين علمهم الخاص وشعارهم الخاص، ومؤسساتهم الاجتماعية، والسياسية، والعلمية، والثقافية، والتعليمية، والفنية، ولكن هذه المؤسسات ليست حكراً عليهم فقط وإنما هي أيضاً للصرب والكروات وسائر أعضاء الشعوب والقوميات الأخرى في البوسنة والهرسك." لقد كان هذا هو فهم وتوضيح د.غروزادنيتش.

لقد شكَّلت البوسنة والهرسك المثال الأكبر على صلاحية البقاء التوتاليتاري، ولكن حتى البوسنة لم يكن بوسعها أن تبقى بمنأى عمَّا يدور حولها. لقد كانت البوسنة حينئذ تحت الحكم القوي لبرانكو ويكوليتش، وهو من كروات البوسنة، والذي تبنى المطالبة بمساواة البوسنة مع سائر أعضاء الاتحاد اليوغسلافي الآخرين. ولكن لسوء الحظ، لم يكن توجه ميكوليتش السياسي ديموقراطياً ولقد ترقى إلى منصب رئيس الوزراء الاتحادي ولكن مع احتفاظه بالسلطة في البوسنة والهرسك. وقامت صحافة الشباب بالترويج للخط البوسني وبدأت حينها تأخذ شيئاً فشيئاً موقفاً مؤثراً تجاه السلوك غير الديموقراطي للحزب الشيوعي في البوسنة والهرسك.

بدأنا نسمع أخباراً من القطاع الأكثر تحرراً في الصحافة عن ظهور أغاني التشتنيك ذات الطابع المتعصب في بلغراد، والسنجاق، والجبل الأسود، والهرسك، ووضعت ملصقات لصور دراجو ميخايلوفتش[١] في ميدان تيرازييه في بلغراد، وردَّد شبان ذوو لحى طويلة يرتدون القبعة الصربية العسكرية أغاني

(١) أحد قادة التشيتنك في الحرب العالمية الثانية.

وأناشيد التشيتنك. ومما بعث على القلق على وجه الخصوص هو عدم وجود أي ردة فعل تذكر من قبل السلطات إزاء هذه التصرفات والتظاهرات. وفي بلغراد، قامت صحيفة (الأخبار الأدبية) بإطلاق حوار ونقاش حول (بانسيتوفاتش) والنظرية القائلة بأن الكروات هم أمة إبادة عرقية. وردَّت الصحيفة الكرواتية بغضب. ولقد انتقدت صحيفة (داناس–اليوم) الواسعة الانتشار في زغرب ذلك، وردّت بروح قومية كرواتية، ولكن دون أن تتخطى الحواجز المتعارف عليها من حيث إنها طرحت وجهة نظر متوازنة. وأثبت السلوفينيون أنهم الأعلى صوتاً. وبناء على ما صرح به بعض القيادات الشبابية السلوفينية اتهمت بلغراد السلوفينيين بالقيام بأعمال معادية لليوغسلاف. ولقد كانت ردّة فعل القيادة السياسية في سراييفو والصحافة الموالية للنظام تجاه تلك الأحداث في صربيا وسلوفينيا ضد إعادة إحياء الروح التشتنكية من (٧ شارع فرنسة، مقر اتحاد الكتاب في جمهورية صربيا الاتحادية) بنفس الحدّة التي اعترضت بها على النزعة الانفصالية السلوفينية والأنشطة المعادية للثورة.

واندلعتْ حركة التمرُّد (إيريدنتا)[1] في إقليم كوسوفو. وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت بالفعل هناك في عام ١٩٨٨ بسبب انتفاضة الألبان في ذلك الإقليم ذي الحكم الذاتي في الاتحاد اليوغسلافي.

ودَعتْ القوى الوطنية الصربية في صربيا الأم إلى مراجعة لدستور الجمهورية الاشتراكية الاتحادية اليوغسلافية لعام ١٩٧٤ والذي منح إقليمي كوسوفو وفويفودينا قدراً كبيراً من الحكم الذاتي. لقد كانت هناك محاكمات أسبوعية لشبان كوسوفو "المتمردين" حيث حُكِموا بأحكام مختلفة بالسجن، ولقد عرفت بعضهم في سجن (فوتشا).

---

(١) هو المصطلح الذي أطلقه الصرب على حركة الاستقلال الألبانية في كوسوفو.

لم يساورني الشك أن مثل هذا النظام الشيوعي القاسي سوف لن يستمر طويلاً، ولكنني يجب أن أعترف أنني لم أتوقع انهياره عامي ١٩٨٩-١٩٩٠. فلقد كنت أعتقد أننا سنرى نوعاً من اللين الداخلي الذي سوف يتيح الفرصة أمام خيارات سياسية أخرى للظهور محدثةً نوعاً من التنافس تحت مظلة الحكم الشيوعي. ولقد أثبتت مجريات الأمور أنني كنت مخطئاً. إنها من طبيعة النظام الشيوعي أن يكون كل شيء أو لا يكون شيء البتة، لا يوجد لديه حل وسط يسعد الجميع. إن الشيوعية والحرية غير متطابقتين، فإما تدمر الشيوعية الحرية أو تقوم الأخرى بتدمير الأولى. وفي منتصف القرن العشرين قامت الشيوعية بتدمير الحرية. ومع نهاية القرن وجدنا الأمور تجري بشكل معاكس تماماً. لقد كان لسقوط جدار برلين في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٩ أثر تسلسلي ومتوالٍ على العالم الشيوعي. فلقد تصرّفتْ كل حكومةٍ شيوعية كمن أصابها الشلل وغدت عاجزة عن القيام بأي شيء. ولقد زاد من وطأة هذا الظرف في يوغسلافية التوترات العرقية التي كانت ماثلة للعيان بشكل دائم كمشكلة، ولكنها اكتسبت زخماً كبيراً في تلك الآونة.

ولقد كانت يوغسلافية تعاني أصلاً من مرضين سوف يؤديان إلى سقوطها: الاقتصاد الاشتراكي غير الفعال الذي كان يدار بطريقة أبقته متخلفاً عن العالم الرأسمالي الصناعي، والسيطرة الأحادية الصربية والتي تمَّ زرعها ضمن النظام منذ بداية الاتحاد. لقد كان الصرب هم الشعب المُسيطر الذي استولى على المناصب الهامة بينما كانت الشعوب الأخرى كالكروات، والسلوفينيين، وسكان الجبل الأسود، والمقدونيين، والمسلمين يشعرون بالكبت.

لقد كانت السيطرة الصربية ماثلة للعيان في معظم المجالات الحساسة. فمثلاً كان هناك ٢٨ ضابطاً عاملاً في وزارة الدفاع الوطني في البوسنة والهرسك قبل الحرب شكل الصرب نسبة ٦٣,٢٪ منهم، ١٠,٥٪ كانوا يوغسلافاً، و٧,٩٪ مسلمين، و٥,٣٪ من الجبل الأسود وهكذا دواليك. وكان جميع الأعضاء

المدنيين التسعة في الأمانة العامة للشؤون الداخلية كانوا جميعاً صرباً. (من كتاب تاريخ البوسنة والبشناق/ م. بويتش ص ٣٠١).

ولم أكن سعيداً بكل هذا. لقد كنت مرتبطاً ارتباطاً عاطفياً بيوغسلافية. وبوصفي مسلماً كنت أعتقد دائماً أن تفكك الاتحاد لن يكون في مصلحة المسلمين. فعلى الرغم من أن أكبر تجمع للمسلمين كان في البوسنة إلا أنه كان هناك أيضاً مسلمون في كل من صربيا، والجبل الأسود، ومقدونية، وكوسوفو، وكرواتية.

وفي خلاصة إفادتي في محاكمة عام ١٩٨٣ قلت: إنني أحببت يوغسلافية، ولكنني لم أحب حكومتها. ولقد كنت أعتقد أنه من الممكن إعادة هيكلة يوغسلافية لتصبح دولة ديمقراطية بإدخال اقتصاد السوق، ولجم أو تقييد السيطرة الصربية المطلقة. لقد كان بالإمكان تحقيق المطلب الثاني من خلال زيادة تدريجية في صلاحيات الحكم الذاتي الممنوحة للجمهوريات الست التي كانت تؤلف الاتحاد اليوغسلافي.

وغالباً ما يتم كبت المشاعر الدينية للشعب المسلم بشكل مستمر خلال أربعين سنة من الحكم الشيوعي في يوغسلافية. وعلى الرغم من أن الوضع في يوغسلافية بخصوص هذا الموضوع كان أفضل بكثير من نظيره في البلدان الشيوعية الأخرى، فإنه لا يمكن القول بأننا كنا نتمتع بحرية دينية. وأظهرت الأحداث التي جرت بعد ذلك أن هذه العواطف الدينية لم يتم إخمادها. بل كانت هناك جمرات مازالت تشتعل تحت طبقة سميكة من الرماد، وسرعان ما ستزداد لتصبح لهباً مشتعلاً.

لقد كان من الضرورة بمكان أن يتم تأسيس أحزاب ديمقراطية إذا ما أرادت البلاد أن تمضي قدماً في عملية إعادة الهيكلة الديموقراطية. وأن الأحزاب السياسية لا تخلو من العيوب، ولكن لم يخترع العالم شيئاً أفضل حتى الآن.

ولقد كنا بحاجة إلى منظمة أو هيئة سياسية مناصرة للبوسنة والمسلمين والتي ستأخذ على عاتقها مسؤولية جمع شعبنا الذي كان يعيش مختلطاً مع الصرب والكروات ضمن نطاق عريض من المناطق الممتدة ما بين مدن (نوفي بازار وحتى تسازين). وسوف تكون الأمور صعبة جداً بالنسبة إلينا إذا ما تفكك الاتحاد اليوغسلافي، ستكون أصعب لنا مما هي عليه الحال بالنسبة إلى الصرب والكروات. ولكن إن تقرير مثل هذه الأمور المصيرية سيجعل الأمر أصعب بكثير إذا ما تمَّ استثناؤنا. وفي بادئ الأمر فَكّرت بإعادة إحياء منظمة المسلمين اليوغسلاف التي كانت تسيطر على أمور حياة المسلمين في البوسنة والهرسك ما بين الحربين العالميتين والتي زالت عن الوجود في عام ١٩٤١ مع سقوط يوغسلافية بيد الألمان. لقد كانت أهم منظمة للشعب المسلم يرأسها رجل مميز واسمه (محمد سباهو). لقد تُوفي (أو قُتل كما تورد بعض الروايات) قبيل وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الثانية. وبعد وفاته تم توقيع حلف (تسفيتكوفيتش-ماتشيك) المشين لتقسيم البوسنة. ولكن هذا الرجل العظيم لم يؤسس منظمة عظيمة. فلقد انهارت منظمة المسلمين اليوغسلاف مع هبوب رياح الحرب العالمية الثانية على يوغسلافية عام ١٩٤١. وعندما قررتُ تأسيس هذا الحزب، نظرت إليه نموذجاً مختلفاً عن منظمة المسلمين اليوغسلاف بحيث يستطيع الحزب أن يصمد في وجه الصعاب والعواصف التي تحتم عليه مواجهته مع الزمن.

ولقد تحدثت إلى أصدقائي في السجن عن نواياي. لقد رأيت في الحزب أنه حزب إسلامي. ولقد كنت متأكداً أن الحزب لن يواجه صعوبة في لم شمل المسلمين في يوغسلافية، وأنه بمجرد التوجه إليهم بطلب والتماس واضحين سوف ينضمون إليه. ولقد تحقق جزء من تلك الرؤية وأصبح واقعاً ملموساً تماماً كما تخيلته، كما لو كان الناس ينتظرون هذا الحزب بفارغ الصبر.

ولقد بدأ العمل من أجل تأسيس هذا الحزب الذي أُطْلق عليه فيما بعد حزب العمل الديموقراطي في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٩ أي بعد عام كامل على إطلاق سراحي من السجن. ولقد فاز الحزب بانتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠ أي بعد عام من بداية العمل لتأسيسه. ولقد كنتُ القائد منذ البداية على الرغم من أنني لم أعرف أبداً السبب وراء ذلك. ولقد قلتُ في نفسي: "إن كنت أنا الأفضل، فما الحال التي عليها الآخرون؟" ولكن لربما ليس بالضرورة أن يكون القادة هم الأفضل. فمن أجل أن يكون القائد قائداً لابد أن يكون لديه بعض الفشل الواضح ولقد كان لدي ذلك.

وكلما فكرتُ في إنشاء حزب سياسي، كان دائماً لدي اعتقادي بأنني يجب أن أبدأ بالعمل فيه بصحبة البروفيسور محمد فيليبوفتش، وهو أبرز المثقفين المسلمين في ذلك الوقت، وقلت لنفسي: "أنت بحاجة إلى فيليبوفتش ومئة مثقف آخر وعندها تكون قد أنجزت نصف العمل." ولكن جرت الأمور على غير ذلك فعندما تحدثت إلى فيليبوفتش الذي كان قد أسس حينها لجنة حماية الحقوق القومية والدينية لمسلمي البوسنة رفض بأدب معللاً رفضه بأنه: "لم يحن الوقت لمثل هذا العمل بعد". وفعلاً لم يكن الوقت قد حان. فلقد كان القانون الذي يمنع جميع الأنشطة السياسية التي ليست تحت مظلة العصبة الشيوعية ما زال ساري المفعول. فغالباً ما تـمَّ اعتبار أي أنشطة سياسية مغايرة لذلك كأنشطة معادية للدولة أو على الأقل، ممكن أن يؤدي إلى حكم بالسجن يصل إلى عشر سنوات.

ولقد خاطرت، لا أعلم إن كان ذلك شجاعة أم لا، ولكنني أحببت أن أخاطر، بعض الشيء. لقد كان الوضع مشابهاً لعام ١٩٤٦ عندما انضممت إلى منظمة الشبان المسلمين المحظورة مما عاد عليّ بحكم لثلاث سنوات.

وذهبت إلى زغرب لجعل معارفي هناك يتقبلون الفكرة ويهتمون بها. لقد كان هناك مجموعة كبيرة من المسلمين المشهورين في المركز الثقافي الإسلامي في

زغرب يرأسها سالم شابتش ود.شيمسو تانكوفتش. كنت أعرف كليهما مسبقاً. ويستحق شابيتش معظم الثناء لبناء مسجد زغرب الكبير وهو أكبر وأجمل مسجد بُني في يوغسلافية الشيوعية. وكان د. شيمسو تانكوفتش أستاذاً بارزاً في كلية الاقتصاد. ولقد حضر حوالي خمسة عشر مدعواً اللقاء الذي نظمه شابيتش في المبنى الملحق بالمسجد. وسرعان ما توصلنا إلى اتفاق مبدئي من أجل تشكيل حزب من الدوائر الثقافية المسلمة والذي أصبح فيما بعد حزب العمل الديموقراطي.

وبالإضافة إلى رغبة الحزب في أن يلم شمل كل الشعب المسلم في البوسنة والهرسك وأن ينظمهم سياسياً، فإنه أيضاً كان يتطلع إلى أن يصبح حزب كل المسلمين في يوغسلافية بما فيهم مسلمو صربيا، والجبل الأسود، وكوسوفو، ومقدونية. ولقد تمَّ تشكيل الحزب أولاً في جميع أنحاء يوغسلافية وحيثما وجد تجمع المسلمين فيها ومن ثم يتم تأسيس فروع له في الخارج: في أوروبة، وأمريكا، وأسترالية. لقد أصبح الحزب إلى حد ما حركة المسلمين البشناق في جميع أنحاء العالم. ولقد تغير الوضع في يوغسلافية فجأة وبسرعة تحت تأثير الأزمة التي ألمت بالنظام الاشتراكي ككل، خاصة بعد سقوط جدار برلين. ولقد ازداد ضعف نظام الحكم وبدأت قبضته السياسية بالتراخي. وحدثت أمور في بضعة شهور كانت بحاجة إلى سنوات عدة في السابق لكي تحدث.

ومع أوائل الربيع وتحديداً في ٢٧ آذار في عام ١٩٩٠ دعوتُ إلى مؤتمر صحفي في إحدى قاعات المؤتمرات بفندق الهوليدي إن في سراييفو من أجل إعلان قيام الحزب السياسي. وكان بإمكان المرء أن يشعر بعصبية وقلق العديد من الموجودين حيال ردة فعل النظام الحاكم. وجلست إلى الطاولة وقمت بتحية الصحفيين وقرأت بصوت عالٍ وقلق البيان العام الذي وقعه أربعون مواطناً هم مؤسسو حزب العمل الديموقراطي وعُرف ببيان أو إعلان الأربعين. ولقد أشرت

في بداية كلمتي إلى أن البيان وعلى الرغم من أنه مكتوب بلغة برنامج سياسي لم يكن بيان أو نظام الحزب الرسمي، وإنما هو يهدف بشكل رئيسي لإعلام الرأي العام.

وفي مايلي نص البيان:

"نحن الموقعين أدناه:

ونحن نواجه الأزمة الاجتماعية في يوغسلافية والتي هي ليست أزمة اقتصادية وحسب، بل هي أزمة سياسية وأخلاقية، وحرصاً منا على الحفاظ على يوغسلافية مجتمعة من الشعوب والقوميات، وأملاً في أن نرى المسيرة الديموقراطية التي تهدف إلى بناء دولة حديثة تميزها الحرية وحكم القانون تمشي قدماً ودون معوقات، ورغبة منّا في دعم هذه التطورات وتحقيق مصالح ليس فقط جميع مواطني هذه الدولة ولكن أيضاً وبشكل خاص تحقيق مصالحنا نحن كمواطنين منتمين للمجتمع المسلم ثقافياً وتاريخياً، فإننا قد قرّرنا إطلاق مبادرة من أجل تشكيل حزب العمل الديموقراطي، ونحن إذ نقرُّ بهذا الهدف نعلن عن المبادئ الستة عشر الأساسية التالية لأنشطتنا السياسية في برنامجنا:

أولاً: إن حزب العمل الديموقراطي هو تحالف سياسي لمواطني يوغسلافية الذين ينتمون للمجتمع المسلم ثقافياً وتاريخياً والمواطنين اليوغسلافيين الآخرين الذين يدعمون ويساندون برنامج وأهداف الحزب.

ثانياً: سيعمل حزب العمل الديموقراطي جاهداً وفي إطار المناقشة الديمقراطية التي يدعو إليها من أجل تطبيق برنامجه وأهدافه من خلال جذب الناخبين، والمشاركة في الانتخابات، والمشاركة في الهيئات التمثيلية والحكومية حسب ما يتناسب والنتائج التي يحققها في انتخابات حرة.

ثالثاً: إن الديمقراطية هي إحدى أسس قيام حزبنا. وبما أن الديموقراطية هي مصطلح غالباً ما يتم فهمه بطرق مختلفة بل وأحياناً متضاربة فإننا نؤكد أن ما نعنيه بالديموقراطية هو حكومة من قبل الشعب يتم تنظيمها وتقنينها من خلال قوانين عادلة. إن هذه

القوانين يجب أن تركز على الإنسان الحر وتؤكد من دون أي تحفظ أو تقييد على حقوق وحريات ومساواة الشعب والمواطنين بغض النظر عن الدين، والقومية والعرق، واللغة، والجنس، والوضع الاجتماعي، والمعتقدات السياسية.

ونعني بحقوق الإنسان بالكلية تلك الحقوق التي أقرتها وعرفتها وثائق الأمم المتحدة، ذات العلاقة، ونخص بالذكر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الميثاق الدولي للحقوق المدنية والسياسية، والميثاق الدولي للحقوق الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. وبما أن بلدنا قد قبلت وصدقت على هذه الاتفاقيات، فإن حزب العمل الديموقراطي سينادي بالتطبيق التام لتلك الاتفاقيات بكليتها في تشريع وإجراءات هذا البلد.

رابعاً: نحن ننادي بحكومة ديموقراطية، ولكي يكون بالإمكان إيجاد مثل هذه الحكومة فإنه يجب أن يصبح بالإمكان إزاحة الحكومة. إن هذا يتطلب إلغاء احتكار الحزب الواحد للسلطة، وما ينتج عن ذلك ألا وهو دولة الحزب الواحد. ولقد بدأ هذا التوجه للتو، ولكنه لم يتعد مجرد إعلانات أو تصريحات رسمية في أغلب أنحاء البلاد.

يجب أن يتم حكم البلاد من قبل ممثلي الشعب من جميع الأطياف والقطاعات والذين يتم انتخابهم من خلال انتخابات عامة وحرة، بالاقتراع السري ويتم تجمعهم في هيئات تمثيلية. نحن نعتقد أنه يجب أن تتألف الجمعية العامة (البرلمان الاتحادي) من مجلسين ذوي حقوق متساوية، وهما مجلس المواطنين بدلاً من المجلس الاتحادي الحالي ومجلس الشعب. وتكون آلية اتخاذ القرار كقانون وتبنيه من خلال تصويت الأغلبية في المجلس الأول وبالإجماع في المجلس الثاني.

إن على أي حكومة أن تؤمّن استقلالية القضاء من خلال الدستور، والقوانين، والتنظيم ويجب أن يتم انتخاب القضاة من قبل هيئات تمثيلية على مستوى الجمهوريات على الأقل، وأن يتم استبدال الإجراء الحالي لتثبيت القضاة بمكاتب قضائية دستورية دائمة كتلك الموجودة في أغلب البلدان المتحضرة.

خامساً: وبما أننا نعرّف الديموقراطية أساساً على أنها ليست هي حكم الأغلبية، وإنما حكم القانون، فإننا نود أن نؤكد على التزامنا بمبدأ المساواة الكاملة أمام القانون

لجميع الشعوب الكبيرة والصغيرة، وحقوق الأقليات الدينية والقومية، ومن أجل هذه الغاية فإننا نرفض كل أشكال التفوق في عدد الأصوات فقط بسبب كبر عدد أقلية معينة! إن حكم الأغلبية دون وجود القانون سوف يؤدي إلى تحولها إلى اضطهاد الأغلبية، وهو نوع من الاضطهاد يوازي أنواع الاضطهاد الأخرى.

سادساً: نحن ننادي بالحفاظ على يوغسلافية كمجتمع قوميات حر، وكدولة اتحادية داخل حدودها الاتحادية الحالية. وفي هذا الإطار فإننا ندعم شعار (مؤتمر هلسنكي من أجل يوغسلافية). إننا نرى أن أية مطالب من أجل إعادة رسم الحدود الداخلية للبلد سوف تؤدي إلى تدهور في العلاقات ما بين شعوب يوغسلافية وإلى نزاعات وصراعات سيكون من الصعب التكهن بنتائجها، وعليه فإن أعضاء القومية الذين يعيشون في جمهورية اتحادية ليست هي جمهوريتهم الأم يجب أن يكون لهم نفس الحقوق التي يتمتعون بها في جمهوريتهم الأم. وإننا نرى أن تقييد هذه الحقوق هو عمل غير شرعي.

سابعاً: نظراً لما نرى من إهمال للخصوصية القومية المميزة لشعب البوسنة والهرسك وسلبهم لحقوقهم بسبب ذلك، ورفضٍ لتلك التطلعات التي تتناقض مع الحقائق التاريخية وإرادة الشعب الواضحة، فإننا نعلن أن مسلمي البوسنة والهرسك ومنهم أولئك الذين يقطنون خارج حدود الجمهورية هم شعب بوسني أصلي واحد، وبالتالي فإنهم تاريخياً أحد الشعوب الستة المكونة ليوغسلافية حيث لديهم الاسم التاريخي الخاص بهم، وأرضهم الخاصة بهم، وتاريخهم الخاص بهم، وثقافتهم الخاصة بهم، ودينهم الخاص بهم، ولديهم شعراؤهم وكتابهم الخاصون بهم، وباختصار إنه شعب لديه ماضيه الخاص وكذلك مستقبله الخاص به أيضاً، ولذلك فإن حزب العمل الديموقراطي سيعمل على إعادة إحياء الوعي القومي لمسلمي البوسنة والهرسك مؤكداً على ضرورة احترام حقيقة وجود هوية قومية لهم مع كل ما ينطوي عليه ذلك من تبعات سياسية وقانونية.

وبينما نؤكد على حق مسلمي البوسنة والهرسك في العيش على أرض تحمل الاسم القومي كشعب، فإننا نعني أيضاً أن هذا الحق يتساوى فيه أيضاً مع المسلمين كل من الصرب والكروات دون أي تقييد أو تحديد كما هي الحال لباقي شعوب وقوميات البوسنة والهرسك.

وفي هذا الإطار فإننا نؤكد على اهتمامنا الخاص بالحفاظ على البوسنة والهرسك كدولة المجتمع للمسلمين، والصرب، والكروات. ولتحقيق هذه الغاية فإن حزب العمل الديموقراطي سوف يقاوم أية محاولات لزعزعة استقرار، أو تجزئة، أو التعدي على البوسنة والهرسك بغض النظر عن منشأ هذه الأفكار أو مثيلها.

ثامناً: ومن بين اهتماماتنا المشابهة ما يتعلق بإقليم كوسوفو. نحن نرى أن هذا الصراع هو صراع بين الشعوب، ولا يمكن حله بالاضطهاد والكبت. ونحن نرى أن الحوار هو الحل الوحيد، ولكن لا يمكن للحوار أن ينجح إذا لم يجرِ من خلال ممثلين حقيقيين للشعب. ولذلك فإننا نطالب بتحقيق الديموقراطية للشعب الألباني. ونحن نعتقد وندعم الخيار اليوغسلافي حلاً لأزمة كوسوفو، حيث يشجعنا ما نعلمه عن وجود عناصر ألبانية مؤثرة تشاركنا مثل هذا الاعتقاد. وعليه فإننا ندعم إعلان (مع الديمقراطية ضد العنف) كأساس للحل الذي دعت إليه وأصدرته اللجنة الإقليمية لحماية حقوق وحريات الإنسان في كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٠ بالتعاون مع جمعية الفلاسفة وعلماء الاجتماع في كوسوفو، وفرع كوسوفو لجمعية المبادرة الديمقراطية اليوغسلافية.

تاسعاً: وآخذين بعين الاعتبار أن الدوائر المسلمة في يوغسلافية بدأت وكنتيجة لسلسلة من الظروف التاريخية غير المواتية تتخلف عن ركب التنمية والتعليم، فإن حزب العمل الديموقراطي يرى أن مهمته الأولية هي البحث في أسباب بروز مثل هذا الوضع والقضاء عليها وأن يبادر ويدعم كل الإجراءات التي تهدف إلى تطوير التعليم والتدريس وعلى جميع المستويات. ويتعلق هذا الأمر بشكل خاص بالتعليم الابتدائي الذي يجب أن يصبح إلزامياً ومجانياً وشاملاً قدر الإمكان. ولذلك فسوف يطالب حزب العمل الديموقراطي بإصلاحات أساسية في النظام المدرسي، ومراجعة للمناهج من أجل القضاء على الانحرافات والتشددات الأيديولوجية التي ظهرت خلال فترة الاحتكار السياسي والذهني.

عاشراً: وفيما يتعلق بالحرية الدينية كحق إنساني أساسي واقتناعاً منا بالإمكانات الأخلاقية الكبيرة للتعاليم الدينية فإننا ندعو إلى ما يلي:

الحرية الكاملة لممارسة كل الأديان في يوغسلافية، وإدارة ذاتية كاملة لمجتمعاتهم الدينية مع احترام كبير لتلك الإدارة.

حرية إقامة منشآت دينية بما يتوافق ومطالب واحتياجات الأتباع ومجتمعاتهم ولتحقيق هذه الغاية فإننا ندعو إلى مراجعة برامج التخطيط المدني والتي هي برامج أهملت الدين في مفهومها، وذلك لأنه ليس هناك تعليمات أو قانون بخصوص المباني الدينية في المجتمعات السكنية حديثة الإنشاء.

الوصول إلى وسائل الإعلام كالتلفاز والمذياع وما شابه.

حرية الجماعات الدينية والداعين لها حيث يوجد سببان موحيان لذلك، أولهما مبدأ يستند إلى مبدأ المساواة بين المواطنين والآخر عملي من خلال قيام أتباع الدين بتحويل وسائل الإعلام على نحو متساوٍ.

الاعتراف بالأعياد الدينية الرئيسية كأيام عطل رسمية لمن ينتمون إلى ديانة معينة، وجعل ذلك العيد عطلة وطنية في الجمهورية التي يكون فيها ذلك الدين هو دين الأغلبية. وفي حالة البوسنة فإن مثل هذه الأعياد ستكون عيدي الفطر والأضحى وعيدي الميلاد الأرثوذكسي والكاثوليكي.

تقديم الوجبات في الجيش والمستشفيات والسجون بما يتوافق مع التوجه الديني لكل من يطلب ذلك لأسباب دينية.

حادي عشر: إن حزب العمل الديموقراطي يدعم برنامج الإصلاح الاقتصادي الذي تم تبنيه في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٨٩م ولكن ينظر إليه على أنه مجرَّد خطوة أولى في إعادة هيكلة وبناء الاقتصاد الوطني. ونحن نرى أن هناك تغييرين جذرين آخرين لا غنى عنهما وهما:

الأول: تحرير المصانع والشركات التجارية من قبضة الدولة بدءاً بالصغرى، ومن ثم الكبرى. ويستثنى من ذلك شركة البريد والهاتف، خطوط السكة الحديدية، والمناجم والملاحة الجوية، بحيث يجب أن تبقى تابعة للدولة والقطاع العام، وكذلك تلك الهيئات التي هي بطبيعتها ليس لها علاقة بأنشطة السوق. ونؤكد على أننا لا ننظر إلى الملكية

الخاصة على أنها عامل الفعالية الاقتصادية فقط، ولكن كضمان لحق أساسي للمواطنين.

الثاني: إعادة الاعتبار للزراعة وإنزالها مكانتها التي تستحق في بلد مثل بلدنا. ومن الضروري أن تتم حماية الأراضي الزراعية بالقانون نظراً لأن تلك الأراضي هي الآن عرضة لتدهور حالتها، وإلغاء السقف المفروض على ملكية الأراضي، خفض الضرائب، وتوفير حوافز في المناطق النائية، من أجل إنتاج تسويقي حديث، وبخاصة من خلال ضمان البيع بحيث يجب محاكاة تجربة الدول الغربية في هذا المجال.

ونحن نعتقد أن الإجراءات الآنفة الذكر سوف تشجع عدداً كبيراً من مواطنينا الذين يعملون في الخارج للعودة، محضرين معهم ليس فقط رأس المال ولكن أنماط العمل التي اكتسبوها هناك، والتي ستؤدي على المدى البعيد إلى إمكانية توظيف عدد كبير من أولئك الذين هم عاطلون عن العمل الآن.

ثاني عشر: إن التغييرات الهيكلية للاقتصاد والملكية يجب ألا يسمح لها بتعريض الحقوق المكتسبة للخطر ولا التعرض للنواحي الإيجابية لدولة الرعاية الاجتماعية والتي يجب الحفاظ عليها وتطويرها. وهذا يتعلق بإيجاد حد أدنى من الرعاية الصحية المجانية، ومستوى للمعيشة للعاطلين عن العمل، وكبار السن والمرضى، والتعليم الابتدائي والثانوي المجاني، وإجراءات حماية الأمهات والأطفال، وهكذا دواليك، شريطة أن تكون المؤسسات التي ستضطلع بهذه المهام مؤسسات ذات تنظيم فعّال، وأن تكون محررة من قيود وعبء التدخل المتكرر والبيروقراطية التي تؤدي إلى استهلاك قدر كبير من المصادر المعدة أصلاً لتقديم تلك الخدمات الأساسية.

وسوف نطالب باتخاذ تدابير خاصة بالزوجات والأمهات العاملات. وفي هذا المجال نعتقد أن أحد الحلول يكمن في اعتماد أسلوب أوقات العمل المختلفة بحيث يكون عدد أيام العمل في الأسبوع أقل وكذلك عدد الساعات في اليوم الواحد اعتماداً على الظروف العائلية وعدد أبناء المرأة العاملة.

ثالث عشر: إن حزب العمل الديموقراطي يولي أهمية خاصة للحفاظ على القيم الأخلاقية للعائلة والتي هي أهم عامل في تربية الفرد وإيجاد نوع من التلاحم

الاجتماعي في كل تجمع أو مجتمع. وبناءاً عليه فإن محاولاتنا ستكون موجهة ضد كل أشكال أشباه الثقافة مثل الأدب الهابط والصور الإباحية...الخ. يجب أن يحصل الناس على حرية حقيقية لا تلك الحرية الزائفة، وأن يجدوا ثقافة حقّة بدلاً من شبه الثقافة.

إن اهتمامنا بالوقاية مما يسمى بالأمراض المتعمدة وهي الإدمان على الكحول، وإدمان التدخين والمخدرات وما شابه، مرتبط باهتماماتنا المذكورة آنفاً. ويمكن إنجاز ذلك من خلال الأنشطة التعليمية والتدابير المقيّدة مثل الضرائب، وحظر الإعلانات وإيجاد مناطق وفترات حظر...إلخ. كما يمكن الاستفادة من الخبرات والتجارب المشابهة في أماكن أخرى من العالم.

رابع عشر: ندعو إلى إجراء تعديلات إجرائية ودستورية على التشريعات الجنائية بحيث تتواءم وحقوق الإنسان ومواثيق الاتفاقيات الدولية التي قبلتها وصادقت عليها يوغسلافية. يجب إلغاء المواد ١١٤، و١٣٣، و١٥٧ من القانون الجنائي، ويجب اعتبار الأنشطة السياسية للمواطنين جنائية إذا ما دعت للعنف فقط. وبموجب ذلك ومع عدم وجود قضية العنف فإننا نطالب بإطلاق سراح كل السجناء السياسيين والعودة الحرة للاجئين السياسيين إلى البلاد كما تنص عليه المادة ١٣ من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

خامس عشر: ندعم تطوير ثقافة بيئية واتخاذ كافة التدابير والفعاليات من أجل حماية البيئة، بحيث يجب أن يكون أعضاء حزب العمل الديموقراطي أعضاء فاعلين في الحركة البيئية في مناطقهم وأن يقوموا بمساندة ودعم أنشطتها ومبادراتها.

سادس عشر: إن الأهداف التي تمّ تحديدها في هذا البيان ذي الأهمية العامة والعالمية، سوف يتم تحقيقها بالتعاون مع القوى الديموقراطية الأخرى في البلاد. وعليه فإن حزب العمل الديموقراطي يرى نفسه أنه جزء لا يتجزأ من الجبهة الديموقراطية التي شكلتها عدة أحزاب ديمقراطية وحركات، وجمعيات، وجماعات، ولجان حقوق الإنسان في يوغسلافية. إن حزب العمل الديموقراطي لن يتعاون مع الجهات التي تعمل من أجل تفكيك يوغسلافية أو إعادة رسم حدودها الداخلية أو تلك القوى التي تدعو إلى الشوفينية وعدم التسامح.

نحن نتبنى البيان الذي أصدره ممثلو الحركات الديموقراطية في أوتوتشيتش بتاريخ الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) لعام ١٩٨٩، فيما نعتبر هذا البيان خاصاً بنا.

نحن نؤمن بالنهج الديموقراطي لإحداث التغيير في الطبيعة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية للبلد دون كراهية أو دأب على سياسة استرداد الأراضي المغتصبة.

وفيما يلي تواقيع الأربعين شخصاً:

علي عزت بيغوفتش خريج محاماة سراييفو، ومحمد تشنغيتش مهندس ميكانيك من سراييفو، د. مايد حادجي أوميراغتش طبيب أسنان من سراييفو، ود.محمد هوكوفتش: معلم من سراييفو، بيتشر بيغوفتش، ايده محام من سراييفو، ود.شاكر تشيريموفتش طبيب من سراييفو، وسالم شابتش رجل أعمال من زغرب، والأستاذ الدكتور سليمان ماشوفتش في كلية التربية الخاصة في زغرب، والأستاذ الدكتور فهيم ناميتاك، باحث من سراييفو، وصالح كرافديتش خريج محاماة، من سراييفو، وفرحيا فيزتش: صحفية من سراييفو، ود.شاكر تشنغتش: طبيب من سراييفو، وأدهم تراليتش محام من سراييفو، وجمال الدين لاميتش: كاتب من سراييفو، وعمر بوبريش: موسيقي من سراييفو، ود.سعاد شيستيتش باحث من سراييفو، د.طارق موفتيتش: طبيب من موستار، وصفوت إبزوفتش (ممثل) فنان أدائي من سراييفو، ود.شيمسو تانكوفتش: أستاذ مساعد في كلية الاقتصاد في زغرب، ومرصاد فيلادجتش: تقني ميكانيك من فيليكا كلادوشا، ود.كمال بتشاكتشتش طبيب من سراييفو، وعبدالله سكاكا: حرفي من سراييفو، وعمر بهمن: خريج هندسة مدنية من سراييفو، ووشيفكو عمر باشتش: إمام مسجد في زغرب، د.مصطفى تيسيرتش أستاذ مساعد في الكلية الدينية الإسلامية في سراييفو، د.سليمان تشامدجتش باحث من زغرب، الأستاذ الدكتور ليا حادجي عصمانوفتش من كلية الفلسفة في سراييفو، د.خالد تشأوتشفتش: محام من سراييفو، كمال نانيتش: مهندس مدني في زغرب، بكر سادوفتش طالب من سراييفو، فارس نانيتش: طالب من زغرب، نور الدين اسماعيلوفتش: طالب من زغرب، وحسين هوسكتش: مهندس ميكانيك من ماريبور، مرصاد سريبرنييكوفيتش: محام من زغرب، ندجاد دجهور فني من بانيالوكا، وفهيم نوح بيغوفتش رجل أعمال من زغرب،

ودجولكو زونتش: رجل أعمال من زغرب، والأستاذ الدكتور ألماسه شاكر بيغوفتش من كلية الطب البيطري في سراييفو، والأستاذ الدكتور أحمد براتشكوفيتش من كلية الاقتصاد في سراييفو.

وأذكر أنني عندما فرغت من تلاوة البيان سألني صحفي من جريدة (بوربا- الدفاع) من بلغراد السؤال التالي: "هل ستقوم يا سيد عزت بيغوفتش بالانتقام ممن أرسلوك إلى السجن إذا ما توليت السلطة؟"

وكان ردي: إنه لن يكون هناك أي انتقام، وإن هذا ما نص عليه البيان الذي تلوته للتو. وأضفت بعد وقفة وجيزة: "سيكون هناك أشياء كثيرة أخرى أكثر أهمية يجب التعامل معها". وعندها وقف جمال الدين لاتيتش الذي كان يجلس بين الحضور وكان يقود حملة صحفية كبيرة لشهورٍ عدة من أجل مراجعة الطريقة التي حوكمنا بها، قائلاً: "يا سيد عزت بيغوفتش إن هذا هو رأيك أنت فقط، وليس رأي جميع أولئك الذين أدينوا في نفس المحاكمة. وبالنسبة إلي سأطلب مراجعة لإجراءات المحاكمة. وسأطلب بأن يتم تقديم أولئك الذين كانوا قائمين عليها إلى القضاء، وهذا لا يعني أنهم سيدخلون السجن بالطبع".

وأحدث هذا الرد نوعاً من ردة الفعل المرتبكة لدى الحضور. لقد كانت تلك هي المرة الأولى منذ قام الحكم الشيوعي في البوسنة والهرسك التي تظهر فيها قوة سياسية لا تنتمي إلى مدرسة الفكر الشيوعي وتتحدث بصوت عال.

ولقد علمنا فيما بعد من خلال المعلومات التي وصلت إلى مقرنا الرئيسي أن السلطات كانت مترددة بشأن منعنا من القيام بذلك. وجاءت الأخبار أن التحضيرات قد أُعدت لاعتقال الأربعين شخصاً الذين وقعوا على البيان. ولقد كان واضحاً أن السلطات لم تكن قوية كفاية للقيام بذلك. ولم يكن الشيوعيون قادرين على اتخاذ أي إجراء للمرة الأولى في تاريخهم. ولقد نفّسوا عن امتعاضهم من خلال وسائل الإعلام المسيطر عليها من قبلهم حيث قاموا بانتقادنا فقط. وكان هذا هو كل شيء.

وفي نيسان (أبريل)، بدأت صحيفة أوسلوبودجينيه (التحرير) بنشر (قصة صحفية مسلسلة) حول محاكمتي في عام ١٩٨٣ في محاولة لإقناع الرأي العام أنه كان لدي "ماض سيئ". واحتفظت الصحفيّة التي تمَّ اختيارها للمهمة بنفس الأسلوب والاتهامات الملفقة الذي اتبعته قبل سبع سنوات عندما غطت المحاكمة. لقد كان الشيوعيون واثقين من أنهم سينتصرون في الانتخابات وأن "العمال والمواطنين"عندما يتمُّ تذكيرهم بالخطط الرجعية لمتهمين سابقين ومتعصبين سوف يرونهم مكانتهم السياسية ألا وهي تلك التي في الظل.

وكرد على القصة قررت أن أستغل الفرصة من أجل ترويج آرائي. فضمّنت ردي اقتباساً من أقوالي من محاكمة عام ١٩٨٣ قبيل إعلان الحكم حيث كنت قد قلت:

"إنني أحب يوغسلافية، ولكن ليس حكومتها".

وبعد شهرين وفي ٢٦ أيار (مايو) ١٩٩٠ انعقدت الجمعية التأسيسية لحزب العمل الديموقراطي مرة أخرى في الهوليدي إن. لقد كانت القاعة ممتلئة. لقد أدى الخوف إلى نوع من التحدي والتصميم. فلقد رأيت أناساً من جميع أنحاء البوسنة والهرسك بل وكل يوغسلافية. حتى عادل ذو الفقار باشتش جاء خصيصاً من سويسرة.

لقد كان ذو الفقار باشتش أشهر مهاجر بوسني. كان يعيش في زيورخ حيث أسس المعهد البشناقي. ولقد كان أحد الموقعين على إعلان لندن عام ١٩٧٦ والذي عُرف بإعلان البديل الديموقراطي والذي وقع عليه أيضاً كل من توفيق فيلاغتش-أحد أبرز أعضاء الحزب ومهاجر سياسي يعيش في فيينا والعديد من المهاجرين الصرب والكروات الديموقراطيين. ولقد عرفت ذو الفقار باشتش في صيف عام ١٩٨٩. ولقد أظهرت محادثاتنا الأولية أن لدينا وجهات نظر مختلفة نوعاً ما. فلقد كان يريد الاستغناء عن الطابع الإسلامي للحزب،

ويريد إبقاء العامل البشناقي القومي فقط. ولذا اقترحت عليه أن يأتي للبوسنة حيث نبحث القضية سوية، لكنه لم يكن حينها مستعداً لعمل ذلك. وظهر فجأةً عشية انعقاد الجمعية التأسيسية في سراييفو. وكان يوم جمعة، وقد رحبت الصحافة والناس به ترحيباً رسمياً. إن اعتراضات ذو الفقار باشتش كانت لا أساس لها، ولكني كنت أحترم طروحاته حول الطابع القومي البوسني. ولقد ضمّنت نص البيان جملة أوضحت استراتيجيتنا تماماً. فلقد كتبت أننا:

"إحدى الشعوب البوسنية التي لها لغتها الخاصة، وثقافتها وتقاليدها". إن تقييد اسم مسلم لشعب معين لم يكن كافياً، لكن كان علينا أن نحتفظ بذلك. فلو لم نفعل ذلك لالتبس الأمر على الناس خاصة قبل إجراء الإحصاء السكاني، الذي كان مخططاًله أن يُجرى في نهاية ذلك العام[1] وبينما تلا المتحدث إعلان برنامج الحزب علا وجه ذو الفقار باشتش العبوس، لكنه لم يبدِ أي ردة فعل.

ولقد بدأت كلمتي في الجمعية التأسيسية بـ (بسم الله الرحمن الرحيم).

ولقد فعلت ذلك لسببين:

الأول أنني كنت فعلاً أرجو الله أن يعيننا.

والثاني أنها كانت علامة للحرية الدينية وإشارة واضحة على العصيان للنظام الحاكم. فحتى ذلك الوقت لم يكن بإمكان المرء أن يتخيل استخدام أية عبارات أو ألفاظ دينية علناً في جلسة عامة. وتابعت خطابي بالحديث عن قصة الحرية، وقلت: إنه خلال السنة الماضية وبعد سقوط جدار برلين وانهيار النظام الشيوعي لاح فجر الحرية لملايين البشر في جزء كبير من العالم. ولقد قارنت ما بين

---

(١) في إحصاء عام ١٩٩١، عرّف حوالي ٢,٢٨٩,٧٢٢ شخص أنفسهم في يوغسلافية كلها على أنهم مسلمون عند سؤالهم عن الجنسية وكان ١,٩٠٥,٨٦٩ منهم في البوسنة.

أهمية تلك الأحداث وأحداث تاريخية هامة أخرى مثل سقوط بيزنطة، واكتشاف أمريكا، والثورة الفرنسية قبل قرنين من الزمن:

"لا أدعي أن لدي الحق كي أتكلم بالنيابة عن الشعب المسلم، لأن أحداً لم يخولني عمل ذلك، ولكنني متأكد تماماً أنني أعبر عن مشاعرهم العميقة عندما يقولون: إنهم لن يسمحوا بتقطيع أوصال البوسنة. إن اتفاقية تسفيتكوفيتش- ماتشيك المشينة حول تقسيم البوسنة ما هي إلا حبر على ورق. إن ما يؤكد بقاءها حبراً على ورق هو هذه القوة الحاضرة اليوم في هذه القاعة..."

وتعقيباً على النظام الشيوعي الذي بات منهاراً تماماً خلصت إلى القول:

" إن المحاولة العملاقة لخلق فردوس على الأرض من دون تدخل الله، ومن ثم الإنسان، بل كانت محاولة ضد الله والإنسان، قد انتهت بالفشل الذريع".

وقاطعني الحضور بالتصفيق. لقد كان البعض يبكي. وبدا واضحاً أنه بدأت صفحة جديدة من تاريخنا.

وكان ضيوف الشرف في اجتماعنا يجلسون في الصفوف الأولى، وكان بينهم يوجد بوتشنيك، رئيس حزب ديموس السلوفيني، وداليبور بروزوفتش ممثل الجمعية الديمقراطية الكرواتية، ودراجن بوديشا رئيس الحزب الليبرالي الاجتماعي الكرواتي من زغرب، ود.فؤاد موهتش، أبرز منظري الصفوة الشيوعية من سراييفو، والراحل فلاديميرسريبروف: شاعر سيئ الحظ وضحية، وراسم كادتش رئيس اتحاد الشباب الاشتراكي وهكذا دواليك. ولمحت في القاعة القس فريدو فلاشتش وهو رجل طيب من دوفنو (سابقاً توميسلافغراد) كان قد سجن معي في فوتشا. ولقد ألقى جميعهم كلمات عبروا فيها عن دعمهم لتأسيس الحزب، وتمنوا له النجاح التام. واستمر الاجتماع كما كان مخططاً له حتى جاءت اللحظة التي يتكلم فيها د.بروزوفيتش حيث قال: إنه "سيتم الدفاع عن كرواتية حتى نهر الدرينا". وكان هناك تصفيق متفرق. ومن

ثم جاء دور سريبروف ليؤكد على ما قاله بروزوفيتش، ولكن بدأ بمعارضة الدعوة إلى مصطلح "اللغة البوسنية". لقد كان حديثه غير ذي منطق بالمجمل. وبحكمة امتنع الحضور عن التعليق على أي من الكلمتين.

ولقد تمَّ بث تقرير موجز عن الاجتماع في أخبار تلفاز سراييفو الرئيسية. لقد نعتونا بأننا مجموعة من السجناء السابقين وأساتذة جامعة فاشلين، وسياسيين متذمرين. وكان هذا أقصى ما استطاعت السلطات أن تؤذينا به حينها. ولقد بث تلفاز سراييفو مقتطفات من كلماتي الافتتاحية:

"إن أمامنا الآن اتفاق جديد ما بين شعوب البوسنة والهرسك وشعوب يوغسلافية حول الشكل الجديد الذي نريد للبوسنة ويوغسلافية. إن اتفاقات من هذا النوع يمكن تحقيقها فقط عندما يقوم بها ممثلون حقيقيون للشعب. وتحديد هوية هؤلاء الممثلين يمكن من خلال الشعب نفسه في انتخابات حرة. ولذا فإننا سنصل دائماً إلى الكلمة السحرية ألا وهي "الحرية" بغض النظر عن الطريق الذي نسلكه. إن معركة يوغسلافية سيتم حسمها هنا في البوسنة".

ولقد وافقت الجمعية التأسيسية على برنامج الحزب بالتصويت وتمَّ انتخاب قيادات الحزب حيث تمَّ انتخابي رئيساً، وتمَّ انتخاب عادل ذو الفقار ياشيتش واحداً من النواب الثلاثة للرئيس.

وسرت حمى الحزب بهدوء في الشعب. وكبر حجم الحزب بسرعة لم يتوقعها أحد تماماً ككرة الثلج التي تزداد قوة وحجماً مع حركتها. وتزايدت أعداد المنظمات والفروع الإقليمية والمحلية للحزب بشكل كبير في جميع أنحاء البلد. وكان من المفترض أن يتم تأسيس فرع للحزب في بانيالوكا في بداية حزيران (يونيو)، ولكن الشرطة منعت ذلك، ومن ثم عقد اجتماع حضره حوالي ٢٠ ألف شخص في الثامن من تموز (يوليو) في الميدان الكبير في المدينة أمام متجر بوسكا الكبير. وتمَّ انتخاب د.حمزة موياغتش من بانيالوكا رئيساً

لفرع الحزب هناك. ولقد رحب بالاجتماع ممثل الحزب الديموقراطي من بلغراد، وكذلك كان هناك ترحيب خاص بالأكاديمي محمد فيلوفيتش الذي ولد في بانيالوكا. ولقد كان هناك اهتمام بالملاحظة التي أبداها والتي تلخصت في أن زمن الانتماء السياسي (للحزب الواحد) قد ولّى.

وبلغت الحملة الانتخابية أوجها مع نهاية آب (أغسطس) عندما ذهبت إلى أمريكا بصحبة الشاعر جمال الدين لاتيش بناءاً على دعوة حزب العمل الديمقراطي هناك. وقد التقيت بابن صفي وزميلي أيام الدراسة الثانوية حسن كراتشتش والذي كان الأمريكان يلفظون اسمه على أنه كراتش. لقد كان تلميذاً جيداً، وكذلك رجلاً طيباً ونشيطاً. ولكونه يكره نظام الحكم الشيوعي فقد هاجر إلى كندا حيث أنشأ مصنع دهانات، وبنى منزلاً جميلاً على مقربة من شلالات نياغرا وتزوج من فتاة تركية رُزق منها ببنتين وولد. ولكنه الآن حبيس الفراش بعدما أصابته جلطة. فلقد كان يتكئ على عصا ويتكلم بصعوبة ويبكي كثيراً. لقد كان سعيداً سعادة الطفل الصغير لرؤيتي. لقد كان المسلمون الأمريكان يحبونه ويحترمونه كثيراً. وسرعان ما انضم إلينا في منزل حسن د.نجيب شاكر بيغوفتش والذي كان مسؤولاً عن رحلتنا هناك التي استمرت عشرة أيام. ولقد زرنا بمعيته بشناق تورنتو، واشنطن، وشيكاغو، ودايتون التي ستصبح مشهورة فيما بعد وهي بلدة سيتم ذكرها فيما بعد، لأسباب عدة وسيمر ذكرها كثيراً في هذا الكتاب.

ولقد اكتشفنا خلال سلسلة لقاءاتنا في أمريكا نفس المعضلات والتطلعات التي كانت لدى شعبنا في الداخل. فلقد شعروا بأنهم مسلمون بالمعنى الوطني أو القومي (حيث لم يكن مصطلح "بشناقي" قد ظهر على الساحة بعد). فلقد كانوا يحتفلون بالأعياد الدينية والقومية، وحرصوا على البقاء بعيداً عن المهاجرين التشتنيك والأوتاشا المتعصبين، وعملت غالبيتهم عمالاً في وظائف

دنيا، ولم يكونوا مهتمين كثيراً بالقراءة، ولكنهم كانوا يقيمون حفلات موسيقية كثيرة. ومع ذلك فلقد نجح بعض منهم في ترك أثر بصمته على المجتمع الأمريكي: فمثلاً كان نجيب يعمل طبيباً مختصاً في عيادة واشنطن، وشق إلياس زينكتش من منطقة كراينا طريقاً سياسياً لنفسه، وأصبح صفوت تشاتوفتش وهو شاب مسلم من منطقة بلانا قرب بيلتشا، مدرساً معروفاً بعد أن قضى حكماً طويلاً بالسجن قبل أن يهاجر إلى أمريكا. وكان د.أديب كوركوت عضواً في فريق أحد الفائزين بجائزة نوبل. أما أشهرهم وكان د.جميل أفديتش الذي أسس المركز الإسلامي في شيكاغو وكتب بعض المقالات الهامة عن التاريخ الثقافي البوسني.

ولقد رتب نجيب بعض اللقاءات المهمة لنا في واشنطن، حيث كانت هناك لقاءات أولاً في السفارة اليوغسلافية، ومن ثم لقاءات مع الجاليتين الصربية والكرواتية هناك.

وكان على رأس السفارة اليوغسلافية حينذاك السفير جواد مويزنيوفتش وهو مسلم من البوسنة. ولقد عقد مؤتمراً صحفياً لنا في السفارة. ومضى المؤتمر بهدوء حتى انبرى صحفي من بلغراد بطرح أسئلة حول كوسوفو، ولقد ضغط بحيث يجعلني إما أساند المتمردين الكوسوفيين كما كانوا يسمون حينها أو أن أعارضهم. وحينها تدخل السفير مويزنيوفتش وقاطعه قائلاً بصرامةٍ: "اسأل عن البوسنة، ولكن إن كنت تريد جواباً فعلاً فإنه لا يمكن لأحد أن يؤيد استخدام القوة ضد أي شعب".

ولقد زودني مويزنيوفتش ببعض الحقائق حول الوضع الدوني للبشناق في السلك الدبلوماسي اليوغسلافي. فلقد كان هناك ٢٣ موظفاً بشناقياً من ١٧٧٠ موظف في وزارة الشؤون الخارجية اليوغسلافية أي ما نسبته ١,٥٪ فقط مع أن البشناق كانوا يشكلون حينها ٨٪ من سكان يوغسلافية.

وينحدر مويزنيوفتش من تسازين، ولقد قضى حياته في بلغراد لأنه كان من يتامى الحرب العالمية الثانية ولكنه بقي مرتبطاً بالبوسنة وبمنطقة جذوره في إقليم كراءينا. لقد كان بوسنياً وطنياً حقاً. ولقد تمَّ تعيينه وزيراً في حكومة أنته ماركوفيتش الاتحادية، ولكن سرعان ما تمَّ إيفاده سفيراً إلى واشنطن لتبقى حكومة ماركوفتش من دون أي عضو مسلم.

وفي اليوم التالي أجرينا محادثات مع الجاليات الصربية المهاجرة ومن بينهم وأشهرهم المنشق المعروف ميهايلو ميخايلوف من زادار وهو أحد الذين حكم عليهم الشيوعيون بمدة سجن طويلة تحت شعار جريمة (الجنحة الكلامية) وحللنا ضيوفاً على صربي من بانيالوكا وطبعاً تحدثنا عن ميلوشفيتش واجتماعه الجماهيري الحاشد في كوسوفو يوليه وفرض الأحكام العرقية في كوسوفو. ولقد تفاجأت بأن الحاضرين من الصرب لم يكونوا يساندون ميلوشفيتش وحتى خلال أصعب الفترات لم يغير الديموقراطيون الصربيون وجهات نظرهم حيال هذه القضية.

ولقد زارنا ميهابلوف فيما بعد في سراييفو أثناء الحصار. ولقد سألني الحاضرون السؤال التالي: "هل ستذهب لتتحدث إلى الكروات الآن؟" "امض قدماً، ولكن لن تتمكن من إقناعهم بأي شيء، فبالننسبة إليهم البوسنة كانت وستبقى أرضاً كرواتية، وإنكم أنتم المسلمون لستم إلا زهورهم" قالوها جميعاً بصوت واحد ضاحكين.

لقد كان الفندق الذي قابلنا فيه الكروات مليئاً بالناس والدخان. وكلما ذكرت أنا وجمال مسلمي البوسنة كشعب مميز ومنفصل، أو كلما ذكرنا اللغة البوسنية بدأ الكروات بالتدخل والإكثار من الأسئلة وقاطعونا. وبدؤوا بخطبتهم المسهبة المعهودة، وتحدثوا عن البوسنة جزءاً لا يتجزأ من كرواتية المستقلة، وقالوا عنا بأننا كروات، مذهبنا الإسلام. وتحدثوا عن أهداف الصرب، وإنهم

متعصبون تشتنيك. ولقد حاولنا قدر الإمكان إظهار مدى التقارب الموجـود مـا بين شعبنا والشعب الكرواتي حيث أشرنا إلى حقيقة أننـا نعـرف بعضنـا بعضـاً، وأنه لا يوجد في التاريخ أي نوع من الفظـائع التـي ارتكبـت، ولكننـا فشـلنا في الحد من تهجمهم علينا وعلى البوسنة. وخلال اللقاء قام رجل مسـن طويـل إلى طاولتي وصافحني قائلاً وبصوت مرتفع: "يا سيد عزت بيغوفتش، اسمح لي أن أعبر عن احترامي الشديد لك وأن أخبرك بأنني أؤيد وجهات نظرك. فهذه هي الطريق للمضي قدماً".

لقد كان ذلك الشخص هو الراحل د.برانكـو بيشـيلييه وهـو أحـد الموقعـين على ميثاق البديل الديموقراطي ليوغسلافية، وهو معادٍ للفاشية والشـيوعية أيضـاً وزعيم حزب الفلاحين الكروات في المنفى.

ثم تكلم مهاجر آخر وهو دايدجا نيـاز بالتـاك والـذي قـدم نفسـه علـى أنـه "كرواتـي مذهبـه الإسـلام". وخـاطب الحضـور قـائلاً: "لمـاذا تهـاجمون هـؤلاء الأشخاص. إنهم مثقفون ذوو ميول دينية أكثر منها قوميـة، دعوهـم يسـتمروا، وسوف يصلون إلى الإجابات المناسبة. وأود أن أسألك يا سيد عزت بيغوفتـش: هل أعددتم العدة العسكرية لمواجهة التشتنيك؟ كلا لم تفعلوا. حسناً إذن دعني أخبرك بأنهم سـوف يذبحونكـم عنـد نهـر درينـا مهمـا تحدثـت عـن التسـامح، وسوف يقومون بذبح شعبكم بغض النظر عما نطلق هنا على هذا الشعب!"

وعندما اندلعت الحـرب في كرواتيـة أصبـح دايددجـا نيـاز بالتـاك، أو ماتيـه شارليا، أو ببساطة دايدجا، جنرالاً في الجيش الكرواتي، وحارب ضد التشـتنيك في البوسنة حيث جـرح في إغمـان. ولقـد أخـبرني جمـال أنـه عندمـا وصـل إلى البوسنة اتصل به وسأله باستهزاء عن بوغوميل مذكـراً إيـاه بكلماتـه التحذيريـة التي أطلقها في الفندق في واشنطن.

وفي اليوم التالي تمَّ استقبالنا في مكتب جنوب شرق أوروبة في وزارة الخارجية الأمريكية، وفي مركز تطوير الديموقراطية في العالم. وعندما كنا على وشك الدخول إلى وزارة الخارجية أخبرني جمال أن أقول: بسم الله. ولقد أثبتت السنوات اللاحقة أن محادثتنا في قلب الإدارة الأمريكية في ذلك اليوم سيكون لها أهمية أكبر مما كان يمكن تخيله في ذلك الوقت.

ولقد أمضينا يومنا الأخير في أمريكا في مدينة دايتون والتي ستصبح جزءاً من تاريخ البوسنة والهرسك. لقد تمت دعوتنا لحضور الاجتماع السنوي لاتحاد المسلمين في أمريكا الشمالية. لقد كان كتابي (الإسلام بين الشرق والغرب) والذي تُرجم إلى الإنجليزية أثناء فترة وجودي في السجن معروفاً لدى الأوساط الإسلامية في أمريكا. وعندما دخلنا القاعة كانت تغصُّ بالناس. لقد جاءت عائلات كاملة لحضور اللقاء، وكان هناك أطفال يركضون بشكل مزعج فقال جمال: "يمكنك أن ترى أنك بين المسلمين". معجباً بهذه الحيوية الإسلامية. فلقد كان مندهشاً من حسن التخطيط المسبق والتنظيم والدقة الذي رآه في الأماكن الأخرى ولو أن معظم ما رآه كان يبعث على الإحباط نوعاً ما.

لا أستطيع أن أتذكر كل اللقاءات، ولكن تلك التي عقدت في نوفي بازار وفوتشا، وفيليكا كلادوشا كانت أكثرها أهمية وأكبرها حضوراً. فقبل المجيء إلى فوتشا، ذهبت إلى زغرب، بيهاتش، وزفورنيك، وغوراجده، وتوزلا وتيتوفو. لقد كان الحدث الرئيس في لقاء فوتشا في ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٩٠ هو حضور الجنازة لإعادة دفن المسلمين الذين قتلوا خلال الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن عدد الذين قتلوا من المسلمين هو أكبر من حيث النسبة والتناسب من نظيره في أي شعب آخر، فإن الحقول التي قُتلوا فيها لم يتم تعيينها لقد كانت فوتشا أحد أكبر حقول القتل تلك. ولم يسمح نظام الحكم الملحد أبداً بإقامة نصب ديني تذكاري لتخليد ذكرى أولئك الضحايا الأبرياء.

ولقد عقد اللقاء تحت شعار "يجب ألا تتكرر مذبحة فوتشا مرة أخرى". ولقد طلبت من المئة ألف الذين احتشدوا هناك أن يصفحوا، وقلت: إن المسلمين يمرون بامتحان تاريخي من ذلك اليوم. ولقد رفضت فكرة المسؤولية الجماعية للصرب عن الفظائع التي ارتكبها التشتنيك بحق المسلمين. وقلت أيضاً محاولاً كبت أي نوع من الطغيان القومي:

"بالنسبة إلينا نحن ننظر إلى الأمر من زاوية ما حدث في فوتشا، هناك أمتان أو قوميتان: القتلة والضحايا الأبرياء".

وقام فتيان وفتيات برمي الزهور من على الجسر حيث قتل المسلون قبل نحو خمسين عاماً. ولقد اقترحت أيضاً أن نضع زهوراً على قبور الضحايا الأبرياء، من الصرب، ولقد وافق الناس على فعل ذلك.

ولسوء الحظ لقد كان ذلك مجرد مثاليات غير ذات جدوى. ففي عام ١٩٩٢ تكررت الفظائع في فوتشا وعلى نحو أسوأ. فلقد قُتل السكان وأجبروا على الفرار وتمَّ تدمير جميع المساجد بما فيها مسجد آلادبا المشهور والذي بُني في القرن السادس عشر. وأتساءل: هل كان هناك أي جدوى لمحاولات التسامح والتصالح تلك؟ أعتقد أنه كان هناك جدوى حتى في يومنا هذا. إن مبادرات ومحاولات مثل تلك لا يمكن أن تكون غير ذات معنى أو جدوى.

أما في فيليكا كلادوشا حيث يجتمع حوالي ألفي شخص فلقد ذهبت إلى أبعد مما قلته في فوتشا:

"يجب أن تكون للبوسنة والهرسك جمهورية متحضرة، هذا هو الخيار الأوحد للشعب المسلم: لا أقول الشعب الإسلامي أو الاشتراكي ولكن الشعب المتمدن، ولكن من أجل تحقيق ذلك نحن بحاجة إلى أن يقبل الصرب والكروات بذلك أيضاً...

وإذا ما نفذت كل سلوفينيا وكرواتية تهديداتهما بالانفصال عن يوغسلافية، فإن البوسنة لن تبقى في يوغسلافية، لن توافق البوسنة على أن تبقى وتصبح جزءاً من صربيا الكبرى. وإذا ما دعت الحاجة فسوف يحمل المسلمون السلاح دفاعاً عن البوسنة".

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن الانفصال عن يوغسلافية وعن حمل السلاح. لقد كان ذلك في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠.

وبذلك كانت القومية المسلمة مستعدة ولو جزئياً على الأقل للأحداث التي كانت ستحدث. وعلى الرغم من أنها كانت تفتقر إلى السلاح الكافي إلا أنها كانت منظمة.

وقبل اندلاع الحرب بوقت قليل جداً عقدت محادثات مع رئيس جهاز مكافحة التجسس اليوغسلافي، الجنرال فاسيليفيتش في آذار (مارس) من عام ١٩٩٢ على ما أعتقد لقد قال بأننا كنا نحصل على أسلحة وهو ما أنكرته بالطبع. ولقد ادعى بأنه لديه الدليل وعرض أن يطلعني عليه.

لقد بدا أن شخصاً ما يعمل لحساب حزب العمل الديموقراطي كان يعمل أيضاً لحساب الجنرال فاسيليفيتش. وعندما دخلنا إلى ثكنات المارشال تيتو في أيار من عام ١٩٩٢ وجدنا بعض أوراقنا هناك. ولكن فاسيليفيتش أخبرني التالي: "يا سيد عزت بيغوفتش لم نكن يوماً خائفين من السلاح. إن ما يقلقنا هو أن يقوم عشرون شخصاً ذوو عقلية متشابهة بتنظيم أنفسهم. أما مستودعات مليئة بالسلاح فهذا ما لا يقلقنا البتة".لقد جمعنا أفكار وعقول هؤلاء العشرين شخصاً بل وحتى آلاف من العشرينات في كل اتحاد البوسنة والهرسك وهذا ما زاد في واقع الأمر من قوة دفاع البلاد.

وخلال حملة عام ١٩٩٠ ألقيت خطابات عدة حتى لقد ألقيت خطابين في اليوم في بعض الأحيان. ولقد كنت أكتب الخطابات بنفسي باستثناء مرة واحدة حيث طلبت من صديق لي أن يكتب الخطاب الذي سألقيه في لقاء في موستار عقد في تموز (يوليو) في الملعب قرب بيلي برييغ. لقد كان خطاباً رائعاً، ولكنها لم تكن كلماتي. لقد كنت غير مقتنع البتة، وكان التصفيق فاتراً. وفي منتصف الخطاب طويت الورقة وتابعت الكلام مرتجلاً. وبدا أن التأثير أصبح أفضل بعد ذلك.

وبالنظر إلى عدد اللقاءات والاجتماعات الكثيرة فإنني لم أعد أقدر أن أفكر عما سأتحدث مسبقاً. فأصبح من المعتاد بالنسبة إلي ألا أعرف عما سأتحدث حتى يتم إعطائي الدور للحديث. عندها كنت أحاول أن أشكل بعضاً من الجمل الموزونة مبدئياً في ذهني. وكنت أعمد إلى إبطاء خطاي باتجاه المنصة، وكنت أختار أطول الطرق إلى هناك لكي أمنح نفسي فرصة الحصول على بعض من الثواني الإضافية.

ولقد كانت هناك أوقات قمت بتحضير خطابي فيها في الطريق إلى تلك اللقاءات. ولكن ذلك لم يكن دائماً ممكناً، خاصة وأنا أركب سيارة كبيرة مليئة بالأشخاص الذين يتحدثون بكثرة. ففي مثل تلك الحالات تركت الأمر لفطرتي.

ولقد أخذنا تصميم راية حزب العمل الديموقراطي من ألبوم صور قديم يظهر صورة تقول إن هذا كان علم مسلمي إسبانية. فلا شيء سيكون أكثر منطقية بالنسبة إلينا كمسلمين أوروبيين من أن نتبنى مثل هذا العلم. ولقد رحب الناس بهذا الاختيار، وكانوا يلفون نعوش أو توابيت الجنود الذين قضوا في المعارك به. وعندما أعلنا استقلال البلاد تمَّ تصميم علم جديد للبوسنة (وهو من زهور الزنبق) على خلفية بيضاء. ولا أظن أننا كنا سنجد رمزاً أكثر براءة لهويتنا من الهلال والزهور.

ولقد استشاط ذوالفقار باشتش غضباً بسبب العلم وبعض الأناشيد التي رددها الحضور. ولقد قيل: إن علم العربية السعودية بما هو مكتوب عليه وبالسيف شوهد في اجتماع كلادوشا. وأعترف الآن أن الأجواء كانت دينية أكثر مما ينبغي لاجتماع سياسي، ولكنني لا أعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي لما حدث فيما بعد. لقد كان الحزب حركة تنمو داخلها أجنحة مختلفة. ولقد برزت المشكلة الأكبر من الجناح المؤيد لذوالفقارباشتش. لقد كان واضحاً منذ

البداية أننا لم نكن مجموعة موحدة لا أيديولوجياً ولا سياسياً. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مشكلة ذو الفقار باشتش نفسه حيث كان يرى أنه هو الزعيم للشعب المسلم. ولقد أظهرت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) أنه كان يضلل نفسه. ومع مرور الوقت بدا له أن شعبيتي تزداد على حساب شعبيته هو. ولقد كان هناك نقاشات حادة بيننا حول الموضوع. ولقد خلصت في إحدى هذه النقاشات في فيليكا كلادوشا إلى أنه كان يخطط لعملية انشقاق داخل الحزب. حاولت جاهداً أن أجعله يعدل عن عزمه نظراً لأن الناس أصبحوا يشعرون بنوع من التحرر بسبب حزبنا.

وفي الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) أي بعد ثلاثة أيام من اجتماع كلادوشا الكبير وبينما كنت جالساً في مقر الحزب الرئيس للتحضير لإحدى اللقاءات دخل مجموعة من الأشخاص دون استئذان وأخبروني أن ذو الفقار باشتش وفيليبوفتش قد عقدا مؤتمراً صحفياً للتو أعلنا فيه أنهما سيتوليان السلطة في الحزب معللين ذلك بأن الحزب أصبح يمينياً، وأنني كنت أقود الحزب نحو الأصولية بينما أرادوه هم ليكون قائداً للناس باتجاه أوربة وهكذا دواليك. لقد كان انقلاباً سياسياً كلاسيكياً، حيث قرر تولي السلطة دون الرجوع إلى الهيئات الرسمية للحزب. ولقد شعر الناس بإحباط شديد لدى سماع الأخبار. ونشرت مقالات في الصحف بعنوان (اليوم الذي بكت فيه البوسنة).

وسرعان ما ثبت أن الانقلاب قد فشل. فلقد مُنع فيليبوفتش من دخول قاعة الرياضة التي عقد فيها لقاء إيليدجا الكبير، حيث تمَّ حملي على الأعناق. لقد كان الناس معنا، وهذا ما أكدته سلسلة اللقاءات التي عقدت مع أنصارنا أو أنصارهم. وأخيراً أظهرت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) الأمور بشكل واضح ودقيق. لقد فزت على ذوالفقار باشتش في الانتخابات الرئاسة بنسبة عشرة إلى واحد.

وبدأ ذكر اسم رجل يتردد أكثر فأكثر في الأزمة اليوغسلافية المتسارعة. لقد كان هذا الرجل هو د.فرانيو تودجمان رئيس الجمعية الديموقراطية الكرواتية والذي سيصبح الرئيس المستقبلي لجمهورية كرواتية. لقد سمعت عن تودجمان بينما كنت في السجن، ولكنه أصبح مشهوراً أكثر في عام ١٩٨٩ عندما أسس الحزب المعروف باسم الجمعية الديموقراطية الكرواتية. لقد كانت هناك آراء متفاوتة حول تودجمان في البوسنة، ولذا قررت أن أتعرفه أكثر. ولقد عرض محامي الدفاع عني في محاكمة عام ١٩٨٣ وصديقي الطيب المحامي نيكولا مسلم من زغرب علي اللقاء بستيبي ميستيش أحد مؤسسي الجمعية الديموقراطية الكرواتية والذي سيأخذني لمقابلة تودجمان.

وصلت إلى زغرب بقطار الصباح في شباط (فبراير) من عام ١٩٩٠ ولقد أخذني المحامي مسلم الذي كان في انتظاري في المحطة إلى بناية في وسط المدينة، حيث كانت هناك في الطابق الثالث شركة تصميم يديرها ستيبه ميستش، وهكذا بدأت بيننا صداقة مازالت مستمرة إلى اليوم. وأصبح ميستش فيما بعد عضواً في رئاسة يوغسلافية، وحيث تقابلنا هناك عدة مرّات في عام ١٩٩١. وبينما أنا أكتب هذه السطور الآن فإن ميستش يمضي فترة ولاية من خمس سنوات كرئيس لجمهورية كرواتية.

ثم ركبنا الترامواي وانطلقنا لمقابلة تودجمان، ومن ثم وصلنا إلى كوخ خشبي متواضع كان هو المقر الرئيسي للجمعية الديموقراطية الكرواتية. وعندما دخلنا كان المكان يعج بالحركة والنشاط، وبعد فترة انتظار قصيرة استقبلني تودجمان، وهكذا بدأت الخلافات والنزاعات التي امتدت لسنوات عدة.

ولقد دعاني تودجمان إلى الغداء في مطعم في زغرب، حيث قاد السيارة بنفسه إلى هناك. ولقد حاول أن يكون واضحاً خلال محادثتنا فقال لي ما يلي بالحرف الواحد: "يا سيد عزت بيغوفيتش لا تقم بإنشاء حزب مسلم، إن ذلك

خطأ فادح، لأن الكروات والمسلمين في البوسنة والهرسك هم شعب واحد، إن المسلمين هم كروات وهذا ما يجدون أنفسهم يشعرون به".

فقلت: إنه كان يضلل نفسه، وإن المسلمين يجدون أنفسهم مسلمين وأنهم يحبون ويحترمون الكروات ولكنهم ليسوا بكروات. ولقد ساق بعض التفاصيل التاريخية لتأييد موقفه، وأعتقد لكونه يحمل درجة الدكتوراه في التاريخ فإنه يعرف التاريخ أفضل مني، ولكني كنت أعرف واقع البوسنة حينها أكثر مما يعرف هو. ولقد قال: إن حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية سوف يحصل على أصوات المسلمين والكروات في البوسنة والهرسك، وإنه سيحصد ٧٠٪ من الأصوات. وقمت بالرد عليه بأن حزبه لن يحصل على ٧٠٪ من الأصوات، ولكن ١٧٪ فقط. وفعلاً فلقد حصل حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٠ على ١٧٪ من الأصوات، وهو أمر لم يكن صعباً التنبؤ به. ففي واقع الأمر كانت الانتخابات مجرد إحصاء للسكان.

أُجريت الانتخابات في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٠. وحصل حزب العمل الديموقراطي على ٨٦ مقعداً من المقاعد الـ ٢٤٠ في برلمان جمهورية البوسنة والهرسك. وكان هناك ثلاثة أعضاء للحزب في الرئاسة المكونة من سبعة أعضاء. وكان المرشح الذي حصل على أكبر عدد من الأصوات في الانتخابات الرئاسية هو فكرت عبديتش، حيث حصد أكثر من مليون صوت. أما أنا فلقد حصلت على ٨٧٠ ألف صوت. لقد ساعدت عبديتش سمعته كضحية لمحاكمة فضيحة شركة أغروكوميرس عامي ١٩٨٦-١٩٨٧. ولقد عزز من شعبيته بانضمامه للحزب السياسي الذي كان في أوج صعوده حيث انضم عبديتش للحزب في أيلول (سبتمبر) أي قبل شهرين من الانتخابات. ولقد كان لديه أيضاً سمعة جيدة حيث حصل على أصوات من الكروات والصرب كما أشارت بعض التحليلات.

وعبديتش هو الذي سيقود التمرد في غرب البوسنة من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٣. مما سبب ضرراً كبيراً للبوسنة والهرسك وللشعب المسلم. لقد استطاع الصرب من أتباع كارادجتش أن يحققوا أحد أهدافهم الاستراتيجية من خلال فكرت عبديتش من أجل زرع الفرقة والخلاف داخل الجسم البوشناقي. قد يكون من السابق لأوانه الحكم على جميع الأسباب التي أدت بعبديتش للقيام بمغامرته تلك والتي انتهت نهاية غير سعيدة بالنسبة إليه. وهناك تفسيرات عدة لذلك بدءاً بحقيقة أنه كان دائماً رجلهم الوفي (أي رجل الصرب). لا يوجد لدي دليل على ذلك على الرغم من وجود ما أثار مثل هذه الشبهات منذ بدء الأيام الأولى للحرب. لقد كان يستطيع الاتصال بسهولة شديدة مع الجنرال ملاديتش من خلال الهاتف دون أي صعوبة خلال القصف على المدينة. ولقد كان معروفاً أنه كان يتاجر مع الجيش اليوغسلافي أثناء الحرب. فلقد كان يورد معونات ضخمة من الطعام والوقود من خلال شركة أثروكومرس. لقد تمَّ تسليم السلطة بهدوء من قبل الفريق الشيوعي الحاكم. ولقد تمَّ انتخابي كرئيس لمجلس الرئاسة البوسنية من الجلسة التأسيسية لمجلس رئاسة البوسنة والهرسك. بناءاً على اتفاق مسبق بين الأحزاب الفائزة بالانتخابات.

ومن ثم جاء دور تشكيل الحكومة. لقد كان ذلك عملاً شاقاً أنبأ عن حدوث خلافات وانشقاقات في المستقبل. وبدا لي حينها أنه يجب أن نقوم بتشكيل حكومة ائتلافية حيث إنه بدا واضحاً أن الحزب الصربي قد حصل على أصوات الصرب، وحصل حزب الجمعية الديمقراطية الكرواتية على أصوات الكروات. فيما حصل حزب العمل الديمقراطي على أصوات البشناق. ولقد ارتأيت أن الحكومة الائتلافية ستكون هي الإطار للانسجام والمصالحة الوطنية. ولقد أظهر المستقبل أنني كنت مخطئاً، ولكنني ما زلت أعتقد أنه كان يجب علينا المحاولة. فلولا تبنينا طريقاً آخر فإنني متأكد من أن الحرب كانت

ستندلع في عام ١٩٩١ وكان سيتم تفسير الصراع على أنه أحزاب وأطراف تقوم بتصفية الطرف الثالث من خلال وجود تحالف مساند لهما. ولكن على العكس من ذلك فلقد حاولت أن أحقق نوعاً من التوافق الوطني في البوسنة والهرسك.

لقد كان أداء الحكومة التي تمَّ تعيينها بعد شهرين ضعيفاً جداً. وبدا واضحاً أنه كان يجمع الأحزاب وجهات نظر متشعبة، وفي بعض الأحيان متضاربة لما كان يجب أن يكون عليه البوسنة والهرسك. ولقد ظهر أن حزبي الصرب والكروات لم يكونا إلا مجرد امتداد للأحزاب الأم في كل من صربيا وكرواتية. ومن هنا بدأ التدخل السافر في الشؤون الداخلية للبوسنة والهرسك. ويقع اللوم في حدوث الانقسام داخل البوسنة والهرسك على عاتق الحزب الصربي بالطبع.

وفي خضم أوضاع لم تبشر بالخير أصدر حزب العمل الديموقراطي إعلاناً لجميع أعضائه والشعب المسلم ومواطني البوسنة والهرسك. وبعد عدة أيام من صدور هذا الإعلان طلبت مني صحيفة (بوربا) من بلغراد توضيحاً أكبر. وفي مقابلة لي مع الصحيفة صرحت بأن "الهدف الرئيس من الإعلان هو توجيه الدعوة إلى كل المسلمين ألا ينجرفوا وراء الانقسام وأن يقوموا بحماية جيرانهم الصرب والكروات إذا ما حدث طارئ. نحن نحترم الشعب الصربي، ولكن مصير البوسنة بتحديد العلاقات الصربية المسلمة أكثر من العلاقات الصربية-الكرواتية وذلك لسبب بسيط ألا وهو أن الصرب هنا أكثر تعداداً من الكروات. إن واقع الأمر يقول بأنه إذا حدثت طوارئ فإن ذلك ليس بيدنا بل بيد أولئك الذين يوجهون الأمور من خارج البوسنة".

"من صحيفة بوربا-بلغراد-٩-١٠/١٢/١٩٩١"

ثم بدأت أتردد على جلسات الرئاسة الاتحادية ليوغسلافية في بلغراد بدءاً من كانون الثاني (يناير) في عام ١٩٩١. لقد كانت تلك اجتماعات في محاولة

لإيجاد حل للأزمة التي كانت تهدد بتفكيك الاتحاد اليوغسلافي. وعند مغادرتي سراييفو لحضور الجلسة الأولى لمجلس رئاسة الاتحاد اليوغسلافي الاشتراكي في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩١ أدليت بالتصريح التالي للصحفيين:

"لقد بلورنا في جلستنا الأخيرة لمجلس الرئاسة في البوسنة والهرسك موقفنا المبدئي من قضية مستقبل يوغسلافية. ولقد اتفقنا على أننا معاً من أجل يوغسلافية، ولكننا أيضاً مع البوسنة والهرسك كدولة ذات سيادة وداخل يوغسلافية، وطبعاً نعني بذات سيادة إلى الحد الممكن من أجل اندماج مستقبلي. يجب أن تكون يوغسلافية بلداً ديمقراطياً حيث تكون فيها الجمهوريات والشعوب، والقوميات على قدم المساواة. ولقد التزمنا بمبدأ الاقتصاد الحر، وحركة البضائع الحرة، والتنقل وحرية نقل رؤوس الأموال والقوة العاملة. إن معضلة الخيار ما بين اتحاد فيدرالي أو كونفدرالي هي معضلة وهمية، لأن الديموقراطية هي النمط الضروري. هذا هو موقفنا المبدئي في المفاوضات المستقبلية".

إن هذه تبدو أفكاراً عادية للوهلة الأولى، ولكنها تُعد أفكاراً ثورية بالنسبة إلى يوغسلافية في ذلك الوقت.

لا أستطيع القول بأن الجلسة الأولى لمجلس الرئاسة الاتحادي تركت انطباعاً جيداً عندي. فبينما كانت تتم مناقشة الأزمة السياسية تابعت النقاش باهتمام ولكنني أذكر أنني سرعان ما أصبت بالملل عندما طرحت قضايا روتينية. ولقد كدت أغفو بعض الشيء. ولقد أخبرت أبنائي عند عودتي عن ذلك فلقد كانوا متشوقين لمعرفة كيف سارت الأمور في أول جلسة لي في مجلس الرئاسة الاتحادي الذي هو نفس المجلس الذي أمر بإطلاق سراحي قبل عامين.

يتألف مجلس الرئاسة الاتحادي ليوغسلافية من ثمانية أعضاء، وذلك بعدما قام رؤساء الجمهوريات بزيادة عدد الأعضاء. وغالباً ما كان يحضر الاجتماعات رئيس الوزراء الاتحادي، انته ماركوفتش ووزير الدفاع الجنرال فيلكو كاديفتش.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بمعظم من حضر الاجتماع. فلقد كنت أعرف مسبقاً رئيس الوزراء انته ماركوفتش معرفة جيدة. كان رجلاً مرغوباً وذكياً يحاول إعادة هيكلة يوغسلافية مخالفاً بذلك الكثير من مواطنيه الكروات. وكنت قد قابلت سلوبودان ميلوشفتش وفرانيو تودجمان وكيرو غليغوروف في مناسبات عدة سابقة. ولكنها كانت تلك المرة الأولى التي أقابل فيها الجنرال كاديفيتش. لقد كان ضابطاً على درجة عالية من التدريب، ويوغسلافيّ حقاً، على العكس من نائبه آدجتش الذي كان من دون شك صربياً شوفينياً حاقداً. كان كاديفتش يحاول جاداً الحفاظ على يوغسلافية، ولقد اتفقنا خلال لقائنا الأول هذا أن أزوره في مكتبه في مقر القيادة العامة. ولم يكن انطباعي الذي خرجت به بعد زيارته سلبياً. لقد دافع عن القضية اليوغسلافية حيث اتفقنا على ذلك. ولكنني شددت على ضرورة إعادة هيكلة الدولة وهنا اختلفنا. لقد كان واضحاً أن كاديفيتش متخوف من المساس بالهيكلة القائمة والتي كانت أصلاً هشة جداً.

إن السيطرة الصربية على الاتحاد قد تمَّ وضعها في أساس الاتحاد اليوغسلافي منذ قيامه. إذا لم يكن جميع شعوب الاتحاد على قدم المساواة فإن يوغسلافية لن تعمّر، ولكن المشكلة أن مجرد ذكر المساواة كانت بمثابة إهانة بالنسبة للصرب. فهم كانوا يعتقدون أنهم هم الذين أسسوا يوغسلافية، وأنها كانت لهم وحدهم دون غيرهم. ويضاف إلى هذا السبب الأساسي الذي أدى إلى تفكك الاتحاد النظام الاقتصادي الفاشل المبني على ما يسمى بالملكية الاشتراكية، التي كانت في واقع الأمر ملكية بلا مالك. لقد كانت البلاد متخلفة اقتصادياً وتعاني من ديون خارجية كبيرة. واندلعت الفوضى عندما خرج التضخم عن نطاق السيطرة.

وقمت في الشهور القليلة التي تلت ذلك بعدة زيارات إلى بلدان عدة حيث قابلت العديد من الأشخاص المهمين. ومع ذلك فلم تسر الأمور باتجاه بداية جيدة.

لقد تمت دعوتي في ٢٥ آذار (مارس) من عام ١٩٩١ لحضور مؤتمر حول الأقليات في فينا حيث عقد على متن السفينة (موزارت) على ضفاف نهر الدانوب. كانت تلك أول زيارة رسمية لي إلى بلد أجنبي حيث استقبلني رئيس جمهورية النمسا آنذاك كورت فالديهايم.

كان فالدهايم قد خرج للتو من أزمة صعبة سببها المزاعم التي أثيرت حوله بشأن ماضيه النازي. لقد كان لقائي به مغامرة سياسية. ولكن هذا ما اقتضاه البروتوكول. ومع ذلك فلقد كانت هذه الزيارة هامة للدبلوماسية البوسنية الوليدة. فلقد حققنا قدراً عالياً من الصداقة والتفاهم مع النمسا خلال السنوات اللاحقة. وكان وزير خارجية النمسا حينها الويز موك أحد أهم الداعمين والمساندين للقضية البوسنية في العالم. وعندما انتهت الحرب قمت بتقليده وسام (تنين البوسنة) والذي منحته إياه البوسنة والهرسك أيام الحرب. ومن ثم تبعت هذه الزيارة زيارات إلى تركية وإيران. وهما بلدان كانت علاقاتهما مع الغرب على طرفي نقيض.

ولقد تلقيت ترحيباً واستقبالاً حافلاً في إيران التي كانت معوناتها العسكرية ستلعب دوراً هاماً خلال حرب البوسنة في الدفاع عن نفسها ضد العدوان. فلقد وجدت عند وصولي في أحد أيام أيار (مايو) من عام ١٩٩١ إلى مطار طهران وحدات كبيرة من التشكيلات العسكرية الإيرانية الثلاث في استقبالنا بالإضافة إلى صف طويل من حوالي ٥٠ ممثلاً دبلوماسياً ومسؤولين رسميين كانوا في انتظاري تحت شمس الظهيرة الحارة. لقد فوجئت بذلك ولا أظن أنني تكيفت مع الظرف بأحسن ما أمكن. ومن ثم تمَّ أخذي إلى جناح فاره جداً في فندق في الجزء الشمالي من طهران. لقد كان طول غرفة الجلوس حوالي عشرين متراً. وكان الحائط الغربي كله مصنوعاً من الزجاج فكانت أشعة الشمس تدخل في الغرفة جاعلة حرّها لا يطاق. وكانت جميع المكيفات التي تعمل

بضجيج لم تفلح في التخفيف من الأمور. لقد كانت درجة حرارة الغرفة حوالي ٢٨ درجة مئوية. وعلى مسافة يمكن للمرء أن يرى من الشباك سجن إيفين الشهير محاطاً بأسوار عالية. ومن مكاننا في الطابق السابع عشر كنا نستطيع رؤية ساحة السجن الكبيرة يمشي فيها بعض الأحيان أشخاص. ولقد فكرت في نفسي أنه لربما تمَّ شنق شخص ما لهذا اليوم. إن القوانين الإيرانية فيما يخص الجريمة والمخدرات صارمة جداً. ولقد حاولت النوم في ذلك الحر ومع تلك الأفكار، ولكن لم أنجح إلا قبيل الفجر بقليل عندما بدأ الجناح يبرد قليلاً.

وفي الصباح جاء الوزير ولايتي ليصطحبني في الزيارات المعدة لذلك اليوم. وكما هي العادة فلقد سألني إذا كنت قد نمت نوماً جيداً وأجبته بصراحة أنني لم أفعل ذاكراً معظم القصة. وعندما عدت إلى الفندق مساءاً أخبرني أحد حراس الأمن أنه سيأتي من أجلي بعد ساعة ليأخذني إلى فندق آخر حيث تمَّ نقلي إلى فندق الهلتون وإلى جناح أصغر حيث كان كل شيء أصغر.

وفي تركية التقيت بصديق كبير للبوسنة ألا وهو تورغوت أوزال. الذي كان رئيس تركية ذا الشعبية الكبيرة، والذي كان معروفاً بإصلاحاته الاقتصادية. وعندما سألته عن السر أجاب:

"سيادة الرئيس عزت بيغوفتش: تذكر كلمة واحدة فقط (البنوك). يجب أن تبدأ بترتيب أمور البنوك أولاً". وكانت تركية ترأس حينها منظمة المؤتمر الإسلامي حيث كان من المهم جداً بالنسبة إلينا في البوسنة أن نكون على علاقة وطيدة مع تلك المنظمة. وكان هناك من يقول بأن الرئيس أوزال ينحدر من أصول بوسنية بعيدة، وأن أجداده كانوا يعيشون في يايتسه. ولم أسأله عن ذلك ولكنه دُهش عندما قلت له: إنني من عرق تركي.

وفي نهاية تموز قمت بزيارة الولايات المتحدة. وعقدت هناك محادثات مع أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي وأبرزهم كان السيناتور بوت دول.

ولقد استقبلني بالنيابة عن وزارة الخارجية نائب الوزير لورنس أيغلبرغر. ولقد لاحظت أن إدارة الرئيس بوش لم يكن لديها فهم للأزمة اليوغسلافية وقلت شيئاً مشابهاً للصحافة عند مغادرتي للاجتماع. ولقد قرأت فيما بعد أنه ومنذ بداية عام ١٩٩٠ كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد جزمت بأن يوغسلافية لن تبقى على قيد الحياة. ويقوم (روي غتمان) بتحليل الأسباب الكامنة وراء سياسة (البقاء بعيداً) التي انتهجتها الإدارة الأمريكية تجاه يوغسلافية في كتابه: (شاهد على الإبادة العرقية) فلقد كتب محللاً:

"لقد كان للشخصيات أيضاً دور في المسألة. فبالإضافة إلى عودة أيغلبرغر إلى سلك الخدمة نائباً لوزير الخارجية في إدارة بوش كان هناك شخصية أخرى لها علاقة بيوغسلافية في الإدارة الأمريكية ألا وهو برنت سكوكروفت مستشار شؤون الأمن القومي والذي عمل ملحقاً جوياً في بلغراد خلال الستينيات. ولقد كتبَ رسالة الدكتوراه في جامعة كولومبيا حول موضوع المعونة الأجنبية ليوغسلافية. فبينما لم يكونا عضوين في إدارة ريغان تابع الرجلان تواصلهما مع القادة الصرب واليوغسلاف. وانضم ايغلبرغر إلى مجلس إدارة شركة يوغور أمريكا وهي الفرع الأمريكي لشركة صناعة السيارات في صربيا. وعمل رئيساً لمكتب هنري كيسنجر للاستشارات. والذي كان له عقود مع شركة يوغو أمريكا ومشاريع يوغسلافية أخرى مملوكة من قبل الحكومة، وكان سكوكروفت نائب رئيس للحكومة الاستشارية نفسها. ولقد كان الرجلان يتحدثان الصربوكرواتية بطلاقة حتى بين بعضهم البعض وحيث ناصر كلاهما جانب وزارة الخارجية في الخلاف الداخلي الذي حصل في إدارة بوش[١] ".

ولقد حضرت الجلسة غير العادية لمجلس الوزراء الاتحاد الأوروبي في روما في ٢٨ آب (أغسطس) حيث تبنى المجلس إعلاناً بخصوص يوغسلافية. ولقد قمت حينها بزيارة للبابا وقبل ذلك بأيام كنت قد زرت زعيم الكنيسة الصربية

(١) من كتاب روي غتمان شاهد على الإبادة العرقية ص ١٤-١٥. الناشر: ماكميلان، نيويورك، ١٩٩٣.

الأرثوذكسية، البطريرك بافله في بلغراد. لقد بدا البابا الذي أكن له احتراماً كبيراً أكبر مما توقعت وبدا البطريرك بافله الطاعن في السن وذو الجسم النحيل كما ولو أنه قد نزل للتو من إحدى اللوحات والرسومات التي تزين جدران الكنائس والأديرة الأرثوذكسية من العصور الوسطى. وفي معرض لقائي بالبطريرك قلت: إن المسلمين لن يعتدوا على الصرب. فيما كان تعليق المطران إيرينسي من باتسكا على ذلك: "لقد حاولت الحصول من رادوفان كرادجتش على تعهد مشابه بأن الصرب لن يهاجموا المسلمين ولكنني لم أحصل على ذلك أبداً".

ولدى عودتي من روما سألني أحد الصحفيين السؤال التالي: "بما أنك قد زرت خلال فترة وجيزة كلاً من البابا والبطريرك بافله، فما انطباعاتك عن العلاقات الكرواتية-الصربية؟" ولقد أجبته بالقول بأنني كنت متأكداً أن تلك القيادات الدينية كانت ملتزمة بالسلام، ولكنني أعلم ولسوء الحظ أن ليس لديهم تأثير كبير على ما يحصل في هذا الجزء من العالم.

بعدما أصبح واضحاً أن الرئاسة لم تعد قادرة على حل الأزمة السياسية اقترح أحدهم أن يقوم رؤساء الجمهوريات الستة بذلك. وتمَّ عقد لقاءات واجتماعات عدة يفصل بينها أيام فقط. ولم يخلُ ربيع عام ١٩٩١ من تلك الاجتماعات التي عقدت في ليوبليانا، وزغرب، وسراييفو وهكذا دواليك. ولكن عندما يكون ميلوشيفتش وتودجمان حاضرين فلا يمكن إنجاز أي شيء. وليس هناك شك في أن العوامل الإنسانية الشخصية الفردية لعبت دوراً رئيسياً في تشكيل الأحداث كما جرت في يوغسلافية. فمن ناحية موضوعية، كان يمكن أن نختار طريقاً آخر مع الاحتفاظ بتحقيق الأهداف الضرورية للكروات والمسلمين والصرب وباقي القوميات الأخرى في يوغسلافية السابقة. إن شخصية الكثير من القياديين ورؤساء الجمهوريات في يوغسلافية حينها كانت تعني أن كل اتفاقية كان محكوماً عليها بالفشل مسبقاً.

ولقد أثبت تصرف القوى العظمى تجاه البوسنة ويوغسلافية السابقة أنه لم يكن هناك شيء محتم أو مقدّر، وأن الكثير من الأمر يعتمد على الأشخاص الذين صاغوا وقاموا بتنفيذ السياسات. إن أمريكا تحت قيادة بوش لم تكن نفس أمريكا بقيادة بيل كلينتون. وبريطانية توني بلير كانت مختلفة عن بريطانيا ميجور. لقد كان الأمر مشابهاً مع ميتران وشيراك في فرنسة. كنا قد درسنا النظرية الخاطئة القائلة بأن السياسة التي تحددها المصالح كانت عقلانية، ويمكن قراءتها وأنها، أي السياسة، لا تعتمد كثيراً على نوعية الأشخاص الذين يمارسونها. بدا واضحاً لنا فيما بعد أن هذا الفهم لم يكن فهماً صحيحاً. إن مصير يوغسلافية وتفككها لم يكن أمراً محتوماً أو لا يمكن تفاديه. وإن تفكك يوغسلافية عندما وقع كان يمكن أن يأخذ شكلاً آخر. ما حدث كان قد تحدد بتأثير شخصيات ميلوشيفيتش وتودجمان ولا يعني أنهما كانا ضرورة تاريخية. لقد كان من سوء حظنا نحن البشناق أننا وجدنا في وقت خطير تشكيلة غير مواتية من الأشخاص في مواقع حساسة مثل بوش، ميجور، ميتران، وميلوشيفيتش، وتودجمان، وغالي، وياسوشي آكاشي، وجانفييه. لقد كان هؤلاء وسياساتهم بالنسبة إلينا نحن البشناق حقيقة مجردة وأمراً محتوماً لا يمكن التأثير فيه. لقد كانوا بالنسبة إلينا جزءاً من العوامل الحتمية التي كنا مجبرين على التعامل معها.

ولقد عقد اللقاء الأول للوفود الحكومية البوسنية والكرواتية في سرايفو ٢٢/ كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩١. وكان هذا يلي مرسوم الرئاسة الاتحادية اليوغسلافية من أجل نزع سلاح الوحدات شبه العسكرية وغير الشرعية في يوغسلافية. ولقد خصص د. تودجمان مؤتمره الصحفي كله لهذه القضية، بينما كانت وجهات نظرنا حيال هذه القضية وقضايا أخرى في يوغسلافية أكثر اعتدالاً من نظيرتها في كرواتية. بالإضافة إلى مشاركتي أنا وتودجمان في تلك الاجتماعات، فلقد ضمّ الوفدان كلاً من فكرت عبديتش، فرانيو بوراس،

وأيوب غانتش، وستيان كلوتش، ونيكولا كلويفيتش، وبليانا بلافتشيتش، وبوغتش بوغيتشقتش وميمتشي كرايتتشنك، ويوري بيليفان على الجانب البوسني فيما شارك عن الجانب الكرواتي كل من ستيبه ميستش، وجاركو دومليان، وهروفييه شارنيتش. وسيكون هناك ذكرٌ مطوّل لكل هذه الأسماء بطريقة أو بأخرى عند بدء عدوان الجيش اليوغسلافي على كرواتية والبوسنة والهرسك.

وفي اليوم التالي سافر وفدنا إلى بلغراد. كان وفد ميلوشفيتش يتألف من أشخاص مغمورين، حيث إنني لا أذكر الكثير منهم اليوم. كان الموضوع الرئيس للمحادثات هو موضوع الجيش اليوغسلافي مرة أخرى، لقد قبلنا بوجود جيش يوغسلافي موحد، ولكن متوازن من حيث الطاقم المشرف وأن يكون غير مسيّس. ولقد كان المطلب الأخير محل عدم ترحاب لدى الصرب. ولقد كان المتحدث الرئيس على الجانب الصربي هو سلوبودان ميلوشفيتش الذي تحدث هو بنفسه في كل قضية تمّ طرحها.

ولم تكن المفاوضات التي عقدت مع وفد الجبل الأسود صعبة. كنا نتفق معهم في كوننا جمهوريتين صغيرتين فيجب ألا تكون مكانتنا دنيا في يوغسلافية المستقبل. وكان يجلس على الجانب الآخر لوفدنا الذي تألف من كل مني شخصياً وكرايشنيك وبوغيتشفتش كل من مومير بولا توفتش وسفيتوزار ماروفيتش ممثلين عن الجبل الأسود. وعلى الرغم من أن يولاتوفيتش كان هو الزعيم إلا أني لاحظت أن ماروفيتش كان أبلغ وأذكى منه. فلقد تكون لدي انطباع بأن بولاتوفيتش لم يفكر في كلامه الذي يقوله، وإنما كان يردد آراء تلقاها مسبقاً. لقد عبر عن آرائه بطريقة مملة وطويلة بأسلوب يشبه أسلوب الساسة الشيوعيين. وهكذا تحدث في المؤتمر الصحفي أيضاً. ولقد صرحت أنه لا يوجد احترام لحقوق الإنسان وحقوق القوميات في يوغسلافية. ولقد كان واضحاً أن ممثلي الجبل الأسود لم يوافقوني على مثل هذا التقييم القاسي للوضع.

ثم التقيت في اليوم التالي في سراييفو، ٢٦ كانون الثاني (يناير)، بميلان كوتشان رئيس سلوفينيا الذي كان يتمتع بسمعة طيبة.

كان متحدثاً هادئاً وحكيماً. ولولا أنني أعرفه مسبقاً لقلت: إنه لم يكن أبداً عضواً في الحزب الشيوعي. لقد كانت محادثاتنا ودّية. وكان كوتشان يريد مساعدتنا وتخفيف حدة التوتر بيننا وبين المواقف المتصلبة لكرواتية وصربيا. ولقد قلت بعد الجلسة مع الوفد السلوفيني أن لدى البوسنة والهرسك أقوى الدوافع وأنها كانت أكثر الأطراف قدرة على طرح مفهوم جديد للتفاوض بشأن يوغسلافية.

ولكن تزامن ذلك مع حادثة أو فضيحة الجنرال مارتن شبيغيلييه حيث اُتهمت الحكومة الكرواتية بأنها سعت للحصول على أسلحة بطريقة غير مشروعة. واستغل كارادجتش الفرصة ودعا مبتهجاً الرئاسة الاتحادية ليوغسلافية أن تثبت "أنها لم تمت بعد" ودعا إلى اتخاذ إجراء عسكري ضد كرواتية.

وفي هذا الظرف عُقدت محادثاتنا مع المقدونيين في التاسع والعشرين في كانون الثاني (يناير). لقد كنا أقرب الجميع إلى الموقف المقدوني حيث أدليت أنا وغليغوروف بتصريحات صحفية شبه متماثلة، وكان كلانا يدعو إلى الحفاظ على يوغسلافية، ولكن بعد إعادة هيكلتها بشكل جذري.

واستمرت جلسة الرئاسة الاتحادية التي تلت ذلك في الحادي والثلاثين من نفس الشهر لمدة ثماني ساعات، حيث كانت تنتظرني على الطاولة حوالي ١٠٠ صفحة مطبوعة من انته ماركوفتش مما أدى إلى تخصيص جلّ الوقت لمناقشة ما جاء في تلك الصفحات. وكانت الجلسة التي تلتها جلسة عاصفة تمت فيها مناقشة الرسالة التي وجهتها الإدارة السياسية للجيش اليوغسلافي إلى كل وحداتها. وكلما رجعت إلى سراييفو من بلغراد كان هناك جمع من الصحفيين بانتظاري لكي أدلي بتصريحات. ولقد أشار أحدهم بدقة إلا أنني

كنت أقل تفاؤلاً في كل مرة أعود فيها من بلغراد. وفي خضم تلك الأحداث والمحادثات وافقت على الذهاب إلى بيهاتش كي ألقي خطاباً في تجمع أشرفت على تنظيمه العصبة الوطنية للبوسنة والهرسك. ولقد تم توجيه أسئلة ذات طابع عسكري أكثر منها سياسي. فعلى سبيل المثال كان أحد الأسئلة مايلي:" هل سيقوم الجيش اليوغسلافي بانقلاب في يوغسلافية؟" ولقد رفضت تلك الاحتمالية ولكنني يجب أن أعترف أني لم أستبعد ذلك بالكلية؛ فلطالما رأيت أمام عيني كلاً من يوفيتش، وأدجيتش، وكوسيتش. فعلي أن أعرف في قرارة نفسي أن على المرء أن يتوقع كل أنواع الشر من هؤلاء الأشخاص. وهكذا كان، فلم يمضِ وقت طويل حتى رأيت تسجيلاً لجلسة عُقدت في بلغراد حيث كان يوفيتش يحاول إقناع ممثل البوسنة والهرسك بوغيتشفتش كي يصوت إلى جانب إعلان الأحكام العرفية. وكما هو معروف تماماً لقد صمد بوغيتشفتش أمام هذا الضغط وتمت هزيمة مطالب العسكريين بفارق صوت واحد.

وقد أطلقت وسائل الإعلام لقب "قمة يوغسلافية" على جلسة رؤساء الجمهوريات اليوغسلافية التي عُقدت في سراييفو في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) من عام ١٩٩١. ولقد قدمت اقتراحاً خلال الجلسة بتشكيل اتحاد غير متناسق، أطلق البعض عليه أنه اتحاد بدرجات متفاوتة. ولقد تلخص اقتراحي بأن تكون صربيا والجبل الأسود في اتحاد تقليدي فدرالي، وأن تكون سلوفينيا وكرواتية في اتحاد كونفدرالي مع صربيا والجبل الأسود ومن ثم أن تكون البوسنة والهرسك ومكدونيا على درجة واحدة من القرب أو البعد عن باقي الجمهوريات. ولقد قام أحد الصحفيين بعد سنوات عدة في قمة حلف الاستقرار لجنوب شرق أوروبة في سراييفو عام ١٩٩١ بمقارنة الخطة التي قدمتها مع مبدأ ذلك الحلف. حيث إن كلا الفكرتين تستندان إلى وجهات نظر مشتركة حيال كيفية تحديد العلاقات ما بين دول جنوب شرق أوروبة. ولقد أضاف متسائلاً:

"هل كانت فكرة الاتحاد المتفاوت الدرجات ستكون ناجحة فيما لو طرحها شخص من أوروبة بدعم ومساندة من حلف الناتو كما هي الحال مع يوشكافيشر الذي هو العقل المدبر لفكرة حلف الاستقرار؟" وفي آذار (مارس) من عام ١٩٩١ تم عقد ثلاث قمم رئاسية أخرى في سبليت، وكراينه، وأوخريد دون أن تقدم شيئاً جديداً. ولقد عمدت إلى تفادي الصحفيين بعد اجتماع كراينة خوفاً من صب الزيت على النار من خلال تصريح معين. ولقد وصل جو عدم التسامح إلى أوجه. ولقد اقترحت على ميلوشفيتش أن يشرح موقفه أمام البرلمان السلوفييني وعلى ميلان كوتشان أن يشرح موقفه أمام البرلمان الصربي. وعندها نقلت وكالة أنباء تاينوغ اليوغسلافية خبراً مفاده أن رئيسي صربيا وكرواتية، ميلوشفتش وكودهيان التقيا على معبر حدودي بين الجمهوريتين. وبعد ذلك علمت أن الموضوع الرئيسي في تلك المحادثات كان تقسيم البوسنة والهرسك.. لقد كان حال تلك المحادثات السرية في كارادجو ردجيفو مستعصياً على النسيان.

وهكذا انتهت الجولة الأولى من محادثات محاولة إنقاذ يوغسلافية بالفشل.

وأذكر الاجتماع التالي للقيادة أو قمة الستة كما أطلق عليها الصحفيون بصلافة في محاولة منهم لاستبعاد انته ماركوفتش رئيس وزراء الحكومة اليوغسلافية، ومن أجل تحدي تولي ستيبه ميسيتش صلاحياته كرئيس ليوغسلافية. وتزامن ذلك مع آخر محاولة لي ولكيرو غليغوروف قمنا بها من أجل إيجاد حل.

وفي اجتماع الرؤساء الستة، في ستويتشيفاتس قرب سراييفو في السادس من حزيران قمت أنا ورئيس مكدونيا غليغوروف بإطلاق بياننا الخاص ببرنامج وخطة هيكلة يوغسلافية السابقة. ولقد اقترحنا قيام يوغسلافية دولة مكونة من اتحاد من الدول بدلاً من أن تكون دولة اتحادية. وكان يانيج درنوفشك ممثل

سلوفيينيا أول من عبّر عن تأييده لمقترحنا فيما صرح مستشار ميلوشتيتش لوكالة رويترز قائلا إنها كانت "خطوة إلى الأمام" لقد اعتبر الجميع هذا المقترح الفرصة الأخيرة لإيجاد مخرج من الأزمة.

ولقد حيا ورحب الاتحاد الأوروبي في جلسته بعد يومين بهذا المقترح. وهو إعلان الثامن من حزيران (يونيو) عام ١٩٩١ حول يوغسلافية.

ومن ضمن القرارات التي تم اتخاذها في تلك القمة ضرورة عقد اجتماع بين رؤساء صربيا، وكرواتية، والبوسنة والهرسك بسبب العلاقات الآخذة في التدهور ما بين القوميات الثلاثة والتي هي أساس هذه الأزمة. ولقد تم عقد هذا اللقاء في سبليت في الثاني عشر من حزيران (يونيو). وقد استمرت المحادثات لساعات عدة. ولقد جاء كل من ميلوشفتش وتودجمان إلى الاجتماع وقد أعدوا العدة. فلقد كانوا يحاولوا جاهدين توصيل المحادثات باتجاه القسم الثلاثي للبوسنة والهرسك. وكانت ردودي تتركز على إعادة هيكلة يوغسلافية بناءاً على خطة عمل غليغوروف- عزت بيغوفتش.ولكن كان حواراً طويلاً كحوار الطرشان، وبدا الأمر كما لو أنه لعبة شطرنج ألعب فيها بمفردي ضد ميلوشفتش وتودجمان معاً. ومع ذلك نجحت في إبقاء اللعبة متعادلة. ولدى عودتي إلى سراييفو وسؤالي عن توقعاتي بخصوص تقسيم البوسنة والهرسك رددت في تصريح لصحيفة (أوسلولوبودجينه)"إن هذا أمر غير قابل للتفاوض بالنسبة إلي".

لقد عبرت محادثات سبليت عن الواقع السياسي الجديد في يوغسلافية. فعلى عكس ما كان الأمر عليه في يوغسلافية القديمة حيث كان هناك طرفان هامان فقط ألا وهما الصرب والكروات، برز الآن البشناق كعامل مهم لا يمكن اتخاذ أي قرار بدونه. ولقد كانت مهمتي الشخصية في تلك المحادثات تحديد نقاط التواصل بين تودجمان وميلوشفتش، وأجريت مفاوضات مجدداً مع كليهما في

بلغراد في التاسع عشر من حزيران (يونيو). وكان أساس تلك المحادثات هي مبادئي أنا وغليغوروف من أجل إيجاد حل للأزمة في يوغسلافية. ويجب أن أعترف أن ميلوشفيتش كان أقرب لقبول تلك الخطة. أما تودجمان فقد رفضها مباشرة حينما ذكرنا بالاستفتاء الكرواتي، حيث صوّت الكروات لصالح الاستقلال. ودعم تلك الخطة وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر الذي زار بلغراد في الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) في محاولة منه لإنقاذ حكومة انته ماركوفتش. وخلال لقائي بيكر قلت له: إن يوغسلافية على حافة الحرب وإن تدخل أمريكا قد يمنع تلك الحرب من النشوب. ولكن بقيت أمريكا في موقف المتفرج. وكانت هذه هي نهاية المحادثات من أجل يوغسلافية. وحاول ميلوشفتش إعادة إحياء تلك المحادثات في آب (أغسطس) حيث قام بدعوة بولاتوفيتش، وغليغوروف وأنا، ولكني رفضت أن أشارك في محادثات تم استثناء كل من كرواتية وسلوفينيا منها.

وفي مقابلة أجراها معي الصحفي ليوبيشا ميتروفيتش بعد سنوات عدة لصحيفة(فييستي) في بودغوريتسا بتاريخ ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٨ طرح عليّ السؤال التالي:

"ميتروفيتش: سيد عزت بيغوفتش لقد أصبح لدى العديد من الناس رؤيا بعد المعركة من أجل الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية الاشتراكية. لقد كان ثمن تفكك الاتحاد باهظاً جداً. ولقد عرضتم في حينه أنت ورئيس مقدونية فكرة مناسبة لذلك الوقت لإيجاد مخرج دون إراقة الدماء. هل فعلاً لم يكن هناك أية فرصة لنجاح فكرتكم، وهل يوجد الآن أية فرصة لإعادة إحياء تلك الفكرة يوماً ما وبشكل جديد؟

عزت بيغوفتش: إنني أشعر بالأسف لفشل المحاولة التي ذكرت على الرغم من أن الشعور بالأسف على هذا النحو لا يجدي نفعاً. لقد كانت كل القوى التي حددت مسار الأحداث في تلك الفترة الحرجة في البلقان مفروضة على الواقع، حيث تمثلت في الموقف المتأرجح للعالم، وفورة الروح القومية، وقلة خبرة وكفاءة الساسة هنا وفي

الخارج. أضف إلى ذلك أهداف كل من تودجمان وميلوشفتش وأهدافي أنا كذلك إن شئت. أما بالنسبة للشق الثاني من سؤالك فإنني أرحب بأي تعاون في هذا المجال ولكن مشروعاً من هذا القبيل ليس ممكناً الآن".

ثم اندلعت الحرب في سلوفينيا في السابع عشر من حزيران (يونيو) في عام ١٩٩١. حيث أعلنت معها مغادرة سلوفينيا للاتحاد اليوغسلافي.وبعد ذلك بوقت قصير اندلعت الحرب بين الجيش اليوغسلافي وكرواتية بالغةً ذروتها بحصار فوكوفار وقصف دوبروفنيك. ولقد أعلنّا أننا لن نبقى مع يوغسلافية من دون كرواتية وسلوفينيا حيث إنها لم تعد يوغسلافية وإنما صربيا الكبرى. ومع نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩١ ألقى كارادجتش خطابه التهديدي الشهير قائلاً: "لا تعتقدوا أنكم لن تقودوا البوسنة والهرسك إلى جهنم، والشعب المسلم إلى الإبادة". لقد كان هذا التهديد أمام كاميرات التلفزيون في جلسة لبرلمان الدولة. ولقد قمت بالرد على هذا التهديد بالكلمات التالية:" إن ما قاله كارادجتش والرسالة التي أرسلها من خلال ما قال لهي أفضل توضيح للأسباب التي دعت إلى عدم بقائنا مع يوغسلافية. إن يوغسلافية التي يريدها السيد كارادجتش لا يريدها أي شخص آخر باستثناء الشعب الصربي". (ورد في تقرير لمذياع وتلفاز سراييفو).

لقد كان تدمير البوسنة والهرسك يمضي قدماً دون معوقات على أرض الواقع. وفي ربيع عام ١٩٩١ قام الحزب الديموقراطي الصربي بتشكيل مناطق الحكم الذاتي الصربية والتي كانت تعني بالطبع التدمير المباشر لجمهورية البوسنة والهرسك. ولقد كان الجيش اليوغسلافي يقوم بتسليحهم حيث يمكننا أن نرى من خلال تقرير من القطاع العسكري الثاني بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) ١٩٩٢ أن الجيش قام بتوزيع ٥١٩٠٠ قطعة سلاح خفيف على الصرب في البوسنة، ويضاف إلى ذلك ١٧٣٠٠ قطعة أخرى قام الحزب الصربي بتوزيعها

بطرقه الخاصة. ولقد واجهتنا معضلة معارضة خلق هذا الواقع الجديد على الأرض من عدمها، ولكن كان تقييمنا للوضع أن ليس بوسعنا عمل ذلك. وهكذا تم دفع وتأجيل النزاع شهراً بعد شهر. فنظرياً كان ممكناً للنزاع أن ينشب في صيف عام ١٩٩١ أثناء الحرب الصربية- الكرواتية، ولكننا فعلنا كل ما بوسعنا لتجنب ذلك. فلقد كان يتواجد في سراييفو وحدها ثماني ثكنات للجيش اليوغسلافي بعضها كبير والآخر صغير. كانت سراييفو مليئة بالعسكريين لكونها أصلاً إحدى قلاع الجيش اليوغسلافي، وبالتالي كان من المحال القيام بأي شيء. وعلى الرغم من كل ذلك فلقد قمنا خلال صيف عام ١٩٩١ بإجراءين جريئين، أولاً قام حزب العمل الديموقراطي بإنشاء مجلس الدفاع الوطني، الذي انبثقت منه فيما بعد العصبة (الرابطة) الوطنية، والتي تطورت بعد ذلك لتصبح جيش البوسنة والهرسك. لقد عرف الجيش اليوغسلافي بانعقاد الاجتماع، وتركه يمر هكذا دون اتخاذ أي إجراء .بما أنه لم يشعر بأنه قادر تماماً على اتخاذ الإجراء. ولقد عرفت فيما بعد خلال محادثاتي مع رئيس جهاز الاستخبارات في آذار (مارس) ١٩٩٢ أنهم كانوا على علم بالاجتماع.

وثانياً اتخذنا قراراً بعدم السماح لشباب البوسنة والهرسك بالتجنيد في الجيش اليوغسلافي. وتزامن ذلك مع بلوغ الحرب في كرواتية أوجها في عام ١٩٩١ وبعد أن سمعت أن الجنرال نيكولا أوزبلاتش قائد وحدات الجيش في بانيا لوكا كان يقوم بتجنيد شبابنا وإرسالهم إلى الجبهة، طلبت من رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك أن تصدر قراراً تعلن فيه أنه لا ينبغي لشبابنا الاستجابة إلى الاستدعاء للتجنيد في الجيش اليوغسلافي، ولقد تم تبني القرار بتصويت الأغلبية فيما صوت الأعضاء الصرب في مجلس الرئاسة ضد القرار. ولقد استمرت الأنباء عن الصراع الدموي في كرواتية بالوصول. وبعد رؤية

مناظر بشعة من معركة فوكوفار طلبت ودون أي تردد من مذياع وتلفاز سراييفو أن يعطيني وقتاً على الهواء. حاولت في طريقي إلى التلفاز أن أرتب بعض الجمل في ذهني. لقد كان ذلك عصر السادس من تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩١. ولقد تحدثت مخاطباً المواطنين في البوسنة والهرسك قائلاً: "أود أن يعلم الجميع أن البوسنة والهرسك لا ترغب في أن تشارك في هذا العمل الأخرق. وإنه من حقكم كمواطنين في البوسنة والهرسك ألا تلبوا وتستجيبوا لأوامر التجنيد في حرب مدينة. لستم مجبرين، وتذكروا أن لا شيء يجبركم على الاعتداء بعضكم على بعض، أو أن تطلقوا النار على بعضكم البعض. وإنني أعرف أن مثل هذا العمل يحتاج إلى شجاعة كبيرة. وإنني أدرك المخاطر التي تحدق بي شخصياً، عند دعوتي إياكم إلى السلام. ولقد جاء الوقت اليوم الذي ولسوء الحظ تحتاجون فيه إلى شجاعة للحفاظ على السلام أكثر من الشجاعة التي تحتاجونها لخوض الحرب. وتذكّروا أن هذه ليست حربكم. دعوا الحرب لأولئك الذين يريدون الحرب. نحن لا نريد تلك الحرب. ساعدونا لكي نعمل معاً للحفاظ على السلام في البوسنة".

ولقد حيّت وسائل الإعلام الكرواتية كلماتي واعتبرتها عملاً شجاعاً. كانت تحكمني بالطبع اعتبارات مصالح شبابنا بألا يتم إرسالهم للحرب، ويقتلوا من أجل سبب مشكوك فيه. وأعتقد أنني بهذا العمل قد ساعدت كرواتية، لأنني لو لم أفعل لكان لدى الجيش اليوغسلافي قوات إضافية مؤلفة من ٢٠ ألف جندي من الجبهة. ولكن النظام الحاكم في كرواتية كان يحوّر كلامي حسب مصالحه حيث كانوا يقولون:" إن كفاحنا من أجل الحرية يُعد حرباً لا تعني السيد عزت بيغوفتش. "ولقد قمنا بتحديد المرسوم الذي يقضي بعدم استجابة شبابنا لطلب التجنيد في جلسة مجلس الرئاسة في شتاء عام ١٩٩١، وبالفعل لم يستجب شبابنا لطلب التجنيد. لقد قمنا بكل شيء ممكن،

كل شيء، في البوسنة من أجل الحفاظ على السلام. ويمكن للمرء القول بأنها كانت محاولات يائسة. ولقد كنت أُجهِّز نفسي للسفر إلى أمريكا عندما طلب كل من عادل ذو الفقار باشيتش ومحمد فيلبوفيتش مقابلتي لأول مرة منذ الانشقاق في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٠. وقد التقيت بهم في مكتبي بالرئاسة في السابع والعشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٩١ قبيل مغادرتي إلى أمريكا. لقد قاموا بوضع خطة لإبرام اتفاق مع الصرب من شأنه أن يجنب البوسنة أن تنزلق مزلق الحرب التي اندلعت في كرواتية. ولقد دعمت مبادرتهما إيماناً مني بأن أي محاولة للحفاظ على السلام تلاقي كل ترحيب.

ولقد عقد الاثنان محادثات مع كارادجتش، وكوليفتش، وكرايتشنك في منتصف تموز (يوليو) في سراييفو. ثم أتبعوا ذلك بزيارة إلى بلغراد من أجل محادثات مطولة مع ميلوشفيتش. كما عقدوا هناك محادثات مع فوك كارادجتش وميلوفان ديلاس كما كتبت الصحف. وعندما أصبحت مسودة الاتفاق -التي أطلق عليها أبطالها فوراً وبتسرع "تاريخية"- جاهزة كان واضحاً أن المحصلة النهائية ستكون خلق يوغسلافية مسخ. ولقد انساق ذو الفقار باشيتش وفيليوفيتش وراء تهديدات كرادجيتش وميلوشفيتش في إطار رغبتهم في الحفاظ على السلام في البوسنة. ولكن كان الحفاظ على السلام ووحدة أراضي البوسنة محل شك حيث إنه مازال هناك الكروات وكرواتية وخططهم ووجهات نظرهم المختلفة. وعلى الرغم من أن كلاً من ذو الفقار باشيتش وميليوفيتش أكدا على أن الاتفاق مفتوح لانضمام الكروات متى شاؤوا إلا أن الكروات فهموا الاتفاق بشكل صحيح وكان رد فعلهم غاضباً.

ولقد أدلى ستيبان كليوتش الذي كان يرأس الجمعية الديموقراطية الكرواتية حينها بتصريح مفاده أن الاتفاق المذكور كان بمثابة صفقة ما بين شعبين من وراء ظهر الشعب الثالث وأنه لا يمكن الحفاظ على السلام بهذه الطريقة.

ووصف إيفوكوستمتس الاتفاق بأنه خيانة حيث قال إن الاتفاق يعني تسليم البوسنة لصربيا الكبرى (صحيفة أوسلوبودجينة، ٤ آب ١٩٩١). ولقد عقدت مؤتمراً صحفياً في نفس اليوم حيث صرحت بأنه "لا يمكن أن يكون هناك سلام ولا بوسنة وهرسك مستقرة دون موافقة الشعوب الثلاثة، ولا يمكن أن يكون هناك يوغسلافية كما نرى الآن من دون صربيا وكرواتية. إن الإطار الدستوري الذي يقترحه هذا "الاتفاق التاريخي" يتحدث عن اتحاد على الطريقة القديمة تكون نواته صربيا والجبل الأسود بالإضافة إلى البوسنة والهرسك من وجهة نظر الراغبين لهذا الاتفاق".

ولقد قلت في مقابلة لي مع صحيفة بوربا من بلغراد: إننا نتمسك بمسار ثابت؛ إن البوسنة والهرسك لا يمثل الرأي في الجانبين. إن ذلك من الثوابت وواضح كما هي الحال في الرياضيات نظراً لكوننا لا نضع نصب أعيننا سوى اهتمامنا الأكبر ألا وهو البوسنة والهرسك. وإنه لمن الملفت للنظر أن صُيّاغ الاتفاق لم يتنبهوا لذلك يبدو وكأنهم جزموا بأن ميلوشفيتش قد ربح النزاع وأنه يجب علينا أن نميل إلى جانبه ولكنني أنا شخصياً لا أرى ذلك.(من صحيفة بوربا، بلغراد، ١٦/٨/١٩٩١). وكتب الصحفي المرموق ستويان تسيروفتش عن الاتفاق قائلاً:

"إن التأرجح ما بين الخوف والكبرياء دفع بذو الفقار باشيتش إلى أن يقدم مقترحاً لاتفاق يضع حداً للخوف ولكنه يؤذي الكرامة. إن كلماته التي قالها وهي" أنا أثق بميلوشفتش" أثارت صدمة للكروات، وفضيحة للبوسنة، وضحك في صربيا. فلن يأخذ أيٌّ من الوطنيين الصرب هذا الكلام على مأخذ الجد. الأمر يبدو وكأن ذو الفقار باشيتش يقدّم البوسنة لهم على طبق من ذهب. لقد كان ميلوشيفتش توّاقاً لتحقيق ما رآه على أنه نصر هام ومن ثم قام بدعوة البوسنيين والجبل الأسود.ولكنه كان مخطئاً. فلم يلبِّ أي من المسلمين دعوته ورفض عزت بيغوفتش بحزم محاولة خلق يوغسلافية مسخ ·يث إنه قرر أن يتبنى خيار الخوف مع المحافظة على الكبرياء والكرامة. (من صحيفة فريمي، بلغراد، ٢٢/٨/١٩٩١).

ولقد زارني الصحفي الأمريكي (آلن كوبرمان) بعد تسع سنوات بالضبط من تلك الأحداث. وطلب مني آلن كوبرمان أن أجري معه مقابلة حول أحداث عامي ١٩٩١، ١٩٩٢ بصفته يعمل مراسلاً لصحف أمريكية ومؤلفاً لكتاب عن الحرب في البوسنة. وفيما يلي نص تلك المقابلة التي أجريت في ٢٠٠٠/٧/١٩:

آلن كوبرمان: سيدي الرئيس، إن النقطة الرئيسية في بحثي الذي أجريه هي استراتيجية حزب العمل الديموقراطي في الفترة ما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ قبل اندلاع الحرب في البوسنة، ويتضمن ذلك المفاوضات والمحاولات التي بذلت من أجل تجنب الحرب، بالإضافة إلى الاستعدادات العسكرية التي اتخذت عندما فشلت المفاوضات. وتتعلق أسئلتي بشكل خاص باتفاق بلغراد وخطة كوتيليرو. هل قمتم بتفويض كل من ذو الفقارباشتش وفيلبوفيتش بالقيام بإجراء المفاوضات بالنيابة عنك في بلغراد؟

عزت بيغوفتش: لقد كانوا يقومون بالمفاوضات بالنيابة عن أنفسهم وعن حزبهم في ذلك الوقت. ولقد جاؤوا إلى مكتبي قبل مغادرتهم إلى بلغراد وقاموا بإطلاعي على أفكارهم من أجل عقد محادثات مع الصرب، ولقد رحبت بالفكرة، وأخبرتهم أنه يمكنهم التفاوض بالنيابة عني أيضاً.

آلن كوبرمان: وهل دعمتم الاتفاق فور عودتهم من بلغراد؟.

عزت بيغوفيتش: بناءاً على التقارير الصحفية الأولية، نعم، لقد دعمته ولكن عندما قرأت نص الاتفاق وجدته أنه لا يمكن قبوله ولقد أدلينا جميعاً بتصريحات للتلفاز لدى عودتهم، ولقد رفضت الخطة والاتفاق بشكل واضح وجليّ.

آلن كوبرمان: هل كنتم ضد بعض تفاصيل الاتفاق أو كنت ضد فكرة بقاء البوسنة في الاتحاد اليوغسلافي بشكل عام؟.

عزت بيغوفيتش: لقد كنت دائماً مع بقاء البوسنة في الاتحاد اليوغسلافي، ولكن ليس في إطار ما تبقى من يوغسلافية أو في إطار يوغسلافية مسخ. وأعتقد أنني أستطيع

أن أجزم بعد فهمي للتقرير أنه لم يتحدث عن يوغسلافية وإنما عن يوغسلافية مسخ تتألف من كل من صربيا، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، ولربما مقدونية ولكن من دون كرواتية وسلوفينيا. وصحيح أن من ضمن بنود الاتفاق بنداً يبقي الباب مفتوحاً أمام الآخرين للانضمام، ولكن عارض الكروات الاتفاق فوراً معتبرين أنه اتفاق بين اثنين، ولكن من وراء ظهر الطرف الثالث.

آلن كوبرمان: هل كنت شخصياً مع الاتفاق في حين أن المتشددين داخل حزب العمل الديموقراطي كانوا ضده؟.

عزت بيغوفتش: أعتقد أنني قد أجبت للتو عن هذا السؤال. فقد كان حزب العمل الديموقراطي قد قام بتحديد استراتيجيته المتمثلة بالموقف الثابت وهو أن وجود يوغسلافية تحقق مصالح كرواتية وصربيا معاً هي يوغسلافية مقبولة. بينما لا يمكن قبول أي يوغسلافية تستبعد أياً من كرواتية أو صربيا. وتمشياً مع هذه الإستراتيجية كان عليّ أن أرفض خطة الاتفاق.

آلن كوبرمان: لماذا بدا في مناسبتين مختلفتين وكأنك تقبل بخطة كوتيليرو في شباط (فبراير) وآذار (مارس) من عام ١٩٩٢، ثم قمتم برفض قبول الخطة في نفس المناسبتين؟.

عزت بيغوفتش: يجب عليك أن تتذكر حقيقتين. أولاهما هي أننا كنا نفاوض طوال الوقت تحت وطأة التهديد بالعدوان، وثانيهما هي أننا لم نكن في موقف يضعنا على قدر المساواة مع الطرف الآخر أثناء المفاوضات. لقد كان الصرب يفاوضون من موقف قوة لكونهم يعلمون بدعم الجيش اليوغسلافي لهم، والذي كان رابع أكبر جيش في أوروبة من حيث العدة والعتاد وعدد الأفراد. وفي مثل هذا الوضع فإنه لا يمكننا أن نتبنى موقفاً ثابتاً وصلباً، ولكن وجب علينا أن نتصرف بشكل تكتيكي بحيث يمكننا إيجاد حل لتفادي النزاع وكسب الوقت. لم يتم توقيع أي شيء لا في محادثات لشبونة في ٢١و٢٢ شباط (فبراير) ١٩٩٢ ولا في محادثات بروكسل في ٧و ٨ آذار (مارس) ١٩٩٢. كان هناك فقط التصريح الذي أدليت به وقلت فيه: إنني أؤيد المفاوضات وإنني كنت أتطلع إلى تحقيق نتائج إيجابية. ولم أكن أنا الذي رفض خطة

كوتيليرو بل الصرب. لقد رفضوها بعد محادثات بروكسل مباشرة ومن ثم أكدوا على رفضهم لها في جلسة برلمانهم الوطني التي تلت ذلك في ١١/٣/١٩٩٢، حيث كنا قد أجرينا استفتاء حول الاستقلال في ٢٩/٢ و١/٣/١٩٩٢.

آلن كوبرمان: ماذا كنتم تتوقعون أن يحدث إذا ما قامت البوسنة بإعلان استقلالها؟

عزت بيغوفتش: لقد كنت أتوقع أن يقوم المجتمع الدولي بالاعتراف باستقلال البوسنة وأن تأتي للدفاع عن الدولة التي اعترفت باستقلالها.

آلن كوبرمان: هل كنتم تعتقدون أن كارادجتش كان يعني ما يقول عندما هدد بشن حرب دموية إلى حد الإبادة إذا ما أعلنت البوسنة استقلالها قبيل التوصل إلى اتفاق حول إعادة تنظيم البوسنة سياسياً ومنطقياً وحسب اعتبارات عرقية؟.

عزت بيغوفتش: لم أكن أعتقد أنها ستصل إلى حد أن تصبح حرب إبادة غرقية. لقد كنت أعتقد بوجود احتمالين: (١) أن يقوم الصرب بقبول استقلال البوسنة كأمر واقع أو(٢) أن يقوموا بانقلاب في البوسنة ويقوموا باعتقالي أنا وقيادات حزب العمل الديموقراطي. لقد كانت الاحتمالية الثانية خطوة منطقية ومتوقعة إذا ما قرروا عدم قبول إعلان استقلال البوسنة ولكنهم اختاروا العدوان بدلاً من ذلك.

آلن كوبرمان: ما هي الاحتياطات التي اتخذتموها تحسباً لاندلاع الحرب؟.

عزت بيغوفتش: لقد قمنا بتوزيع بعض الأسلحة الخفيفة وكنا نعتمد على الشرطة أيضاً. فلقد كان باستطاعة تلك القوات الدفاع عن المدن والبلدات وهذا ما قاموا به عندما بدأت الهجمات.

آلن كوبرمان: هل قمتم برفض الخطة بناءاً على فرضية بأن يكون هناك تدخل دبلوماسي وعسكري غربي لردع العدوان الصربي؟.

عزت بيغوفتش: كما قلت للتو، لقد رفض الصرب الاتفاق لأنهم كانوا يعتقدون أنفسهم أنهم في وضع قوي. وبالنسبة لي فلقد اعتقدت فعلاً أن الغرب سوف يدافع عن البوسنة سياسياً وعسكرياً بعدما يقوم بالاعتراف باستقلالها.

آلن كوبرمان: هل اقترح عليكم أحد ما بما فيهم السفير زمرمان شيئاً من هذا القبيل؟.

عزت بيغوفتش: لم يقم أي دبلوماسي غربي بما فيهم السفير زمرمان باقتراح أو وعد بأي شيء من هذا القبيل.

آلن كوبرمان: هل كنتم ستقومون بأي شيء مختلف عما قمتم به حينها من ناحية سياسية أو عسكرية فيما لو توافرت لكم فرصة رؤية الأمور من زاوية ومنظور اليوم؟.

عزت بيغوفتش: إنني أعتقد حتى هذا اليوم أنه لم يكن أمامي خيار آخر. وبالنظر إلى الأحداث بعد انقضائها يبدو أن الطريقة الوحيدة لتفادي الحرب كانت تتمثل في أن تقبل البوسنة في أن تصبح جزءاً من يوغسلافية المسخ أو على الأصح جزءاً من صربيا الكبرى. ولو حدث ذلك لكانت البوسنة تحت حكم ميلوشفتش وكارادجتش الآن. ولا يمكن لأحد أن يتنبأ ماذا يمكن أن يحدث عندها. تستطيع أن تتوقع استناداً إلى ما حصل في كوسوفو وما يحدث الآن في الجبل الأسود. ولذلك أنا أعتقد أنه فعلاً لم يكن أمامي خيار آخر وأن استقلال البوسنة كان وحده هو الطريق الأمثل والأفضل.

آلن كوبرمان: وبالنظر إلى الوراء الآن، هل كان هناك أي حل يرضي الصرب، ويمنع الحرب ويكون في نفس الوقت مقبولاً لكم؟.

عزت بيغوفتش: لقد كان هناك خطة صيف عام ١٩٩١ إعادة هيكلة يوغسلافية والتي اقترحناها أنا والرئيس المقدوني غليغوروف والتي عرفت بخطة غليغوروف- عزت بيغوفتش. لقد نصت الخطة على إضفاء صيغة اللامركزية على يوغسلافية مع توفير قدر أكبر من الحرية والحكم الذاتي لجمهوريات الاتحاد. ولقد كانت خطة مناسبة لنا حيث كانت ستحافظ على بقاء البوسنة وحدة واحدة داخل حدودها. وكان يجب أن تناسب الصرب أيضاً نظراً لأنها ضمنت بقاء يوغسلافية حيث كان هذا هو المطلب الرئيس. ولقد أبدى ميلوشفيتش موافقته المشروطة على الخطة حيث كان لديه اعتراضات تخص وضع الجيش، وأما تودجمان فقد رفض الخطة. لقد كان بوسع تلك الخطة أن تمنع اندلاع الحرب مع محافظتها على الحقوق الأساسية لكل شعوب يوغسلافية في ذلك الوقت. ولسوء الحظ فلم يتوافر حينها شجاعة وحكمة سياسيتان من أجل قبول الخطة. ثم جاءت الحرب ودفع الجميع الثمن.

ومع ذلك فإن التقويم الذي أعطيته لآلن لكوبرمان لم يكن دقيقاً بالكليّة. ولقد فكرت ملياً بهذا الأمر مؤخراً. فلو لم يجر الاستفتاء وأعلنا الاستقلال بدافع الخوف من تهديدات كارادجتش أو عدم القدرة على اتخاذ قرار، لأصبح هناك احتمالان أمام البوسنة أحدهما أسوأ من الآخر: إما أن تبقى البوسنة جزءاً من يوغسلافية المسخ مع صربيا والجبل الأسود، أو أن يتم تقسيمها بين كرواتية وصربيا. لقد كان الاحتمال الثاني أكثر مأساوية ولكن مع ذلك أعتقد أنه كان الأكثر واقعية. فلم يكن تودجمان ليوافق على استثنائه من الحصول على حصته من الكعكة البوسنية. ولم يكن كروات البوسنة ليقبلوا بأن يبقوا تحت حكم الصرب. ولم يكن التقسيم ليحدث بطرق سلمية طبعاً. كانت ستنشب هناك حرب بين كرواتية وصربيا وستكون البوسنة مسرحاً لها. وكان سيرافق تلك الحرب مذابح للمدنيين، وتطهير عرقي لمناطق كاملة، وموجات من اللاجئين، ودمار. وكان سيتم استخدام البشناق كذخيرة لمدافع الحرب بين كلٍّ من جارتيها المتحاربتين. وبناءاً على هذا السيناريو فإن هناك شيئاً واحداً كان سيكون مؤكداً لن يبقى هناك شيء يسمى البوسنة، وكان سيتم إفناء الشعب البشناقي.

واقتربت آخر سنيّ السلام من نهايتها. وغدا أمامنا فصل خريف جيد ومثمر وتساقطت الثلوج مبكراً في أيلدك ثم تبعها فترة من الصيف الهندي- وهي فترة دفء نسبية تسبق الشتاء وفترة تفاؤل تسبق انتهاء حقبة معينة- أو صيف عيد ميكائيل (في ٢٩ أيلول -سبتمبر) كما نسميه عندنا. إن هذا هو أجمل وقت من السنة في البوسنة. فالخريف يظهر مدى روعة الغابات والأحراج البوسنية، التي غالباً ما غنّاها الناس في أناشيدهم الفلكلورية. ولكن أصبحت هذه الغابات مصدر رعب وقلق هذا الخريف. فلقد تزايد ظهور الوحدات شبه العسكرية الصربية في البوسنة بعد أن كانوا يحاربون في كرواتية - حيث كانوا

يطلقون على أنفسهم الاسم الأسطوري القديم- التشتنك. ولقد كانوا ينشدون الأناشيد التي تنم عن الكراهية الشديدة للمسلمين والكروات. وغالباً ما كانوا ينشدون تلك الأناشيد وهم يترنحون سكارى ومرتدين القبعات الصربية السوداء مع شعار القراصنة عليها مطلقين لحاهم. وقد تزامن ذلك كله مع قصفهم لدوبردفنيك وتدميرهم لفوكوفار.

وفي هذه الأثناء قام العالم بمحاولة أخيرة لإعادة السلام إلى المنطقة أو على الأقل الحيلولة دون اندلاع الحرب. ولكن كانت تلك محاولة بليدة وغير حاسمة.

ولقد ذكّرني المؤتمر الذي عقد في لاهاي حول يوغسلافية بالاجتماعات غير المثمرة التي كنا نعقدها نحن رؤساء الجمهوريات الست في بداية العام. ولقد اقترحت على الاتحاد الأوربي أن يقوم بإرسال وفد نوايا حسنة إلى البوسنة وطلب إرسال قوات حفظ سلام طارئة تابعة للأمم المتحدة.

ولقد قبل سايروس فانس مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة الفكرة مبدئياً.

وقد دعا البعض إلى قيام حزب العمل الديموقراطي بتبني سياسة أكثر حزماً مع الجيش اليوغسلافي، والحزب الصربي، بل وحتى مع المجتمع الدولي. ولقد كان رأيي أنه من المستحيل أن تستطيع القيادة بسرعة على طرقات البوسنة المتعرجة وشديدة الانحدار. ولقد أبقيت المتطرفين في الحزب تحت المراقبة خوفاً من أن نتسبب في اشتباك مع الجيش اليوغسلافي. وكنت أقول ولو من دون اعتقاد جازم أحياناً أن" السلام في البوسنة ليس مجرد إمكانية بل هو ضروري وأساسي. فلا أستطيع أن أرى الأمور بغير هذا المنظار".

وتلك كانت هي الظروف التي عقد في ظلالها المؤتمر الأول لحزب العمل الديموقراطي. لقد التأم المؤتمر في الأول من كانون الأول (ديسمبر)، واستمر لمدة

ثلاثة أيام. ولقد حضره حوالي ٦٠٠ مندوب بالإضافة إلى عدد مشابه من الضيوف، ولقد كان واضحاً من خلال الكلمات أن البوسنة" باتت على أبواب جهنم". ولقد جعلت ذلك موضوعاً لخطابي في الجلسة الافتتاحية. وأعتقد أن الخطاب يعبر عن الوضع الذي كنا نعيش:

خطابي في المؤتمر الأول لحزب العمل الديموقراطي

إن هذه هي بحق ظروف غير اعتيادية، إنها مع الأسف أوقات غير اعتيادية بالمعنى السلبي للكلمة. إن البوسنة والهرسك ومواطنيها والشعب المسلم أيضاً يمرون بأكثر الأوقات خطورة خلال مئة السنة الماضية من تاريخ هذا البلد. إنها مسألة حرب أو سلم.

لقد عرفت البوسنة كلاً من الحرب والسلام في الماضي. ولكن ما يجعل الوضع الحالي استثنائياً هي أن الحرب هذه المرة لن تكون حرباً عادية. سوف تكون حرباً شاملة، وإن العديد من الأطراف الرئيسية في هذه الحرب غافلون أو متغافلون عن كونها حرباً شاملة. إن الجيش يتجول في البوسنة طولاً وعرضاً كما لو كان الأمر دون ضابط، وكما لو أنه بعض ممن يقومون برسم خرائط المنطقة غير مبالين بأن المنطقة برميل بارود قد يتفجر في أي لحظة، حيث يقومون برسم خرائط جديدة من أجل تقسيم البوسنة. يبدو الأمر وكأن حدود البوسنة التي ترجع إلى ثلاث مئة عام، والتي وضعتها التغيرات السياسية عبر تاريخ طويل ومضطرب لا تروق لهم تماماً، كما لو كانت تلك الحدود قصة إدارية وعشوائية، وكما لو أن التي تم رسمها الآن في مكاتب الحزب المليئة بالدخان هي حدود حقيقية وتاريخية. ولكن إذا ما انفجر برميل البارود سوف يفنى كل شيء، ويصبح سحابة من الدخان والعار. كل شيء سيصبح كذلك بما فيه الذين يرسمون الخرائط والجنرالات، وكل الأحزاب والقادة، والقوانين والمؤسسات، والجزء الأعظم مما تم بناؤه بالجهود الجبارة لعشرات الأجيال في هذه المنطقة، ونظراً لكونها، لسوء حظها، غير قابلة المدمار. فكل ما سيتبقى هو ثلاثة شعوب مهزومة ونازلة وشبه مجنونة ومنحدرة، إلى مستوى يقارب الهمجية. وأنا أختار

حزبنا خيار السلام وتفادي أي مخاطرة تؤدي إلى نشوب النزاع بعدما استعرضنا تلك الصورة القاتمة للأوضاع. وكلما عظم الخطر واشتد زاد تصميمنا على الالتزام بالسلام. نحن بحاجة إلى القيام بكل شيء لتفادي نشوب النزاع حيث إن الأمور يمكن أن تصل إلى أن تكون نزاعاً غير تقليدي وغير محدود، فسوف يصبح كل شيء بلا معنى. لقد فهمنا ذلك تمام الفهم ويجب على الآخرين أن يفهموا ذلك أيضاً. إن خيارنا بالتزام السلام هو ليس مجرد حب للسلام بل إنه شعور بالمسؤولية بأحسن ما تحمله الكلمة من معانٍ.

إن لحزب العمل الديموقراطي الحق بالعمل على تحقيق مصالحه وأهدافه. ولكنه يمثل كل المواطنين في كفاحهم من أجل تحقيق السلام في البوسنة والهرسك. وتفادي النزاع المسلح لكونه في صميم اهتمامات ومصالح جميع المواطنين في البوسنة والهرسك. ولقد كان هذا الاهتمام هو الدافع وراء مناداتنا بالحفاظ على يوغسلافية في بادئ الأمر، حيث نادينا بالحفاظ على بقاء شكل من الأشكال لدولة المجتمع في يوغسلافية. لقد بدا لنا فيها أنها تلك كانت هي الطريقة الوحيدة لإيجاد مخرج من الأزمة من خلال وسائل سياسية بحيث يستطيع الكل الحصول على جزء مما يريد على الأقل فيما لو تعذر علينا جميعاً أن نحصل على كل ما نريد. وكنّا نعتقد أن كل طريق آخر ينطوي على الانفصال أو تشكيل يوغسلافية مسخ سوف يؤدي إلى العنف والنزاع المسلح. ولسوء الحظ لم نكن نخدع أنفسنا بتلك النظرة. ومازلنا نعتقد أن شكلاً من أشكال مجتمع القوميات أو الجمهوريات في يوغسلافية السابقة هو شكلٍ مرغوب وممكن على الرغم من المثالية التي يبدو عليها هذا الطرح. ومن أجل ذلك قبلنا ومن دون أي تحفظ وثيقة لاهاي، التي فتحت الباب أمام مثل تلك الاحتمالية. ورفض وثيقة لاهاي أولئك الذين لا يرغبون في إعادة إحياء يوغسلافية بأي شكل، وسواء الآن أم في المستقبل وسواء على الأسس القديمة أو الأوروبية الجديدة. ولقد كان السلوفينيون والصرب هم الذين رفضوا، وعلى العكس من النمط المعتاد لقد كان السلوفينيون هم الذين رفضوها هذه المرة علناً فيما رفضها الصرب ضمناً. لقد رفض السلوفينيون أي فكرة لإحياء يوغسلافية جديدة وفضلوا الاستقلال عنها. ورفض الصرب يوغسلافية جديدة مفضلين عليها يوغسلافية الخاصة بهم والتي لم تكن تشبه يوغسلافية التي تعرف

بالطبع، وهذا كان السبب الرئيس الذي جعل شكل يوغسلافية الذي يريده الصرب نرفضه نحن. أما السبب الثاني والأكثر أهمية هو أن الهيكلة المستقبلية ليوغسلافية التي تم اقتراحها وعرضها علينا من خلال ما يسمى مبادرة بلغراد لم تكن ديمقراطية البتة. فنحن نستطيع التعايش مع أي شعب وتحت أي ظرف، ولكن بشرط أن يكون تعايشاً ديمقراطياً، ولكن يبدو أن الديموقراطية في هذه المنطقة بعيدة المنال.

وفي ضوء هذا الواقع تبرز صورة إيجاد بوسنة وهرسك ذات سيادة ضمن اتحاد حر كضمان وحيد لعيشنا بحرية وكرامة. وهذا ينطبق على الكروات والصرب أيضاً، وليس فقط على الشعب المسلم. وبالنظر إلى طبيعة التركيبة السكانية فإن مثل تلك البوسنة والهرسك التي تحدثت عنها للتو يجب أن يكون لديها علاقة خاصة مع صربيا من جانب ومع كرواتية من جانب آخر بغض النظر عما إذا كانت لدى كلتا هاتين الجمهوريتين أو الدولتين علاقات وصلات بعضهما مع بعض. ونحن نعتقد أنه يمكن تحقيق ذلك فيجب ألاّ يشعر صرب البوسنة أنهم مفصولون عن صربيا بحدود دولية، وكذلك بالنسبة للكروات مع كرواتية. وهذا يعني أن الصرب لن يكونوا بحاجة لاستخدام جواز السفر لدخول صربيا عبر نهر(الدرينا) ولا الكروات كذلك عند دخولهم كرواتية عبر نهر(الأونا).

إن صربيا وكرواتية هما دولتان يوجد في كل منهما شعب واحد، أما البوسنة والهرسك فلا، ولذلك فإنه ليس بوسع البوسنة والهرسك إلا أن تكون جمهورية مدنية نظراً لأن الذين يعيشون في البوسنة ليسوا هم الصرب والكروات والمسلمين بل خليط قومي من هذه الشعوب الثلاثة وبعض الشعوب الأخرى ولكن بأعداد أقل. لذا فإن على أي شخص يتحدث عن مبدأ حق تقرير المصير على أساس عرقي يجب أن يبرهن كيف يمكن لهذا المبدأ الذي هو أصلاً مبدأ مشروع أن يتم تطبيقه على مثل شعب البوسنة المتعدد الأعراق، وليس فقط هنا في سراييفو بل وفي باقي أنحاء البوسنة والهرسك. إن التحدي الحقيقي في البوسنة والهرسك هو ليس كيفية تحقيق مبدأ تقرير المصير القومي، وإنما كيفية تقرير المصير لشعب متعدد القوميات. ويوجد إجابة لذلك وتكمن تلك الإجابة في المعادلة التاريخية التي تقدم البوسنة مجتمعاً متعدد القوميات،

ومتعدد الثقافات، ومتساوياً في الحقوق. لماذا ندمر شيئاً أوجده تضافر الظروف التاريخية، وقام بالدور المطلوب منه على نحو جيد، وهو في نفس الوقت يمثل حلاً أوروبياً إنسانياً وديمقراطياً. لماذا نعمد إلى تغيير مثل ذلك النموذج إذا ما أتيحت الفرصة؟ وخاصة إذا لم يكن بالإمكان فعل ذلك دون عنف وإراقة للدماء، وإذا ما كان البديل هو مفهوم رجعي لحكم أوتوقراطي لقومية واحدة؟ وعليه فإنني أدعو زملاءنا المواطنين الكروات والصرب، وكذلك جيراننا الكروات والصرب وقادتهم إلى أن نبحث سوية عن مخرج مناسب من هذا المأزق بحيث يكون مخرجاً أو حلاً مبنياً على أساس من المساواة والعقلانية، حتى يصبح بالإمكان أن نجنّب شعوبنا المعاناة التي تشهدها هذه الأيام. لن نسمح لأحد أن يحاول إخضاعنا لأننا لن نخضع ولا أن يحرمنا أحد من حقوقنا لأننا يوماً ما سنستعيد تلك الحقوق. نحن نحب الحياة بقدر ما يحبُّها الآخرون ونخشى الموت بقدر ما يخشاه الآخرون، وتؤلمنا جراحنا كما تؤلمهم جراحهم. لقد أعلنا حيادنا في هذه الحرب لأنها حرب قذرة بين الإخوة ولا نريد أن نلوث أيدينا بالدماء. لقد رفضنا أن نرسل شبابنا إلى الجبهة لأن تلك ليست حرباً من أجل الحرية. وأنقذنا بهذا الصنيع حياة وأرواح العديد من مواطنينا. لقد أنقذنا حياتهم لأنهم لم يُقتلوا، وأنقذنا أرواحهم لأنهم لم يقتلوا الآخرين. لقد تصرفنا بهذا الشكل لكي لا ينتهي بنا الأمر إلى أن نصبح إما قتلة أو ضحايا. ولقد لقي توقعنا هذا اعتراف ومساندة كل من لديه نوايا طيبة. ولقد حسّن ذلك كله من سمعة البوسنة والهرسك في العالم. ولقد أصبح بوسع المرء اليوم وهو يشاهد الأحداث المشينة التي تحدث في المنطقة أن يقول وبكل فخر واعتزاز:" أنا من البوسنة" إذا ما كان في بلد أجنبي. إن معنى أن يكون المرء من البوسنة معناه في البلاد الأخرى أنه شخص مناصر للسلام، والديموقراطية وحقوق الإنسان. ولسوف أنهي خطابي المقتضب هذا بتوجيه رسالة إلى الشعب المسلم. لقد واجهت إحدى الأمم الصغيرة قبلنا نفس الخيار الصعب الذي نواجه: إما أن تحني الرؤوس أو أن تبقيها مرفوعة عالية بكل فخر، إما أن يكونوا عبيداً أو أن يبقوا شعباً حراً. وأنهي كلامي باقتباس ما قاله شاعر ذلك الشعب:" أقسم بالله العظيم أننا لن نكون عبيداً".

لقد كان لخطابي أصداء هامة في البلاد وحتى في الخارج إلى حد ما. وكثيراً ما كان يتم اقتباس كلامي عن الحرب في هذا الخطاب عندما اندلعت الحرب فيما بعد. فغالباً ما استخدم المتحدثون أثناء الحرب عباراتي مثل، إنه "عند اندلاع الحرب فإن كل شيء سيصبح سحابة من الدخان والعار". ولقد اقتبس أحد الدبلوماسيين في مؤتمر جنيف عام ١٩٩٣ عباراتي تلك على أنها عبارات استشرفت المستقبل بدقة وبالطبع لم يكن هناك أي داعٍ يجعلني أشعر بالسرور لما قال.

ولقد توقعت أسئلة كثيرة حول الحفاظ على السلام. ولكن كانت معظم أسئلة الصحافة في المؤتمر الصحفي الذي عقد عقب انتهاء المؤتمر ذات طبيعة فردية. وعن الاصطدام المزعوم ما بين جناحي حزب العمل الديموقراطي وهما الجناح المدني والجناح الديني، أجبت بأنه لا يوجد في هيئة إدارة الحزب سوى اثنين متخصصين بالدين من بين مئة عضو. ويجب أن لاينسى المرء أن أولئك الصحفيين هم خريجو المدرسة الشيوعية للصحافة حيث يتم اختيار الطلاب لدراسة الصحافة ومن ثم توظيفهم صحفيين حسب ولائهم للفكر الشيوعي، ولقد أبدوا عداءاً لأي شيء يتعلق بالدين. ومن ثم قامت الصحافة مرة أخرى بالتركيز على الخلاف مع فكرت عبديتش بدلاً من التركيز على الحملة من أجل الحفاظ على السلام. كان عبديتش عضو مجلس الرئاسة البوسني، ولقد كان فيما مضى المدير العام لشركة أغروكوميرس التي انهارت بسبب فضيحة مالية مما جعل عبديتش يتمتع بشخصية الضحية في محاكمة ملفقة. كان لديه خبرة أكثر مني في السياسة إذ كان يعرف معظم مدراء المشاريع الضخمة للحكومة والساسة البارزين حينها. ولم ألتق به شخصياً، ولكن كان العديد من أعضاء الجمعية التأسيسية للحزب ينتقدونه. وفي ختام جلسة الجمعية قلت:

"يجب علينا في هذا المقام ألا ننسى الشعب المسلم الذي يبدي الكثير من الصبر. إن هذا الشعب هو اكتشاف لأنفسنا وللعالم. وأدعوكم أن تصفقوا لهذا الشعب".

لقد وقف الجميع وصفقوا باستثناء فكرت عبديتش. ولقد امتلأت الصحف في اليوم التالي بصور فكرت عبديتش جالساً بينما الجميع وقوف للتعبير عن احترامهم وتقديرهم للشعب المسلم. وكانت معظم التعليقات التي كتبت تحت الصور تقول: "انهض يا بابا". ولقد نهض "البابا" ولكن بعد سنتين عندما نفذ عملية انشقاق عن الحكومة الشرعية للبوسنة وأعلن قيام الحكم الذاتي في منطقة كرايينا في شمال غرب البوسنة. ولقد فشلت الخطة سياسياً وعسكرياً على الرغم من تلقيه الدعم من كل من ميلوشفتش، وكارادجتش، وتودجمان.

وكانت الحرب مستمرة في كرواتية، وآخذة بالتصعيد. لقد تمَّ توقيع اثني عشر اتفاقاً لوقف إطلاق النار، ولكنها خُرقت جميعاً. ولقد حالف النجاح الاتفاق الثالث عشر الذي وقع عليه سايروس فانس وممثلون عن الكروات في سراييفو، في ٢ كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٢ ومن ثم جاءت قوة من قوات الأمم المتحدة إلى كرواتية، وأنشأت منطقة عازلة تحت سيطرة الأمم المتحدة. ولقد كان هناك نوع من المفارقة فيما يخص حقيقة الهدنة تلك، حيث أدت إلى نقل الحرب وكل تبعاتها المحزنة إلى البوسنة والهرسك. وجانب السخرية في الموضوع أن تلك الهدنة تمَّ توقيعها في سراييفو وفي مبنى الرئاسة البوسنية ذاته. وبمثل هذا الخبر بدأنا عامنا في ١٩٩٢ والذي سيكون أكثر الأعوام مأساوية في تاريخ البوسنة والهرسك الطويل.

الفصل الرابع

يوميات الحرب

الحزب الديموقراطي الصربي والحزب الديموقراطي الكرواتي يقطّعان أوصال البوسنة والهرسك الاستفتاء على استقلال البوسنة والهرسك. وساطة كوتيليرو. بدء الحرب العدوانية على البوسنة والهرسك. حصار سراييفو. إصرار كوتيليرو. اللقاءات في لشبونة وبروكسل. مقابلة كل من كوستيتش وأدجيتش في سكوبييه. الثاني من أيار (مايو)-احتجازي كرهينة في مطار سراييفو. إعلان حالة الحرب. أجندة مجلس رئاسة البوسنة والهرسك. الحظر على السلاح وتسليح جيش البوسنة والهرسك. معسكرات الاعتقال في البوسنة والهرسك. خطابي في قمة دول منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في هلسنكي عام ١٩٩٢ . اللقاء بالرئيس الأمريكي جورج بوش محاولة فك الحصار حول سراييفو. مؤتمر لندن. سقوط يوسانسكي برود. المؤتمر في جدة. أولى المصادمات مع الكروات عملية إيفمان-ربيع وصيف عام ١٩٩٣ . كيف كنا أذكى من التشتينيك. النفق تحت مطار سراييفو. الرسالة إلى الرئيس بيل كلينتون. الرسالة إلى مجلس الأمن. فظائع في احميتشي. خطابي في الدورة الثامنة والأربعين للجمعية العمومية للأمم المتحدة. العصيان المسلح في سراييفو والمواجهة الحاسمة. رسالة الجنرال ديفياك. حكومة سيلادجيتش الأولى. الضغط على فيتيز والسلام مع الكروات. سلام واشنطن والاتحاد الفيدرالي للبوسنة والهرسك. المنطقة العازلة حول سراييفو. عملية ربيع عام ١٩٩٤ . أزمة غوراجدة. خطاب في الجلسة التاسعة والأربعين للجمعية العامة للأمم

المتحدة. الأزمة في مقاطعة كراينا. الخطاب في قمة دول منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في بودابست. رسالة إلى مواطني كراينا. رسالة إلى الرئيس بيل كلينتون. دور الدول المسلمة. خطاب في قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في كازبلانكا (الدار البيضاء). هدنة الأربعة أشهر. تحرير فلاشيتش. عدم تمديد الهدنة. موت الوزير ليوبيانكتش. فشل رفع الحصار عن سراييفو. اتفاقية سبليت وانهاء حصار كراينا. الجريمة البشعة في سوق سراييفو. ضربات حلف الناتو الجوية.

لقد ساهم التاريخ في زيادة تسارع الأحداث في هذا الجزء من العالم "لقد كان ذلك وقتاً أصبحت فيه الساعات كالدقائق، والأيام كالساعات، وأصبحت الشهور والسنوات كالأيام. ولم يسبق في التاريخ أن تجمع عدد كبير من المآزق والأزمات المتعلقة بعالمنا الذي نعيش فيه كما تجمع وتركز في البوسنة". كلمات قاسم بيغتش[1] ولقد بدأ الحزب الديموقراطي الصربي بتقطيع أوصال البوسنة والهرسك عندما أنشأ ما يسمى مناطق الحكم الذاتي الصربية، والتي لم تعترف بسلطة الحكومة في سراييفو. وكانت أولى مناطق الحكم الذاتي تلك هي منطقة كراينا ومركزها بانيا لوكا وذلك في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٩١ ثم تبعتها منطقتا الهرسك ورومانية ومركزها سراييفو. وفي التاسع من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٢ قام ما يسمي نفسه البرلمان الوطني الصربي بإنشاء ما أسماه جمهورية صرب البوسنة والهرسك.

وفي ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩١، اتخذ الحزب الديموقراطي الصربي قراراً بتسليح السكان الصرب في البوسنة والهرسك. ولقد اعترض الوطنيون الصرب في تشرين الثاني (نوفمبر) من نفس العام قافلة محملة بحوالي ٤٠٠ بندقية شبه آلية متوجهة إلى الصرب في سراييفو. ولقد عُرفت "بقافلة الموز" نظراً لأن محتويات القافلة كما كانت مدونة على وثائق الشحن تشير إلى أنها شحنة موز. ولقد قام الحزب الديموقراطي الكرواتي في الثاني عشر من

(١) من كتاب قاسم بيغيتش (البوسنة والهرسك: من مهمة فانس وحتى اتفاق دايتون).

تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٩١ بتشكيل الجمعية الكرواتية في بوسافيينا البوسنية حيث شملت حوالي ثماني بلديات وأتبعوها مباشرة بعد ذلك بإنشاء الجمعية الكرواتية في هرتسغ- بوسنة[1]. حيث تألفت من ثلاثين بلدية حيث اعتبروها" الجمعية السياسية والاقتصادية والثقافية الكرواتية في البوسنة والهرسك".

ومع إعلانهم عن قيام الجمهورية الكرواتية في هرتسغ- بوسنة في آب (أغسطس) من عام ١٩٩٣ فإن المتطرفين الكروات كانوا يسيرون على خطا نظرائهم في البرلمان الصربي المعلن من طرف واحد في إعلان جمهورية الصرب في البوسنة والهرسك بتاريخ ١٩٩٢/١/٩. ولقد كان كلا هذين المشروعين، أي الجمهورية الكرواتية والصربية داخل البوسنة، متماثلين في "طموحهما" من أجل تقطيع أوصال البوسنة والهرسك. ولقد كنت حاضراً في الثامن من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٢ على توقيع وقف إطلاق النار بين كرواتية والجيش اليوغسلافي الذي نجح في تحقيقه سايروس فانس، مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة. وقد أدلى فانس بتصريحات بعد الاجتماع مفادها أنه لا يعتقد أن الحرب ستنتقل إلى البوسنة والهرسك حيث سيتم إرسال مراقبين فقط، ولكن لن يتم إرسال قوات الأمم المتحدة إلى البوسنة والهرسك. إن الخطة التي تقضي بإنشاء مناطق عازلة في كرواتية تحت حماية الأمم المتحدة كانت تعني توفير الفرصة لقوات الجيش اليوغسلافي وكل القوات بالطبع بالتوجه إلى البوسنة والهرسك!

وفي خضم تحضيراتها للاستقلال أعلنت حكومة البوسنة والهرسك بتاريخ ١٩٩٢/١/٨ أنها تقبل ميثاق الأمم المتحدة، معاهدة هيلسنكي، وميثاق باريس، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وباقي المعاهدات الدولية الأخرى التي تضمن حقوق الإنسان والحريات، بالإضافة إلى الالتزامات التي تعهدت بها الجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغسلافية في مجال الحد من انتشار الأسلحة.

---

(١) الاسم هرتسغ: خليط ما بين كرواتية والهرسك باللغة المحلية.

ولقد اعترفت مجموعة الدول الاثنتا عشرة في الاتحاد الأوروبي باستقلال كرواتية وسلوفينيا ولكنها علقت اعترافها باستقلال البوسنة والهرسك ومقدونية لحين إجراء استفتاء. ولقد خلصت لجنة تحكيم بادنتر والتي تتألف من قضاة المحاكم الدستورية في فرنسة، وأسبانية، وألمانية، وإيطالية وبلجيكة، إلى أن يوغسلافية كانت في طور التفكك.

ولقد تبنى المجلس البرلماني للبوسنة والهرسك في جلسته بتاريخ ١٤/١/١٩٩٢ قراراً ينص على سيادة جمهورية البوسنة والهرسك. ولقد اعترض صرب البوسنة على شرعية مثل هذا القرار. وفي ٢٥/١/١٩٩٢ أقر المجلس وبناء على توصية من الرئاسة البوسنية إجراء استفتاء حول استقلال البوسنة والهرسك. ولقد غادر ممثلو الأحزاب الصربية الجلسة قبل التصويت على القرار. ولقد كان نص السؤال الذي طرحه الاستفتاء هو كالآتي:

"هل أنت مع بوسنة وهرسك مستقلة وذات سيادة وكدولة لمواطني وشعوب البوسنة والهرسك، سواء كانوا مسلمين، أو صرب، أو كروات، أو الشعوب الأخرى التي تعيش في البلاد- وبحقوق متساوية؟"

وبعد أن تمَّ التصويت بنجاح على قرار إعلان إجراء استفتاء، أدليت بتصريح لصحيفة (أوسلوبودجينه):

"لقد أعاق الحزب الديموقراطي الصربي عملية تبني دستور جديد اقترحته لجنة صياغة الدستور، وكذلك رفض الحزب مبدأ ومفهوم دستور مدني يقترحه مفكرون ومثقفون مستقلون وليبراليون، ومع ذلك فإن نفس الحزب لا ينفك يتهمنا بأننا نحن الذين نريد إنشاء "جمهورية مسلمة". وفي واقع الأمر فإنهم هم الذين يفرضون علينا تلك الفكرة من خلال مقترحهم الذي يقضي بتقسيم البوسنة والهرسك إلى ثلاثة: بوسنة صربية، وبوسنة كرواتية، وأخرى مسلمة. وإن موقفنا حيال هذا الأمر معروف: لن نقبل بذلك".

وعندما اقترب موعد إجراء الاستفتاء جاءت الأنباء أن الكروات وعلى وجه الخصوص الحزب الكرواتي الحاكم وهو الجمعية الديموقراطية الكرواتية، قد أصدر بياناً من اجتماعيه في (ليفنوا) يشترط فيه تغير كلمة "مواطنين" في الاستفتاء من أجل إجرائه. لقد طلبوا أن تشمل التغييرات إتاحة الفرصة للشعوب أن تصبح ذات سيادة في المناطق الجغرافية التي تكون فيها هي الغالبية. وبالطبع فإن هذا الطلب بالتغيير لم يعنِ عدم إمكانية إجراء الاستفتاء في موعده وحسب؛ وإنما كان يعني أيضاً أن يصبح الاستفتاء بلا معنى. ولقد ناشدت الجميع أن يثبتوا وألا يسمحوا بإجراء أي تغييرات على سؤال الاستفتاء.

ولقد استمر الوضع المربك الذي تسبب به "سؤال ليفنوا" طوال العشرين يوماً التي سبقت إجراء الاستفتاء. ولقد اقتربت نهاية شهر شباط ولم يتراجع الحزب الكرواتي عن مطالبه أبداً. وجاءت الأنباء في اليوم الأول من الاستفتاء في ١٩٩٢/٢/٢٩ أن مراكز الاقتراع في المناطق ذات الغالبية الكرواتية كانت شبه خالية.

ولحسن الحظ لقد كانت مدة الاستفتاء يومين. وبدأ الكروات بالتدفق إلى مراكز الاقتراع في اليوم الثاني أي ١٩٩٢/٣/١ ولقد علمنا فيما بعد أن تودجمان كان وراء إعطائهم الأمر بالذهاب إلى مراكز الاقتراع كما أنه كان السبب في تعنت الكروات في بادئ الأمر. فلقد خلص تودجمان في اليوم الثاني للاستفتاء إلى أن عناده سوف يؤدي إلى خلق صربيا الكبرى على امتداد مئات الكيلومترات للحدود الجنوبية والشرقية لكرواتية، ولذلك فإنه رضخ للأمر في اللحظات الأخيرة. ولقد تبين عند عدّ الأصوات أن ٦٣,٤٪ من مجموع عدد الناخبين البالغ ٣,٢٥٣٨٤٧ شاركوا في الاستفتاء وأن ما نسبته ٩٩٪ من الذين شاركوا أجابوا عن السؤال بنعم. وهكذا تقرر مصير البوسنة والهرسك ولكن بشكل رسمي وشرعي فقط. إن المصير الحقيقي للبوسنة والهرسك سيقرر في

أرض المعركة، ولكن لن يكون بوسع أي نصر عسكري أن يغير ما تم إنجازه في ذلك الاستفتاء. ومن ثم اعترف الاتحاد الأوروبي باستقلال البوسنة والهرسك بتاريخ ٦ نيسان (أبريل) ١٩٩٢، وكذلك فعلت الولايات المتحدة في اليوم التالي. وفيما يلي نص الطلب الذي قدمناه من أجل نيل الاعتراف بنا دولة مستقلة:

١- إن رئاسة وحكومة جمهورية البوسنة والهرسك الاشتراكية وبالنيابة عن الجمهورية المذكورة تعرب عن تمنيها في أن يتم الاعتراف بالبوسنة والهرسك دولة مستقلة وتطلب إلى الاتحاد الأوروبي ودوله الأعضاء أن يتم الاعتراف باستقلال البلاد من خلال الإجراءات والشروط التي وضعها إعلان بروكسل حول يوغسلافية.

٢- تعلن البوسنة والهرسك أنها تقبل كل الالتزامات التي نصت عليها تعليمات الاعتراف بالدول الجديدة في أوربة الشرقية والاتحاد السوفييتي والتي تبناها مجلس وزراء الخارجية في بروكسل في ١٩٩١/١٢/١٦.

٣- إن البوسنة والهرسك تقبل بمسودة اتفاقية لاهاي بما فيها الفصل الثاني المتعلق بحقوق الإنسان، وحقوق الجماعات القومية والعرقية والتي تمت دراستها في معرض المؤتمر حول يوغسلافية. وسوف تستمر البوسنة والهرسك في هذا المجال بدعم وتشكيل مجتمع جديد يتمتع جميع أفراده بالازدهار.

٤- يجب حل النزاعات بين الجمهوريات اليوغسلافية بطرق سلمية. نحن نثمن ونقدر وندعم الجهود التي يقوم بها الأمين العام للأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ونعبر عن مساندتنا لاستمرار المؤتمر حول يوغسلافية.

٥- ونحن نؤكد على وجه الخصوص على أنه ليس للبوسنة والهرسك أية أطماع في أراضي أي من جيرانها، وأنها لن تقوم بأية أنشطة دعائية عدائية ضد أي دولة مجاورة بما في ذلك استخدام الاسم الذي من الممكن أن يوحي بوجود مثل هذه الأطماع الإقليمية.

٦- ولذلك فإننا نطلب أن يقوم الاتحاد الأوروبي ودوله الأعضاء بالاعتراف بسيادة واستقلال البوسنة والهرسك.

ولقد سبق ذلك كله جهود وساطة كوتيليرو والتي لم يكن النجاح حليفها.

أعلن اللورد كارينغتون في بداية عام ١٩٩٢ بصفته رئيس المؤتمر حول يوغسلافية أن الاتحاد الأوروبي سيبعث بمهمة وساطة إلى البوسنة والهرسك. وعقدت أولى المحادثات في هذا الإطار في ١٣ و١٤ شباط (فبراير) بحضور الأحزاب السياسية الممثلة في البرلمان في ذلك الوقت ولقد ضمّ الوفد بالإضافة لي كلاً من أ.د. روسيمير محمود تشيهاتش، ود. نعيم كادتش.

لقد أظهر الاجتماع الأول أنه كانت هناك ثلاث وجهات نظر متباينة حيال البوسنة والهرسك. ويلخص البروفيسور قاسم بيغتش هذه التوجيهات الثلاثة كالآتي:

"لقد كانت المحادثات بالنسبة إلى الحزب الديموقراطي الصربي محاولة لإضفاء نوع من الشرعية على قيام الصرب بإجراء الاستفتاء العام وتقسيم البوسنة والهرسك، وأما بالنسبة إلى الجمعية الديموقراطية الكرواتية فلقد كان الاهتمام منصباً على كيفية تبني "سؤال ليفنوا" ليصبح سؤالاً رسمياً في الاستفتاء، فيما كانت المحادثات بالنسبة إلى حزب العمل الديموقراطي هي البحث في كيفية التخفيف من حدة التوتر السياسي قبيل إجراء الاستفتاء على سيادة واستقلال البوسنة والهرسك مع وجود حماية شرعية ومؤسسية وضمانات بوجود مساواة قومية. ولقد أعلن زعيم الحزب الديموقراطي الصربي أن الصرب والكروات لن يقبلوا بقيام بوسنة وهرسك كبرى. فبالنسبة له كانت البوسنة والهرسك الكبرى هي كل البوسنة والهرسك في إطار حدودها الحالية. ومعنى هذا أنه كان يدعو إلى تقطيع أوصال البوسنة والهرسك. فيما صرح رئيس الجمعية الديموقراطية الكرواتية، بوبان، أنه "بإمكان الأمم فقط أن تكون ذات سيادة". ولقد أعلنت مذكراً بآراء لجنة بادنتر أن "الأمة ذات سيادة ولكن لا تعني الأمة هنا بالمعنى العرقي ولكن بالمعنى الأوروبي، وهو أن الأمة هي

مواطنو دولة واحدة. وقد أضفت أننا لا نعرف ما هي هذه البوسنة والهرسك الكبرى التي تحدث عنها." لقد وجدت البوسنة ضمن هذه الحدود القائمة الآن منذ ٣٠٠ سنة، ولم تكن يوماً لا كبرى ولا صغرى، بل كما هي الآن. كما أننا لا نود أن نستيقظ يوماً فنجد أنفسنا أمام بوسنة مقسمة لأن البوسنة المقسمة تعني البوسنة التي تواجه نزاعاً والبوسنة التي تخوض حرباً"[١].

ولقد انضم د. حارس سيلادجتش إلى وفدنا في مفاوضات لشبونة التي استمرت يومي ٢١ و٢٢/٢/١٩٩٢. لقد كان الجانب الجيد في محادثات لشبونة هو أنها أكدت على بقاء البوسنة والهرسك بحدودها الحالية. وأما الجانب السلبي فكان هو ذكر إمكانية وجود كيانات متعددة. وعلى الرغم من أنه لم يتم إنجاز أي اتفاق نهائي أو توقيع على أي شيء في لشبونة، حرص الحزب الديموقراطي الصربي على أن يستعجل في تفسيره لما تم" الاتفاق" عليه. فلقد أعلن أن البرلمان الصربي المزيّف هو الهيئة العليا "لكيانهم". وأعلن كارادجتش أنه" وبعد اتفاق لشبونة فإنه من الواضح أنه سوف يكون هناك ثلاث جمهوريات بوسنة وهرسك ألا وهي: البوسنة الصربية، والكرواتية، والمسلمة."

لقد عقدت محادثات لشبونة في ظل شبح الحرب المخيف والذي كان يحوم فوق البوسنة والهرسك حيث اندلعت الحرب بعد شهرين. وتبع ذلك محادثات أخرى في سراييفو في ٢٨ شباط (فبراير) وفي بروكسل في ٧ و٨ آذار (مارس) ومن ثم مرة أخرى في سراييفو في ١٨ آذار (مارس). لقد بذلت قصارى جهدي من أجل إنقاذ السلام والبوسنة، ولكن هل من الممكن إطالة أمد تأجيل الحرب؟ لقد أصبح يوم الحسم أقرب شيئاً فشيئاً شئنا أم أبينا.

---

(١) المصدر نفسه: كتاب قاسم بيغتش، ص ٨٥.

لقد كانت وثيقة بروكسل مقترحاً أوروبياً كسب فيه الكل بعض الشيء، وخسر فيه الكل بعض الأشياء أيضاً، ولقد أدليت بتصريح لدى عودتي من بروكسل حيث قلت: إن المسلمين لن يشعروا بالرضا لأن المقترح تحدث عن مناطق قومية أو عرقية، وكذلك لن يرضى الصرب لأنه تحدث عن إمكانية إقامة بوسنة وهرسك مستقلة وموحدة، ولن يرضى المواطنون كذلك لأنه تحدث عن كانتونات قومية، ولا القوميون سيرضون به لأنه شدد إلى حد ما على المبادئ المدنية. وكذلك لم أرض أنا عن هذا المقترح الأوروبي، ولكنني كنت مع التوصل إلى حل وسط من أجل تفادي اندلاع الحرب التي بدت بوادرها المزعجة ماثلة أمامنا في كل مكان. لقد أدت الاتفاقات التي تم التوصل إليها في كل من بروكسل وسراييفو إلى تهدئة التوتر، ولكن بشكل مؤقت. ولقد نشرت صحيفة(أوسلوبودجنيه) مقالاً بعد اجتماعات سراييفو تقول فيه:

"لقد أصبح ممكناً أن تؤدي الاتفاقات الأخيرة إلى وضع حد للقلق والمعاناة اللذين نعيشهما وخاصة في جو من الاحتقان مليء بالتوتر، وانعدام الثقة المتبادلة ووجهات النظر المتضاربة تماماً حيال مستقبل البوسنة والهرسك. وعما إذا كانت فترة الهدنة هذه قصيرة الأمد أم لا فإنه يتحتم علينا أن ننتظر ونرى".

(من صحيفة أوسلوبودجنيه،١٩٩٢/٢٣/١٩).

ولكن الحقيقة أن وقت السلام أصبح ينفد بسرعة وباتت الحرب على بعد شهر فقط.

ولقد قام البرلمان الصربي المزيّف برفض اتفاق بروكسل في ١١/ آذار (مارس). ولقد كان هناك حلاّن اثنان فقط يقبل بهما هذا البرلمان: إما البقاء مع يوغسلافية، أو إعادة هيكلة البوسنة والهرسك لتصبح كونفدرالية من ثلاث جمهوريات قومية. ولم تبد أوربة أي ردة فعل على عكس ما كان متوقعاً. وبدأت أوربة بالتغاضي عن تهديدات الصرب. وكانت هذه هي بداية ما يمكن أن نطلق عليه "صمت أوربة المُخجِل" ولقد شجع هذا المتطرفين الصرب على التمادي.

ويمكن للمرء أن يرى من خلال البيان الذي اقترحه الاتحاد الأوروبي أن العنف قد اندلع فعلاً في البوسنة والهرسك.

"إن قادة الأحزاب البرلمانية الثلاثة الرئيسة يتعهدون رسمياً بالقيام بكل ما في وسعهم من أجل تخفيف حدة العنف في البوسنة والهرسك. ويتوسلون بشكل عاجل إلى كل من في البوسنة والهرسك، بغض النظر عن أصله العرقي أو ظروفه السياسية، أن يمتنع عن العنف والتحريض على العنف وكل أشكال الأعمال العسكرية أو السياسية التي قد تشكل تهديداً للاتفاقيات التي توصل إليها الأحزاب الثلاثة أو تضفي ظلالاً من الشك على نجاح المحادثات. إن الأحزاب الثلاثة مقتنعة تماماً بأن وجود وضع سلمي سوف يسهل من عملية توصلهم إلى اتفاق وتسريع المفاوضات وصياغة دستور جديد يقبله الجميع وفي أقصر وقت ممكن".

وبات اندلاع الحرب على بعد أيام والتي ستصبح عما قريب جداً مجرد ساعات.

وبدأت الحرب العدوانية على البوسنة والهرسك في الأول من نيسان (أبريل) عندما هاجمت وحدات شبه عسكرية من صربيا بيلينا. ومع ذلك فإن العديد يعتبرون أن الحرب قد بدأت عندما قامت ومن دون سابق إنذار قوات احتياط ومتطوعين من صربيا والجبل الأسود بغزو البوسنة. حيث كانت تلك القوات جزءاً من وحدات الجيش اليوغسلافي في تيتوغراد وأوجيتسه تعتريها روح القتل والنهب. ويمكن اعتبار تدمير قرية رافنو الكرواتية في أوائل تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩١ كنقطة بداية أخرى للحرب. وكان أوائل الضحايا قد سقطوا قبل ذلك بكثير. لقد أدى إطلاق نار من غابات محاذية لطريق كرافيتسا- براتوناتس إلى مقتل كل من ندجاد وخودجتش في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩١ أي قبل حوالي سبعة أشهر من التاريخ الذي يعتبر رسمياً تاريخ اندلاع الحرب. لقد كانت جريمة قتل هؤلاء المواطنين البريئين نذيراً بالأهوال التي ستحدث في منطقة (بودرينيه). ولقد كتب محمد علي بويتش عن تلك

الفترة في كتابه (تاريخ البوسنة والبشناق): "لقد تزايدت أعداد القوات المسلحة للجيش اليوغسلافي في البوسنة بشكل كبير في جنيف عام ١٩٩١. وقامت أولاً وحدتان في الجيش بغزو الأراضي البوسنية وهما وحدتا مدينتي (أوجيتسه وبودغوريتسا تيتوغراد سابقاً) مصحوبة بقوات احتياط ومتطوعين من صربيا والجبل الأسود. ثم تم نقل كل من الوحدة الرابعة عشرة من سلوفينيا والعاشرة من زغرب إلى البوسنة والهرسك. لقد تم نقل قوات جوية كبيرة من سلوفينيا وكرواتية من ضمنها وحدة سلاح الجو الخامسة وسلاح الدفاع الجوي المضاد للطائرات. ولقد تم تركيز كل هذه القوات في مناطق كان يوجد بها أصلاً ثلاث وحدات أخرى للجيش. ومع تصعيد وتيرة الحرب في كرواتية والحصار الاقتصادي من جميع الجهات واجهت جمهورية البوسنة والهرسك الدمار الكامل"[١].

ولقد عمد كوتيلرو إلى إطالة أمد مهمته أملاً في تحقيق ما هو مستحيل. ولقد تم الترتيب لعقد اجتماع في سراييفو في العاشر من نيسان (أبريل) وكذلك في لشبونة بعد عشرين يوماً. كانت الحرب قد اندلعت بالفعل حيث تم قطع سراييفو عن باقي البلاد وبدأ القصف العنيف. وفي تلك الأثناء حملت الأخبار اجتماعاً عقد في الخامس والسادس من نيسان (أبريل) ما بين كارادجتش وبوبان من أجل مناقشة اتفاق ثنائي لوقف إطلاق النار وتقسيم البوسنة.ولقد علقت صحيفة (الواشنطن بوست) في الحادي عشر من نيسان (أبريل) على ذلك بقولها: إن الاثنين قد اجتمعا بالنيابة عن كل من ميلوشفيتش وتودجمان، وأن ذلك الاجتماع يشبه الحلف الذي عقد ما بين هيتلر وستالين قبيل غزو بولندة عام ١٩٣٩ وأن كلاً من يوغسلافية وكرواتية كانتا دول عصابات. كان هذا هو الجو الذي أحاط بسفري إلى لشبونة في التاسع والعشرين من نيسان (أبريل) من أجل مزيد من المحادثات غير المجدية من خلال وساطة كوتيليرو.

---

(١) تاريخ البوسنة والبشناق ٣١٨.

لقد غادرت إلى لشبونة عبر مطار سراييفو الذي كان تحت سيطرة القوات العسكرية لصرب البوسنة. ولقد أعارتنا لجنة المراقبة في الاتحاد الأوروبي الطائرة التي أقلعنا بها. ولقد وصلت إلى المطار الذي يبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن المدينة، وتحت حماية قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

ولقد كان يوماً صيفياً رائعاً في لشبونة، ولكنني كنت تحت سيطرة شعور جنائزي. ولم تثمر المفاوضات عن أي شيء أبداً، ومن ثم قفلنا عائدين في الثاني من أيار (مايو). كنا قد حلّقنا فوق إيطالية والبحر الأدرياتيكي جاهلين ما يحدث في سراييفو حيث كانت شوارعها تشهد ذلك اليوم حرباً حقيقية شنتها بقايا وحدات الجيش اليوغسلافي الذي أصبح أكثر فأكثر تحت تأثير القيادة القومية الصربية بزعامة كارادجتش.

ولقد هبطنا للتزود بالوقود في روما حيث أجرينا مكالمة هاتفية مع المطار في سراييفو لتلقي إذن بالهبوط. وعندما كنا نحلق فوق الأدرياتيكي جاءت المضيفة التي كانت تجلس في مقعد مساعد الطيار وأخبرتنا أنه لا يمكننا الهبوط في مطار سراييفو وأنه علينا أن نختار ما بين بلغراد أو زغرب. وطبعاً لم أتردد فلقد اخترت زغرب. وجلسنا قلقين عندما أخذت الطائرة بالتوجه شمالاً ومن ثم سمعنا أصواتاً كثيرة من قمرة الطيار تتحدث بالإنجليزية حيث عادت المضيفة وأخبرتنا أننا يمكننا الهبوط في مطار سراييفو. ولكن ذلك سيكون على مسؤوليتنا الخاصة. ولم أتردد وقبلت أن نتوجه إلى سراييفو.

كان الجو غائماً فوق البوسنة ولكن كانت الرؤية جيدة. وعندما هبطنا في مطار سراييفو لم أجد أثراً لقوة الحماية الدولية وإنما بعض أصحاب الزي العسكري من وحدات الجيش اليوغسلافي الذين كانوا كما سيتضح عما قريب تحت السيطرة الكلية لأتباع كارادجتش من الصرب. ولقد تم إخبارنا أنه علينا أن نتوجه إلى مكتب مدير المطار. لقد كان تصرف الجنود كافياً لإخبارنا أننا كنا سجناء.

ولقد كان يرافقني في تلك الرحلة زلاتكو لاغومدجيا عضواً في الوفد ونور الدين إماموفتش المرافق والحارس الخاص. ولقد كنت قلقاً جداً كون ابنتي سابينا كانت تسافر معنا كمترجمة. وأخبرونا أننا سنتوجه إلى لوكافيتسا من أجل عقد محادثات. فرفضت مما حدا بهم إلى التهديد باستخدام القوة ولم يبدُ عليهم أنهم كانوا يعرفون كيف عليهم التصرف. فلقد دخلوا مراراً وتكراراً إلى المكتب من أجل التشاور. ومن ثم دق جرس الهاتف الموضوع على الطاولة وكان الشخص الوحيد في الغرفة حينها جندي فقامت سابينا ودون تردد برفع السماعة حيث استطاعت أن تخبر الشخص على الطرف الآخر في الخط وهي امرأة تسأل عن معلومات حول رحلات الطيران. إن الرئيس عزت بيغوفتش والوفد المرافق محتجزون الآن في مبنى المطار. ولم يُبد الجندي أي ردة فعل، فإما أنه لم يرغب بالقيام بأي ردة فعل، أو أنه وببساطة لم يعرف كيف يتصرف وهكذا عرف أحدهم بما حصل معنا.

وسرعان ما دق جرس الهاتف ثانية وقمت أنا بالرد هذه المرة. ولقد عرفت الصوت: إنه صوت سيناد حجي فيزوفتش من تلفاز سراييفو. واستفسر عما يحصل. أخبرته أنه قد تم أسرنا وأنه سيتم نقلنا إلى لوكافيتسا. وكما تبين فيما بعد فإن هذه المكالمة الهاتفية بالإضافة إلى ظروف أخرى أنقذت حياتنا. وسرعان ما عرف العالم كله أن رئيس بلد مستقل كان يتم احتجازه سجيناً من قبل وحدات شبه عسكرية وفي بلد كانت وحدات الأمم المتحدة مسؤولة عن حفظ الأمن فيه. ومن ثم انطلقنا إلى لوكافيتسا التي تبعد بضعة كيلومترات عن المطار حيث ركبنا ثلاث سيارات، ورافقتنا دبابتان ملأتا الجو بالغبار والإزعاج. ولقد تصرف الجميع معنا على أننا سجناء. أمضينا الليلة في الثكنات. وتم تجهيز ما يمكن تسميته بغرفة نوم لي في مكتب قائد الحامية فيما أُخذ الآخرون إلى غرفة أخرى، وجاءت امرأة ترتدي الزي العسكري وقدمت نفسها على أنها طبيبة لأخذ سابينا. قليلة هي الليالي التي أذكر أنني لم أنم فيها البتة. ولقد

كانت إحداها هي تلك الليلة في لوكافيتسا. كان سبب القلق يتعلق بسابينا، وصوت القصف وومضات إطلاق الصواريخ في أرض الثكنة قاذفة حمماً على سراييفو دون توقف. وكانت هناك ساعة عسكرية على الحائط المقابل لسريري ولقد راقبت الساعة تمشي ببطء: الواحدة ثم الثانية والثالثة حتى بزغ الفجر ولم أنعم بلحظة نوم.

وبدأت التدخلات من أجل إطلاق سراحنا بعدما بث تلفاز سراييفو ما جرى لنا. فلقد كان الصباح بأكمله عبارة عن اتصالات عديدة وزيارات، ومضت الساعات طوالاً ومع حلول آخر النهار لم يكن هناك نتيجة بعد.

إن الحدث الرئيس الذي كان له تأثير كبير على كل تلك القضية هو التالي: في اليوم السابق أي أثناء عودتنا من لشبونة كانت هناك معركة حاسمة تدور في سراييفو ما بين المواطنين المسلمين والجيش اليوغسلافي. لقد كانت قوات الجيش اليوغسلافي متمركزة قرب المستشفى العسكري من حي (سكنديريا) ومركز الجيش اليوغسلافي حيث شنت تلك القوات هجوماً منسقاً للاستيلاء على مبنى الرئاسة. ولقد واجهتهم مقاومة عنيفة لم يتوقعوها ومن جميع الجهات فعاودوا انسحابهم إلى ثكناتهم بحلول المساء. وحاصرت مجموعة من رجالنا قيادة الجيش الثاني في بيستريك مع قائدها الجنرال (كوكانياتس) وطاقمه كاملاً وبضعة مئات من الضباط والأفراد مع معداتهم.

ولقد بدأ ابني، بكر، محاولات إطلاق سراحي منذ أن سمع بنبأ احتجازي. في الثاني من أيار (مايو). ولقد قام بجولته على أكبر عدد من المسؤولين ولكن دون طائل. وفي نهاية المطاف اقترح على أحد أعضاء الرئاسة أن يتحدث مع الجنرال كوكانياتس والذي كان محتجزاً أيضاً في مقر قيادته في بستريك. وتمت الموافقة على إجراء التبادل. ولقد غادرت أنا وسابينا ولاغومدجيا وآخرون لوكاميتسا حوالي الساعة الخامسة من اليوم التالي على متن عربة مصفحة لنقل

الجنود تابعة لقوة الأمم المتحدة. ولقد رأيت عبر النوافذ الصغيرة لناقلة الجنود عربات ودبابات مدمرة على إثر معركة الأمس. ولقد كان هناك ترامواي محروق على جسر السكنديريا. لقد مرت بنا العربة عبر منطقة مهجورة تماماً من المدينة على الضفة اليسرى لنهر المليياتسكا. ثم توقفنا خارج ثكنات بستريك، كانت هناك دبابة ضخمة كادت تسد مدخل البناية التي كانت تشبه الحصن. وعندما نزلت الناقلة كان هناك صمت مطبق عصر ذلك اليوم. ولم يكن هناك أي شيء البتة يذكّر المرء بالمواجهات التي اندلعت. وثم علمت أن رماتنا كانوا قد اتخذوا مواقع لهم على أسطح المنازل المجاورة لإبقاء الثكنات تحت الحصار. ولقد وجدنا في الثكنات مجموعة كبيرة من الضباط والرجال الجاهزين للانطلاق. انطلقوا بالفعل ولكن تمت مهاجمة قافلة للجيش اليوغسلافي بعد عشر دقائق في شارع دويروفولياتشكا. لقد قُتل خمسة ضباط وجُرح أربعة وأُسر حوالي ١٦٠ منهم. ثلاثون ضابطاً و١٢٦ جندياً وأربعة مدنيين. ولقد أطلق سراحهم جميعاً في اليوم التالي عقب توسط قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة، وعادوا جميعاً تقريباً إلى وحداتهم التي كانت تحت قيادة (باليه) (عاصمة جمهورية صرب البوسنة) فيما عاد بعضهم إلى بيوتهم. ولقد تركنا أنا ومن كان معي ناقلة الجنود على جسر سكنديريا على طول الخط الفاصل الذي أصبح يقسم سراييفو، وتوجهنا إلى مبنى الرئاسة. وهناك رحبوا بي كما لو أنني كنت عائداً من الموت. ولقد طرح عليّ أحد قراء مجلة(آفاز) سؤالاً يتعلق بأحداث الثاني من أيار (مايو) وبعد انقضاء سبع سنوات عليها:

قارئ من سراييفو: إن هذا السؤال طرحته قبل أسبوعين. ولم أتلق أي رد، ولذا ها أنا ذا أكرره. إن السؤال يتعلق بأحداث الثاني من أيار من عام ١٩٩٢ عندما كانت المواجهة مع الجيش اليوغسلافي في سراييفو وتم احتجازكم سجيناً في لوكافيتسا. يقول البعض: إنه قد أنقذت حياتكم وحياة البوسنة معك في اليوم الذي تم فيه إنقاذ سراييفو. ما وجهة نظرك حول الموضوع؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أنه كان بإمكاننا القول: إن ذلك اليوم كان هو اليوم الـذي تغلبنا فيه على خوفنا من التشتنتيك. ولم نعد نشعر بعدها بذلك الخوف، ولـم نعد خائفين منهم حيث إننا عانينا لعقود طويلة من آثار تلك العقدة والتي كانت قاتلة. ومن ثم لقد رفعنا رأسنا عالياً وقاومنا. لقد أدركنا ما يتوجب علينا القيام به إذا صمدنا ولقد قمنا بالشيء الصحيح. ولعل هذا يكون عاملاً نفسياً وأخلاقياً، ولكنه كـان على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى المستقبل. ولقد بدا واضحاً في سرايفو في ٢/٥ وفي توزولا في ١٩٩٢/٥/١٥، أنه من الممكن تحطيم بعض القيود. ولقد كان هذا هـو أهم عامل من وجهة نظري تجاه ما سألتني عنه.

ولقد توجهت جواً إلى سكوبييه عاصمة مقدونية لإجراء محادثات مع برانكو كوستيتش، عضو ما يعرف بالقيـادة العليـا حينهـا، والجنرال بلاغويـه آدجتـش رئيس هيئة أركان الجيش اليوغسلافي بالوكالة. ولقد عقد اللقاء قبـل ثلاثـة أيـام من اجتماع لشبونة في ٢٦ أيار ١٩٩٢. ومرة أخرى ذهبت إلى مطـار سـرايفو تحت حماية قوات الأمم المتحدة ولكن استغرقت الرحلة أكثر مـن سـاعة بسـبب بعض التأخير، بينما استغرقت الرحلة من سرايفو المبتلاة بـالحرب إلى سـكوبييه التي تنعم بالسلام مدة أربعين دقيقة فقط.

لقد كان يوماً مشمساً من أيام نيسان (أبريل) في سكوبييه حيـث جلسـنا في الحديقة ولكن كـان الجـو كئيبـاً ومليئـاً بـالتوتر. فلقـد كنـت أعـرف كـلاً مـن كوستيتش وآدجيتش من أيـام اجتماعـات الرئاسـة الاتحادية ليوغسـلافية، ولـم نكن نخفي عداءنا المتبادل. وفي ذلك المقام لن يكون بإمكان المرء أن يجد من هو أكثر منا عداوة ولا أقل منا صفاء نحـن الثلاثـة. ولقـد حـاول الرئيـس المقدونـي كيروغليغوروف، الذي قام بـدور المضيـف، حـاول أن يتوسـط، ولكـن كـانت مواقفنا نحن الثلاثة متباعدة جداً بالإضافة إلى علاقتنا الشخصية الرديئة. لقد كان محكوماً على كل شيء بالفشل ولقـد أدليـت بتصريـح لجمـوع الصحفيـين بعـد الاجتماع الذي استغرق ثلاث ساعات:

"لقد بدأت عملية سوف تؤدي في نهاية المطاف إما إلى أن يرحل الجيش اليوغسلافي عن أرض البوسنة، أو أن يبادر إلى تغيير شكله تغييراً جذرياً يؤدي إلى أن يصبح في المستقبل جيشاً بوسنياً أو القوات المسلحة للبوسنة والهرسك. إننا لسنا بحاجة إلى مواجهة مع الجيش. ولقد دعينا إلى وقف إطلاق نار ولقد تم قبوله. ولكن يبقى ذلك القبول وللأسف حتى الآن مجرد إعلان. إن النوايا الطيبة التي أظهرتها قيادة الجيش في محادثات سكوبييه يجب أن يتم تمحيصها وترجمتها إلى واقع عملي، مثل إزالة كل الحواجز على الطرق، وفتح مطار سراييفو. أما بالنسبة للجيش البوسني في المستقبل فإننا نرى أنه سيكون مؤلفاً من أعداد أقل ويراعي نوعاً من التوازن القومي، وأن يكون تسليحه من المعدات التي هي الآن في حوزة الجيش اليوغسلافي".

ولم أذكر في ذلك المقام أي شيء عن العبارة الهامة التي قالها لي آدجيتش بصراحة في الاجتماع. فعندما اقترحت أن يتم تعيين عدد من الجنرالات المسلمين ضباطاً للقيادة في البوسنة والهرسك، بدا آدجيتش مستغرقاً في التفكير لوهلة متحاشياً الإجابة. وقلت له "قم بتلك الخطوة إذا ما أردت أن تنقذ البلد". ولقد رد آدجيتش بالقول: "يا سيد عزت بيغوفتش أنت تعلم أن الغالبية العظمى من أفراد الجيش هم صرب. وسيكون الأمر غير واقعي إذا ما كان قادة الجيش من المسلمين". لقد كان آدجيتش صادقاً ومباشراً في إجابته كونه عسكرياً على العكس من كوستس الذي حاول أن يلعب دور السياسي. لقد حاول أن يخفي التحالف القائم ما بين الجيش اليوغسلافي والوحدات شبه العسكرية الصربية، وكذلك الفظائع التي ارتكبها الجيش في كرواتية والبوسنة. ولقد كان رد كوستيتش على أسئلة أحد الصحفيين على النحو التالي:

"فيما يخص السؤال ومما يظهر على أرض الواقع فإن لدينا معلومات متضاربة حيال تصرف الجيش في البوسنة. إن المعلومات التي لدينا تقول: إن الجيش تصرف بنوع من الحيادية في البوسنة".

ويجب أن أعترف أنني عندما صعدت إلى الطائرة تساءلت فيما إذا كنت سأتمكن من العودة سالماً معافى إلى سراييفو حيث أن الأمر قد أصبح الآن حرباً

مفتوحة. لقد كان هذا هو الاستنتاج الوحيد الذي خرجت به من اجتماع سكوبييه. ومع ذلك فلقد استغرق الأمر سبعين يوماً لندرك أن ما كان يحدث على الساحة هو حرب حقيقية، وأنه لم يعد هناك مجال للتراجع وأن تلك الحرب سوف تستمر لبعض الوقت. وفي العشرين من حزيران ١٩٩٢ أعلنت الرئاسة البوسنية حالة الحرب في البلاد. فلقد كنا حتى ذلك الوقت في قبضة أمل مجنون بأن تحدث معجزة من أجل وضع حد لإراقة الدماء من دون أي معنى. وبعد ستة أيام من إعلان الحرب قامت الرئاسة البوسنية بإصدار خطة برنامجها المشهورة والتي كانت عبارة عن نداء إلى كل مواطني البوسنة والهرسك كي يسارعوا بالانضمام إلى الجبهة الوطنية لمواجهة العدوان. ولقد أدرجت الخطة ضمن سياق نص المبادئ التي ستعمل الرئاسة البوسنية أثناء الحرب على أساسها، وأكدت على أهمية وجود ديمقراطية برلمانية مدنية، واقتصاد السوق، والتعددية الحزبية، وحقوق الإنسان والحريات، وحدود البوسنة والهرسك المعترف بها دولياً، ومعاملة الشعوب التي تتألف منها البلاد على أساس الوفاق والتكافؤ، والحفاظ على سياسة ذات توجه أوروبي.

ولقد رأت الخطة أن الطريق لوضع نهاية للحرب يمر عبر المفاوضات التي يجب أن تؤدي إلى إقامة سلام عادل:

"لقد كان السلام هو النتيجة التي آلت إليها كل الحروب عبر التاريخ. وكلما اقترب أوان حلول السلام كلما قل الدمار وقلت الخسائر البشرية. ومن أجل ذلك فإن الرئاسة تدعو إلى مفاوضات تؤدي إلى تحقيق السلام.

ولكن يجب ألا ننسى أن:

البوسنة والهرسك لن توافق على إجراء مفاوضات على أساس خلق مناطق عرقية تخلو من عناصر أخرى، أو على أساس تقسيم البوسنة والهرسك إلى مناطق عرقية محددة. ولن توافق البوسنة والهرسك أبداً على أية تغييرات منطقية وديمغرافية ولا امتيازات تحققت بفعل الحرب واستخدام القوة".

ولقد اصطدمت المثل التي نصّ عليها هذا الإعلان الراقي بالاستخدام الشرس للقوة على أرض المعارك وبعالم غدا أكثر لا مبالاة وأقل اهتماماً. ولم يحقق منطق القوة النصر، وكذلك لم تحقق المثل النصر.

إن عزمنا على تحقيق الأهداف التي نصت عليها الخطة كان عزماً صادقاً. ويبرهن على ذلك تشكيلة الحكومة التي تم تعيينها قبيل نحو عشرة أيام من إعلان الخطة في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٢. لقد كانت حكومة وحدة وطنية اعتيادية نظراً لأن كل قومية وتيار سياسي في البوسنة والهرسك قد تم تمثيله في تلك الحكومة التي كانت على النحو الآتي:

- يوري بليفيان: رئيساً للوزراء.
- هاكيا توورايلتش: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية.
- د. ميودراغ سيموفيتش: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الداخلية.
- د. زلاتكو لاغومدجيا: نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الاجتماعية.
- د. حارس سيلادجتش: وزيراً للخارجية.
- يوسف بوشينا: وزيراً للداخلية.
- ييركو دوكو: وزيراً للدفاع الوطني.
- رانكو نيكولتش: وزيراً للعدل والشؤون الإدارية.
- جاركو بريموراتس: وزيراً للمالية.
- د. روسيمير محمود تشيهاتش: وزيراً للطاقة والصناعة.
- علي ديليمصطفتش: وزيراً للتجارة والتموين.
- رادوفان ميركوفتش: وزيراً للزراعة.
- د. حسن مرادوفتش: وزيراً للغابات والصناعات الحرجية.

- توميسلاف كرستيتشفتش: وزيراً للاتصال والنقل.
- أوغلييشا أوزيلاتش: وزيراً لإعادة الإعمار.
- د. منير ياهتش: وزيراً للتخطيط وبناء المدن والبيئة.
- د. مصطفى بيغانوفتش: وزيراً للصحة.
- د. نيكولا كوفاتش: وزيراً للتعليم والثقافة والعلوم.
- مارتن راغوج: وزيراً للعمل والسياسة الاجتماعية.
- د. ميلينكو بركتش: وزيراً للأديان.

لقد كانت مهمة هذه الحكومة سهلة التعريف: حل مشكلات جوهرية وأساسية لبلد يتعرض للهجوم.

عندما يتعرض بلد إلى الكارثة التي تسمى الحرب فإن هناك سؤالاً واحداً يطرح نفسه ألا وهو "هل كان بالإمكان تفادي تلك الحرب". إن الإجابة في حالة البوسنة هي أنه نعم كان من الممكن تفادي الحرب قبل انسحاب كرواتية وسلوفينيا من يوغسلافية، أما بعد أن انسحبتا فقد أصبح تفادي الحرب غير ممكن. إن الشق الثاني من الإجابة ليس دقيقاً بالكلية. لقد كان بالإمكان الحفاظ على السلام حتى بعد انسحاب هاتين الجمهوريتين من الدولة الاتحادية. ولكن مثل ذلك السلام كان تحقيقه مشروطاً بإبرام معاهدة استسلام. ومعنى هذا أنه كان يتوجب على البوسنة والهرسك عندها أن تصبح جزءاً من صربيا الكبرى وأن تقبل وتذعن لسلطة ميلوشفتش وكارادجتش العليا المطلقة. إن هذا نوع من العبودية، والعبودية هي أسوأ من الحرب.

وحسب المعلومات المتوافرة فإن جيش البوسنة والهرسك قد نفذ ثلاثة آلاف عملية دفاعية وهجومية خلال الحرب التي استمرت ثلاثة وأربعين شهراً على جبهة بلغ طولها ١٢٠٠ كيلومتر. ولقد كانت بعض هذه العمليات نصراً مؤزراً

فيما كان بعضها الآخر هزائم مأساوية. ولا يمكن تحديد الشكل النهائي لما آلت إليه تلك المعارك المتفاوتة. ولقد انتهت الحرب في البوسنة من دون منتصر أو مهزوم. وعكس السلام الذي انتهت إليه الحرب النتيجة التي أدت إليها الأمور ألا وهي" التعادل". ويعد إنشاء جيش البوسنة معجزة صغرى إذا ما نظرنا إلى ظروف النشأة والتطور. كان يجب أن يقضى على الجيش في مهده وأن يتم احتلال البوسنة والهرسك خلال بضعة أشهر من بداية الحرب حسب المنطق العسكري المعهود.

تألف الجيش منذ البداية من عدد من المجموعات الشجاعة على الرغم من أن ترابطها كان ضعيفاً وأصبح العدد نحو ٩٦ لواء ضمن ستة فيالق. ولم تكن الإحصاءات دقيقة، ولكن تشير سجلات القيادة العسكرية المركزية أنه كان هناك نحو ١٨٦٠٠٠ شخص مسجلين من أجل الدفاع عن البوسنة والهرسك في آب (أغسطس) من عام ١٩٩٢ نصفهم من الجنود المسجلين في جيش البوسنة والهرسك. وتشكل النصف الآخر من قوات الشرطة العاملة والاحتياط والمتطوعين الذين شاركوا في الدفاع عن شوارعهم، وقراهم سواء كانوا مسلحين أم لا تحت مظلة منظمات مثل العصبة الوطنية، والقبعات الخضر، ومنظمات أخرى.

وفي ذلك الوقت كان هناك بندقية لكل جندي من خمسة ومن ثم أصبح لدى الجيش ٤٠ ألف قطعة سلاح مختلفة بما فيها أسلحة أفراد الشرطة والبالغ عددهم حوالي ١٨ ألف، و٢٣١ قاذفة صواريخ، ومدفع واحد من عيار ١٣٠ ملم، وعشرة مدافع من عيار ٧٦ ملم، وواحد وعشرون مدفع هاوتزر. وبإجراء مقارنة بسيطة فلقد كان لدى جيش الصرب والجيش اليوغسلافي حوالي ١٠٦٢ مدفع هاوتزر.

وأصبح العـدد الرسـمي لأفـراد الجيش حوالـي ٢٠٧ آلاف بحلـول النصـف الثاني من عام ١٩٩٣. ولكن لم يكن جميع هؤلاء منتظمين ولـم يشارك جميعهم في القتال دائماً. ولقد توافر لدينا في تلك السنة ٣٣ قطعـة مدفعيـة، و٣٦ مدفـع هاوتزر، و١٠٠٠ قاذفة صواريخ، و٦٦ قطعة سـلاح مضـاد للـدروع. وأصبـح لدى حوالي ٦٠ ألف من قواتنا بنادق وبنادق آلية خفيفـة أي إنـه أصبـح هنـاك بندقية لكل جندي من ثلاثة. وارتفع عدد أفراد القوات المسلحة ليصل إلى ٢٢٧ ألـف مع نهايـة عـام ١٩٩٤ وارتفـع عـدد الأسـلحة إلى ٨٠ ألـف بندقيـة ورشاشات، و٤٢ قطعة مدفعية، و٦٠ مدفع هاوتزر، و١٢٥ قاذفة صواريخ من مختلف الأنواع، و١١٥سلاح مضاد للدروع.

ولقد كنا نحصل على السلاح بثلاثة طرق. إما أن نستولي عليهـا مـن قـوات العدو، أو أن نقوم نحن بتصنيعها في مصانعنـا وحتـى في ورش صغيرة، وإمـا أن يأتينا السلاح "من فوق سبعة جبال وسـبعة أبحـر" كمـا يقـال. إن قصـة تسـليح جيش البوسنة والهرسك قصـة مؤثـرة تعبّر عـن شـجاعة الإنسـان، وتصميمـه، وحسن تدبيره على طول خط جبهة خفية من أجل بقاء البوسنة.

لقد كان هناك حوالي خمسة وستين مصنعاً عسكرياً تعمل مـن أجـل الجيـش البوسني ولقد تم تحويل كل ورشة حرفية صغيرة إلى مصنع عسكري صغير منذ عام ١٩٩٢، وعندما ذهبت في عام ١٩٩٣ إلى بريزا المطوّقة كليـاً أرونـي بكـل فخر بندقية معلقة على الحائط قام الحرفيون والفنيّون في بلدتهم بتصنيعها. ولقـد تحولت معامل الفولاذ في زينيتسا إلى مصانع عسكرية في ذلك الوقت، وكذلـك هي الحال بالنسبة إلى مصـانع أخـرى في تيشـانييه. وسـبقها أيضـاً مجموعـة مـن المصانع في نوفي ترافنيك، بوغونيو، وغوراجدة. وأصبح كل مصنع ملابس وقت السلم ينتج الزي والأحذية العسكرية للجيش حيث تم استخدام كل المواد الخام المخزنة للأغراض السلمية من أجل ذلك الهدف. ويمكن للمرء أن يؤلـف كتابـاً

كاملاً حول كيفية الحصول على السلاح" من فوق سبعة جبال وسبعة أبحر" على الرغم من الخطر والعوائق العديدة. وعلى الرغم من الوضع بالنسبة إلى المعدات العسكرية التي تسلّم تدريجياً، إلا أن الجيش البوسني لم يتمكن من بلوغ مستوى يخوله شن عمليات واسعة النطاق إلا قبيل انتهاء الحرب بقليل. ولكن حتى مع تحسن الوضع لم يكن لدى الجيش البوسني مدفعية كافية، ولا دبابات، ولا عربات مصفحة لنقل الجنود.

ولقد لخصت الوضع في معرض إجابتي عن سؤال وُجّه إليّ من قبل صحيفة(شتيرن) الألمانية في ١٩٩٤/١١/٥ كالآتي:

"لقد تزامن حدوث أمرين منذ بدأت الحرب: لقد كنا نزداد قوة فيما كانوا هم يزدادون ضعفاً. ولا يسير كلا هذين الأمرين بنفس السرعة وإنما تلك هي الحال بشكل عام. ولقد تفوقت قوات مشاتنا على قواتهم ومازالت منذ فترة طويلة. أو دعنا نقل إن العائق الأكبر لقواتنا هو قلة الأسلحة الثقيلة والمدفعية على وجه الخصوص فيما كان العائق الأكبر لديهم هو سلاح المشاة. ومازالت الحرب تنطوي على مفاجآت غير سعيدة لنا ولهم، ولكننا استطعنا بشكل عام أن نحقق نوعاً من توازن القوى، بل واستلمنا زمام المبادرة. إن التوازن هو توازن استراتيجي، ولذلك فإن المبادرات هي خطوات تكتيكية فقط. وإلا فكيف يمكن تفسير النجاحات التي حققناها في سراييفو، وكوبرس وبيهاتش؟ يوجد هناك العديد من العوامل، ولكن أهمها وهو العامل الأخلاقي غير القابل للتحليل فهو واضح جداً. حتى نحن كنا نفاجأ في بعض الأحيان. ما لدينا هنا هو تصميم بالإجماع من قبل شعبنا من أجل البقاء، إنه تصميم من قبل شعب حُكم عليه بالفناء".

وفي واقع الأمر فإن خليطاً من العوامل" الشرقية" و"الغربية" جعلت عملية الدفاع عن البوسنة ممكنة. فلقد فرض الغرب منطقة حظر جوي فوق البوسنة، واستمروا بتزويدنا بالمعونات الغذائية من خلال منظمة الأمم المتحدة التي وفرت لنا أيضاً الحماية. ولقد قامت الدول الإسلامية بتزويدنا بالسلاح. إن اجتماع

هذه الحقائق سوية شكّل دعماً قوياً للمقاومة وفوق ذلك كله كانت إرادتنا ورغبتنا بالدفاع عن أنفسنا، والشجاعة وحسن التصرف، هي التي لعبت دوراً رئيسياً في الدفاع عن البوسنة.

لقد أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة قراراً يقضي بفرض حظر على الأسلحة لجميع جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق. ولقد كان الجيش البوسني هو الوحيد الذي حُرم من وسائل تسليح نفسه بسبب هذا الحظر. فلقد كان لدى الصرب أسلحة كثيرة لم يكونوا يعلمون ما يعملون بها- وكانوا يقومون بتخزينها منذ أربعين عاماً وكان الجيش اليوغسلافي يُعد رابع أفضل جيش أوروبي من حيث العتاد. لقد كان ذلك ناتجاً عن المساعدات الأجنبية التي تهدف إلى التقليل من -بل وتحييد- التأثير السوفييتي على المنطقة. وأشار اللورد أوين في مذكراته إلى أن "مساعدة الغرب والقروض التي قدمها كانت هي الممول لاستمرار وجود جيش يوغسلافي كبير دون داع حتى بعد زوال الخطر السوفييتي بوقت طويل[١] ".

ولقد أعلن مجلس الشيوخ الأمريكي رفع حظر الأسلحة المفروض على البوسنة وذلك في الثاني عشر من أيار (مايو) عام ١٩٩٤. ثم تبعه مجلس النواب كذلك في التاسع من حزيران (يونيو) ولكن استخدم الرئيس بيل كلينتون الفيتو لوقف القرار تحت ضغط من حلفائه الأوروبيين وبخاصة بريطانيا ووزير خارجيتها دوغلاس هيرد. ولقد صرح الروس أن الصرب سوف يهاجمون مواقع الجيش البوسني وقوات مجلس الدفاع الكرواتي، والقوة العسكرية التابعة لكروات البوسنة، إذا ما تم رفع الحظر عن البوسنة. وعلاوة على ذلك سوف يحاول الصرب احتلال جيوب منطقة بودرينيه وهي سيربرينيتسا، وجيبا، وغوراجدة وهي للمناطق التي أعلنتها الأمم المتحدة أنها مناطق آمنة.

---

(١) من كتاب ديفيد أوين أوديسة (ملحمة) البلقان)، ص ٣٦.

وعلى الرغم من ذلك الحظر فلقد نجحنا في منتصف عام ١٩٩٣ في أن ندخل ٣٠ ألف بندقية وبنادق آلية، وعشرين مليون رصاصة و٣٧ ألف قنبلة يدوية، و٤٦ ألف قذيفة مضادة للدبابات و٢٠ ألف زي عسكري، و١٢٠ ألف زوج أحذية وهي معلومات وأرقام أدليت بها لمذياع وتلفاز البوسنة والهرسك في آب (أغسطس) عام ١٩٩٣. ولقد دعتنا الحاجة للحصول على السلاح إلى خوض مغامرات عدة. ولقد عرض بعض الأشخاص أثناء إحدى الزيارات إلى بروكسل والتي أجهل تاريخها أن يزودنا بأسلحة سوف تمكننا من استهداف فعّال لقوات كارادجتش التي تحاصر سراييفو. لقد عرضوا أن يزودونا بطائرتي هليكوبتر مجهزتين بأسلحة خاصة والصواريخ المناسبة. لقد كان عرضاً مغرياً جداً بالنسبة إلينا، حيث إننا وقعنا في مصيدة منذ خمس مئة يوم جعلتنا مستهدفين يومياً لإطلاق النار العشوائي من قبل راجمات الصواريخ والقناصة. وبالتالي لم نستطع أن نرى نهاية لمشاكلنا تلك.

وعندما قمت باستقبال أولئك الأشخاص الذين كانوا غرباء بالنسبة إلي عرضوا أن يقوموا بجلب طائرتي هليكوبتر والهبوط بهما على جبل إغمان وفي ملعب زينيتسا في إحدى الليالي. لقد كان مظهرهما مسالماً ولم يعرفونا بأنفسهم، واكتفوا بالقول: إنهم من أصول جنوب إفريقية، وإنهم يعملون في جميع أنحاء العالم.

ولقد اشترطوا شرطين لإتمام الصفقة: الأول أن ندفع لهم الثمن نقداً يتم تسليمه فور تأكيد رجالنا أن الطائرتين قد هبطتا بالفعل في المكان المحدد، وثانيهما أن نسمح لهم بأخذ أحد رجالنا رهينة يتم احتجازه في مكان سريّ ضمانة من أن نقوم بخداعهم. ولقد اقترحا أن يتم عقد الصفقة في إحدى سفاراتنا في أوربة، وأن يكون الرهينة هو القائم بأعمال تلك السفارة. وبعد مساومة مستفيضة قبلنا بالشرط الأول ورفضنا الشرط الثاني. وعندها طلبوا أن

يتم جلب النقود وتسليمها في نفس اللحظة التي يؤكد فيها رجالنا أن الطلبية قد وصلت وجهتها.

يُعد تجار السلاح من أخطر الناس عديمي الضمير كما هي حال مافيا المخدرات. فهم يكسبون أموالهم من الحرام وهم مستعدون للقيام بأي شيء. ولكن إذا ما كنت بحاجة إلى السلاح فلا يمكن أن تشتريه إلا من هؤلاء. ولقد أرسلنا برسالة إلى مصادرنا في إسطنبول لتأمين المبلغ الذي طلبوه، وأن يتم إرساله مع رسول إلى سفارتنا في تلك المدينة الأوروبية.

ولقد وصل التاجران في الوقت المحدد حيث قالا: إن العملية جاهزة التنفيذ وإن طائرتي الهليكوبتر سوف تقلعان من قاعدة في إيطالية حيث من المتوقع أن تصلا وجهتيهما عند منتصف الليل.

وكان القائم بأعمال سفارتنا وحامل النقود يجلسان في جانب من الغرفة وبحوزتهما المبلغ فيما جلس التاجران في الجانب الآخر. ولا أدري مَن كان خائفاً مِن الآخر: نحن منهم أم هم منا. ولقد خشي جماعتنا أن يكونوا جزءاً من عصابة تقوم بعملية سطو كلاسيكي للحصول على النقود من خلال إجبار الأشخاص الموجودين على الاستسلام، ولذلك فلقد كان جماعتنا جاهزين وكانت مسدساتهم محشوة بالرصاص، وكذلك تحذير التاجرين أنه يوجد هناك حراس أمن في الممرات وعلى مدخل السفارة. ولقد كان التاجران على اتصال بشخص ما عبر الهاتف النقّال.

ولقد أخبرني أحد أفراد جماعتنا الذي شارك في هذه العملية ما يلي:" دقت الساعة الحادية عشرة، ثم منتصف الليل، ثم الواحدة فالثانية فالثالثة فجراً. كنا محدّقين بعضنا ببعض يراقب كل منا حركات الآخر. ولقد طلبوا إذناً بالانصراف بحلول الفجر كي يتفقدوا شيئاً. لقد قالوا: إن هناك خطأ ما. فغادروا ولم يعودوا أبداً.

وإلى الآن لم نستطع الجزم إن كانوا تجار سلاح أُحبطِت صفقتهم بسبب ظروف لم تكن في الحسبان، أو كانوا مجرد نصابين حاولوا الحصول على نقود بطريقة سهلة. لقد كان الجنرال ديلتش في زينيتسا مع مجموعة من الضباط ينتظرون حول نيران مشتعلة حدوث معجزة من السماء. ولكن المعجزة لم تحدث. ولم أنم أنا أيضاً حيث بقيت مستيقظاً بجانب الهاتف طوال الليل.

لم تكن الحرب في البوسنة منذ البداية حرباً كلاسيكية، بمعنى أنه لم يكن هناك قتال بين جيشين متحاربين، ولكن كانت هجمة شرسة لآلة عسكرية قوية ضد شعب أعزل حيث كان الهدف هو إنشاء صربيا الكبرى.

وجاءت بدايات فكرة إنشاء صربيا الكبرى في منتصف القرن التاسع عشر عبر كاتب يُدعى إيليا غراشانين في كتابه (ناشرتانيه) وبلغت الفكرة أوجها مع نهاية القرن العشرين مع صدور مذكرة الأكاديمية الصربية للعلوم والآداب في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٨٦. ولقد كان الشخص الذي عمل على ترجمة تلك الفكرة إلى واقع ملموس هو سلوبودان ميلوشيفتش بالتعاون مع الجيش اليوغسلافي الذي غدا صربيّاً أكثر من أي وقت مضى، والوحدات شبه العسكرية الصربية في البوسنة والهرسك، وفي صربيا والجبل الأسود.

وبوصول القوميين الى سدة الحكم في كرواتية أصبح من الواضح بالنسبة إلى ميلوشيفتش أنه لن يستطيع الاستيلاء على كل البوسنة والهرسك، ولذا فإنه كان مستعدا ًللتوصل إلى اتفاق لتقسيم البوسنة ما بين صربيا وكرواتية. وعقد كلّ من تودجمان وميلوشيفتش اجتماعهما الأول بهذا الخصوص في كارا دجوردجيفو في ١٩٩١/٣/٢٥ واستمر عقد تلك الاجتماعات حتى نهاية الحرب في البوسنة والهرسك. ولقد ارتأى الطرفان أن يبقيا جزءاً صغيراً للمسلمين في البوسنة يكون بمثابة منطقة عازلة ما بين كرواتية ويوغسلافية بما فيها أجزاء من سرايفو ووسط البوسنة وباستثناء منطقة (بودرينيه) حيث

يشكّل البشناق أغلبية مطلقة، وطبعاً حرم الاتفاق في كارا دجوردجيفو البوسنة المسلمة من أن يكون لها منفذ على البحر أو حتى على أنهار السافا، والدرينا، والأونا.

وقد كان الهجوم على سراييفو بدأ مع نصب عدد كبير من الحواجز على الطرقات منذ الرابع من نيسان (أبريل) ١٩٩٢، وحدث اعتداء مسلح على أكاديمية الشرطة في فراتسا في الخامس من الشهر نفسه. لقد كانت تلك أولى خسائرنا البشرية في الحرب. وكان ذلك في ثاني أيام العيد حيث كانت قوات الجيش اليوغسلافي والوحدات شبه العسكرية الصربية قد طوّقت سراييفو كلّها متذرعين بإجراء مناورات عسكرية في نهاية ١٩٩١ وبداية عام ١٩٩٢. وقامت وحدات شبه عسكرية في صربيا، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك بالإضافة الى الجيش اليوغسلافي بمهاجمة مدينة زفورنيك في الثامن من نيسان (أبريل). وانهارت المقاومة هناك بعد عشرين يوماً. وتبع ذلك احتلال برتشكو في شمال البوسنة، ومن ثم الهجوم على بيربيدور كوزاراتس في غرب البوسنة. وقام الفيلق الخامس من الجيش اليوغسلافي باحتلال كلتا المدينتين في ١٩٩٢/٤/٢٩. ويقدر بأن نحواً من ٨٠٠ شخص قد قتلوا ذلك اليوم، فيما أُسر حوالي ١٢٠٠ مدني تمَّ ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال.

وقد استطاع الوطنييون البوسنييون اعتراض وإيقاف قافلة للجيش اليوغسلافي في برتشكانسكا مالتا في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٩٢.

وأخذت الأحداث مع هذه العملية تأخذ منحىً جديداً. وكانت منطقة توزلا الكبرى قلقة. وكان للأسلحة التي تمت مصادرتها في القافلة أثر إيجابي في رفع معنويات قواتنا وتقوية عزائمهم وزيادة تصميمهم من أجل الدفاع عن المنطقة.

ولقد أُجبرت على أثرها قوات الجيش اليوغسلافي على التراجع من مدينة موستار في أوائل حزيران من عام ١٩٩٢ بعد عملية مشتركة مع كل من مجلس الدفاع الكرواتي، ووحدات الدفاع عن المناطق، ووحدات شرطة البوسنة. ولقد تم تحرير مدينة موستار مع جزء كبير من المنطقة المحيطة بها حيث ساهمت هذه العملية في إرساء أساسات لإنشاء خط دفاع صلب في بيرني، وفيليج، ونيفيسينيه حيث ثبت هذا الخط طيلة الحرب دون تغييرات جذرية عليه.

ثم بدأت معسكرات الاعتقال تظهر وتنتشر انتشاراً كبيراً في جميع أنحاء البوسنة خلال شهري أيار (مايو) وحزيران (يونيو) من عام ١٩٩٢. ولقد كان جُلّ الضحايا من المسلمين المدنيين ومن كلا الجنسين، وكانت قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة على علم بوجود هذه المعسكرات ولكنها تصرفت وكأنها لا تعلم.

لقد كانت معسكرات الاعتقال في كيراتيرم وأومارسكا التي شاهد العالم بأسره صورهما نذير شؤم يذكّر بمعسكرات الاعتقال النازية قبل نحو نصف قرن من الزمان. وقد أقسم العالم على ألا تتكرر مثل تلك المعسكرات في أي مكان، ولكنها هاهي عاودت الظهور مرة أخرى، وهذه المرة في عقر دار أوربة. ولقد ظهرت ردود فعل من الناس والصحفيين والأدباء ولكن ليس من الساسة[١].

قد كان ذلك مثالاً برهن مرة أخرى أن الساسة ليسوا هم ضمير الأمة. (ولكن كان هناك استثناءات بالطبع، فلقد قامت رئيسة وزراء بريطانية، مارغريت تاتشر، بإلغاء زيارة الى زغرب احتجاجاً على تورط كرواتية في الحرب في البوسنة).

وقدّمت اللجنة الحكومية لتبادل الأسرى قائمة بأسماء اثنين وأربعين من

---

(١) حتى أن الأمر قد بلغ أحد الشباب أن قام بإحراق نفسه في ميدان البرلمان في لندن بتاريخ ١٩٩٣/٤/٢٩ احتجاجاً على العنف في البوسنة.

معسكرات الاعتقال الموجودة في البوسنة والهرسك حيث تمَّ تسليم تلك القائمة والرسالة المرفقة إلى قائد قوة المراقبة الجنرال لويس مكنزي الذي كان ينكر وجود مثل هذه المعسكرات، ولم يقم بالتالي بتمرير الرسالة إلى الأمم المتحدة.

ونشرت صحيفة (أوسلو بوجينية) قائمة بأسماء ٩٤ من مراكز الاعتقال في البوسنة والهرسك حيث نشرت حينها الصورة الفوتوغرافية الشهيرة التي تم التقاطها في معسكر أومارسكا والتي قامت محطة الـ CNN (شبكة الأخبار بالكوابل) ببثها. عندها فقط بدأ العالم يلتفت وعلى مضض إلى تلك الحقيقة المروّعة.

ولقد أصبحت حدود البوسنة والهرسك حدوداً دولية بمجرد أن تمّ الاعتراف بها كدولة مستقلة. وعليه فإن أول المبادئ الأساسية التي قام عليها اجتماع هلسنكي تقضي بعدم قبول تغيير الحدود القائمة عنوةً. كان هذا في صالحنا من هذا المنظور.

ولقد قمت بالمشاركة في قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي التي عُقدت في هلسنكي في التاسع من تموز (يوليو) من عام ١٩٩٢، حيث حضر ذلك الاجتماع رؤساء الدول والحكومات الأوروبية، والرئيس الأمريكي، ورئيس الوزراء الكندي.

ولقد اغتنمت تلك الفرصة كي أطلعَ العالم على حقيقة ما يجري في البوسنة والهرسك.

نص الخطّاب الذي ألقيته في قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في هلسنكي في ١٩٩٢/٧/٩

"إنه لشرف عظيم لي أن أتحدث إليكم في هذا الاجتماع التاريخي باسم شعوب ومواطني البوسنة والهرسك. لقد انضمت البوسنة والهرسك إلى هذا التجمع الكبير للشعوب والبلدان فأصبحت جزءاً من عملية بناء أوربة الجديدة، والنظام العالمي الجديد واللذين تمَّ إرساء قواعدهما هنا في هلسنكي.

وأود أن أغتنم هذه الفرصة كي أؤكد على التزام البوسنة والهرسك بالمبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان المنصوص عليها في وثائق المؤتمر الأوروبي للأمن والتعاون، وكذلك ما ورد في قانون هلسنكي الأخير، وفي ميثاق باريس.

إن البوسنة والهرسك تتعهد باحترام سياسة الأمن المتبادل بما في ذلك معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، بالإضافة الى المعاهدات والمواثيق الأخرى في هذا المجال. ونحن دائماً نتطلع الى أن تصبح دولة منزوعة السلاح يوماً ما. وكذلك فإننا نعلن التزامنا بالقيام بدور إيجابي وبنّاء في إطار الجهود الرامية إلى إيجاد حل سياسي للأزمة اليوغسلافية في إطار قرارات المؤتمر الأوروبي حول يوغسلافية، وفي إطار صلاحيات منظمة الأمن والتعاون الأوروبي. وسوف تقوم البوسنة باحترام كل الالتزامات المترتّبة على قرارات ذلك المؤتمر والمتعلقة بالأزمة في البوسنة والهرسك والتي ستحترم استقلال، ووحدة أراضي، وحدود جميع الدول المجاورة لها كما نصت عليه المواثيق الأساسية لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبي وميثاق الأمم المتحدة. وسوف تمضي البوسنة والهرسك قُدماً في بناء المؤسسات الديموقراطية وسوف تساهم في تحقيق الأمن والتعاون الأوروبي، ولكن قدرة البوسنة في الوقت الراهن على القيام بذلك هي قدرة محدودة جداً، لسوء الحظ.

فمنذ اللحظة الأولى التي اعترف فيها الاتحاد الأوروبي بالبوسنة والهرسك كدولة مستقلة، تعرضت البوسنة لعدوان عليها من قبل صربيا، والجبل الأسود، والجيش اليوغسلافي.

ولقد اشتدت وطأة ذلك العدوان عندما أصبحت البوسنة عضواً في منظمة الأمن

والتعاون الأوروبي، بل وازدادت قسوة ووحشية ذلك العدوان عندما تم قبول البوسنة والهرسك لعضوية الأمم المتحدة.

وهكذا أصبحت البوسنة والهرسك عاجزة عن تأمين ما يضمن الحرية، والاستقلال، والاعتراف الدولي لمواطنيها.

ولم تبرز البوسنة الى حيّز الوجود لمجرد تفكك الاتحاد اليوغسلافي السابق، بل لقد كانت البوسنة مملكة أوروبية مستقلة منذ حوالي ستة قرون خلت. حيث كانت حدودها ما بين مناطق الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية. ولقد اعترفت حينها جميع الدول المجاورة بها بما في ذلك الفاتيكان وعلى رأسه البابا.

وعقب ذلك قرون من الاضطرابات والقلاقل التاريخية أدت الى أن تصبح البوسنة والهرسك كياناً متعدد القوميات، والأديان والثقافات.

ونحن إذ نفتخر بمثل هذا الوضع الخاص للبوسنة والهرسك لا ننسى أن نؤكد على أننا زاوية أوروبية في البلقان.

ولكن أصبح كل ذلك معرضاً للخطر الآن.

نعم أصبحت البوسنة أرضاً لمعركة إبادة عرقيّة، فهي الآن بلد مليء بمعسكرات الاعتقال، وأصبحت المدارس والملاعب الرياضية مسرحاً لأعمال تعذيب وقتل جماعي. ورأيتم بأمّ أعينكم صور المذابح في سراييفو على شاشات التلفاز. ولكنكم لم تروا الأطفال السبعة الذين قتلوا بقذيفة، أثناء جمعهم للكرز في ضواحي سراييفو. ولم تروا كذلك المقابر الجماعية في أجزاء أخرى من البوسنة والهرسك. حتى نحن لا ندري بالضبط حقيقة ما يجري هناك لكون العديد من المناطق معزولة تماماً عن العالم، ومن ثم قطعت جميع الاتصالات مع سراييفو.

ولم يتم السماح لأي من منظمات الإغاثة الدولية أو المراسلين أن يزور المناطق المحتلة حيث تجري عمليات تهجير وقتل جماعي وعلى نطاق واسع حسب الروايات المروّعة التي يرويها بعض الذين نجوا من اللاجئين. واسمحوا لي أن أذكر بلدة بريدور مثالاً، حيث تم نقل ما يوازي حمولة ثلاث عشرة شاحنة من الجثث لدفنها في مقابر جماعية.

وما نعلمه كحقيقة واقعة الآن هو أن البوسنة والهرسك تتعرض الآن الى هجوم غادر من قبل صربيا والجبل الأسود، وأن القوات المعتدية لم تنسحب من البوسنة على الرغم من قرارات مجلس الأمن ومطالب الاتحاد الأوروبي والوعود التي أصدرتها بلغراد. بل إن ما حدث هو في واقع الأمر حيلة كبيرة حيث إن كل ما قام به الجيش هو تغيير اسمه، لكي يصبح الجيش الصربي بعد أن كان يُعرف باسم الجيش اليوغسلافي في السابق، ولا يزال نحو ثمانين ألفاً من الجنود يتمركزون على أرض البوسنة والهرسك مدججين بالسلاح، ومعهم ٦٠٠ دبابة، وخمسون طائرة مقاتلة. فما زال ذلك الجيش يعتبر من أكثر الجيوش الأوروبية تسليحاً حتى اليوم.

وبالتواطؤ مع دعاة خطة التطهير العرقي في البوسنة اعتدت هذه القوة العسكرية على مناطق البوسنيين الأبرياء.

وبينما لم نعدّ أنفسنا للحرب بل أعددناها من أجل السلام كانت النتيجة أن أصبحت مدننا وبلداتنا محاصرة ومدمّرة، وتم حرق قرانا، وأجبر سكاننا على النزوح عنها، ولقد أجُبر ثلث سكان البوسنة والهرسك على مغادرة منازلهم والانضمام الى صفوف اللاجئين الطويلة.

أصحاب الفخامة رؤساء الدول والحكومات، أيها الأصدقاء: إن ما يجري الدفاع عنه اليوم ليس البوسنة فقط وإنما أوربة.

إن ميثاق باريس وقانون هلسنكي الأخير والمعاهدات والمواثيق التي أقسمت أوربة على صيانة المبادئ الواردة فيها هي نفسها التي يجري الدفاع عنها اليوم في البوسنة. وإذا لم يتم انقاذ البوسنة اليوم فإن ذلك سوف يعني أن كل تلك المعاهدات والمواثيق غير ذات مغزى.

ونحن نحاول، مدفوعين بنوع من الأمل، أن نحافظ على البوسنة والهرسك مدنيّة ومتحررة من الأحقاد القومية والعرقية. ولكن كل ذلك سيكون أمراً مستحيلاً دون الدعم الدولي. إننا ممتنون غاية الامتنان للمساعدات الإنسانية التي يقومون بإرسالها

لنا، ولكنها لن تنقذ البوسنة من براثن العدوان. "إنه لا يمكن وقف العدوان والقضاء على آثاره من خلال الصدقات". تلك هي الرسالة التي أنقلها إليكم من مواطني بلدي.

استقبلنا الرئيس الأمريكي جورج بوش على هامش القمة. وقمنا بإطلاعه على خطورة الوضع في البوسنة. ولكن لم يتولد لديّ انطباع بأنه سيقوم بالكثير من أجل وقف العدوان، إذْ كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت وحتى بعد ذلك الوقت بكثير تعتقد أن مشكلة البوسنة هي مشكلة أوروبية، وأنه يتوجب علينا نحن أن نتوجه الى الحكومات الأوروبية بهذا الشأن.

لقد عملت الحرب على تفريق شمل العائلات جاعلة الأب مع أحد الطرفين المتحاربين والابن مع الطرف الآخر، أو الزوج مع المدافعين والزوجة مع المهاجمين أو العكس. كانت الحياة في سراييفو أيام الحصار عبارة عن قصص مؤثرة، وكان أكثر هذه القصص حزناً تلك التي رواها الصحفي "شيفكو خودجتش". نشرت تلك القصة في صحيفة سراييفو اليومية (أسلو بود جينه) في ١٩٩٢/٧/٢٩ تحت عنوان (دراما على طريق غرابافيتسا)[١] عندما بدأ الهجوم كان الزوج في جانب المدينة الذي تحت سيطرتنا فيما كانت الزوجة على الجانب المقابل من المدينة المقسّمة. وكان برفقة الأب طفلهم الرضيع الذي يبلغ من العمر شهراً ونصفاً فيما كانت ابنتاهما اللتان تبلغان ثماني وعشر سنوات من العمر مع الأم.

تمَّ الاتفاق على أن يتم تبادل الأطفال. وتمت الموافقة على وقف مؤقت لإطلاق النار بتدخل من قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة بحيث يفسح مجالٌ لإجراء عملية التبادل. وكان المكان المحدد لإجراء العملية في ميدان الأبطال

(١) أو (قصة مؤثرة على طريق غرابافيتسا).

(ترغ هيروبا) في الجزء الغربي من المدينة. وفيما يلي بقية وصف خودجتش لهذه القصة العائلة المؤثرة:

"تابعنا عملية التبادل غير العادية، وصل بيكو[١] مع طفله بين يديه إلى زاوية البناية التي تم الاتفاق على إجراء عملية التبادل عندها ومن ثم انتظر. نظر يمنة ويسرة، ولكن لم يكن هناك أي شخص اخترق ذلك المكان المكشوف الفاصل ما بين مواقعنا ومواقع التشتنيك بيكو وطفله طبعاً. وظهر بعدها رجل يقود ابنة بيكو التي تبلغ حوالي العاشرة من عمرها.

قام بيكو بتسليم الطفل للرجل، ثم حدث شيء غريب، وقف هو والطفلة بلا حراك، ولم يغادرا خطوة من أجل العودة. عندها أدركنا ما حصل: لقد غيرت ابنته رأيها ولم تعد تريد الذهاب برفقة والدها. وأرادت العودة من حيث أتت. وبدا واضحاً أنه لم يكن باستطاعة والدها إقناعها حيث ولم يكن لديه الكثير من الوقت ليحاول ذلك.

عاود الرجل الذي لا يعرفه بيكو الظهور من دون الطفل حيث يبدو أنه قد سلمه الى شخص ما، وأخذ طفلة بيكو. ووقف بيكو متسمراً الى الأرض في ذلك المكان المكشوف دون أدنى دليل على كيفية التصرف، وهو يرى طفلته ترحل.

وبدأ بعد ذلك فصل جديد من هذه القصة المؤثرة إذ ظهرت زوجة بيكو مع ابنتهما الأخرى من جهة ملعب جيليز[٢] لكرة القدم. ولقد بدأ كل منهم بالركض نحو الآخر: بيكو من جهة، والزوجة والابنة الأخرى من جهة ثانية، والابنة التي لم ترد الذهاب مع أبيها من جهة ثالثة. وأخيراً التقوا جميعهم على قطعة أرض معشوشبة بين البيوت التي كانت بجانب مواقعنا على اليمين، فيما كانت مواقع التشتيك الى اليسار، وهناك عانق بعضهم بعضاً عناقاً يائساً. إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي تجتمع فيها العائلة كلها في آن معاً.

---

(١) قد قُتل بيكو ستانتش في الحرب عام ١٩٩٤ جندياً في جيش البوسنة. وتعيش الآن زوجته وأطفاله في أمريكا.

(٢) ملعب نادي جيليز تتشاد لكرة القدم في سرايفو.

ولكن لم تستمر لحظة سعادتهم سوى بضع دقائق تحادثوا، واجهشوا بالبكاء، وتبسموا، وعانق بعضهم بعضاً، وكان عليهم أن يتفرقوا مرة أخرى في نهاية المطاف.

أخذت الأم إحدى الطفلتين معها باتجاه غربافيتسا بينما ركض بيكو باتجاه مواقعنا مع ابنته الأخرى، فيما كان الجميع على الخطوط الأمامية على أهبة الاستعداد وأصابعهم على الزناد. فلقد كانوا يقومون بحماية الأب وابنته التي وافقت على الذهاب مع أبيها". (شيفكو خودجتش: في كتابه (الفرسان والهان) ص ٤٥.

كانت هناك ثلاث عمليات غير ناجحة من أجل محاولة فك الحصار عن سراييفو التي كانت مطوّقة تماماً ومفصولة عن باقي أجزاء البوسنة منذ نيسان (أبريل). وكانت أولى هذه المحاولات في الثالث من أيار من جهة فيسوكو، ولكن فشلت العملية بسبب نقص الامكانات والأفراد نقص المعلومات الاستخبارية عن قوات العدو على طول الخط الذي حاولنا اختراقه. أما ثاني تلك المحاولات والتي أُطلق عليها اسم (يوغ - ٩٢)، ضمت مشاركة حوالي ٦٠٠٠ جندي، وشملت عمليات في داخل وخارج المدينة. ولكنها لم تأت أُكلها، فيما كانت المحاولة الثالثة في نهاية العام، وأطلق عليها الاسم الحركي (كوفيرات). ومرة أخرى برهنت هذه العملية أن هناك فجوة واسعة بين ما نريد تحقيقه وبين ما أمكن إنجازه.

برهنت محاولات أخرى فيما بعد أن مسألة رفع الحصار عن سراييفو كانت مهمة في غاية الصعوبة، ومن بين تلك المحاولات كانت العملية المشتركة لجميع قوات الجيش البوسني في حزيران (يونيو) من عام ١٩٩٥. ولم يتم فك الحصار إلا في خريف عام ١٩٩٥ أي بعد ضربات حلف الناتو الجوية ضد صرب البوسنة.

وحتى تاريخ ضربات الناتو كان الوضع جهنمياً في سراييفو فلم يكن هناك ماء، ولا كهرباء، ولا غاز، ولا طعام ولكن كان هناك مستوى عالٍ من

التضامن الإنساني والذي لا يظهر إلا في أوقات الشدّة، ومن ثم يتم تذكّرة بشيء من الحنين إلى الماضي بعد انتهاء المعاناة. وتقول التقديرات بأن حوالي عشرة آلاف شخص خلال الحصار الذي استمر اثنين وأربعين شهراً قد قتلوا بسبب القصف المدفعي أو رصاص القناصة، وكان من بين هؤلاء القتلى حوالي ١٣٠٠ طفل بالإضافة إلى أكثر من سبعين ألف جريح.

كان مبنى الرئاسة هدفاً مهماً، حيث تم إطلاق جميع أنواع الصواريخ عليه، بل وتمَّ قصفه بكل شيء استطاعت أيادي التشتنيك أن تصل إليه من قذائف مدفعية من المورتر وحتى الصواريخ الموجهة. وقُتل حوالي ٥٧ شخصاً داخل وحول مبنى الرئاسة خلال الحصار. وقتلت فتاتان وهما أميرة حسينوفتش وسفيتلانا غافرتش برصاص قناصة خلال عملهما في مكتبهما. وأصيبت أحداهما بطلقة في الرأس، وقفت بعد لحظة، وسألت زملاءها "ما الذي حصل؟" ومن ثمَّ سقطت ميتة.

وقبل نهاية الحرب حاولوا استهداف المبنى بقنابل موجّهة فأصابوا بناية مديرية خطوط السكة الحديدية المجاورة ومستوصف أدوية المدينة.

و حدثت إحدى أعنف الهجمات ليلة ٢٩/٢٨ أيار (مايو) ١٩٩٢. قاد عملية القصف تلك "راتكو ملادتش" شخصياً، حيث استهدف القصف مبنى البرلمان والرئاسة ومنطقة فيشيتسي السكنية.

أعطى ملادتش أوامره بفظاظة قائلاً: "اقصفوا ميلوسيتش حيث لا يوجد الكثير من الصرب ممن يقطنون هناك". تيقنا ذلك نحن وقوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة. إذ لم يكن يعرف حتى كيف يلفظ اسم الحي بشكل صحيح، ولكنه كان يعرف أنه لا يقطنه الكثير من الصرب. بل على العكس كان مستعداً أن يقتل عدداً من الصرب في مقابل أن يؤدي ذلك إلى مقتل عدد كبير من

المسلمين. وانتقلت في تلك الليلة إلى البناية المجاورة حيث المجلس البلـدي كـي أرى ابني بكراً الذي كان مناوباً هناك في تلـك الليلـة. ولـم أكـد أدخـل البنايـة حتى أصابتها قذيفة، وكـانت قذيفـة مـن مدفـع هـاوزر؛ حيـث اهـتزت البنايـة بشكل عنيف، وسقط العديـد مـن الموجوديـن علـى الأرض. ومـن ثـم أسـرعنا بالنزول إلى التسوية حيث كان هناك جزء من مركز قيـادة الدفـاع عـن المدينـة. وأمضينا الساعات القليلـة بعـد ذلـك تحـت قصـف مكثـف. وكـانت القذائـف تصيب أهدافها على حين غرَّه، فيما يمكن للمرء سماع صـوت الصواريـخ التـي يتم إطلاقها من راجماتها المتعددة الفوهات عند اقترابها. لقد كانت أقرب ضربة منا لحائط تسوية مجاورة، تبعد حوالـي عشـرة أمتـار عنـا فقـط. وبـدأت رائحـة المتفجرات المحترقة الكريهة والأتربة تسبب لنا الاختناق. توقف القصـف قبيـل الفجر بقليل فخرجنا. كان بالإمكان رؤية إشارات المرور التـي لا زالـت تعمـل في حي سكنديريا من خلال فتحة في جدار التسوية. وكانت النيران مشـتعلة في كل مكان، وكانت الشوارع مليئة بالطوب المكسـر والزجـاج واللاصـق الـذي كان يجمعه كان هناك نوافذ كاملة قد نُسفت من مكانها، وكانت هناك أغصان أشجار كبـيرة وأشـجار كبيرة ملقـاة في المتـنزه والشـارع أمـام مبنـى الرئاسـة. تحطمت سيارتي التي كانت واقفـة أمـام المبنـى بسـبب سـقوط أحـد الأغصـان الكبيرة عليها. وعلمت في الصباح أن المنزل الـذي كنـت أسـكنه حتـى انـدلاع الحرب قد تم قصفه عدة مرات خلال الليل، حيث احترق السقف. وتمَّ قصـف الشقتين اللتين تسكنان فيهما ابنتاي. ولحسن الحظ لم يصب أحد بـأذى لأنهـم كانوا احتموا في تسوية البناية.

وقال أحد مراسلي الـ (CNN) (سـي. إن. إن. أوشـبكة الأخبـار بـالكوابل) الذي كان في المدينة للمشاهدين:

"يعتقد المرء دوماً أن الأمور لن تكون أسوأ مما هي عليه في سرايیفو. لكنها صارت أسوأ. فالمدينة تئن وتهتز وتتصدع كما لو كانت تريد تسلق تلك الجبال".

وجد الكاتب الإسباني خوان غوينتسولو نفس الصورة بعد عام من تقرير مراسل الـ CNN (سي. إن. إن.). حيث كتب في كتابه (مذكرات سرايیفو) قائلاً: "لم يكن هناك أماكن شاغرة لا في المستشفيات ولا المشرحة في سرايیفو عندما يشتد القصف ليلاً أو نهاراً. فغالباً ما كانت الجثث تُلقي على البلاط، ولم يكن هناك متسعٌ في المقابر. وكان يجب اتخاذ جنازات بسيطة في أقل الأماكن عرضة لرصاص القناصة مثل منحدرات كوفاتشي، أو القيام خلسة عند الغسق بدفن الضحايا." وأنهى غوينتسولو كلامه قائلاً: "لا يستطيع أي شخص أن لا يتأثر عندما يهبط في الجحيم المسمى سرايیفو".

وعلى الرغم من تمكن القوات المعتدية من احتلال غوراجدة منذ بداية الحرب بمساعدة الوحدات شبه العسكرية التابعة للحزب الديموقراطي الصّربي إلا أننا تمكنّا من تحريرها بسبب تصميم وتنظيم قوات الدفاع عن المناطق في البوسنة والهرسك خلال المعارك التي استمرت ما بين ١٥ و٢٨ آب (أغسطس) من عام ١٩٩٢.

انعقد مؤتمر لندن حول الأزمة اليوغسلافية بتاريخ ١٩٩٢/٨/٢٦ في نفس الوقت الذي كانت تدور فيه رحى المعارك في غوراجدة بمشاركة نحو أربعين مشاركاً بمن فيهم الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجور. ولقد ألقيت خطاباً في ذلك المؤتمر.

مقتطفات من الخطاب في مؤتمر لندن

بتاريخ ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٩٢

"أنا من البوسنة والهرسك، وهي أحدث دولة عضو انضمت للأمم المتحدة مؤخراً وهي بلد أصبح ضحية لاعتداء همجيّ وحشيّ. وأنقل إليكم تحيات مواطنيها وامتنانهم لما قمتم به من أجل بلدهم، ولوم على ما فشلتم في القيام به".

إن ما أخفقتم في القيام به من أجل البوسنة والهرسك هو ما أخفقتم في القيام به من أجل أنفسكم. حيث إننا في البوسنة نخوض قتالاً غير متكافئ دفاعاً عن مبدأ أوروبيّ أساسي حول الحياة والعلاقات بين الشعوب وما بين الجماعات القومية والاجتماعية، إن ذلك هو مبدأ التنوع والتسامح المتبادل الذي كانت البوسنة مثالاً له على الرغم من المحن والقلاقل التي مرت بها عبر التاريخ والتي لا تفتأ تحاول الحفاظ عليه بروح من التصميم المثالي.

ومن وجهة نظر أولئك الذين هم الآن في السلطة في بلغراد، والذين يحضر ممثلون عنهم هنا اليوم، كان يجب أن تبقى البوسنة والهرسك بعد تفكك يوغسلافية جزءاً من يوغسلافية ضعيفة ومتهالكة، أو ضمن صربيا الكبرى كما يطلق عليها العالم عادة بالإضافة إلى وجود صربيا والجبل الأسود. ولقد رفضت غالبية الشعب العظمى ذلك الوضع. وقد اعترفت أوربة بإرادة الشعب، وتبعتها معظم دول العالم المتحضر، ولكن لم يقبل نظام بلغراد بهذه الإرادة ولا حتى الاعتراف بها.

ومن ثم جاءت عمليات الانتقام ومحاولة فرض الحل الذي يرتؤونه من خلال القوة الوحشية. وتمَّ تحريك الآلة العسكرية لأحد أكثر الجيوش الأوروبية تسليحاً لسحق دولة ناشئة وشعبها الأعزل.

ولقد اجتاحت قوة مؤلفة من ١٠٠ ألف جندي من الجيش اليوغسلافي ومثلهم من القوات غير النظامية التابعة للحزب الديموقراطي الصربي الدولة البوسنية الفتيّة وغير المحمية، حيث كانت وحدها في مواجهة تلك القوات الكبيرة والمعززة بحوالي ١٨٠٠ مدفع من مختلف العيارات وقوات سلاح الجو التابع للجيش اليوغسلافي وأنظمة

صاروخية. لذلك سرعان ما تمَّ احتلال أكثر من نصف مساحة البلاد وبسرعة كبيرة. واستطاع الناس تشكيل مقاومة ذات تسليح خفيف واستمروا بالمقاومة في كل من سراييفو وغوراجده، وسريبرينيتسا، وبوسانسكي برود، وبرتشكو، وڤايتيسه، وأجزاء من الهرسك ووسط البوسنة، ومنطقة تسازين الحدودية وفي مناطق واسعة من وادي نهر البوسنة ونهر النيريتڤا وهذه المناطق هي مناطق مدنية وصناعية هامة في البوسنة.

أيها السادة إن هذه الحرب ليست حرباً عاديّة، وكذلك فإن الاحتلال الذي قادته صربيا ليس احتلالاً عسكرياً عادياً. إنها حرب إبادة عرقية تُشن على السكان المدنيين وعلى قيمهم الدينية، والقومية، والثقافية. لقد أُغتصبت الكثير من المدن، ومن ثم قُتِل وُشرِّد السكان غير المرغوب فيهم. وأصبحت أعداد معسكرات الاعتقال تتضاعف تماماً كما تتضاعف نباتات الفطر. حيث يقتل في هذه المعسكرات أعداد كبيرة من الرجال والنساء المسلمين، أو أنهم يموتون موتاً بطيئاً بفعل التجويع والتعذيب، وليس هناك كلمات مناسبة في لغات الشعوب المتحضرة تكفي لوصف الفظائع التي يتم ارتكابها.

ويُطلب منا أن نتفاوض وكأن شيئاً لم يكن. وكأن المدن لم يتم اغتصابها وتخريبها، أو أنه لم يقتل أو يشرّد أحد، أو إنه لم يتم زرع عدم الثقة والكراهية بين الشعوب.

من الممكن إجراء المفاوضات، ولكن يجب أن تكون أولى المحادثات منصبة على وضع حد للعدوان وإزالة النتائج المترتبة عليه، ومن ثم الحديث عن الهيكلة المستقبلية للبوسنة والهرسك.

ويتضمن وقف العدوان وازالة كافة النتائج المترتبة على ما يلي:

- وقف فوري لإطلاق النار.

- انسحاب الجيش اليوغسلافي والوحدات شبه العسكرية المرتبطة به من كافة أراضي البوسنة والهرسك بما يتوافق وقرار مجلس الأمن رقم ٧٥٢.

- عودة أولئك الذين تم إجبارهم على الرحيل إلى منازلهم وقراهم.

- إعادة كافة الممتلكات المنهوبة ودفع تعويضات عن آثار الدمار الذي سببته الحرب.

- تحديد المسؤولين عن ارتكاب جرائم الحرب.

قامت حكومتنا بإعداد دراسة حول شكل الوضع الدستوري المستقبلي في البوسنة والهرسك، ولن أخوض في تفاصيل ذلك الآن. ولكنني أود أن أتلو عليكم نص مبدأين أساسيين سيقوم على أساسهما دستور المستقبل في البلاد.

إن البوسنة والهرسك ستكون دولة علمانية ديمقراطية قائمة على أساس سيادة مواطنيها وتساوي جميع القوميات أمام القانون.

وسوف تكون دولة لا مركزية مع حق تقرير المصير في كثير من المناطق والأقاليم.

يجب عليكم أن ترفضوا خطة تقسيم البوسنة والهرسك وكبح جماح أي تطلعات وآمال بهذا الشأن. وإن لم تفعلوا فسوف يتم مكافأة المعتدي بدلاً من معاقبته، وسيبقى الشعب المسلم القوي والذي يبلغ تعداده حوالي مليوني شخص من دون وطن. وفي هذه الحال سيلجأ الآخر للانتقام على أحسن تقدير حيث سيقوم أناس بالانتقام من المعتدي، ومن عدم اكتراث العالم، وقد يمتد هذا لعدة سنوات.

وأخيراً فإن البوسنة والهرسك دولة أوروبية، وشعبها شعب أوروبي. ولكن الشر الذي حل بنا لم يأت إلينا من آسية بل من أوربة. ولقد اجتمع شرّان عظيمان في المعتدين: الفاشية (التمييز العرقي والقومية المتطرفة) والبلشفية (وهي فقدان أي مفهوم للعدالة والقانون) وكلا هذين الشرّين منتجان أوروبيان.

لا يجب أن تدعوا البوسنة والهرسك تلفظ أنفاسها تحت أقدام هذين الشرّين، ومن ثم تحضرون اجتماعاتكم للحديث عن النظامين العالمي والأوروبي الجديدين. ما تم في البوسنة هو بناء ودفاع عن أوربة، ولربما دفن أوربة سيكون في البوسنة.

وانتهى المؤتمر بعد تبنيه (إعلان البوسنة والهرسك) الذي دعا إلى وقف القتال، والتأكيد على وحدة أراضي البوسنة والهرسك، والسماح بعودة اللاجئين إلى منازلهم، واحترام حقوق الإنسان، ونشر مجموعات مراقبة دولية على الحدود بين البوسنة والهرسك وصربيا. ولقد بقي الإعلان مجرد حبرٍ على ورق واستمر العدوان.

ولقد كنت في زيارة إلى زغرب في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٢ عندما وصلت الأنباء بأن "بوسانسكي برود" على وشك السقوط. وكان هناك حديث عن أن الجيش الكرواتي كان يتراجع منسحباً من المدينة دون إبداء أي مقاومة.

ورافق هذه الأخبار إشاعات بوجود اتفاق سرّي بين تودجمان ومليوشفتش لتسليم منطقة بوسافينا. ولم أرغب في تصديق تلك الروايات وأردت التأكد بنفسي.

قمت في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) بسلوك طريق دائري من زغرب باتجاه برود فلقد كان الطريق السريع إلى هناك مغلق بسبب الاشتباكات. وصلت إلى "سلافونسكي برود" مع الغسق. كانت القيادات السياسية في سلافونسكي برود وبوسانسكي برود في انتظاري. كان كل شيء يبعث على الكآبة: الطقس، والناس، والجو العام.

وتقرر أن نرجع مساء ذلك اليوم إلى زغرب وأن أُطلب من الرئيس تودجمان إرسال تعزيزات عسكرية. ورتبت لعقد لقاء في الساعة الثامنة صباحاً في زغرب.

سافرتُ طوال الليل ووصلتُ زغرب قبيل الفجر. وأذكر أن تودجمان قال لي وهو يحدّق في لباسي غير الرسمي والمليء بالتجعيدات من آثار السفر إن بوسانسكي برود لن تسقط، ووافق على إرسال تعزيزات قوامها ألف جندي على الفور. غادرتُ متشجعاً وتوجهت إلى سبليت للاجتماع بقائد كروات البوسنة حينها ماتيه بوبان الذي أخبرني فور وصولي عند المساء أن بوسانسكي برود قد سقطت في الصباح. لقد كان رد فعله على طريقة تعبيري عن هذه الفاجعة بأن قال: "لا داعي لأن تشعر بالأسى، فهم لايستحقون كل هذا، سوف تستعيد بوسانسكي برود يوماً ما. ولقد كانت عبارته" فهم لا يستحقون كل هذا" تعني كروات تلك المنطقة الذين لم يكونوا ينتمون إلى حزب بوبان،

الجمعية الديموقراطية الكرواتية والذين كانوا يعتبرون البوسنة والهرسك وطنهم على العكس من بوبان.

وبعد ثماني سنوات من تلك الحادثة أدلى قائد الكروات في المنطقة الجنرال بيتار ستيبيتش بتصريح لصحيفة (ناتشيونال) في آذار من عام ٢٠٠٠ قائلاً:

"لقد تفاجأنا كثيراً عندما خسرنا بوساتسكي برود في ٦/١٠/١٩٩٢. ولم نخسر المدينة نتيجة لضغط وهجمات خصم أقوى، وسيكون ذلك سبباً وجيهاً لسقوطها- ولكننا فقدنا المدينة لأسباب لم تكن واضحة بالنسبة إلي. لقد تم سحب القوات التي كانت تدافع عن بوسانسكي برود دون علمي، فدخلت القوات الصربية المدينة دون قتال. ولم أستطع حتى اليوم أن أعثر على من كان وراء هذه الخطوة ولكنني متأكد من أنها تّمت على خلفية اتفاق بين ماتي بوبان ورادوفان كارادجتش في صيف عام ١٩٩٢ عندما التقينا في غراز".

وبعد توطيد الأمور حول بوسانسكي برود، قام الصرب بمهاجمة غراداتشاتس، ولكن تم صدّهم في معارك استمرت من ٢٢ وحتى ٢٥ تشرين الأول. وكانت تلك المعركة مسرحاً لإحدى أهم العمليات التي قامت بها قواتنا، حيث تمكنت من نصب شرك لقطار تابع للجيش اليوغسلافي محمل بالسلاح ومن ثم تدميره وصادرت كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات.

أظهرت الأحداث التي رافقت سقوط بوسانسكي برود وجود شرخ في العلاقات بين الجيش البوسني ومجلس الدفاع الكرواتي. حيث كانت لدى المجلس وجهات نظر مغايرة لوجهات نظرنا حول مستقبل البوسنة، حيث أرادوا إنشاء مقاطعتهم الموحدة، ومن ثم الاندماج مع كرواتية وازدادت الخلافات بين الطرفين، ومن ثم تطورت إلى صدام مسلّح.

جرت أولى هذه الصدامات المسلحة في حزيران من عام ١٩٩٢ في وادي لاشفانسكا، في تشرين أول ١٩٩٢ في بروزور حيث قامت قوات مجلس الدفاع

الكرواتي بمهاجمة المدينة ما بين الثامن والخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) وذبحت المدنيين. وعلى أثرها قمتُ بإرسال الرسالة التالية إلى تودجمان رئيس كرواتية:

"إن الأحداث التي جرت مؤخراً في البوسنة والهرسك أجبرتني على توجيه هذه الرسالة إليك.

ولقد تعمّدت قوات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية إيجاد مناوشات مسلحة في نوفي ترافنيك، وفيتيز، وبروزور. ولقد سقط قتلى وجرحى في هذه المناوشات. وتم إغلاق جميع الطرق من غرب البوسنة، وحتى أمام قوافل المساعدات الإنسانية. وتزامن ذلك مع شن حرب إعلامية في وسائل الإعلام الكرواتية على البوسنة والهرسك وحكومتها الشرعية. وتم تلفيق وتكرار خبراً مفاده أن هناك انقلاباً عسكرياً في البوسنة والهرسك. ويوجد أيضاً تخرصات بشأن حدوث تغيرات في الحكومة، بينما يتم تجاهل المعركة غير المتكافئة التي يخوضها جيش البوسنة والهرسك ضد قوات التشتنيك.

ويبدو أن شعبنا الذي يتعرض للعدوان الفعلي من قبل التشتنيك سيجد نفسه محارباً معنوياً حتى يمسي دون أي أمل يتعلق به. ويبدو أن وسائل الإعلام الكرواتية قد أخذت على عاتقها تحطيم معنويات شعبنا هدفاً لها.

والحقيقة كما سنرى أنه لم يكن هناك أي انقلاب عسكري في سراييفو.

وما هو حقيقي وواقع أيضاً أنه كل العالم باستثناء التلفاز الكرواتي يعلم أن جيش البوسنة والهرسك يقاتل بشجاعة في غوراجده، وسراييفو، وكونيتيش، ويايتسه وغراداتشاتش، وجيبا، وماغلاي، وفيشه غراد وبرتشكو وفي أماكن أخرى. لماذا يتم تجاهل كل هذا بينما نرى أن هناك حرصاً على نشر شعور بفقدان الأمل؟

وعلاوة على ذلك فالحقيقة تقول: إن الدبابات التي هاجمت بروزور ودخلتها لم تكن دبابات جيش البوسنة والهرسك. وإن المعونات العسكرية الحيوية التي تمَّ تقديمها لدعم المقاومة في وجه غزو التشتنيك للبوسنة والهرسك قد تم احتجازها في زغرب وغرده، وستظهر نتائج ذلك عما قريب.

ويتم إجراء محادثات في جنيف حول الهيكلة المستقبلية للبوسنة والهرسك فيما يتزامن ذلك مع خلق أمر واقع سياسي. من خلال استخدام القوة العسكرية مما يجعل محادثات لندن وجنيف غير ذات أهمية.

لقد تجاوز حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية حدود المعقول من الدفاع الشرعي ضد التشتنيك، وشرع في تدمير منظم ومدروس للسلطات المدنية الشرعية من خلال قيامه بإنشاء مؤسسات موازية لمؤسسات الدولة.

ولا مناص من القول بأنه تولّد لدينا انطباع أنّ هناك رغبة لاستغلال الوضع الصعب الذي تجد البوسنة والهرسك نفسها فيه، ولعله أصعب وضع تواجهه في تاريخها. وتهدف تلك الرغبة إلى فرض نتائج مخالفة لإرادة غالبية مواطني البوسنة والهرسك.

من يستطيع ممن لهم عقول وألباب أن يصدّق أننا نحن الذين فتحنا جبهة جديدة ضد حرب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في خضم قتالنا المرير ضد التشتنيك؟ ألا يشبه هذا الافتراض موقف التشتنيك الذي إدّعى بأننا نقوم بقصف أنفسنا في سراييفو ونتهمهم بذلك؟

لن توافق البوسنة والهرسك أبداً على تقسيم مبنيّ على أساس عرقي بحت، ولن تقبل بأي حل يتم فرضه بقوة السلاح. فلدى البلاد قوة كافية وأصدقاء عديدون في الخارج من أجل الدفاع عنها.

ولقد كان كل من كرواتية والشعب الكرواتي من أبرز أصدقاء البوسنة والهرسك. وسوف تستمر بلادنا بالتمسك بهذه الصداقة، وسوف تتصرف على هذا الأساس.

أدعوك سيدي الرئيس أن تستخدم نفوذك من أجل إزالة كافة العوائق في طريقنا بحيث تعطي لعلاقاتنا الثنائية الفرصة في أن تتطور في ظل أسس من الوفاق، علاقات الصداقة، والتعاون".

ولم يأت رد أو بشكل أدق لم يأت رد لبضعة شهور، ومع نهاية كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٣ تبادلت أنا وتودجمان رسائل ذات نبرات حادة.

ولم يكن من الصعب على المرء أن يرى بأن الأوضاع على الأرض والعلاقات بين البلدين قد تدهورت في الوقت الراهن. ولقد كتب تودجمان في رسالته المفتوحة بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٧ يقول:

"لقد دفعتني الأحداث المحزنة التي تحدث إلى توجيه هذه الرسالة إليك حيث إن الإسلاميين المتطرفين في وسط البوسنة يقومون بشن هجمات وحشية إجرامية منظمة ضد المناطق السكنية الكرواتية حيث أطلقوا نيرانهم على المدنيين والمقاتلين على حد سواء.

فلقد قتل البارحة كما تعلم ٣٥ جندياً من قوات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في أثناء دفاعهم عن قراهم في منطقة بوسوفاتشا ضد الغزو الذي قامت به القوات المسلمة. ولقد قامت تلك القوات أيضاً بحرق قرىً كرواتية. وأثار هذا الهجوم قلقاً عميقاً لدى قيادة الكروات في البوسنة والهرسك حيث لجؤوا إلى كرواتية والعالم من أجل المساعدة.

ولذلك فإنني أدعوك مع قلقي الشديد إلى أن تضع حداً لهذا العدوان الهمجي والذي من الممكن أن يؤدي إلى أسوأ تدهور في العلاقات ما بين المسلمين والكروات في البوسنة والهرسك الذين تضافرت جهودهم في مقاومة عدوهم المشترك في معظم أنحاء بلدكم خلال الشهرين الماضيين. وفيما لم يتم وقف هذا العدوان فإن ذلك سيؤدي أيضاً إلى تدهور العلاقات بين بلدينا ويعيق ويمنع بالكامل تدفق المساعدات الإنسانية التي يعتمد عليها الكثير من أهل البوسنة والهرسك.

ويتساءل المواطنون الكروات فيما إذا كان العدوان ضد كروات البوسنة هو عرفان بالجميل لقاء كل ما تفعله كرواتية من أجل مساعدة مواطنيكم حيث إننا ما نقدمه لكم هو:

- **حماية ورعاية أكثر من نصف مليون لاجئ.**
- **تنظيم ودعم وتوصيل كميات ضخمة من المساعدات الإنسانية.**
- **دعم عام لدفاعكم عن بلداكم ضد العدوان الصربي.**

– المساهمة في البحث عن حل عادل وممكن للهيكلة النهائية للبوسنة والهرسك، وإرساء دعائم السلام في أسرع وقت ممكن في اطار محادثات جنيف.

إنني أستغل هذه الفرصة كي أناشد أبناء الشعبين المسلم والكرواتي في البوسنة والهرسك كي يعملوا على وقف أعمالهم العدائية المتبادلة، وأن يتعاونوا تعاوناً تاماً من أجل الدفاع عن بلدهم في وجه المعتدي، وأن يبحثوا معاً عن حل يمكنهم من العيش بانسجام كشعوب أساسية بناء على أساس من المساواة في البوسنة والهرسك.

إنني آمل أن يسهم إصدارك لأوامرك العاجلة والحاسمة للقوات المسلحة بوقف عدوانهم على كروات البوسنة والهرسك في أن يمكّن المسلمين والكروات في البوسنة من أن يصبحوا قوة واحدة ضد المعتدي الشيوعي اليوغسلافي الصربي المونتغري. ويعد هذا المطلب حداً أدنى مطلوباً تحقيقه من أجل رعاية اللاجئين، وتقديم الدعم بشكل عام للبوسنة والهرسك".

ولقد قمت بالرد على تلك الرسالة في اليوم التالي:

"إنني أكتب إليك في معرض الرد على رسالتك التي تسلمتها في السابع والعشرين من كانون الثاني حول المصادمات الأخيرة ما بين جيش البوسنة والهرسك وقوات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في وسط البوسنة".

ولقد بذلت قصارى جهدي وضمن نطاق سلطتي أن أتقصى حقيقة ما أدى إلى وقوع تلك المناوشات التي تبعث على الأسف.

أخشى أنك استندتَ إلى مصدر واحد من مصادر المعلومات واعتبرته كافياً. لقد كنت على اتصال مستمر مع ثلاثة مصادر للمعلومات هي: الضباط والمسؤولين في جيش البوسنة، والجمعية الديموقراطية الكرواتية، وقوة مراقبة الأمم المتحدة بمن فيهم مراقبي الاتحاد الأوروبي. لقد كانت التقارير التي قدمها كل من الجيش البوسني والجمعية الكرواتية متضاربة. وأكدت المعلومات التي تلقيتها من ممثلي الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي أن قوات الجمعية الكرواتية كانت وراء افتعال المصادمات في غورني فاكوف وبوسافاشا في محاولة منهم لتنفيذ أوامر وزير الدفاع بوجو رايتش القاضية

بوضع بعض وحدات الجيش البوسني تحت إمرة الجمعية الديموقراطية الكرواتية في الهرسك ووسط البوسنة. ولقد أبدت وحدات جيش البوسنة والهرسك مقاومة لذلك فحصل ما حصل وكانت هناك خسائر. ولم يشر أي جزء من المعلومات إلى وجود أي نوع من أنواع العنف ارتكبه المسلمون ضد السكان المدنيين الكروات طبعاً باستثناء المعلومات التي يبثها التلفاز الكرواتي، والتي تنشرها بعض الصحف في زغرب من أجل إقناع الرأي العام الكرواتي أن تلك الفظائع حدثت بالفعل.

أما السبب الكامن وراء نشوب النزاع في وسط البوسنة هو رغبة ومحاولة بعض عناصر حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في المضي قدماً بإنشاء كيان دولة داخل البوسنة والهرسك. إن هذا هو السبب الحقيقي وراء انعدام الثقة وازدياد التوتر بين الشعبين ويجب أن تعترف بهذه الحقيقة.

لقد قام السيد بوبان بالتوقيع على اتفاقية في جنيف تتألف من تسعة مبادئ، وعلى الرغم من العيوب الكثيرة في وثيقة الاتفاق إلا أنه كان واضحاً أن أهم مبادئها هو أن البوسنة والهرسك هي دولة مستقلة ذات سيادة، وأنه ستكون هناك مقاطعات داخل تلك الدولة، ولكن لن تكون تلك المقاطعات دولاً أو مناطق محددة قومياً تعود ملكيتها إلى قومية واحدة فقط. ولقد عرضت يوم أول أمس على السيد بوبان نص بيان مشترك ندعوه فيه إلى وضع حد للصراع في وسط البوسنة. ولقد أكد البيان بالإضافة إلى أمور أخرى على أن تكون مكانة جميع شعوب البوسنة مكانه متساوية في المقاطعات المقترحة مستقبلاً في كل من ترافينك وموستار بحيث تكون متطابقة تماماً مع الاتفاقيات التي تم إقرارها في جنيف.

لقد كان بياناً يمكنه أن ينهي بعض الخلافات وأن يسهم في تهدئة الوضع ولكن رفض السيد بوبان أن يوقع على البيان وقيده في دعوة فقط لوقف الأعمال العدائية. والتفسير الوحيد لتصرف السيد بوبان هو أنه لم يتخلَّ عن طموحه بإقامة منطقة قومية خاصة بالكروات فقط في وسط البوسنة، وهي منطقة يتساوى فيها تقريباً عدد المسلمين والكروات كما تعلم، ولذلك فلا يمكن أن تصبح تلك المنطقة للكروات حكراً. وأرفق نسخة من البيان الذي لم يتم توقيعه بحيث يمكنك أن تحكم بنفسك.

وبسبب بعض النقاط التي أكدت وشددت عليها في رسالتكم فإنني انتهـز الفرصـة لأسألكم سيدي الرئيس إذا ما كان لديكم علم بما يلي:

– لقد تم إزالة جميع الشعارات التي ترمز إلى البوسنة والهرسك من المناطق الواقعة تحت سيطرة حزب الجمعية الديموقراطي الكرواتية.

– لقد تمت إعادة برمجة أجهزة البث التلفازي بحيث لا تلتقط أبداً برامج تلفاز البوسنة والهرسك.

– تم إلغاء عمل السلطات الشرعية في العديد من البلديات في الهرسك ووسط البوسنة بسبب ما قام به حزب الجمعية الديموقراطية.

– أن المساعدات الإنسانية التي تصل البوسنة والهرسك غالباً ما يتم احتجازها وتوزيعها بصورة غير عادلة. فلقد قام حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية ببيع حوالي ٤٥٠٠ طن من الأغذية هي كل حمولة باخرة تركية. واستولى حزب الجمعية على حوالي ألف طن زيادة على حصته من حمولة ناقلة نفط تركية مليئة بإمدادات الوقود التي قدمها الشعب التركي تبرعات سخية. وأدى هذا إلى أن فيلق الجيش البوسني في موستار لم يحصل على أي إمدادات وقود. ولقد تم اختطاف اثنين من موظفي منظمة الإغاثة وهما غالب الصوفي وأبو حسن علي في بوسافينا في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢ وما زال احتجازهما مستمراً في موستار منذ أكثر من شهر. واستولى الخاطفون على نقود وبضائع تقدر قيمتها بأكثر من نصف مليون مارك ألماني. ونشرت في العدد الحالي من مجلة (سلوبودنا دالماسيا) رسالة من السيدة ماريا فيرنله-ماتش وهي أمينة سر لاتحاد منظمات المساعدات الإنسانية في زيورخ تتحدث فيها عن عمليات مصادرة واسعة للمساعدات الإنسانية التي تمر في الطرق المارة من منطقة الهرسك. أرجو أن تخصص وقتاً لقراءة ذلك المقال فسوف يعمل على جعل الأمور أكثر وضوحاً.

– يجب أن يتم إيقاف جميع عمليات مصادرة المعدات الحيوية من أجل مقاومة المعتدون التشتنيك. وكما تعلم فلقد قمنا في تشرين ثان ١٩٩٢ بإهداء إرسالية نصف تلك المعدات إلى الجيش الكرواتي بقيمة تعادل حوالي عشرة ملايين دولار ومع ذلك فإن النصف الآخر من شحنة المعدات لم يصل وجهته في البوسنة. حيث تم الاستيلاء

على جزء كبير منها في غروده. ولو لم يحصل هذا لكانت سرايفو ومناطق أخرى كثيرة قد تحررت الآن، ومن ثم لكان بإمكان لاجئينا أن يعودوا إلى منازلهم.

– قامت قوات تابعة لحزب الجمعية بمهاجمة بلدة بروزر في أوائل كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٢. واستمر القصف على المدينة مدة يومين حيث قتل ٢٢ من الجنود والمدنيين وتم نزع أسلحة جيش البوسنة والهرسك والقرى المسلمة المجاورة.

وبعد أن تم نزع الأسلحة تم نسف ٧٤ منزلاً من منازل المسلمين. وأرفق قائمة بأسماء مالكي تلك المنازل وأقترح أن يزور كلانا تلك البلدة ونرى بأنفسنا ما جرى على أرض الواقع.

لقد وصلت الخلافات ذروتها عندما تم إصدار أوامر تقضي بأن يصبح جيش البوسنة والهرسك تحت إمرة وقيادة حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في مقاطعة لم يحسم أمرها بعد على أنها مقاطعة ذات أغلبية كرواتية. وتبع ذلك سلسلة صدامات أكثرها خطورة كان في غورنييه فاكوف التي قُصِفت بالمدفعية الثقيلة لأيام عدة. وتم إيقاف كل المساعدات الإنسانية المتوجهة إلى شعب البوسنة والهرسك وتمت مصادرة المئات من سيارات المسلمين التي كانت تمر في ذلك الطريق عند حدوث الاشتباكات. ويجب أن أصرح بأن هناك حملة شعواء تشنّها وسائل الإعلام الكرواتية ضد البوسنة والهرسك. ولا داعي لمثل هذه الحملة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يستندون إلى الحقائق دوماً والذين هم على جانب الصواب والحقيقة.

اختارت البوسنة والهرسك التحالف مع كرواتية في وقت كان سيكون تحالفها مع الجانب الأقوى مؤلماً أكثر عند البقاء في يوغسلافية. لم يكن ذلك خياراً تكتيكياً محسوباً بل كان نابعاً من مبدأ. وأذكركم بأننا قد رفضنا تجنيد شبابنا مع الجيش اليوغسلافي الذي كان يستبيح كرواتية وتطوع أيضاً العديد إلى جانب كرواتية في كفاحها من أجل تحقيق سيادتها وحريتها، وقتل بعضهم في أثناء ذلك. وتوقعنا عقوبات وانتقام من الجيش اليوغسلافي لقاء موقفنا وهذا ما حصل بالفعل. ولم نتوقع أن يتم الإعلان بأن اللاجئين من البوسنة والهرسك هم لاجئون غير مرحب بهم في كرواتية أو أن يتم نعت جيش البوسنة والهرسك بأنه معتدٍ وفي بلده نفسها.

وخلاصة القول فإنني أثني على دعوتك من أجل تحقيق السلام بين الشعبين الكرواتي والمسلم، وعليهم أن يقوموا بوضع حد لجميع أشكال الأعمال العدائية. وأن يحققوا تعاوناً حقيقياً في دفاعهم ضد عدوهم المشترك وفي كفاحهم من أجل إيجاد حل يمكّن كلاً منهم من العيش بانسجام وعلى قدم المساواة في البوسنة والهرسك".

وقد أرفقت مع هذه الرسالة قائمة بأسماء ملاّك البيوت التي تم تدميرها وأحراقها من قبل قوات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية في بلدة برزور وقريتي ميمشي وبلاتسه.

أما بالنسبة إلى الرسالة المفتوحة من السيدة ماريا فيرنله - ماتش التي أشرت إليها في معرض ردي على تودجمان فقد كانت رسالة موجهة إلى ماتيه بوبان، زعيم الثوار الكروات، ولقد نشرت مجلة (سلوبودنا دالماسيا) هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٨ على الصفحة الثالثة والثلاثين والتي تنص على ما يلي:

"اسمي ماريا ماتش اسمي بعد الزواج ماريا فيرنله-ماتش، مولودة في الثاني من شباط (فبراير) عام ١٩٤٢ في فيياكا التابعة لبلدية فاريش وأنا كاثوليكية المذهب. وأقطن في سويسرة منذ عام ١٩٦٤ حيث أصبحت مواطنة سويسرية في عام ١٩٦٧ وأعمل حالياً أمينة سر لاتحاد المساعدات الإنسانية للبوسنة والهرسك.

لقد أجبرني شعور المرارة على كتابة هذه الرسالة، ولقد شكلت رحلتي إلى البوسنة قناعة لدي بأن كروات البوسنة والهرسك الكاثوليك يقومون بمصادرة ما يحلو لهم من المساعدات الإنسانية المتوجهة إلى شعب البوسنة والهرسك، ومن ثم يقومون ببيعها في متاجر من أجل الحصول على العملة الصعبة. لقد شاهدت ذلك عبر رحلتي إلى البوسنة التي بدأت في ١٩٩٢/١٠/١٨ حيث توقفت الرحلة توقفاً إجبارياً بسبب إغلاق الحدود البوسنية، لذا فقد مكثت في سبليت حتى ١٩٩٢/١١/٤ حيث دخلت إلى أراضي البوسنة في ذلك اليوم. وسأذكر تفاصيل تتعلق بثلاثة أماكن كانت تجري فيها عمليات المصادرة على نطاق واسع ألا وهي توميسلاف غراد، وغروده، وكيسلياك.

استولى برانكو ماركوفتش على شاحنة للملابس كانت في عهدتي حيث إنني كنت أرافق القافلة شخصياً، ولكن بسبب إغلاق الحدود اضطررنا لإدخال شاحنة واحدة كل مرة من سبليت حتى إذا ما وصلنا .جيبتشه كان يتحتم عليّ أن أركض من مكتب إلى مكتب لمدة أسبوع محاولة إقناع المسؤولين من الحزب الكرواتي، والذين لم يعيروا مطالبي أي اهتمام، بضرورة استرجاع كل ما قد تمت سرقته منّي، حيث إنني فقدت ثلث كمية المساعدات التي كانت بعهدتي، ولقد شاهدت في المتجر الصوف الذي تمت سرقته مني (حوالي ١٠٠ كغم) وقد عُرض كله للبيع. وكانت صيدلية تساريتاس تقوم ببيع المساعدات الإنسانية مثل طعام الأطفال، أدوات نظافة شخصية، فمثلاً كانت تبيع فراشي الأسنان مقابل ٤ ماركات ألمانية للقطعة. ولقد قامت نساء مدينة بيرن (سويسرة) في تشرين ثاني ١٩٩٢ بجمع ١٠٠ طن من المساعدات وقمن بإرسالها مع أربع شاحنات محملة بملابس أطفال جديدة وأغذية، وأدوات نظافة شخصية. ولقد فُقِدتْ كل تلك الشحنة في مكان ما بين سبليت وترافنيك مما يعني أنها لم تصل إلى وجهتها المحددة أبداً. أما بالنسبة إلى الشحنات التي كانت تصل فكانت تبدو وكأنها قد تم نبشها من قبل حيوانات مفترسة مع بقاء قسم كبير من البضائع مفقوداً دائماً.

وعندما رأيت ما كان معروضاً للبيع في متاجر كيسلياك اعتقدت أنه كان من الأفضل لأوضاعي الصحية ألا أرى ذلك. ويوجد لدي شهود مستعدون للإدلاء بشهادتهم بأنهم رأوا قوات حزب الجمعية الكرواتية يقتادون أناساً من أصول عربية أو بوسنية مسلمة سجناء إلى ثكنات مجلس الدفاع الكرواتي في كيسيلياك، حيث تم تجريدهم هناك من كل شيء يحملونه معهم، بينما يلي ذلك تبرير السرقة بأنها حدثت من قبل عصابات. ولعله من الغريب أن تقوم تلك العصابات باقتياد ضحاياهم إلى ثكنات مجلس الدفاع. ولدى نقلنا لشحنة جديدة مؤخراً، تم إنزالها من الحافلة عنوةً على خط لو تسيرته – ترافنيك في ١٩٩٣/١/١٧ ما بين ميتكوفتش وموستار على الرغم من أن الإرسالية كانت مستوفية لجميع الأوراق والوثائق المطلوبة. ولقد كانت الإرسالية تحتوي على ١١٣ معطفاً نسائياً دافئاً، ٣١ سترة صوفية مبطّنة، ٦٥ بدلة رياضية، ٦ بدلات، معطف بيتي، وسترة خضراء أي حوالي سبع صناديق قدمتها شركة فورتونا السويسرية للتأمين. لقد كانت الإرسالية متجهة إلى عيادة إعادة

التأهيل في معامل الفولاذ في زينتشا. ولقد تم أيضاً مصادرة خمسة صناديق كبيرة من الصناديق التي كانت في عهدة السائق تحتوي على أدوية مختلفة، بالإضافة إلى صندوقين من البضائع الأخرى تبرّع بها عدد من الصيدليات السويسرية.

ولقد تم اعتراض إرسالية أخرى تنقلها شاحنة في غروده. وكانت تحتوي على عشرين صندوقاً من اللفافات الطبية وخمسة أنواع أدوية خاصة أرقامها التوثيقية هي ١٢٢٣/٩٢١١٣٠ ميدويسا و١٦/٨٠٠٥ أي في جي نيويهاوزن كانت مرسلة إلى المركز الصحي في لوكافاتس.

ولقد منعت حافلتان من موديل سنتروترانس من زينتسا من المضي قدماً في رحلتهما، ولم يسمح لهما بالتقدم أبعد من بوسوفاتشا وأُجبر الركاب على إكمال باقي الرحلة سيراً على الأقدام. لقد كان هذا مجرد واحد من أحداث عديدة متشابهة.

إنني أناشدك باسم الله الذي يؤمن به كلانا وباسم الكنيسة وباسم الشعب الذي نقاتل من أجله وباسم البلد الذي نحب ونتمنى أن يتحرر من كل تلك الفظائع أن تبذل كل ما هو في وسعك وضمن صلاحيات سلطتك أن تعمل على منع حدوث مثل هذه الأفعال الشريرة البشعة في المستقبل. أناشدك أن تعمل على تحرير شعبنا من هذه المشاكل وتلك القلاقل، لأنك تعرف أكثر مني أن الناس باتوا في الرمق الأخير. لا ينبغي أن تسمح لبعض الأفراد بالإثراء على حساب أولئك الذين يتعرضون لأخطار جسيمة في البوسنة والهرسك!

(ماريا فيرلنه– مارتيتش)

وعلى الرغم من أن المعتدي قام بقتل الصرب والكروات واليهود، والألبان والسلوفيين والروّم إلا أن أكبر عدد من الضحايا كان بين السكان المسلمين. لقد كان واضحاً أنه كانت هناك حرب إبادة عرقية ضد مسلمي البوسنة مما أثار صدمة لدى الرأي العام من الدول الإسلامية. ولقد بدا واضحاً أن العبارة البرّاقة "النظام العالمي الجديد" المشهورة حينذاك ما هي إلا مجرد نفاق؛ لأن النظام العالمي الجديد كان يعتمد سياسة الكيل بمكيالين منذ البداية.

فعلى الرغم من أن مسلمي البوسنة هم شعب أوروبي أصيل إلا أنه لم تُطبق عليهم نفس المعايير التي تطبقها على الشعوب الغربية، وبعد انهيار امبراطورية الاتحاد السوفييتي أعلنت بعض جمهورياته نفسها دولاً مستقلة، ولكنها لم تواجه المأساة التي واجهتها البوسنة بسبب إعلانها الاستقلال. فلم يكن التحالف العسكري الغربي ليسمح بإبادة النصارى. وأنا متأكد من أن هذا هو تفكير أي مسلم في العالم أيضاً. فماذا كان بالإمكان فعله؟ لقد كان الجواب هو اجتماع غير عادي لمنظمة المؤتمر الإسلامي في جدّه حيث عُقد في أوائل كانون الأول من عام ١٩٩٢.

غادرنا مطار سراييفو على متن طائرة تابعة لبرنامج مساعدات الأمم المتحدة. وجدنا طائرة أخرى في انتظارنا في زغرب وضعها تحت تصرّفنا الشيخ قاسم أمير الشارقة. والشيخ قاسم رجل طيب جداً على جانب عالٍ من التعليم والثقافة وصديق حميم للبوسنة. والشارقة هي إحدى إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة.

و هبطنا خلال توجهنا إلى جدة في تيرانا حيث انضم إلينا رئيسها آنذاك. صالح بيرشا. وبينما كنا نحلق فوق ألبانية دهشت من جمال وفقر ذلك البلد. مروج خضراء وتلال محاذية لشاطئ البحر تخللتها طرق ضيقة وملتوية. وهبطت الطائرة في مطار قديم مستهلك ومحاط بغرف اسمنتية محصنه- الكثير منها- حيث قام بإنشائها نظام حكم أنورخوجا. ولقد كان الرئيس صالح بيرشا الذي تلقى تعليمه كطبيب في أمريكا يدرك تماماً حالة الانهيار التي وصلت إليها بلاده الجميلة بسبب الشيوعية التي تبناها أنور. وعندما سألته عن الوضع الاقتصادي في ألبانية كان رده أن الوضع الاقتصادي يشبه ممراً وطِئَهُ الناس بكثرة إلى درجة أنه لا يمكن استصلاح أرضه ولا زراعة أي شيء فيه.

ولقد كان في استقبالنا في مطار جدة الدولي الأمير سلمان بن عبد العزيز، وهو رجل طويل يرتدي الزي العربي التقليدي. وأنفه معقوف كما هي أنوف الشعوب الساميّة. وصوته أجش. ولقد بدا عليه التواضع والسمو. ولقد خاطبني خلال فترة انتظارنا القصيرة في جناح الشخصيات الهامة قائلاً: "سيادة الرئيس لقد دعونا إلى عقد هذه الجلسة غير العادية كي نقوم معاً بكل ما يمكننا من أجل مساعدة شعبكم". نحن لن نقف مكتوفي الأيدي بينما يعاني المسلمون!!

لقد افتتح حاكم المملكة العربية السعودية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد المؤتمر في قصر المؤتمرات، وتحدث بطلاقة وجرأة. مؤكداً على العهود والمواثيق الدولية والواجبات الدينية لكل مسلم، وكل دولة عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي ومن ثم أبرز معاناة المسلمين في البوسنة.

وكما هي العادة الدبلوماسية القديمة فلقد كان هناك مساران للمؤتمر: وهما المسار الرسمي والمسار الذي وراء الكواليس. ولقد كانت الشخصيات المؤثرة في مسار المؤتمر هي كل من وزير الخارجية المصري عمرو موسى، ووزير الخارجية الباكستاني محمد ستّار ووزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي، وبالطبع الأمير سلمان. ولقد علمت أن الرئيس التركي تورغوت أوزال كان يتابع من أنقرة جلسات المؤتمر على الهواء مباشرة. ولقد تم تجهيز مسودة قرار في اليوم الأول ولكن كان البيان باهتاً وعاماً دون أن يحدد أية التزامات أو مواعيد نهائية، ولقد كان كل من سلادجتش وشاكر بيغوفتش يمشيان بعصبية داخل الغرفة وقد أصيبا بخيبة أمل من موقف ما يزيد عن مليار مسلم. وفجأة دق جرس الهاتف وكان على الطرف الآخر من الخط الوزير ولايتي.

وتم تعديل المسودة تعديلاً جذرياً في اليوم التالي. ولقد شعرنا بالرضا تجاه نتيجة التعديل، وتطلعنا إلى أن يتم تبني تلك المسودة. ولقد علمنا أن اللورد أوين وهو الوسيط الدولي للمحادثات حول البوسنة قد غادر المؤتمر غاضباً ومعترضاً على الصياغة الجديدة للبيان الختامي.

وفي القرار النهائي في البيان دعت الدول الإسلامية الأمم المتحدة إلى رفع حظر الأسلحة المفروض على البوسنة والهرسك. ونص على أنه إذا لم يتم رفع الحظر بحلول الأول من شباط من السنة القادمة فسوف تتوقف الدول الإسلامية عن الالتزام بهذا الحظر. ولقد أوصيت الصحفي الذي قام بتغطية المؤتمر أن يمتنع عن الإفراط في زيادة الأمل لدى شعبنا من خلال تقاريره في مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك. فكما كنت أعرف الوضع داخل البوسنة جيداً كنت أعرفه خارج البوسنة كذلك.

رتب المضيفون قبيل عودتنا زيارة إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة فارتدينا ملابس الإحرام ثم اتجهنا إلى مكة. إن أية أفكار مسبقة قد شكلها المرء عن الحرم الشريف والكعبة من خلال رؤيتها في الصور أو القراءة عنها تتبخر كلها عندما يراها المرء على أرض الواقع.

لمحت الكعبة من الشارع من بين غابة من الأعمدة. توجهنا بعدها إلى بئر زمزم، وهناك عرفني بعض الحجاج وبدؤوا يهتفون (بوسنة، هرسك) ثم صليت ركعتين ونظرت إلى جدار الكعبة الطويل ودعوت الله فقلت: "كان الله في عون شعبي في محنتهم، وبؤسهم وعزلتهم، حيث إنهم يعيشون بعيدين عن مركز دينهم (الكعبة)".

ومن ثم بدأنا بتطبيق المناسك متبعين تعليمات دليلنا العربي الذي قام بتفريق جميع الحجاج أمامنا لإفساح المجال أمام مجموعتنا لأداء المناسك. وهتف المسلمون الذين جاؤوا من جميع أنحاء المعمورة هتفوا باكين "بوسنة، بوسنة، اللهم ساعد إخواننا في البوسنة".

قفلنا عائدين إلى بلادنا في اليوم التالي. وعندما كان الأمير سلمان في وداعنا في مطار جدة اقترب مني وهمس في أذني:"فخامة الرئيس اسمح لي أن أخبرك

بأن آل غور قد اتصل بي قبل قدومنا إلى المطار، وأخبرني أن أميركا ستعيد النظر في موقفها من حظر الأسلحة المفروضة على البوسنة والهرسك.".

كان بيل كلينتون حينها حاكماً لولاية آركنسو وقد فاز للتو بانتخابات الرئاسة وكان يعد العدة لتولي قيادة أعظم قوة في العالم. وكان آل غور نائبه. ولقد خلصت إلى استنتاج مفاده أن الأمريكان كانوا يتابعون جلسات المؤتمر عن كثب، وأنه سيكون لذلك تأثير على مسار الأحداث في البوسنة والهرسك. ولقد كان هذا صحيحاً إلى حد ما.

واستطاع الصرب أن يعزلوا "غوراجده" تماماً في النصف الأول من حزيران (يونيو). وأصبح هناك خطر حقيقي إذا ما استطاعوا احتلال البلدة. ولم تكترث قوة الأمم المتحدة لكل ذلك البتة. وقامت قوات من الفيلق الأول بهجمات في منطقة إغمان، تريسكافيتسا وبيلاشنيتسا خلال ربيع وصيف عام ١٩٩٣ من أجل التخفيف من وطأة الحصار عن أولئك المدافعين عن غوراجده.

تزامن قتال القوات الصربية منذ نهاية نيسان (أبريل) ١٩٩٣ وحتى شباط (فبراير) ١٩٩٤ مع المعركة التي يخوضها الجيش البوسني ضد الجيش الكرواتي وقوات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية، كان عام ١٩٩٣ عاماً صعباً على البوسنة والبشناق، فلقد فتحت جبهة ثالثة مع التمرد الذي قاده فكرت عبديتش في منطقة كراينا منا يسمى منطقة الحكم الذاتي في غرب البوسنة بالإضافة إلى المعارك المتعددة في كاروشه من ١٩-١٩٩٣/٣/٢٢، والقتال على طول خط تيشانييه - ماغلاي من ٢٤-١٩٩٣/٥/٢٩ومعركة الدفاع عن أولوفو التي استمرت طوال خريف عام ١٩٩٣.

استمر النزاع مع الحزب الكرواتي لمدة سنة تقريباً. وبدأت هجمات حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية الواسعة النطاق بقصف مركز لقيادة الفيلق الرابع

للجيش البوسني في غربي موستار. وبدأ الهجوم صباح الأحد ١٩٩٣/٥/٩ والذي نفذته قوات ملادن توتا ناليتيلتش" وبالاشتراك مع قوات "يوكا برازينا" الذي كان قد فرّ من الجيش البوسني مؤخراً. وعلى الرغم من المقاومة العنيفة تمكنت قوات العدو من احتلال مقر القيادة عصر ذلك اليوم. وحاول المدافعون عن المبنى الفرار، ولكن تم أسرهم وإرسالهم إلى معسكرات ولم يعرف حتى يومنا هذا أي شيء عن مصير الاثني عشر مقاتلاً الذين استسلموا لقوات الحزب الكرواتي. وعلى الرغم من هذا الفشل في بادئ الأمر إلا أنه كان بداية للدفاع البطولي عن مدينة موستار بقيادة عمدة المدينة صفوت إيزوفتش.

وجهت رسالة إلى مواطني جمهورية البوسنة والهرسك فيما يتعلق بالعدوان الكرواتي، وكان نص الرسالة كالآتي:

"أيها المواطنون الأعزاء، أتحدث إليكم بصفتي مواطناً في هذا البلد الذي عانى طويلاً ومتوجهاً إليكم كشعب، وكأفراد بأسمائهم الكاملة ومؤمناً بمعنى العدالة كسمة مميزة للشعوب العادية.

لقد تم توقيع اتفاقية وقف الاعتداءات ما بين جيش البوسنة والهرسك وقوات مجلس الدفاع الكرواتي في الهرسك ووسط البوسنة بموجب ذلك فلقد كان يجب أن يتوقف القتال، وأن ينسحب الجيشان ويعودان إلى ثكناتهما، وأن يعود السجناء المدنيون إلى منازلهم، وكما تعرفون فإن كل ذلك يحدث بشكل بطيء ومؤلم جداً. ولهذا أتحدث إليكم اليوم. فبينما نحن نحاول أن نخمد نار الحرب فإننا نتساءل في نفس الوقت بقلق وأمل عما يخبئه لنا المستقبل. هل يخبئ لنا تهدئة التوتر أم جولة أخرى من الشر. لذلك لا بد من طرح بعض التساؤلات التي لا يمكن تحاشيها:

- من العقل المدبر الذي ينجح في تسميم العلاقات بين شعبين صديقين؟

- أليس هناك شخص ما يحاول بناء "دويلته" على أنقاض مأساتنا المشتركة".

- ما الدافع وراء كل هذا الرعب خاصة أن من الواضح أن المسلمين لم يتسببوا

أو يثيروا أية مشكلة واجهت الكروات في البوسنة والهرسك سواء الآن أو في الماضي، وخلال وقت تعايشنا التاريخي الطويل؟

– لم يسبق أن قام المسلمون باغتصاب أو اقتطاع أرض كرواتية، ولم يعمدوا أبداً إلى تدنيس ما هو مقدس لدى الكروات، ولم يحملوا أية مشاعر كراهية تجاه الكروات، ولا العكس كذلك، لذا فمن أين نبع كل هذا الشر؟ حاولوا أن تجيبوا عن هذه الأسئلة بأمانة وإنصاف.

إن سلوككم المتزن وغير المنحاز سوف يساهم في وضع حد لهذه الحوادث المؤسفة. اطلبوا إلى قادتكم أن يقوموا بمناقشة هذه النزاعات والتي تم ترتيبها لحساب طرف ثالث، وأن يقوموا بذلك الحوار والمناقشة بسلام مثلهم مثل أي شعب متحضر. ناشدوا قادتكم أن يحترموا ما تم توقيعه، وأن يقولوا الحقيقة، وأن يدينوا الشر.

فلن يغفر التاريخ لأي شخص فلن يصدر التاريخ عفواً عن الجرائم التي ارتكبت. سوف يقوم الناس بإيقاع العقوبة، وسوف يكلل التاريخ بالخزي والعار كل من ارتكب تلك الجرائم، وخاصة أولئك الذين صمموها وقاموا بإصدار الأوامر بارتكابها".

ولقد أجبرت قوات مجلس الدفاع الكرواتي السلطات المدنية في جيبتشه على مغادرة البلدة وذلك ما بين ٢٤-١٩٩٣/٦/٣٠. وتم أسر عدد كبير من المدنيين ومن أعضاء قوة الدفاع عن المناطق في البوسنة والهرسك.

وبينما كانت الأحداث تتسارع في جيبتشه تلقيت في الخامس والعشرين من حزيران رسالة تودجمان والتي اتهم فيها الجيش البوسني بالتسبب بالقتال وطرد الكروات من منطقة وسط البوسنة. واقترحت أن نترك الأمر لمحققين مستقلين من أجل كشف الحقيقة، وإننا ندعو مراقبي الاتحاد الأوروبي وقوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة كي يكشفوا حقيقة ما جرى:

"لقد تلقت رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك رسالتك في الخامس والعشرين من حزيران وقامت بدراستها.

نشاطرك قلقك حيال الوضع المأساوي في وسط البوسنة، وندين كل الجرائم التي ترتكب بحق السكان المدنيين بغض النظر عن هوية مرتكبي تلك الجرائم.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الأحداث المؤسفة هي نتيجة لسياسة محاولة تدمير البوسنة والهرسك، والتي يترتب عليها مخاطر عدة، حاولنا لفت الأنظار إليها منذ شهرين. إن الاعتراض المستمر لقوافل الغذاء المرسل إلى السكان الجائعين، وتدفق كل ما يساند وسائل تنظيم مؤسسات موازية لمؤسسات الدولة في المناطق التي يسيطر عليها مجلس الدفاع الكرواتي والدفاع عنها قد أدت إلى إراقة الدماء بين الكروات والمسلمين، وتعمل على إطالة أمد الحرب أيضاً.

إن التطهير العرقي في بروزور والفظائع في أهمتشي والهجوم على موستار والتي تضمنت وسائل دب الرعب في النفوس والتدمير المتعمد للمساجد الثلاثة الباقية في بالينوفاتس، وبييساك وبودهوم، كل ذلك كان مخططاً له، بدأه ونفذه مجلس الدفاع الكرواتي. وبما أن جيش البوسنة والهرسك لم يرد بالمثل فيما يخص التطهير العرقي في موستار، وتشاملينا وستولاتس فلقد خطط مجلس الدفاع الكرواتي إلى نقل السكان الكروات من وسط البوسنة. لقد كان الهدف وراء ذلك هو إثبات أن العيش المشترك مستحيل، وأن التقسيم العرقي للبوسنة هو أمر لا بد منه.

إننا لا ننكر أن بعضاً من وحدات الجيش البوسني قد ارتكبت أعمال عنف وتصرفات غير قانونية، ولكننا ندين هذه الأعمال ولقد فتحنا تحقيقاً بها، إن سياستنا لا تهدف إلى تهجير الكروات أو أي شعب آخر من منازلهم، فنحن مازلنا نتمسك بمبدأ العيش المشترك لشعوب المنطقة، وكذلك فإن ما يسمى "بإعادة التوطين الإنساني" هو إجراء غير إنساني بالنسبة إلينا.

وبالنظر إلى الخلافات والمعلومات المتضاربة حول سياسة ومرتكبي النزاع والتي تحدثت عنها رسالتك فإننا طلبنا من مراقبي الاتحاد الأوروبي وممثلي قوة الأمم المتحدة أن يقدموا لنا تقريراً بما وجدوه من حقائق في هذا الشأن. ونقترح عليكم أن تقوموا بطلب مثل تلك التقارير أيضاً، ونحن نتفق معكم أن أصحاب الرأي العام في بلدينا وفي الخارج يجب أن يتم إخبارهم بنتائج تلك التقارير المحايدة.

وكذلك فإننا نقترح اجتماعاً عاجلاً لممثلي حكومتينا من أجل إيجاد طريقة لإنهاء النزاع والقضاء على أسبابه وحل جميع القضايا العالقة.

إن رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك تعبر عن استعدادها مرة أخرى لتطوير علاقات صداقة وتعاون ما بين جمهورية البوسنة والهرسك وجمهورية كرواتية على أساس من المساواة وفي إطار الاتفاقيات التي تم توقيعها من كلا البلدين".

ولم يرد تودجمان على هذه الرسالة.

لقد تعرضت ترافنيك للهجوم في النصف الأول من حزيران عام ١٩٩٣ ولكن نجحت القوات في الدفاع عنها وبقيت حرة حتى نهاية الحرب، ولقد كان ذلك ذا أهميةخاصة بالنسبة إلى خط دفاع وسط البوسنة.

وخلال مواجهات استمرت من ١٧-٢٨ تموز/ يوليو من عام ١٩٩٣ مع مجلس الدفاع الكرواتي، دافع جيش البوسنة والهرسك بنجاح عن بوغونو حيث كانت تلك خطوة مهمة في قطع الطريق على الثوار الكروات من تحويل حلمهم بخلق دولة كرواتية داخل البوسنة إلى حقيقة واقعة.

شن الصرب هجوماً قوياً مع نهاية تموز عام ١٩٩٣ كان الهدف منه أحكام تطويق كل سراييفو. ولقد كان ذلك الهجوم جزءاً من خطة أكبر. ولقد استولوا في ٧/٢٧ على غربياك فتمكنوا بذلك من عزل غوراجده تماماً وفصلها عن باقي البوسنة. وفي ٧/١٢ استولوا عى روغوي وبدؤوا بالزحف نحو إغمان. واستمر السباق مع الوقت حيث إننا كنا نقوم وبنفس الوقت بحفر النفق تحت مطار سراييفو بحيث يصبح مخرجاً من المدينة.

إن نفق سراييفو هو عبارة عن ممر متعرج تحت الأرض بطول حوالي ٧٠٠ متر ويمر من تحت مدارج المطار ولقد استغرق حفره حوالي خمسة أشهر في النصف الأول من عام ١٩٩٣.

وليس في تاريخ البلاد شيء يدعو للشفقة أكثر من بناء أو حفر ذلك النفق الذي لعب دوراً هاماً في حياة المدينة.

إذ يقدر بنحو مئة ألف طن من السلاح، والذخيرة، والأغذية والدواء، ما دخل إلى سراييفو المحاصرة عبر هذا النفق وطوال فترة ثلاثين شهراً خلال الحرب. ولقد أصبح النفق منذ نهاية عام ١٩٩٤ موصلاً لحوالي ١٠-١٥ ميغاوات من الطاقة الكهربائية التي تم توليدها في محطة الطاقة على نهر النرتفا حيث كان ذلك كافياً لسد احتياجات سراييفو الأساسية من الكهرباء ولقد تم نصب خطوط التوصيل المعلقة على جبل إغمان ورُكِّب الكيبل الذي وُضع في النفق، تحت ظروف صعبة في آخر ثلاثة أشهر من عام،١٩٩٤ الذي مزقته الحرب. ولقد عُرف ذلك المشروع بالاسم السّري (إس -٣٥).

ولقد كان مخرج النفق إلى الجنوب الغربي في قطاع ضيق من الأراضي تحت حماية اللواء الرابع بقيادة الجنرال فكرت بريفلياك والذي نجح في الدفاع عن تلك المساحة الضيقة طيلة أيام الحرب. ولقد تم توسيع تلك المنطقة فيما بعد باتجاه جبل إغمان، وكونيتس ومن ثم باتجاه منطقة الهرسك والعالم الخارجي.

ولقد تولى الدفاع عن منطقة إغمان- بيلاشتيسا كلٌّ من الفوج الحادي والثمانين والثاني والثمانين الجبليين. وأجزاء من اللواء (الآلي) الثامن. ولقد كانت القوات المدافعة عبارة عن مزيج غير متجانس، حيث إنها ضمت بالإضافة إلى ذلك وحدات ذو الفقار وسيلفروفوكس (الثعلب الفضي) الخاصة. وكانت هناك مشاكل متعلقة بقيادة تلك القوات كإصدار الأوامر لها نظراً لأن بعض تلك الوحدات لم تعترف بسلطة (مجموعة إغمان العاملة) والتي كان من المفترض أن تكون هي المظلة لكل العمليات العسكرية في تلك المنطقة الواسعة ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى من أجل الحماية والدفاع عن سراييفو. ومما جعل الأمور تسوء هو تنحية ثلاثة من قادة مجموعة إغمان العاملة خلال ثلاثة الشهور التي سبقت الهجوم الصربي على المنطقة.

وهكذا وجد العدو نقطة ضعفنا فقام بشنّ الهجوم. وسقطت ترنوفو في ١٤/١٣ تموز واستطاعت قوات العدو تحقيق اختراق باتجاه هضبة إغمان في ٨/١. وتراجعت قواتنا على إثر ذلك في حالة فوضى وغادر حوالي أربعة إلى خمسة آلاف لاجئ منازلهم في ترنوفو، وديتتش، وروغوي، وأماكن أخرى، حيث كانوا ينامون هنا وهناك بين أشجار الغابات. لقد كان هناك خطرٌ حقيقي في أن يتم عزل سراييفو كلياً. وفي خضم تلك الأحداث والظروف توجب عليّ أن أذهب إلى جنيف من أجل محادثات يقودها اللورد أوين بالنيابة عن الاتحاد الأوروبي. ولقد سألني كمال موفتيتش من وكالة أنباء البوسنة والهرسك مايلي: "ما توقعاتكم وأنتم تسافرون إلى الخارج من أجل الحصول على معاملة عادلة ومنصفة للبوسنة؟" وكان ردي هو أشعر أنني كرجل ظمآن ينطلق في الصحراء بحثاً عن الماء.

ولقد ادّعى راتكو ملادتش متفاخراً أن جيشه "يسيطر أخيراً". على "طريق الله" كما قال لخوان غويتيسولو خلال عملية الهجوم على إغمان. فلقد كانت دعاية الصرب المضادة تنعتنا بأننا مليشيا إسلامية تحاول تأسيس "خلافة في البلقان" بمساعدة تركية، فيما قدّم التشتنيك أنفسهم على أنهم هم حُماة أوربة من الخطر الإسلامي. ولقد كان ذلك هراء بالطبع. وكان ملاديتش مخطئاً في قضية أخرى أيضاً: لقد بقيت "طريق الله" تحت سيطرتنا!

ولدى عبوري منطقة إغمان قمت بشيء غالباً ما يتم اعتباره بالمنطق والأعراف العسكرية غير اعتيادي. لقد وجهت نداءً عبر المذياع إلى اللوائين المسلم السابع وكراﭘينا السابع عشر كي يهبّوا لنجدة ومساعدة القوات على جبل إغمان والتي كانت تواجه مأزقاً كبيراً على مرتفعات إغمان. ولقد صُدم قادة تلك الوحدات من هذا النداء العلني، ولكنهم قاموا بإصدار الأوامر اللازمة فأُرسلت أجزاء من اللوائين إلى إغمان وقامت بمساعدة القوات الأخرى هناك لوقف الاختراق الصربي.

ونجحنا في الدفاع عن الطريق الحرجي الاستراتيجي على جبل إغمان واستطعنا الاحتفاظ بها طوال أيام الحرب على الرغم من أن خنادق التشتنيك كانت على بعد ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر فقط في بعض الأماكن. وكانت الطريق نفسها بالإضافة إلى أي مركبة تسير عليها أهدافاً للهجوم عليها.

وصف ريتشارد هولبروك طريق إغمان، الطريق التي تضم حطام مركبات انزلقت في المنحدر أو دمّرها الصرب، بأنها شوهت منظر المنحدرات والأودية الشديدة الانحدار المجاورة: "لقد كانت كل اتصالاتنا من سراييفو مع الخارج تتم عبر هذا الطريق بالإضافة إلى المطار الذي كنا نستخدمه بمساعدة من قوة الأمم المتحدة والذي غالباً ما كان يتم إغلاقه بسبب تجدد الاشتباكات".

كان هناك ظرف آخر أتاح لنا فرصة الاحتفاظ بمواقعنا في إغمان كما سيكون واضحاً فيما يتبع من فقرات هذا الكتاب. حيث نجحنا في خداع كارادجتش عبر خدعة عسكرية وديبلوماسية مُحكمة. كانت فكرة الموضوع بسيطة وناجحة جداً كما سنرى. حرصنا على أن نتصرف بحضور اللورد أوين كما لو أننا مستعدون لاستئناف المحادثات لحين قبول خطة السلام التي اقترحها. ولكننا قلنا: إننا لا نستطيع ولن نستطيع استئناف المحادثات مادام هجوم التشتنيك على جبل إغمان مستمراً. ولم نكن كاذبين، ولكننا ببساطة جعلنا اللورد أوين يفهم من كلامنا ما أراد أن يفهم هو لا ما عنيناه.

ففي واقع الأمر لم تكن خطته التي وضعها بالتعاون مع شتولتنبرغ مقبولة لنا بأي شكل من الأشكال.

ولقد أخبرنا اللورد أوين الذي هو دبلوماسي بريطاني متمّرس وعنيد ووزير خارجية سابق في حكومة حزب العمال في أعوام ١٩٧٦-١٩٧٧ و١٩٧٨-١٩٧٩ أن الهجوم سيتوقف حال توقيع الاتفاق. ولم يكن هذا هو مرادنا البتة بل طالبنا بوقف الهجوم، وانسحاب قوات العدو إلى مواقعها قبل أن نوافق على

بدء المحادثات. ولقد كنا نأتي في كل يوم إلى مبنى الأمم المتحدة حيث عقـدت تلك المحادثات غير المجدية والتي تبعث على الخمول الذهني لنعلن أن الهجـوم لم يتوقف بعد، وأننا لن نفاوض في مثل هـذا الظـرف. ومـن ثـم كنـا نعـود إلى الفندق الذي كنا ننزل فيه، ونعيد الكرّة في اليوم التالي، واستمرَّ ذلك لعدة أيام، وقام اللورد أوين مدفوعاً باليأس وظناً منه أنه أصبـح يملـك مفـاتيح السـلام بـل والحصول على جائزة نوبل للسلام قام بإقناع كارادجتش بـأن يوقـف الهجـوم، وأظن أنه قد يكون قال لكـارادجتش شيئاً مثـل: "أنـت لسـت بحاجـة إلى هـذا الهجوم". فسوف تحصل على السلام وإعادة رسم خارطة البوسنة كمـا أردت. إن المسـلمين علـى استعداد لتوقيـع الاتفـاق إذا مـا قمـت بسـحب قواتـك إلى مراكزهم السابقة".

كانت خطة أوين موافقة لرغبات كرادجتش بقدر ما كانت مغايرة لتطلعاتنا نحن. ونصت الخطة والتي عرفت باسم خطة أوين وشتولتنبرغ يسبب مشـاركة وزير الخارجية النرويجي السـابق ثورفـالد شـتولتنبرغ علـى أن يتـم إنشـاء اتحـاد البوسـنة والهرسـك الـذي يضـم ثـلاث جمهوريـات احداهمـا صربيّـة، والأخرى كرواتية والثالثة بشناقية مع إعطاء حق كل جمهوريـة بالانفصـال عـن الاتحاد.

ونجح أوين في إقناع كارادجتش مدعوماً بالإعلان عن القيام بتوجيه ضربات جوية ضد القوات الصربية في منطقـة جبـل إغمـان. ومـن ثـم نجـح كرادجتش بدوره بإقناع الجنرال ملاديتش بأن يوقف الهجوم، وأن يقوم فوق ذلك بسحب قواته إلى مواقعها التي كانت فيها قبل بدء المحادثات. ولكن ملاديتش لم يسـلّم بسهولة: فلقد وافق على الانسحاب، ولكـن شـريطة أن تتمركـز قـوات للأمـم المتحدة وليس قواتنا نحن في المناطق التي سيقوم بالانسـحاب منهـا، ولقـد أدى ذلك إلى إنشاء منطقـة إغمـان المنزوعـة السـلاح (الـ دي زي) الشـهيرة والتـي

استمرت كذلك حتى نهاية الحرب. و أعطى ملاديتش أوامره، بأن يتم تدمير كل منشأة سياحية وفندق في ذلك المنتجع السياحي الأولومبي خلال الانسحاب.

وكانت الاتفاقية التي نصّت على انسحاب قوات ملاديفتش من المناطق التي استولوا عليها والتي توسطت فيها قوة الأمم المتحدة على مضض اتفاقية مبهمة نوعاً ما، ولكن كان هناك شيء واحد شديد الوضوح:

كان على ملاديفتش أن يتخلى عن الأراضي التي احتلها في إغمان، ويمكن رؤية ذلك من خلال المقابلة التي أجرتها معي صحفية أخبار المساء (فيتشيرنيه نوفينه):

- الصحيفة: إن نص الاتفاقية المتعلقة بجعل المناطق غير عسكرية وانسحاب الصرب إلى مواقعهم السابقة والتي تم توقيعها في آب ١٩٩٣ كان مختصراً وغير واضح. وتتم في هذه اللحظة عملية انسحاب بعض قواتنا من مواقعهم حول سراييفو، ووعد الجنرال روز كارادجتش في باله مؤخراً بأنه سيقوم بإحلال قواته مكان قواتنا عندما يتأكد أنه قد تم توقيع الاتفاقية. إلى أي مدى تشكل هذه الاتفاقية عائقاً أمام أي عمل يريد جيشنا القيام به من أجل رفع الحصار عن سراييفو؟

- عزت بيغوفتش: نعم إن الاتفاقية كانت مختصرة، ولم تكن نموذجاً للدقة، إن مالم تصرّح به الاتفاقية هو ماتم حذفه عمداً أو حُكماً بالأخذ بعين الاعتبار الظروف التي تمت صياغة تلك الاتفاقية خلالها. ومع ذلك فإن الالتزامات المترتبة بموجبها واضحة. إنها تنص على أن يقوم جيش ملاديتش بالانسحاب من إغمان إلى خط ما قبل ١٩٩٣/٧/٣٠، وأما بالنسبة إلى جيشنا فإن كل ما نصت عليه الاتفاقية أنه سيبقى في مواقعة الحالية، وأنه لن يتحرك قدماً ليستعيد المنطقة التي ستنسحب منها قوات ملاديتش. فهذان النصان واضحان، وهذا يعني أن الجنرال روز لا يستطيع وضع قواته مكان قواتنا خارج المنطقة التي حددتها الاتفاقية بشكل واضح. ولقد ألحق بالاتفاقية خارطة تبين خطوط المواجهة في ١٩٩٣/٧/٣٠ و١٩٩٣/٨/١٤.

كان هذا تصرفاً متوقّعاً من الجنرال روز والعديد من الضباط البريطانيين والفرنسيين الآخرين في محاولة لمنع قوات ملاديتش من الانسحاب، معلّلين ذلك بأن الانسحاب لم يكن ضرورياً، وأن تمركزهم على جبل إغمان لم يكن ذا أهمية عسكرية كبيرة. ولكن ما انتصر في نهاية المطاف كان إصرارنا وعنادنا بعدم التفاوض.

توقع اللورد أوين أن تصل المحادثات إلىنتيجة، وأن يتم تبنيّ خطته مع اكتمال انسحاب قوات ملاديتش. ولكنه أُصيب بالذعر عندما أعلنّا أننا يجب أن نعود إلىسراييفو لإجراء مزيد من المشاورات، وأننا يجب أن نحصل على موافقة البرلمان البوسني على خطة السلام تلك.

انعقدت الدورة الثانية للجمعية العمومية البشناقية قبيل انعقاد جلسة البرلمان حيث حضرها ممثلون عن الشعب البشناقي من جميع أنحاء العالم. وجاءت بعض الوفود من مناطق محتلة مثل يوسانسكا كراينا، وجيوب بودرسته مثل سيربرينيتسا وجيبا وغوراجده حيث جاؤوا بحماية قوة الأمم المتحدة. وصوت كل من الجمعية العمومية والبرلمان على خطة أوين- شتلو لتنبرغ التي تنص على "أننا نوافق على الخطة ولكن.." إن هذه "اللكن" كانت تعني طبعاً رفض الخطة نظراً لأننا اشترطنا لقبول الخطة أن يتم ضم جميع بلديات المناطق ذات الأغلبية المسلمة وفق إحصاء السكان لعام ١٩٩١ إلىالجمهورية البشناقية المقدمة.

ولقد كان الوضع العسكري والمعنوي الذي يمكن قراءته من خلال هذا الشرط المعقول وجدير بجعل الصرب يرفضون ذلك الشرط. وهو ما كنا متأكدين منه تماماً.

ولقد عرفت فيما بعد عن المصادمة التي جرت بين ملاديتش وكارادجتش بسبب موافقة الأخير على الانسحاب من إغمان. ولم يسامح ملاديتش كارادجتش على ذلك أبداً، بل اتهمه بأنه مذنب، وأنه قد تخلى عن نصر

عسكري كان سيؤدي إلىخنق سراييفو، ومن ثم إلى هزيمة المسلمين. لقد كان ملاديتش محقاً في ذلك بينما أخطأ كارادجتش لحسن الحظ.

صعّد الصرب من ضغطهم على الجيوب الأخرى خلال الحملة على إغمان في تموز وآب ١٩٩٣ إذ كانوا يقصفونها بشكل يومي معيقين وصول قوافل المعونات الغذائية. كان كل ذلك يجري بينما محادثات السلام تجري في جنيف. وبعثت برسالة في التاسع من آب إلىالرئيس الأمريكي مطالباً بتوجيه ضربات جوية ضد قوات كارادجتش. وارتكزت في طلبي إلىالمادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة والتي تتعلق بحق الدفاع عن النفس والمادة (١) من معاهدة منع ومعاقبة جريمة الإبادة العرقية، لعام ١٩٤٨ والولايات المتحدة الأمريكية أحد الموقعين عليها.

وجاء رد الرئيس الأمريكي مؤرخاً بـ ١٩٩٣/٨/١٣ على نحو مبهم. ولكن الحق أن الرئيس بيل كلينتون قد أعرب عن عزمه في وضع حد لحصار سراييفو (وهذا ما حصل بعد عامين)، وأنه يشجّع قرار حلف الناتو باستخدام الضربات الجوية ضد من لا يلتزم بالشروط التي أقرّتها محادثات السلام، وإن كانت ما زالت مستمرة (والتي هي أيضاً لم تنته إلا بعد عامين أيضاً). واختتم رسالته بالكلمات التالية:

"إن الأمين العام وأعضاء حلف الناتو بمن فيهم الولايات المتحدة، يراقبون الوضع عن كثب من أجل تحديد موعد بداية الضربات الجوية إذا ما كان هناك ضربات جوية أصلاً. ونحن نتفق معكم أن تهديداً حقيقياً بتوجيه ضربات أو القيام بتوجيه تلك الضربات فعلاً إذا ما دعت الحاجة سوف يساهم بشكل إيجابي في محادثات جنيف. ومع ذلك يبقى الوصول إلى تسوية عبر المفاوضات هو الهدف الرئيس لكل ما نقوم به نظراً لقناعتنا بأن التوصل إلىتلك التسوية هو الحل الوحيد لمأساة البوسنة. وسوف تستمر الولايات المتحدة بالعمل معكم من أجل تحقيق تلك الغاية".

وعلى صعيد آخر لم تتوقف هجمات مجلس الدفاع الكرواتي، بل إنها أصبحت أكثر وحشية، ولم تثمر كل تلك المحاولات التي بذلناها من أجل تأمين إطلاق سرح المدنيين الذين يعانون من معسكرات الاعتقال. ولذا فقد قررت إبلاغ مجلس الأمن في الأمم المتحدة بذلك كله.



الرسالة الموجهّة إلى مجلس الأمن

١٩ آب (أغسطس)، ١٩٩٣

السادة الأعزاء،

أكتب إليكم كي أعلمكم بأن قوات مجلس الدفاع الكرواتي قد تعدّت على الحقوق القومية والإنسانية لشعب البوسنة المسلم وصلت مستوى يجعلها كارثة إنسانية حقيقية.

حيث تم طرد عشرات الالاف من السكان من منازلهم ومناطقهم عنوةً من أجل خلق مقاطعات يكون فيها العرق الكرواتي فقط.

وتم اعتقال الرجال من سن ١٥ إلى ٧٠ حيث يتعرضون إلى أسوأ معاملة، ويتم تصفيتهم بشكل انتقائي. لقد تم اعتقال زياد ديميروفتش. رئيس فرع حزب العمل الديموقراطي في الهرسك، مع جميع أفراد عائلته في موستار في بداية حزيران، ولم يظهر لهم أي أثر حتى الآن. أما رئيس فرع الحزب في تسايلنيا، المهندس بوشكايلو، فقتل بدم بارد خارج منزله وأمام عائلته وجيرانه. ويتم اعتقال الرجال في معسكرات اعتقال مؤقتة في المواقع التالية:

– المدينة	موقع السجن هناك
– موستار	الهيليوم دروم، ومبنى الجامعة
– تشابلينا	درتيتليه، وثكنات ثكرابوفينا والمستودع العسكري في غابيلا، ومزرعة المساشيه في تشيليفو

- ستولاتس الثكنات العسكرية، مستودع التبغ ومدرسة تسريتشي، مستودع التبغ ومدرسة تسرثيتشي، ومعامل الفولاذ.

- فينينا المزرعة الجماعية السابقة

- ليو بو شكي سجن أوتوتسا

- بيردزور الملجأ النووي، (أونيس)، مركز المدرسة الثانوية، ومحطة المطافئ.

تم إحراق كل بيت مسلم في قرى غوبافيتسا، وبيقوليه بردو، وهاسيتشا غلافيتسا، وستانوبيفيتشي، وبيستسي وشيفاش-بولييه، وشكاليفينا، ولوكفه، وضواحي موسنار. وتم نسف وتدمير المساجد غربي موستار وفي قرى فيتشتشي ودوبرافه، ولقد أجبر مجلس الدفاع الكرواتي ممثلي قوة الأمم المتحدة، وهيئة الإغاثة، والصليب الأحمر والصحفيين- الذين هم جميعاً شاهدون على التعذيب والتهجير القسري، على مغادرة موستار. ويسمح للمسلمين بمغادرة منطقة الهرسك شريطة أن يقوموا بالتوقيع على إفادة تنص على أنهم يتخلون طوعاً عن كل ممتلكاتهم. وتم إصدار ٨٠٠٠ إذن مغادرة من هذا القبيل في مدينة موستار وحدها.

وكانت هناك عمليات تطهير عرقي ضد المسلمين في كل من ستولاس، وتاسوفتشيتشي، وتشابليتا، ليوبوشكي، فيشتشي، وتشيلييفو، ومناطق بالينوفاتس وديجكوفينا السكنية في موستار والأحياء حول كتدرائية موستار، ومباني الشرطة، ووزارة الداخلية، وقد تم تجميع أولئك الذين أُجبروا على مغادرة مناطقهم ومعظمهم من النساء والأطفال في مناطق شرقي موستار، ويلاناي، ويوتشيتلسكو بولييه، حيث تُركوا هناك دون طعام، ولا ماء، ولا دواء، ولا كهرباء.

ونحن نطالب مجلس الأمن بمايلي:

١- إرسال ممثلين عن منظمة الإغاثة وقوة المراقبة إلى موستار فوراً، وكذلك إلىالأماكن الأخرى التي تواجه نفس المشكلة حتى يتمكنوا من رؤية الحقائق على أرض الواقع، وإعداد تقرير بذلك إلى مجلس الأمن وإطلاع الرأي العام العالمي عليه.

٢- تمكين منظمة الإغاثة من التوصيل الطارئ والعاجل للمساعدات الإنسانية للسكان النازحين في شرق موستار ومعسكرات الاعتقال في منطقة الهرسك.

٣- توجيه الأمر إلى مجلس الدفاع الكرواتي بأن يقوم بإطلاق سراح جميع المدنيين، وأن يقوموا بمعاملة العسكريين كأسرى حرب بما يتوافق والمعاهدات الدولية.

ونكرر مطلبنا بأن يتم إعلان مدينة موستار منطقة محمية.

ولسوء الحظ فإنني يجب أن أنوّه بأن مسؤولية المأساة في البوسنة تقع على كاهل المجتمع الدولي كما تقع على كاهل الجيشين المتحاربين، إن المجتمع الدولي هو الذي فرض حظراً لاستيراد الأسلحة على هذا الشعب مما قيّد يديه وحرمه من حقه المشروع في الدفاع عن نفسه والذي يضمنه له ميثاق الأمم المتحدة.

أيها السادة،

إنني أدعوكم هذه المرة أن تمنحوا للشعب الذي لا يسمح له الدفاع عن نفسه حق البقاء على قيد الحياة على الأقل.

ولم يصدر رد فعل من المجلس سوى الإدانة الكلامية، وكان بوسع كل مراقب محايد أن يحكم بأنها أزمة قد تركت البوسنة لتواجه مصيرها وحدها، وكتب نويل مالكولم الذي كان يؤلف حينها كتابه (البوسنة: تاريخ موجز) يقول:

"سوف يتذكر الجميع عامي ١٩٩٢ و١٩٩٣ كسنوات تم فيها تدمير بلد أوروبي. لقد كانت أرضاً ذات تاريخ سياسي وثقافي مغاير عمّا كان عليه الوضع في أي بلد آخر في أوربة. فلقد تقاطعت هذه الديانات الكبرى والقوى العظمى في التاريخ الأوروبي، فلقد شملت كل من الامبراطورية الرومانية، وإمبراطورية شارلمان، والعثمانيين، وإمبراطورية النمسا وهنغارية (المجر) والمذاهب النصرانية الغربية والشرقية وديانتي اليهودية والإسلام."

وقام جنود مجلس الدفاع الكرواتي في ساعات الصباح الباكر من يوم السادس عشر من نيسان عام ١٩٩٣ بغزو قرية أجمتشي قرب فيتتيز حين

ارتكبوا فظائع هزت العالم. لقد تم قتل وذبح أكثر من مئة مدنيّ بينهم الكثير من النساء والأطفال. ويَمْثلُ الآن مرتكبو هذه المجزرة أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي.

ومع ذلك لا يوجد هنا شيء اسمه "حرب نظيفة" أو "جيش بريء" فكل الحروب هي حروب قذرة إلىحد ما. وعلى الرغم من أننا لم نألُ جهداً في تذكير جنودنا في الحفاظ على قوانين الحرب، وأن يسيطروا على تصرفاتهم، فإنه كان هناك أخبار تصلنا عن وجود أشياء حدثت ليس كما ينبغي لها أن تحدث.

ولقد تلقيت رد رسالة في الأول من آب من الرئيسين المشتركين لمؤتمر جنيف وهما أوين وشتوليتنبرغ. تتعلق بالفظائع التي ارتكبها الجيش البوسني في قرية دولياني. ولقد وجه هذه الاتهامات الجانب الكرواتي. وثم اتصلت بالجنرال ديلتش بالهاتف وطلبت معلومات كما كان قد حصل وقمت بتوجيه رسالة له في الثامن من آب والتي كان نصّها كما يلي:

"لقد طلبت منكم عبر الهاتف قبل أيام عدة أن يتم التحقيق في اتهامات لنا من قبل مجلس الدفاع الكرواتي بأن إحدى وحدات جيشنا قامت بذبح عدد من المدنيين الكروات في قرية دولياني قرب يابلانتيسا.

ولم أتلق حتى الساعة أي تقرير بهذا الخصوص ولذا فإني أطلب منك أن تعلمني بنتائج التحقيقات ونشرها للعلن.

وأرجو أن لا تفوّت أية فرصة لتذكير جنودنا بواجبهم باحترام قوانين الحرب. ولا تتردد في معاقبة المتجاوزين معاقبة شديدة. وأن تخبر الرأي العام بذلك. فلا يوجدلدينا ما نخسره إذا ما قمت بذلك".

وبعد أيام أخبرني الجنرال ديلتش أنه لا يوجد مؤشرات البتّه على تورُّط الجيش البوسني في ارتكاب أية فظائع في دولياني. وأرسلت نسخة من رد ديلتش إلى أوين وشتولنيزرغ حيث اقترحت تحقيقاً دولياً.

"السادة الأعزاء لقد طلبت من رئيس هيئة أركان جيش البوسنة والهرسك التحقيق بالاتهامات الموجهة وبموافاتي بالنتائج بالسرعة الممكنة. قمت بذلك على خلفية الاتهامات التي وجهها مجلس الدفاع الكرواتي بقيام وحدات من جيش بارتكاب فظائع في قرية دولياني قرب يابلانيتسا. وأرفق طياً نسخة من رسالتي إلى الجنرال راسم ديلتش ونسخة من رده كذلك باللغتين البوسنية والإنجليزية.

وبما أن المعلومات التي أوردها تتناقض مع الاتهامات التي وجهها لنا مجلس الدفاع الكرواتي فإنني أطلب معونتكم في إثبات الحقيقة المتعلقة بتلك الأحداث. وإني على ثقة كاملة في ما سيخلص إليه التحقيق الذي سيجريه الصليب الأحمر الدولي وقوة المرافعة. وأنا متأكد بأننا سنلاقي اهتماماً مشتركاً وتعاوناً في هذا المجال".

ولم أسمع بعدها أي شيء أخر عن الموضوع من أوين وشتولينبرغ.

ومع ذلك فإذا كانت اتهامات الكروات لنا بارتكاب فظائع في دولياني كانت مجرد تلفيق ودعاية كرواتية مضاده، فإن ما تم ارتكابه في غرابوفيتسا ضد المدنيين الكروات كان حقيقة وحشية.

لقد قامت مجموعة من جنودنا بذبح حوالي ٢٧ مدنياً كرواتياً في قرية غرابوفيتسا الواقعة على نهر النيريتفا خلال عملية عسكرية تحت اسم (نيرتيفا ٩٣) في ١٩٩٣/٩/٨، وطلب الجنرال ديلتش لدى معرفته بالخبر من سفر خليلوفتش قائد عملية (نيرتفا ٩٣) بأن يقدم تقريراً حول الموضوع، ولكن يبدو أن التقرير لم يصل إلى الجنرال ديلتش أبداً. وعلى الرغم من ذلك، فلقد تكشّفت تفاصيل تلك المأساة بعد شهرين في إطار عملية للجيش والشرطة عرفت باسم (تريبيفتش ١) في سراييفو في ١٠/٢٦، وخلال التحقيقات التي أجريت حول التمرد والجرائم التي ارتكبت في سراييفو حصل مكتب المدّعي العام العسكري والتابع لوزارة العدل على معلومات كثيرة حول ما تم ارتكابه في غرابوفيتسا، ولكن الاتهامات والمحاكمة وُجّهت على أساس قضية سراييفو

وحدها. وفي خريف ١٩٩٧ قدّم قسم الأمن العسكري لائحة اتهام متعلقة بالفظائع من ثمرايوميتا لمدّعي عام المقاطعات في سراييفو.

وتولى الإدعاء القضية وطلب موافقة محكمة العدل الدولية في لاهاي من أجل الشروع بإجراءات المحاكم ضد المتهمين، حيث قامت محكمة العدل الدولية في لاهاي بتولي التحقيق في القضية برمتها، وأخذت كل الوثائق المتعلقة بها.

وكان لإعلان استقلال منطقة غرب البوسنة الذي أعلنه فكرت عبديتش في ١٩٩٣/٩/٢٧ دور في زيادة صعوبة الوضع الصعب أصلاً للجيش البوسني، خاصة الفيلق الخامس. لقد كان فتح جبهة ثالثة وتواطؤ فكرت عبديتش مع المعتدين الصرب والكروات سبباً في أن يصبح الوضع العسكري والسياسي في البوسنة والهرسك أصعب ما يكون.

في الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) إلى نيويورك لإلقاء كلمة أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة.

مقتطفات من الخطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك ١٩٩٣/١٠/٧

"لا يوجد لدى المجتمع الدولي سياسة محددة أو خطة عمل سياسي واضحة من أجل التخفيف من مشاكل الانتقال من البنى والهيكلة الشيوعية التي كانت مسيطرة لمدة خمسين عاماً إلى المفاهيم القائمة على أسس الحرية والديموقراطية...

ولا مثال أكبر مما يجري في بلدي على المدى الذي يمكن أن تصل إليه الانعكاسات السلبية لهذه المشكلات. إنه من الواضح أننا نتعرض لضغوط هائلة من بقايا القوى الشيوعية السابقة، ويتم إجهاض أية فرصة لإقامة التنمية الديموقراطية، وقد تم ذلك أمام أعين أوربة، وأمريكا، والعالم أجمع. وتمثّل ذلك هو باستخدام القوة، وقتل أعداد كبيرة من المدنيين، وطمس أي أثر لحضارة أو ثقافة شعب معين، فوق الإجراءات الهمجية مثل حرق وتدمير بلادها.

وفي نفس الوقت فإن هذا المستوى غير المعهود من العنف تم استخدامه تجربة للتشريح السياسي في بلادنا. ويقوم بإجراء تلك التجربة المجتمع الدولي الذي بدا من الواضح أنه يستخدم البوسنة والهرسك حقل تجارب لدراسة نماذج مختلفة لإقامة دول ما بعد المرحلة الشيوعية.

وكانت أولى تلك التجارب التي جرت في مؤتمر لندن. وتم التخلي عن هذا المفهوم الذي هدف إلى وقف العدوان. تم التخلي عنه دون أية محاولة لتطبيقه، بل إن كل ما حدث هو أن الحرب التي تدور رحاها فوق أرض بلادي استعرت أكثر فأكثر، ومن ثم كانت هناك محاولة لإيجاد حل دستوري، وشرعي، وسياسي إصلاحي لأزمة تزداد حدةً يوماً بعد يوم. ولم يحاول أحد تنفيذ المحاولة والتي عُرفت بخطة فانس وأوين. لقد تم التخلي عنها كي تحل محلها خطة أخرى ترتكز إلىالافتراض الخاطئ القائل بأن ما كان يحصل في البوسنة والهرسك كان حرباً مدنية بين ثلاثة شعوب، وأن لهذا السبب بالذات كان الحل الوحيد هو التقسيم المناطقي. ونتيجة لذلك استمرت الأحداث بالسير بشكل لا يمكن السيطرة عليه مع تجدد المعاناة للشعب.

سيدي الرئيس، إن شعب البوسنة والهرسك يواجه اليوم خيارين: إما أن يخوض حرباً غير عادلة وإما أن يحصل على سلام غير عادل، وإذا ما استمرت الحرب فإن هناك خطراً من أن تزداد معاناة الشعب أكثر فأكثر إلى درجة تصل إلى إمكانية تدمير شعبنا. إن ذلك يعني موت آلاف الأشخاص. أما السلام غير العادل فإنه غير مقبول لأنه يرتكز إلى مفهوم التقسيم العرقي والفصل العنصري والذي أثبت التاريخ أنه فشل تام...

ومع ذلك فإن طبيعة العناصر المرفوضة في ما يسمى بخطة السلام التي يتم فرضها علينا ليست ذات طبيعة فلسفية فقط.

أولاً: إن أي خطة تجعل الإبادة والتقسيم العرقيين حلاً شرعياً هي خطة سوف تزرع بذور العدوان في ضوء روح الانتقام.

وثانياً: إن أي خطة سلام لا تعير اهتماماً لأسباب الحرب تؤدي إلىحل ووقف مؤقت، ولكن ليس الحل الحقيقي والجذري الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه.

ويجب على الأمم المتحدة أن تقوم بتقويم الخطة التي طرحها كل من اللورد أوين والسيد شتولتنبرغ في نطاق صلاحياتها ومسؤولياتها أي تستطيع أن تحدد إلى مدى توافق تلك الخطة وميثاق الأمم المتحدة قرارات مجلس الأمم الأمن السابق.

لا يمكن للمجلس أن يتهرب من مسؤولياته بالتستر وراء العذر الذي غالباً ما يتم ترديده: "سوف تقبل أي شيء توافق عليه الأطراف الثلاثة". بينما واقع الأمر أن أحد هذه الأطراف وهو الضحية يتعرض لضغط تهديد حقيقي بالمجاعة والإبادة الجماعية".

وبدأت ظواهر الفوضى تظهر في سراييفو بعد سنة من الحصار، وأصبحت العديد من الوحدات المدافعة عن المدينة لا تحترم النظام والانضباط العسكري وسلطة القيادة العليا التي كان رئيسها حينها سفر خليلوفتش، وهو ضابط كفء، ولكنه رجل تنقصه الشجاعة وقوة الشخصية. واندلعت في كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢ صدامات مسلحة بين الجيش وما يسمى (وحدة الأغراض الخاصة) بقيادة يوكابرازينا. ولقد هددت الغيرة بين القادة بتقويض الدفاع عن المدينة حيث كانت هناك بودار خلاف بين وحدات الجيش والشرطة في المدينة منذ البداية. وكانت هناك أخبار عن سوء معاملة الصرب والقيام بغارات تمّ فيها تجنيد المدنيين للقيام بمهمة خطرة ألا وهي حفر الخنادق على الجبهة. أظهر كل شيء أن سفر خليلوفتش لم يكن لديه سلطة كافية على القوات كي يتمكن من السيطرة على الوضع. ولقد واجهنا كارثة في الثلاثين من أيار ١٩٩٣. فلقد قتل تريبيفتش ٢٩ مقاتلاً في اللواء الأول في محاولة بطولية ولكن غير مدروسة.

ولقد كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، قررت أن أوصي بأن تتم تنحية خليلوفتش عن أعلى منصب في الجيش، وتقرر في جلسة رئاسة البوسنة التي عُقدت في ١٩٩٣/٦/٨ أن يتم استحداث منصب قائد أو آمر الجيش حيث تم تعيين راسم ديلتش في ذلك المنصب، وديلتش رجل صلب ومدرب تدريباً ممتازاً. ولقد عرضنا المنصب على جمال شاراتس وهو جنرال

بارز سابق في الجيش اليوغسلافي، ولكنه رفض المنصب على أساس أن المنصب بحاجة إلى شخص أصغر سناً وفي حالة صحية أفضل. وتم نقل جميع الصلاحيات التنفيذية والعملياتية لتصبح من صلاحيات قائد الجيش فيما احتفظ خليلوفيتش بمنصب رئيس هيئة أركان القيادة العليا، ولكنه كان تابعاً في كل شيء لسلطة قائد الجيش الجديد.

وكان هناك شيء آخر جعل اتخاذ ذلك القرار ضرورياً. حيث تلقيت رسالة مكونة من أربع صفحات من الجنرال ديفياك الذي كان حينها نائب رئيس هيئة الأركان في ١٩٩٣/٥/٢٧ أي قبل أيام من القرار.

أبدى ديفياك في هذه الرسالة تذمره من تصرف المسلمين معه ومع المواطنين في سراييفو ذاكراً الأمثلة التالية:

- إنه وفي أثناء زيارتي إلى جبهة كونيتيس يابلانيتسا قامت قوات اللواء المتمركز هناك باعتقالي واحتجازي لمدة ٢٧ يوماً.

- كان هناك من قادة الوحدات العسكرية الصغرى من يتعاملون بقسوة مع المدنيين.

- كان هناك سجون خاصة في هرانيتسا ودوبرينيا.

- يتم تجنيد مواطنين مرضى لحفر الخنادق حيث كان يتم إجبارهم على العمل لمدة ١٢ ساعة يومياً.

- إن من بين كل تلك المخالفات التي انطوت على تصرف عنيف معقول تبقى تصرفات قائد اللواء الجبلي العاشر موشانا-تساتسه توبالسفتس تفوق مثيلاتها.

ولم يصرّح ديفياك ولكن يمكن الاستنباط مما قال: إنه تعرض لذلك كله لأنه كان صربياً، وأن معظم الذين يتعرضون لتلك المعاملة هم من الصرب أيضاً. في

الغالب على الرغم من ذكر أسماء اثنين من المسلمين تعرضوا لنفس المعاملة، وهم خياط اسمه خيرو، وشخص يحمل اسم ميهو محمد دفيتش[1] وعندما طلبت توضيحاً من القيادة حول شكوى ديفياك بدا واضحاً من التقرير أن ديفياك محاط بعدم الثقة والشك. وأن العديد مما اتهم به كان له أساس من الصحة. وأصبحت تقارير عن معاملة المدنيين الصرب في المدينة بشكل سيئ تزداد يوماً بعد يوم. ولقد ركزت معظم الاتهامات على تصرفات جنود اللواء التاسع الذي كان فعلياً تحت قيادة رامز تشيلو ديلالتش (ومنصبه أصلاً هو نائب القائد).

كان اللواءان التاسع والعاشر يضطلعان بمسؤولية الدفاع عن جزء كبير من المناطق الشمالية والجنوبية لسراييفو المحاصرة. حيث كان اللواء التاسع يتولى مهمة الدفاع عن خط تلال سلاتينا، وغردونيه، وباشيتو بينما تولى اللواء العاشر خط الدفاع الممتد من مبنى البرلمان على نهر ميلياكا تسكا إلى ديبليو وأكواخ تشوليتا.

قام أفراد اللواءين بشراء أسلحتهم في أنفسهم في بداية الحرب، وكانوا على درجة عالية من الولاء لقادتهم. إن محاولة تدجين أولئك المسلحين وفرض النظام العسكري عليهم كانت محاولة أشبه بتدجين ووضع سرج على جواد برّي. إن أي مواجهة مع قادتهم أو تحدٍّ لهم سوف يؤدي إلى صدام مسلح مع اللواء كله، ومن ثم تخليهم عن الخطوط التي يدافعون عنها. لذا فقد كان من الضروري متابعة التعامل معهم بحذر شديد.

قام بعض من مقاتلي اللواءين التاسع والعاشر بإغلاق كل الجسور المقامة فوق نهر ميلياتسكا من منطقة فيشينتسا (مبنى البلدية) إلى حي سكنديريا، وكذلك جميع مراكز الشرطة في القسم الشرقي من المدينة. وكان ذلك في الثاني من تموز (يوليو) ١٩٩٣.

---

(١) النص الكامل لرسالة ديفياك في الملحق.

واستطعت بعد مفاوضات استمرت الليل بطوله ومن خلال الدور والجهد الطيب الذي قام به قائد وحدة دلتا، دينو عليبيتش، من أن أقنع الثوار من جنود اللواءين بالانسحاب والعودة إلى ثكناتهم ومراكزهم في خطوط الدفاع، ومع ذلك فلقد قررت أن أقوم بكل ما هو ضروري لضمان منع تكرار ذلك مرة أخرى، وكي نتمكن في نهاية المطاف من أن نفرض نوعاً من النظام على جميع الوحدات التي تدافع عن المدينة، ولقد قمت في اليوم التالي باستدعاء كل من دلتش، قائد الجيش، ووزير الداخلية اليسباهيتش، والذي كان مسؤولاً عن وحدات الشرطة وطلبت منهم الحضور إلى مكتبي، وطلبت منهما أن يضعا خطة لوضع حد للتصرفات العشوائية التي يبديها اللواءان المارقان.

واستغرق التحضير لهذه العملية الحساسة والخطرة وقتاً أطول مما توقعنا، حيث إننا وجدنا أنفسنا مضطرين للقيام بعمل عسكري ضد مجموعة من وحداتنا في مدينة محاصرة من قبل عدد أقوى بكثير منا. وتم تأجيل التحرك إلى تشرين الأول (أكتوبر) بعد أن كان مخططاً له أن يتم في أيلول (سبتمبر). ومن ثم تم تأجيله أيضاً يوماً بعد يوم، وفي نهاية الشهر الذي تلاه. وفي هذه الأثناء تم نقل أفراد من وحدة (نستي لابودوفي- أي البجع الأسود من كاكانيه) واحداً بعد واحد عبر النفق الذي يمر تحت مدرج المطار كي يشاركوا في تلك العملية.

وأصدر المجلس التنفيذي لحزب العمل الديموقراطي بياناً يتعلق بانعدام الانضباط في الجيش، وذلك خلال جلسته التي عقدت في الثالث والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩٣. وكان نص البيان كما يلي:

"استناداً إلى واجب ومسؤولية حزب العمل الديموقراطي من أجل تقويه القدرات الدفاعية لشعوب البوسنة والهرسك، وفي ضوء الوضع العسكري والأمني الحالي في سراييفو، فإن المجلس التنفيذي لحزب العمل الديموقراطي يجد أن القيادة ونظام توجيه

الأوامر في بعض وحدات الفيلق الأول لجيش البوسنة والهرسك قد تعرضت لانتهاكات خطيرة مستمرة منذ وقت ليس بقصير. مما يضفي ظلالاً من الشك حول فعالية وجدوى القيام بأي مهمات قتالية، ويقوض جهود جيش وشعب البوسنة والهرسك في كفاحهما ضد المعتدين، وازدادت الجرائم والتصرفات العشوائية التي يرتكبها أفراد القوات المسلحة. فشوّه بعض أفراد الوحدات المدافعة عن مدينة سراييفو السمعة الطيبة لتلك الوحدات من خلال عدم تقيدهم بالقانون. ولذلك فإن المجلس التنفيذي لحزب العمل الديموقراطي يدعو السلطات خاصة رئاسة البوسنة والهرسك والقيادة المركزية لجيش البوسنة والهرسك إلى القيام بمراجعة للوضع، ومن ثم اتخاذ خطوات معينه لفرض النظام وحكم القانون، مما سيعمل على استعادة ثقة الشعب المتناقصة في جيشهم ودولتهم. إن المعركة الناجحة هي المعركة المنظّمة والمتناسقة، إن الحرب وحالة الحرب لا يمكن أن يكونا مبررين لتصرف المرء كما يشاء ولإشاعة انعدام القانون".

عُقدت جلسة الرئاسة الخاصة باتخاذ القرار بالقيام بالعملية المخصصة قبيل منتصف الليل بقليل في ١٩٩٣/١٠/٢٥ وذلك من أجل الحفاظ على سرية الجلسة. وتم تحديد الساعات الأولى من اليوم السادس والعشرين للقيام بذلك التحرك العسكري.

وتم اتخاذ قرار إعفاء كل من موشانا تساتسه توبالسفيتس ورامز تشيلو ديلاليتش من مناصبهما القيادية في اللواءين التاسع والعاشر وأن يتم احتجازهما. إذ نص مرسوم الرئاسة على أنه:

"استخدام القوة لتنفيذ ذلك القرار مسموح إذا ما كانت هناك ضرورة لذلك".

واستيقظت سراييفو على صمت مطبق صباح ١٠/٢٦ حتى أنه لم يكن هناك قصف أيضاً، واستسلم في السابعة صباحاً جزء من اللواء التاسع المتمركز في مبان مقابل المقبرة الكاثولوكيه في كوشيغو".

فيما استمر الجزء الآخر بالمقاومة حتى ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم. ثم ذهب د. حارس سيلادجتش وبكر عليباهتش إلى القاعدة المحاصرة من كل الجبهات واقنعوا رامز ديلالتش أنه لا جدوى من المزيد من المقاومة. ولقد تحصن موشانا – تساتسه توبا لسفتس في قاعدته الليلية في بستريك حيث احتفظ بعدد من المدنيين رهائن. ولقد كان يتربص برجال الشرطة غير الحذرين حين قام بقتلهم الواحد تلو الآخر حيث بلغ عددهم تسعة. ولم نكن نعرف ما يجب علينا القيام به. فإذا ما اقتحمنا البناية فقد يعني ذلك موت الرهائن والذين بلغ عددهم ما بين أربعين إلى خمسين شخصاً، أغلبهم من النساء والأطفال الذين تم أخذهم من المنازل المجاورة على عجل.

وأرسلت المستشار الرئاسي يوسف يوشتينا لنرى إذا ما كان بإمكانه إقناع تساتسه بالاستسلام. ورفض تساتسه وعاد بوشينا حاملاً إلينا أخبار مقتل رجال الشرطة التسعة الذين كانت جثثهم ملقاة في الساحة الخارجية للمبنى.

واستمرت معاناة الرهائن فاتصلت بتساتسه على الهاتف وأخبرته أن يوسف يوشنيا ومرافقي حارس لوكاف وعثمان محمد آلاغتش، والذي كان على معرفة جيده بهما، سوف يأتيان لمقابلته في الساعة الحادية عشرة والنصف.

واستسلم تساتسه وعدد من رجاله في القيادة دون أي مقاومة. وتم أخذه بعدها إلى القيادة المركزية للفيلق الأول في شارع (دجوره دجا كوفتيشا) والذي أصبح الآن شارع (علي باشا) وهناك هاجمه وضربه أصدقاء رجال الشرطة الذين قتلهم. وكان هناك خطر حقيقي بأن يتم إعدامه دون محاكمة وتفادياً لحدوث الأسوأ تم إرساله بسرعة كبيرة في سيارة من أجل نقله إلى سجن المقاطعة. وفي الطريق تمكن تساتسه من تحرير نفسه وفتح باب السيارة وقفز منها في شارع كوسبشفو فأطلق الحراس النار عليه. لقد كانت هذه هي الرواية الرسمية. وأعلن مذيع أخبار الصباح من تلفاز البوسنة والهرسك أنه تم إلقاء القبض على تساتسه وأنه قتل أثناء محاولته الهرب.

وتم احتجاز مئة وخمسين من رجال اللواءين التاسع وللعاشر بينما تم فتح تحقيق. ولقد تم إطلاق سراح معظمهم خلال فترة وجيزة وأرسلوا إلى خطوط الجبهة في تربيفتش وغردونه. ولقد تم توجيه الاتهام ومن ثم محاكمة ثمانية عشر عنصراً منهم بارتكاب جرائم قتل والقيام بعصيان مسلح. وهكذا ساد النظام وحكم القانون في المدينة. وبقي مصدر الخطر الآن في التلال المجاورة.

وقبل وقوع تلك الأحداث مباشرة وكان وزير الخارجية د. حارس سيلادجتش قد عاد للتو من جولة خارجية تناولت جهداً مثمراً في مسائل تتعلق بالاعتراف والتأكيد على أن البوسنة والهرسك دولة مستقلة ذات سيادة. وكانت هناك حاجة لتشكيل حكومة جديدة. وكان الافتراض القائم بأن يصبح د. حارس سيلادجتش رئيساً للوزراء. واستطاع سيلادجتش من تشكيل حكومته فعلاً في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ودون أي عناء، ولقد رشح الأسماء التالية للرئاسة: أديب بوكفتش، وحمدي حجي حسانوفتش، وبكر علياهتش، وعرفان ليوبيانكتش، وسعاد كريسو، وقاسم ترنكا، وروسيمير محمود تشيهايتش، وفاروق إسماعيل بيغوفتش، ومنير إماموفتش، ودراغوليوب ستويانوف، وعارف سمايكتش، ومصطفى بيغانوفتش، وأنيس دوراكوفتش، وإيفو كنيجيفتش، ولقد كان هناك جدل حول من يتولى حقيبة اللاجئين. ورشح حزب العمل الديموقراطي أميلا عمر صوفتتش، ولكن حارس فضّل مرشحه د. عارف سمايكتش وقبل هذا الترشيح.

أما الدراما الحقيقية فكانت قصة اختيار روسيمبر محمود تشيهايتش. فلقد اقترح سيلادجتش أن يتم تقسيم مهام حقيبة محمود تشيهايتش حيث تمتد صلاحيات وزارة الطاقة إلى وزارة الاقتصاد. ولوحظ في تلك الأثناء أن تشيهايتش كان يستخدم سيطرته المتعلقة بتزويد الوقود كي يكسب نفوذاً في الجيش وحقائب وزارية أخرى. ولقد حدث يوماً أنني، وبينما كنت أبحث عن

الجنرال ديلتش، وجدته ينتظر في طابور خارج مكتب وزير الطاقة والصناعة العسكرية كما كان يطلق على الوزارة أيام كان تشيهايتش وزيراً لها. كان ديلتش ينتظر الحصول على ضمانة شخصية من الوزير من أجل تزويد الجيش بالوقود، ولذا فقد عارض محمود تشيهايتش فصل وزارة الطاقة عن وزارته وهدد بتقديم استقالته إذا ما تمت عملية فصل الوزارتين. وبقيت المشكلة عالقة لعدة أيام. وفي إحدى الليالي في أثناء زيارة لنا إلى معامل فولاذ زينتسا توجه محمود تشيهايتش إليّ طالباً مساندتي له من أجل إبقاء الوزارتين معاً. وعندما رفضت، استقال محمود تشيهايتش. وتحول بعدها من وزير إلى ناقد لكل ما يوجد في البوسنة حيث لم يعد يعجبه شيء.

ولقد قمت بقضاء اثنيّ عشر يوماً في مناطق محررة خلال النصف الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٩٣ وبعد تحرير فاريش قمت بزيارة ١٧ بلدة وتحدثت مع القيادات الحربية لحوالي ٣٢ بلدية. وأجريت لقاء مطولاً مع مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك لدى عودتي حيث أجرى اللقاء معي المدير العام لتلفاز البوسنة والهرسك مفيد ميميّا. ولقد اخترت ثلاثة أسئلة وإجاباتها لكي أضمنّها في سياق حديثي هنا.

المقابلة مع مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك

(النسخة المختصرة) ١٩٩٣/١١/١٨

– ميميّا: أصبحت مشكلة الغذاء هي أهم سؤال، وأخشى أن هذه المحنة ستكون أشد خطراً علينا من التشتنيكوالأوستاشا.

– عزت بيغوفتش: كانت هذه قضية أثقلت كاهلي خلال جولتي على المناطق المحررة ولم تضعف معنويات الشعب على الرغم من أنهم يواجهون هذه المشكلة ويدركون ماهية الوضع تماماً. حتى ونحن نتحدث فإن هناك محادثات تجري في جنيف.

بحضور وفدنا برئاسة سيلادجتش، الذي يتوجب عليه القيام بكل شيء ممكن من أجل رفع الحصار.

بعبارة أخرى فإن الأمر منوط به كي يجد طريقة لإدخال الأغذية. إن وجهة نظرنا تتلخص في أنه لا يهم إذا ما جاءت المعونات سواء مروراً بصربيا أو كرواتية، بل إننا نوافق على الحصول على الأغذية عبر ممر حاجز سرايفو فإن هناك الغذاء القادم من مكدونية. غادرت قافلة بالأمس من سكوبيبه وننتظر بفارغ الصبر لنرى إذا ما كانت ستنجح في الدخول أم لا. وباختصار فإن الغذاء يبقى هو القضية التي يجب أن نواجهها والتي سنستمر في محاولة إيجاد حل لها بكل عزم وتصميم إيماناً منّا بأن هذه القضية تستحق كل ذلك الجهد.

– ميميّا: لا بد أن هناك محطات هامة في جولتك على المناطق المحررة وخاصة فاريش. فلقد زرت فاريش بعد تحريرها من قبل وحدات الفيلقين الثاني والثالث مباشرة. ومن ثم قمت بإصدار نداء لقى استحسان المجتمع الدولي والرأي العام المحلي خاصة أنها دعت الكروات الذين يغادرون فاريش إلى البقاء، ودعت أولئك الذين كانوا قد غادروا إلى العودة.

– عزت بيغوفتش: نعم ما زال ذلك النداء ساري المفعول على الرغم من أنه من الصعوبة بمكان أن يتصل المرء بأولئك الناس. ولقد أجرينا ترتيبات لوفد كي يتوجه إلى هناك، ولكن تم إيقافه في كويلياتشا. ضم الوفد الموتسينور فينكو يوليبتش والأب بيتار أندجيلوفتش. ووجد الناس الذين تركوا بيوتهم أنفسهم محتارين ما بين دعوة قوات مجلس الدفاع الكرواتي لهم بعدم العودة، ودعوتنا لهم بالعودة إلى منازلهم. وكان واضحاً أن هجرة الكروات كانت جزءاً لا يتجزأ من خطة كانت تسمى (خطة بوبان) بإنشاء دويلة كرواتية. هناك حيث تم تجميع كل كروات البوسنة والهرسك في منطقة واحدة. ولقد قرأت الوثائق التي قال فيها بوبان: إنه يوجد حوالي ٧٠٠ ألف كرواتي موزعين على أنحاء المنطقة الممتدة من نيوم في الجنوب إلى نهر السافا في الشمال، وإنه يجب أن يتم تجميعهم كي يشكّلوا وحده واحدة في منطقة واحدة. إن تنوع البوسنة

لا يزعجنا، بل على العكس هو إثراء لنا. ويجب أن أكون صادقاً وأقول: إنني تعرضت لأسئلة من شعبنا حيث قالوا لي: لماذا نريد عودة الكروات بينما يقوم بوبان بإجبارنا على مغادرة منطقة الهرسك. وكان جوابي هو أن أساليب بوبان ليست أساليبنا فنحن دولة بينما هم شبه دولة، نحن لدينا جيش بينما هم لديهم وحدات شبه عسكرية أو بالأحرى لديهم عصابات. نعم يستطيع المرء أن يقول: إن عملية التطهير العرقي في موستار وستولاتس قد قام بها عصابات حيث قامت مؤخراً بتدمير الجسر القديم في موستار، وهناك جانب عملي آخر لهذه القضية لقد كان أحد أولئك الذين سألوني كان من الهرسك وسألته: "هل تريد منّا أن نعود إلى ستولاتس؟" وأجاب أنه يريد ذلك بالطبع، ولذا فقد أخبرته أن الطريقة الوحيدة بالنسبة إلينا كي نعود إلى ستولاتس هو في أن نجعل الكروات يبقوا في فاريش. إن خطة بوبان القذرة كانت تتألف من مرحلتين. كانت أولى المرحلتين في أن يقوم بتطهير المنطقة عرقياً، أن يطهّر موستار، وستولاتس وتساملينا، وليوبوشكي، وليفنو من سكانها المسلمين، ومن ثم يقوم بتجميع شعبه في (دولة بوبان – بوباستان) كما نسمّيها حيث كان يريد جلبهم من كل مكان، من الشمال، والبوسنة ومن الجنوب حيث أراد أن يسوقهم إلى هناك وكأنهم قطيع ماشية. ولكن إذا ما أردنا لخطته أن تفشل فيجب أن نقنع مواطنينا الكروات بأن يبقوا في منازلهن، ولذا فإنه لا ينبغي لنا أن نساعد بوبان في تنفيذ خطته بأن نطرد الكروات من فاريش. وهذا هو الجانب العملي للمشكلة إذا ما تغاضينا لوهلة عن الجانب الأخلاقي لها. يجب أن تكون البوسنة والهرسك دولة حقيقية يحكمها القانون. يجب أن يعرف الناس أن أفراد وحدات مجلس الدفاع الكرواتي في فاريش قاموا باستخدام مكبرات الصوت لإخبار الناس أن الجيش البوسني سيدخل المدينة، وأنه يحرق وسيدمّر كل شيء في طريقه. ولم يتسنّ للناس معرفة حقيقة ما يجري، لذا فإنهم قد آثروا ألا يخاطروا. وعلى أية حال فإننا لسنا الذين نطرد الناس من منازلهم. فأنت ترى كيف يعيد التاريخ نفسه بكل غرابة. فنحن نرى الآن صوراً في البوسنة والهرسك تذكرنا بما يجري أيام الحرب العالمية الثانية. حيث إنني أذكر ذلك جيداً. لقد كنت في السادسة عشرة من عمري عندما بدأت الحرب، وقد بلغت العشرين عندما انتهت. وكان أيضاً

في ذلك الوقت التشتنيك والأستاشا. وها هي الصورة تتكرر مرة أخرى. إلا أن الفرق هو أن هؤلاء التشتنيك الموجودين الآن هم أسوأ من التشنيك في تلك الأيام، وأن هؤلاء الأستاشا هم كذلك أسوأ من سابقيهم. أستطيع قول ذلك، وأنا على ثقة كاملة من صحة ما أقول، لأن الأستاشا في ذلك الوقت لم يدّمروا المعلم الهام (الجسر القديم) ولا المساجد في موستار بينما قام هؤلاء بذلك كله.

- ميمياً: هل يمكنكم التعليق على البيان الذي أصدره تودجمان حول البوسنة والهرسك؟

- عزت بيغوفتش: نعم إنه بيان مؤسف ومزعج. وإذا ما كنت قد فهمته بشكل صحيح فإنني أظن أن البيان يعلن عن غزو البوسنة بشكل ما. ولسوء الحظ فنحن نشهد غزواً بالفعل، وإن لم يكن على نطاق واسع، نظراً لأننا نعرف أن هناك الآن وحدات من الجيش الكرواتي تقاتل حول منطقة غورنييه فاكوف، وقد أصدرت أوامري بالأمس لتحديد كافة التفاصيل المتعلقة بالموضوع. وعندها سوف نطالب بعقد جلسة لمجلس الأمن ونطلب حماية دولية. ويبدو أن السيد تودجمان حاول أن يستخدم مجلس الدفاع الكرواتي كي يسيطر على جزء من البوسنة، ولكن حينما فشل المجلس في ذلك قرر أن يتدخل بشكل مباشر كي يعوّض إخفاق مجلس الدفاع الكرواتي الذي هُزم هنا في البوسنة. ولقد كان الرئيس تودجمان قد أصدر بيانات أخرى أيضاً. فلقد دعا إلى حرب صليبية ضد ما أسماه بمحاولات إنشاء جمهورية إسلامية هنا. ويعلم شعبنا حقيقة الأمر. فنحن نريد الإسلام أن يبقى موجوداً وأن ينال الشعب المسلم حريته، ولكن ليس لدينا أية نية لتأسيس جمهورية إسلامية. إن تودجمان يتحدث كما كان يتحدث ميلوشيفتش عنه، ولكنه يقوم بذلك متأخراً عنه بعد سنين.

ولقد دُعيت في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) لإلقاء محاضرة للخريجين في ندوة عقدها قسم التوجيه المعنوي في قياده أركان الجيش البوسني في نادي الضباط في سرايفو. وانتهزت الفرصة كي أتحدث عن سلوك الجنود:

"عندما تغادرون هذا المكان فإنه يجب عليكم أن تخبروا الجنود عدة أشياء. أخبروهم أنه لا ينبغي لهم أن يضطهدوا الضعفاء. ويجب أن يقوموا بكل جهدهم كي

لا يخاف الناس من هذا الجيش. ولا أعلم إلى أي مدى عليه الحال الآن، لربما إلى حد معين. إن الانفعالات كثيرة، وحدثت أمور فظيعة ومروعة ارتكبها الجميع، ولا يستطيع الناس أن يميزوا شيئاً معيناً من الآخر. فلقد قتل مؤخراً اثنين من القساوسة في فوينيتسا. وما زال التحقيق جارياً في تلك القضية. وإذا ما افترضنا أن القاتل كان واحداً منّا وسواءً أكان مدنياً أم عسكرياً فلا بد أنه فكر في نفسه، وقال: "لقد دمّروا الجسر القديم وعلينا أن ننتقم منهم، ولكن من هم أولئك الـ (منهم)؟ إن الرهبان الفرنسيسكان والأستاشا ليسوا سواء. إن مثل هذا التفكير العدواني لا يوصلنا إلى أي نتيجة، وأكرِّر يجب أن نكون جيشاً يعتبره المواطنون جيشهم وعندها فلن تُهزم. حتى ولو اجتمعت كل القوى الشيطانية في هذا العالم، فإنهم سيكونوا بلا حيلة أمامنا إذا ما كان الشعب معنا. إن هذه هي رسالتي الأولى. قوموا بإيصالها إلى الناس وبلغة بسيطة بحيث يستطيع رجال الشارع أن يفهمكم بسهولة.

فكما ترون فإن الله قد ابتلانا بتحد مؤلم. لقد تم ذبحنا، وقتلت نساؤنا وأطفالنا. ودّمُرت مساجدنا، ولكننا لن نقتل النساء والأطفال ولن ندمر الكنائس، لن نقوم بذلك، لأنها ليست طريقتنا على الرغم من وجود حالات متفرقة، يوجد مقاتلون هنا أيضاً، وأستغل هذه الفرصة لأخبرهم أننا سوف ننتصر لأننا نحترم أديان الآخرين، قوميات الآخرين، ومعتقداتهم السياسية، ولأننا نبذل جهدنا كي يكون شعباً محترماً في خضم وضعنا الصعب، ولتكن هذه رسالة نقولها إلى كل شخص في كل مكان. وفي جميع الأحوال فإن تدمير أماكن عبادة الآخرين محّرم علينا. وبسبب هذا التحريم فإن أديرة ديتشاني، وغراتشانيتسا وسوبوتشاني الصربية ما زالت قائمة حتى اليوم، ومنذ العهد التركي الذين حكموا هناك لمدة ٤٠٠ سنة، ولم يقوموا بتدمير تلك الأديرة، على الرغم من أن الأتراك لم يكونوا ذلك الشعب اللطيف. بقيت تلك الأديرة سالمة لأن القرآن الكريم الذي نوقره ونؤمن به يمنعنا من ذلك. فإنه ينص على عدم القيام بمثل تلك الأعمال، والتزم الناس بذلك الأمر. وعندما نقوم بذلك ونقول بأننا نحترم الكنائس وأديان الآخرين فإننا بذلك نوقّر بشكل حرفيّ ومباشر تعاليم القرآن

الكريم[١] ناهيك عن التزامنا بأعرق تقاليد الديموقراطية الأوروبية والتي كان العالم يتلمّس طريقه فيها عبر العصور".

وفيما يلي نص المحادثة التي تناولت نفس الموضوع مع مجلة شتيرن الألمانية في ١٩٩٤/١١/٥.

– شتيرن: سيدي الرئيس: أنت معروف، بوصفك مسلماً معتدلاً تنتمي إلى التقاليد الأوروبية ومتسامح، ومنفتح على العالم ككل، ولكن أصبحت ترد تقارير إلى الغرب بأن هناك الآن ما يسمى بأسلمة البوسنة والهرسك (أي جعل البوسنة دولة مسلمة). هل هذه الأخبار هي مجرد شائعات؟

– عزت بيغوفتش: سأكون صريحاً جداً. إن هذه ليست شائعات، إن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية، حيثما كان هناك حكم شيوعي يقمع الدين لمدة خمسين أو سبعين عاماً ويوجد أسلمة، كما نسميها، في البوسنة، ولكن بنفس المعنى الذي يوجد فيه "التنصير" واهتمام متجدد بالدين بين البوسنيين الكاثوليك والنصارى الأرثوذكس.

ولكن لا تتحسس أوربة من ظاهرة التنصّر وأنا لست كذلك. ولكني يجب أن أصحح لك فيما يتعلق بنقطة واحدة: إن تسامحي جذوره إسلاميه وليست أوربية. إن تسامحي ينبع من كوني مسلماً أولاً وآخراً، ومن ثم كوني أوربياً. إن أوربة تعاني من بعض الأوهام التي لم تستطع تحرير نفسها من قيودها على الرغم من الحقائق الواضحة وضوح الشمس. فلقد دمرت خلال هذه الحرب المئات من المساجد والكنائس، وتم تدميرها جميعاً من الأوربيين وليس من قبل البشناق. وإن لم تكن السلطات التركية هي الأكثر اعتدالاً، ولكن حافظ كل شعب نصراني على مبادئه الدينية والبقاء على قيد الحياة طيلة فترة الحكم التركي التي استمرت خمس مئة عام. إن ذلك هو حقيقة واقعة. الأديرة الشهيرة في تلال فروشكا غورا قرب بلغراد موجودة، فقد بقيت طوال ثلاث مئة عام من الحكم التركي، ولكنها لم تصمد ثلاث سنوات تحت الحكم الأوربي. إذ تم حرقها خلال الحرب العالمية الثانية.

---

(١) عزت بيغوفتش (معجزة المقاومة البوسنية) ، ١٩٩٤، ص ٢٧-٢٨.

إن الفاشية والشيوعية هما من إنتاج أوربة وليس آسية. وحتى هذه الأيام لم تتحسس أوربة كثيراً من ظهور الفاشية في البلقان. أنا أقدر وأحترم أوربة، ولكن أعتقد أن اعتدادها بنفسها مبالغ فيه.

ولقد أصبح الوضع على خطوط المواجهة مع قوات مجلس الدفاع الكرواتي صعباً للغاية خلال شتاء ١٩٩٣-١٩٩٤ خاصة في مناطق موستار وغورني فاكوف. كان صراعاً عبثياً، ولكن مع ذلك استمر على حاله. وأصبح الطعام على وشك النفاد في البلدات المحاصرة، وكان بعض القادة الدينيين في سراييفو وزغرب وراء عدة مبادرات لإرسال قوافل تحمل الغذاء إلى مناطق أكثر عرضة لخطر نفاد مخزون الغذاء. ولقد تم إرسال القافلتين الأوليين إلى نوفا بيلا التي كانت تحت سيطرة قوات مجلس الدفاع الكرواتي، وماغلاي التي كانت تحت سيطرة الجيش البوسني. وصلت قافلة بيلا إلى وجهتها على الرغم من أنها علقت في إطلاق النار بين الطرفين في غورنييه فاكوف. فيما تم إيقاف قافلة ماغلاي في زينيتسا، حيث رفض مجلس الدفاع الكرواتي السماح لها بالعبور في جيبتشه. وتلقيت مباشرة بعد ذلك في ١٩٩٣/١٢/٢٣ رسالة من تودجمان يلقي فيها باللوم على جيش البوسنة في التسبب باطلاق النار في غورنييه فاكوف. ولقد تأكدت من هذه المزاعم وقمت بالرد عليه في رسالتي بتاريخ ١٩٩٣/١/١٣. ولقد أخبرته أننا توجهنا إلى مجلس الأمن واقترحنا محادثات بطريق غير مباشر مع التحذير بألا يجب أن يتوقع الآخرون منا بأن نقوم بالتفاوض مع قتلة الشعب البشناقي. وكنت أعني بالطبع، بوبان.

"أكتب إليك في معرض ردي على رسالتك بتاريخ الثالث والعشرين في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٣. أنا أتفق معك أن الوضع الإنساني في البوسنة والهرسك هو وضع خطير، ولكن يبدو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يتفق كلانا عليه بشكل كلّي في هذا الوقت. وإنه من الواضح أن كلاً منا يرى بعضاً من الحقائق المتعلقة بالموضوع بطريقة مختلفة تماماً. أولاً إن القافلة المتوجهة إلى نوفابيلا وصلت إلى وجهتها على العكس من نظيرتها المتوجهة إلى ماغلاي.

فما زالت قافلة ماغلاي واقفة تنتظر في مدينة زينيتسا. نحن نأسف لسقوط الضحايا ولكننا لسنا نحن الذين بدأنا الحرب، لسنا الذين تسببوا بالحادثة بالقرب من غورنييه فاكوف. إن جيش البوسنة والهرسك يدافع دفاعاً شرعياً عن تلك المدينة ضد الوحدات شبه العسكرية التابعة لمجلس الدفاع الكرواتي، والتي كانت تحاول الاستيلاء على المدينة، وإن تلك الوحدات مسؤولة عن تدمير المدينة وعن مقتل المئات من سكانها. إن الرسالة المزعومة التي أرسلها نائب قائد الفيلق الثالث وهو دجيمو ميردان هي مجرد تلفيق من بدايتها إلى نهايتها. إن جيشنا لا يقوم بقتل النساء والأطفال. هل لديك سيدي الرئيس دليل يثبت هذا الاتهام الخطير بحق جيش البوسنة والهرسك؟ إنني أعتقد من غير اللائق أن تستخدم بيانات غير موثقة، وكذلك ملفّقة حسب رأيي في مراسلاتنا. وأما بالنسبة لجيش البوسنة والهرسك فأرجو أن يكون الأمر واضحاً: إن وجود جيش البوسنة والهرسك في كل جزء من أراضي البوسنة والهرسك هو وجود شرعي وقانوني بنفس القدر الذي نعتبر فيه وجود وحدات عسكرية أخرى لا تعترف بسلطة الرئاسة في البوسنة والهرسك وجوداً غير شرعي وغير مقبول كذلك. إن جيش البوسنة والهرسك لا يمكن أن يكون هو المعتدي في بلده، بل إن الجيش المعتدي هو الذي تم إرساله من مناطق خارج البوسنة إلى داخل البوسنة. إن سلطات مجلس الدفاع الكرواتي أقامت معسكرات اعتقال، واحتجزت فيها عشرات الآلاف من المدنيين الأبرياء. ولقد قمت برفض هذا التأكيد مراراً على أنه افتراء وتشويه للسمعة. ولقد تفاخر وزير خارجيتكم قبل أيام عدة في رسالة إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة بالقول بأن الحكوميه الكرواتية قد قامت "بإطلاق سراح ٥٦٠٠ سجين مسلم " كما قال: كيف يمكن إذن أن يقوم المرء بإطلاق سراح سجناء من معسكرات اعتقال غير موجودة؟! ولا أريد أن أطرح خلفيات الصراع الجاري في منطقة الهرسك للنقاش هنا ولكن، إن هذا الصراع قد صحبه عمليات تطهير عرقي ضد السكان المسلمين في موستار، وستولاتس، تشابلينا، وليفنوا، وأماكن أخرى. ولقد توّج تلك العمليات العمل الوحشي (البربري) بتدمير الجسر القديم في موستار.

ولا أريد أن أذكّرك أيضاً بالحقيقة المزعجة والمتمثلة بوجود قوات مسلحة كرواتية داخل الأراضي البوسنية، والذي يشير إلى التدخل المباشر من قبل كرواتية في الشؤون

الداخلية للبوسنة والهرسك، حيث كان هذا موضوع رسالتنا إلى مجلس الأمن. وعلى الرغم من كل ذلك فإنني أريد أن أنقل إليكم رغبتنا الصادقة في تحسين العلاقات بين بلدينا، وخلق كل أشكال التعاون، ولكن يجب أن يكون هناك أولاً تغييرات جذرية في سياستكم تجاه البوسنة والهرسك. وعلاوة على ذلك كما أخبرتكم سابقاً أننا لا يمكننا أن نتفاوض من أجل تحسين العلاقات مع أولئك الذين نعتبرهم جزاريّ الشعب البشناقي".

ولم تمضِ مدة طويلة بعد هذا الرد البارد الذي أرسلته حتى استخدم الرئيس تودجمان الجهود الطيبة لوزير خارجيته د. ماتيه غرانتش وهو أحد أكثر أعضاء الحكومة الكرواتية اتزاناً، حيث عرض إجراء محادثات من أجل وضع حد للنزاع. ولقد نقل الرسالة إليّ د. حارس سيلادجتش حيث إنني قبلت العرض على الفور. وتلا ذلك عقد محادثات في واشنطن وتأسيس اتحاد البوسنة والهرسك، وبحسب مصادر معينة كان وراء فكرة إنشاء الاتحاد إيفو كومشيتش وهو سياسيّ كرواتيّ مستقل يتمتع باحترام كبير، والذي كان في الوقت نفسه عضواً في مجلس الرئاسة في البوسنة والهرسك.

ومع ذلك فإنني أعتقد أن تضافر ضغوطنا العسكرية مع السياسية كان لها أثر على قرار تودجمان السريع في أن يجلس معنا على طاولة المفاوضات. ولقد تمثل الضغط العسكري بقيام قواتنا بالضغط على مدينة فيتيز والذي بدأ في ١٥ كانون الثاني (يناير) ووصل ذروته في أوائل شباط (فبراير). ولقد كان الضغط السياسي أكثر أهمية، حيث إننا هددنا بأن نتوجه إلى مجلس الأمن لنعلمه بأن هناك تدخل سافر لكرواتية في الحرب الدائرة في البوسنة والهرسك. ولقد كان ذلك موضوعاً محرجاً بالنسبة إلى تودجمان خاصة بعد الفظائع التي ارتكبها الكروات في احميتشي واستوبني دو.

ولقد استمر الاتحاد الذي تم إعلانه بموجب اتفاقيات واشنطن بالنمو فترة طويلة حيث إن الاتحاد الذي كان نتيجة للقوة وليس نتيجة للاقتناع والإرادة

السياسية استغرق وقتاً طويلاً حتى أوجد سبلاً لحرية التنقل وإدارة مشتركة. وقوة شرطة مختلطة. ولكن كان أهم شيء هو توقف القتال فور إنشاء ذلك الاتحاد. ولقد استمرت العديد من مؤسسات الدولة الموازية المسماة "هيرزغ بوسنه" والتي أُلغيت بموجب اتفاق الاتحاد استمرت بالعمل إلى يومنا هذا ولكنها بدأت تفقد قوتها شيئاً فشيئاً.

ولقد تلقيت بطاقة تهنئة من جندي بمناسبة قدوم السنة الجديدة لعام ١٩٩٤ ولقد أرفق الجندي مع البطاقة رسالة حيث أبدي تذمره من قيام قائد وحدته بشتم الذات الإلهية. ولقد تساءل الجندي فيما إذا كان عليه أن يتحمل ذلك ويقاسيه كما كان يفعل أيام كان في الجيش اليوغسلافي حيث كان الشتم أمراً اعتيادياً. ولقد تحدثت عن هذه القضية خلال خطاب ألقيته في جلسة رسمية للهيئة الإدارية لحزب العمل الديموقراطي والتي عُقدت بتاريخ ١٢ كانون الثاني (يناير) في سرايفو.

"لقد أجريت مشاورات مع القيادات العسكرية قرب كونتيش قبل نحو أربعة أو خمسة أيام. ولقد وجهت في نهاية اللقاء مع العسكريين التوصيه التالية ولقد كانت توصية مقتضبة وجاء نصّها كما يلي: "تشبهوا بالأمة التي أنتم منها. إنها أمّة شجاعة، ذكية، وأبيّة. لا داعي لأن يكون التشبه بها مدعاة للخجل حتى ولو كان ذلك يعني أن تتحمل جزءاً من عيوبها. لقد كنت أفكر في شيء محدد جداً عندما وجهت تلك النصيحة للجنود. إن أمتنا أمة مؤمنين ولو أنهم لا يترددون على المساجد كثيراً كما نعلم جميعاً حق العلم. ولكن لا يسمح لأحد بالتهجم والتعدي على أي من مقدساتها. يوجد هناك حوادث يقوم بها البعض بشتم الذات الإلهية. إن هذا لا يجوز فنحن لا نطلب من جنودنا أن يكونوا صائمين أو مصلين.

ولكن ما نطلبه منهم هو أن يقاتلوا بأمانة وشرف وليعتقدوا المعتقد الذي يريدون. ولكن لن يسمح لهم بشتم الذات الإلهية. إن هذه هي رسالتي لهذا اليوم ويجب أن تكون رسالتكم أنتم كذلك. فلقد حدثت مثل تلك الأمور لسوء الحظ ولقد أرسل بعض الجنود إليّ مبدين امتعاضهم من ذلك".

لربما أنني قد تجنيت على ضباطنا بعض الشيء في ذلك الخطاب نظراً لأن احترام الدين كان أحد التعليمات في جيش البوسنة والهرسك. ولقد كانت الحوادث المتفرقة التي ذكرت هي الاستثناء وليس والقاعدة.

ولقد عقدت جلسة عاصفة نوعاً ما لمجلس الرئاسة البوسني في ٣ شباط (فبراير) ١٩٩٤. حيث أبدى نياز دوراكوفتش تذمره من عدم عقد جلسات مجلس الرئاسة كثيراً، ومن أن اتخاذ الكثير من القرارات يتم بشكل فردي وبمعزل عن النظام المؤسسي، ومن عدم التوزيع المتكافئ للمسؤوليات والواجبات بين أعضاء مجلس الرئاسة. ولقد شاطره كل من كلويتش وبيغانوفتش الرأي ولكن بطريقة أكثر تحضراً.

ولكن كان الاعتراض مبنياً على أسس صحيحة نوعاً ما حيث إنني اعترفت بذلك خلال الجلسة. فلقد كان من الأهمية بمكان أن نحافظ على وحدة مجلس الرئاسة في ظل تلك الظروف الصعبة والاستثنائية. ولقد ركز البيان الذي صدر بعد الجلسة على ما يلي:

"لقد قررت رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك القيام بما يلي نظراً لإثارة الكثير من وجهات النظر المتفاوتة والمآزق المرتبطة بالوضع والعلاقات في داخل مجلس الرئاسة:

أولاً: لا يوجد هناك أي صدامات شخصية ولا صراع من أجل السلطة داخل المجلس. بل وعلى العكس من ذلك فإن المجلس يبدي وحدة سياسية فيما يخص القضايا الأساسية وللمركزية لدولة البوسنة والهرسك المعترف بها دولياً، وفيما يخص كفاحها من أجل الحفاظ على وحدة أراضيها وسيادتها والسمعة الديموقراطية والمدينة المميزة لها. ويعبر المجلس أيضاً عن دعمه التام في كفاحه من أجل التحرير ومساندته لجيش البوسنة والهرسك مع التزام تام بتحقيق السلام العادل، ولذا فإن مجلس الرئاسة يرفض كل التخرصات الحاقدة وغير المبنية على أسس صحيحة في هذا المجال.

إن أعضاء مجلس الرئاسة يتفقون جميعاً في أنه لا مجال الآن لأي عملية انفصال سياسي خلال هذه اللحظات التاريخية الحاسمة، وأن الانتقادات الموجودة هي من أجل تقوية موقع ودور الرئاسة نفسها والمؤسسات الشرعية الأخرى للدولة".

كان "تخصص" التشتنيك في أثناء الحرب هو قصف للمستشفيات، والمكتبات، والأسواق، وطوابير الناس الذين ينتظرون للحصول على الخبز والماء. وكانت الأخيرة هي أكثرها مأساوية حيث إن قذيفة واحدة موجهة توجيهاً دقيقاً كانت كافية لقتل عشرات الأشخاص، وفي بعض الأحيان عائلات بأكملها. ولقد أطلقوا قذيفة على رتل يقف من أجل الحصول على المياه في سراييفو في ١٩٩٣/١/١٥. كان ذلك عند الساعة الثانية بعد الظهر، حيث تجمع أكثر من ٣٠٠ شخص بينهم الكثير من النساء والأطفال للحصول على مياه في ذلك اليوم الشديد البرودة من أيام كانون الثاني (يناير). وقُتل خلال ذلك القصف ثمانية أشخاص من ضمنهم زوجان هما عزز وعاصم لاتشفتش فيما أصيبت ابنتهما دليلة[١] وأربعون شخصاً آخرون بجروح خطرة. وأطلقت في الخامس من شباط (فبراير) قذيفة من المواقع الصربية باتجاه ميركوفيتشي فقتلت ٦٨ شخصاً وجرحت ١٤٢ آخرين حيث أصابت سوق ماركاله. وقتل قبل يوم من ذلك تسعة من سكان سراييفو في قصف لضاحية دوبرينيا حيث كان القتلى ميرزا وسلمى سباهتش.

ولقد أرسلت رسالتين في الخامس والسابع من شباط (فبراير) إلى مانفريد فيرنر الأمين العام لحلف الأطلسي حينها. ولقد أنهيت الرسالة الثانية بالكلمات التالية: "أيها السادة لقد مضى على بداية جحيم سراييفو أكثر من ٧٠٠ يوم. لقد حان الوقت لوقف آلة القتل الصربية والقضاء عليها، والتي تقتل الناس، وتدمّر أماكن العبادة، والمدارس، والمستشفيات".

---

(١) تسكن دليلة الآن في شيكاغو حيث تزوجت هناك.

أدت كلتا المأساتين التي تعرض لها سكان سراييفو في غضون أيام قليلة إلى إيقاظ ضمير الغرب لفترة وجيزة، لقد وجّه حلف الناتو إنذاراً نهائياً للصرب في التاسع من شباط (فبراير) يقضي بضرورة قيامهم بسحب أسلحتهم الثقيلة من دائرة قطرها عشرون كيلو متراً حول سراييفو. خلال عشرة أيام. وثم قبل الصرب القيام بذلك بعد تلكؤ في بادئ الأمر، ولكنهم احتفلوا بذلك على أنه نصر لهم بشكل يثير الاستهجان. احتفلوا بشواء الثيران وإطلاق العيارات في الهواء في مواقعهم في تريبفتش. ولقد أعلن ممثل الأمين العام للأمم المتحدة في البوسنة والهرسك الياباني ياسوشي أكاشي في العشرين من شباط (فبراير) أنه لا يوجد هناك سبب يستدعي القيام بتوجيه ضربات جوية ضد قوات كارادجتش الصربية حيث إنهم قد قاموا بالمطلوب من وجهة نظره.

ولن يمكن التأكد إن قام الصرب فعلاً بسحب أسلحتهم الثقيلة من محيط سراييفو، أو أنّ أكاشي أراد أن يرى الأمور على ذلك النحو، أو أنه كان معصوب العينين، أم أنه قام بذلك بكل رحابة صدر. ولكن وصلتنا الأخبار مع بداية الربيع أن مدفعية الصرب مازالت متمركزة حول المدينة. وتأكد ذلك بشكل قاطع في تموز (يوليو). ولقد قمت بتوجيه رسالة إلى الأمين العام لحلف الناتو وإلى قيادة قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة في زغرب أطلب فيها القيام بعمل ناجح لحماية كل "المناطق الآمنة" وبخاصة المناطق العازلة حول سراييفو وغوراجده. ولم يتم القيام بأي شيء بهذا الخصوص. لقد تغاضى كل من الأمم المتحدة والناتو عن خرق الصرب للإنذار النهائي دون القيام بأي شيء. وبدأ في آب (أغسطس) تساقط القذائف مرة أخرى على المدينة. كان القصف متفرقاً في بادئ الأمر ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى نفس الجحيم الذي عاشته المدينة في السنة السابقة. واستمر ذلك عاماً كاملاً آخر حيث استمر تحديداً حتى بداية الضربات الجوية لحزب الناتو ضد الصرب في ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٩٥.

ولقد ظهر د. حارس سيلادجتش في ٧ أيار (مايو) ١٩٩٥ على شاشات التلفاز وأعلن عن عدد ضحايا القصف المستمر لسراييفو وبحضور عدد من السفراء المعتمدين لدى سراييفو، خاصة بعد القصف على حي بوتمير الذي أودى بحياة تسعة، وأدى إلى إصابة أربعين بجروح. وأظهرت الأرقام التي ذكرها سيلادجتش أنه قد قتل ٢٤٠ مدنياً في سراييفو خلال ثمانية الأشهر الأخيرة بقذائف ورصاص القناصة من مناطق العزل حول المدينة. أي إن كل أولئك قتلوا بعد فرض مناطق العزل تلك بما فيهم ٢٦ شخصاً قتل خلال شهر نيسان (أبريل) وحده. ولقد سقط ١٤ ضحية مدنيّة في الأول من أيار (مايو). وأثرّ بيانه على أولئك الحاضرين ولكن القصف لم يتوقف.

قابلنا الشكوك المستمرة المتمثلة بإمكانية قيامنا بقصف أنفسنا باستهجان كبير. فكلما استدعى سقوط قذيفة أدت إلى مقتل أبرياء كان هناك ضرورة إعطاء حكم جازم بمسؤولية طرف ما. كان خبراء قوى الأمم المتحدة والذين بقوا دائماً خبراء مجهولي الهوية على نحو يثير الريبة يعطون تقريراً غير محدد ودقيق مدّعين بأن القذيفة قد تكون أطلقت من الجانب الصربي أو المسلم. ولقد صرح القائد العام للناتو الجنرال جولوان لصحيفة آفاز اليومية في سراييفو بعد سنوات من انتهاء الحرب أنه كان يتذمر من عدم قيام ضباط قوى الأمم المتحدة" بتسمية الأمور بمسمياتها. ولقد طلبت منهم أن يفسروا الأمور كما تحدث على أرض الواقع، ولكنهم لم يقوموا بذلك أبداً. " لقد أدت تلك الردود المبهمة إلى منع إمكانية القيام بأي شيء حتى ولو كانت هناك إرادة سياسية لفعل شيء ما.

لقد كان بوسع العالم أن يستمر في حياته اليومية دون أي تأنيب للضمير، بينما استمر مسلسل قتل المدنيين، ولقد تطرقت إلى الموضوع في أثناء حديثي عن الوضع في سراييفو في مؤتمر حزب العمل الديموقراطي الذي عقد في الخامس والعشرين من آذار (مارس) عام ١٩٩٤.

"إن العالم أجمع سيذكر سراييفو رمزاً للمعاناة، وكذلك للمقاومة أيضاً. يقال بأنه قد تم إطلاق حوالي ٧٠٠ ألف قذيفة علنيا، ولذا فقد كان ذلك نوعاً من الاختبار لقدرات الصمود البشري. ولقد أظهر ذلك كله أن المهم هو ليس مدى قوة المرء كي يوجه ضربة، لكن المهم هو قوة المرء من أجل تحمّل ومقاومة الضربة التي توجه إليه".

قامت قواتنا في إطار عملية أطلق أعليها "ربيع عام ٩٤" بتاريخ ١٩٩٤/٤/١٢ بالاستيلاء على معقل فييناتس القوي قرب توزلا. وتمكن حوالي ١٢٠٠ جندي من قوات الفيلق الثاني من دحر حوالي ٤٠٠ جندي من قوات العدو حيث قتل ٥٣ منهم، وأسر حوالي ٥٦ فيما كانت خسائرنا ثلاثة قتلى و٢٥ جريحاً.

وكذلك قام الصرب بشن هجوم في ربيع عام ١٩٩٤ على منطقة غوراجده وهي إحدى المناطق التي أعلنتها الأمم المتحدة "مناطق آمنة". كان الهدف من ذلك الهجوم احتلال المدينة وتصفية المدافعين عنها وطرد سكانها المدنيين. ووصلت الأزمة هناك إلى ذورتها في أوائل شهر نيسان (أبريل). وقامت قوات الناتو بتنفيذ ضربات جوية محدودة ضد مواقع الصرب حول غوراجده في يوم الأحد العاشر من نيسان (أبريل). ولقد كانت هناك مظاهرات تأييد للمدافعين عن غوراجده في إسطنبول ومدن تركية أخرى، وكذلك قامت مجموعة كبيرة من الطلاب بالتظاهر أمام مقر الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس بتاريخ ٤/١٢ احتجاجاً على هجمات الصرب على المناطق الآمنة. واستطاعت القوات المدافعة عن المدينة وقوامها نحو ٦٠٠٠ جندي يساندهم سكان المدينة كلها الصمود في وجه القوات المهاجمة التي تفوقها عدداً لمدة شهر. ولقد كانت خسائر الطرفين مرتفعة جداً.

قامت قوات من وحدة (أوجي – ٧) الجنوبية بتنفيذ هجوم في العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤ على مجمّع هوسار حيث حررته في العملية التي

استغرقت عشرين دقيقة. لقد كان ذلك نصراً مهماً للعمليات باتجاه تيسليتش. وقامت قوات من الفيلق الأول بشن هجومين أولهما من الأول وحتى الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) وثانيهما من الثامن والعشرين وحتى الحادي والثلاثين من نفس الشهر في منطقة تريسكافيتسا واستطاعت تحرير ما مساحته حوالي ستين كيلو متراً مربعاً من الأراضي والذي أدى إلى دحر القوات الصربية بعيداً عن "بوابة سراييفو".

وكانت البوسنة آخذه بالتغيّر تحت وطأة الحرب المدمّرة. ولقد تساءلت تماماً ماذا تبقى منها بعد كل هذا: هل ما زالت على قيد الحياة بعد كل تلك الضربات الموجعة؟ وحاولت الإجابة عن هذا السؤال في مؤتمر الحزب في ١٩٩٤/٣/٢٥.

"لطالما تساءلت عما أصبحت عليه البوسنة بعد كل ما حدث، ما هي البوسنة اليوم؟ بالطبع أنا أعرف ما هو ليس بالبوسنة. لقد تغيّرت البوسنة. لقد قتل ٢٠٠ ألف شخص، وتشير أقل التقديرات إلى إجبار حوالي ٦٠٠ ألف على النزوح عن ديارهم، ودُمّر حوالي ٨٠٠ مسجد، ودُمّرت مئات البلدات والقرى. إن النتيجة الحتمية لكل ذلك هو تغيّر شعور الناس. إن البوسنة سوف تكون مختلفة سواءً للأفضل أم للأسوأ. وطبعاً نحن نأمل أن تعتبر للأفضل. نحن نقاتل كي نحافظ على البوسنة داخل حدودها الحالية، فلدينا كل الحق في القيام بذلك. ولكن يجب ألا ننسى أن نأخذ بعين الاعتبار في جميع حساباتنا وتحليلاتنا كل التغيرات الفظيعة التي حدثت. ويجب أن نتذكر دائماً بوصفنا أناساً جادّين بما أنهم لم يقتلوا البوسنة فلقد جعلوها أقوى من السابق.

لقد قلت: إن بلدنا البوسنة والهرسك غدت محكّاً أخلاقياً للإنسانية كلّها حيث تعلمون أن العديد أخفقوا في هذا الاختبار الأخلاقي. وإنه لمما يثلج صدورنا أن العديد من الجوانب الإيجابية لمعاني وقيم الإنسانية كانت معنا نحن. وعندما زرت أمريكا مؤخراً اقترحوا عليّ القيام بزيارة معرض للفنانين الأمريكيين المعاصرين. ولقد فعلت فاكتشفت أن كل المعرض كان موضوعه سراييفو. لقد كدت ارتكب غلطة لا تغتفر

عندما أردت أن أرفض الذهاب إلى المعرض. ولكن الخمسين فناناً الذين أقاموا المعرض أرادوا أن يطلعونا على حقيقة شعورهم فجأة تجاه مدينتنا وأن هذه هي طريقتهم في مساعدتنا.

ولذلك فإن البوسنة هي قضية أخلاقية ودائماً تكون القضايا الأخلاقية ذات صبغة عالمية يهتم بها كل رجل وكل امرأة.

وتوجهت بناء على مبادرة مجلس الرئاسة في البوسنة والهرسك بتاريخ ١٩٩٤/٨/٥ بخطاب إلى مواطنينا في المناطق الواقعة تحت احتلال جيش كارادجتش:

"يا مواطني البوسنة والهرسك في المناطق الواقعة تحت الاحتلال مؤقتاً، إنني أخاطبكم باسم رئاسة البوسنة والهرسك، أدعوكم بالالتزام بالسلام بغض النظر عن السبب الذي يبقيكم حيث أنتم الآن".

لقد فشل مشروع "صربيا الكبرى".

فشل لأنه كان مشروعاً أقيم على أساس تدمير دولة البوسنة والهرسك المعترف بها دولياً، بل وإن الأسباب الأسوأ الكامنة وراء فشل ذلك المشروع هي التطهير والإبادة العرقين. فهل يمكن لأي دولة أن تحصل على مقومات الحياة إذا ما تم تأسيسها على قتل وتشريد السكان المدنيين، وتدمير أماكن العبادة، والمكتبات، والمستشفيات؟

هل تعلمون وهل أخبروكم أن ٨٣ دولة من بينهما كل الدول العظمى والرئيسة قد اعترفت بدولة البوسنة والهرسك؟

إنني أخاطب كل أولئك الذين لم تتخضب أيديهم بدماء الأبرياء، وأقول لهم: إنهم موطن ترحيب في دولة البوسنة والهرسك. نحن نقبلكم مواطنين لهم حقوق كاملة في دولتنا دولة الجميع، بشرط أن يكون لديكم التزام بالسلام، وأن تكونوا ضد الحرب، إن جيشنا الذي يخدم الصرب والكروات أيضاً ليس جيش انتقام. إنه ليس جيشاً معادياً للصرب. إنه الجيش الذي يحمل علماً ترفرف عليه زهرة الزنبق الذهبية

وليس جمجمة القتل. إن وطننا المشترك وأرضنا البوسنة والهرسك استوفت جميع الشروط كي تصبح دولةيتم فيها احترام وحماية حقوق الجميع.

وفي هذه الإثناء يجب أن تقوموا بكل ما يمليه عليكم واجبكم الإنساني ألا وهو أن تنضموا إلى العدد القليل الباقي من البشناق والكروات وآخرين من جيرانكم في بانيالوكا، ويريبدور، وسانسكي موست، وبوساتسكي برود، وبرتشكو، وبيلينها، وترينيه والمدن الأخرى المحتلة مؤقتاً في بلدنا والدفاع عنها وعن أناس يتعرضون لخطر التشريد والطرد: يجب أن تتوقفوا عن الانصياع لأوامر أولئك الذين يدعونكم لمواصلة الحرب والمعاناة. فلا يمكن أن تكون هناك نهاية ناجحة لمشروع يعارضه العالم بأسره".

ولقد قام معظم سكان مدينة فيليكا كلادوشا بالانسحاب مع الوحدات شبه العسكرية التابعة لفكرت عبدتش بعد تحريرها في آب (أغسطس) عام ١٩٩٤. ولقد حاولنا جاهدين أن نجعلهم يعودون أدراجهم ولكن دون جدوى. ولم يجدِ نفعاً حتى عرض بالعفو العام. فلقد استطاعت دعاية عبديتش المسمومة أن تفعل فعلها على أسوأ الصعد. لقد كان مثالاً حرفياً للسلطة الشيطانية لوسائل الإعلام من السيطرة على عقول الناس فوق ذلك فقد منع صرب منطقة كينين عودة اللاجئين، فلماذا كان صرب كينين سيقومون بالسماح بإعادة خمسة آلاف جندي قوي من جمهورية البوسنة والهرسك قام عبدتش بتسليمهم إياهم بكل سهولة؟ ولقد رددت بالرد التالي على سؤال حول مصير فكرت عبديتش في لقاء مع صحيفة (سلوبودونا دالماسيا) في الثاني من أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٤:

"أعتقد أن فكرت عبديتش قد انتهى سياسياً، لقد تسبب بضرر كبير لقضية البوسنة والهرسك ولكفاح شعبنا العادل، ويوجد رموز سلبية لما حدث فلقد وجد عبدتش نفسه في نهاية المطاف في مصاف أولئك الذين قتلوا سكان مناطق كراينا، وبربيدور، وكوزاراتس والذين دمّروا كل ماهو مقدس لنا في بانيالوكا والبوسنة ككل. إن هذه هي النهاية المنطقية لأناس مثل عبدتش. وما نأسف عليه هو أنه أخذ معه بعض الأبرياء خلال تلك المأساة، ونحن نحاول وسوف نستمر بالمحاولة للقيام بكل شيء من أجل تخليصهم من ذلك المأزق".

واستمرت القوى العظمى بالمراوغة. ولقد سألني صحفي من (أوسلويودجينيه) بتاريخ ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٩٤ السؤال التالي: "ما المستقبل الذي ينتظرنا جميعاً"؟

وكان ردّي كالآتي:

"عندما اقترب الشتاء الفائت حاولت أن أدوّن كل العوامل التي كانت تؤثر حينها في المستقبل القريب لبلدنا، ولقد كتبت تلك الأسباب واحداً بعد واحد حتى بلغ عددها ثلاثين. ومن ثم حاولت تحديد أهمية وأثر كل من تلك العوامل. ولقد وجدت أن معظمها لا يمكن التنبؤ به. ولم يكن مفاجئاً لنا أن يكون فصل الشتاء هو أحد تلك العوامل، فطالما تساءلنا: هل سيكون فصلاً طويلاً، قاسي البرودة أم معتدلاً؟ ولكن ما كان جديراً بالاهتمام هو أن أسئلة مشابهة لذلك طرحت حول كيفية تصرف عدد من دول العالم المؤثرة. فلقد بدت سياساتهم بالنسبة إلي متقلبة وصعبة التوقع تماماً كفصل الشتاء القادم. دعونا لا ننسى أمراً واحداً هو أنه قبل بداية هذه الحرب وبينما كان ما يسمى بأوربة الجديدة يتم الاحتفاء بها بكل أبهة واحتفالية، من كان يظن أن أوربة نفسها سوف تتصرف على هذا النحو الجبان الذي تصرفت به، إذ سمعت بقيام حرب عدوانية على بلد اعترفت باستقلاله هي نفسها للتو، وهاهي تتغاضى عن الإبادة العرقية ومعسكرات الاعتقال وما إلى ذلك؟ ولكن هذا ما حدث وما زال يحدث ونشعر جميعاً بوقع المفاجأة من ذلك التصرف".

ولقد زرت نيويورك مرة أخرى في ٢٧ أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٤ لحضور الدورة التاسعة والأربعين للجمعية العمومية للأمم المتحدة.

ومن هناك كان الوضع في البوسنة حرجاً للغاية. وهنا حاولت للمرة الألف لفت انتباه العالم إلى خطورة الوضع هناك.

"أنا من البوسنة والهرسك وهي بلد بعيد، ولكنه مدار كثير من الحديث هذه الأيام.

ولسوء الحظ فإنني سوف أبدأ كلمتي بتكرار بعض الحقائق التي هي معروفة للعديد منكم أو ينبغي أن تكون كذلك.

عندما أصبح تفكك يوغسلافية أمراً حتمياً قبل أكثر من ثلاث سنوات قمنا بكل شيء بوسعنا القيام به من أجل أن يجري التفكك بأكثر الأساليب سلميّة ودون وقوع أعمال عنف.

وعندما قامت كل من سلوفينيا وكروانيا بمغادرة الاتحاد أصبح أمر تفكك يوغسلافية لا مناص منه، قمنا نحن بإجراء استفتاء على مستقبل البوسنة والهرسك بشكل ديمقراطي. وتوجه مواطنو البوسنة والهرسك إلى صناديق الاقتراع في الأول من آذار (مارس) من عام ١٩٩٢ وصوتوا بغالبية الثلثين من أجل إعلان استقلال البلاد. وتبع ذلك الاعتراف الدولي باستقلال البوسنة والهرسك، وكذلك تبع ذلك أيضاً العدوان عليها. لقد تم اتخاذ قرار الاعتراف باستقلال البوسنة في الخامس من نيسان (أبريل) وثم إعلانه في السادس من نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٢ فيما بدأ عدوان صربيا والجبل الأسود على البوسنة في الخامس من نيسان (أبريل) وهو ذات اليوم الذي تم فيه الاعتراف دولياً باستقلال البوسنة والهرسك.

وما زال ذلك العدوان مستمراً يشتد أحياناً ويضعف أخرى، ولكن دون أية آمال بنهاية قريبة له.

إن الحرب التي فُرضت على البوسنة والهرسك وشعبها والتي دخلت شهرها الحادي والثلاثين هي أكثر حروب البشرية دمويّة عبر التاريخ.

إن نتائج هذا الصراع غير المتكافئ هي كالتالي:

لقد تم احتلال ٧٠٪ من أراضي الدولة خلال الشهور الأولى للحرب، وقُتل أكثر من ٢٠٠ ألف مدنيّ، وأجبر مليون من سكان البلاد أي ما يعادل ربع عدد السكان الكلي على مغادرة منازلهم وتم حرق وتدمير المئات من البلدات والقرى.

لذا فإن هذه ليست حرباً كلاسيكية بين جيشين. إنها حرب جيش ضد المدنيين يصحبها إبادة عرقية والتدمير غير المسبوق للمراكز والمباني الثقافية والدينية.

ولم يكن رد العالم على هذه الهمجية رداً ملائماً. فلقد بدا العالم مشوشاً وغير حازم لأمره. إما بسبب فظاعة وهمجية الهجوم، أو بسبب قلة الاستعداد النفسي

والأخلاقي، أو بسبب انهماكه في اهتماماته المتضاربة. ولقد صُدم العالم من ظهور صور لمعسكرات اعتقال جديدة في أوربة، ولكن بقي المسؤولون صامتين في مناصبهم ولم يحركوا ساكناً. لقد قتل عشرات الآلاف من أولئك المحتجزين في معسكرات الاعتقال تلك فيما لا توجد معلومات عن آثار الآف الآخرين.

وكلما ازدادت قسوة ووحشية الهجمات أصبح العالم متردداً أكثر فأكثر في اتخاذ إجراء ما.

إن العالم الحر لم يدافع عن الحرية ولم يقم بحمايتها، ولذا فقد قرر شعبنا أن يدافع عن نفسه مدفوعاً بخطر التعرض للإبادة. ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام سخافة أخرى. وجدوا أيديهم مقيدة؟ لأنه وقبل بداية الحرب قامت الأمم المتحدة بتبني القرار المشهور الذي حظر استيراد الأسلحة إلى جميع أراضي يوغسلافية السابقة. ومن ثم اندلعت الحرب وتغير كل شيء. وظهر من هم الضحايا ومن هم المعتدون ولكن بقي قرار حظر الأسلحة على حالة وكأنّ شيئاً لم يتغير في الوقت الراهن. لقد تحولت العدالة إلى إجحاف وظلم صريحين. حيث كان لدى القوات المعتدية أسلحة قاموا بتخزينها خلال مدة تزيد عن أربعين عاماً فيما كان الضحايا غير مسلّحين وتُركوا وأيديهم مقيّده خلف أظهرهم. ولقد انعكس مردود قرار حظر الأسلحة سلباً علينا. فلقد أدى استمرار اختلال التوازن في تسليح الطرفين إلى إطالة أمد الحرب وحوّل مفاوضات السلام إلى مجرد إملاءات من قبل الطرف الأفضل تسليحاً.

أرسلنا رسالة إلى العالم مفادها أنه لا يتوجب عليكم أن تأتوا لتدافعوا عنا. ولكن دعونا على الأقل ندافع عن أنفسنا، ودعونا نوحد جهودنا سوية. يجب أن تعترفوا بحقنا بالدفاع عن أنفسنا بينما يُقتل أطفالنا، وتغتصب نساؤنا، ويتم تدمير كل ما هو مقّدس لدينا.

ومع ذلك فما زال حظر الأسلحة مستمراً حتى اليوم. وعملياً فإن قواتنا تجابه المدفعية والدبابات ببنادق فقط. لقد فقدنا العديد من جنودنا وتظهر الإحصاءات الموثوقة أن ٩٠٪ من أولئك الجنود قد قتل بسبب قذائف المدفعية والدبابات. إن مدننا، وبلداتنا وقرانا قد تُركت عرضة لآلة عسكرية لا ترحم وضعت في أيدي قتلة.

ولقد قتل ١٠ آلاف شخص في مدينة سراييفو وحدها فيما جُرح ١٥٠ ألفاً آخرون، فلا تكاد نجد عائلة فيها إلا وقد قتل أو جرح أحد أفرادها.

ومع ذلك كله فإن الرسالة الوحيدة التي تلقيناها من العالم بهذا الخصوص هي: "فاوضوا".

ورفضنا المفاوضة لوقت طويل نظراً لاعتقادنا بأن الطريق الوحيد المشروع كان هو أن ندافع عن بلدنا وأعتقدنا بأن العالم المحب للحرية سوف يهب لنجدتنا في ذلك الكفاح المشروع.

وأخيراً فلم يبق أمامنا خيار سوى التفاوض، خاصة وأن شعبنا لم يعد يطيق المعاناة واستمرار العالم في عدم مبالاته.

وظهر واضحاً أن المعتدين استخدموا المفاوضات وسيلة لكسب الوقت وللتغطية على عدوانهم المستمر.

وقمنا في آذار (مارس) من عام ١٩٩٣ بالتوقيع على خطة فانس- أوين بعد مفاوضات طويلة وصعبة حين قدّمنا العديد من التنازلات. ولكن رفض المعتدون التوقيع على الخطة.

وتبع ذلك جولة دموية أخرى من الحرب ثم جولة أخرى من المحادثات، وكانت النتيجة هي خطة سلام مجموعة الاتصال المكونة من خمس بلدان هي الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانية العظمى، وفرنسة، وألمانية، وروسية، التي وضعت في تموز (يوليو) من هذا العام.

وكان خيارنا هذه المرة أيضاً هو السلام. فيما كان خيار المعتدين الحرب مرة أخرى. وقبلنا عرضاً كان من الواضح أنه عرض لسلام غير عادل. من أجل إنهاء الحرب، قمنا بذلك لأننا نعتقد بأن خطة السلام الجائرة يمكن أن يتم تعديل مسارها خلال سنوات السلام. ولأننا نعرف روح البوسنة فنحن آمنّا وما زلنا نؤمن أن السلام سوف ينقذ ما نسميه البوسنة فيما الحرب ستدمر ذلك كله.

إن ما نطلق عليه اسم البوسنة هو ليس مجرد قطعة أرض في البلقان. إن البوسنة

بالنسبة إلى العديد منا هي فكرة.إنها المعتقد بأن الشعوب من مختلف الأديان، والقوميات، والتقاليد الثقافية يمكنها العيش سويةً وإذا ما حدث ودُفنت الفكرة للأبد، وإذا ما قُدّر لحلم التسامح بين شعوب المنطقة أن يختفي دون رجعة فإن كل اللوم عندها يجب أن يلقى على أولئك الذين ما زالوا يقتلون البوسنة بقذائف مدفعيتهم منذ ثلاثين شهراً. ولكن يجب أن نلقي باللوم أيضاً على معظم القوى العالمية التي كان بإمكانها المساعدة ولكنها رفضت.

غادرت سراييفو منذ يومين، ولم أغادرها جواً لأن المطار مغلق. بل غادرتها عبر الطرقات الجبلية تلك التي تمر بالغابات، وهي طرق تتعرض لإطلاق نار دائم حيث يقتل الناس هناك يومياً. ولا يوجد في المدينة كهرباء، ولا ماء، منذ أيام، حيث تم عزل المدينة وهي تحتضر بكل معنى الكلمة.

لكن ومع ذلك لم يتم القيام بأي شيء.

وتلقيت بالأمس رسالة من سريبرينيتسا وهي بلدة على نهر الدرينا محاصرة منذ بداية الحرب كان من المفروض أن تكون الرسالة تقريراً، ولكنها كانت أشبه بصرخة من ذلك الجحيم الحقيقي. ولا أجد في نفسي القدرة على قراءة الرسالة مرة أخرى.

وبدأت موجة جديدة من التطهير العرقي منذ ثلاثة اشهر. حيث أجبر آلاف المدنيين على مغادرة منازلهم في بانيالوكا، وبيلينا، وباينا وبلدات أخرى واقعة تحت سيطرة جيش كارادجتش وجريمتهم الوحيدة هي أنهم ليسوا صرباً.

وكذلك لم يتم القيام بأي شيء. لقد أصبح الأمر وكأن العالم غدا معتاداً على السماح بالقيام بخرق أبسط المبادئ الأساسية للقانون الدولي. إن هذا وضع مزر ويجب أن يكون مثار اهتمام كل إنسان من العامل بغض النظر عن بعده أو قربه من البوسنة.

ولقد رفضت مطولاً وما زلت أرفض أن أؤمن بنظرية المؤامرة التي تقضي بأن كل ما يحدث في البوسنة يحدث بسبب وجود غالبية من السكان المسلمين، وأن هناك قوىً خفية تحث الصرب على إفناء المسلمين البوسنيين.

إن الذين يؤمنون بذلك لديهم وجهات نظرهم. وأعتقد أنكم قد سمعتموها. لأنه من الواضح أن البوسنة هي في قبضة عدوان صارخ مصحوب بإبادة عرقية ومعسكرات اعتقال وأشكال أخرى من أسوأ أشكال الفاشية.

ولا بد أن يكون العالم ضريراً كي لايرى كل ذلك. فإما أن العالم ضرير أو أنه يتقبل الشر وهو يعيه. وبما أن العالم ليس ضريراً فلا يبقى سوى الاحتمال الثاني. هذه هي الطريقة التي يقدموا فيها تلك الفكرة وازداد عدد الذين يؤمنون بذلك يوماً بعد يوم. ولن يكون أمراً طيباً أن يعتقد المليار مسلم في جميع أنحاء العالم هذا الاعتقاد نفسه وأن يقبلوا تلك الفكرة.

وساندت الأحداث الأخيرة المتعلقة بخطة سلام مجموعة الاتصال من وجهات نظر أولئك الذين يقبلون بنظرية المؤامرة.

والسبب أنه إذا ما استعرضنا خطة السلام تلك لوجدنا أن هناك خمساً من الدول الكبرى تدعم الخطة في البوسنة والهرسك وهو ما يشكل أغلبية المجتمع الدولي، ونصّ الاتفاق بوضوح على أنّ الذي يرفض الخطة من الطرفين سوف تتم معاقبته فيما سيتم حماية الطرف الآخر الذي يقبل بها. وما حدث كان العكس. فلقد رفض الصرب الخطة وتّمت مكافأهم على ذلك برفع العقوبات عنهم، وقبلنا نحن الخطة وتمت معاقبتنا على ذلك بعزل سراييفو كلياً عن العالم الخارجي. وجرى كل ذلك عن نحو متزامن ومتوازٍ.

إن الرسالة التي تصلنا غالباً من أرفع المناصب في الأمم المتحدة هي كالتالي:

إذا ما طالبتم برفع لحظر الأسلحة وحققتم مطلبكم فإن قوات الأمم المتحدة سوف تنسحب من البوسنة والهرسك.

إنني بالطبع لم أقم بهذه الرحلة الطويلة والمرهقة من البوسنة إلى أمريكا كي أقوم بإعلامكم بالحقائق التي يعرفها معظمكم. إننا نؤمن في البوسنة أن الخير والعدل لن يُهزما مهما كانت العوائق والصعوبات ولم نفقد بعد ايماننا بأن العالم سيصبح أفضل، وأن علينا الكفاح من أجل ذلك دائماً. أجيء إليكم اليوم ومثل ذلك الاعتقاد معي كي أتحدث إليكم وأنقل إليكم مقترحاتنا على الرغم من كل الإحباطات، وخيبات الأمل التي مررنا بها وعرفناها.

ونحن ندعو الجمعية العامة ومجلس الأمن إلى القيام بما يلي:

١- تطبيق جميع القرارات التي تبنّاها مجلس الأمن فيما يخص البوسنة والهرسك.

٢- اتخاذ التدابير اللازمة لمراقبة الحدود بين صربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك من أجل منع أو اكتشاف نقل الجنود، والأسلحة، والعتاد العسكري.

٣- أن يتم فوراً إلغاء القرار برفع بعض العقوبات عن صربيا (وهو قرار مجلس الأمن رقم ٩٤٣) وفرض عقوبات أشد أشارت إليها خطة مجموعة من الاتصال في تموز (يوليو) في عام ١٩٩٤ إذا ما تم اكتشاف وضبط نقل تلك الأسلحة والجنود والعتاد.

٤- ألا يتم تحت أي ظرف تخفيف العقوبات عن صربيا والجبل الأسود حتى تعترف الدولتان باستقلال البوسنة والهرسك وكرواتية.

٥- أن يتم تبني قرار فوري لتعزيز حماية وزيادة مساحة المناطق الآمنة التي نصّ عليها قرارا مجلس الأمن رقم ٨٢٤ و٨٣٦ بما يتوافق مع الالتزامات المنصوص عليها في النقطة السادسة من خطة مجموعة الاتصال.

٦- أن يتم اتخاذ قرار يمنع خنق سراييفو. ويجب أن تتضمن تلك التدابير إجراءً يسمح بفتح ممر إلى المدينة على طول خطوط الاتصال الشمالية، وذلك من خلال إنشاء منطقة منزوعة السلاح بعرض ٢,٥ كلم على جانبي الطريق. إن احتمال استخدام القوة لمنع خنق سراييفو منصوص عليه من روح الفقرة الرابعة من قرار حلف الناتو من ٩ شباط (فبراير) ١٩٩٤.

وسوف تقبل حكومة البوسنة والهرسك صيغة جديدة ومعدّلة لقضية حظر الأسلحة شريطة الالتزام بكل ما سبق وشريطة أن تستمر قوة الأمم المتحدة بالقيام في مهمتها.

وسوف نحدِّد مطلبنا لرفع حظر الأسلحة بتبني قرار رسمي، مع تأجيل تنفيذ القرار لمدة ستة أشهر.

وعندها يمكن لقوات الأمم المتحدة البقاء في البوسنة والهرسك، وسوف تكون مجموعة الاتصال قد أوفت بوعودها، وسوف يفهم صرب كارادجتش رسالة واضحة بهذا الشأن، وأود أخيراً أن أحدد التزامنا بنقطتين أساسيتين:

١- إن هدفنا الذي لا رجعة عنه هو الوصول إلىبوسنة وهرسك ديمقراطية داخل حدودها المعترف بها دولياً حيث تضمن الحقوق القومية والدينية، والسياسية لكل مواطنيها. وقد يحصل الصرب في البوسنة عندها على أقصى حد ممكن من الحكم الذاتي ولكن لن يتأتى لهم الحصول على دولة داخل الدولة.

٢- إننا نؤمن بأن لدينا كل الحق في الدفاع عن أنفسنا تماماً كأي شعب آخر. ولهذا فإذا ما تم رفض قبول الحل الوسط الذي اقترحناه بشأن قضية الحظر على الأسلحة لسبب أو لآخر فإننا سوف ندعو أصدقاءنا إلى رفع الحظر فوراً، حتى ولو كان ذلك من جانب واحد.

وأخيراً أود أن أغتنم هذه الفرصة كي أتوجه بالشكر إلى كل أصدقاء البوسنة والهرسك الذين يساندون كفاحنا من أجل الحرية والبقاء.

وتخليت عن مطلبنا بضرورة رفع الحظر على الأسلحة، لأنه لم يكن أمامي خيار آخر. إن مشاعري تجاه ذلك الموضوع تعبر عن نفسها في تصريح لي لصحيفة (التايمز) اللندنية بتاريخ ١٨/١١/١٩٩٤.

- "التايمز: ماذا تود لو يحدث الآن من وجهة نظر عسكرية وسياسية؟

- عزت بيغوفتش: إن هدفي هو الحفاظ على البوسنة وضمان مكان خاص بالشعب المسلم فيها. إنكم تخطئون عندما تعتقدون أننا نريدكم أن تحضروا جيوشكم كي تحققوا لشعبنا دولته وحريته. يجب على شعبنا بنفسه أن يضمن له مكاناً تحت الشمس، فنحن لا نطلب من أحد أن يقدم لنا الحرية على طبق من ذهب. ولذلك فإننا لا نسعى للحصول على تدخلكم المباشر، بل نحن نطلب منكم ألا تعيقوا كفاحنا من أجل البقاء. ولكنكم غالباً ما تعيقوننا جاعلين بذلك كفاحنا الصعب أصلاً أكثر صعوبة. ومثال على ذلك الابتزاز الذي تمارسه قوة الأمم المتحدة حيث يخبروننا دوماً أننا إذا ما أردنا الحصول على السلاح والحرية فسوف تسحب الأمم المتحدة دعمها من الغذاء والدواء. إن ذلك يذكّرني بإغواء الشيطان لعيسى عليه السلام في الصحراء. إنه يتم إجبارنا على المناورة والقيام بحركات تكتيكية، ولكنني متأكدٌ من أننا لن نبيع أرواحنا للشيطان".

ولقد صاحب تلك التكتيكات الإجراء العسكري. إذ قمنا بعملية كوبريس قبل وقت قصير من إجراء تلك المقابلة مع صحيفة (التايمز) وكانت قوات مجلس الدفاع الكرواتي وللمرة الأولى في الحرب إلى جانبنا وضد قوات كارادجتش وبشكل علني. وتم تخطيط وتنفيذ العملية في الفترة ما بين ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٩٤ بمشاركة حوالي ٥٥٠٠ جندي من جيش البوسنة والهرسك. وتم تحرير بلدة كوبريس ومنطقة واسعة محيطة بها في إطار هذه العملية المسمّاه (كو بريشكا فراتا) أو بوابات البوسنة.

ولكن الحرب استمرت سجالاً بين أخذ ورد. وتناوبت الأنباء عن النجاحات العسكرية مع تلك الواردة عن الأزمات، فما كدنا نستمتع بتحرير قواتنا لكوبريس حتى جاءت الأخبار السيئة من منطقة كرايينا. حيث بدأ هجوم واسع لقوات كرادجيتش وبالتعاون مع فكرت عبديتش في الأيام العشرة الأولى من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في منطقة بيهاتش، وانضم بعد عدة أيام لتلك القوات وحدات شبه عسكرية من صرب كينين بقيادة ماتيش. وتقدم العدو على كل المحاور وهدد بالاستيلاء على بيهاتش نفسها. ولقد تلقيت في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) رسالة من الأمين العام لحلف شمال الأطلسي فيلي كلايس يعلمني فيها بقيام قوات الحلف الجوية الليلة الفائتة بضرب مطار أودبينا على حدود منطقة كنين. وكان الهدف من تلك الضربات حسبما أفادت الرسالة هو وقف الهجمات على بيهاتش التي كانت أعلنت منطقة آمنة بموجب قرار سابق صادر عن مجلس الأمن. وكان الثوار الصرب بقيادة مارتيش يسيطرون على المطار الواقع داخل الأراضي الكرواتية خلال أربع السنوات الماضية وعليه فلقد طلب الحلف إذناً من الرئيس الكرواتي تودجمان بضرب المطار الذي أعطى موافقته على ذلك.

ومع ذلك فلم يساعدنا ضرب مطار أودبينا كثيراً. واضطررنا للتخلي عن فيليكا كلادوشا بعد ٤٥ يوماً من القتال المرير. وبدا الأمر بعدها كأن الهزيمة

باتت وشيكة مما دفع وزير الدفاع الأمريكي وليام بيري إلى الإدلاء بتصريح متسرّع وغير مسؤول قال فيه:

"إن الحرب في البوسنة قد انتهت بانتصار الصرب ويجب على العالم أن يتقبل ذلك الأمر". ولقد صُدمت بذلك التصريح. وقمت بالرد عليه في قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في بودابست حيث كان ذلك أيضاً رداً على آخرين كثيرين يتبنون مثل رأيه:

خطاب في قمة دول منظمة الأمن والتعاون الأوروبي

بودابست ١٩٩٤/١٢/٥

لقد ملأتني الأحداث الأخيرة في بلدي بالمرارة لذلك فإن كلمتي سوف تكون مختصرة ومباشرة.

إن هناك مفارقة نتيجة لوجودي هنا في هذا المنتدى الهام لمنظمة تم تأسيسها قبل عشرين عاماً لغايات الأمن والتعاون، وهما كلمتان من ضمن اسم المنظمة الرسمي. بينما حديثي سيتركز على شيئين مغايرين تماماً أولهما: انعدام الأمن والثاني غياب التعاون. إن ما يجري في البوسنة هو فشل للغرب على أقل تقدير ولكنه أيضاً شيء أكثر خطورة لسوء الحظ.

بلغ العدوان على البوسنة والهرسك منعطفاً جديداً قبل حوالي شهر لقد قام الثوار الصرب في كرواتية فيما يسمى منطقة محمية من قبل الأمم المتحدة بمهاجمة قوات الفيلق الخامس من الخلف مما خلق ما يسمّى بأزمة بيهاتش.

تم تنظيم الهجوم بحيث ينطلق من منطقة محمية في دولة ضد منطقة محمية في دولة أخرى. ولم يتم فعل أي شيء أو بالأحرى كان هناك الادعاء بأنه ليس هناك ما يمكن القيام به. فكيف لا يستطيع المجتمع الدولي ككل مثلاً بالأمم المتحدة وحلف الناتو القوي أن ينقذ بلدة واحدة تعرضت للخطر؟ هل هذا ممكن؟ وكيف يُعقل هذا؟ إليكم بعض الحقائق:

كانت منطقة بهاتش تواجه خطر المجاعة في ستة الشهور التي سبقت الهجوم، وذلك لأن قوافل المساعدات الإنسانية لم تكن تتمكن من العبور. إذ استطاعت ١٢ قافلة من بين ١٤٣ قافلة أن تعبر فقط فيما تم إعادة ١٣١ قافلة أخرى. ولقد قامت الكتيبة الفرنسية بمغادرة منطقة بيهاتش قبل بدء الهجوم مباشرة. ولقد حلت محلها قوات من بنغلادش، ولكنها كانت أقل عدداً وتسليحاً. وفرض تعتيم إعلامي كامل حيث لم يكن هناك أي مراسل صحفي أجنبي في المنطقة كلها فيما قللت قوة الأمم المتحدة في تقاريرها من شأن وحجم الهجوم. هل يمكن أن يكون هذا كله محض صدفة؟

وصرح مسؤول رفيع المستوى وبكل اهمال وسخرية للعالم أجمع وللشعب الذي يتهدده الذبح والإبادة أن الصرب قد ربحوا، كما ولو أنها كانت مباراة بكرة القدم أطلق فيها صفارته معلناً نهاية وقت المباراة. ولكن كون تلك كانت قضية حياة أو موت فإنها لم تكن النهاية، واستمر القتال الذي صمدت فيه بيهاتش وكلادوشا وتسازين وكروبا حتى الآن، وبعد شهر من الهجوم المستمر عليها. وأستطيع أن أعدد للمسؤول الذي ذكرته للتو العديد من الأمثلة على عدم صحة تنبؤ زملائه المحترمين في وزارته. فلقد وقع العكس تماماً من الذي توقعه وتنبؤوا به.

إذ عمدت كل من باريس ولندن على تقديم نفسيهما ومنذ البداية على أنهما راعيا وحاميا الصرب، حيث منعتا مجلس الأمن وحلف الناتو من القيام بأي شيء مما أدى إلى عرقلة أي محاولة لإنهاء الهجمات الصربية والحرب ككل. إن هذا ليس من كلامي بل هو ما ظهر جلياً في بيان أصدرته جمعية الشعوب المعرضة للخطر في غوتنغن.

وماذا عساني أن أقول حيال دور روسية؟ إنها تستخدم حقها بالنقض (الفيتو) في مجلس الأمن، وتصوت لصالح تزويد صرب كرواتية بالوقود في نفس الوقت الذي يحول فيه أولئك الصرب دون وصول المساعدات الإنسانية من الغذاء والدواء من الوصول إلى سكان منطقة بيهاتش الذين أصبحوا على حافة المجاعة. ويوجد كذلك السؤال الذي لا يمكن التغاضي عنه: من أين حصل صرب كارادجتش على الـ ١٥٠ صاروخاً التي يضعونها في أنحاء مختلفة من البوسنة؟

ماذا ستكون نتيجة الحرب في البوسنة التي استمرت إلى الآن بسبب خليط من عدم القدرة، والتأرجح مع سوء النية لدى الغرب؟ إن النتيجة ستكون كالتالي: فقدان مصداقية الأمم المتحدة، وإضعاف حلف الناتو، والسقوط الأخلاقي للأوروبيين لإخفاقهم في التعامل بشكل سليم مع أول تحدٍ يواجههم بعد الحرب الباردة. وسوف يصبح العالم عالماً آخر وأكثر سوءاً. لن تبقى فيه العلاقات بين أوربة وأمريكا، والغرب وروسية، والغرب والعالم الإسلامي على ماهي عليه. إنني هنا سوف أتفق مع أولئك الذين يتنبؤون بحدوث "الخزي والعار بسبب الانسحاب المشين من قضية البوسنة". سوف يلحقان بالعالم الغربي مع نهاية هذا القرن.

لقد أساء العديد تقدير ما يجري في البوسنة. لقد كانت في بادئ الأمر أزمة أقليمية، ومن ثم أصبحت أوروبيّة، والآن أصبحت من دون شك أزمة عالمية. لذلك فإن الدفاع عن بيهاتش أو سقوطها سيكون له دلالاته الدولية، ويجب أن يكون قضية تشغلنا هنا جميعاً.

لقد كان رد فعل الغرب على العدوان الهمجي، والإبادة العرقية غير المسبوقة ومعسكرات الاعتقال رداً أطلق عليه أنه رد إنسانيّ. فلقد كان كمن يستخدم المسكنات لمعالجة مرض خطير فيما تفاقم ذلك المرض كما كان متوقعاً أو كما كان مخططاً له. ومن ثم تحول ذلك "الرد الإنساني" إلى ابتزاز لشعبنا بل وحتى إلى ابتزاز مزدوج مؤخراً".

ونحن لدينا الحق في الحصول على المساعدة، لأننا لم نجلس دون أن نفعل شيئاً. بل أبدينا مقاومة غير متوقعة، بل واعتبرها البعض غير مفهومة. فلقد استطعنا أن نشكل جيشاً قوامه ١٥٠ ألف جندي بعد أن بدأنا الحرب ببضع مئات من الرجال الذين لا يتجاوز عدد المسلحين منهم ٢٠-١٥٠. ولقد قام أولئك الجنود بشلّ حركة عشرات الآلاف من جنود العدو ودمّروا أكثر من ألف دبابة وعربة مصفحة للعدو.

وكلما ازدادت قوة دفاعنا كلما أصبح استعدادكم لمساعدتنا أقل لماذا؟ هل هناك من إجابة؟

سيدي الرئيس: إن ما حدث ويحدث في البوسنة هو في واقع الأمر صدام ما بين الديموقراطية وأحد أسوأ أشكال القومية والعنصرية. إن خصمنا يعترف بأمة واحدة

ألا وهي أمته هو، ولا يعترف إلا بدينه هو فقط، ولا يقبل إلا بحزب سياسي واحد وهو حزبه. ولقد حكموا على كل ما ليس لهم بالفناء. حتى المقابر لم تسلم، وتم نبشها، اقرؤوا إن شئتم التقرير الأخير للمقرر الخاص للأمم المتحدة السيد مازوفيسكي، والذي يتحدث عما يحدث في المناطق الواقعة تحت سيطرة العدو.

وأود أن أسأل السادة الذين يعملون جادين من أجل خلق الكيان الوحش المسمى (جمهورية صرب البوسنة) والذين يجلسون معنا هاهنا اليوم: هل سوف تسعون قريباً لجلب الاعتراف الدولي بذلك الكيان المسخ؟ وهل سيحضر ممثلون عنه في المرة القادمة؟ إنني أطرح ذلك السؤال على أولئك الذين يقيمون التحضيرات لإقامة تلك الدولة التي قامت على العنف والإبادة العرقية هل ستقومون بدعوتها لحضور عائلة الدول المتحضرة؟

إنني ذاهب إلى جنيف في الغد من أجل اجتماع مع وزراء خارجية الدول الإسلامية وسوف أوضح لهم حقيقة الأمر في البوسنة بالتفصيل، وكما فعلت أمامكم اليوم، سأخبر القادة بذلك، وأبعث من خلالهم برسالة إلى شعوب الدول المسلمة.

إن هناك بعضاً من القيم غير المحسوسة غالباً، ولا يمكن إخضاعها للتحليل الدقيق في حالات الحروب التحريرية، وهذا هو السبب وراء التوقعات الخاطئة لبعض المحللين السياسيين والعسكريين في الغرب. إن شعبنا يقاتل من أجل الحصول على حريته، بل يقاتل من أجل ما هو أكثر من ذلك كله: إنه يقاتل من أجل البقاء على قيد الحياة. إن مثل ذلك الكفاح نادراً ما يكون كفاحاً خاسراً حتى لو كان صعباً ودموياً. ولا أرى أي سبب يجعل كفاحنا نحن يشذ عن تلك القاعدة، لن يستطيع أي شخص أن يجبر ولو جندياً واحداً من بين المئة وخمسين ألف جندي في جيشنا أن يلقي سلاحه مهما تعددت وسائل ذلك. لذا فإنني أوصي بأن يأخذ كل واحد منكم هذا العامل بالحسبان، فهذا أفضل بالنسبة إلينا وإليكم.

إنني آمل ألا يقوم أصدقاء البوسنة بتوبيخي على هذه الكلمات أما بالنسبة إلى الآخرين فإن الأمر لا يعنيني في نهاية المطاف. وشكراً لكم!

ولقد أجبت عن بعض أسئلة وكالة أنباء البوسنة والهرسك لدى عودتي من المؤتمر في ١٩٩٤/١٢/٧، وتالياً نص تلك المقابلة:

– وكالة أنباء البوسنة والهرسك: هل لديك سيدي الرئيس أي شيء جديد حول الحرب والسلام في البوسنة تخبر به الرأي العام بعد عودتكم من بودابست وجنيف؟

– عزت بيغوفتش: أعتقد أنني تحدثت عن هذا الموضوع كثيراً مؤخراً. ولربما ما أستطيع أن أضيفه هو أنه عندما نتحدث بلهجة أكثر صرامة فإن ذلك لا يعني أننا لسنا مهتمين بحل سلمي للحرب التي فُرضت علينا. بل على العكس من ذلك فإننا سوف نستمر كما كنا حتى الآن نكافح من أجل الحصول على سلام مشرّف ومبكّر لأن السلام هو ما يحتاجه شعبنا وليس الحرب. ولكن من الضروري بمكان أن نخبر العالم بما يجري هنا وعما يفعله العالم نفسه حيال ذلك. إن العالم مهتم جداً بأن نضع حداً للحرب بأي ثمن ووجد أن أسهل طريقة لتحقيق ذلك هو مناصرة الطرف الأقوى. ولكن يجب أن يعلم الجميع أن هذا التصرف بعينه يؤدي إلى إطالة أمد الحرب وسوف تستخدم كافة الوسائل السياسية والعسكرية في شعبنا لتحقيق السلام. سنلجأ للوسائل العسكرية، حيثما يتوجب علينا القيام بذلك، وسنستخدم الوسائل السياسية حيث يلزم أيضاً.

– وكالة الأنباء: ولكنهم يلوموننا لرفضنا عرضاً لوقف إطلاق النار في مؤتمر منظمة التعاون الأوروبي بالأمس.

– عزت بيغوفتش: إن هذا ليس بصحيح، فلقد رفضنا محاولة الروس مساواتنا بالمعتدين، إنهم يدعون "كلا الطرفين" ألا يعيقوا مرور قوافل الغذاء. وأنهم يدعون كذلك "كلا الطرفين" أن يتوقفوا عن القيام بأعمال عدائية وهكذا دواليك. إن هذا يشير ضمناً إلى أننا قمنا بمنع قوافل الغذاء من المرور، وهذا ليس بصحيح مطلقاً. فلم يحدث أن اعترضنا طريق قافلة أبداً. لن يستطيعوا أن يفلتوا بما يقومون به بعد الآن. ونقول لهم: أن وجهوا الدعوة إلى الصرب كي يسمحوا للقوافل بالعبور ويجب أن تسمّوا أولئك الذين يتخذون من الغذاء، والبنزين، والماء، والدواء وسائل حربية بعينه. ألا تثبت كل هذه القصة البائسة، والتي استمرت لأكثر من ثلاث سنوات والتي تم

إطالتها عمداً ودائماً أنه لا يمكن تحقيق أي شيء من خلال الكذب وأنصاف الحقائق، وأنها تعمل في نفس الوقت على إطالة أمد المعاناة؟ ساعدونا وقولوا صراحة من هو الطرف الذي يرتكب أعمال الشر في البوسنة؟ أما بالنسبة إلى وقف إطلاق النار غير المشروط فإنه يعني عملياً إدامة الاحتلال. لقد احتل الصرب الذين يمثلون ٣١,٧٪ من سكان البوسنة والهرسك ما مساحته ٧٠٪ من الأراضي ولا يريدون أن يتزحزحوا، ويبدو أن الروس يتعاطفون مع مطالبهم ويساندون ذلك، ولقد عرضنا وقفاً لكل العمليات العسكرية لمدة ثلاثة أشهر، وما زال ذلك العرض على طاولة المفاوضات.

– وكالة الأنباء: هل يتعلق ظرفنا الحالي بالأزمة في حلف الناتو، طبعاً، هذا إذا ما وافقت أن هناك أزمة في الناتو؟

– عزت بيغوفتش: إن الأزمة التي ذكرت واضحة داخل الناتو. لقد تم إنشاء الناتو كردع للتهديد السوفييتي، لقد كان وليد مواجهة استمرت ٤٠ عاماً بين عالمين إذا ما جاز التعبير، وينظر الأوروبيون إلى الأمر على النحو التالي: لقد زال الخطر إذن لا داعي لأمريكا وحلفها (الناتو). أعتقد أن هذه الخلاصات هي سابقة لأوانها، ولكننا سنرى ولسوء الحظ فإن ذلك ينعكس سلباً على الوضع في بلادنا، إن قصتنا المأساوية تجري أحداثها في عالم متغير، حيث أصبح كل شيء فيه غير محدد، وغير ثابت. ويتم الآن تشكيل تحالفات جديدة مما يخلق في بعض الأحيان صعوبات لم تكن متوقعة ولم تكن في الحسبان.

– وكالة الأنباء: ما النتيجة التي يجب أن ننتظرها إذن؟

– عزب بيغوفتش: لا يوجد شخص واحد في العالم يستطيع أن يعطيك إجابة لهذا السؤال الآن يمكن الاعتماد عليها. إن الشيء الوحيد المؤكد هو أننا سوف نستمر بالدفاع عن أنفسنا".

ولقد أصبح الوضع العسكري في كرايينا يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. حيث كانت هجمات قوات ماريتش المنطلقة من الأراضي الكرواتية مصدر قلق كبير

لنا. وعلى الرغم من أن الحكومة الكرواتية لم تكن مسؤولة عن تلك الهجمات كونها من تخطيط وتنفيذ قوات الثوار التابعين لمارتيش، فلقد أرسلت الرسالة التالية الى الرئيس الكرواتي فرانيو تودجمان:

"لقد بدأ كما تعلم هجوم عسكري قوي على منطقة بيهاتش الآمنة خلال عشرة الأيام الماضية. وجاءت معظم تلك الهجمات من كرواتية بخاصة من المنطقة الآمنة الخاضعة لرقابة الأمم المتحدة في بلدكم. وتتوارد المعلومات عن حشود لقوات أخرى في نفس المنطقة على أهبة الاستعداد للقيام بهجوم مباشر من محاور مختلفة على بيهاتش وفيليكا كلادوشا.

وتعرضت تلك المنطقة الى هجوم جوي قبل ثلاثة أيام. وجاءت الطائرات من مطار أودبينا داخل الأراضي الكرواتية.

وعلى الرغم من الظروف الاستثنائية لانطلاق الهجمات على الأراضي البوسنية هي ظروف معروفة بالنسبة إلينا إلا أننا ندعوكم وفي إطار روح تشريعات القانون الدولي أن تقوموا باتخاذ كل الإجراءات الضرورية لمنع شن تلك الهجمات ضد البوسنة والهرسك انطلاقاً من تلك المنطقة في بلدكم.

ونحن أيضاً نتوقع منكم القيام باتخاذ تلك التدابير بموجب روح المادة الثامنة التي تحدثت عن التعاون العسكري بين بلدينا بموجب اتفاقية الصداقة والتعاون التي وقعناها بتاريخ ١٩٩٢/٧/٢١ وملحق تلك الاتفاقية في ١٩٩٢/٩/١٣".

لقد تم استغلال أي وضع تتعرض فيه لضغط عسكري من أجل زيادة الضغط السياسي علينا، وتمثل الاستغلال هذه المرة بمحاولة اقامة اتحاد كونفدرالي بين صرب البوسنة ويوغسلافية (أو صربيا بالأحرى). ويشير الى ذلك سؤال في مقابلة أجرتها معي صحيفة ليليان الأسبوعية في ١٩٩٤/١٢/١٠.

ولقد كان السؤال على النحو التالي:

– ليليان: يقال بأن آخر خطة لمجموعة الاتصال الدولي حول البوسنة والهرسك طرحت أدنى ما يمكن طرحه من السياسات الوطنية، ألم يكن هدف الصرب في تلك الهجمات تغيير ذلك بحيث يصبح بإمكانهم الدفع باتجاهات جديدة من موقع الابتزاز ومن أجل إضفاء نوع من الشرعية على العدوان؟ ماذا كانت نوايا المعتدين الصرب من القيام بذلك الهجوم على بهاتش، وماذا يجري وراء الموافقة المبطنة لما يُسمى بالمجتمع الدولي على مثل ذلك العدوان؟

– عزت بيغوفتش: ببساطة شديدة لقد كانت هذه المحاولة لإضعافنا، ولم يكن محض صدفة، إنه وفي أوج الهجوم على منطقة تسازين الحدودية كان هناك عملية ضغط سياسية فلقد تعرضنا لغزو من السياسة التي لم يكن مغزاها شيء يتعلق بالوضع العسكري في بهاتش بل في إيجاد حل سياسي. ولقد قرّر العديد من الناس أن الوقت قد حان لهزيمتها. وكما تعلم فإننا نقاوم بنجاح الهجمة العسكرية ضد الفيلق الخامس، وكذلك الهجمة السياسية على خطة السلام".

– ولقد أرسلت في الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) رسالة إلى أهالي منطقة كراپينا:

"أيها الشعب الشجاع في منطقة كراپينا":

لقد تابع كل شعبنا خلال الخمسة والعشرين يوماً الماضية كفاحكم البطولي من أجل الحياة والحرية. لقد حشد العديد من الشرق والغرب مصحوباً بقوات الخونة. ونريدكم أن تعلموا أنكم لستم وحدكم في هذا النزاع غيرالمتكافئ، فنحن نقوم بكل ما في وسعنا من أجل مساعدتكم. سوف نهزم العدو وسوف نعمل على تقديم كل المجرمين والخونة الى المحكمة.

إن جيشنا الذي أنتم جزء لا يتجزأ منه يبذل جهداً على جميع الجبهات كي يساعدكم ويخفف من ضغط الهجوم عليكم. إنه يحاول أن يشتت عدداً لا بأس به من قوات العدو على خط جبهة طويل مما يدعم بالتالي مقاومتكم، ولقد نجح جيشنا بالقيام بذلك إلى حد ما.

إن العدو يبث دعاية خبيثة فعندما يخسرون معركة فإنهم يتحدثون عن انتصارات، وعندما يتكبدون الهزائم فإنهم يدعوننا إلى طاولة المفاوضات.

لا تخضعوا للعدو، ولا تنخدعوا بقصصهم التي تهدف زرع التشويش والارتباك في صفوفنا والإضعاف من عزيمتنا على المقاومة.

وكذلك لا تنتظروا الكثير من العالم الخارجي. إن أفضل موظفينا يتابعون تلك الاتصالات دون كلل ولا ملل، ويؤدون واجبهم بكل إتقان، ولكن مصيرنا يتم تحديده في البوسنة ويعتمد علينا جميعاً. من أجل ذلك دعونا نرصّ الصفوف، ودعونا ندعم قوات وقيادة الفيلق الخامس الشجاعة في كل مكان. دعونا نحافظ على كرامتنا سواءً في حالة الهجوم أو الدفاع. وليعمل كل فرد على القيام بواجبه على أكمل وجه وأن يقوم بدوره وسوف يكون النصر حليفنا بإذن الله.

وأكرِّر نريدكم أن تعلموا أنكم لستم وحدكم، إن الجيش يقاتل إلى جانبكم ويراقب شعبنا مقاومتكم بإعجاب مصحوب بالدعاء لكم".

ولقد استمر فرض وترويج فكرة إقامة الاتحاد الكونفدرالي بين صرب البوسنة وصربيا. ولقد أصبحت الفكرة تتردد أكثر فأكثر في تصريحات بعض من الدبلوماسيين الغربيين، حتى تكون لديّ انطباع أن تلك التصريحات لم تكن محض صدفة. ولذا فإنني قمت في الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) بإرسال رسالة الى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون أوضح فيها موقفنا الرافض لقبول تلك الفكرة. وكان نص الرسالة كما يلي:

"من المفترض أن أستقبل ممثلي مجموعة دول الاتصال الخمسة في سراييفو هذا اليوم. ولقد تم إبلاغنا بأن مجموعة الاتصال سوف تقترح ترتيباً دستورياً يمنح الصرب حق تشكيل اتحاد كونفدرالي خاص بهم مع صربيا.

إنه من الواضح أن غاية هذا الحل هو نهاية البوسنة مما سيضفي ظلالاً من الشك حول إمكانية بقاء شعبنا.

ولهذا السبب فإننا لن تقبل بهذا الحل.

ونذكركم بأننا قد قبلنا خطة السلام التي اقترحتها مجموعة الاتصال وإننا قد عرضنا قبل يومين وقفاً لإطلاق النار ولمدة ثلاثة شهور في جميع أنحاء البوسنة والهرسك، وإننا قد قبلنا بخطة قوة مراقبة الأمم المتحدة من أجل وقف فوري لإطلاق النار في بيهاتش.

ورفض الصرب كل مقترح جدّي من أجل حل سلميّ للنزاع في البوسنة.

وإنه لمن دواعي أسفنا أن هناك تنازلات لا تجوز قد تم تقديمها للطرف المعتدي الذي لا يعترف إلا بشعب واحد (شعبه هو) ودين واحد (دينه هو) وحزب سياسي واحد (حزبه هو) وحكم على كل شيء ليس له بالفناء.

وبما أنه أمر حياة أو موت بالنسبة إلى شعبنا فإنني أجد نفسي ملزماً بأن أحيطكم علماً بأننا لن نستسلم وأنه لا خيار أمامنا سوى الاستمرار بالمقاومة بغض النظر عن النتيجة.

وتفضلوا بقبول فائق احترامي،،".

وجاء الرد سريعاً وحاسماً، وأورد هنا بعضاً مما أورده الرئيس بيل كلينتون في معرض رسالته التي حملت تاريخ ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٤:

"أود أن تكون الأمور واضحة. إن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تستمر في تأييد بقاء البوسنة والهرسك بلداً موحداً ضمن حدودها الحالية. أما بالنسبة لتغطية الكونفدرالية التي ذكرت في رسالتك فإن موقفنا لم يتغير: نحن لا ندعم قيام اتحاد كونفدرالي بين صرب البوسنة وصربيا".

ولقد لخصت وضع الجيش وموازين القوى في النصف الثاني من عام ١٩٩٤ في معرض ردي على سؤال صحفي من جريدة أسلويودجينيه اليومية في سراييفو (٣٠ آب "أغسطس").

"لقد كنا نعلم أن أي حل يكون مفضلاً لنا يجب أن يسبقه إنشاء جيش قوامه ٢٠٠ ألف رجل وأن ذلك يستغرق وقتاً. وها نحن قد وصلنا الى تلك المرحلة الآن.

ولقد تم تحقيق نوع من توازن القوى، ولكن ذلك التوازن ليس متماثلاً. فلدينا الأفضلية في العامل البشري من حيث العدد والروح المعنوية) بينما يتفوقون هم من الناحية الفنية. ونحن نحاول جاهدين لتقليص الهوة ما بين الجيشين من حيث العتاد العسكري، ولقد حققنا بعض النجاح على ذلك الصعيد. ولكن ما زال العتاد غير كافٍ. ولقد نجحنا في تحييد تفوقهم في سلاح المدرعات، لأننا حرصنا على امتلاك أسلحةٍ حديثة مضادة للدبابات. ولكن ما زلنا لا نملك رداً كافياً ومناسباً على مدفعيتهم، أما بالنسبة لقذائف (الهاون) فإنني أعتقد أننا سنتمكن من تفاديها قريباً جداً".

لقد لعبت الدول المسلمة دوراً هاماً في كفاح البوسنة والهرسك ضد العدوان. فلقد قدمت لنا مساعدات مادية، وعسكرية، وسياسية هامة. فلم يسبق أن كان المسلمون متفقين على قضية البوسنة خلال القرون الأخيرة كما كان اتفاقهم في هذه الأيام كما يقول صموئيل هنتغنتون الذي أضاف قائلاً: "لقد كانت قضية البوسنة قضية هامة في البلدان المسلمة. فلقد اتفق الجميع على ذلك سواء كانوا سنة أم شيعة، عرباً أم غير عرب حيث تضافرت جهود جميع المجتمعات الإسلامية من المغرب وحتى ماليزيا". وهنتغنتون في ذلك يؤيد نظريته حول "تصادم الحضارات" حيث يصف ذلك بأنه "أكثر التجمعات الحضارية فعالية وأكبرها من أجل نصرة مسلمي البوسنة". على الرغم من أن نظرية هنتغنتون حول صدام الحضارات فيما يخص قضية البوسنة كان تأكيداً صحيحاً ودقيقاً.

لقد قامت دول منظمة المؤتمر الإسلامي بتشكيل مجموعة ضغط باقتراح من إيران، بحيث تقوم تلك المجموعة بدعم النضال البوسني داخل منظمة الأمم المتحدة. ومن ثم أقامت تركية كعضو في تلك المجموعة وبالنيابة عن دول منظمة المؤتمر الإسلامي بتقديم مقترح قرار يدعو الى تدخل عسكري بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

ولقد قامت منظمة المؤتمر الإسلامي في أيار (مايو) من عام ١٩٩٣ بتوجيه النقد اللاذع للخطة التي اقترحتها الدول الغربية وروسية من أجل إنشاء ما يسمى "بالمناطق الآمنة " متهمة إياهم بمحاولة عزل مسلمي البوسنة في إحياء مناطق على غرار أحياء الجيتو. ونجحت منظمة المؤتمر الإسلامي بعد شهر من ذلك في مؤتمر الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان بالحصول على قرار يدين العدوان الصربي والكرواتي، ويدعو إلى رفع لحظر الأسلحة المفروض على الجيش البوسني، وقدمت دول منظمة المؤتمر الإسلامي في تموز (يوليو) من عام ١٩٩٣ قوات قوامها ١٨ ألف جندي لتعمل ضمن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. ووافق الغرب على أخذ ٧ آلاف جندي من تركية، والباكستان، وماليزيا، وإندونيسية، وبنغلادش حيث انضمت تلك القوات إلى قوات الأمم المتحدة خلال عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥.

وتم توجيه الدعوة لي لحضور قمة منظمة المؤتمر الإسلامي التي ستعقد في كازبلانكا (الدار البيضاء) في المغرب خلال كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٤. ولقد ألقيت خطاباً أمام رؤساء دول وحكومات أكثر من خمسين دولة مسلمة كانوا يحضرون القمة.

مقتطفات من خطاب قمة منظمة المؤتمر الإسلامي

(الدار البيضاء، ١٣/١٢/١٩٩٤)

"أحييكم وأتوجه بالشكر إلى ملك وحكومة وشعب المغرب على كرم الضيافة الذي أبدوه.

أعتقد أنكم تعرفون كثيراً مما يجري في البوسنة والهرسك خلال السنتين والنصف الماضيتين. لقد قال أحد المؤرخين الأتراك مؤخراً أن الحدث الوحيد الذي فاق في بشاعته فظاعة التطهير الصربي العرقي ضد مسلمي البوسنة، كان غزو المغول لبغداد في القرن الثالث عشر الميلادي.

ويسمع المرء هنا وهناك في العالم الإسلامي آراء تقول بأنه لو لم تنفصل عن يوغسلافية لما حدث ما حدث، وإننا لو بقينا مع صربيا في الاتحاد اليوغسلافي لكان بإمكاننا تجنب الحرب.

يا سادتي إن هذا تفسير سطحي ولعله تفسير خبيث!.

لقد قمنا بدعوة القيادة السياسية في صربيا وكرواتية كي يشكلوا معنا يوغسلافية كونفدرالية يكون فيها الشعب المسلم على قدم المساواة مع الشعوب الأخرى في الدولة، وتكون فيها البوسنة والهرسك على قدم المساواة أيضاً مع صربيا وكرواتية. إن أولئك الذين شنّوا عدوانهم على بلادنا يوم اعترف المجتمع الدولي بها كدولة مستقلة أرادوا أن يخضعونا لسيطرة دولتهم هم، ألا وهي صربيا الكبرى والتي سوف لن تسمح لا للبوسنة والهرسك بالقيام كجمهورية ولا للشعب البشناقي المسلم أن يكون لهم أي اعتبار سياسي. وعلاوة على ذلك فإن المسلمين في تلك الدولة سوف يتم وضعهم في فوهة المدخل في حرب صربيا الكبرى ضد الآخرين بمن فيهم الشعوب المسلمة في البلقان.

ولقد رفضنا من خلال استفتاء أن تكون في ذلك الموقع الدونيّ الذي لطالما تم تخصيصه لنا طيلة سنوات مضت. ولم يكن أمامنا خيار سوى أن نقاتل دفاعاً عن حياتنا، وديننا، وكرامتنا. وعندما شرعنا في القتال لأول مرة ضد تقليد الإبادة العرقية في البلقان أدى ذلك إلى أن أخرج عدوّنا أقسى ما في مكنونه من ممارسات علنية وخفية معروفة وغير معروفة.

ولقد صُدِم العالم صد متين خلال هذه الحرب التي فرضت علينا. لقد كانت الصدمة الأولى هي المقاومة. فلقد توقع عدونا والعالم كذلك أن تتم هزيمتنا بسرعة كبيرة. ولكن ما حدث هو أن مقاومتنا أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم وازدادت أعداد الجنود كما لو كانوا ينبعون من الأرض. ولقد نجحنا في إنقاذ حوالي ٣٠٪ من أراضينا بالرغم من التفوق التقني للعدو واستطعنا إبعاد العدو أيضاً عن كل مدينة رئيسية تقريباً. ولقد كانت قواتنا تنتصر كلما كان القتال رجلاً لرجل. ولكن تبقى مشكلتنا هي الأسلحة الثقيلة التي يمتلكها عدونا.

أما الصدمة الثانية فتتعلق بالجانب السياسي من كفاحنا وحيث توقع العالم أن نقوم بعمليات انتقام بسبب بشاعة الفظائع التي تم ارتكابها وبسبب تحاملهم الكريه علينا، ولكن ذلك لم يحدث، بل على العكس فقد ثابرنا على المناداة بمجتمع ديمقراطي قائم على أساس من التسامح الديني والقومي، و بدا واضحاً أننا لسنا أناساً متطرفين ولا متعصبين كما يطلق العديد من المستشرقين الأوروبيين وبعض وسائل الأعلام الغربية على شعبنا أننا نحافظ على هويتنا الإسلامية مع بقائنا منفتحين على كل ذي قيمة في الشرق والغرب معاً.

نحن نحب أن نقول: إن هدفنا هو قيام دولة لا يضطهد فيها أحد بسبب دينه أو قوميته أو معتقداته السياسية فنحن ملتزمون بهذا المبدأ وسوف نستمر في دعمه وتأييده كذلك.

ستتمكن أخيراً وبفضل الله من أن نضع حداً لسلسلة جرائم الإبادة العرقية التي كانت ترتكب بحق شعبنا المسلم منذ ثلاثة قرون، ويساندنا في تلك الحقيقتين السالفتي الذكر، التي تتعلق أولاهما بالمجال العسكري فيما تتعلق الأخرى بالناحية السياسية.

ولقد واجه المعتدون هذه المرة ولأول مرة مقاومة منظمة ليس فقط على المستوى المحلي، وإنما على مستوى الشعب كله. وبما أنه لم يكن بالإمكان وجود مقاومة منظمة قبل هذه المرة، فلقد كانت المأساة تتكرر دوماً. وعلاوة على ذلك فإن المقاومة هذه المرة تتمحور في إطار تاريخي مختلف فنحن لم نعد وحدنا، وإنما العالم الإسلامي بأسرة يساندنا. لقد أصبحنا عاملاً سياسياً قوياً لا يمكن تجاهله بعد الآن ويساندنا كل شعوب العالم.

وأخيراً فلقد استطعنا أن نجعل البوسنة والهرسك مركز اهتمام الرأي العام العالمي. فلقد تحدثت قمتان مؤخراً بما فيها هذه القمة وقمة بودابست حيث تطرقتا إلى موضوع البوسنة.

فشلت محاولة العدو في تنفيذ مهمته الإجرامية بسرعة وتكتم شديدين إن كل ما يحدث الآن في البوسنة يحدث أمام الجميع، لقد أصبحت الظروف تساند المقاومة فيما جعلت مهمة المعتدي أكثر صعوبة.

يجب عليكم أن تقنعوا دول الغرب أن تعاونهم مع العالم الإسلامي يصب في مصلحتهم، وأنه يتوجب عليهم أن يقوموا بتغير سياساتهم تجاه البوسنة، ويجب أن يحاولوا إقناع العالم الأرثذوكسي أنه لا يوجد ما يكسبه من تعصب لقوميته واستخدامه للقوة، وأنه سيكون من الأفضل لهم أن يتفادوا مواجه محتملة مع العالم الإسلامي قد تمتد لسنوات عدة.

ويجب أن يعلم العالمان الغربي والأرثذوكسي أن المواجهة مع العالم الإسلامي لن تجدي، وأن البوسنة اختبار لسياسة مختلفة. يجب أن تقوموا بذلك. ويجب أن تستخدموا نفوذكم. فلقد حان الوقت لذلك.

ولقد وجهت دعوة لعقد جلسة برلمانية لجمهورية البوسنة لدى عودتي إلى البوسنة، حيث كان البرلمان ينتظر أن أقدم تقريراً عن الوضع العسكري والسياسي الراهن في البلاد. وقلت في الجلسة التي عقدت في ١٩٩٤/١٢/١٧ ما يلي.

لقد عدت للتو من المغرب البعيدة، حيث كنت شاهداً على التعبير عن التضامن مع البوسنة. فنحن لسنا وحدنا، ولن نبقى كذلك. ومع ذلك فإن ما يقرر مصير بلدنا هو ما نقوم به هنا في هذا البلد. أي إننا نحن الذين نعرف كيف نقوم به وما نحن قادرين على القيام به.

أما الوضع العام فإنه صعب على الرغم من أننا أقوى مما كنا عليه في السابق، وذلك لأنه طرأت سلسلة من الظروف يمكن أن نعدها سلبية بالنسبة إلينا. فلقد تم استغلال الوضع العسكري الصعب في بيهاتش من أجل خلق ضغط سياسي على بلدنا. فلقد تبع الهجوم على الفيلق الخامس هجوم على مواقعنا السياسية لم يكن أخف حدة من الهجوم العسكري. فعندما قمنا بالموافقة على خطة مجموعة دول الاتصال الخمسة قمنا بالتنازل إلى أبعد حد ممكن لا يمكن تجاوزه. وكان هذا الهجوم الصربي الذي يتزامن مع الضغط الدولي بحيث يجعلنا نتخطى ذلك الحد. أعتقد أنه أصبح من الواضح الآن لكل من بيهاتش ومراكز القوى المختلفة في العالم التي قامت بتنظيم الزيارات والمبادرات التي تهدف إلحاق الضرر والأذى بنا إننا صمدنا وتخطينا تلك الضغوط.

ونظراً لأن الوضع السياسي هو الذي يعتمد على الوضع العسكري فإنني سوف أقدم خطوطاً مختصرة للوضع على مختلف الجبهات. إن أهم ما يميز الوضع العسكري منذ بداية الحرب هو طول خط المواجهة. حيث يبلغ طول خط الجبهة ما بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠ كلم وهي أقل بقليل من الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الثانية وحرب العراق وإيران. لقد خلق خط الجبهة مشاكل هائلة ولعل نقطة العزاء الوحيدة هي أنها سبَّبت نفس المشاكل للعدو. ولكل تلك الظروف تأثير حتمي على تحركاتنا القتالية والتي تتلخص في توجيه المئات من الضربات الصغيرة للعدو على طول خط الجبهة، وبما أننا لا نملك أسلحة ثقيلة خاصة المدفعية فإنه لا يوجد إمكانية إحداث انقلاب استراتيجي في مسرح الأحداث. ويتلخص هدفنا في هذه الأثناء في إجبار خصمنا على خيار السلام، ويتمثل هدفنا أيضاً في إجبار العدو على التخلي عن خططه للإبادة العرقية، لاسيما هدفهم السياسي والحربي هو تدمير البوسنة دولة وإفناء الشعب البشناقي الذي يشكل العمود الفقري لتلك الدولة. وعندما يتخلون عن هدفهم في الإبادة العرقية فإن ذلك سوف يعني بالتأكيد هزيمتهم السياسية والعسكرية. لقد قلت: إن السلام هو هدفنا، وذلك من أجلنا نحن ومن أجل البوسنة أيضاً. إنه من أجلنا نحن؛ لأن شعبنا بحاجة إلى السلام، وإنه سلام من أجل البوسنة، ذلك لأن الحرب تدمر ما عليه البوسنة وما نريدها أن تكون عليه. إن السلام وحده قادر على إنقاذ البوسنة. وبقدر ما نتطلع نحن إلى السلام فإن عدونا يريد الحرب ويعمل على إطالة أمدها نظراً لطبيعة أهدافه التي لا تتحقق إلا بالحرب. إن المعتدي يعمل على تضليل شعبه والرأي العام العالمي عندما يعلن أن سبب رفضه لخطة السلام هي مجموعة الخرائط المقترحة. والحق أن عدونا لا يستطيع أن يقبل بالسلام، وذلك لأن السلام يعني فشل خطته في الإبادة العرقية وبدء مرحلة المحاسبة على الفظائع التي ارتكبت. لذا فإنه من المنطقي أن نتوقع قيام العدو دائماً بإيجاد أسباب جديدة لإحباط كل مبادرة سلام جديدة وإطالة أمد الحرب إلى ما لا نهاية. وبالطبع فإن شيئاً لن يغير الحقيقة وهي أن العناصر سيئة السمعة التي تحرك الإبادة العرقية والعدوان هي نفس العناصر التي سترتدي ثوب صانعي السلام. وتتحدث هذه العناصر عن السلام لخداع السذج وأولئك الذين يريدون أن ينخدعوا بأقوالهم. وكما تعلمون يتم الآن تحضير مهزلة من هذا القبيل.

إن المعركة من أجل بيهاتش تستعر الآن. إنها ليست معركة عادية، إن الجنود يعرفون هذا، وكذلك نحن، الناس العاديين، نشعر بذلك. والعالم كله يشعر أيضاً بذلك. ويتم اختيار وإقرار الكثير من الأشياء في تلك المنطقة الصغيرة المحيطة ببيهاتش. ولقد أدى ذلك إلى الكفاح المستميت الذي دخل الآن أسبوعه السابع. ولقد استطعنا، ولله الحمد، أن نحتفظ بالمواقع الحيوية. وبالطبع مازال الأمر غير واضح فيما يتعلق بعدم قيام كرواتية بالمشاركة في تلك الحملة للدفاع عن منطقة تخصها أيضاً.

وأقدم لكم الآن بعضاً من الملاحظات ووجهات النظر التي تتعلق بقضايا سياسة أساسية لم يقبل الجانب الصربي خطة سلام مجموعة الاتصال الخمسة إلى الآن. وإذا ما قبل بها، فإنه من المتوقع أجراء محادثات حول كل شيء ومتى يحدث ذلك فلا يوجد شيء للتحدث عنه. إنني أعني هنا المحادثات فيما يخص حلاً سياسياً. فمن الممكن أن نجري محادثات وحتى نتفق بخصوص القضايا الإنسانية ووقف لإطلاق النار إذا ما كان الطرف الأخر مهتماً بذلك وبموجب شروط معقولة.

لقد كان رفع العقوبات عن صربيا سابقاً لأوانه. فمن الواضح أن الحدود بين صربيا والبوسنة والهرسك لم يتم إحكام إغلاقها بعد، حيث يوافقنا على ذلك كل مراقب محايد ويؤكد ذلك هجوم التشتنيك على بيهاتش والذي سيكون مستحيلاً دون الدعم اللوجستي من صربيا. لذلك فإننا نعارض المزيد من رفع العقوبات، حتى يقبل صرب كارادجتش خطة السلام، وتعترف صربيا باستقلال البوسنة وكرواتية.

ونحن نرى، للأسف، أن روسية تساند وبشكل علني أولئك الذين يعتدون على البوسنة والهرسك. وتطرح السؤال دائماً على الحكومة البريطانية إذا ما كان شعبها يوافق على مساندتها لتشريع قيام كيان في البلقان لا يعترف بأدنى حق من حقوق الإنسان حيث تم تأسيسه على مبادئ الإبادة والتطهير العرقي والذي لا يعرف التصرف إلا بسلوك العنف والعجرفة.

ونحن نرحب بموقف فرنسة من البوسنة والهرسك ونطلب من أمريكا وألمانية أن يحددوا ويوضحوا سياساتهم تجاه البوسنة، وأن يلتزموا بتلك السياسات. وأما بالنسبة إلى العالم الإسلامي فإننا نتوقع منهم أن يفوا بوعودهم التي قطعوها في إعلانهم المتعلق بالبوسنة أمس.

ولا زلنا بحاجة إلى قوة مراقبة الأمم المتحدة، وسنكون سعداء عندما يأتي اليوم الذي نشكرهم فيه ونطلب منهم المغادرة. وحتى ذلك الحين فإننا نتوقع من ضباطهم أن يلتزموا بالقرارات الصادرة عن مجلس الأمن، وليس التوجهات السياسية لحكوماتهم. ونطلب من شعبنا أن يتعاملوا بود مع قوات الأمم المتحدة التي يقوم جزء كبير منهم بواجبه على أكمل وجه.

إن قيام اتحاد فدرالي بين البشناق والكروات هو توجهنا وطريقنا، وهو هدفنا لأننا نرى فيه تحقيقاً جزئياً لحلم تكامل البوسنة والهرسك، وهو طريقنا لأننا نرى فيه خطوة على طريق جعل ذلك التكامل كاملاً. إن صعوبات وضع دستور فدرالي تنبع من اختلاف وجهات النظر إزاء القضايا الأساسية المتعلقة ببقاء الدولة كأعلى مصلحة لشعبنا. وكثيراً ما سألنا أصدقاؤنا من الخارج الذين دعموا بإخلاص وولاء مثل هذا المشروع سؤالاً عن ماهية الصعوبات، وكان ردنا هو أن تطبيق الاتحاد الفدرالي هي مشكلة الديموقراطية. في نهاية المطاف، إن أحادية القومية والدين والحزب الطاغية على طبيعة السلطات في المناطق الخاضعة لسيطرة مجلس الدفاع الكرواتي هي على النقيض من مفهوم الاتحاد الفدرالي ودستوره. الديموقراطية هي وحدها التي يمكنها أن تحل تلك المشكلة الشائكة. وحتى ذلك الوقت فإننا سنضيع في متاهات للبحث عن مشاكل في غير أماكنها. إن هذا التحول الديموقراطي في المناطق التي ذكرت يصب في مصلحة الشعب الكرواتي وجمهورية كرواتية، حيث يجب عليهم جميعاً أن يشجعوا ويدعموا قيام مثل هذا المشروع. ولكن على الرغم من كل الصعوبات، لعبت اتفاقية واشنطن دوراً تاريخياً هاماً. وتستحق هذه الاتفاقية الثناء حتى لو كان كل إنجازها أنها وضعت حداً للحرب التعيسة بين التشتنيك والكروات. كما أن هذه الاتفاقية أيضاً فتحت المجال أمام إمكانيات واحتمالات، وإن لم يتم استغلالها جميعاً، إلا أنها ما زالت قائمة.

وظلّ موقفنا تجاه مسألة حظر الأسلحة ثابتاً. إذا لم يقبل الصرب بخطة سلام مجموعة دول الاتصال الخمسة، مع فترة تأجيل تصل إلى ستة أشهر على ألا تتجاوز الثلاثين من تموز (يوليو) ١٩٩٥ على أبعد تقدير، يجب أن يتم رفع حظر الأسلحة.

حان الوقت الآن لانتهاز الفرصة لأتحدث عن بعض النجاحات والإخفاقات حتى ولو بشكل مقتضب لبيان فيما إذا كنّا ارتكبنا بعض الأخطاء الجسيمة وفيما إذا كان

بالإمكان أفضل مما كان في خضم الفوضى العامة والارتباك في المنطقة. إن الإجابة التي يمكن الاعتماد عليها لهذا السؤال هي الإجابة التي تقدم بعد مرور بعض الوقت. وبالطبع أنتم تحتفظون بحق تقويم الأمور من وجهة نظركم التي سوف تلقى أذناً صاغية. أعتقد أننا نجحنا في أمرين هامين على الأقل. نجحنا في تنظيم دفاعنا حيث إننا استطعنا تشكيل جيش في أثناء الحرب يبلغ تعداده ٢٠٠ ألف جندي، واستطعنا الحفاظ على السمة الديموقراطية للحكومة. ونجحنا أيضاً في إبقاء اهتمام وتركيز العالم منصبين على البوسنة خلال الحرب مما زاد في صعوبة مهمة المعتدين والمجرمين. وبالمقابل فإننا فشلنا في توفير تمويل ثابت لاحتياجات اجتماعية هامة مثل الصحة والتعليم والقضاء والتقاعد. ولم ننجح أيضاً بالقيام بأي حركة مؤثرة فيما يخص قضية اللاجئين. ولقد كان أحدهم مصيباً عندما قال: إن الحرب في البوسنة هي حرب عالمية. وما يعنيه هو أن كل قوى العالم ذات العلاقة لها دور بشكل أو بآخر على أرض المعارك الفعلية والخفية. إن أكبر قدر من الأحداث التاريخية يجري اليوم هنا على هذه الأرض الصغيرة، ونحن نحاول أن نوصل بلادنا إلى بر الأمان. آملين بحدوث معجزة وإنهاء العاصفة في خضم مرحلة مضطربة من تاريخ العالم تختفي فيه إمبراطوريات قوية وتضمحل فيه مؤسسات وهيئات دولية مستقرة. وأخيراً وحول موضوعات الحرية فإن موقفنا الثابت هو أن تصبح البوسنة بلداً لا يتم اضطهاد أي شخص فيه بسبب دينه أو قوميته أو أفكاره السياسية. وغالباً ما أكرر تلك العبارة التي قلتها للتو. أكرّرها كثيراً وحرفياً نظراً لأنني أجد نفسي مضطراً لتكرارها إذا ما نظرنا إلى ما يجري حولنا. إن تلك الصيغة هي تعبير عملي عن التزامنا بالمبدأ الأهم والأعلى ألا وهو مبدأ الحرية. إن الحرية هي التي تعطي حياتنا معنى. إنها تجعل بالإمكان احتمال الحياة وتنير الدرب في كفاحنا الصعب والمرير.

ولقد وقّعنا على وقف إطلاق للنار مدته أربعة أشهر توسط فيه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، حيث جرى التوقيع قبيل نهاية عام ١٩٩٤ بسويعات عدة. وتلقيت في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) خلال مرحلة حرجة من المحادثات رسالة من وزير الخارجية وارن كريستوفر حثّنا فيها على التوصل إلى اتفاقية من أجل وقف الأعمال العدائية، بعد أن كنّا وقعنا اتفاقية وقف

إطلاق النار للتو. حيث كان ذلك فائدة عظيمة لنا. فلم يكن لدينا أي خسائر، لا قتلى ولا جرحى خلال الأسبوع الذي تلا توقيع الاتفاق وعلى جميع الجبهات باستثناء جبهة بيهاتش.

كان هدفنا المباشر من قبول وقف إطلاق النار هو إيقاف الهجوم على بيهاتش، ومن ثم محاولة تجنيب شعبنا لخسائر في الأرواح، ولكن من دون أن نتخلى عن هدفنا الأساسي وهو الحفاظ على البوسنة والهرسك دولة ذات سيادة داخل حدودها المعترف بها دولياً ومستقبلها بلداً حراً وديمقراطياً.

وتم تحديد الفترة الزمنية لوقف إطلاق النار من أجل تجنب إعطاء كارادجتش أفضلية استغلال الوضع كي يطيل فترة احتلاله لبلدنا إلى ما لانهاية. ولقد كان من المفروض في تلك الأثناء أن تبدأ محادثات حول إيجاد حل سياسي للنزاع. ولقد دعونا الجانب الصربي كي يقبل خطة سلام دول مجموعة الاتصال الخمسة شرطاً لبدء تلك المحادثات حول الحل السياسي. فلن يكون هناك محادثات سياسية من دون تأكيد الصرب الواضح والعلني على قبولهم لخطة السلام تلك.

وكانت حكومة البوسنة والهرسك قد تبنّت في اليوم السابق برنامجين للسنة المقبلة. أولهما هو تقوية إمكاناتنا الدفاعية، وثانيها تأمين حد أدنى من متطلبات الحياة لكل مواطن. وكان كلا البرنامجين على درجة عالية من التعقيد، وينطويان على عدد كبير من المهمات المحددة. وكانت الرئاسة ستعنى بالبرنامج الأول، فيما تعنى الحكومة بالبرنامج الثاني، بما يتوافق مع صلاحياتهما الدستورية والتزاماتهما وسلطاتهما على الرغم من أن كلا البرنامجين متداخلان ويعتمد بعضهما على بعض. حيث إن البلاد التي تعاني من الجوع لا يمكن أن يكون دفاعها سليماً، وفي نفس الوقت فإن إنتاج ما يسد الجوع يتطلب الدفاع عن البلاد. إن الدفاع عن البلاد يرتبط بالاقتصاد بطرق كثيرة. ويتوجب على القوات ومجتمع الأعمال أن يتفهما ويحترما تلك العلاقة وذلك الارتباط.

وتضمّنت رسالتي إلى شعب البوسنة والهرسك بمناسبة قدوم العام الجديد الكلمات التالية:

"إن الحرب يجب ألا تستمر يوماً واحداً أكثر مما ينبغي لها، ولكن لا يمكن قبول السلام مقابل أي ثمن.

ولهذا السبب فإننا نجري محادثات حيث نستطيع، ونحارب ونقاتل حيث يتوجب علينا ذلك.

ولن يتم تمديد وقف إطلاق النار إذا لم يظهر العدو خلال أربعة الأشهر القادمة استعداده للبحث عن حل سياسي معقول، ومن ثم سوف نوجه دعوة لرفع حظر الأسلحة اعتباراً من الأول من أيار (مايو) من السنة القادمة. ونذكر في هذا الوقت بالعرفان والاحترام أولئك الذين سقطوا في كفاحنا من أجل الحرية، وأولئك الذين سقطوا ضحايا للحرب.

ولا ننسى أيضاً لاجئينا الذين نتمنّى أن يتمكنوا من العودة إلى منازلهم في أسرع وقت ممكن. وكذلك نقول لجنودنا الصامدين في خط الجبهة في هذه الليلة الباردة من ليالي كانون الأول (ديسمبر): إننا معكم، ونفكر بكم. وليرحم الله أولئك الذين قضوا، وكل التهاني للذين بقوا على قيد الحياة، حيث استطاعوا أن يتحملوا العام الفائت بشكل صحيح وقويم. وطبعاً كل التمنيات الطيبة لكم جميعاً بعام جديد أفضل.

إن الله سوف يكون في عون الشعب الذي يعمل ويكافح من أجل الحرية."

ومضت أيام ثالث فصول شتاء الحرب بطيئة ومليئة بالألم، والبرد، والجوع. وتطلعنا إلى فصل الربيع بنوع من الأمل المبهم. وكان الشعور هو أننا نريد أن ينقضي شهرا كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) بأي شكل من الأشكال. حيث صمتت أصوات البنادق في معظم الجبهات باستثناء جبهة منطقة كرايينا.

ولقد تم عقد احتفال بسيط في قاعة الجيش في الأول من آذار (مارس) احتفالاً بذكرى استقلال البوسنة والهرسك. ولقد خاطبت الحاضرين يومها وفيما يلي مختصر لكلمتي التي ألقيتها:

"يذكّرنا هذا اليوم بالقلق والمعضلات التي واجهناها في حينه، ولكنه أيضاً يذكّرنا بالكفاح، والنضال، والبطولة، والضحايا. ولقد مضت ثلاث سنوات طويلة منذ ذلك الأول من آذار (مارس). صحيح ثلاث سنوات ليست مدة طويلة في عُمر الشعوب ولكن ما حدث خلال السنوات الثلاث تلك في هذا البلد الصغير هو شيء كثير، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي وشرير. فلقد حدثت معارك أكثر، وارتكبت فظاعات أكبر، وخيانات أكثر، وأظهرت بطولة أكبر، وكان هناك قصص موت وحياة أكثر مما حدث خلال ثلاثة قرون مضت من تاريخنا.

إن الطبيعة الهائلة لمستوى المعاناة وعدد القتلى يطرح سؤالاً لا بدَّ منه وهو: هل كان كل هذا العناء والكفاح من أجل الحرية هو الخيار الوحيد الممكن، وهل كانت هناك أية طريقة ممكن أن نتجنب بها هذا الصدام المأساوي مع التاريخ؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال تأخذنا إلى عام ١٩٩١ المليء بالاضطرابات، وتأخذنا بالتحديد إلى الحرب في سلوفينيا وكرواتية، والاستفتاءات التي أجروها، وإلى تفكك يوغسلافية، وإلى فوكوفار، ودوبروفنيك وكل ما رافق ذلك. لقد وجدنا أنفسنا على مفترق طرق تاريخي. وكانت الخيارات كالتالي: إما أن نذعن ونحني رؤوسنا ونبقى ضمن يوغسلافية مسخ، أو بالأحرى ضمن صربيا الكبرى، أو أن نرفع رؤوسنا عالياً، ونسلك الطريق الصحيح بالرغم من كل المخاطر المترتبة على ذلك الخيار.

واخترنا سلوك الخيار الثاني. وأقول: "اخترنا" مع أنني لست متأكداً إذا ما كانت تلك هي الكلمة الصحيحة الواجب استخدامها في هذا المقام؛ لأننا لم يكن أمامنا خيار آخر في واقع الأمر. فلقد تتابعت الأحداث متسارعة كما لو كانت جزءاً من مسرحية إغريقية قديمة. فلم يكن بالإمكان أن نوظف حريتنا بأي شكل آخر. حيث أن الناس الأحرار هم في الواقع عبيد للحرية نفسها.

لذا فإن الأول من آذار (مارس) كان قدرنا، وإنه من غير اللائق، بل ولا جدوى من التفكير فيما إذا كان بالإمكان أن يكون غير ذلك القدر الذي كان. فما كنا لنكون على ما نحن عليه الآن لو أننا قررنا الخضوع من أجل الحصول على أمن مشكوك في أمره.

وعندها أعتقد أنه من الصواب أن نتساءل حول ماهية ذلك الأمن. والإجابة تكمن في وضع الناس الآن في مونتنغرو (الجبل الأسود) وكوسوفو والسنجاق.

صحيح أننا نُقتل ونعاني كثيراً، ولكن ذلك كله من أجل حرية البوسنة. ولو لم يكن الأمر على ما هو عليه اليوم لقُتلنا أيضاً، ولكن من أجل آخرين في الجبهات ضد كرواتية، والسنجاق وكوسوفو من أجل مجد صربيا الكبرى.

ولذلك لم يكن أمامنا سوى طريق واحد، واختار شعبنا ذلك الطريق منذ ثلاث سنوات. إن هذا هو معنى الأول من آذار (مارس)، وهو عيدنا الوطنيّ اليوم. إن هدفنا هو إنشاء البوسنة بلداً للأحرار حيث يُحترم فيه الإنسان وحقوقه. إننا نعارض مفهوم الدول الموازية (دول داخل الدولة) التي تدعو إلى سيادة قومية واحدة، وديانة واحدة، وحزب سياسي واحد مع حفاظنا على الحرية والديموقراطية في البوسنة. فنحن نعارض ونجابه سياسة عدم التسامح باتباعنا لسياسة الحرية والديموقراطية. وعندما نكتب هذا الشعار على كل أعلامنا فإنه يتحتم علينا أن نكافح من أجله، ونقوم في تلك الأثناء بتعديل مسارنا بشكل يومي ونضع الأمور في نصابها بمعالجة المخالفات التي تم ارتكابها.

ونحن لا نقوم بكل هذا من أجلهم لأننا لسنا مدينين لهم بشيء. إننا نقوم بهذا من أجل أنفسنا نحن.

إن لكل شعب أرض ميعاد، وإن البوسنة هي أرض ميعادنا، إننا ندعوكم كي تقاتلوا من أجلها وأن تفوزوا بتلك الأرض.

وجاء ردنا على هجوم الصرب في منطقة كرايينا من خلال قيامنا بعملية فلاشتش ما بين ١٩-١٩٩٥/٣/٣٠ تحت اسم (دومت – ١). لقد شارك حوالي ٢١ ألف جندي من قوات جيش البوسنة والهرسك في تلك العملية. وخَطَّطَتْ ونَفَّذت هذه العملية الجريئة والموجعة قيادة الفيلق السابع، وعلى رأسها الجنرال محمد آلاغتش تدعمها قوات من الفيلق الثالث، خاصة من اللواء المسلم السابع، وعناصر في اللواء المسلم الرابع، ولواء الحرس الخاص للقيادة المركزية في ظروف جوية قاسية حيث العواصف الثلجية ودرجات الحرارة

المتدنية جداً. وتم تحرير حوالي ٥١ كم٢ من الأراضي بما فيها المنشآت الهامة في تسريني فرح، وشانتس، وباليينيك وغاليتسا، ومركز البث القوي جداً التابع لتلفزيون البوسنة والهرسك على جبل فلاشيتش والذي يشكل أهمية خاصة لاتصالات جيش البوسنة والهرسك. وتكبّد العدو خسائر تقدر بحوالي ٢٠٠ قتيل، و١٨٠ جريحاً وتم أسر ١٢ ضابطاً ورجلاً، وتم الاستيلاء على كمية كبيرة من السلاح والعتاد. وكانت خسائرنا أيضاً مرتفعة حيث قتل ٦١ من مقاتلينا، وجرح ٧٥ وتم أسر خمسة.

وعقد المجلس التنفيذي لحزب العمل الديموقراطي جلسة في نهاية آذار (مارس) من عام ١٩٩٥ وتحدثت خلالها عن مشاكل الاتحاد الفدرالي مع الكروات حيث إن مجلس الدفاع الكرواتي ما زال يقوم بنصب الحواجز ويحاصر كثيراً من المناطق. وكان رد الصحافة الكرواتي رداً حاداً. حيث أجرت صحيفة اسلوبودجيته مقابلة معي بتاريخ الثلاثين من آذار (مارس) وسألوني عن ردة فعل الصحافة الكرواتية ورأيي في ذلك حيث قلت ما يلي:

"لقد قرأت بعضاً من تلك المقالات، إنها تحاول أن تصور للقيادة الكرواتية أنني أتحدث عن الكروات بنفس الطريقة التي أتحدث فيها عن مجلس الدفاع الكرواتي، أو بالأحرى عن بعض العناصر في مجلس الدفاع الكرواتي. إنهم ليسوا سواء بالنسبة إلي فالكروات مختلفون عن تلك العناصر في مجلس الدفاع، وهذا بعينه هو شيء جيد بالنسبة إلى الكروات، إنني احترم الكروات، وأعرف أن الكثيرين منهم سواء ممن كانوا في كرواتية أو هنا في البوسنة، فإن لديهم مشاعر صديقة باتجاه الشعب الذي أنتمي إليه. وأنا أثمن ذلك وأقدّره عالياً. ولكن ليس بوسعي أن أقول: إن لدي نفس الشعور تجاه مجلس الدفاع الكرواتي. وأود أن أذكّركم هنا بمقابلة سابقة أشار فيها صحفي أجنبي إلى أن الكروات هم الذين دمّروا الجسر القديم في موستار. ولقد قمت بالرد عليه حينها بما نصّه "لم يكن الكروات هم الذين دمّروا الجسر، ولكن الذين قاموا بذلك هم بعض من عناصر مجلس الدفاع الكرواتي".

وفي معرض ردّي على سؤال وجهته (أسلوبودجينه) حول إذا ما كنت قد أطلقت على الكروات أنهم فاشيّون فقد قلت:

"قمت بذكر حقائق لا يختلف عليها أحد، وهي أن القومية والدين، والحزب السياسي الوحيد المعترف بها في المناطق الواقعة تحت سيطرة مجلس الدفاع الكرواتي هي القومية الكرواتية، والنصرانية الكاثوليكية، وحزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية فقط. ويعرف الجميع ماذا يطلق على هذه المفاهيم التي تروّج لحكم الحزب الأوحد والقومية الواحدة المطلقة.

حسناً، فليطلقوا على ذلك اسم آخر إن شاؤوا. ولكن هناك شيء واحد مؤكد، وهو أنها ليست ديمقراطية، بل إنها نفيٌ للديمقراطية. ولا أتحدث عن هذه الظاهرة المؤسفة بوصفي عدواً. ولكنني أرغب في تصويب الأوضاع. وسوف أكون مسروراً عندما أسمع أن البشناق والآخرين يعيشون بحرية في ستولاتس، وبروزور، وتشابليينا، وأنه يمكن سماع الأذان هناك، وأنه يمكن سماع صوت أحزاب أخرى غير حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية. وحتى عندما يحدث ذلك فإن الأمور تبقى كما هي عليه في حقيقتها بغض النظر عما نطلق عليها".

ولقد كانت هناك مناسبتان توجهت فيها إلى مخاطبة غير البشناق. كانت الأولى عندما وجهت خطاباً إلى الجمعية العمومية للمجلس المدني الصربي. فيما كانت المناسبة الثانية هي بمناسبة عيد الفصح اليهودي. وهذا خطابي الذي وجهته إلى أولئك المجتمعين في مجلس المواطنين المنحدرين من أصول صربية بتاريخ ٩ نيسان (أبريل):

"أود أن أحييكم وأتمنى النجاح لكم في فعاليتكم هذه.

وكذلك أود أن أعبّر عن تقديري لكم كونكم تمثّلون الوجه الآخر والضمير اليقظ والوجه النقي للشعب الصربي.

إنني أهنئكم على شجاعتكم بالقدوم إلى سراييفو، وتفوهكم بالحقيقة. فلطالما تطلّبت شهادة الحق قدراً كبيراً من الشجاعة، وبخاصة في مثل ظروف اليوم.

إنكم لا تمثلون العنصر المسلح للشعب الصربي، بل أنتم العنصر المسالم وغير المسلح. لديهم السلاح، ولكن أنتم لديكم الكلمة الطيبة، إنها كلمة الحقيقة التي أثبتت أنها سلاح فعّال وقوي على الدوام.

إن هدف الحكومة الشرعية في البوسنة والهرسك والتي أتحدث باسمها هو الوصول إلى دولة البوسنة والهرسك الديموقراطية بحيث تكون دولة لا يُضطهد فيها أي شخص بسبب دينه، أو هويته، أو آرائه السياسية. ونحن نعتقد أن أسس الحضارة تكمن في ذلك كله.

ونعتقد كذلك أنه بإمكان الشعوب التي تنتمي إلى قوميات وأديان مختلفة أن تعيش سوية في ظل السلام والتسامح، وقد يقول البعض: إن هذا ضرب من الخيال في هذه المنطقة. إن ردّنا على ذلك هوهذه هي الطريقة الإنسانية الوحيدة للخروج من المأزق المتأزم الذي أثّر سلباً على العديد من الشعوب البريئة على اختلاف دياناتها وقوميّاتها وهذا ما سنستمر عليه ونبقى نؤمن به. حيث إن عالم الكمال الذي يتخلّى فيه سكانه عن الإيمان لن يبقى عالم كمال".

وخاطبت اليهود قائلاً:

"اسمحوا لي أن أهنئكم بمناسبة عيد اليوم الذي آمل أن تقضوه بسلام وحبور حسبما تسمح به الظروف الراهنة.

إن هذا مصدر سرور وقناعة بالنسبة إلي من ثلاثة أوجه:

الأول أنكم أنتم جيراني وفرحتكم فرحتي.

والثاني أنني مسلم أجد في القرآن الكريم كلمات معبّرة ومؤثّرة عمّا تحتفلون به اليوم حيث يحكي القرآن الكريم قصة بني إسرائيل في مصر ورحلتهم نحو الحرية.

وثالثها أنني مسرور لكم إنسانياً. إن الفصح هو احتفال تقليدي بالحرية، وإن الحرية هي كلمة سامية وجزء من القيم العالمية التي هي محطّ أنظار واهتمام الجميع أفراداً وشعوباً.

أقول هذا وأنا أشعر بنوع من الانفعال نظراً لأن حرية شعبي مهددة في هذا الوقت، حيث يدور كفاح مرير من أجل إنقاذ تلك الحرية والمحافظة عليها.

ولقد قلت: إنني أتمنى لكم يوماً سعيداً، ولكننا نعرف أن هناك أسباباً نعرفها جيداً تحول دون جعل هذا اليوم سعيداً جداً. ولكننا نتفق في أنه أكثر سعادة من سابقه في السنة الماضية، وحتى في التي قبلها. ما أعنيه هنا هو أن الأمور بدأت تسير في المسار الصحيح، وأننا أصبحنا في موقع يخوّلنا أن نأمل أن تحتفلوا بعيد الفصح القادم في ظروف أفضل وحتى في ظل سلام إن شاء الله.

وأخيراً فإنني أدعوكم لعدم مغادرة البوسنة وأن تبقوا في هذا البلد الذي هو بلدكم أيضاً. إن هدفنا هو جعل هذا البلد مجتمعاً متسامحاً مع جميع القوميات والأديان كما كان دوماً ولقرون خلت. إن ذلك مهمة صعبة جداً. وسوف يجعل بقاؤكم بيننا تلك المهمة أسهل كي نصل معاً إلى هدفنا الأهم والأسمى".

وصلتنا أنباء طيبة من باريس في الحادي عشر من نيسان (أبريل) عام ١٩٩٥ حيث كانت تعقد جلسة للجنة الجمعية البرلمانية للمجلس الأوروبي: حيث تم ترشيحي مع اثنين آخرين لجائزة حقوق الإنسان الأوروبية. ولقد حضر الجلسة بالنيابة عن البوسنة والهرسك ميرو لازوفتش وهو رئيس الجمعية البرلمانية في البوسنة والهرسك، البروفيسور عبد الله كونييتسيا رئيس لجنة حقوق الإنسان في البوسنة. ولم أفز بالجائزة، ولكنهم قالوا: إن المهم هو دخول السباق وليس الفوز به.

لقد كان جميع القاطنين في سراييفو تحت الخطر الدائم خلال فترة الحصار، وهذا ينطبق على جميع من كان هناك حينها. تم قصف مبنى الرئاسة مئات المرات (لا أستطيع تحديد العدد بالضبط) حيث إنها كانت تبعد حوالي ٥٠٠ متر فقط عن خط الجبهة من الجانب الجنوبي. وانتقلت إلى مكتب في الجزء الداخلي من المبنى والذي أطلقت عليه مازحاً (مكتب الجبناء). وفيما عدا ذلك

فقد كنت في نفس الموقف الذي كان فيه كل أهل سراييفو عرضة لكل شيء، فلم أكن في وضع أفضل أو أسوأ منهم. ومع ذلك فقد كانت هناك مواقف استثنائية.

كنت أقوم بزيارة لبعض قواتنا في شمال البوسنة في نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٥ وأنهيت جولتي بزيارة القيادة العامة للفيلق الثالث وقوات اللواء المسلم السابع. واستغرقت الجولة واللقاءات التي لابد منها أكثر مما ينبغي لها من الوقت ولذا فقد كان كل شيء متأخراً ثلاث إلى أربع ساعات. وفي مساء ذلك اليوم أقلعنا من ملعب زينيتسا في وقت متأخر من الليل بدلاً من الموعد الذي كان مقرراً له وهو الخامسة مساءً. كانت أكثر مراحل الرحلة خطراً هي الطيران فوق جبل فرانيتسا. وكان الجميع صامتاً في أثناء ركوبنا الطائرة العمودية متمنين أن نصل إلى نهاية الرحلة بأسرع وقت ممكن.

وبينما كنا نُحلّق فوق جبل فرانيتسا جاء أحد الطيارين وأخبرني أن هناك عطل ما في الطائرة. حيث شرح بأن بعض أجهزة السيطرة لم تعد تعمل رغم أنني لا أفهم تلك الأشياء التقنية، وقال لي: "لسنا بعيدين من فوينيتسا، وسوف نهبط هناك في الملعب إذا كان مضاءً". ولم يكن هناك فحص فنيّ دوري لطائراتنا العمودية كما أنها لم تكن مجهزة للطيران أثناء الليل. وعندها ساورني الشك فيما إذا كنا سننجح في الوصول إلى هناك.

وكان يجلس في أسفل الطائرة العمودية كل من أريانا ساراتشفتش مراسلة مذياع وتلفاز البوسنة وهاكيا توبيتش المصور وكان بكر سادوفتش بجانبهما. ولقد علمت فيما بعد عندما تحدثت إليهما أنهم قد شعروا بوجود شيء ليس على ما يرام.

ولحسن الحظ لقد كان هناك كهرباء في فوينيتسا. وأخبرنا الطيار أن نتمسك جيداً بمقاعدنا حيث إنه لم تكن هناك أحزمة أمان، وبدأ توجيه الطائرة نحو

الهبوط وبدت الدقائق طويلة، ولكننا استطعنا الهبوط وإن لم يكن هبوطاً مريحاً. ورأينا بعض الأشخاص الذين تفاجئوا بضيوفهم الذين هبطوا عليهم من السماء في الملعب شبه المعتم. ومن ثم قام الطيار بفتح باب الطائرة. وسألته: "أي لواء هذا ومن المسؤول؟" ورد الرجل الذي عرفني: "القائد هو تورو سموفتش[1] سيدي الرئيس، ونحن اللواء ١٤٥ وكنت أعرف الكولونيل حسين تورو سموفتش في وحدة "البجعات السود" الخاصة. وكان معروفاً بأنه رجل جاد ومقاتل. وطلبت أن يستدعوه لي على الفور.

ووفّر تورو سموفتش ثلاث سيارات لنا وجلست في المقعد الأمامي لسيارته الكبيرة من نوع تويوتا، ومن ثم انطلقنا في الرحلة الليلية الطويلة عبر التلال. وكان هناك بقايا ثلج على المرتفعات أسفل لوباتا على الرغم من أنه شهر نيسان. وتعطلت إحدى السيارات في بادئ الأمر وتبعتها الأخرى كونهما لم تكونا مجهزتين للقيادة في ظروف الشتاء. وركبنا جميعاً في سيارة تورو سموفتش التي أوصلتنا إلى تارشين بعد منتصف الليل، وبعد رحلة مضنيّة وكثير من الدفع للسيارة في بعض الأحيان.

وعندما كنا نقترب باتجاه باردينا رأيت جنديين أو ثلاثة، ينظرون إلينا ونحن نقترب منهم، وكانت بنادقهم محشّوة. وكان الشيء الوحيد الذي فكّرت فيه هو هل هم معنا أم معهم؟ لم أفكر فيما إذا كانوا طيبين أم شريرين، ولكن ببساطة إلى جانب من هم. إن من نتائج مأساة الحرب أن يفقد المرء معاييره الأخلاقية.

وفي الثلاثين من نيسان (أبريل) ١٩٩٥ انتهى مفعول سريان وقف إطلاق النار الذي استمر لأربعة أشهر. وكان القتال قد خبا إلى حد كبير، ولكنه لم

---

(١) حسين تورو سموفتش هو الآن قائد اللواء الآلي السابع (الذي كان يعرف سابقاً باسم اللواء المسلم السابع.

يتوقف بالكليّة. فلقد قام كارادجتش بمهاجمة منطقة بيهاتش ورددنا بهجوم على فلاشتش وفيما عدا هذين الهجومين فلقد ساد الهدوء جميع الجبهات الأخرى. هل يجب علينا تمديد هذه الهدنة الوهمية بينما تحتل قوات كارادجتش ثلثي أراضي البوسنة؟ ولقد عقدنا في العاشر من نيسان (أبريل) جلسة لمجلس الرئاسة في البوسنة والهرسك والتي خلصت إلى ما يلي:

١- سوف يقوم وفدنا باستقبال ممثلين عن مجموعة الاتصال، وسماع ما لديهم والتأكيد على أننا ما زلنا نقبل بخطة مجموعة الاتصال المقترحة (أي الخرائط).

٢- لن نشرع في أي نوع من المفاوضات السياسية مع كارادجتش حتى يعلن قبوله لخطة مجموعة الاتصال. عندها يصبح توسط الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر غير مقبول في هذا الخصوص. وقررنا الترحيب بأي مبادرة سلمية، ولكن زيارة كارتر لن تساهم إيجابياً في عملية السلام؛ لأنها سوف يتم تفسيرها على أنها بديل لكل جهود مجموعة الاتصال مما سوف يطيل مدة الشكوك. هذه هي وجهة النظر حيال زيارة كارتر بكل موضوعية. لأنه إذا ما قام كارتر بتقديم العرض الذي قدمته مجموعة الاتصال نفسه، فإن زيارته سوف تصبح عندها غير ضرورية، نظراً لأننا قد قبلنا بالفعل خطة مجموعة الاتصال. أما إذا ما عرض شيئاً مختلفاً فعندها سوف تتسبب زيارته بكثير من الأضرار.

٣- إذا قبل كارادجتش خطة مجموعة الاتصال فإن ذلك سوف يفتح المجال أمام إجراء مفاوضات مباشرة قد يتم فيها تعديل بعض الخرائط شريطة أن يوافق الطرفان على نسبة ٥١٪ إلى ٤٩٪.

٤- ويجب في حال إجراء محادثات أن يتم إشراك المجلس المدني الصربي بناءً على اقتراح تجمع المواطنين من القومية الصربية في البوسنة والهرسك كممثلين عن قطاع مهم من الشعب الصربي وكونهم مجموعة لم تشارك في العدوان على البوسنة والهرسك.

٥- لن يتم قبول أي اتحاد كونفدرالي لكيان الصرب المعلن من جانب واحد في البوسنة والهرسك مع صربيا، ولن يسمح بإدراجه ضمن أي ترتيب دستوري مستقبلي في البوسنة والهرسك. ولكن يمكن السماح بإقامة نوع من العلاقات الخاصة بينهما

شريطة أن يتم السماح بإقامة نفس العلاقة الخاصة بين البوسنة والهرسك والبشناق في جمهورية صربيا.

٦- وفيما يخص مطالب تمديد وقف إطلاق النار فقد تبنّت الرئاسة الموقف التالي:

أ- إذا لم يقبل كارادجتش بخطة مجموعة الاتصال بحلول الثلاثين من نيسان (أبريل) فلن يكون بمقدورنا الموافقة على تمديد وقف إطلاق النار؛ لأن ذلك سوف يحمل في طياته خطر التشريع التدريجي للوضع القائم والذي كان في غير صالحنا على نحو كبير (حيث كانت قوات كارادجتش تسيطر على ٦٥٪ من أرضي البلاد في ذلك الوقت).

ب- ولكن هذا لا يعني أننا سوف نقوم بأي عمليات هجومية.

جـ- وسنكون مستعدين لتمديد وقف إطلاق النار لشهرين أو ثلاثة إذا قام ميلوشفتش بالاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك.

د- وإذا ما قبل كارادجتش بخطة مجموعة الاتصال بعد الثلاثين من نيسان (أبريل) فإن وقفاً لإطلاق النار سوف يصبح ساري المفعول فوراً ورسمياً منذ تاريخ إعلان قبول الخطة.

هـ- وفي حال أي وقف لإطلاق النار فإننا نطلب أن يتم تنفيذ كل بند في اتفاقية وقف الأعمال العدائية الموقعة بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٣١ خلال سبعة الأيام الأولى من وقف إطلاق النار، وأن يتوقف القتال في منطقة بيهاتش، وفتح الطرق أمام قوافل الأمم المتحدة بخاصة تلك المتوجهة إلى جيوب بيهاتش ودرينا وهكذا دواليك. وإذا لم يتم القيام بكل ذلك فلن يتم حينها الالتزام بوقف إطلاق النار.

٧- ألا يتم تخفيف أي من العقوبات على صربيا حتى تعترف باستقلال البوسنة والهرسك، الذي يعني الاعتراف بوحدة أراضي البوسنة والهرسك كدولة ضمن نطاق حدودها المعترف بها دولياً.

٨- وفي حال تعليق العقوبات المفروضة على صربيا فسوف نتوجه بالطلب إلى الأمم المتحدة كي تقوم بإرسال قوات يتم نشرها على الحدود مع صربيا والجبل الأسود وبأعداد كافية من أجل ضمان إغلاق وسيطرة فاعلة على تلك الحدود.

٩- سوف نقبل تعليق للعقوبات فقط. أما رفعها فسوف يكون ممكناً فقط عندما يتم تنفيذ اتفاقية سلام حول البوسنة والهرسك بالتعاون مع صربيا.

١٠- إن الرئاسة تحتج على تجدد الهجمات ضد المدنيين في سراييفو، واستمرار الحصار على المدينة. ولقد وجهنا دعوة للمجتمع الدولي كي يقوم بحماية المدينة وفقاً لتعهداته التي التزم بها. وفي هذه الحال إذا ما استمرت قوات كارادجتش في قصف المدينة ولم يمنعها المجتمع الدولي من القيام بذلك فإنه سوف يتم دعوة جيشنا ومواطني سراييفو كي يقوموا بتحرير المدينة.

١١- ولقد قمنا بعرض إنشاء منطقة منزوعة السلاح قطرها ٢٠ كيلو متراً حول سراييفو كنوع من الحل السلمي للوضع القائم بما في ذلك انسحاب جميع القوات. وسوف تتولى قوة مؤلفة من قوات الأمم المتحدة والشرطة أمور فرض القانون والنظام والأمن حيث أننا نربط هذا المقترح بفكرة سابقة تقترح إنشاء إدارة تابعة للأمم المتحدة لمدة سنتين في منطقة سراييفو.

١٢- ولا نتطلع إلى تغيير في صلاحيات قوات الأمم المتحدة ولكننا ندعوهم إلى التطبيق الجاد لصلاحيات تفويضها نظراً لأنه قد أصبح من الواضح أن تلك الصلاحيات قد غدت مشوّهة كلية خلال عملية التنفيذ. ولقد أُعدت دراسة المجالات الرئيسة التي حدث فيها خلل في تنفيذ الصلاحيات. وسوف يتم إرسال نسخة مختصرة من الدراسة في رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة، ورؤساء الدول، ووزراء خارجية دول مجموعة الاتصال، ومن سيكونون مسؤولين عن قضايا متعلقة بيوغسلافيا السابقة وكل العناصر ذات العلاقة.

١٣- إن الرئاسة تعبر عن احتجاجها وعدم رضاها من سحب قوات الأمم المتحدة بعد تهديدات من قوات كارادجتش في نقطة التفتيش غير القانونية في شارع كاسندولكا حيث كان وجود نقطة التفتيش تلك مخالفاً للاتفاق حول مطار سراييفو بتاريخ ١٩٩٢/٧/٣ وكانت بمثابة تهديد مباشر لأمن الناس والبضائع في المطار كما كانت تهديداً للمطار نفسه. أننا نطلب أن يتم إزالة نقطة التفتيش تلك.

١٤- وسوف يقوم وفد موحد بالمفاوضة عن الجانب البوسني مع ممثلي مجموعة الاتصال، حيث سيتألف الوفد من عزت بيغوفتش، وزوباك، وتمارتيتش، وسيلادميتش، وبيانوفتش، وكوشمتش، وليوبيانكتش بالإضافة إلى بيغتش وجميل صبري حافظوفتش مستشارين للوفد.

رددت على بعض أسئلة وكالة أنباء البوسنة والهرسك التي وجهتها إليّ قبيل انتهاء مدة وقف إطلاق النار بفترة قصيرة. ويذكر أحد الأسئلة أن كلا الطرفين قد خرق الاتفاق. فكان ردي على ذلك كما يلي:

"إن أي وقف لإطلاق النار هو بطبيعته وحدة متكاملة، فقد أعتقد كارادجتش أن بإمكانه أن يحصل على سلام في المكان الذي يريد، وأن يقوم بشن الهجمات حيث شاء. وتحديداً فإن كارادجتش اعتقد أن بإمكانه الحصول على السلام في توزلا ووسط البوسنة، و أراد الهجوم على بيهاتش وأراد الاستمرار في خنق سراييفو. وحذرناه والأطراف الدولية ذات العلاقة أن هذا لن ينجح. وعندما اكتشفت استخباراتنا أن كارادجتش كان يقوم بنقل جزء كبير من قواته إلى منطقة بيهاتش سراً من أجل كسر مقاومة الفيلق الخامس قمنا نحن بشن عملية فلاشتش لنبرهن له أنه قد حسب الأمور بشكل خاطئ. ولا نخبئ ذلك، ولكن من الواضح أن عملية فلاشتش لا يجب النظر إليها بمعزل عن الهجمات على بيهاتش التي كانت مستمرة ودون انقطاع منذ تشرين الأول (أكتوبر) من العام الفائت وخلال فترة وقت إطلاق النار وهو ما يعد خرقاً مباشراً ومستمراً لاتفاقية وقف إطلاق النار التي تم توقيعها".

لقد كان وقف إطلاق النار المزيّف لا يزال ساري المفعول عندما تمت دعوتي لإلقاء كلمة أمام الجمعية الألمانية للسياسة الخارجية حول الأوضاع في البوسنة والهرسك. وتحدثت في أثناء كلمتي في قاعة الجمعية المكتظة في السابع عشر من آذار (مارس) عن العدوان على البوسنة، وموقف العالم إزاء ذلك العدوان، وعن الحياة تحت الحصار في سراييفو، وعن النهضة الدينية، والمواجهة بين الشرق والغرب في البوسنة وما إلى ذلك. ونص المحاضرة كاملة في أحد ملاحق هذا الكتاب.

احتفلت سرايفو كباقي مدن العالم بيوم انتصار الحلفاء على ألمانية في الحرب العالمية الثانية في ١٩ أيار (مايو). ولاحظت أن الشيوعيين حاولوا استغلال تلك المناسبة كي يجلبوا الأنظار وكأنما الكفاح ضد الفاشية، كان كفاحاً حكراً على الشيوعية. فكانت رسالتي للشعب يومها على النحو الآتي:

"أيها المؤمنون الأعزاء، أخاطبكم اليوم بمناسبة ذكرى يوم النصر الذي يصادف غداً".

لا يدّعي العديد من الأشخاص الواعين والمسؤولين أن الحرب العالمية الثانية كانت نصراً حاسماً ضد الفاشية، لأنها لم تكن. فالبوسنة اليوم مثال حي ومأساوي على أن الفاشية لم تنته بعد.

إن التاريخ لا يبدأ بنا، ولذلك فلا يجب أن نغفل كل ما هو جيد في التاريخ، ولكن علينا أيضاً ألا ننسى ما هو سيئ. إن العالم الذي انبثق عن نصر الحلفاء قبل خمسين عاماً لم يكن بأفضل حالاً من العالم الذي سبقه. فما زالت مجتمعات عدة في مناطق واسعة من العالم لا تتمتع بالحرية، أو أنشئت مجتمعات حديثة مسؤولة عن مقتل ومعاناة ملايين البشر فيما استمر ما يسمى بالعالم الحر بالسهر على مصالحه فقط كما هي حاله دائماً في إطار من النفاق وعدم الاهتمام.

فلقد ابتلينا في الاتحاد السوفييتي بالستالينيّة والغولاغ (معسكرات الاعتقال السوفيتية) وفي يوغسلافية نظام الحزب الواحد غولي أوتوك الذي هو سجن شيوعي مخصص للمعتقلين السياسيين في جزيرة مهجورة في البحر الأدرياتيكي بالإضافة إلى سجون عدة من طراز غولي أوتوك.

إن الجيش الذي دمر فوكوفار ودوبروفنيك هو الذي يقوم الآن بتدمير المدن البوسنية وقتل المدنيين إنّه النتاج المادي والمعنوي للنظام الذي حكم طيلة الأربعين سنة الماضية. ولو كان هناك حرية بشكل عام وحرية الانتقاد بشكل خاص لما أصبح الجيش على ما هو عليه الآن، وما كان ليرتكب الأعمال الشريرة التي ارتكبها.

لذا فلا يوجد لدينا أي سبب يجعلنا نمجِّد الماضي ونبثّ الأوهام.

إن احتجاجنا على الفاشية ومقاومتنا لها لا يعني أننا نرغب في العودة إلى مجتمع من دون حريات. ويتناسى ذلك بعض من أولئك الذين يتم الاحتفاء بهم في هذه المناسبة. إن لشعبنا الحق في الحصول على الحرية والسلام بعد ما عانوه. ولسوء الحظ فإن الشر لن يهزم تماماً. ولذا فإن البشرية في كفاح دائم ضد الشر، ونعتقد أن هذا هو الذي يعطي معنىً لحياتنا ولتاريخ البشرية.

وإنني إذ أتمنى لكم أطيب الأمنيات بمناسبة يوم النصر على الفاشية قبل خمسين عاماً لأتمنى لكم النصر على شر هذه الأيام بغض النظر عن الاسم الذي نطلقه على ذلك الشر".

ولقد استطاع شرّ هذه الأيام بغض النظر عما نطلقه عليه تحقيق نصر دموي آخر، فلقد استطاع العدو في ٢٥ أيار (مايو) ١٩٩٥ أن يحصد شبابنا في توزلاكابيا، حيث أدت قذيفة أطلقت من أوزرن على بعد عشرين كيلومتر إلى مقتل ٧٠ شخصاً فوراً أغلبهم من الشبان والشابات حيث بلغ العدد النهائي للقتلى واحداً وسبعين شخصاً. ووجد فريق من الخبراء يتألف من ثلاثة من البوسنة وخمسة من المراقبين الأوروبيين أن القذيفة أطلقت من مدفع إم-٤٨ روسي الصنع.

كان كفاحنا كله هو صدام بين الخير والشر، ولقد كان التباين ما بين هذين المبدأين تبايناً كلياً في هذه الحادثة:

كان تبايناً كلياً بين القتلة الملتحمين في تلال أوزرن وأوجه الفتيان والفتيات الصافية في أماكن التنزه في توزلا.

كانت مدينة توزلا تعيش حالة من الصدمة، ولكن كان لا بد من إجراء ترتيبات الجنازة. حيث كانت بقايا رفات ٤٧ من الضحايا مسجّاة في متنزه المدينة المركزي.

كان الموعد المقرر لإجراء الجنازة هو الثامن والعشرين من أيار (مايو)، ولكن تم تأجيله إلى فجر التاسع والعشرين خوفاً من قيام أولئك الوحوش الذين هم في

هيئة بشر بقصف الجنازة، نظراً لأنهم كانوا مغرمين باستهداف الجنائز حيث يتجمع أكبر عدد ممكن من الناس.

ولا أحب تلقي المكالمات الهاتفية المبكرة عادة. فلم تحمل لي تلك المكالمات أية أخبار سارّة منذ بدأت الحرب. اتصل بي صباح يوم الثامن والعشرين من أيار (مايو) ١٩٩٥ الجنرال ديلتش في الساعة السادسة صباحاً. كان صوته ينذر بالأسوأ حيث قال: " أخشى أن لدي أنباء محزنة جداً لك". ثم صمت هنيهة (هذه الهنيهة تبدو فترة طويلة في بعض الأحيان). ثم أضاف قائلاً: " لقد تم إسقاط طائرتنا العمودية ليلة البارحة فوق منطقة كنين- كرايينا وعلى متنها الوزير ليوبيا نكتش". وأعتقد أنني لم أتفوه ببنت شفه، لأن الجنرال كرر مرة أخرى: "هل سمعتني سيدي الرئيس؟". لقد سمعته بالطبع ولكنني كنت عاجزاً عن الكلام حيث روعتني هذه الأنباء الفظيعة. من سيخبر زوجته وأولاده، وكيف؟

لقد كان د. عرفان ليوبيا نكتش وزير الخارجية في الحكومة البوسنية حينها. وهو مؤسس فرع حزب العمل الديموقراطي في منطقة كرايينا عام ١٩٩٠، وهو رجل طيب وشجاع.

ولقد علمت عند ساعة الظهيرة أن جميع أعضاء وفدنا العائد من زيارة إلى تسازين كرايينا قد قتلوا. وضمّ الوفد الرباعي بالإضافة إلى الوزير ليوبيا تكتش كل من د. عزت محمد آلاغتش نائب وزير العدل، ود. منصور شابولتش أحد موظفي سفارتنا في زغرب، والرائد فاضل بيكتش مرافق د. ليوبيا تكتش. ولقد قضى في الحادثة أيضاً طاقم الطائرة الروسي المكون من ثلاثة طيارين تلقوا أجوراً عالية لقاء قيادتهم الطائرة في هذا المجال الخطر. كانت الرحلة خطرة جداً لأنها حلّقت فوق منطقة كنين كرايينا التي كانت تحت سيطرة الثوار الصرب بزعامة مارتيش. وكانت نفس الطائرة العمودية حلّقت ليلاً من زغرب

إلى مهبط طائرات بـالقرب مـن بيهـاتش دون أيـة مشـاكل. وكـانت في رحلـة عودتها عندما تم إسقاطها.

وكان الركاب الشجعان قد صعدوا إلى الطائرة من تشوراليتشي بعـد الثانيـة صباحاً من يوم الثامن والعشرين من أيار (مـايو)، وأطلـق الإنـذار التحذيـري في زغرب بعدما فشلت الطائرة في الوصول إلى مطار زغرب وكانت استخبارات الجيش الكرواتي قد التقطت التسجيلات التالية لمحادثة جرت بين أعضاء طـاقم صربي تم إعلامهم بوجود الرحلة حيث كـانوا ينتظـرون كـي يفتحـوا نـيرانهم على الطائرة.

التردد ٢٣٥٨٠٠- فاردار

٢٤٥٨٠٠ – درينا

درينا: هنا لا لا

فاردار: هل رأيتها؟

درينا: لقد رأيتها ٢٥,٠٠ درجة باتجاه الشمال

فاردار: (صامت)

درينا: لا أستطيع أن أرى من هنا، يجب أن أذهب من هذه الكابينة إلى أخرى.

فاردار: (صامت)

درينا: ما زلت لا أستطيع رؤيتها، سأتصل بك حالما أراها. هل بدأت العملية؟

فاردار: نعم لقد بدأنا، هل يوجد أي شيء؟

درينا: فقط كن مستعداً، سأتصل بك.

الوقت: ٢:٤٤ صباحاً

درينا: ألو، ها هي درجة ١١٠,٢٥ باتجاهك

الوقت: ٢:٤٩

درينا: هل أصبتها؟

فاردار: طبعاً، هاهو الصاروخ الرئيسي ينطلق.

درينا: لقد رأينا عملية إطلاقه.

درينا: أعطنا الموقع.

فاردار: (ك. ب. د. جي. أي).

درينا: حسناً، تهانينا، اهبط الآن.

لقد خلصت تقارير أجهزتنا العسكرية إلى أن الطائرة قد أصيبت بعد عشر دقائق من إقلاعها وعلى مسافة تبعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من نقطة إقلاعها. سقطت الطائرة العمودية قرب كريمين على بعد خمسة كيلومترات من سلونيية في منطقة واقعة تحت السيطرة العسكرية لصرب كرواتية منذ عام ١٩٩٠. تم تحرير تلك المنطقة في عملية "ستورم" أو العاصفة في آب (أغسطس) من عام ١٩٩٥. وتم تشييد نُصب تذكاري لأعضاء الوفد في المكان الذي قتلوا فيه.

كان عرفان ليوبيانكتش الذي زاول مهنة الطب خلاّقاً أديباً. كتب العديد من القصائد وكان يجيد العزف على البيانو. وكان يعشق منطقة كرايينا التي كانت محاصرة لأكثر من ثلاث سنوات.

ودفع حياته ثمناً لشوقه لرؤية منطقة كراييـنا. وترك وراءه زوجة وطفلين ودفن في مسقط رأسه بيهاتش.

كانت هناك محاولة يائسة أخرى لرفع الحصار عن سراييفو في النصف الثاني من حزيران (يونيو) من عام ١٩٩٥. ولربما لا يليق أن أقارن هذه العملية بأخرى مشابهة لها في النصف الثاني من عام ١٩٩٢، ولكن كان سبب الفشل

في كليهما واحداً من وجهة النظر العسكرية، ألا وهو: ضعف القصف ونقص المعلومات عن الوضع على الجانب الآخر من الجبهة.

ولذا فقد كان واضحاً أن السبيل الوحيد الذي سوف ينجح هو عملية خاطفة لكسر واختراق طوق الحصار على شاكلة عمليات (البلتزكريغ) الحرب الخاطفة، ولم يكن الوقت في صالحنا للقيام بمثل هذه العملية فلقد ازداد نفوذ العدد الفني والتقني مع مرور الأيام، ولذا فلقد تم إيقاف العملية بعد مضي شهر على بدايتها حيث تكبّد الجانبان خسائر جسيمة.

وفي التاسع عشر من حزيران (يونيو) ١٩٩٥ قام جيش صرب كنين الكرواتي بمهاجمة الجانب الغربي من جيب بيهاتش فتراجع الفيلق الخامس، ولكن أبدى مقاومة عنيفة وأبطأ من تقدم العدو. ولقد تحدثت على الهاتف عدة مرات مع الجنرال دودا كوفتش وكان دودا كوفتش، غير متفائل لأول مرة في الحرب. فلقد كان قلقاً فقلت في نفسي: إن الوضع في هذه المرة خطير بل حرج على وجه أدق. ومع ذلك فلقد حدثت معجزة فبينما الأزمة في ذروتها اتصل بي تودجمان من دون سابق إنذار ودعاني إلى سبليت من أجل ما أسماه " محادثات هامة" ولقد رحب بنا لدى وصولنا إلى هناك وفد سياسي وعسكري كرواتي رفيع المستوى. اقترحوا علينا القيام بعملية عسكرية مشتركة في سلافونيا الغربية وجيب بيهاتش تحت اسم عملية "ستورم". وكان سيلادجييتش والجنرال ديلتش برفقتي حيث قبلنا ذلك العرض على الفور. وبدأت العملية العسكرية المشتركة صباح يوم الجمعة ٤ أب (أغسطس) وحققت أهدافها بنجاح بعد ثلاثة أيام، وحرر الكروات منطقة كنين كراييناً فيما استطعنا نحن اختراق الحصار الذي استمر ثلاث سنوات على منطقة بيهاتش. جاء الخلاص من حيث لم نتوقع أبداً، ولقد رأيت في ذلك إشارة من الله فلقد أوفى الله بعهده بنصرة الشعب الذي يدافع عن نفسه. وأخيراً جاءت الضربات الجوية في

الثلاثين من آب (أغسطس) عام ١٩٩٥ ضد قوات كرادجتش في البوسنة. لقد كانت تلك الضربات متأخرة ثلاث سنوات عن موعدها. وتستحق تلك الأيام التي سادها مبدأ الجريمة والعقاب وصفاً تفصيلياً أكثر.

لقد تلقيت دعوة من الرئيس الفرنسي جاك شيراك للقيام بزيارة رسمية إلى فرنسة في التاسع والعشرين من آب (أغسطس) عام١٩٩٥ وغادرنا سراييفو عصر يوم السابع والعشرين وأمضينا الليلة في موستار حيث انضم إلينا صفوت أوروتشفتش عمدة مدينة موستار. واستيقظنا في صباح اليوم التالي على يوم صيفي جميلٍ وصافٍ لا ينذر بوقوع الشر.

لقد كان من المفترض أن نغادر القاعدة في موستار الساعة الحادية عشر حيث سنتوجه إلى الطائرة العمودية التي تنتظرنا في يابلانيتسا. وكان يفترض بابني بكر أن يغادر في نفس الوقت بسيارة إلى مطار عسكري قرب بولا في كرواتية حيث سيتوجه إلى إيران في طائرة نقل بضائع أوصلت شحنة من الأسلحة للبوسنة.

ولقد كنت أستعجل تحضير نفسي للمغادرة نظراً لأننا كنا قد تأخرنا عن الموعد.

وعندها تم إبلاغي أنهم يطلبونني بشكل عاجل من سراييفو لقد أخبرني الشخص الذي اتصل أن قذيفة قد سقطت للتو على سوق مركالة، وأن هناك العديد من الإصابات بين قتلى وجرحى. ولقد كانت هذه أسوأ مأساة يتسبب بها القصف بالإضافة إلى حادثة القصف في توزلا في ٢٥ أيار (مايو) منذ مذبحة شباط (فبراير) عام ١٩٩٤ حيث تسببت قذيفة سقطت على بعد ١٠٠متر من مكان سقوط قذيفة حادثة اليوم وأدت إلى مقتل ٦٧ رجلاً وامرأةً وإصابة ١٤٢.

وسرعان ما دبّت الفوضى في كل مكان في السماء وعلى الأرض. وتلبدت السماء بالغيوم في وقت قصير وسرعان ما هبّت عاصفة. وقررت أن ألغي

رحلتي إلى فرنسة، وارتأيت أنه من الأفضل أن أكـون في سـراييفو، وأن أحضـر جنازة أولئك الذين قتلوا في القصف بدلاً من أن أضيـع وقتـي في جـولات علـى الحكومات الأوروبية التي بقيت غير مكترثة بكل الفظائع التـي تـم ارتكابهـا في قلب أوربة. ولكن كان رأي صفوت أوروتشفتش مغايراً تماماً: فلقد كـان هـذا هو الوقت المناسب برأيه كي تعلن أوربة وأمريكـا عـن نفسـها. ويجـب أن يتـم توجيه سـؤال لهمـا إذا مـا كانتـا مستعدتين فعـلاً لمعاقبـة الجريمـة، وأن تسـاندا محادثات السلام بشكل إيجابي وفعال التي كانت تجـري منـذ أسـبوعين. ويجـب توجيه ذلك السؤال إليهم في اليوم التالي في باريس. ولقد كان محقـاً فهـذه هـي اللحظة المناسبة.

وفعلاً انطلقنا إلى يابلانيتسا حيث كانت هناك طائرة عمودية بانتظارنا أقلتنـا إلى سبليت. وكان الطقـس يـزداد سـوءاً كلمـا توغلنـا في سـفرنا مبتعديـن عـن موستار. إذ كانت هناك لحظات كان الهطول الغزير للأمطار والغيـوم الملامسـة لسطح الأرض يجعل مستوى الرؤية صفراً، وكان كل شيء مغموراً بالمياه. ومن ثم وصلنا إلى يابلانيتسا، ولكن لم يكن هناك شك من أن الطـائرة لـن تسـتطيع الإقلاع. وأجرينا ترتيبات عبر سراييفو كي يتم تجهيز طائرة أخـرى في انتظارنـا في مطـار بولـوغ جنوب موسـتار. ووجهـت قبـل إقلاعنـا رسـالة إلى مواطنـي سراييفو عبر الصحفي الذي كان يرافقنا:

"إن الأنبـاء التـي وصلتنـا اليـوم عـن ارتكـاب التشـتنيك لجريمـة جديـدة في سـوق سراييفو جاءت ونحـن في موسـتار في طريقنـا إلى فرنسـة، ولقـد تـرددت للحظـة في أن أكمل رحلتي أم ألغيها. نحن لدينا أعداء ولكن لدينا الكثـير مـن الأصدقـاء في العـالم، ولسوء الحظ فإن معظم الناس غير مكترثين تجاه هذه القضية. ولقد كانت هذه الحقيقية في صميم السياسة المتبعة تجاه البوسنة والهرسـك منـذ البدايـة وتجـاه الأزمـة في المنطقـة ككل. إن مأساة اليوم ورؤية ومشاهدة الأشلاء البشرية على شاشات التلفاز لهي نتاج لسياسة مجردة من المبادئ لعالم تخلى عنا لنواجه مصيرنا وأيدينا مقيّدة خلف أظهرنا.

إنني ذاهب إلى أوربة كي أسأل الموجودين في السلطة في أوربة إلى متى سيستمر كل ذلك ولكي أخبرهم أننا لن نتحمل هذا العنف أكثر مما تحملنا، فسوف نستخدم كل الوسائل المتاحة أمامنا لإيجاد مخرج من هذا المأزق الفظيع. وأؤكد. كل الوسائل".

أما بالنسبة إلى القتلة في جريمة اليوم فأقول لهم: إن جريمتهم لن تمرّ دون عقاب، وأن عقابهم آتٍ لا محالة. فلقد أزفت الساعة."

تم استقبالنا في مطار أورلي في باريس الساعة الرابعة عصراً أي إننا وصلنا متأخرين ثلاث ساعات عن موعدنا المقرر. واصطف حرس الشرف للترحيب بنا وعدد كبير من الصحفيين كذلك. فلقد بلغت أخبار المأساة في سوق سراييفو كل العالم. وصرحت في مبنى الترانزيت أننا نتوقع أن يقوم الغرب برد عسكري عاجل ضد آلة القتل المتركزة على مرتفعات سراييفو وأنه من غير القيام بمثل هذا الرد فإن محادثات السلام سوف تعتبر في حكم الميتة. ولقد حرصت على تكرار تلك العبارة مرات ومرات بشكل أو بآخر ما أمكنني ذلك من مساء ذلك اليوم وفي اليوم التالي.

صحيح أنه ليس من السهولة بمكان اتخاذ قرار القيام بتوجيه الضربات الجوية. فعندما قام الناتو بتوجيه ضربات محدودة في ٢٥ و٢٦ أيار (مايو) ١٩٩٥ قام الصرب باحتجاز ٣٧٥ موظفاً من موظفي الأمم المتحدة أغلبهم من المراقبين العسكريين، وقاموا بربطهم إلى أعمدة ودرابزين الجسور في باله وبعض المنشآت الأخرى. وما زالت ذكرى ذلك الإذلال حية في الذاكرة.

استقبلني الرئيس شيراك في العاشرة من صباح اليوم التالي وأخبرني بما يلي: "إننا مستعدون ولكن الأمريكان مترددون". ولقد كررت للمرة الألف لدى مغادرتي قصر الإليزيه: إنه لن يكون هناك محادثات سلام إذا لم يتم معاقبة مجرمي كارادجتش.

وكان الدبلوماسي الأمريكي البارع ريتشارد هولبروك يتبعني كظلي خلال تلك الأيام، وهلبروك هو الذي أطلق المبادرة الأمريكية للسلام في أواسط

آب (أغسطس). ولم أتفاجأ عندما أخبروني أنه الآن في باريس. وحاول مرتين خلال نفس اليوم أن يرتب لعقد لقاءٍ معي، ولكنني رفضت. وكانت رسالتي له أنَّ إجراءً حاسماً فقط من قبل الناتو يمكن أن ينقذ محادثات السلام.

ولتجنب الضغط لبيت دعوة من مجموعة من المفكرين الفرنسيين لإجراء حوار وتناول للعشاء في المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية. ولقد رافقني في تلك الأمسية كل من كريشميرزوباك، وميرو لازوفتش، وسفيرنا في فرنسة الأستاذ الدكتور نيكولا كوفاتش.

وكان مضيفنا جان باريو،المفكر الفرنسي المعروف وعضو معهد جان باريو. وأجبت خلال النقاش الذي استمر لمدة ساعتين عن أسئلة وصفها جان باريو على أنها أسئلة "تحطم المعتقدات السائدة" تتعلق بالسلام وموقف الدول العظمى وبخاصة فرنسة، وأسئلة تتعلق بشيراك وميتران وموقفي تجاه الصرب، وما أسموه بالأصولية الإسلامية، ومستقبل البوسنة وما إلى ذلك. كلها جاءت في عشرين سؤالاً هاماً أجبت عنها، حسب رأيي، إجابة صادقة ومنفتحة[١].

ولقد غادرنا اللقاء بعد الساعة التاسعة مساء. خيم الظلام في باريس حيث كانت تمطر فاقترحت أن نلبس لباساً عادياً ونضع قبعات، وأن نتمشى في شارع الشانزليزية، وكنا في منتصف الطريق عندما تقدم إلينا مجموعة من الرجال لم نكن نعرفهم. وقدموا أنفسهم لنا على أنهم من السفارة الأمريكية، وأخبرونا أن السفيرة هاريمان تدعونا لتناول العشاء معها. وعرفت عما كان كل هذا، وحاولت أن أتنصل من الدعوة، متذرعاً بأنني لا ارتدي اللباس الرسمي، وأنه يتوجب علينا العودة إلى بلادنا في الصباح الباكر. ومن ثم تحدث إليّ أحد الأمريكان بشكل مقنع جدا:" إن السيدة السفيرة لديها رسالة مهمة جداً

(١) النص الكامل لذلك النقاش مثبت في الملحقات.

لتبلغك إياها" وعندها نسيت أمر ملابسي المتسخة حيث إنني كنت ارتدي سترة خفيفة، وكان بنطالي مبللاً بمياه الأمطار، وانطلقنا معاً إلى السفارة الأمريكية.

إن مبنى السفارة الأمريكية في باريس مبنى جميل، أمامه حديقة ولا يبعد كثيراً عن الشانزليزية إلى جهة اليمين مقابل قوس النصر. وعندما دخلنا الساحة رأيت سيدة متقدمة في السن تبتسم لنا وهي تقف على مدخل الرواق. كانت تلك السيدة هي باميلا هاريمان سفيرة الولايات المتحدة في باريس، وأرملة الدبلوماسي الجوّال الشهير افيريل هاريمان.

رحبت السيدة هاريمان بنا بحرارة وقادتنا إلى حجرة إنتظار. وعندها لمحت فوراً وجود (من؟). إنه ريتشارد هولبروك في إحدى الزوايا متحدثاً بالهاتف. وأومأت إليه برأسي مسلماً حيث أشار إلي بأن أرفع سماعة التلفون. لقد بدا واضحاً أن كل شيء يتم تخطيطه وتنظيمه بدّقة حيث إنني كنت الشخص الوحيد الذي تفاجأ على عكس كل الأمريكان الحاضرين. وأجاب على الاتصال ستروبه تالبوت نائب وزير الخارجية الأمريكية وارن كريستوفر. وخاطبني بكلمات قريبة من الكلمات التالية:" الرجاء أن تستمر في التعاون مع السفير هولبروك من أجل إيجاد الظروف الملائمة للسلام في البوسنة. إنني على اطّلاع وعلم بالمعضلات التي تواجهكم وإنني أتفهمها. وأؤكد لكم أن الجريمة البشعة التي تم ارتكابها في سراييفو بالأمس لن تمر دون عقاب. وسوف نقوم بتوجيه ضربات جوية ضد مواقع كرادجيتش". لقد بدا حازماً ومقنعاً واستأذنني في أن ننهي المكالمة بأسرع وقت ممكن حتى لا يطيل الحديث. ومع ذلك فلقد تمكنت من إخباره التالي:" إن هذه أخبار طيبة يا سيد تالبوت، ولكنك لم تخبرني عن موعد تلك الضربات". فردّ عليّ قائلاً:" لا أستطيع أن أعلمك بذلك لأني أنا نفسي لا أعلم بالموعد. كل ما أعرفه هو أنه سيكون قريباً وقريباً جداً".

ووضعت سماعة الهاتف وأنا مشغول بتفسير المغزى الحقيقي وراء هذه الرسالة المعبّرة. ومن ثم ذهبنا إلى العشاء واستمرت المناقشات إلى ما بعد منتصف الليل.

وأيقظني طرق قوي على الباب في صباح اليوم التالي الثلاثين من آب (أغسطس). لقد كان مرافقي عصمان الذي أخبرني بفرح أن مواقع التشتنيك قد تعرضت للهجوم، وأن السماء فوق المدينة أصبحت حمراء من آثار الضربات على التلال المحيطة. وعلمت فيما بعد أنه قد تم ضرب مواقع أخرى في البوسنة. وهكذا فلقد بدأت مرحلة جديدة من الحرب في البوسنة والتي سوف تنتهي في الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) مع توقيع اتفاقية دايتون للسلام.

وتسببت الضربات الجوية بموجات ارتدادية في نظام دفاع الجيش الصربي، وجعلت القيام بالعمليات الأخيرة في غرب البوسنة وفوزتشا أسهل بكثير. قمنا بعملية فوزوشا في العاشر من أيلول (سبتمبر) باشتراك قوات من الفيلق الثاني والثالث من جيش البوسنة والهرسك بقيادة سيعاد ديليتش وساكب محموليين اللذين أصبحا الآن جنرالين في جيش البوسنة والهرسك. ونفذ الضربة الرئيسية في هذه العملية الجيدة التخطيط وحدة من المجاهدين، وهم متطوعون من البلدان المسلمة.

وتم إعادة فتح طريق سرايفو في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) بعد إغلاقه لمدة خمسة أشهر. وتم إعادة فتح طريق سرايفو التي تمر عبر هادجتشي والتي كانت مغلقة طيلة أيام الحرب. وهكذا فلقد تم كسر القبضة الحديدية التي فرضت على سرايفو لمدة ٤٣ شهراً. وأظهر بحثٌ أجراه قائد الفيلق الأول لجيش البوسنة والهرسك الجنرال ندجاد ايناديجتش أنه قتل ٦٥٨١ جندياً في أثناء الدفاع عن سرايفو ٦١٠٤ منهم من البشناق أي ما نسبته ٩٢,٧٪، و٢٤٠ من الكروات و٢٢٣ من الصرب و١٨ من جماعات عرقية أخرى. ولقد

قتل خلال تلك الفترة أكثر من ١٠ آلاف مدني في سراييفو بسبب القصف أو برصاص القناصة، ولا يعرف العدد بالضبط إلى الآن.

وكانت آخر عملية عسكرية قام بها الجيش البوسني في الحرب هي تلك التي جرت في غرب البوسنة في الفترة ما بين ١٣ أيلول (سبتمبر) و١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥. بمشاركة حوالي ١٦٠٠٠ جندي. وتم تحرير مناطق كولن- فاكوف، وبوسانسكا كروبا، وأوتوكا، وبوسانسكي بيترو فاتس، وكليوتش، ونانيتسا، وسانسكي موست وقدرت خسائر العدو في تلك العملية بحوالي ٩٠٠ قتيل وأكثر من ١٠٠٠ جريح. أما خسائرنا فكانت ١٧٨ قتيلاً و٥٨٨ جريحاً و٤١ أسيراً ومع ذلك فقد سبق كل تلك النجاحات التي حققها جيشنا مأساة سريبرنيتسا.

الفصل الخامس

سريبرينيتسا

"قرار مجلس الأمن رقم ٨١٩ الذي يعلن سريبرينيتسا منطقة آمنة. المجاعة في سريبرينيتسا. آيار (مايو) ١٩٩٥- إسقاط الطائرة العمودية. عقد لقاءين مع ناصر أورتش. بدء الهجوم الكاسح. رسالة إلى الرئيس كلينتون. الجنرال روبرت سميث يعلن بدء الضربات الجوية فيما ألغاها الجنرال جانفييه. فوضى في المدينة والجيش. سقوط البلدة. ترحيل وذبح المدنيين. ملادتش يهاجم جيبا. إخلاء المدنيين من جيبا ، رسالة إلى جون ميجور. رسالة إلى مجلس الأمن من الأمم المتحدة. تقرير الأمين العام للأمم المتحدة- المجتمع الدولي يقرّ بمسؤوليته عن المأساة في سريبرنيتسا. الإجابات عن أسئلة ديفيد هارلاند".

كان وضع دفاعاتنا العسكرية في وجه العدوان صعباً في ربيع عام ١٩٩٢ في البوسنة والهرسك ككل، وبخاصة في منطقة بودرينيه، بالإضافة إلى وحدات الجيش اليوغسلافي المتمركزة أصلاً في البوسنة والهرسك. فلقد انسحبت فيالق إضافية من كرواتية إلى البوسنة. كانت البوسنة أكبر ثكنة عسكرية في العالم في ذلك التاريخ، ولقد بدأ العدوان على البوسنة بالهجوم على بييلييـنا، واستمر مع غزو زفورنيك، وفيشغراد، وفوتشا أي إن كل منطقة بودرينييه تعرضت للهجوم. وأعتقد أنها كانت معجزة صغيرة حين استطعنا الصمود مدة خمسة أيام في فوتشا، وأننا تمكنا من الاحتفاظ بسريبرينيتسا وجيبا حتى عام ١٩٩٥.

كان السبب وراء نجاح المقاومة مبدئياً شجاعة شعبنا وبعض التحضيرات التي قام حزب العمل الديمقراطي باتخاذها من خلال العصبة الوطنية. ومن ثم تسلم مهمة الدفاع عن المنطقة جيش البوسنة والهرسك.

وكانت هناك خطة لتشكيل فيلق ثامن خاص من أجل الدفاع عن منطقة بودرينييه، حيث كانت الخطة تقضي بتشكيل ذلك الفيلق من الوحدات التي تدافع عن غوراجدة، وجيبا، وسريبرينيتسا، وفي تلك الأثناء تم التوقيع على اتفاقية جعل سريبرينيتسا وجيبا مناطق منزوعة السلاح. وتم التوصل إلى هذا الاتفاق الذي وقعه من جانبنا قائد هيئة الأركان المشتركة للقيادة العليا حينها الجنرال سيفر خليلوفيش في وقت عصيب جداً في سريبرينيتسا حيث مكّن الاتفاق أيضاً البلدة من الاستمرار لمدة عامين قادمين، ولكن تم تشكيل الفرقة الحادية والثمانين بدلاً من الفيلق الثامن، ومقر قيادتها في غوراجدة. وبهذا بقيت سريبرينيتسا منطقة صلاحيات الفيلق الثاني ومقره توزلا.

ولقد كنت ألح دائماً خلال شتاء عامي ١٩٩٢ و١٩٩٣ أن يقوم الفيلق الثاني بإرسال تعزيزات إلى تسيرسكا وكونييفتش بولييه اللتين كانتا تحت خطر شديد ولكن كان إلحاحي دون طائل. فلقد تنامى إلى مسامعي أن قائد قوات الفيلق الثاني حينها وهو جيلكو كنيز فضّل الاحتفاظ بالقوات في القطاع الشمالي على حساب منطقة نهر الدرينا. ولكن لم أستطع تأكيد ذلك. لقد كان أي اختراق لخطوط الصرب في الدرينا من قبل قواتنا يعني قطع خطوط اتصالاتهم ولذلك فقد حصّنوا ذلك القطاع بكل ما توافر لديهم من موارد كما هي الحال في ممر بوسافينا.

ويجب أن أعترف بأنه كان لدينا إيمان بأن الأمم المتحدة سوف تحمي سريبرينيتسا وجيبا اللتين أعلنتا منطقتين آمنتين من قبل مجلس الأمن في قراريه رقم ٨١٩ و٨٢٤ في نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٣. ولقد كان سكان

سريبرينيتسا يؤمنون بذلك أيضاً حسب علمي. ومع ذلك فلقد قمنا باتخاذ بعض الاحتياطات حيث نقلنا معدات عسكرية أساسية إلى سريبرينيتسا في نطاق وحدود قدرتنا بالطبع. وكانت الطائرة العمودية وسيلتنا الوحيدة لإيصال المعدات إلى سريبرينيتسا. وكانت هناك كميات من الذخائر كافية لصد هجوم الدبابات.

كانت الأمم المتحدة تهددنا بسحب قواتها كلما طرحنا قضية رفع حظر الأسلحة عن البوسنة. كان ذلك تهديداً حقيقياً، فإذا ما غادرت قوة الأمم المتحدة فإن جيوب منطقة بودرينيه الثلاثة غوراجدة وجيبا وسريبرينيتسا ستصبح في وضع صعب جداً، بل ميئوس منه. وكان هذا هو السبب وراء قيامي بتأجيل طلبنا برفع حظر الأسلحة إلى ستة أشهر أخرى خلال خطابي أمام جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة في أواخر أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٤ لقد كانت قوات الأمم المتحدة هي أمل تلك الجيوب، ولكن ذلك الأمل قد خاب في صيف عام ١٩٩٥.

وضعت خطط من أجل خرق الحصار المفروض على سريبرنيتسا، ولكن كانت كلها تصطدم بحقيقة كون هذه المنطقة منطقة منزوعة السلاح تحميها الأمم المتحدة، وسوف يُعد أي إجراء عسكري من هذا القبيل ذريعة للأمم المتحدة كي تقوم بسحب قواتها. ولقد كان قراراً ينطوي على الكثير من الخطورة إذا ما أردنا الهجوم. فماذا لو أخفق الهجوم؟ سوف يقوم التشتنيك عندها باحتلال البلدة وبأعمال انتقامية وسوف نكون نحن بالتالي المسؤولين المباشرين عن المأساة. لذلك فلقد كان الإبقاء على الأمر الواقع بالتعاون مع قوات الأمم المتحدة هو الاحتمال الوحيد حتى يتم حل الوضع في البوسنة عموماً من خلال مفاوضات سلام.

وعندما جاء ذلك الحل كان الوقت قد فات بالنسبة إلى سربرينيتسا. لقد كانت قوة مراقبة الأمم المتحدة المؤلفة قواتها من ثلاث عشرة دولة تحت قيادة موحدة ظاهرياً. ولكن واقع الأمر يبين أن كلاً من وحداتها كان تحت قيادة موازية من مقر قيادته العليا في بلدته التي جاء منها. فعلى سبيل المثال كان الفرنسيون الذين تولوا السيطرة على القطاع المحيط بسراييفو بما فيه مطار سراييفو وشرق البوسنة كانوا فعلياً تحت قيادة الجنرال جانفيه، وكانوا يتلقون أوامرهم من باريس مباشرة. كان هذا سراً معروفاً. وأكدت ذلك محادثاتي مع الرئيس شيراك في ١٩٩٥/٨/٢٩. ولم يحاول شيراك أن يخفي تلك الحقيقة، بل لقد شعرت أنه أراد مني أن أخلص إلى تلك النتيجة.

ولقد كانت هناك حاجة لاستبدال بعض القادة في سريبرينيتسا، ولكننا لم نتمكن من إرسال ضباط جدد لأن المنطقة تعد رسمياً منطقة غير عسكرية. كل ما كان بوسعنا عمله هو تدريب أولئك الموجودين هناك وهذا ما فعلناه تماماً. ولم يستطع عدد من الضباط العسكريين العودة إلى سريبرينيتسا بسبب حادث تحطم الطائرة العمودية ومن ضمنهم قائد قواتنا في سريبرينيتسا ناصر أوريتش، ولقد كان نائب أوريتش وهو رامز بيتشيردفتش على متن الطائرة مع أربعة من الأطباء. ولقد قتل في الحادث ثلاثة من الأطباء، وأصيب بتشيروفتش إصابات بالغة، وعكس إرسالنا لنائب قائد الفرقة وأربعة من الأطباء العسكريين تصميمنا على الدفاع عن المدينة. ولقد فكرنا في إرسال وفد حكومي ولكن رفضت قوة المتابعة توفير وسائط النقل والحماية مما جعل المهمة مستحيلة.

وكان الوضع في البلدة نفسها خطيراً للغاية، فقد ينفد الغذاء من وقت لآخر، وكان هناك نقص مستمر في الملح. ويصف تقرير لإحدى المجموعات الدولية الحالة المؤسفة التي وصلت إليها الأمور في سريبرينيتسا في عام ١٩٩٣:

"لا يوجد هناك طعام. ويقوم الناس بسرقة بعضهم بعضاً أو بالاستجداء من بعضهم بعضاً. وتسبب سوء التغذية وأمراض الرئة في موت نحو من ٢٠ إلى ٣٠ شخصاً يومياً، وكان هناك حوالي مئة إلى مئتين من المرضى بحالات خطيرة، بالإضافة إلى ٣٠٠ مريض حالتهم أقل خطورة، كانوا بحاجة إلى إخلائهم. وتضخم عدد السكان في المدينة بشكل يفوق قدرة استيعاب شبكة الصرف الصحي، بحيث لم تعد معه احتياطات المياه في البلدة قادرة على تلبية حاجة الموجودين. وسجلت ٦٠ حالة إصابة بالسل"[1].

لقد كان الوضع من الخطورة بمكان، حتى إننا غالباً ما فكرنا في مبادلة سريبرينيتسا بمكان آخر، والقيام بإخلاء السكان إلى ذلك المكان، ولكن سرعان ما كان يتم رفض الفكرة. لقد كان ذلك نتيجة لمشاورات مع القيادات السياسية والعسكرية في سريبرينيتسا. كانوا يعتقدون جادين أن باستطاعتهم الدفاع عن المدينة. وكنت أشجع خيار الإخلاء، ولو أنني لم أصر عليه، نظراً لأنه بدا لي أنه سيكون الدفاع عن المدينة صعباً في حال حدوث هجوم شامل للعدو.

ولم يكن الجنود يفضلون خيار الإخلاء على ما أذكر.

ولقد شهدت سريبرينيتسا توترات ونزاعات واتهامات متبادلة وقتالاً وجرائم قتل بل لأن البلدة كانت ترزح تحت خطر تهديد دائم، للحالة الخاصة لبلدة مقطوعة كلياً عن الاتصال بالعالم الخارجي. قمنا باستدعاء ناصر أوريتش لتوضيح ما كان يجري بالضبط، لوجود روايات متضاربة حينها كما هي الحال الآن. فلقد كنا محاصرين هنا في سرايفو، كما كانوا هم محاصرين في سريبرينيتسا. ولقد كان صعباً إلينا أن نصل إلى حقيقة ما يجري هناك. فلقد كان علينا أن نستجوب عشرات الأشخاص وأن نواجههم بالحقائق، وكان ذلك مستحيلاً في ظل تلك الظروف.

---

(١) أوديسة أو ملحمة البلقان ١٣١.

التقيت بالقائد المسؤول عن سريبرينيتسا ناصر أوريتش في مناسبتين؛ أولاهما كانت قبل الهجوم على البلدة، والثانية كانت بعد الهجوم عليها في تموز (يوليو) من عام ١٩٩٥. وجرى اللقاء في كلتا المناسبتين في ثكنات وحدة "البجعات السود" في كاكانية وطلبت منه أن يعود إلى سريبرينيتسا. كان يستحيل أن يقوم بذلك على الأقدام. ورفض العودة بالطائرة العمودية بعد حادث تحطم الطائرة في أيار. والحق يقال: إن ذلك كان ينطوي على مخاطرة كبيرة. كان الهجوم على سريبرينيتسا قد بدأ عندما قابلته في المرة الثانية، وطلبت منه حينها أن ينظم مجموعة من المتطوعين في توزلا وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لمساعدة اللاجئين المدنيين المتجهين إلى توزلا. وبسبب هذا الإجراء استطاعت المجموعات التي دعمتها قوات في الفيلق الثاني أن تنقذ عدداً كبيراً من المدنيين والمقاتلين.

وتظهر كل المعلومات التي تكشفت فيما بعد بأن الصرب قد خططوا مقدما لتصفية سكان الجيوب الثلاثة من منطقة بودرينييه وهي سريبرينيتسا، وجيبا، وغوراجدة. ولقد تم التخطيط المسبق أيضاً للإبادة العرقية، فلقد بدأت مذابح المدنيين في الرابع عشروالخامس عشر والسادس عشر من تموز (يوليو). وتم ردم جميع القبور الجماعية في السابع عشر من الشهر نفسه، كما أفاد جان رينيه رويز المعلق السياسي الفرنسي في معرض شهادته أمام البعثة البرلمانية الفرنسية في إطار التحقيق في قضية سريبرينيتسا. كانت هجمات الصرب داخل منطقة سريبرينيتسا الآمنة تحدث بشكل يومي مما حدا بقوة المتابعة للتخلي عن خمس نقاط تفتيش، وأن تنسحب إلى عمق المنطقة الآمنة.

بدأ الهجوم الأخير على سريبرينيتسا في السادس من تموز (يوليو)، ولكن كانت بداية الهجوم ضمن نطاق محدود، ولم يستطع المرء أن يقدر أن ذلك كان هجوماً كاسحاً ونهائياً على البلدة إلا في الثامن والتاسع من تموز (يوليو).

ولقد دعونا الناتو للقيام بضربة جوية فلقد كنا نعتقد أن لا يسمح المجتمع الدولي لقوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة والمنطقة الآمنة أن يتم اكتساحهما. وبالجانب المقابل فلقد توقعنا مردوداً أكبر من القوات المدافعة عن سريبرينيتسا نفسها نظراً لأنه كان بحوزتها أسلحة مضادة للدبابات بما فيها حوالي ٣٠٠ قذيفة صاروخية موجهة وعشرات القنابل الصاروخية من طراز السهم الأحمر، التي كانت جميعها كافية لإيقاف أي هجوم للدبابات، وعلى علمي فإنه لم يتم استخدام هذه الأسلحة في إطار الفوضى العامة التي دبت في صفوف الجميع، أو أنه لم يتم استخدامها بالشكل الأمثل.

ويشير التقويم العام إلى أن قرار الصرب بمهاجمة سريبرينيتسا وجيبا قد عجّل به الأنباء الواردة عن قرب تشكيل قوات تدخل سريع ليتم نشرها بحيث تساند وتعزز قوات المراقبة، وتعيد جانباً من المصداقية التي اهتزت لتلك القوات بعد عملية احتجاز الرهائن والإذلال الذي صاحب رؤية أفراد تلك القوة مقيدين إلى أعمدة الجسور. كان هناك مدفعية للحلفاء متمركزة في جبل إيغمان تتألف من مدافع هاوتزر الشهيرة من عيار ١٥٥ ملم وأسلحة هجومية بريطانية خفيفة ومدافع مورتز فرنسية ثقيلة. ولذا فقد قرر الصرب استباق ذلك كله بهجوم على سريبرينيتسا وجيبا.

في السابع من تموز قام صرب البوسنة بمهاجمة مركز مراقبة تابع للفرقة الهولندية في سريبرينيتسا وقاموا باحتجاز ٥٥ جندياً هولندياً رهائن، ورفض المجتمع الدولي القيام بشن ضربات جوية من أجل إنقاذ أولئك الجنود، وبالتالي فإنه قد آثر التضحية بسريبرينيتسا. ولقد قمت في التاسع من تموز بتوجيه رسالة عاجلة إلى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، وتحدثت هاتفياً مع الرئيس التركي سليمان ديميريل والإيراني هاشمي رافسنجاني حول الوضع في سريبرينيتسا. وكتبت في معرض رسالتي إلى الرئيس بيل كلينتون:

"استمرت أزمة سريبرينيتسا المحاصرة منذ بداية العدوان لوقت طويل جدا".

وأعلن قرار مجلس الأمن رقم ٨٢٤ سريبرينيتسا منطقة آمنة تحت حماية الأمم المتحدة وتم نزع سلاحها، وجعلت منطقة غير عسكرية في عام ١٩٩٣ بموجب اتفاق مع قوة المراقبة. وعلى الرغم من كل تلك الحقائق فإن سريبرينيتسا تتعرض الآن للقصف. وشن المعتدون الصرب بالأمس هجوماً كاسحاً بالمشاة والمدرعات، ولا يوجد لدى العدد الضئيل من قوات المراقبة الرغبة ولا القدرة على حماية البلدة من هذا الهجوم. وأصبحت حياة أكثر من ٦٠ ألف شخص من النساء والأطفال والمسنين في خطر شديد.

الرجاء أن تستخدموا نفوذكم لدى المجتمع الدولي كي يقوم بالإيفاء بالتزاماته تجاه هذه المنطقة التي أعلنتها الأمم المتحدة منطقة آمنة وأن يمنع المزيد من أعمال الإرهاب والإبادة العرقية ضد السكان المدنيين في سريبرينيتسا. إنني أتوسل إليكم أن تقوموا باتخاذ إجراء عاجل لإنقاذ الوضع" في سريبرينيتسا.

واتصل بي الجنرال روبرت سميث قائد قوة المراقبة، وأخبرني من سبليت أثناء مغادرتي سراييفو عبر النفق تحت المطار مساء التاسع من تموز حيث كنت أنوي التوجه إلى زينيتسا فأخبرني بصوت مضطرب أنه قد صدرت أوامر للناتو للقيام بضربات جوية ضد المواقع الصربية وأنها سوف تبدأ دون أي تأخير. إنني اعرف أن الجنرال سميث كان من مؤيدي مثل هذا الإجراء منذ البداية وأنه كان من الداعين له دوماً، ولكن قام مسؤول أرفع منه رتبة بمنع القيام بتوجيه الضربات الجوية، ولعل ذلك المسؤول كان إما الجنرال جانفييه، أو أكاشي، أو الأمين العام للأمم المتحدة السيد بطرس غالي بنفسه.

وتصريح لجريدة اللوموند قال الجنرال الفرنسي جان كو القائد السابق لقوة المراقبة في البوسنة: إنه قد طلب إلى الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي إعطاء الضوء الأخضر للقيام بالضربات الجوية عدة مرات، إلا أن الأمين العام رفض. وصرح الجنرال جولوان قائد قوات الناتو في أوربة بعد سنوات عدة بما يلي:

"لقد كنا نحن في الناتو حينها قلقين من تردد الأمم المتحدة في موافقتها على استخدام القوة، على الرغم من أن ذلك كله كان خرقاً واضحاً لقرار المناطق الآمنة".

جاء ذلك التصريح الذي أدلى به الجنرال لصحيفة أفاز اليومية في سراييفو في ٢٠٠٠/٧/٨ بمناسبة الذكرى الثامنة للمأساة وأصبح من المعروف الآن أنه وخلال أزمة سريبرينيتسا كانت الطائرات تقلع من قواعدها في إيطالية ويتم إعادتها خلال منتصف الرحلة.

ولقد مضيت في طريقي إلى زينيتسا مرتاحاً بما أخبرني به الجنرال سميث. وكنا على أهبة الاستعداد طوال الليل واليوم التالي بانتظار أنباء الضربات الجوية. ولكن لم يرد أي نبأ عن ذلك، وبدأت الأنباء تتوارد في مساء الحادي عشر من تموز عن دخول قوات ملادتش إلى البلدة مع عدم وجود أي إجراء من قبل الناتو، وشعرت بالخذلان مرة أخرى للأسف. وأملى عليّ شعوري بالخذلان نص البيان التالي الذي أصدرته في ١٢ تموز:

"نحن ندعو إلى كل مما يلي:-

على الأمم المتحدة وحلف الناتو استخدام القوة لإعادة منطقة سريبرينيتسا إلى وضعها السابق قبيل الهجوم كمنطقة آمنة، أي إعادتها إلى وضعها الذي كانت عليه في أيار من عام ١٩٩٣. وإذا لم يكونوا قادرين أو راغبين بفعل ذلك فعليهم أن يقولوا ذلك بصراحة.

استخدام كافة الوسائل المتاحة بما فيها إسقاط المؤن من الجو بالتعاون مع هيئة الإغاثة لتوفير الخيام والطعام والمواد الطبية حول المنطقة الآمنة بمساعدة السكان النازحين، بالإضافة إلى إخلاء المرضى والجرحى من المدنيين. وكذلك يجب عليهم القول بصراحة إذا لم يكونوا قادرين أو راغبين بالقيام بذلك، فأقل ما يدينون به لهذه الدولة العضو في الأمم المتحدة هو رد واضح وصريح على المطالب التي ذكرت أن التشويش الحاصل بسبب تفاوت التصريحات يؤدي إلى زيادة تعقيد الوضع المعقد أصلاً.

وأخيراً فإنّ جواباً سلبياً من قبلهم في هذا الخصوص يعني أنهم يوافقون علناً على تشريع استخدام القوة في العلاقات الدولية، وأنهم يقبلون الإبادة العرقية على أنها أمر واقع، بالإضافة إلى أنهم بذلك يقبلون أن يصبح مجرمو الحرب شركاء على قدم المساواة. إن هذا هو سبب تفاديهم لإصدار رد واضح وهو السبب الذي يجعل مثل هذا الرد الواضح مهماً بالنسبة إلينا".

لقد جاء رد الفعل الوحيد من الرئيس الفرنسي جاك شيراك؛ فدعا إلى إمكانية إعادة سريبرينيتسا إلى السيطرة العسكرية للأمم المتحدة، فيما كان كل ما وجدته من الجميع هو الصمت، وأنه لن يكون هناك أي إجراء يتخذونه، ولكنني بعثت رسالة إلى الرئيس الفرنسي أشكره فيها قائلاً:

"أكتب إليك بعد تصريحك الأخير الذي يتعلق بدور قوات الأمم المتحدة في البوسنة والحاجة إلى وقف تدهور الأوضاع هناك بعد مأساة سريبرينيتسا مما يشكل تهديداً بتوسع الحرب الدائرة في هذا الجزء من العالم.

لقد استقبلنا تصريحاتك بترحاب كبير، ونأمل أن يبدأ المجتمع الدولي التحرك أخيراً من أجل الوفاء بالتزاماته التي تعهد بها تجاه البوسنة.

إن كل ما نطلبه هو أن يتم تطبيق قرارات مجلس الأمن التي تم تبنيها بالإجماع الدولي دوماً بحذافيرها ودون تراخٍ في بعض الأحيان.

إن لفرنسة بوصفها دولة عظمى وعضواً دائماً في مجلس الأمن حقوقاً والتزامات في هذا الشأن.

سيدي الرئيس، لقد حان الوقت كي يتوقف الصرب وصربيا عن فرض سياستهم على أوربة.

ونرجو منكم أن تستمروا في جهودكم من أجل وقف العنف في منطقة البلقان".

لقد كان أهم عامل يحد من قدرتنا على التعامل مع الوضع هو نقص المعلومات الاستخباراتية الموثوقة عن قوة ونوايا العدو. وبالطبع فلقد كان لدى

قوة المراقبة من الأمم المتحدة معلومات عن مراكز وجود قوات ملادتش، ولكنهم لم يكونوا قادرين على تحديد نواياه بالضبط. ولم يكن من الصعوبة بمكان أن يرى المرء أن قوات المراقبة قد أخذت على حين غِرّة حسبما يمكن قراءته من ردة فعلهم. ولقد كان هذا نابعاً أيضاً من ترددهم في إعطاء الأوامر من أجل توجيه ضربات جوية، فلقد كانت القوات الجوية التابعة للحلف تتلقى أمرين مختلفين في ساعة واحدة، ولقد استغل التشتنيك هذا الوضع استغلالاً كاملاً.

وأضاف الجنرال جولوان في مقابلته مع صحيفة افاز عام ٢٠٠٠ التي ذكرت آنفاً:

"لقد كان بالإمكان تجنب المأساة في سريبرينيتسا لو كنّا أكثر حزماً".

دب الرعب والفوضى في البلدة التي كانت تتعرض للهجوم، وكان هذا هو الانطباع الذي خرجت به بعد عدد كبير من المحادثات الهاتفية التي أجريتها ما بين ٧ و١١ تموز (يوليو). وعلمت فيما بعد بوجود وحدات صغيرة وأفراد قاوموا وقاتلوا حتى الموت، ولكنني أعتقد أنه لم تعد هناك قيادة موحدة بعد التاسع من تموز (يوليو)، ولقد سمعت أول الأنباء عن سقوط البلدة حينما كنت في زينيتسا. أعتقد أن الجنرال ديلتش هو الذي أخبرني بذلك، إذ كان على اتصال دائم ومباشر، ولقد تم إخلاء حوالي ٢٠ ألف طفل وامرأة من سريبرنيتسا بالحافلات. وعانى رتلٌ طويل من الرجال والمقاتلين طيلة أيام حتى شق طريقه باتجاه توزلا وكلادانية.

وفي واقع الأمر فإن القوات المنسحبة باتجاه توزلا كانت تتحرك بحماس واندفاع أكثر من تلك التي أرسلناها من توزلا إلى سريبرينيتسا. ولا أريد أن أسقط العامل الإنساني هنا في تفسير ذلك، وهو أن الدافع لدى القوات يكون أكبر عندما يندفعون باتجاه منطقة الأمان أكثر مما هو عليه الحال إذا كان

مسيرهم باتجاه منطقة الخطر، والسبب الثاني هو جبن التشنيك. فلقد كانوا أجبن من أن يواجهوا المقاتلين المتحمسين الذين كانوا يقاتلون ببسالة، كي يشقوا طريقهم إلى خارج المنطقة. بل لقد فضل التشتنيك أن يجابهوا المدنيين العزل، وهم كثر، فحققوا هدفهم ألا وهو احتلال البلدة.

وعرفت الدول العظمى بوقوع مذبحة للسجناء والمدنيين بفضل صورة الأقمار الصناعية. وكل ما كان بإمكاننا فعله هو التخرص وتكذيب الأخبار كلما ازداد الأمر سوءاً. وأتذكر أننا قد تنصتنا بعد يومين أو ثلاثة من سقوط سريبرينيتسا على مكالمة هاتفية بين اثنين من التشتنيك، قال فيها أحدهما: "لقد قمنا بفرزهم بالأمس". فسأله الآخر: "كم كانوا، هل كان هناك ثلاثون منهم؟" فأجابه الأول "أضف صفرين إلى ذلك الرقم". أعتقد أن التسجيل لا يزال موجوداً في أرشيف الرئاسة. ولكن ما حصل بالفعل فاق أسوأ التوقعات، فلقد قامت لجنة الصليب الأحمر الدولية بعدٍّ جثث ٧٠٧٩ جندي ومدني قتلوا خلال الأيام الأربعة الأولى من المذبحة. ولم يكن هذا الرقم نهائياً. فمن المسؤول؟ عندما تحدث مأساة بهذا الحجم لا يمكن أن يكون أحد بريئاً منها.

و يجب أن يلقى باللوم علينا جميعاً لأننا سمحنا بوجود عالم يحدث فيه ما حدث في سريبرينيتسا. ويجب أن يعتقد كل واحد منا أنه كان بإمكانه القيام بأكثر مما قام به. لا أستطيع القول: إنني راضٍ تمام الرضا عن تصرفات الجيش في تلك اللحظات الحرجة. فيبدو أن قوات الجيش تسللت فارّة من مواجهة التشتنيك. ويعتقد الجنود أنهم قد قاموا بكل ما بوسعهم في ظل الظروف، ولقد كان الصدام بين السلطات المدنية والعسكرية في سريبرينيتسا وشيكاً. وعلى أية حال فإن الإجماع المطلوب في مثل تلك الظروف كان مفقوداً، لقد كان ذلك نتاجاً للوضع النفسي في بلدة محاصرة ومقطوعة عن العالم، حيث كانت الظروف المعيشية صعبة للغاية.

ولقد بعثت برسالة إلى نساء سريبرينيتسا بمناسبة الذكرى الثانية للمأساة في ١١ تموز ١٩٩٧ قلت فيها:

"سيظل احتمال ما إذا كان بالإمكان منع وقوع تلك المأساة المروعة سؤالاً يلقي بظلاله على ضمير كل واحد منا وضمير كل شخص يحمل روح المسؤولية في العالم كله، حتى يتم تقديم إجابة صادقة وعادلة، ولقد كانت تلك أياماً مؤلمة وعصيبة للبوسنة. إذ تضافرت عدة عوامل ضدنا في تلك الأيام الفظيعة من شهر تموز. حين كانت هناك المحاولة غير الناجحة لرفع الحصار عن سراييفو قبل نحو عشرين يوماً من الهجوم على سريبرينيتسا، والتفوق الهائل للعدو في العتاد حيث كان يتلقى دعماً مباشراً من صربيا، وعدم اكتراث العالم تجاه الأحداث، والتصرف الجبان لقوات المراقبة التابعة للأمم المتحدة وقتها، وكذلك عزلتكم الطويلة والمشاكل التي خلقتها تلك العزلة في البلدة المحاصرة، فلم يكن كل ذلك في مصلحتنا.

و أريد أن تعلمن أننا نقوم بكل ما بوسعنا عمله، وسنستمر كذلك من أجل تقديم المساعدة لكنّ. أنا اعلم أن هذا ليس كافياً ولكن بعد سنوات الحرب المدمرة الأربع فإن البوسنة مثخنة بالجراح التي تحتاج إلى وقت كي تشفى. إن سريبرينيتسا هي أكبر وأعمق تلك الجراح".

ولقد استقال تاديوش مازوفسكي من منصبه بوصفه مقرراً للجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بتاريخ ١٩٩٥/٧/٢٧ احتجاجاً على التصرف الجبان للمجتمع الدولي تجاه ما حدث في جيبا وسريبرينيتسا وكان مما كتبه هذا الرجل الجدير بالاحترام في كتاب اقتبست منه الكلمات التالية:" لا يستطيع المرء أن يتحدث بمصداقية عن حقوق الإنسان بينما لا يملك المجتمع الدولي وقادته الشجاعة والإرادة من أجل حماية تلك الحقوق".

وقام الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان بنشر تقريره عن سريبرينيتسا في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٩. لقد كان تقريراً مليئاً بالندم ومعبراً عن التوبة.

فلقد أقرّت القوى الدولية بمسؤولياتها عن المأساة، ومع ذلك فلم تتم الإشارة بصراحة إلى المسؤولين الذين يتحملون الجزء الأكبر من المسؤولية على الرغم من أن كل من الجنرال جانفييه وأكاشي مذنبين بما لا يدع مجالاً للشك.

ولست متأكداً إذا ما كنا سنعرف يوماً ما كل الظروف التي حاقت بالمأساة. لربما يحدث ذلك بعد ثلاثين سنة من الآن عندما تنشر كل الوثائق للجميع. وهناك في هذا الإطار معلومة مهمة من خلال الحديث الذي دار بيني وبين الرئيس الفرنسي شيراك في ٢٩ أو ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٩٥، أي بعد حوالي أكثر من شهر على كارثة سريبرينيتسا. فلقد قلت له: إنني أعدّ الجنرال جانفييه أحد أولئك المسؤولين عن الكارثة. وبدا الرئيس حينها مندهشاً جداً ورفض الفكرة ككل وأردف قائلاً:" لا، إنه ضابط مستقيم". وقمت بالرد على ذلك قائلاً: " لدي معلومات موثوق بها أن جانفييه كان هو المسؤول عن منع الضربات الجوية، وأنه قد اجتمع بملادتش خلال الأزمة. ولقد كرر الرئيس أنه لا يصدق ذلك، ولكنه وعد بأن يتحقق من الأمر وبعد شهر أُقيل جانفييه.

وانتقل ملادتش بعد ذلك لمهاجمة جيبا، شجعه على ذلك السلبية التي تعامل بها العالم مع قضية سريبرينيتسا. وكانت خططه تشمل غوراجدة أيضاً، ولكن تم إيقافه. ولقد تحدثت مرتين في السابع عشر من تموز إلى قائد قوة المراقبة في البوسنة والهرسك الجنرال روبرت سميث، وطلبت منه أن نبحث إمكانية أن تساعدنا قواته في إخلاء المدنيين من جيبا. وعرضت عقد محادثات مباشرة على المستوى العسكري مع العدو بهذا الصدد. وقمت في الوقت نفسه بإعطاء تعليمات لوزير خارجيتنا محمد شاكر بيغوفتش بأن يطرح قضية الإخلاء الآمن للمدنيين في مجلس الأمن والمؤسسات الدولية الأخرى. ولقد طلبت منه أن يشدد بشكل خاص على مسؤولية المجتمع الدولي تجاه مصير سكان تلك المناطق التي أعلنها مجلس الأمن على أنها مناطق آمنة.

وبعثت برسالة في العشرين من تموز (يوليو) إلى رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر أطلب إليه أن يقدم تلك الرسالة إلى وزراء خارجية ودفاع دول مجموعة الاتصال خلال اجتماعهم الذي كان يعقد في لندن في تلك الأثناء. وقلت:

"وتستمر مأساة الناس في ما يسمى بالمنطقة الآمنة في جيبا بينما تعقدون اجتماعكم في لندن.

إن خمسة آلاف امرأة وطفل، ورجل مرهق عرضة لخطر الموت. فبعد ما حصل في سريبرينيتسا ومقتل عدة آلاف من الأشخاص في تلك المنطقة غير العسكرية ليس لأحد الحق في أن يبقى سلبياً بحيث يمكن الإرهابيين الصرب من أن يرتكبوا مجزرة جماعية أخرى.

لذا فإنني أدعوكم للجوء إلى كل الوسائل المتاحة للحيلولة دون ذبح الشعب البريء في جيبا.

أرجوك يا دولة الرئيس أن تقوم بإبلاغ المشاركين بمكنون هذه الرسالة قبيل بدء الاجتماع".

ولقد بعثت برسالة أخرى إلى مجلس الأمن بعد خمسة أيام من الرسالة الأولى إذ بقيت الهجمات مستمرة:

"ما زالت منطقة جيبا الآمنة تتعرض للهجمات الوحشية، ولقد نزح السكان عن المدينة نتيجة القصف المتواصل ولجؤوا بأعداد كبيرة إلى الأحراج المجاورة. إنني أدعو مجلس الأمن كي يقوم بإصدار الأوامر من أجل الإخلاء الآمن للنساء والأطفال والمرضى والجرحى في جيبا. وأطلب أن يتم الإخلاء تحت الحماية الكاملة من قبل قوات الأمم المتحدة، وأن يتم تخويل الجنرال سميث استخدام كل الوسائل المتاحة بما في ذلك استخدام القوة إذا ما تعرضت القوافل المرافقة للمدنيين للهجوم.

فبعدما حصل في منطقة سريبرينيتسا الآمنة، وبعدما رفضتم الدفاع عن جيبا التي أعلنتموها منطقة آمنة تابعة للأمم المتحدة من خلال قرار رسمي، فإن أقل ما يمكن أن تقدموه هو إنقاذ النساء والأطفال. عليكم أن تقوموا بذلك دون تأخير ودون أي تردد أو تحفظ.

و أطلب أن يتم قراءة نص هذه الرسالة في بداية جلسة اليـوم وأن يتـم تمريرهـا إلى كل أعضاء مجلس الأمن".

وبشكل عام فلقد أبدى كل من الجنود والمدنيـين في جيبـا في ذلـك الظـرف العصيب انضباطاً أكبر من الذي أبداه نظراؤهم في سريبرينيتسا. ويرجع الفضـل الرئيسي في ذلك إلى شخصين شجاعين هما القائد العسكري المسـؤول في جيبـا الكولونيل افدو بالتش وعمدة البلدة محمـد هـايرتش ولـم يعـرف مصير هذيـن البطلـين منـذ تلـك الأيـام المأسـاوية. فلقـد ذهـب كـل مـن بـالتيتش وهـايرتش للمفاوضة مع ملاديتش في محاولـة لإنقـاذ سـكان البلـدة، ولكـن لـم يرجـع أي منهما، وسقطت جيبا في الخامس والعشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٩٥.

وكان للأحداث المأساوية في جيبا وسريبرينيتسـا أثـر رئيسـي علـى مجريـات الأمور بعد ذلك، ولقد وصلت التماساتنا وانتقاداتنا التي كـانت غـير مجدية إلى ذروتها. فتدخل الناتو في الثلاثين من آب (أغسطس) ١٩٩٥، أي بعد أقل مـن شهرين على مأساة سريبرينيتسا، فقام بتوجيه ضربات جوية ضد مواقع الصـرب في مختلف أنحاء البوسنة.

كان السبب المباشر وراء الضربـات هـو القذيفـة التـي سـقطت علـى سـوق ميركالة سراييفو في ٢٨ آب (أغسـطس)، ولكننـي أعتقـد أن السـبب الحقيقـي وراء ذلك كان سريبرينيتسا. ولقد كان لسريبرينيتسـا أيضـاً تـأثير مباشـر علـى إدانة محكمة حقوق الإنسان في لاهاي لكـل مـن كـارادجتش وملادتـش. وأمـا بالنسبة إلينا جميعاً فتبقى سريبرينيتسا أسوأ كارثة يمكـن أن تحـدث. لقـد كـانت كارثة أكبر من أن تتحملها البوسنة الصغيرة.

ويتزايد اهتمام العالم بمأساة سريبرينيتسا مع مرور الوقت. فلقد اسـتقبلت في السادس عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٩٩ ديفيد هارلاند رئيس الشؤون المدنيـة في بعثة الأمم المتحدة إلى البوسنة والهرسك ولقد قمـت بـالرد علـى بعـض مـن أسئلته.

الردود على أسئلة ديفيد هارلاند (١٦ تموز ١٩٩٩)

– هارلاند: سيدي الرئيس لا بد أن لديكم علماً بأن الجمعية العامة للأمم المتحدة أقرت مشروع قرار يقضي بفتح تحقيق في الظروف التي أحاطت بسقوط سريبرينيتسا في صيف عام ١٩٩٥، ولقد أبلغ الأمين العام للأمم المتحدة بعثة الأمم المتحدة في البوسنة شفهياً تخوّلني فيه للمساعدة في إعداد هذا التقرير تمشياً مع الفقرة الثامنة عشرة من نص القرار. ولكي أتمكن من القيام بذلك أود أن أطرح عليك عدداً من الأسئلة المتعلقة ببعض الأحداث التي رافقت سقوط سريبرينيتسا التي قد تكون معلومة لديك.

إن سؤالي الأول هو التالي: هل قامت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك بدعم ومساندة عملية إخلاء المدنيين من سريبرينيتسا في الفترة من آذار (مارس) إلى نيسان (أبريل) ١٩٩٣؟

– عزت بيغوفتش: نعم، ولكن ليس من البلدة نفسها. فلقد ساعدنا على إخلاء عدد من المدنيين الذين نزحوا عقب هجوم التشتنيك على تسيرسكا وكونييفتش بولييه باتجاه سريبرينيتسا. فلقد كانت سريبرينيتسا مزدحمة جداً حينها. ولقد كانت هناك أزمة إنسانية حقيقية في البلدة وكان جُلُّ من غادر البلدة هم من المرضى، والعجزة والمسنين والنساء والأطفال من المناطق التي احتلتها القوات الصربية في العملية الهجومية من آذار (مارس) – نيسان (أبريل) ١٩٩٣ ولقد اتخذ الجنرال موريليون قرار إخلاء أولئك المدنيين، ولم نعارض نحن ذلك القرار.

– هارلاند: هل كانت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك تعتقد أن الصرب كان بمقدورهم دخول سريبرينيتسا خلال عمليتهم الهجومية في آذار (مارس)/ نيسان (أبريل) ١٩٩٣؟

– عزت بيغوفتش: درست السلطات كل وسيلة ممكنة لمنع القوات الصربية من دخول سريبرينيتسا، وتم دراسة حل طويل الأمد من أجل حماية سكان البلدة، ولقد كان الصرب قادرين على محاولة الدخول إلى البلدة فيما بعد إذا ما فشلوا في دخولها في آذار (مارس) من عام ١٩٩٣. فلقد كانت سريبرينيتسا معزولة تماماً ومفصولة عن باقي أراضي الدولة الحرة. وكان من المستحيل إيصال المعدات والأسلحة والذخيرة

إليها من أجل دفاع طويل الأجل، وكان اهتمامنا منصبّاً على كيفية إطعام أولئك السكان، كانت تلك هي الأسباب التي دعتنا للقبول بمبدأ المناطق الآمنة نزع سلاح أفراد جيش البوسنة والهرسك في سريبرينيتسا وتم إخراج جميع الأسلحة الثقيلة، وردم المواقع المواجهة للقوات الصربية، إذ كان هناك التزامات وضمانات من قبل قوة المراقبة في إطار قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالمناطق الآمنة. واعتقد الناس أنه سوف يتم احترام تلك الالتزامات. صحيح أن السكان استمروا في مغادرة المدينة، ولكن كان هذا بسبب الوضع الإنساني المتدهور في البلدة ورغبة بعضهم في الانضمام إلى عائلاتهم، وليس الخوف من هجمات التشتنك فقط.

– هارلاند: هل اعتبرت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك أن إنذار المهلة النهائية للتاسع من شباط (فبراير) ١٩٩٤ الذي حدده الناتو ساهم في قيام الصرب بسحب أسلحتهم الثقيلة من محيط سرايفو أو إلى وضعها في نقاط جمع الأسلحة التي ستشرف عليها قوة المراقبة؟

– عزت بيغوفتش: كان إنذار الناتو فعالاً بشكل جزئي فقط، فلم يتم وضع جزء كبير من الأسلحة تحت سيطرة قوة المراقبة التي لم تكن راغبة في تطبيق القرار بحذافيره أيضاً. فلقد كان الصرب يأخذون أسلحتهم متى شاؤوا، وهناك حالة معروفة لدى الجميع كمثال على ذلك، إذ تم نقل أسلحة ثقيلة من مركز الجمع في لوكافيتسا. حدث ذلك في آذار (مارس) أو نيسان (أبريل) ١٩٩٤. ويبدو أنهم قد قيموا الأمر على أنه مجرد تهديد كلامي من قبل الناتو.

– هارلاند: هل كانت السلطات في البوسنة والهرسك تعتقد أنه كان بإمكان الصرب دخول غوراجدة خلال هجومهم في نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٤؟

– عزت بيغوفتش: كان هناك خطر حقيقي من حدوث ذلك، ولكننا كنا نعتقد أن غوراجدة سوف تصمد، وصمدت بالفعل بعد جهد جهيد.

– هارلاند: هل كانت السلطات في البوسنة والهرسك تعتقد أن الإنذار النهائي بتاريخ ٢٢/٤/١٩٩٤ الذي وجهه الناتو للصرب كان وراء قرار الصرب بعدم مواصلة هجومهم على غوراجدة؟

– عزت بيغوفتش: نعم لقد ساهم في هـذا دون أي شـك. ومـع ذلـك فلقـد لعب جيش البوسنة والهرسـك المدافـع عـن غوراجـدة الـدور الأهـم في تلـك الفـترة، فلقـد استمرت العملية مدة شهر كامل قبيل تاريخ المهلة النهائية، فلو لم يكن لقوات جيش البوسنة والهرسك القدرة على الدفاع عن غوراجدة طيلة ذلـك الشـهر لكـان الإنـذار النهائي أصبح عديم الجدوى.

– هارلاند: لماذا لم يدخـل الصـرب سريبرينيتسـا قبـل تموز (يوليـو) عـام ١٩٩٥ حسب وجهة نظر حكومة البوسنة والهرسك؟

– عزت بيغوفتش: إن مسـار الأحـداث خـلال أعـوام ١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٤ أعطى الصرب الانطباع بأن المجتمع الدولي كان متردداً وغـير حـازم لأمـره، وكـانت هناك توقعات متفاوتة لدى القيادة الصربية فيما يخص رغبة واستعداد العـالم للتدخـل. ولقد قرر ملادتش المخاطرة بذلك في سريبرينيتسا. وكما تبـين بعـد ذلـك فـإن تقديـره فيما يخص عدم قيام المجتمع الدولي بأي شيء كان صائباً، وافترض أنه توصل إلى ذلك الاستنتاج من عدة عوامل، بالإضافة إلى محادثات القيادة الصربية مـع كـل مـن أكاشـي وجانفييه.

– هارلاند: إلى أي مدى ذهبت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك في دراسة إجراء عملية مبادلة لسريبرينيتسا وجيبا مع صرب البوسنة كجزء من حل سلمي، ومـا المحادثات التي عقدت على الصعيـد الداخلي بهـذا الخصـوص، ومـا المحادثـات التي عقدت مع الصرب أيضاً؟

– عزت بيغوفتش: لم يتم إجراء أية محادثات مـع الجـانب الصربـي بخصـوص هـذه القضية، ولكن طلب منا الأمريكان في دايتون بالإضافـة إلى الأشـياء الأخـرى أن نقبـل الصيغة النهائية لخريطة الكيانات داخل البوسنة والهرسك، ولقد تغيرت الخارطة خلال المفاوضات، ونجحنا في نهاية المطاف بالحصول على سراييفو وممر إلى غوراجـدة ولكننـا لم نستطع الحصول على سريبرينيتسـا وجيبـا. وعندمـا هممـت ألا أوافـق علـى ضـم برتشكو إلى جمهورية صرب البوسنة أوشكت المفاوضات على الانهيار بتاريخ العشـرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وكل مـا كـان بوسـعنا أن نفعلـه هـو أن نعـود إلى البوسـنة

ونستمر في الحرب في ظل ظروف غير مواتية أبداً، وفي إطار من العزلة الدولية الكاملة. وبدا لنا أنه بإمكاننا التعويض عن فقدان بعض الأراضي ذات الأغلبية البشناقية في منطقة بوردينية من خلال عودة اللاجئين والمهجرين إلى تلك المناطق، وهو ما نص عليه الملحق السابع من اتفاقية دايتون وما زلت أؤمن بذلك، وأتصرف على هذا الأساس.

– هارلاند: هل من الممكن أن تكون فكرة التنازل عن سريبرينيتسا لصالح صرب البوسنة في اتفاقية السلام قد أثرت على إرادة المدافعين عن سريبرينيتسا ورغبتهم في إبداء مقاومة أفضل؟

– عزت بيغوفتش: لقد قلت: إنه لم يكن بالإمكان قبل اتفاقية دايتون أن يتخيل المرء التنازل عن سريبرينيتسا لمصلحة الصرب، ناهيك عن أن نتحدث عنه. والدليل على ذلك هو سلاح الدفاع الذي بعثنا به إلى الحامية المتمركزة في سريبرينيتسا ولقد قمنا بتزويدهم أيضاً بمضادات للدبابات من طراز (تي. اف–٨) وكان على متن آخر رحلة للطائرة العمودية التي أسقطت في أيار (مايو) ١٩٩٥ أربعة أطباء عسكريين كذلك. قتل ثلاثة منهم عندما أسقطت الطائرة العمودية، وأصيب نائب القائد المسؤول الرائد بشيروفتش بجروح خطرة، وكما ترى فإن من يريد التخلي عن مدينة لا يقوم بإرسال سلاح متطور وأطباء عسكريين إليها.

– هارلاند: هل تم توجيه أوامر إلى جيش البوسنة والهرسك كي يقدموا العتاد العسكري للمدافعين عن سريبرينيتسا حتى بعد ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٩٣؟ وإذا ما كان الأمر كما ذكرت فلماذا؟ ولماذا إذا كان الأمر ليس على الوجه الذي ذكرنا؟"

– عزت بيغوفتش: نعم فلقد أنيطت بالجيش واجبات دعم ومساندة المدافعين عن سريبرينيتسا بأفضل ما يستطيع، ولكن من خلال أسلحة دفاعية وليس هجومية.

– هارلاند: هل كانت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك على علم بحدوث أي هجمات خارج منطقة سريبرينيتسا الآمنة بعد نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٣؟

– عزت بيغوفتش: لا ليس عندي علم.

– هارلاند: لماذا أخفقت قوة المراقبة من وجهة نظر سلطات البوسنة والهرسك في ممارسة صلاحياتها من أجل وقف الهجمات على مناطق سريبرينيتسا وجيبا الآمنة؟ وهل فوجئت السلطات بهذا الإخفاق؟ وهل أخذت خطط السلطات بعين الاعتبار احتمال حدوث ذلك التقصير؟

– عزت بيغوفتش: لقد بررت قوة المراقبة تصرفاتها دائما بأنها ليست مخولة باستخدام القوة. ومع ذلك فلقد توقعنا من تلك القوة أن تستخدم سلطتها في الدعوة إلى دعم جوي من الناتو خاصة بعدما أعلنت سريبرينيتسا وجيبا مناطق آمنة من قبل الأمم المتحدة. لقد كان بوسعهم بل كان يجب عليهم القيام بذلك نظراً لأن قرارات مجلس الأمن بخصوص المناطق الآمنة في البوسنة والهرسك تم تبنيها على أساس الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، الذي يعني أنه كان بالإمكان تنفيذ تلك الصلاحيات من خلال اللجوء إلى القوة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وكان لدينا أسباب جدية كثيرة تجعلنا نتوقع رداً من الناتو باستخدام ضربات جوية ضد القوات الصربية التي كانت تهاجم سريبرينيتسا وجيبا بضراوة، وأنت تعلم أن القرار بالقيام بتوجيه الضربات الجوية قد اتخذ ثم أُلغي، ثم اتخذ ثم أُلغي في نهاية المطاف.

لماذا وكيف؟ هذا سؤال يستطيع فقط كل من أكاشي والجنرال جانفييه الإجابة عنه. إنهما على علم بما تم خلف الكواليس أيام الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٩٥ ولقد اتصل بي الجنرال سميث مساء يوم التاسع من تموز ليخبرني أنه تقرر توجيه ضربات جوية للصرب في الصباح الباكر. وأعتقد أن الجنرال سميث كان ضابطاً نزيهاً، وأنه شعر بالخزي من تردد وقلة حزم قادة الأمم المتحدة السياسيين الذين تقبلوا ممارسة العنف حتى ضد قواتهم من قبل الجنرالات الصرب، ولسوء الحظ فلم تتحقق أمانيَّ وتطلعاتي ولا تطلعات الجنرال سميث أيضاً، فلقد كان قرار السلطات الأعلى في الأمم المتحدة أو سلطات خارج الأمم المتحدة مغايراً لما تطلعنا إليه.

– هارلاند: هل كانت سلطات جمهورية البوسنة والهرسك تتوقع هجمات الصرب في تموز (يوليو) من عام ١٩٩٥؟ هل توقعت أن سريبرينيتسا سوف تسقط؟ وهل تنبأت السلطات بأن الصرب قد يقومون بذبح معظم أسراهم من الأولاد والرجال؟

– عزت بيغوفتش: طبعاً،لا يمكن استثناء أي شيء. كانت هناك بعض المؤشرات والتقارير الاستخبارية، ولكنها لم تكن موثوقة، ولقد كنا نحن في سرايفو تحت الحصار ومقطوعين عن باقي أجزاء البوسنة. كانت هناك دوماً شكوك حول قيام الصرب بعمليات تمويه عسكري وإيصال معلومات مضللة في القيادة الصربية. وأعتقد أنني أستطيع أن أقول وجهة نظري حيال هذه القضية: فأنا لم أتوقع هجوماً على سريبرينيتسا بهدف احتلال البلدة. ولم أتوقع أن يقرر الصرب حتى بعد كل ما حدث أن يقوموا بمذبحة. لقد كنت أعتقد أن المجتمع الدولي لن يتسامح هذه المرة مع شيء من هذا القبيل، ولكن قلما يحدث ما يتوقعه المرء، خاصة إذا ما كان المرء يأمل بالحصول على الأفضل.

– هارلاند: هل جعل سقوط جيبا وسريبرينيتسا الوصول إلى اتفاقية السلام النهائية أسهل؟

– عزت بيغوفتش: لا أعتقد أن الأمر كذلك سوى من منظور واحد، ألا وهو خوفنا من تكرار مأساة أخرى مثل مأساة سريبرينيتسا، وتليها مأساة ثالثة ورابعة وهكذا دواليك.

ولم يكن موقف وتصرف العالم مصدر تشجيع لنا، بل على العكس من ذلك، فلقد عمل على تثبيطنا.

– هارلاند: هل قدمت اتفاقية دايتون للسلام مزايا أفضل للبشناق مقارنة بالمقترحات السابقة لإيجاد حل سلمي كان بإمكانه أن يبقي سريبرينيتسا وجيبا مناطق تحت السيطرة البشناقية كما نصت عليه مثلاً خطة فانس– أوين، وخطة مجموعة الاتصال، وخطة (الاتش إم. إس انفنسبل)[1]، وهكذا دواليك؟

– عزت بيغوفتش: أعتقد أن خطة أوين– فانس كانت مواتية بالنسبة لنا أكثر من اتفاقية دايتون بسبب وضع مناطق الأقلية البشناقية في بودرينية، ولكن الصرب رفضوا خطة أوين –فانس واستمرت الحرب. ومع ذلك فإن اتفاقية دايتون تتميز عن خطة

(١) هي الخطة التي انبثقت من الاجتماعات التي عقدت على متن حاملة الطائرات البريطانية (إتش. إم. إس. إنفنسبل)

أوين– فانس في نقطة هامة. ذلك أنها أصبحت قوة تنفيذ دولية عسكرية جزءاً لا يتجزأ من اتفاقية دايتون فلقد قبلها الصرب، لأنه لن يكون هناك ما يجبرهم على تنفيذ مالا يواتي أهواءهم ومصالحهم.

– هارلاند: هل كانت سلطات جمهورية البوسنة والهرسك على علم بوجود أي تدخل مباشر أم غير مباشر من قبل الجمهورية الاتحادية اليوغسلافية في الهجمات على سريبرينيتسا وجيبا؟

– عزت بيغوفتش: لقد أجبت عن هذا السؤال، لذا فالجواب هو إلى حد ما نعم.

– هارلاند: متى أدركت السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك أن غالبية الرجال والأولاد الذين أسرهم صرب البوسنة قد تم ذبحهم؟ ماذا كانت مصادر معلوماتكم؟

– عزت بيغوفتش: لقد علمنا بوقوع عمليات القتل للأفراد مع وصول أول دفعة من اللاجئين إلى توزلا وكلادانيه، ولكن ما حدث على أرض الواقع فاق حتى أسوأ التصورات، لا أعتقد أنه كان بإمكان أي شخص أن يتوقع حدوث أمر فظيع كالذي حدث.

– هارلاند: لماذا من وجهة نظر السلطات في جمهورية البوسنة والهرسك قامت قوة المراقبة بالدعوة إلى توجيه ضربات الناتو الجوية في التاسع والعشرين من آب (أغسطس) عام ١٩٩٥ بينما كان بإمكانها القيام بهذا الإجراء في وقت أبكر من ذلك؟

وهل كان سيكون لتلك الضربات من وجهة نظركم فائدة عسكرية أو سياسية أكبر فيما لو تم توجيهها في آب (أغسطس) من ١٩٩٣ (على جبل إيغمان) أو شباط (فبراير) ١٩٩٤ (على سراييفو) أو نيسان (أبريل) ١٩٩٤ (في غوراجدة) أو في تموز (يوليو) من عام ١٩٩٥ (في سريبرينيتسا أو جيبا)؟

– عزت بيغوفتش: يتفق الجميع بما فيهم نحن هنا في البوسنة والأشخاص المسؤولون في العالم أن الضربات الجوية في آب (أغسطس) ١٩٩٥ جاءت متأخرة ثلاث سنوات

على الأقل. ولم وصل الأمر في نهايـة المطـاف إلى اسـتخدام الضربـات الجويـة؟ حسـناً يبدو أنه قد جاءت عندها القشة التي قصمت ظهر البعير، فلم يعد بإمكان العالم مهما كان أن يستمر في تجاهله. إن هذا هو أحد الأسباب. وإن من بين الأسباب الأخرى هو الاعتقاد بأنه كانت هناك دوماً فرصة لإحلال السلام من خلال التوفيـق بـين الطرفـين. فلقد كان المجتمع الدولي يبحث عن سـلام، لا منتصـر ولا مهـزوم فيـه. وكـان مثـل ذلك السلام ما زال ممكناً بحلـول خريـف عـام ١٩٩٥. وكـان مـن الممكـن ان نكمـل الطريق في المفاوضات في العام التالي، ولكن لم يكن ذلك مناسباً للعالم فلجأ إلى الخيار العسكري والسياسي.

الفصل السادس

الحرب والكماشة

"وساطة كارينغتون. خطة فانس- أوين. كارادجيتش يرفض الخطة. إقناع في أثينا- كارادجتش يوقع على الخطة فيما رفضها البرلمان الصربي. ما يسمى بخطة العمل المشترك - الغرب يخضع لكارادجتش. بيان موجه إلى مواطني البوسنة والهرسك. فانس ينسحب ويحل شتولتنبرغ محله. خطة أوين - شتولتنبرغ. سياسة قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة في الكيل بمكيالين- ضغوط. الاجتماعات على متن حاملة الطائرات البريطانية (اتش. ام. اس. افنسبل). أول برلمان بشناقي وانعقاد الجمعية البرلمانية لجمهورية البوسنة والهرسك. ريتشارد هولبروك والمبادرة الأمريكية للسلام. مأساة على جبل إيغمان. وقف الضربات الجوية. رسائل إلى الرئيس بيل كلينتون وجاك شيراك. مؤتمر جنيف والمبادئ الأساسية. الإجابة على أسئلة شبكة (سكاي نيوز). مقابلة تودجمان مع صحيفة (لوفيغارو) الفرنسية. الاجتماع في نيويورك. الإنذار الأمريكي ووقف إطلاق النار."

أنا أشمئز من الحرب وما زلت أتذكر الحرب التي حدثت قبل خمسين عاماً عندما تم اجتياح يوغسلافية حيث كنت أبلغ من العمر حينها ستة عشر عاماً. إنني أذكر الجوع، والقصف، واللاجئين، وانعدام القانون. فلقد كانت خبرتي تلك تختلف عن خبرة أصدقائي وزملائي الأصغر مني سناً الذين كانت معرفتهم عن الحرب العالمية الثانية من خلال الكتب.

لقد كان المبدأ الذي التزمت به، أو الذي كان علي الالتزام به في تلك الظروف هو أن نفاوض حيث أمكن، وأن نقاتل حيث يتوجب علينا القيام بذلك.

ولكنني كنت أجري مفاوضات بالنيابة عن طرف أضعف عسكرياً من نظيره بكثير، وعلى الضعيف أن يتشبث بالمبادئ، لأنه لا يمتلك قوة، وأن الأمور تصبح صعبة جداً على المفاوض الذي لا يملك سوى ورقة رابحة واحدة، ألا وهي المبادئ.

عندما استقبلت في الثالث من تموز (يوليو) ١٩٩٢ ممثل الاتحاد الأوربي للشؤون اليوغسلافية اللورد كارينغتون كان قد مرَّ ثلاثة أشهر دموية ومدمرة من الحرب. كان كلانا محبطاً بسبب اجتماعنا.

كان سبب إحباطي هو عدم استعداده أو بالأحرى عدم استعداد أوربة لحماية بلد أوروبي صغير أصبح ضحية للعدوان. بينما كان سبب إحباطه هو مطلبي الذي هو مطلب منطقي بالنسبة إلي، بأن يتم إعلان وقف إطلاق النار سبعة أيام، وأن يتم وضع أسلحة الجيش اليوغسلافي الثقيلة تحت سيطرة الأمم المتحدة كشرطين لبدء المحادثات.

لم أفاجأ، لقد تنبأ تقرير للمفوضية الأوربية يعود إلى عام ١٩٨٨ بموقف أوربة المتأرجح من الأزمة في يوغسلافية. ويمكن اعتبار الاتفاق الذي تم توقيعه في بلغراد بين المفوضيّة الأوربية ويوغسلافية على أنه اتفاق فريد من نوعه، حيث طغت فيه الاعتبارات السياسية على نظيراتها الاقتصادية. والسبب الرئيس في ذلك هو الوضع المتدهور في البلاد، وتنامي دور منطقة أوربة في التجارة الخارجية اليوغسلافية، والوضع السياسي الحساس الذي ظهر عقب وفاة الرئيس تيتو.

ويعد القصور الواضح في التزامات يوغسلافية تجاه التنازلات التي قدمتها لها أوربة دليلاً على الطبيعة السياسية لدوافع ذلك الاتفاق. هذا ما نَصّتْ عليه الفقرة الثانية من البند السابع عشر من تقرير أعدّه جورجي روزيتي نائب رئيس البرلمان الأوربي، وقدمه بالنيابة عن لجنة العلاقات الخارجية.

ولقد تمّ تبني التقرير في جلسة البرلمان الأوربي في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٨ وأصبح مثالاً للمنهج البرلماني العملي أكثر منه للمنهج المبني على المبادئ. لقد توقفت أوربة عن البحث عن المبادئ منذ وقت طويل، إذ تحول كل شيء إلى مصالح محسوبة حساباً دقيقاً.

ويجب أن أعترف أن اللورد كارينغتون كان منصفاً معي في إحدى النقاط، فلم يحاول، ولو للحظة واحدة، إيهامي أن العالم وبالذات أوربة سوف تهبّ لنجدة البوسنة التي تتعرض للهجوم. بل كان واضحاً حين قال لي: " لا تعتمد على تدخل الغرب؛ لأن ذلك لن يحدث. فعليك أن تحاول التفاوض مع الصرب، إنها الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق". ولقد كنّا صامتين لدقائق عدّة قبل أن يقف هو، حيث رافقته إلى مخرج البناء. وبينما كُنّا ننزل الدرج وقف فجأة، وسألني: "حسناً ماذا تنوي فعله؟"

فكان ردّي: "سوف نقاتل"، فقال: "ماذا تعني؟ هل تعرف مَعْ مَنْ تَتَعامل؟" فأجبت: "نعم أعرف، ولكن هل لدينا أي خيار آخر؟" لم يعلق على ذلك، ولكنني متأكد من أنه أعتقد أنني مجنون.

ولحسن الحظ فلقد كنّا كُلّنا مجانين بعض الشيء في ذلك الوقت. وبعد ذلك بكثير طلبت من الضباط والجنود البوسنيين خلال اجتماع لنا أن يختلطوا بالناس كي يتعرفوا عليهم أكثر:

"لماذا ستكون جولاتكم في البوسنة فكرة جيدة؟ يجب أن تَتعرّفوا على شعبكم، فلقد أعدت اكتشاف الشعب بنفسي خلال اللقاءات والتواصل المباشر في الأيام

الماضية، إنّه شعب طيب وشجاع على الأخص. إن هناك أشياء غريبة تحدث، فلقد قالوا لي:" أيها السيد الرئيس، ليس عندنا رصاص ولا طعام". عندها توقعت منهم أن يقولوا لي:" تَفَضَّل وابحث لنا عن مخرج" ولكن غالباً ما تبع ذلك جملتهم غير المتوقعة: "ولكن نرجوك ألا تدعهم يفلتون دون عقاب. فلدينا القوة، وسوف نقاتل حتى النهاية." ولقد دهشت في بعض الأحيان، ولم أَدْرِ ما أقول لهم. ولكن هذا ما يحدث في كل مرة. قد يقول بعضكم أين الحوار المنطقي في كل هذا؟ لا يوجد أي منطق فيه، وأن هذا هو الشيء الجيد في الموضوع. ولا أريد هنا أن أستطرد وأتطرق إلى العلاقة الفلسفية بين الحياة والمنطق. ولكننا سنتفق جميعاً أن عدم منطقيتنا تماماً كان شيئاً جيداً. لأننا لو كنا منطقيين لكنّا استسلمنا في نهاية نيسان (أبريل) أو بداية أيار (مايو) من عام ١٩٩٢، حين كان منطق العالم كله ضدنا في ذلك الوقت، والآن لدينا هؤلاء الناس غير المنطقيي الذين يقولون:" لا يوجد عندنا رصاص ولا غذاء ولكننا سنقاتل وسننتصر، ماذا عسى المرء أن يقول لهم؟ إنهم أناس طيبون وشجعان"[١].

أعلن في الرابع من تموز (يوليو) عام ١٩٩٢ في مدينة غرودة عن قيام كيان الكروات في البوسنة من جانب واحد. وقام في اليوم التالي بأول عملية ضد الدولة البوسنية وصودرت ٣٨ شاحنة محملة بأسلحة ومعدات حصلنا عليها بشكل سري من أجل الدفاع عن سراييفو. كتبت صحيفة (النيويورك تايمز) عن تلك السرقة في عددها الصادر بتاريخ ٦ تموز (يوليو).

واشترطت من أجل استمرار المحادثات بخصوص خطة كوتيليرو – كارينغتون أن يتم سحب جميع الأسلحة الثقيلة حول سراييفو، وأن يتم ضبطها حسب قرار مجلس الأمن رقم ٧٥٢. كما أخبرت اللورد كارينغتون في رسالة بتاريخ ١٩٩٢/٧/٢٢ أنه قد حدثت مجازر جماعية بعد محادثات لندن. وأن

---

(١) مقتبس من خطاب أمام الخريجين في ندوة عن الأخلاق عقدت في مقر هيئة الأركان المشتركة لجيش البوسنة والهرسك في قاعة الجيش وسراييفو بتاريخ ٩ كانون أول ١٩٩٣.

أعداد معسكرات الاعتقال في ازدياد مستمر في جميع أنحاء البوسنة والهرسك، وأنهيت رسالتي تلك بالكلمات التالية: "**وأؤكد لكم أنه إذا لم يتم القضاء على الأسلحة الثقيلة كما تمّ الاتفاق على ذلك في محادثات لندن بتاريخ ١٧ تموز (يوليو) فان العدوان على البوسنة والهرسك سوف يستمر. وأن المحادثات ستصبح عندها مجرّد غطاء لاستمرار العدوان ولإضفاء صبغة الشرعية على احتلال الأراضي من خلال استخدام القوة والتطهير العرقي**".

ولم يكن هناك أي رد، بل عُقِد مؤتمر لندن حول يوغسلافية السابقة في ٢٩ آب (أغسطس) بحضور أكثر من أربعين مشاركاً. وتمّ تبني العديد من الوثائق بما فيها الإعلان المتعلق بالبوسنة والهرسك بعد يومين من المفاوضات واللقاءات والاجتماعات المتعددة. وأكّد الإعلان إلى جانب أمور أخرى على وحدة وحدود البوسنة والهرسك، ومن ثم استقال كل من كويتيلرو وكارينغتون، وعهد بالمحادثات إلى سيروس فانس ممثلاً عن الأمم المتحدة واللورد أوين ممثلاً عن الاتحاد الأوربي.

ولقد قدَّم فانس وأوين في تشرين الأول (أكتوبر) وثيقة أولية بعنوان "الهيكلة الدستورية المستقبلية للبوسنة والهرسك" وتصوّرت نوعاً من الدولة اللامركزية التي تضم سبع مقاطعات إلى عشر، مقسمة على أساس عرقي بشكل رئيسي. وبالطبع كانت هناك أسس أخرى، مثل الإجماع والتكافؤ الذين لا تستطيع البوسنة تجاهلهما. ولقد اقترحت خطة أوين- فانس حكومة من تسعة أعضاء (ثلاثة من كل من العرقيات الثلاث) تصدر قراراتها بالإجماع.

وظهرت المشاكل عندما بدأ وضع الخرائط التي تبين حدود المقاطعات. فلقد اقترح الوفد البوسني الذي تركه الممثلون الكروات خلال الاستراحة خارطة لثلاث عشرة مقاطعة. واستمرّ ممثلو الصرب والكروات في التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بمقاطعاتهم الصربية والكرواتية، حيث تضمنت مناطق الصرب بعضاً من الأماكن التي فيها أغلبية سكان من البشناق.

طلبَ أوين مني على شكل إنذار نهائي خلال اجتماع في زغرب أواسط كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٢ أن أوافق على إجراء محادثات مباشرة مع رئيس الحزب الديموقراطي الصربي رادوفان كارادجتش. وهدّدني إذا لم أوافق بأن المجتمع الدولي ينسحب ليس فقط من المحادثات، بل ومن كافة أدواره في البوسنة والهرسك.

ولم أكن أستطيع أن أرفض ذلك، فلم تكن البوسنة قادرة على الاستمرار دون مشاركة العالم الخارجي، خاصة فيما يتعلّق باستلام المعونات الغذائية والطبية، وهي تتعرض للهجوم. ولذلك وافقت على إجراء محادثات مع كارادجتش.

وبدأت محادثات جنيف الطويلة الشاقة التي خلصت إلى مسودة خطة سلام للبوسنة والهرسك. لقد تضمن المقترح أربع وثائق: اتفاق حول البوسنة والهرسك، اتفاق سلام في البوسنة والهرسك، الخرائط والمقاطعات، اتفاق حول الإجراءات الانتقالية.

ولقد كان الحل مرّة أخرى دولة لا مركزية، تتألف من عشر مقاطعات. وتضمنت صلاحيات الدولة نفسها الشؤون الخارجية والتجارة الخارجية وقضايا المواطنة، وفرض الضرائب من أجل ميزانية الدولة، وإنشاء مصرف مركزي وعمله موحدة واتصالات دولية بين المقاطعات (سكك حديد، وطرق، ومكاتب متعددة الأعراق بناءً على إحصاء سكان عام ١٩٩١، وحرية التنقل في جميع أنحاء البلاد، وتأمين مستوى من مستويات حقوق الإنسان بناء على المعايير الأوربية، ووجود رقابة دولية، وتشكيل حكومات مركزية ومحلية منتجة بشكل ديمقراطي، مع وضع آلية لفض النزاعات فيما بينها).

كانت خرائط بيان حدود المقاطعات تعتمد على مبدأ التقسيم العرقي وتعترف إلى حد كبير بالنتائج التي ترتبت على العدوان والتطهير العرقي. وهكذا، وعلى سبيل المثال فإن البشناق الذين شكّلوا ما نسبته ٤٣,٧٤٪ من

السكان حسب إحصاء عام ١٩٩١، حصلوا على ٢٦,٣٦٪ من الأراضي فقط (باستثناء سراييفو). لقد كانت محاولة لشراء السلام بتسوية لا ترتكز على مبادئ، بل كانت على حساب الطرف الأضعف.

ولقد وضّح كارل بيلدت أساس موقفنا كما يفهمه العالم، حيث قال في كتابه: "ببساطة كان على المسلمين أن يختاروا إما الحصول على ٣٠٪ من السُّلطة على ١٠٠٪ من مساحة البوسنة، أو أن يحصلوا على ١٠٠٪ من السلطة على مساحة ٣٠٪ من مساحة البوسنة. فلقد كان ذلك غير ممكن، ولا يمكن أن يكون أصلا"[1].

وهذا يطرح السؤال التالي: لماذا ٣٠٪؟ لماذا يجب على البُشناق الذين يشكلون نسبة ٥٠٪ تقريباً من السكان أن يقبلوا (٣٠٪ من البوسنة فقط؟) لقد كانت هذه هي العدالة الأوربية تجاه مسلمي البوسنة.

انتقلت المحادثات فيما بعد إلى نيويورك، مما يعكس الدور الأمريكي في عملية السلام.

ولم نكن مسرورين جداً بذلك المقترح، ولكنه تزامن مع الأنباء المزعجة لحدوث صِدَام مسلح بين مجلس الدفاع الكرواتي وجيش البوسنة والهرسك، ولقد بدا ذلك الأمر من أمريكا البعيدة وكأنه الضربة القاضية للبوسنة، حيث سيفتح ذلك جبهة جديدة ضد جيش البوسنة والهرسك، وسيتم قطع الخط الوحيد للإمدادات عبر كرواتية والهرسك، ولذا فقد كان يجب وضع حد للحرب، لأنها لم تكن تنذر بدمار البوسنة فحسب، بل إنها هددت بإلغاء فكرة البوسنة ككل. وفي ضوء تلك الظروف وقعت على خطة فانس – أوين في نيويورك في ٢٥ آذار (مارس)، وأرفقت توقيعي بشرطين:

---

(١) (كارل بيلدت: رحلة السلام: الكفاح من أجل تحقيق السلام في البوسنة)

أولاً: سوف يعدُّ توقيعنا على هذه الوثيقة لاغياً وباطلاً قانوناً إذا لم يتم تحقيق الشروط التالية:

- يجب على الأطراف المهتمة، وخاصة المعتدي، أن يوقعوا على الخطة دون أي تبديل أو تحفظات.

- أن يتعهد المجتمع الدولي باتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لتنفيذ بنود الاتفاق وفي إطار مدة زمنية محددة.

- ألا يستمر العدوان.

وثانياً: ألا يتم تفسير أو فهم أي من مواد الاتفاق بطريقة تعرّض سيادة ووحدة أراضي البوسنة والهرسك للخطر، وتُعدُّ تلك الأراضي دولةً مستقلة وكياناً لا يتجزأ".

ولقد تبنى برلمان البوسنة والهرسك في جلسة ١٥ آذار (مارس) وقبيل محادثات نيويورك كل القرارات التي تم اتخاذها في عملية السلام، من أجل "وضع حد للعدوان". ولقد رَحَّب البرلمان بجهود وفدنا إلى محادثات نيويورك، حيث كان التصويت على تلك القرارات بالإجماع.

و قَبِلَ الكروات بخطة فانس- أوين كما كان متوقعاً لأنها استوفت كل الشروط التي وضعوها، بينما رفضها كارادجتش، وأعقب ذلك جولة من المحاولات لإقناعه، مع التهديد بقصف مواقع الصرب وتشديد العقوبات على صربيا.

وأخيراً وفي الثامن من أيار (مايو) ١٩٩٣ وقع كارادجتش على الخطة في أثينا وبعد عمل وجهدٍ إضافيين طيلة الليل، ولكنه أضاف في نفس الوقت شرطاً جعل توقيعه غير ذي أهمية. فلقد اشترط أن يوافق برلمان صرب البوسنة المعلن من جانب واحد على الاتفاق، وعرف أولئك الذين هم على اطلاع بالأمور ماذا يعني ذلك الشرط.

وكان لكل من رئيس الوزراء اليوناني ميتسوتاكيس والرئيس الصربي ميلوشيفتش دور في إقناع أعضاء البرلمان الصربي المنعقد في باليه في ٦ أيار

(مايو) ١٩٩٣ وعلى الرغم من بعض الشائعات التي تقول عكس ذلك، فإنني أعتقد أن محاولات كلا الرجلين لإقناع أعضاء برلمان صرب البوسنة كانت مخلصة وناجحة. فلقد كان ميلوشيفتش يرى أن الصرب قد حققوا هدفهم بالإضافة إلى أن صربيا أصبحت تعاني تحت وطأة العقوبات، ولكن يبدو أن الذي أخرج كل القضية عن مسارها المخطط لها كان دهاء كرايشنيك، مومتشيلو. فلقد اقترح كرايشنيك، مومتشيلو بعد جلسة ونقاش مطولين أن يتم رفع الجلسة لتناول العشاء. لقد حصل ذلك بالفعل، وبدأ بالحشد لوجهة نظره خلال الاستراحة. وعندما عاد الجميع إلى الجلسة بعد العشاء كان الجو العام قد تغير ولم ينجح التصويت على قبول الخطة، واستمرت الحرب بشكل أشد مما كانت عليه من قبل.

ولم يكن الانتظار طويلاً حتى تراجعت القوى العظمى.

وفي الثاني والعشرين من أيار (مايو) ١٩٩٣، أعلنت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وروسية، وإسبانيا قيام ما يسمى ببرنامج العمل المشترك، الذي يعني عملياً التخلي عن خطة فانس- أوين. وفي واقع الأمر لقد كان ذلك عبارة عن تنازل تم تقديمه لصالح صرب كارادجتش، حيث أطلق نول مالكولم على ذلك التنازل "مذكرة موت البوسنة"[(١)] فلم يتم مطالبة الصرب بإعادة الأراضي التي احتلوها، وكل ما يمكن ضمانه هو الحفاظ على ما يسمى بمناطق الأمم المتحدة الآمنة المخصصة للسكان المسلمين، ولقد شابت المرارة ردة فعلي، وتوجهت بخطاب في الثالث والعشرين من أيار (مايو) إلى شعب البوسنة والهرسك حيث قلت":

"يا مواطني البوسنة والهرسك"

أنا متأكد أنكم أصغيتم باهتمام وترقب مثلي لما صرح به الأربعة الكبار في اجتماعاتهم في أمريكا البعيدة. وأنا متأكد أنكم قد صدمتم مثلي بما تضمنته تلك التصريحات المحزنة.

---

(١) من كتاب نول مالكوم (البوسنة: تاريخ قصير) ص ٢٥٠.

فلقد سمعنا، إذا كان ما سمعناه صحيحاً، أن المعتدى لن ينسحب من الأراضي التي احتلها، وهذا يعني أن شعبنا الذي أُجبر على مغادرة منازله لن يكون بإمكانه العودة إلى تلك المنازل. وأن جزءاً من شعبنا سيحصل على ما يسمى بمناطق آمنة وهي تماما كالمحميات.. إلخ.

وإذا ما كان الأمر كذلك فيمكننا القول: إن هذه الخطة الجديدة مرفوضة كلياً بالنسبة إلينا.

وإذا لم يكن المجتمع الدولي مستعداً للدفاع عن المبادئ التي أعلن هو بنفسه أنها أساساته التي يقوم عليها، وإذا ما كان مستعداً أن يعترف بلغة القوة في العلاقات الدولية، وإذا ما قرر أن يتغاضى عن مخالفات لم يسبق ارتكابها ضد حقوق الإنسان والقانون الدولي، وإذا ما قرر مكافأة العدوان والإبادة العرقية، فإنه يجب عليه حينها أن يعلن ذلك بصراحة ويقولها لشعبنا وللعالم. وعليه أن يتبنى قانوناً جديداً تكون فيه الكلمة الأولى والأخيرة لمنطق القوة وأن يعلن أن ميثاق الأمم المتحدة وقوانين النظام العالمي التي تم وضعها بعد جهد وصبر لم تعد معتمدة، وأنها قوانين باطلة.

يا مواطني البوسنة والهرسك يشهد الله ثم الناس: أننا بذلنا كل ما بوسعنا لتفادي الحرب والبحث عن حل سلمي للحرب عندما اندلعت.

ولكن يجب أن يكون ذلك السلام عادلاً، ويتضمن السلام العادل كحد أدنى استعادة الأراضي المحتلة، وعودة السكان الذين طالت معاناتهم إلى منازلهم ومن دون تحقق هذين الأمرين فلن يقوم سلام.

عندما وقعنا على خطة فانس- أوين للسلام أعطينا كلمتنا الأخيرة، ووصلنا إلى أبعد حد يمكننا الذهاب إليه، والذي لا نستطيع بعده أن نتنازل أكثر. لن نضيع المزيد من وقتنا في محادثات عقيمة، ولكن ما سنفعله هو أن نتوجه إلى شعبنا ومواطنينا الذين يحبون هذا البلد وفي قلوبهم للبوسنة والهرسك مكانة خاصة، وأن ندعوهم للبقاء متحدين، ونطالبهم أن يستخدموا كل الوسائل الشرعية من أجل الدفاع عن سيادة واستقلال البوسنة والهرسك وكرامتها وحريتها.

أيها المواطنون الأعزاء لم يترك لنا العالم أي خيار. وأعتقد أنني أشارككم مشاعركم وأفكاركم عندما أقول: إننا لن نحني رؤوسنا، وإننا سوف نقبل بالمخاطر المترتبة على الكفاح من أجل الحرية والكرامة.

لا تخافوا ولا تشكوا في عدالة قضيتنا، لأن الشعب الذي يقاتل من أجل البقاء والحرية لن يخسر إذا ما قاتل حق القتال.

وكان من الطبيعي ألا تشترك ألمانيا في تلك المؤامرة ضد البوسنة فلقد أطلق وزير الدفاع الألماني فولكر دويه على برنامج العمل المشترك لقب "الكارثة الأخلاقية". وكتبت صحيفة (فستدوديتشة زيتونغ) الألمانية تقول: "لقد ربح أولئك الذين يقتلون ويشردون، ويغتصبون".

ولم يستسلم اللورد أوين، فبعد استقالة سايروس فانس استمر اللورد أوين بالعمل البديل الجديد، مع نورفالد شتولتنبرغ وبعد أن رفض الصرب خطة فانس- أوين أصبح هناك اعتقاد شبه مسلّم به، وهو أن الطريقة الوحيدة لإيجاد حل هو من خلال تقديم تنازلات للجانب الصربي وهذا ماحدث بالفعل.

فلقد نصت الخطة الجديدة على قيام اتحاد كونفدرالي مؤلف من ثلاث جمهوريات هي جمهورية صرب البوسنة، وكروات البوسنة، والبشناق بدلاً من دولة لامركزية تتألف من عشر مقاطعات، كما نصت عليه الخطة السابقة. وتمَّ عملياً البحث عن حل على حساب تقسيم البوسنة، وهو ما أصر عليه الجانب الصربي، والجانب الكرواتي أيضاً إلى حد ما منذ البداية.

وبدأت المحادثات الجديدة في تموز (يوليو) ١٩٩٣ في ظروف لم تكن مواتيه لنا أبداً لا من الناحية السياسية، ولا من الناحية العسكرية. فلقد كنا نقاتل على جبهتين، بصعوبة نحافظ على مواقعنا. وقام الجنرال الصربي بشن هجوم في أثناء عقد المحادثات على بييلاشنيتسا وإيغمان، بينما أصدر ممثلو المجتمع الدولي تصريحات بثت الصدمة والتشويش لدينا فيما يتعلق بالهجوم الصربي والحرب في

البوسنة والهرسك عموماً. ولقد بدا الأمر من هذه الزاوية أن هناك قبولاً لقيام الصرب والكروات بعملياتهم ضد البوسنيين، بل قد يكون هناك تشجيع على ذلك، كي يتم إجبارنا على تقديم تنازلات.

فعلى سبيل المثال صرح اللوتننت كولنيل باري فرود من قوة المراقبة بتاريخ ١٩٩٣/٨/١٦ أن سراييفو لم تكن محاصرة ولكنها مطوّقه عسكرياً؟ فيما صرح البريغادير البريطاني هييز قبل ذلك بأيام قليلة أن المشكلة هي ليست الهجوم الصربي على بيلاشنيتسا وإيغمان وإنما هجوم جيش البوسنة على غورنييه فاكوف وبروزور.

وقامت صحيفة النيويورك تايمز بنشر مقال في التاسع من تموز كتبه مراسلها في واشنطن أورد فيه أن السيدة أوغاتا أعلنت عن إمكانية سحب قوات الأمم المتحدة إذا ما رفضت الرئاسة البوسنية التفاوض. ويستطيع المرء أن يرى مدى جدية وخطورة هذا التهديد إذا ما عرف أن قوات الأمم المتحدة التي كانت تحمي مطار سراييفو والقوافل القادمة، جعلت من الممكن لمنظمة الإغاثة أن توصل ٨ آلاف طن من الغذاء والدواء أسبوعياً حسب معلومات منظمة الأمم المتحدة للإغاثة. ويعود الفضل في عدم حدوث مجاعات جماعية إلى تلك المساعدات.

وبعَد هذا التهديد انضم هذا الخطر إلى قائمة الأخطار التي تهدد مناطق واسعة في البوسنة وبخاصة البلدات الصغيرة.

وكانت عملية الصرب ضد بييلاشنيتسا وإيغمان التي تهدف إلى إحكام الطوق حول سراييفو موضوع معركة دبلوماسية صعبة في محادثات جنيف التي نجحنا فيها في خداع التشتنيك. ولقد سبق أن بيّنت تفصيلات هذه المسألة المهمة في الفصل الرابع.

وفي تلك الأثناء تم طرح قضية رفع حظر الأسلحة للمداولة في مجلس الأمن مرتين. ولقد كانت المرة الثانية بسبب تقدم دول إسلامية وأخرى من غير دول الحلفاء بطلب لرفع الحظر. لقد كانت نتيجة التصويت على الاقتراح مثيرة للغاية: ستة أصوات مؤيدة (هي الولايات المتحدة وخمسة من الدول غير الحليفة)، وتسعة امتنعوا عن التصويت (بما فيها فرنسا، وبريطانيا، وروسية). تمَّ حرمان البوسنة من حقها في الدفاع عن نفسها. وكانت الرسالة التي وجهتها الدول العظمى الثلاث وبخاصة بريطانيا أنه لا مخرج للبوسنة إلا بالتفاوض والقبول بكل ما تمَّ طرحه. وكانت هذه الرسالة أقرب ما يكون إلى الابتزاز.

ولا أستطيع القول: إن اللورد أوين كان منحازاً، أو أنه كان يفضل أحد الأطراف خلال عملية المفاوضات لخطة فانس- أوين السابقة. ولكنني أعتقد أنه تصرف بشكل مغاير في أثناء المحادثات بشأن إنجاز خطة أوين- شتولتنبرغ؛ فلقد كان تصرفه حينها مثالاً على السياسة الواقعية التي لا تتماشى مع الأخلاق، بالطبع لأنها مبنيّة على عوامل مادية وعملية، وليس على عوامل أخلاقية. فلقد شرع أوين في ممارسة ضغوط قوية ومدروسة على حكومتنا كي تقبل بتقسيم البلاد وتقسيم سراييفو أيضاً، ومن ثم قام بمعارضة قصف المواقع الصربية بسبب عدوانهم المستمر، وصرح بأن الصرب يملكون ٦٥٪ من أراضي البوسنة والهرسك (حسب مصادر معلومات كارادجتش). وقام أخيراً بمحاولة حل الرئاسة البوسنية مقترحاً بديلاً عن تلك الرئاسة الشرعية هيئة تنسيقية تتألف من تسعة أشخاص قائمة على مبدأ التكافؤ، تتضمن ثلاثة أعضاء من الصرب، وثلاثة من الكروات وثلاثة من البشناق. وبالنظر إلى تصرفه على هذا النحو، فلقد قلت في إحدى المناسبات: إن اللورد أوين هو تشيمبرلين عصرنا، وهو ما نقلته صحيفة الواشنطن بوست دون أية نوايا سيئة على ما أعتقد.

ولقد جرت مظاهرات للاجئين من البوسنة والهرسك في أوج تلك الأزمة، إذ هدد حشد من بضعة آلاف من اللاجئين الغاضبين بتدمير السياج الذي كان

يحيط بمقر الأمم المتحدة في جنيف. وخرجتُ إليهم على الجانب المقابل من السياج وصافحت العديد منهم، وطلبت منهم أن يتفرقوا بسلام.

دعم اللورد أوين ميلوشيفتش وتودجمان في كل ما اقترحه وفعله في هذه المرة، فوق ذلك فقد اقترح على إحدى جلسات الرئاسة البوسنية التي عقدت في ١٩٩٣/٧/٩ في زغرب خطة صربية - كرواتية مشتركة (أو بالأحرى خطة مشتركة بين ميلوشيفتش وتودجمان) تتضمن مبادئ دستورية لاتفاقية السلام والإجراءات الانتقالية. وكانت هذه الخطة تعني على أرض الواقع زوال دولة البوسنة والهرسك، ووقف استمرار وضعها القانوني والشرعي كدولة، وهو ما أكدت عليه كل الاتفاقيات السابقة منذ مؤتمر لندن، فلقد وضعت هذه الخطة تصوراً للبوسنة والهرسك كاتحاد كونفدرالي مؤلف من ثلاث دويلات مبني على أساس الاتفاق.

ورفضنا هذا المقترح، بل قدّم كل من الرئاسة البوسنية والأحزاب السياسية خطة بديلة تكون بموجبها البوسنة والهرسك اتحاداً فدرالياً له اعترافه الدولي وصلاحياته المطلقة في مجال حقوق الإنسان ومسؤولية الدفاع عن وحدة أراضيه، والشؤون الخارجية، وأساس النظام الاقتصادي ومفهوم الدولة.

وذهب أعضاء الوفد البوسني إلى محادثات جنيف في ٢٦ تموز (يوليو) مسلحين بهذا المقترح. ورفض ممثلو الصرب والكروات المقترح دون الخوض في نقاش مطول، فلقد كانت خطة أوين- شتولتنبرغ هي مناقشة كل ما هو مطروح على طاولة المفاوضات بالإضافة إلى البديل كي تتوصل إلى قرار. والتأم المجلس السابع والعشرين والثامن والعشرين في آب (أغسطس): ولقد قلت الكلمات التالية في خطابي الافتتاحي":

"إن موقفنا يتلخص بوجود قوميتين مُتّقدتَين في الجوار، بالإضافة إلى تجاهل وسلبية غير مفهومة لباقي دول العالم. وفي ظل مثل ذلك الوضع فإننا لا نستطيع الدفاع عن

مفهوم البوسنة والهرسك الموحدة مع التهديد باستمرار الحرب الماثل أمام أعيننا دوماً. ولقد قرّرنا الدفاع عن وحدة أراضيها من أجل أجيال المستقبل التي أرجو أن تكون أكثر اتزاناً وعقلانية. أما في الوقت الحالي فيبدو أنه يجب علينا القبول بمبدأ التقسيم. ويمكننا القيام بذلك على طاولة المفاوضات أو على أرض المعركة في حرب لا تراعي أياً من القوانين. وأعتقد أنه من الأفضل لنا القيام بذلك على طاولة المفاوضات، ومع هذا يجب على التاريخ أن يسجل أننا لم نرد التقسيم، وإنما فُرِضَ علينا.

وفي ضوء ذلك بدا سؤال ساخر وجهه إلي صحفي من جريدة التايمز اللندنية:

التايمز: بماذا تجيب النقاد الذين يقولون بأنك تنوي إقامة دولة إسلامية؟

عزت بيغوفتش: سوف أقول بأن أولئك النقاد إما أنهم مضللون أو أن نواياهم سيئة. إنني من أنصار الحفاظ على وحدة أراضي البوسنة والهرسك وأرى أن تلك الوحدة لا يمكن أن تصبح دولة إسلامية لوجود قوميات متعدد في البوسنة الموحدة.

إن البوسنة المقسمة هي التي يمكن أن تؤدي إلى تأسيس دولة إسلامية فقط، وفي واقع الأمر فإن بعضاً من الحكومات الأوربية هي التي تعمل بجد من أجل تقسيم البوسنة. وهكذا فإننا نحصل على المفارقة التي تقضي بأن أوربة هي التي ستعمل على إنشاء دولة إسلامية".

ودارت المداولات في البرلمان في جو من الإحساس بخطورة الوضع العسكري ودقته، والشعور بأنه ليس أمام البوسنة والهرسك خيار آخر. ولقد كان ضمن القرارات التي تبناها المجلس النيابي القرار التالي:" يجب لمحادثات السلام في جنيف أن تستمر من أجل إيجاد حل يضمن سلاماً عادلاً ومستمراً، واستمرار صفة الدولة والشخصية الاعتبارية الدولية للبوسنة والهرسك... ويجب على الاتفاق الدستوري حول قيام اتحاد فيدرالي للجمهوريات أن يخضع لتغيرات هامة في مجالين؛ هما يجب أن يحدد ويوضح أن هذا لا يعني زوال البوسنة والهرسك كدولة، مع حلول ثلاث جمهوريات محلها، يحدد أيضاً المهام المشتركة على مستوى الدولة التي يجب أن تتضمن على الأقل الشخصية الاعتبارية

الدولية لها، والإشراف على التجارة الخارجية، وقضايا المواطنة، والسيطرة على الحدود وأسس النظام الاقتصادي والقانوني".

وخلص البرلمان البوسني فيما يتعلق بالخرائط الخاصة بالجمهوريات أن "الجمهورية البوسنية" في إطار ذلك الاتحاد يجب أن تتألف من كل المناطق ذات الأغلبية المطلقة أو النسبيه من السكان البشناق اعتماداً على إحصاء السكان لعام ١٩٩١، وكونها تعرف موقف المعتدي مسبقاً، فلقد كان ذلك المطلب يعني عملياً رفض الخطة.

ولقد جرت المحادثات كلُّها على مرحلتين؛ الأولى كانت في تموز (يوليو) وآب (أغسطس)، فيما جرت الجولة الثانية من المحادثات في أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر).

وجاءت في أيلول (سبتمبر) أنباء عن أن شاحنات محملة بالوقود متجهة إلى سراييفو قد احتجزت في ميتكوفتش، وكان ذلك وقتاً تزامن مع حالة البأس الشديد في البوسنة والهرسك. فقال نويل مالكولم مسترجعاً تلك الأيام في مقدمة كتابه باللغة البوسنية/ الكرواتية:

"قمت بتأليف هذا الكتاب في آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٣ حين كان يسيطر عليّ حينها يأس مطبق تجاه مستقبل البوسنة. لقد بدا الأمر وكأن العالم الخارجي قد تخلى عن أية محاولات جادة لإنقاذ البوسنة من الانهيار. وبدا أيضاً أن الساسة والقادة الصرب الذين خططوا لاحتلال الأراضي وطرد وتشريد سكانها قد أوشكوا على تحقيق أهدافهم"(١).

وتلقيت في التاسع من أيلول (سبتمبر) رسالة من وزيري الخارجية الفرنسي جوبيه والألماني كينكل يعلمانني فيها بضرورة استئناف محادثات السلام، وأن دولتيهما ستتعهدان بضمان وجود ممر آمن إلى البحر للجمهورية البوسنية التي ستكون جزءاً من الاتحاد الفدرالي البوسني.

(١) البوسنة: تاريخ قصير ٩.

وكان تودجمان قبل ذلك قد رفض أن يكون ذلك الممر عند مدينة ينوم الكرواتية.

ثم بدأنا الجولة الثانية من المحادثات بتقديم طلب بضمان الحرية والتعددية الحزبية في بوسنة المستقبل. وقرر البرلمان تشكيل وفد الحكومة البوسنية من الأشخاص التالية أسماؤهم: عزت بيغوفتش، وسيلادجتش، ولازوفتش، وكمشتش، وليوبيانكتش، وفيليبوفتش، وعبديتش، والخبيران ترنكا وتشوكله.

وتلا ذلك في العشرين من أيلول (سبتمبر) اجتماع للوفود المشاركة على متن حاملة الطائرات البريطانية (إتش. إم. إس انفنسبل) في عرض البحر الأدرياتيكي. وحضر الاجتماع كل من تودجمان وميلوشيفتش.

أراد اللورد أوين أن يبهرنا عندما دعانا للاجتماع على متن حاملة الطائرات، ولكننا تصرفنا جميعاً وكأن شيئاً لم يكن. ولم نلق بالاً لذلك، لأننا نحمل مشاعر قوية، وشهدنا أحداثاً عصيبة جداً. فما الذي عساه أن يبهرك ويترك منك أثراً وأنت تعلم أن آلافاً من الناس يتضورون جوعاً في معسكرات الاعتقال الكرواتية في نفس الوقت الذي تجري فيه الاجتماعات؟.

ولقد قمت باستغلال رغبة أوين في الحصول على قرار بتوقيع اتفاقية سلام حضرت بمساعدة قوة الأمم المتحدة مشاركين في البرلمان البوسني ونواباً في البرلمان من جميع أنحاء البوسنة والهرسك، وهو ما لم يكن ممكناً من قبل.

وألقيت الخطاب الافتتاحي في الاجتماع، وكان فيه تحليل للأسباب التي تجعل المرء مع الخطة المقترحة أو ضدها. ولم يحقق مقترحي حلاً لمعضلة الاختيار ما بين "حرب عادلة وسلام غير عادل".

وعلى الرغم من أنني ذكرت تسعة أسباب لقبول خطة أوين شتولتنبرغ وأربعة أخرى لرفضها إلا أنه كان من الواضح أن الأسباب الأربعة كانت ذات ثقل أكبر، ولقد تم في واقع الأمر رفض الخطة بأسلوب دبلوماسي نظراً لأن

قبولها كان يترتب على تحقيق شرط منطقي، ولكنه غير مقبول بالنسبة للصرب، وهو استعادة كل الأراضي التي كان البشناق يشكلون فيها غالبية عظمى أو نسبية حسب إحصاء السكان لعام ١٩٩١، ولعل الحقيقة التالية تعبر عن الوضع بوضوح.

إن الشرط المنطقي غير مقبول، ولقد عرف جميع الفرقاء ذلك.

واستمر الاتحاد الأوربي في ممارسة الضغط على الحكومة البوسنية من خلال وزراء الخارجية كي تقبل بحزمة السلام المعروضة. ولقد أبدى وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد موقفاً متحجر الشعور عندما أعلن أن بريطانية لن تشارك في عملية إيصال المساعدات الإنسانية السنة القادمة، ولم يكن هناك تهديد أكبر من هذا، نظراً لأن سكان عدة جيوب في البوسنة بما فيها سراييفو وماغلاي، وسريبرينيتسا، وغوراجدة كانوا على وشك المجاعة.

ولقد حاول وزراء خارجية الاتحاد الأوربي خلال اجتماع ١٢/٢٢/ مداهنتنا من أجل أن نقبل بخطة أوين- شتولتبرغ، حيث قاموا بتعديل خارطة (الجمهوريات البوسنية) وقاموا بزيادة حصتنا من ٢٨,٣٪ إلى ٣٣,٣٪ من مساحة أراضي البوسنة والهرسك. ولكننا رفضنا أيضاً وعلى الرغم من أن اعتراضنا على الخطة كان مبنياً على أساس مساحة المناطق المخصصة لنا، إلا أن السبب الحقيقي كان هو الهيكلة الدستورية المقترحة، التي لم نقبلها. ولقد أصبح الأمر واضحاً بعد استئناف المحادثات في ١/١٨ و١٩٩٤/٢/١٢ أن خطة أوين- شتولتنبرغ باتت ميتة. وتلا ذلك التدخل الأمريكي المباشر في مشكلة البوسنة.

ولقد اتفق الطرفان البشناقي والكرواتي على إنهاء صراعهما. وتم توقيع وقف لإطلاق النار بتاريخ ٩ شباط (فبراير) ١٩٩٥، وأعقب ذلك محادثات في فرانكفورت في التاسع عشر من الشهر نفسه من أجل إيجاد حل سلمي للأزمة،

وتبعها محادثات أيضاً في واشنطن بين ٢٦ شباط (فبراير) والأول من آذار (مارس). كانت نتيجة المحادثات هو إطار اتفاقية تأسيس اتحاد فدرالي من مناطق البوسنة والهرسك ذات الأغلبية البشناقية والكرواتية. وترأس وفدنا إلى المحادثات د. حارس سيلادجتش الذي كان وزيراً لخارجية البوسنة والهرسك في تلك الأثناء.

استمر الصراع البشناقي الكرواتي الذي كان يهدف لإقامة كرواتية الكبرى على حساب البوسنة مدة سنة على الأقل. وعندما أبدينا مقاومة غير متوقعة وخاصة في موستار ووسط البوسنة وصلت المغامرة الكرواتية إلى نهايتها أو أنه تم تأجيلها على الأقل، أو لنقل بدقة أكبر: إنها استمرت، ولكن بالأساليب السياسية بدلاً من العسكرية. ولقد كان هناك شيء ثابت دوماً: لم نرغب ولم نبدأ نحن بالصراع. ففي ظل وضعنا الحرج والعدوان الصربي علينا على أشده، فكان المجنون فقط هو الذي يفكر أو يحلم بفتح جبهة ثالثة. ولا بد أن القيادة الكرواتية قد حللت الأمور بشكل مغاير. فلقد ارتأوا أنه ما دام البشناق مشغولين بالتصدي للعدوان الصربي عليهم فإن بإمكانهم (أي الكروات) استغلال الوضع والفوز بحصة من البوسنة لأنفسهم. ولكن حساباتهم كانت خاطئة كما تبين، ففي بداية عام ١٩٩٥ كنا نحن نمسك بزمام الأمور.

أما من الناحية العسكرية في وسط البوسنة. فقد كانت فيتز على وشك السقوط، ومع ذلك قبلنا بعرض السلام والمحادثات في واشنطن، ولم يكن جنرالاتنا مسرورين من إيقاف العملية العسكرية، ولكن كان تفكيرنا نحن صناع القرار مغايراً. فلقد كان بالإمكان استرجاع مدينة فيتز، ولكن المشكلة هي ما يمكن أن يحدث هناك مما قد يكيل ضربة قاصمة لفكرة البوسنة الموحدة.

وفي الخامس من تموز (يوليو) عام ١٩٩٥، تم تسليم موستار إلى إدارة مؤقتة لمدة سنتين تابعة للاتحاد الأوربي. ولقد ألقيت الخطاب التالي في حفل التنصيب

الرسمي لتلك الإدارة، الذي حضره وفد الرئيس الكرواتي فرانيو تودجمان ووزراء خارجية ألمانيا وفرنسا واليونان كينكل، وجوبيه، وبابوليا س على التوالي:

"إن هذه الاتفاقية بين المجتمعين البشناقي والكرواتي في موستار التي تنص على تسليم إدارة المدينة إلى الاتحاد الأوربي بشكل مؤقت هي خطوة كبيرة وشجاعة لجميع المشاركين في هذه العملية.

فلقد مرّت موستار بجحيم حرب حقيقي ولقد تجلّى مفهوم (قتل المدينة) في موستار مع الأسف بشكل واضح وجليّ، وتعني كلمة (موستار) باللغتين البوسنية والكرواتية (المدينة ذات الجسر)، إن الجسور التي أعطت المدينة اسمها، وجمالها، وروحها قد دُمرت جميعها، حتى الجسر القديم الشهير، والذي يُعدُّ جزءاً من التراث العالمي لم يسلم من التدمير. وسوف يبحث المؤرخون طويلاً عن إجابة للتساؤل حول كيفية وسبب اندلاع المواجهات بين الكروات والبشناق بعد فترةٍ تمتد إلى خمس مئة عام من ما هو أكثر من مجرد تسامح. إننا بتوقيعنا اليوم على هذه الاتفاقية لنعطي موستار بداية جديدة وكذلك للبوسنة والهرسك وأوربة. وإذا ما أردنا أن نعيد بناء الجسور فوق أنهار بلادنا فإنّنا يجب أن نقوم ببناء تلك الجسور في نفوس شعبينا".

لقد انتهت الحرب بين البشناق والكروات، شارك فيها قوات من جيش جمهورية كرواتية، ولكنها خلّفت وراءها انعداماً للثقة وسلاماً فاتراً. وليس الوضع بأفضل حالاً اليوم، وأنا أخط هذه الكلمات.

وفي الجانب المقابل فقد كانت هناك بُذلت جهود لإنهاء الحرب في البوسنة والهرسك وإيجاد حل شامل، وهكذا فلقد أُعلِنَ في لندن في الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٤ عن تشكيل مجموعة اتصال من أربعة أعضاء، تتمكن من تنسيق الجهود الرامية إلى إنهاء الحرب الدائرة في البوسنة والهرسك. وسرعان ما انضمت روسية إلى المجموعة التي كانت تضم الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا. وأذعنت أمريكا لضغوطات أوربة، وانحرفت باتجاه

السياسة الأوربية الواقعية، ومن ثمَّ قبلت عملياً بمبدأ تقسيم البوسنة إلى الاتحاد الفدرالي والكيان الصربي على أساس نسبة ٥١ إلى ٤٩. كانت هذه الخطة الإشكالية لدول مجموعة الاتصال، التي هي في الواقع العملي إملاءات العالم علينا، وكانت الحرب ستستمر عاماً أخر، ولكن تم تحديد مستقبل البوسنة والهرسك السياسي في هذه اللحظة.

فكل ما حدث بعد ذلك كان يتم تشكيله أو تحديده بسبب ذلك الحل الوسط الذي اقترحته الخطة التي حظيت بمساندة كل الدول العظمى من أمريكا إلى روسية. ولمواجهة هذا الإنذار العالمي فلقد اقترحت عقد جلسة مشتركة لبرلمان جمهورية البوسنة والهرسك والجمعية البشناقية.

أبلغ سيلادجتش النواب في الجلسة التي عُقِدَت في البرلمان البوسني بتاريخ ١٩٩٤/١١/١٨ أن المجتمع الدولي عبَّر للمرة الأولى عن رغبته في تنفيذ وتطبيق خطة مجموعة الاتصال بمساعدة قوّات دولية بما فيها فرقة من قوات حلف الناتو، وأن هذا يعد تطوراً مهماً. ولقد قبلت الجمعية الوطنية الخطة بأغلبية الأصوات مقابل تصويت ١٧ عضواً ضدها، وامتناع اثنين عن التصويت.

وسبقت جلسة الجمعية التشريعية للبوسنة والهرسك جلسة الجمعية البشناقية الثانية التي حضرها ٣٥٥ ممثلاً من كل المناطق الحرة في البوسنة والهرسك. ولقد أشار الجميع إلى إجحاف الخطة، وذكرت حينها: أنه لا داعيَ لإثبات ما هو واضح. وينبغي علينا أن نركّز على إيجاد مخرج. وقلت ما يلي في خطابي القصير الموجه للجمعية:

"إن الخطة التي عرضت علينا والتي يجب علينا اتخاذ موقف تجاهها هي خطة مجحفة. إنني أقول هذا كي أوفر على نفسي وعليكم الوقت والجهد، لأن هناك العديد من الأشخاص الذين يرهقون أنفسهم ويجادلون في حقيقة ثابتة وواضحة. ولكن، ليس هناك حاجة لإثبات ما هو واضح ومعروف. إن بعض الناس يقومون بذلك مدفوعين

بمعتقداتهم، إذ يعتقدون وبكل سذاجة أنهم يقدمون يد المساعدة بهذا التصرف، فيما تقوم الأغلبية بذلك كي يتفادوا الإجابة عن السؤال الحقيقي والصعب، وهو: "ماذا يتوجب علينا فعله تجاه هذا الوضع؟".

إن الخطة المعروضة علينا خطة لا يمكننا رفضها. نعم إنها مجحفة وغير مرضية، ولكن أي خيار يطرأ إذا ما رفضناها سيكون أسوأ بالنسبة إلى شعبنا من الوضع الحالي حسب تقويمنا. إن كفاحنا من أجل المحافظة على وحدة أراضي البوسنة يعتمد إلى حد كبير علينا نحن، وعلى ما نقوم به، وعلى من نكون. وسنرى ما إذا كان بإمكاننا أن نجعل من أجزاء البوسنة الواقعة تحت سيطرتنا بلداً ديمقراطياً وحديثاً وحراً. وأظننا قادرين على ذلك. وهل سيسطع نور تلك الدولة بقوة كافية كي ينير كافة الزوايا القصيّة، ويبدد ظلام الشوفينية، أو أننا سننغلق على أنفسنا ونصبح أسرى تداعيات الشوفينية والكراهية؟ لا يمكن استبعاد البوسنة. إنها دولة متعددة القوميات والديانات، ولهذا فإننا نبحث عن أولئك الذين لا تزعجهم مبادئ التعددية والتنوع. وأولئك الأشخاص هم نحن، فنحن لا تزعجنا الكنائس ولا الكاتدرائيات؛ فلقد تعلمنا كيف نعيش مع شعب يفكر ويشعر بطريقة مختلفة عنا، وإننا نعدُّ ذلك أفضلية كبيرة في مصلحتنا...".

ولقد صوت ٣٣٠ عضواً لمصلحة الخطة، فيما صوّت ٤٦ ضدها، واستبعدت ست أوراق. وهكذا اتخذ قرار بخصوص الاختيار ما بين حرب عادلة لا طائل منها وسلام مجحف، ولكنه واقع.

واستمرت الأمور بالمسير بشكل متعرج، ولكن تمَّ وضع كل شيء في نهايته وتصحيح المسار فيما بعد. ولم ينقذ هذا كله البوسنة، بل إن ما تمَّ إنقاذه هو فكرة البوسنة الموحدة والمكافحة بصبر من أجل بنائها في السنوات الطويلة القادمة.

ولقد كنت في زيارة إلى زينيتسا في أوائل آب (أغسطس) ١٩٩٥ عندما أعلموني باعتزام وزير خارجية فرنسة إرفيه دو شاريت القيام بزيارة البوسنة. وسلمني ايرفيه دو شاريت رسالة شخصية من الرئيس شيراك، تضمنت دعوة رسمية لي لزيارة فرنسا. واقترح البحث عن حل للنزاع من خلال اتصال مباشر مع بلغراد. وقمت بالرد على ذلك من خلال رسالة بتاريخ ٧ آب (أغسطس).

"إن شعبنا يرحب بمبادرتكم وجهودكم الشخصية لإنقاذ سريبرينيتسا ومن ثم جيبا ويبدي لكم الامتنان، ولسوء الحظ فلقد أدّى تجاهل المجتمع الدولي مرة أخرى إلى جريمة إبادة عرقية كبرى ذهب ضحيتها أناس أبرياء.

وعلى الرغم من ذلك فنحن نهتم بأية إشارة تدلنا على سبيل لوقف القتال، وإني واثق أن السيد ايرفيه دو شاريت سوف يكون ناقلاً أميناً لرغبتنا في فتح الباب أمام السلام حيثما يتم الإعلان عن ذلك.

وفي هذا المجال، فإننا منفتحو الذهن حتى على مقترحات تبعث بها بلغراد. ولسوء الحظ علي أن أعلمكم أن ميلوشيفتش الذي يرسل دعوات ورسائل لإنهاء الحرب يقوم بإرسال جيشه وعتاده العسكري إلى البوسنة. لقد شارك ٦ آلاف جندي من صربيا والجبل الأسود في عملية الهجوم الأخيرة ضد بيهاتش.

وإننا على اتصال دائم مع السيد كارل بيلدت الذي نرحب بمهمته بكل صدق. إننا نعتقد أن الاعتراف المتبادل بين البوسنة وصربيا، أي بعبارة أخرى أن الاعتراف المتبادل بين جميع الدول التي تشكلت بعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي سوف يؤدي إلى توجيه الأزمة كلها نحو حل عادل ودائم.

وبوسع فرنسا الدولة العظمى أن تساهم بالكثير من أجل الوصول إلى مثل تلك النتيجة من خلال لعبها لدور مباشر، وقيامها بالتأثير بشركائها في الاتحاد الأوربي ومجلس الأمن في الأمم المتحدة."

وفعلاً، فسرعان ما لعبت فرنسا دوراً هاماً في اتخاذ قرار الموافقة على قيام الناتو بضربات جوية في الثلاثين من آب (أغسطس). مما يعني بداية النهاية لحرب البوسنة والهرسك.

ولقد وصلت في اليوم التالي، ٨ آب (أغسطس) عن طريق زغرب إلى منطقة كرايينا البوسنية التي كانت محاصرة ومقطوعة عن العالم منذ أكثر من ثلاث سنوات وحُررت المنطقة خلال عملية العاصفة المشتركة التي شارك بها الجيشان البوسني والكرواتي في سلافونيا الغربية وكرايينا البوسنية في الفترة ما بين الرابع

والسابع من آب (أغسطس) ١٩٩٥، وكنت أتنقل طوال اليوم، حيث قمت بجولة على بيهاتش، وتسازين وبوجيم وفيليكا كلادوشا التي تمَّ تحريرها قبل يوم فقط. زرت قبر أصغر جنرال في الجيش البوسني المرحوم عزت نانيش الذي قُتِلَ قبل يومين خلال معركة لكسر الطوق حول كرايينا. ولقد أجبت لدى عودتي من كرايينا على عدة أسئلة لمذياع وتلفاز البوسنة في ١٣ آب (أغسطس) ١٩٩٥.

وكان أول تلك الأسئلة التي طرحها عليَّ المحرر بيلمن كارا محمدوفتش يتعلق باستمرار التعاون العسكري بين جيش البوسنة والهرسك وقوّات مجلس الدفاع الكرواتي والجيش الكرواتي ولم أسمح لنفسي خلال الرد من أن أنجرف بعيداً جرياً وراء الأوهام.

– عزت بيغوفتش: أعتقد أنه لا ينبغي علينا أن نفرط في التفاؤل في هذا الشأن. إن كرواتية سوف تذهب إلى الحد الذي تمليه عليها مصالحها. إن أفضل ما يمكننا أن نتوقعه منهم هو المساعدة التقنية، وتقديم المعدات، ولربما يكون هناك تعاون أكثر من مجلس الدفاع الكرواتي، ولكن حتى ذلك التعاون سوف يكون محدوداً. ولا أعتقد أننا يجب أن نتوقع شيئاً مثيراً.

– بيلمن كارا محمدوفتش: إن انثوني ليك يقوم حالياً بجولة على العواصم الأوربية. فلقد زار كلاً من لندن، باريس، وبون، ومدريد. يقال بأن أمريكا مستعدة للتراجع عن خطة سلام مجموعة الاتصال. هناك الكثير من التخرصات معظمها من وسائل الإعلام لعدم وجود أي خطة رسمية. وهناك ذكر لاحتمالات مثل تبادل بعض المناطق مثل غوراجدة مقابل بعض أجزاء من سراييفو، واحتمال توسيع ممر برتشكو، وارتباط كونفدرالي أو حتى فدرالي ما بين باله وبلغراد وهكذا دواليك. إن هذه فرصة سانحة لنا كي نعلم منك أنت شخصياً عن كيفية ترتيب الأمور في المبادرة الأمريكية.

– عزت بيغوفتش: لا أعتقد أن هناك خطة مثل ما ذكرت، بل مجرد مبادرة. وأنا أيضاً ليس لدي سوى التوقع بطريقة أو بأخرى. لقد قرأت بعض التقارير التي أوردتها

بعض وكالات الأنباء، ولكن لا أستطيع أن أحكم على مدى مصداقية تلك التقارير. فلقد أجريت اتصالاً هاتفياً اليوم مع نائب الرئيس الأمريكي آل غور وحاولت أن أعرف منه المزيد من المعلومات، وقال: إن هناك وفداً أمريكياً سيتوجه إلى سراييفو بعد غد يرأسه نائب وزير الخارجية لأوربة ريتشارد هولبروك. وسوف يقوم الوفد بشرح جوهر المبادرة. ويستطيع المرء أن يقول: إن هناك خطة أمريكية لم تكتمل بعد، يتم إعدادها حالياً. فما زالت طبيعة مهمتهم إلى الآن هي تقصي الحقائق، وأنهم يبحثون في البدائل والاحتمالات. ومع علمي بكل هذا فلقد أخبرت نائب الرئيس الأمريكي بأنني سمعت ما يدور حول مستقبل غوراجدة، وأننا لن نسلم غوراجدة حتى ولو اضطررنا للقتال خمس عشرة سنة أخرى. ولقد أكد لي خلال الاتصال على شيء مهم بالنسبة إلينا، وهو أن المبادرة ترتكز على أساس التأكيد على سيادة واستقلال ووحدة أراضي البوسنة والهرسك ضمن حدودها المعترف بها دولياً. وأضاف أنه يجب ألا نخاف من أي تنازل بهذا الشأن. قد يكون هناك تنازل في قضايا تتعلق ببعض المناطق، وأعتقد من وجهة نظري أن هذا يعطي انطباعاً بتراجع جزئي عن خطة سلام مجموعة الاتصال. وسوف نعرف المزيد بهذا الصدد عندما يأتي الوفد إلى سراييفو. ولقد أخبرونا عن دور أمريكي في تنفيذ الخطة، وتوجيه تهديدات للصرب باستخدام القوة ضدهم إذا ما رفضوا ذلك المقترح لتحقيق السلام. وتم التأكيد لي أن حظر الأسلحة على البوسنة سوف يرفع عنها، وسوف يكون هناك ضربات جوية ضد مواقع الصرب إذا ما أصرّوا على الرفض. وأخيراً قال آل غور: إنها ستكون خطة متوازنة ومنصفة.

– بيلمن كارا محمدوفتش: إن كل أشكال الخطط تتحدث عن وجود كيان صربي داخل البوسنة والهرسك ومن دون أي سوء نوايا تجاه العلاقة المستقبلية بين ذلك الكيان وباقي البوسنة والهرسك. هل سيؤدي هذا العرض على المدى البعيد إلى الحفاظ على وحدة البوسنة والهرسك أم تفكيكها؟

– عزت بيغوفتش: إنك محق فسوف يكون نوع من كيان صربي. ولكني لا أعلم على أي وجه سيتم تنظيمه. ما قمنا بعرضه نحن كان هيكلاً فيدرالياً، وحتى هذا الشكل ففيه بعض العيوب، فسوف يصبح لديهم بموجبه الحق في انتداب بعض

الأشخاص لتمثيلهم في الهيئات والدوائر الحكومية المركزية. وماذا سيكون الشكل الذي ستبدو عليه الدولة إذا ما كان هؤلاء الأشخاص المنتدبون من أنصار التشتنيك الصرب المتعصبون. ولكن يبقى هذا بطريقة أو بأخرى ثمن الحفاظ على البوسنة والهرسك. وإذا أدى ذلك إلى الإبقاء على وحدة أراضي البوسنة أو تفكيكها فإن ذلك عائد لنا. إنها لعبة لا ربح فيها ولا خسارة، إن ذلك يعتمد على ما نحن عليه هنا، وإذا ما كنا سنخلق شكلاً متقدماً من البوسنة والهرسك في الأراضي الواقعة تحت سيطرة السلطة الشرعية بحيث تصبح نموذجاً منافساً بالمعنى السياسي والاقتصادي والاجتماعي للكلمة، يستطيع أن يتفوق على النموذج الآخر، وهل سيتم تأسيس المجتمع المدني هناك، وإرساء قواعد احترام الملكية، والديموقراطية؟ ونحن مستعدون للاستفادة من كل شيء يبدي العالم استعداده للقيام به من أجل البوسنة. وبالتالي هل سيساهم ذلك في الحفاظ على وحدة أراضي البوسنة والهرسك؟

أعتقد ان هذا ما ستكون عليه الأمور.

- بيلمن كارا محمدوفتش: لقد ذكرت قبل لحظات الوسيط الأوربي الجديد للمحادثات بشأن يوغسلافيا السابقة، وهو الدبلوماسي السويدي كارل بيلدت ونادراً ما يتحدث الرأي العام عندنا عنه. ودعنا نذكر أن كرواتية أعلنت أن بيلدت يعتبر شخص غير مرغوب فيه بعد تصريحه الذي دعا فيه إلى إدانة الرئيس تودجمان بتهمة ارتكاب جرائم حرب. ويبدو الأمر بالنسبة إلي، وعلى الرغم من أننا لم نذكر الكثير عن هذه المسألة أن هناك تحفظات من قبل السلطات الشرعية في البوسنة والهرسك تجاه مهمة السيد بيلدت. هل يمكنكم تأكيد ذلك؟

- عزت بيغوفتش: إن موقفنا تجاه السيد بيلدت أقل تصلباً من الكروات، ولكنه يبقى موقفاً حساساً. إن منهج بيلدت يثير حفيظتنا. فلقد تحدثت للتو عن أحد عناصر هذه الخطة، وهو اعتراف صربيا بالبوسنة والهرسك الموجودة إلا في تخيلات ميلوشيفتش. إن بيلدت يحثنا على تقبل ذلك، مما أثار شكوكا مبررة لدينا. وثانياً طالبنا بأن يواكب ذلك الاعتراف إغلاق محكم للحدود على طول نهر الدرينا، وهو شيء لم يظهر بيلدت الكثير من التعاطف إزاءه. ولقد أوضحنا أن اعترافاً أبتر كهذا يتم مقابله

مكافأة ميلوشيفتش برفع العقوبات سوف يمكنه من أن يلعب لعبة مزدوجة. فهو بذلك سيحصل على رفع للعقوبات في نفس الوقت الذي سيستمر فيه في بناء صربيا الكبرى عبر حدوده المفتوحة. ولقد وجدنا أنفسنا مضطرين أن نلفت انتباه بيلدت إلى ذلك، وهو ما كان يجب أن يكون واضحا بالنسبة إليه كونه دبلوماسياً خبيراً. ولكنه لم ير ذلك وكانت هناك قضية طريق إيغمان أيضاً. ولقد قال لنا مرة من المرات: إنه سوف يضمن أن يتم تزويد المؤن والوقود للمدينة عبر كيسيلياك أي عبر مناطق خاضعة لسيطرة كارادجتش وكان ردنا على ذلك أن هذا ليس حلاً.

فلا يحتاج المرء أن يكون ذكياً جداً كي يدرك أن التشتنيك يستطيعون إغلاق الطريق متى شاؤوا، ولقد قال لنا: إنه يدرك ذلك، ولكنه كان مع ذلك مستعداً للتخلي عن طريق إيغمان لأن كارادجتش وعده بفتح الطريق المارة عبر كوبيلياتشا. لقد كان مندفعاً دوماً كي يصدق وعود كارادجتش بعد كل التجارب السابقة.

– بيلمن كارا محمدوفتش: إن الطريقة التي تصرف بها كارادجتش وأتباعه خلال الأيام القليلة الماضية تظهر كذب وعوده؛ لأنه كاد يعيق الدخول إلى المدينة عبر ذلك الطريق المتفق عليه.

– عزت بيغوفتش: لقد كان الأمر غريباً أن نجد أنفسنا مضطرين للتوضيح لدبلوماسي خبير انه يسير نحو الوقوع في شرك، ولكن بيلدت ارتكب كل تلك الأخطاء.

بدأت المبادرة الأمريكية للسلام بقيادة السفير ريتشارد هولبروك في أواسط آب (أغسطس) من عام ١٩٩٥، وقد ساهمت النجاحات العسكرية التي حققها الجيشان البوسني والكرواتي في غرب البوسنة ومأساة سريبرينيتسا التي كانت بمثابة إنذار أنه يجب القيام بشيء ما في إطلاق تلك المبادرة.

وكنا نجري التحضيرات لاستقبال صانعي السلام الأمريكان عندما وصلتنا أنباء مقتل ثلاثة من الفريق الأمريكي المفاوض بحادث سير على طريق إيغمان وهم روبرت فريتشه، وجو كروزل، ونيلسون درو، انقلبت مركبتهم في واد

سحيق عمقه مئة متر لدى تجاوزها مركبة مدرعة فرنسية. وهكذا بدت المهمة سيئة الحظ منذ بدايتها.

ذهبت بصحبة سيلادجتش وشاكر بيغوفتش إلى السفارة الأمريكية لتقديم تعازينا. ولقد حاول ريتشارد هولبروك القيام بواجبه والبدء بالمحادثات على الرغم من أنه كان متأثراً بالمأساة التي حدثت.

وقال: "يتوجب علينا أن نقول: ما شكل البوسنة والهرسك الذي نريده بالضبط كي نبدأ المحادثات، يمكن أن يكون لديكم دولة موحدة، ولكن لا مركزية، أو سلطة مطلقة على جزء من البلاد. أي الخيارين تريدون؟"

هذا ما سألني عنه، وهو يشير إلى الخارطة على الحائط. وكان جوابي دون تردد هو: "نريد الخيار الأول". لقد كانت المحادثة قصيرة بسبب الظروف المحيطة بها، ولكنها كانت حاسمة كما سيثبت فيما بعد. فلقد تقرر الكثير خلال تلك المحادثة القصيرة.

وقمت قبل ذلك بعدة أيام وتحديداً في الثامن عشر من آب (أغسطس) بنشر وثيقة أطلقنا عليها خطة مؤلفة من اثنتي عشرة نقطة لتحقيق السلام في البوسنة والهرسك. وعمدت في تلك الخطة التي نشرتها كي أعلم هولبروك وكل المهتمين بالموضوع وكي أؤثر على شكل مطالبهم المحكمة إلى تحديد أهدافنا في محادثات السلام من أجل البوسنة والهرسك.

وهاكم النسخة المختصرة لتلك الوثيقة":

١- إن أي حل سلمي يجب أن يرتكز إلى مبدأ سيادة واستقلال ووحدة أراضي جمهورية البوسنة والهرسك، وأن على صربيا أن توافق على مبدأ الاعتراف المتبادل لجميع الدول التي انبثقت عن تفكك يوغسلافيا السابقة.

٢- تبقى خطة مجموعة دول الاتصال الخمسة في تموز (يوليو) من عام ١٩٩٤، سارية المفعول بالنسبة إلينا، ونحن نعتقد أنه يجب أن تبقى كذلك لدى من أطلقوها.

٣- يجب أن يكون حل مسألة سراييفو جزءاً من خطة سلام شاملة. فنحن لسنا مستعدين لتسليم سراييفو إلى إدارة تابعة للأمم المتحدة خاصة بعد الذي حدث في سريبرينيتسا وجيبا.

٤- إن مسألة البوسنة مسألة ديمقراطية. إننا نعترف بحقوق متساوية للصرب في البوسنة، ولكننا لا نعترف بأية حقوق على الإطلاق لنظام باله. إن ذلك النظام يجب إن يتم هزيمته عسكرياً أو عزله كلياً لكونه نظاماً قائماً على مبدأ الإبادة العرقية. إننا مستعدون للتفاوض مع قيادات القومية الصربية التي تحترم حقوق سكان البوسنة والهرسك من غير الصرب وتتصرف بما يتماشى مع الأعراف الدارجة في العالم المتحضر.

٥- وبما أن الوصول إلى اتفاقية سلام في هذا الوقت، فسوف يجعل الحفاظ على وحدة أراضي البوسنة بالوسائل العسكرية مستحيلاً، فإن الترتيب الدستوري المستقبلي للبوسنة والهرسك يجب أن يتضمن أي شيء من شأنه أن يعيق إعادة توحيد البلاد بشكل سلمي في المستقبل، وأنه يجب أن يحرص على إدماج كل العناصر التي ستجعل أمر إعادة توحيد أراضي البوسنة والهرسك ممكناً.

٦- يجب الاستمرار في محاكمة ومقاضاة مجرمي الحرب. ويجب تسريع عملية تقديمهم للقضاء.

٧- يجب أن يتم ضمان تطبيق خطة السلام من خلال إرسال قوات من دول مجموعة الاتصال الخمسة، ويجب أن يكون هناك عدد لا بأس به من القوات الأمريكية، نظراً لأن الولايات المتحدة هي التي أطلقت مبادرة سلام جديدة.

٨- إن الدول الموقعة على الخطة يجب أن تنشئ صندوقاً لإعادة إعمار البوسنة والهرسك.

٩- على الدول الموقعة أن تتعهد بدعم تقوية الاتحاد الفدرالي سياسياً ومالياً.

١٠- يجب أن يترأس الجانب الصربي في المحادثات رئيس جمهورية صربيا سلوبودان ميلوشيفتش.

١١- على الموقعين على اتفاقية السلام مساعدة البوسنة والهرسك في تأمين دفاعاتها في المستقبل، وعليهم أن يساندوا عضوية البوسنة في صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي والمنظمات الدولية الأخرى ذات الأهمية العالمية والإقليمية.

١٢- يجب أن يوقع على اتفاقية السلام أعضاء مجموعة دول الاتصال وممثل عن منظمة المؤتمر الإسلامي بالإضافة إلى الأطراف المعنية مباشرة.

ويمكن أن يلاحظ المرء أن العديد من النقاط المهمة التي تضمنتها اتفاقية دايتون للسلام في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٥ كانت موجودة في الوثيقة التي أوردت للتو. وانعقد المؤتمر الدولي حول الإبادة العرقية في بون في السابع والعشرين من آب (أغسطس). لم أستطع حضور هذا المؤتمر، ولكنني بعثت بالرسالة التالية:

"لقد كانت البوسنة والهرسك خلال أربع سنوات عرضة،، للعدوان الوحشي عليها من قبل صربيا والجبل الأسود، قتل فيه آلاف الأبرياء، معظمهم من البشناق. لقد ماتوا ميتة شنيعة، وأُجبر حوالي مليون شخص على ترك منازلهم، ودمرت مئات البلدات والقرى.

إن التركيبة التي نطلق عليها اسم الروح البوسنية تتعرض لهجوم وحشي، وهي الروح التي تُعدُّ مادة روحية وثقافية أصيلة، وهي تتابع لتراكمات ألف سنة، امتزجت خلالها مع حضارات وثقافات وديانات متعددة.

إن البوسنة كانت أصلاً ما يصبو إليه العالم المتحضر، ولكن بدلاً من أن يهب المجتمع الدولي للدفاع عن مبادئه التي تبناها رسمياً، فإنه خان تلك المبادئ. لقد رافق معاناة البوسنة صمت معيب وتجاهل مشين من معظم العالم.

إنها مسؤوليتكم أيها السادة أن تدرسوا بموضوعية هذا الانحطاط المعادي للمدنية والحضارة، يجب أن تفعلوا بذلك، تقوموا بذلك، بأمانة شديدة لكي لا تتكرر مأساة في البوسنة".

ولقد سقطت قذيفة على سوق سراييفو في اليوم التالي ٢٨ آب (أغسطس)، وشاهد العالم أجمع صور المدنيين المذبوحين، وهو ما وخز ضمير الكثير ممن هم في مواقع المسؤولية. وفي صباح الثلاثين من آب (أغسطس) تدخل الناتو بتوجيه

ضربات جوية ضد المواقع الصربية، مما غير مسار الحرب عموماً، كما سبق ورأينا.

وإنه من المثير للاهتمام أنه يكون ميلوشيفتش ويولا توفتش مجتمعين في الليلة نفسها مع ممثلين عن صرب البوسنة في بلغراد وأن يتفقوا حينها على أن يتولى ميلوشيفتش قيادة الفريق الصربي، وأن تكون كلمته هي الحاسمة في محادثات السلام التي أطلقتها الولايات المتحدة. وكان البطريرك بافله شاهداً على الاتفاق.

و استمر قصف مواقع الصرب مدة يومين وليلتين، ومن ثم توقف بعدها على الرغم من أنه لم يتحقق أي هدف عسكري أو سياسي بعد. فقمت بإرسال رسالة واحدة إلى كل من الرئيسين بيل كلينتون وجاك شيراك أغبر فيها عن احتجاجي على هذا التراخي:

"هناك إشارات على أنه تم إلغاء العملية العسكرية التي بدأتها الأمم المتحدة والناتو ضد آلة القتل الصربية التي تقوم بقتل المدنيين في سراييفو. وهكذا تستمر نفس اللعبة القديمة نفسها. فما زال الأشخاص الذين أحبطوا كل إجراء للمجتمع الدولي منذ البداية موجودين، مما أطال أمد الحرب والمعاناة في البوسنة، ومما عرض للخطر مصداقية المؤسسات الدولية.

ولم يتم تدمير مدفعية الصرب التي تحيط بسراييفو، وما زال طريق إيغمان يتعرض للقصف، وما زال النظام المسيطر إلى الآن يتحكم بطريق كيسيلياك- سراييفو مما يعني أن ذلك الطريق سوف يتم فتحه يوما ويغلق عشرة أيام حسب مزاج ورغبة أولئك الذين ما زالوا يرهبون المدينة منذ أربعين شهراً.

ولقد كان قائد القوات العسكرية الصربية ملادتش يملي شروطاً في رسالته بتاريخ الأول من أيلول (سبتمبر). ويبدو أن الجنرال جانفييه مستعد لقبول تلك الشروط.

ولذلك فإن مسرحية التلاعب بمصير البوسنة وشعبها تستمر. وأؤكد لكم سيدي الرئيس أن هذه ليست الطريقة لدفع مسيرة السلام التي بدأت، بل إنها ستؤدي إلى نتائج عكسية.

لذلك فإنني أطالبكم باستخدام نفوذكم من أجل تأمين الوفاء التام بالالتزامات التي تم التعهد بها، وأن تقوموا بإرسال رسالة إلى أولئك الذين ارتكبوا تلك الفظائع التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، توضحون لهم فيها أنهم ليسوا هم الذين يستطيعون إملاء شروطهم".

ولقد اتصل بي نائب الرئيس الأمريكي آل غور في الثالث من أيلول (سبتمبر) وأكد لي أن الضربات سوف تستمر.

وفعلاً فلقد استأنفت الضربات الجوية بعد بضعة أيام، استمرت حتى الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) حين تم إيقافها بشكل نهائي.

ولقد كنت في زيارة رسمية إلى تركية في الرابع من أيلول (سبتمبر) عندما أعلموني أن ريتشارد هولبروك في أنقرة، وأنه يرغب بمقابلتي. ولم أفاجأ كثيراً، ولكني لم أستطع الاجتماع به إلا بعد الساعة الحادية عشر مساء بسبب ترتيبات الزيارة المعدة مسبقاً، وعقدنا اللقاء في مقر إقامة السفير الأمريكي في أنقرة.

كان هولبروك يحضر لاجتماع لوزراء خارجية صربيا وكرواتية والبوسنة والهرسك الذي كان سيعقد في جنيف في الثامن من أيلول (سبتمبر). وكان هدف الاجتماع هو تحديد المبادئ الأساسية لاتفاقية سلام بشأن البوسنة.

كان أساس تفكير هولبروك في هذا الشأن هو مبدأ الحل الوسط، إذ نقوم نحن بالاعتراف بجمهورية صرب البوسنة، فيما تقوم صربيا بالاعتراف بدولة البوسنة، أو كما جاء حرفياً في النص:" سوف تستمر البوسنة والهرسك في وجودها الشرعي بحدودها الحالية واستمرار الاعتراف الدولي بها".

ولقد عارضت الفكرة بشدة في البداية بسبب تسميتها "جمهورية صرب البوسنة"، وتلا ذلك محاولات لإقناعي من قبل هولبروك وروبرت أوين

يمثلها، والتي لم يكن يرغب أو يستطيع التراجع عنها، فكلما كان المرء ينهي كلامه ينبري هولبروك ليقول: "سيدي الرئيس إنك محق تماماً ولكن ..." لا أدري كم مرة سمعت فيها عبارة "إنك محق تماماً ولكن..." منذ أن التقيت هولبروك أول مرة في سراييفو في آب (أغسطس) ١٩٩٥ ولكن ماذا عسى المرء أن يضيف إذا ما كان محقاً تماماً؟!".

حتى هذه المرة في أنقرة عندما أخبرته للمرة الألف أننا لا يمكننا القبول بوجود جمهورية صرب البوسنة، وسقت إليه الأسباب والحجج التي يعلمها هو جيداً، فلقد قال لي هولبروك عبارته الشهيرة: "إنك محق تماماً، وأتفهم موقفك ولكن ..."ولقد استمر النقاش الذي انتهى الساعة الثانية صباحاً مدة ثلاث ساعات، وكانت آخر كلماته في النقاش " لا تستطيع استثناء "جمهورية صرب البوسنة" من مشروع الاتفاقية. أنا آسف ولكن لا يسعني القيام بأكثر من ذلك".

ولقد قررت أن أدعو لعقد جلسة لمجلس الرئاسة حال عودتي إلى سراييفو كي أعلم الأعضاء بما ينتظرنا في جنيف.

وهكذا لم يكن الأمر سهلاً لي عند التعامل مع هولبروك، ولكن يبدو أنه لم يكن الأمر سهلاً له أيضاً، ولقد كتب هولبروك في كتابه (من أجل إنهاء حرب) مستذكراً محادثات دايتون الصعبة".

"إن أصعب اللقاءات كانت تلك التي عقدت مع عزت بيغوفتش. فلقد حاولنا خلال آخر اجتماعاتنا الثلاثة ذلك اليوم أن نتودد إلى الرئيس البوسني. فلقد ذكرناه بكل المكاسب التي سيجلبها السلام، وسردنا عليه المنجزات النوعية التي حققتها المسيرة السلمية للبوسنة؛ مثل وقف الأعمال العدائية، ورفع الحصار عن سراييفو، وإعادة الفتح الجزئي للطرق والدمار الذي تسبب به قصف الناتو لمواقع الصرب وحزمة الخمسين مليار دولار من البنك الدولي المخصصة للبوسنة بعد توقيع اتفاقية

مستخدمين العديد من الحجج والطروحات. ولقد اتصل بي كارل بيلدت كي يؤكد لي بالنيابة عن أوربة من أجل أن أقبل التنازل والحل الوسط. وبين أحد أعضاء فريق هولبروك الخبير في القانون الدولي روبرت أوين أن كلمة "جمهورية" في عبارة جمهورية صرب البوسنة لا تعني الكثير.

إن ما كان مهما هو كيفية تحديد هوية ذلك الكيان في الهيكلة الدستورية المستقبلية للبوسنة والهرسك، فلقد قال لي: " انظر هنا إن تكساس تسمى جمهورية، ولكنها إحدى ولايات الاتحاد الفدرالي الذي يشكل الولايات المتحدة الأمريكية".

ولقد تذكرت عندها أننا في عهد الجمهورية الفدرالية الاشتراكية اليوغسلافية كنا أيضاً جمهوريات". ولكن جمهورية صرب البوسنة" أسسها كارادجتش على أساس مبدأ الإبادة العرقية.

قد يعجبك هولبروك أو لا يعجبك. ولكن لا يملك المرء إلا أن يحترمه. فلقد كانت طروحاته تعكس ذكاء خارقاً، وموهبة استثنائية ومعرفة مستفيضة بالمشاكل القائمة. ويقولون إن الدبلوماسية والقوة على طرفي نقيض فكلما كان لديك قوة أكبر كلما قلّت حاجتك للدبلوماسية، وفي الحالات الاستثنائية إذا ما كنت في دولة عظمى فإنك لا تحتاج إلى أي نوع من الدبلوماسية. لقد برهن هولبروك على زيف هذه النظرية. فعلى الرغم من أنه يمثل أعظم قوة في العالم أو بالأحرى القوة العظمى الوحيدة في العالم فإنه كان دبلوماسيا بكل معنى الكلمة. وكان يستخدم مهاراته في الإقناع كإحدى أقوى الأسلحة. أما قوة أمريكا فأمر مسلم به هنا.

كان هولبروك شخصاً لا يلجأ إلى الابتزاز أو التهديد إذا ما استخدم المرء في أثناء النقاش معه حجة منطقية وقوية بحيث تدحض وجهة النظر التي كان

السلام، وبرنامج تجهيز وتدريب جيش البوسنة الهرسك. ولقد ختم وارن كريستوفر ذلك كله بعبارة مؤثرة قلّما استخدم مثلها:" لقد استثمر الرئيس بيل كلينتون الكثير من أجل إنقاذ البوسنة" ولكنه لن يساعد حكومتكم إذا ما اتضح أنكم أنتم العقبة الكأداء في طريق التوصل إلى اتفاق في دايتون " ولم يقل عزت شيئاً وبدا وكأنه لم يتأثر بما قاله وزير الخارجية كريستوفر".

لربما وجد هولبروك أن التعامل معي صعب، لأنه لم يعرفني، بل أعتقد أنه كان متحاملاً علي، وإليكم الطريقة التي كان يراني هولبروك بها كما يقول في الصفحة ٩٧ من كتابه السابق الذكر:

"لقد كان في وسط تلك المعمعة شخصية علي عزت بيغوفتش اللافتة للنظر. فلقد استطاع الإبقاء على فكرة البوسنة حيّة في ظل أحلك الظروف، كان هذا الرجل ذو السبعين خريفاً يرى في السياسة كفاحاً مستمراً بعد قضائه ثماني سنوات في سجون تيتو وصموده أربع سنوات في وجه هجمات الصرب.

لقد كان في عينيه نظرة باردة وبعيدة، وبدت عيناه وكأنهما لا تكترثان ولا تتأثران بآلام الآخرين ومعاناتهم بعد كل الشقاء والمعاناة الذين مر بهما، ولقد ذكرني لوهلة بماوتسي-تونغ والقادة الشيوعيين الراديكاليون في الصين الذين كانوا أقوياء في الثورة وضعفاء في السياسة والحكم".

ولقد أضحكني انطباع هولبروك هذا عني وعن شخصيتي. ولقد تساءلت إذا ما كانت عيناي فعلاً لا تأبهان بآلام الآخرين ومعاناتهم، إن نظرتي لنفسي مختلفة تماماً، وعلى الرغم من أن نظرتنا لأنفسنا لا يمكن الاعتماد عليها كنظرة حيادية، إلا أن هذا لا يعني أن هولبروك كان محقاً في انطباعه عني.

ولقد اتصل بي وزير الخارجية وارن كريستوفر صباح الثامن من أيلول (سبتمبر) وهو الذي بدأت فيه محادثات جنيف، نشدد على أن نقبل بمسودة وثيقة جنيف دونما تغيير، ولقد قال: إنها تعني" اعترافاً قوياً بوضع البوسنة" وإن أمريكا ستقف بكل حزم وراء تطبيقها.

كان مجلس الرئاسة مجتمعاً حينها، وكانت وثيقة جنيف هي الشيء الوحيد على جدول الأعمال وقمت بنقل رسالة كريستوفر إلى الأعضاء دونما تعليق. فقبلوا الوثيقة بشعور من عدم الارتياح، وهكذا بدأت حقبة جديدة من تاريخ البوسنة والهرسك مليئة بالغموض والمآزق.

وهاكم نص الجزء الأول من تلك الوثيقة:

١- ستستمر البوسنة والهرسك في كونها كياناً شرعياً ضمن حدودها الحالية يستمر الاعتراف الدولي بها.

٢- سوف تتألف البوسنة والهرسك من كيانين اثنين، وهما الاتحاد الفدرالي للبوسنة والهرسك كما نصت عليه اتفاقية واشنطن وجمهورية صرب البوسنة.

٢:١- إن معيار اعتماد نسبة ٥١:٤٩ لمقترح المناطق الذي تقدمت به مجموعة الاتصال يُعدُّ أساساً للتسوية هنا. ويمكن تعديل هذا المقترح بموافقة الطرفين.

٢:٢- سوف يستمر كل كيان في الوجود بموجب دستوره الحالي، بحيث يتم تعديله من أجل موائمة هذه المبادئ الأساسية.

٢:٣- سوف يكون لكلا الكيانين الحق في إقامة علاقة خاصة موازية مع البلدان المجاورة، بما يتوافق مع ضمان سيادة واستقلال ووحدة أراضي البوسنة والهرسك.

٢:٤- سوف يلتزم الكيانان بالتزامات متبادلة، بحيث يتعهدان بإجراء:

أ- انتخابات عامة تحت رعاية دولية.

ب- الالتزام بالمعايير الأساسية وتبنيها، والالتزام بأساسيات حقوق الإنسان بما فيها الالتزام بالسماح بحرية التنقل، وتمكين النازحين من استعادة ملكية منازلهم، أو تعويضهم عن ذلك بشكل كاف.

جـ- الشروع في التحكيم الملزم لحل النزاعات بينهما.

"لم تكن هذه نتيجة يفخر بها الغرب" لقد كان هذا هو التعليق الذي كتبه أنثوني لويس في عدد صحيفة نيويورك تايمز الصادر في اليوم التالي فيما يخص الاعتراف بجمهورية صرب البوسنة.

ولقد قمت بالرد على بعض الأسئلة التي وجهها إليّ مراسل شبكة (سكاي نيوز) صبيحة انعقاد مؤتمر جنيف:

- شبكة سكاي نيوز: ماتوقعاتكم لمؤتمر جنيف؟

- عزت بيغوفتش: نتوقع الحصول على السلام، وبقاء البوسنة دولة، وإيجاد حل دستوري حق، من شأنه أن يجعل إمكانية إعادة توحيد البلاد بسبل سلمية أمراً ممكناً في المستقبل.

- شبكة سكاي نيوز: لقد زاد الضغط العسكري والسياسي على الصرب، هل تعتقد أن هذا الضغط كافٍ؟

- عزت بيغوفتش: لا، إنه ليس كافياً، لقد سببت الضربات الجوية خلال الأسبوع الماضي دماراً كبيراً للبنية التحتية فقط لجيش كارادجتش، فيما كان حجم الدمار الذي لحق بالأهداف المتحركة مثل الدبابات وقطع المدفعية ضئيلاً حسب معلوماتنا. ولم يتم تدمير آلة القتل التي تحاصر سراييفو، وما زالت المدينة معرضة للخطر.

- سكاي نيوز: هل أنتم مستعدون للانسحاب من مناطق معينة يسيطر عليها جيشكم الآن؟

- عزت بيغوفتش: فيما يخص رسم الحدود الداخلية للمناطق فإننا ما زلنا نعتمد ما تم الاتفاق عليه في خطة دول مجموعة الاتصال الخمسة، ولقد قبلنا ببعض التغيرات الطفيفة، ولكني أؤكد أن جيشنا لن ينسحب من أي مكان. نحن نريد أن نكسب مزيداً من الأراضي، لكن لن ننسحب من شبر واحد من الأراضي. إن ذلك غير وارد أبداً".

وأجريتُ بعد عشرة أيام في العاشر من أيلول (سبتمبر) تقييماً عاماً لنتائج مؤتمر جنيف في مقال خاص بعثت به إلى صحيفة أوسلو بودجينه اليومية في سراييفو:

"اتفق وزراء خارجية البوسنة والهرسك وكرواتية وصربيا على المبادئ الأساسية للسلام المستقبلي في البوسنة، وذلك خلال اجتماعهم في جنيف الجمعة الماضية.

لم يتم التوقيع على أي شيء، ولكن تم الاتفاق على ما سيصبح أساساً للمحادثات القادمة، وسوف أحاول أن أوضح وجهة نظري حيال ذلك. كان الأمر في جوهره عبارة عن قصة تنازل أو حل وسط، وكما تعلمون كان لكل تنازل وحل وسط جانبه المظلم.

علام تم الاتفاق في جنيف؟

يمكن تلخيص أهم المسائل في نقطتين:

١- سوف تبقى البوسنة والهرسك دولة موحدة، وذات سيادة، وعضو، في الأمم المتحدة، ضمن إطار حدودها المعترف بها دولياً.

٢- سوف تتألف البوسنة والهرسك في المستقبل من اتحاد البوسنة والهرسك الفدرالي مع جمهورية صرب البوسنة، بحيث تكون نسبة تقسيم الأراضي داخل إطار الدولة هي ٤٩:٥١ لمصلحة اتحاد البوسنة.

وهكذا فإنه يتوجب على الصرب أن يعترفوا بدولة البوسنة والهرسك التي خاضوا حرباً ضدها، بينما يتوجب علينا نحن أيضاً أن نعترف بجمهوريتهم التي قامت على أساس العدوان. وبالإضافة إلى ذلك فإنهم اضطروا لقبول نسبة ٤٩:٥١ للتقسيم الداخلي للمناطق، وهي النسبة التي رفضوها جملة وتفصيلاً منذ البداية، وألا يكون هناك اتحاد كونفدرالي لجمهوريتهم مع صربيا. إن هذه التفصيلات المهمة، خاصة وأن جمهورية صرب البوسنة أصبحت جزءاً من البوسنة والهرسك، وأنه لن يقوم اتحاد كونفدرالي مع جمهورية صربياً حجبتها وسائل إعلام كارادجتش عن الشعب الصربي، ولكن لن يغير التضليل ولا خداع النفس من واقع الأمر شيئاً.

و لماذا قبلنا بهذا الحل الوسط؟ إن الإجابة سهلة: قبلنا بذلك كي ننهي الحرب. فلقد عظمت معاناة الشعب وبؤسه كثيراً، بحيث يجلب كل يوم إضافي من الحرب المزيد من القتلى والمعاقين. ولذا بدأ صبر شعبنا النازح ولاجيئينا بالنفاد، وبدؤوا يفقدون الأمل في العودة، وما زالت أعداد اللاجئين في ازدياد بدلاً من أن تكون في تناقص، كما أن أعداد المنازل والمصانع المدمرة آخذة في الازدياد. فإذا ما كان للحرب أن

تستمر فإن المستقبل غير مضمون، خاصة بعد أن أرسل العالم رسالة واضحة لنا أخبرنا فيها أنه سوف يساندنا من أجل السلام، ولكن ليس من أجل الحرب. وإذا ما رفضنا هذا السلام الذي يدعوه العالم سلاماً عادلاً فلن يتم رفع حظر الأسلحة أبداً. وهناك إمكانية لممارسة ضغوط على البلدان المجاورة كي تقوم بعرقلة حصولنا على معونات وإطالة أمد الحرب، وبما أن الحرب بطبيعتها عملية يصعب السيطرة عليها فإن هناك إمكانية للتصعيد العسكري، بحيث تدخل أطراف أخرى مثل صربيا وروسية وهكذا دواليك، وإذا ما وصلت الأمور إلى ذلك الحد فستصبح المسألة مسألة إما أن تحصل على كل شيء أو على لا شيء، ويحتمل أن نفقد كل شيء.

ولكن موقف الغرب لا يبتعد عن المنطقية كما يصور دائماً. إن موقف الغرب تُمليه وسوف تستمر في إملائه مصالح الدول منفردة، بالإضافة إلى عامل خفي، وقلما يتحدثون عنه، ألا وهو الخوف من القنابل الذرية الروسية.

إن الخوف من تلك الأسلحة أكبر الآن مما كان عليه أيام الاتحاد السوفيتي السابق. فلقد كانت الأسلحة النووية حينها تحت السيطرة الكاملة، ولكن قد يظهر الآن بعض المفاجآت غير المرغوب بها. إن هذه الحقيقة يفكر الغربيون بها دوماً، ولكنهم لا يتحدثون عنها. هي حقيقة يتناساها حتى محللونا نحن، ومع ذلك فإنها هي السبب وراء التصرف المبهم للغرب. وسوف يستمر الأمر كذلك. ولذا فإننا عندما نتحدث عن الحرب والسلام في البوسنة يجب ألا نغفل هذا البعد المهم للقضية.

ويبقى العالم كما هو، ولا نستطيع نحن أن نغيّره. إن ما بوسعنا فعله هو أن نحاول التأقلم مع الأوضاع، وألا نغفل الحقائق المماثلة أمام أعيننا.

وماذا يجلب لنا هذا السلام الأفضل؟ سوف أحاول أن أبين ذلك من خلال قائمة:

١- سوف يحصل الاتحاد البوسني الفدرالي على ١٥٪ إضافة من أراضي البوسنة بما فيها بلدات بوساتسكا كروبا، وسانسكي موست، ودونيه فاكوف وياتيسه، وترنوفو وبرتشكو وأودجاك وجرفنتا ودوبوي وبوسانسكي برود وشاماتس وبلدات أخرى أيضاً. وسوف يحصل الاتحاد على ممر أرضي يربطه بغوراجدة مما يعني أنه لن تبقى غوراجدة مقطوعة عن باقي البلاد. وسوف يضم الاتحاد سراييفو على الأرجح،

بحيث ستبقى مدينة غير مقسمة، وأقول على الأرجح لأنه لم يتقرر ذلك بعد، ولكن يمكن اعتباره أمراً أكيداً، لأنه شرط لا نستطيع التنازل عنه.

٢- سوف يتمكن كل لاجئينا من العودة والاستقرار في هذا الاتحاد الموسع، وأن يعاودوا الحياة الطبيعية مرة أخرى.

٣- وسوف نحصل على مساعدات من أجل إعادة إعمار البلاد بدلاً من المساعدات الإنسانية. وسوف نستطيع إعادة توفير فرص العمل للقادرين عليه عندما نعيد فتح مصانعنا ومدارسنا وجامعاتنا، ومعها فرص حياه طبيعية للشعب، وستفتح المدارس للشباب، وسنوفر رواتب التقاعد للمتقاعدين. وأخيراً سوف نتمكن من توفير الرعاية المنتظمة لأسر المعاقين والشهداء.

٤- وأخيراً ومع تلك المبادئ الأساسية فإن عملية إعادة توحيد أجزاء البوسنة الواقعة تحت سيطرة التشتنيك يمكن لها أن تبدأ بشكل سلمي، وسوف يكون هذا أمراً شاقاً وصعباً للجيلين القادمين، ولكن سيكون هناك مطلبان أساسيان لتحقيق ذلك قد تم إنجازهما بالفعل، وهما:

أولاً: تحقيق مبدأ وحدة أراضي البوسنة وإقراره من قبل الدول المعنية في العالم، وهو ما تم التأكيد عليه بشكل رسمي بالأمس في جنيف.

ثانياً: لقد نجح الدفاع عن جزء من البوسنة، الذي أصبح الآن الاتحاد الفدرالي، و يجب تحقيق درجة عالية من الإيقاع ليواكب التطور السياسي والاقتصادي.

إن المتطلب الأول هو الأساس الرسمي لإعادة توحيد البوسنة في المستقبل، بينما يعد المتطلب الثاني الأساس المادي، ويعتمد مدى استغلالنا لهذه الفرصة علينا نحن، على مَن نحن، وعلى ما إذا كنا في موقع يخولنا في هذا الجزء من البوسنة خلق نموذج دولة تقدمية ديمقراطية تستطيع التغلب على الظلام الذي يخيم على الأجزاء المبعثرة لما يسمى "بجمهورية صرب البوسنة".

هناك بديل واحد فقط لهذا المسار، وهو استمرار الحرب، بحيث يمكن إعادة توحيد البوسنة عسكرياً من خلال الانتصار العسكري، ولكن هل بمقدورنا تحقيق ذلك؟،

كيف؟ وكم سيكلفنا ذلك خاصة من الضحايا؟ ثم كم سيكلفنا من الإصابات والقتلى والمشوهين واللاجئين طوعاً أو كرهاً، ويجب علينا أن نتحمل؟ إننا شعب صغير، فأين تقع الطاقة القصوى لتحمل هذا الشعب؟

ألم نتفق أن الحرب ستستمر في تدمير جوهر وأساس البوسنة، بينما يمكن للسلام أن ينقذها؟ ألم نتفق على أن استمرار الحرب يناسب مجرمي الحرب في بالة، وأنها تغذيهم وتقويهم، وأن السلام سيكون بطريقة أو بأخرى نهايتهم؟ إن التطهير العرقي هو ما يعمل على محو البوسنة. فقط انظروا إلى مدى التدهور الذي وصلت إليه الأمور خلال الأشهر الأخيرة بعد الفظائع في سريبرينيتسا، وجيبا وبانيالوكا. فعلى الرغم من نجاحات الجيش فإن البوسنة الآن أبعد من أن تكون مجتمعاً متعدد الأعراق مما كانت عليه قبل سنة من الآن. ألن يعمل استمرار الحرب على تفاقم الوضع أكثر؟

من أجل ذلك كله يجب أن نستمر بالقتال، ولكن فقط عندما نتأكد أنه لم يبق خيار آخر أبداً.

ولقد أجريت اتصالاً هاتفياً في العاشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥ مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك والسفير الأمريكي إلى سراييفو جون منزيز، وتناول الاتصالان نفس الموضوع. فلقد أبلغني كلاهما أن صرب كارادجتش لا يقومون بسحب أسلحتهم الثقيلة حول سراييفو على أساس اقتراحهم بأن جيش البوسنة والهرسك سوف يستغل الفرصة ليحتل أجزاء المدينة التي كانت تحت سيطرة الصرب. وعلى هذا الأساس فلقد طالب محامون صربيون في الخارج أن يتم وقف هجمات الناتو والأمم المتحدة ضد الصرب، ولقد عرضت على الجانبين الأمريكي والفرنسي ضمانات بأن جيش البوسنة والهرسك لن يقوم بأي عمل هجومي في منطقة سراييفو، وأنه لن يحاول أن يستغل الوضع عسكرياً بعيد انسحاب المدفعية الصربية، وذلك من أجل أن أبدد هذا العذر الملفق. إن جيش البوسنة والهرسك سوف يتمسك بالتزامه بهذا التصرف طيلة فترة المحادثات السياسية حول وضع سراييفو، على شرط أن تبدأ هذه

المحادثات حالاً وأن تصل إلى نتيجة خلال مدة زمنية معقولة. ولقد شددت على أن هذا الإقرار يدل على أن ذلك الالتزام لن يكون ساري المفعول في أي وقت يقوم فيه الصرب بمهاجمة المدينة.

ولقد قمت بلفت نظر الجميع إلى ضرورة تفادي تكرار ما حدث في شباط (فبراير) من عام ١٩٩٤ عندما زعمت قوات ملادتش أنها قامت بسحب أسلحتها الثقيلة، ولكنهم في الواقع قاموا بإخفائها، ومن ثم عاودوا قصف المدينة مرة أخرى.

ولقد جرى نقاش عاصف خلال جلسة الجمعية التشريعية لجمهورية البوسنة والهرسك في الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) حول الاعتراف بجمهورية صرب البوسنة. فلقد أبدى النواب اشمئزازاً من الفكرة، وألقى أستاذ في القانون كلمة مطولة عما يجب أن تكون عليه الدولة الحديثة والطبيعية داعياً إلى أن نتبنى ذلك النموذج. ولقد اضطررت للحديث كي أعيد الجميع إلى أرض الواقع:

"كنت سأصوت فوراً لقبول المقترح الذي قدمه لنا أستاذ الجامعة المحترم، ولكن أساتذة الجامعات يعرفون الكثير عن النظرية لكنهم جاهلون بالتطبيق العملي لكثير من القضايا.والمشكلة أنه لا يمكن القضاء على مثل هذا الشر بمجرد تبني إعلان بالكلمات.

فلو كان الأمر كذلك فلن نتردد في فعله لحظة واحدة، وسوف نعلن تبنينا لدستور مثل هذا، وتُحل المشكلة اليوم. ولكن لسوء الحظ فنحن لم نعتمد ذلك الدستور (النموذج) فسيبقى التشتنيك على سفح تريبفتش وسوف يستمرون في قتل أطفالنا وقطع إمداداتنا من الطاقة الكهربائية والوقود. وسأكون سعيداً لو قمنا اليوم بالتصويت على دولة المستقبل على شكل اتحاد كانتونات (مقاطعات) ليس على أساس قومي وإنما على أساس مختلط واستناداً على المعايير الاقتصادية. ولكننا وإن قمنا بذلك فلن ينسحب التشتنيك، بل سيستمرون في احتلالهم لزفورتيك بييلينا، ولن يتوقفوا عن إجبار شعبنا على الرحيل عن بانيالوكا، وسوف يضطر مليون شخص من شعبنا أن

يستمروا في العيش لاجئين أو نازحين. صحيح أنه يمكن أن يصبح عندنا دستور نفخر به، ولكن لن يحدث، ولن يتغير أي شيء بل سيبقى كل شيء على حاله.

يقولون: إنه ينبغي على المرء في السياسة أن يعد قائمة بما هو جيد ومرغوب، ومن ثم يقوم بشطب كل ما ليس بواقعي من القائمة والأشياء التي لا يمكن إنجازها لسبب أو لآخر. ولا يوجد شيء عديم الجدوى في السياسة مثل الحديث عن أفكار رائعة، ولكن لا يمكن تحقيقها فلا يوجد من ذلك كله أي طائل. إن مثل هذا الكلام المثالي قد يروق للشعراء وكتاب الأدب، ولكن القوانين التي تحكم السياسة هي قوانين مختلفة. إن حلاً وسطاً واقعياً أفضل من أفكار مثالية تبقى حبراً على ورق.

لقد كانت نجاحاتنا العسكرية في آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٥ وخاصة ضربات الناتو الجوية نقطة تحول من مسار الحرب. فلقد تغير الوضع العسكري ليصبح في مصلحتنا، ولكن كانت هناك نذر مشاكل نابعة من السلام والنجاح العسكري، ويمكن للمرء أن يرى تلك المعضلات والمخاوف في خطابي أمام جلسة الجمعية التشريعية البوسنية في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥.

"لقد وبخني بعضهم عندما قلت: لا أحد يقدم ضماناً من أجل وحدة أراضي البوسنة التي تنادي بها، فلا أحد يعطي في هذه الأيام ضمانات لأحد، فكلهم يقولون: حاول وقاتل واكسب واحصل على ما تريد بنفسك. ولذلك فأنا أقول هنا: إن بقاء جمهورية صرب البوسنة أو زوالها منوط بنا، فيما إذا كنا قادرين على الاستمرار من الناحية العسكرية أم لا. هل لدينا الشجاعة والقوة الكافيتان للقيام بذلك؟ وهل سوف يكون بمقدورنا أن نشكل في الأجزاء التي تسيطر عليها دولة البوسنة النموذج لتصبح نموذجاً يحتذى لمجتمع متطور ديمقراطياً واقتصادياً، هل سوف تتحول الأموال التي سيعطينا إياها البنك الدولي إلى مصانع أم سننفقها على السيارات ومنتجعات الاستجمام. هل سنسيء استخدام تلك الأموال أم هل سنوظفها للمصلحة العامة ولمصلحة الشعب، هل سيكون بإمكاننا القيام بكل ذلك؟ هل سنقوم بالقضاء على الفساد؟ وهل سنحافظ على الوعود التي قطعناها للجنود، وعلى التزاماتنا نحو عائلات معاقي الحرب والشهداء؟ أم أننا سنخون تلك الوعود والأمانات؟ إنني سأحصر هذه القضايا الحساسة عندما أقول: إن المستقبل يعتمد إلى حد بعيد علينا نحن، على مَن نحن، وماذا نحن؟

وتحضرني في هذا الشأن رواية حربية تقول: إن أول من يذهب إلى الحرب هم الجنود العاديون، ثم قادة المجموعات، ثم الضباط، ثم الأدميرالات، ثم الجنرالات، ثم الوزراء، وأخيراً تجار الحرب الاستغلاليون. هكذا تجري الأمور في الحرب، وعندما يحل السلام يقول أحدهم: "إلى اليسار دُر" ويكون رأس الطابور من استغلاليي الحرب يليهم الأدميرالات، ثم الجنرالات، ثم الوزراء وهكذا دواليك حتى نصل أسفل السلم فنجد ضباط الصف ويليهم المقاتلون الأقل حظاً، الذين فقد كل منهم ذراعاً أو ساقاً. هل سنكرر قصة الحقيقة المرة عن الحرب والسلام من هنا معنا أم لا؟

وسؤال آخر هنا، هل سنتمادى ونرتكب بعض الأخطاء فنثير نقمة العالم علينا؟ أم أننا سنستمر في أن نبقى شعباً جاداً مسؤولاً. إن النصر عبء وأنا لا أخشى الهزيمة، إن الهزيمة أمر تضعه خلفك وتتجاوز عنه، بينما يجلب النصر لك المشاكل التي بدت بوادرها تظهر لنا. وأتساءل هل بإمكاننا الآن بعد انتصارنا أن نبقى بشراً محترمين كما كنا تماماً عندما تلقينا الضربات، فقد نجحنا كما ترون فلقد نجحنا في الحصول على تعاطف العالم عامة والحفاظ عليه. وعندما نقول تعاطف العالم فإنني لا أعني بذلك تعاطف الحكومات ولكن تعاطف الشعوب، فلقد سافرت كثيراً خلال السنوات التي مضت، ورأيت نظرة الناس العاديين للبوسنة ما يعتقده الحارس في جنيف، ومسؤول الجمارك في نيويورك، ورجل الشارع العادي.

رأيت كيف يرحب بنا الناس العاديون، ولقد كنت قبل مدة في فرنسا، وشعرت بذلك كله هناك، إنني أعني أن العالم، بل أفضل جزء من العالم هم الشعراء، والفنانون المثاليون المجانين، حتى المغفلون والسذج، إن هؤلاء هم أحسن الناس عادة، وأولئك هم الذين إلى جانبنا.

وإلى قواتنا أقول:" لا تنسوا أنفسكم قبل كل شيء، إن النصر مصدر إغراء كبير، وتنطوي بعض الانتصارات على بؤرة هزيمة الشعوب المنتصرة، ولذا فإنه يجب علينا نحن الآن إذا ما كنا نحن المنتصرين أن نكافح كي نبقى على ما كنا عليه عندما كانت الأمور على أسوأ ما كانت إلينا، دعونا نستمر في احترام قوانين الحرب، وحماية السكان المدنيين الذين نمر بهم في المناطق التي نحررها، وأن نعمل جاهدين على معاملة الأسرى بموجب القانون".

وعندما زار الرئيس الكرواتي فرانيوتودجمان باريس في أواخر أيلول (سبتمبر) أجرى مقابلة مع صحيفة (لوفيغارو) تسببت بضجة كبيرة، وامتلأت صحفنا بمقالات عن تلك المقابلة، ووجه مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك الدعوة إليّ للتعليق على الأمر بتاريخ ٢٩ أيلول (سبتمبر)، ولقد كانت أسئلة المحرر على النحو التالي:

- بيلمن كارا محمدوفتش: كيف تعلّقون على التصريح الذي أدلى به الرئيس الكرواتي، تودجمان، الذي قال فيه: إن كرواتية تضطلع بمهمة "أَوْربة" البشناق أي جعلهم أوربيين بكافة المعايير، وإن اتحاد البوسنة الفدرالي قد تشكل لأن أوربة والعالم لا يمكن لهما أن يسمحا بقيام دولة مسلمة في أوربة؟

- عزت بيغوفتش: أولاً وقبل كل شيء فإن الرئيس تودجمان يعلم جيداً أن أوربة هي التي دفعتنا باتجاه تأسيس دولة مسلمة، ألم تكن تلك هي جوهر خطة أوين شتولتنبيرغ التي رفضناها؟ إن الشعب البشناقي قد قرر أن يسلك مسار الحصول على بوسنة موحدة ومتحضرة، وما زال يتابع السير حثيثاً على ذلك الطريق.

أما فيما يتعلق بقضية جعل المسلمين هنا مطابقين للمواصفات والمعايير الأوربية فنحن أصلاً بلد أوروبي، وشعب أوروبي أيضاً، ولا أقول ذلك نوعاً من الأفضلية بل إنها مجرد حقيقة من الحقائق أقرّ بها، فإذا ما ذهبت إلى أفريقيا وادعيت بأنني إفريقي فلن يصدقني أحد عندما يرون لون بشرتي. أعتقد أنه من الخطأ تقسيم العالم إلى فئتين: الأوربيين وباقي العالم. إن ذلك يشكل إهانة لباقي العالم، فأنا أعلم أن العديد من الشعوب والأمم تشعر بالإهانة جراء هذا التصنيف، وفي نهاية المطاف فإن كارادجتش وملادتش أوروبيون أيضاً، وكذلك الجنرال الذي دمر الجسر القديم في موستار، كان أوروبياً أيضاً. ولكن ذلك لم يجعل الأمور أفضل مما كانت عليه، أعتقد أن التقسيم الحق للناس يجب أن يكون على شكل فئتين، الأولى متحضرة، والأخرى بربرية همجية، وما عدا هذا التقسيم فإنه محاولات فارغة تسبب الإهانة.

- بيلمن كارا محمدوفتش: اسمح لي أن اطرح سؤالاً آخر يتعلق بالمقابلة مع الرئيس الكرواتي، فلقد كان من بين الأشياء التي ذكرها، في أثناء المقابلة أن هناك

عدداً من الأشخاص البراغماتيين (العمليين) في مصاف القيادة البوسنية، ماذا يعني أن تكون براغماتياً في هذا التصريح؟

– عزت بيغوفتش: حسناً، لا أعرف بالضبط، لكنني أعتقد أن ذلك يعني ما يعنيه بشكل عام، أن البراغماتيين هم أشخاص يرون الحقيقة، لكنهم يتظاهرون وكأنهم لا يرونها، الذين يسمعون ولكنهم يتظاهرون أنهم لا يسمعون، والذين يتذكرون ولكنهم يتظاهرون بأنهم قد نسوا، وهكذا دواليك. إننا نتظاهر في بعض الأحيان أننا لم نر أشياء بعينها مع أننا رأيناها، وأننا لم نسمع أشياء معينة مع أننا سمعناها، وأننا نسينا بعض الأشياء التي لا يمكن أن ننساها، وكل ذلك من أجل مصلحة شعبنا ومصلحة البوسنة والهرسك. إننا نكافح ونتطلع إلى المستقبل، ونحن على استعداد في بعض الأحيان أن نتجاوز عن بعض الأشياء بصمت عام في سبيل مصلحة عليا مثل مصلحة شعبنا وبلدنا، ولكننا في بعض الأحيان لا يمكننا التغاضي عن ذلك عندما يكون الأمر جوهرياً وضرورياً كما هو الحال هذه الليلة.

وأعتقد أنّ هناك شيئاً من الحقيقة في تصريح تودجمان، ونتيجته بأن بعض الأوربيين قد عهدوا إليه بمهمة جعل المسلمين أوروبيين، والحيلولة دون قيام دولة مسلمة في أوربة، إن العديد من الناس في أوربة وأمريكا مع وجود استثناءات مشرّفة كانوا ينظرون بعين الريبة إلى ما يحدث في البوسنة، فلقد كان يجب قمع وإخماد كل ما يعتبرونه جزءاً من نهضة إسلامية في البلد، ولقد قاموا بأشياء قبيحة جداً لتحقيق غايتهم تلك، وإحدى تلك الوسائل كان إضفاء صفة الإجرام على السلطات البشناقية في البوسنة والهرسك، وهي القضية التي سوف تتفاقم بعد نهاية الحرب، وتصل إلى أوجها في مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز في آب (أغسطس) من عام ١٩٩٩.

لقد كنت أعلم بوجود خلافات جوهرية بين الحلفاء فيما يخص قضية الاستمرار بقصف المواقع الصربية. فلم يكن سراً أن كلاً من فرنسا وإسبانيا وكندا واليونان كانت تعارض الضربات الجوية، بل لقد ذهب الروس إلى أبعد من ذلك، فهددوا بتقديم مساعدة مباشرة للصرب إذا ما استمر القصف على مواقعهم، وفي أوج هذا الجدل جاءتنا أنباء اجتماع هولبروك بكارادجتش

وملادتش في بلغراد. بعد أن أُعلن أن كارادجتش وملادتش هما مجرمي حـرب، ولكن يقولون: إن الغاية تبرر الوسيلة في السياسة، ولقـد صدمـت بهـذه الأنبـاء ولكنها جاءت بشيء وحيد جيد: فلقد وافق كارادجتش على سحب أسلحته الثقيلة وعلى إنهاء حصار سراييفو، وسنوقف الضربات الجوية مقابل هذا، كـان ذلك في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٥.

وأعلن هولبروك في أواسط أيلول (سـبتمبر) عـن عقـد اجتمـاع في نيويـورك يذهب إلى أبعد مما ذهـب إليـه اجتمـاع جنيـف، سـوف يهـدف الاجتمـاع إلى تحديد المؤسسات المركزية، وتوزيع المسؤوليات بـين الدولـة والكيـان، وتحديـد صلاحيات مجلس الوزراء والطريقة التـي سيتم بهـا انتخـاب الرئاسة والجمعيـة التشريعية في البوسنة والهرسك. ولقد كان فريق هولـبروك يعمـل بالتعـاون مـع موفدنا شاكر بيغوفتش الذي كان على اتصال دائم معنـا، كـانت الأمـور تسـير بشكل جيد، وكنا مسـرورين إلى حـد كبـير بمسـودة الاتفاقيـة التـي أنجـزت في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر)، والآن جاء وقت إقناع ميلوشيفتش.

سافر الفريق الأمريكي المؤلف مـن أويـن وهيـل ودرو إلى بلغـراد في الثـالث والعشـرين مـن أيلـول (سـبتمبر) مـن أجـل إجـراء محادثـات هنـــاك، وتركهـم ميلوشيفتش في باديء الأمر يتصارعون مع كارادجتش ورفاقه الذين لا يريـدون أي ذكر لمؤسسـات الدولـة، وقـام ميلوشـيفتش بـالتخلص مـن صـرب البوسـنة ولعب دور "صانع السلام" "ورجل النوايا الحسنة" وقبـل بجـزء كبـير ممـا رفضـه كارادجتش ورفاقه. ولقد جاءت خطوته هذه بعدما كان المفـاوضون قـد تعبـوا واستنزفوا جميع قدراتهم الذهنية وذكائهم، ولكنه لم يقبل بكل شـيء. فـإذا مـا قام المرء بمقارنـة الورقـة المطروحـة فإنهـا تبـدو علـى شـكل أفضـل بعـد تدخـل ميلوشـيفتش منهـا عندمـا كـانت بحـوزة كـارادجتش. ولكـن إذا مـا قـام المـرء بمقارنتها بما جاء به الأمريكان إلى بلغراد فإنها لم تكن صيغة مقبولة أبداً.

لقد كان يتم إعلامنا أولاً بأول بما يجري في بلغراد، ولكن الأمريكان ارتكبوا هفوة أخرى، فبدلاً من أن يعودوا إلى سراييفو كي يأخذوا موافقتنا على نص الاتفاق مرة أخرى قاموا بالتوجه إلى أمريكا مباشرة، ولقد أعلنا أننا لن نذهب إلى نيويورك، اعتقاداً منا بأن ذلك التصرف لم يكن منصفاً، ولقد كان الأمريكان قد قطعوا نصف الطريق حينها وتجاوزا إيرلندا عندما أمرهم وزير الخارجية وارن كريستوفر بالعودة إلى البوسنة. ويبدو أن ذلك لم يكن سهلاً، فبعد محاولة إقناع طويلة قاموا أخيراً بتغيير مسارهم وهبطوا في إيرلندا حيث أخذوا قسطاً من الراحة، ومن ثم قفلوا عائدين إلى البوسنة. ولقد بدأت بعدها أصعب جولة في المحادثات التي استمرت يوماً وليلة كاملين، تخللهما بعض الاستراحات القصيرة. وأخيراً بقيت مادة واحدة توجَّب الاتفاق عليها وكانت من أهم النقاط. لقد أصررنا على اتباع أسلوب الانتخاب المباشر للبرلمان والرئاسة، فيما أصر الطرفان الآخران على انتخابات غير مباشرة. لقد كان واضحاً أن كلا الموقفين نابع من فلسفتين سياسيتين مختلفتين. أرادت صربيا وكرواتية رئيساً ضعيفاً للدولة، بينما أردنا نحن رئيساً قوياً، اتصل بي هولبروك بعد منتصف ليلة الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر)، وأخبرته باختصار أنه يجب أن يكون هناك انتخابات مباشرة، وجاء فجر السادس والعشرين وهو يوم انعقاد المؤتمر، ولم يتم التوصل إلى أي اتفاق بخصوص هذه النقطة، وكانت الوفود ومئات الصحفيين قد اجتمعوا في نيويورك. واتصل بي وزير الخارجية كريستوفر قبل ربع ساعة من بداية المؤتمر، وطلب مني إنقاذ المؤتمر بأي ثمن، وعندها أخبرنا شاكربيغوفتش أن يقبل الوثيقة شريطة أن تعلن مجموعة الاتصال أنها تفهم كلمة انتخابات لتعني "انتخابات مباشرة" وأن يؤكد الجانب الأوربي بوضوح أنه يتبنى ويلتزم بوحدة أراضي البوسنة والهرسك، وأنه سوف يعارض أي نوع من التقسيم. وقامت مجموعة الاتصال بإعلان ما طلبنا.

وأما الأمريكان فلقد أكد الرئيس كلنتون شخصياً من جانبهم على الالتزام بذلك في أثناء انعقاد المؤتمر من خلال كلماته التالية:" إن البوسنة سوف تبقى

دولة موحدة ومعترف بها دولياً. إن أمريكا سوف تعارض بشدة أي تقسيم للبوسنة". وهكذا وصلت هذه الحلقة المثيرة إلى نهايتها.

لقد كان الأمريكان يصرون على إعلان وقف تام للهجوم البوسني - الكرواتي في غرب البوسنة ثم تنفيذه. وصحيح أن هولبروك شجعنا على أن نأخذ بريدور وبوسانسكي نوفي، ولكنه كان يعارض بشدة أي استمرار للعملية العسكرية باتجاه بانيا لوكا.

ولم يكن الأمر صعباً لإقناع تودجمان بذلك، خاصة بعدما عورضت فكرته بمبادلة توزلا ببانيا لوكا مع الصرب. ويبدو أن هذه الفكرة الغامضة قد اقترحها عدد من الدبلوماسيين الغربيين. ولم يعد لدى تودجمان أي اهتمام بمتابعة العملية العسكرية شرقاً. ولقد ساهم في ذلك الإنباء عن مقتل جنود الكروات في فيضان خلال محاولتهم عبور نهر أونا في ١٨ و١٩ أيلول (سبتمبر).

وهكذا أصبحنا بعد العشرين من أيلول (سبتمبر) وحدنا في المعركة ضد قوات كارادجتش والذين بدؤوا يحصنون مواقعهم بعد هزيمتهم.

وبدأت الأمور تتجه بهذا الخصوص في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر). وقبل كارادجتش وملادتش بالمقترح دون عناء كبير في إقناعهما، فلقد كنا نملك زمام الأمور عسكرياً باستثناء الانتكاسة الوحيدة قرب كليوتش. وكان الجيش الكرواتي قد أوقف عملياته بشكل نهائي، وبدأ الأمريكان يعربون عن معارضتهم لاستمرار القتال، وأعلنوا عن وقف تام للدعم اللوجستي الإيراني للبوسنة، والذي كان يصب عبر كرواتية.

وسبق ذلك كله إنذار بليغ تلقيناه. فلقد أصبح سلاح الجو التابع لكارادجتش فعالاً فجأة. فلقد كانت طائراتهم المقابلة تقلع من بانيا لوكا، ومن ثم تقصف قوافل قواتنا وقوات الكروات، أثناء تنقلها.

ولم يصدر أي رد فعل عن الناتو. ولذا فقد كانت الرسالة واضحة: يجب ألا يكون هناك منتصر في الحرب البوسنية، أو أن الصرب يجب أن لا يُهزموا تماماً مما يعني الشيء نفسه. ولقد أبلغني هولبروك خلال اجتماع موستار أن القصف سيتوقف من أجل إعطاء المحادثات فرصة، ولقد تم حينها تنفيذ ثلاثة آلاف وأربعمئة طلعة جوية. وأصبح الموقف كالتالي: لقد تم إضعاف مواقع الصرب بشكل كاف، ولا داعيَ للذهاب إلى أبعد من ذلك.

لقد كانت الحصيلة اليومية للقتلى في الحرب البوسنية حسب مصادر معلومات موثقة هو ١٥٠ قتيل عسكري ومدني. ومع الأخذ بعين الاعتبار كل الحقائق الماثلة أمامنا فلقد توصلت إلى استنتاج مفاده أنه ليس من خيار آخر.

وقمت في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) بالتوقيع على اتفاقية لوقف إطلاق النار، ولكن اشترطنا لإنهاء النزاع أن تحصل سرايفو على الوقود والكهرباء، وأن نحصل على طريق إلى غوراجدة يمكننا من إيصال المعونات الغذائية، ولقد اعتقدت أننا سنحصل بهذه الطريقة على عدة أيام إضافية تمكننا من الاستيلاء على بريدور وبوساتسكي توفي. ولقد قبل هولبروك بالشروط وقام بتضمينها في الوثيقة.

وعندما تم توقيع وقف إطلاق النار انتهى القتال في اليوم نفسه باستثناء منطقة كرايينا. لقد كان الجميع مرهقين من الحرب. يستطيع المرء أن يرى ذلك من خلال ٢٠٠٠ حادثة اشتباك مسلح تُسجّل يومياً. فلقد صرح الجنرال روبرت سميث على سبيل المثال أنه في ٢٤ أيار (مايو) ١٩٩٥ وحده قامت حوالي ٢٧٠٠ عملية عسكرية صغيرة وكبيرة على طول خط الجبهة، وفي مؤخرة الخطوط، ومما يشير إلى ضراوة القتال في البوسنة إلى مقتل ١٦٢ عضو وجرح ١٤٢٠ رجل من قوة المراقبة حتى تاريخ ١٦ أيار (مايو) ١٩٩٥.

وحسب معلومات وردت في التقرير الذي تم تقديمه للأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي وإلى مجلس الأمن. فقدت قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة حوالي ٢٠٤ جنود مع نهاية الحرب، وفقد الاتحاد الأوربي مراقبين، وفقدت الولايات المتحدة من مفاوضي السلام.

ولم يكن القادة العسكريون في كرايينا خاصة دوداكوفتش وألاغتش مسرورين من التوقيع على الهدنة، ويبدو لي أنهم قد بالغوا في تقدير قوتنا وإمكاناتنا، وأنهم لم يحسبوا للبعد السياسي حساباً بما فيه الموقع الأمريكي والمعارضة الكرواتية لاستمرار الحرب. ولقد هدد تودجمان أنه لن تمر ولا رصاصة واحدة إلى البوسنة عبر أراضيه.

ولقد أعطانا حدث آخر فرصة للتوقف والتأمل: إن انتكاساتنا في خسائرنا خلال هجوم الصرب المضاد بالقرب من كليوتش في نهاية أيلول (سبتمبر). لقد تُركت بلدة كليوتش التي حررناها في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) دون حماية لعدة ساعات.

إن الأزمة المتعلقة ببلدة كليوتش سيمر ذكرها في التاريخ كأكبر عملية مناورة قام بها جيشنا خلال الحرب. لقد كانت الطريقة الوحيدة لزيادة استقرار الجبهة على طول خط أونوكا - سانيتسا- كليوتش هي أن تحضر مزيداً من القوات من مواقعهم على الخطوط الأخرى وخاصة من وسط وشمال البوسنة كون قوات الفيلقين الخامس والسابع كانت مشتبكة في القطاع الشمالي ولقد استطعنا خلال ستة أيام من ٢ إلى ٧ تشرين الأول (أكتوبر) أن ننقل قوة من حوالي ٨ آلاف رجل باستخدام الطائرات العمودية، والحافلات والشاحنات التي نقلت أجزاء من لواء الحرس الخاص، وقوات خاصة من وزارة الداخلية، وفرقة البجعات السود الخاصة، وأجزاء من الألوية (١٤٦، ٣٠٩، ٢١٠، ٢٢٥) من فيسوكو، وكاكاتيه، وتوزلا، بانوفيتشي.

ولقد استمر الصرب في عمليات التطهير العرقي حتى خلال وقف إطلاق النار. وأرسلت رسالة بهذا الخصوص في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) إلى ريتشارد هولبروك، هذا نصها:

"واجهنا مؤخراً مشكلة تزايد عمليات طرد البشناق والكروات من مناطق البوسنة والهرسك الواقعة تحت الاحتلال من قبل صرب كارادجتش على الرغم من كل جهودنا الجادّة في الوصول إلى وقف لإطلاق النار. إن هذه العملية المشينة في إجبار الناس على ترك منازلهم قد تفاقمت بدلاً من أن تتوقف بعد اتفاقيات جنيف. وبحسب معلومات من مكتب اللاجئين والنازحين في وزارة اللاجئين فقد أجبر حوالي ٥ آلاف شخص على ترك منازلهم في بوسانسكي توفي، وبريدور، وبانيا لوكا، ودودربوي، وأماكن أخرى خلال عشرة الأيام الأخيرة فقط.

وبما أن هذا التصرف من قبل صرب كارادجتش يناقض روح ونص اتفاقات جنيف، فأرجو منكم أن تطلبوا من الرئيس ميلوشيفتش أن يوقف طرد السكان غير الصرب فوراً. والرجاء أن تطلبوا منه أيضاً أن يسحب قوات جيلكو أركان راجنياتوفتش أركان السيئة السمعة من أراضي البوسنة والهرسك.

ولقد وصلت إمدادات الوقود والكهرباء إلى سراييفو في ١١ تشرين الأول (أكتوبر)، وانطلقت قوافل المساعدات الإنسانية إلى غوراجدة، مما يعني أنه قد تم تحقيق شرط على تنفيذ وقف إطلاق النار. فلقد تدخل الرئيس الروسي بوريس يلتسين شخصياً لكي يضمن إعادة إمدادات الوقود إلى سراييفو. وتلقيت رسالة منه عبر السفارة الروسية في سراييفو طلب فيها أن يتم التوصل إلى هدنه في البوسنة، وأكد على التزام روسية بالحفاظ على سيادة ووحدة أراضي البوسنة والهرسك.

لقد كانت روسية إلى جانب الصرب من الناحية العاطفية، ولكنها بقيت ملتزمة بمبدأ وحدة أراضي البوسنة والهرسك، حين صرح وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف بذلك بقوله: "إن لدينا أسبابنا المحلية الخاصة". مشيراً

إلى الوضع داخل روسية نفسها. ولقد اغتنمت فرصة الرد على رسالة يلتسين كي أركز على تلك الحقيقة:

"أشكرك على رسالتك بتاريخ ٤ تشرين الأول (أكتوبر) إنني أتفق معك أننا على وشك الوصول إلى نقطة تحول هامة في إطار حل الأزمة البوسنية.

إنني آمل أن يتم إنجاز الخطوة الأولى المهمة في هذا الإطار من خلال تطبيق وقف لإطلاق النار في جميع أنحاء البوسنة والهرسك بدءاً بالساعات القليلة القادمة.

لقد كنا نعتقد دوماً وما زلنا أن بإمكان روسية القيام بدور أساسي في حل المشاكل في البلقان، ما بين الدول التي انبثقت من تفكك الاتحاد اليوغسلافي، ونحن نتفهم مصالحكم واهتمامكم في هذا المجال.

إننا نثمن عالياً الدعم الذي تقدمه كل الهيئات الحكومية في الاتحاد الروسي لمبادرات السلام التي طرحت حتى الآن بشأن البوسنة والهرسك. إن دعمكم الشخصي لمبدأ وحدة أراضي جمهورية البوسنة والهرسك والموقف المبدئي الواضح لحكومتكم بهذه القضية يلقيان ترحيباً ورضا هنا في البوسنة".

ومع ذلك فلقد استمر القتال في منطقة كراينا. ولقد زارني في الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) السفير الأمريكي الجديد جون مينزيز الذي كان قد قدّم أوراق اعتماده قبل عدة أيام فقط. ونقل إليّ تحذيراً من أمريكا أنه يجب احترام اتفاقية وقف إطلاق النار، وكان الجنرال راسم ديلتش قد أصدر الأوامر بهذا الصدد فعلاً، ولكن القتال في كراينا لم يتوقف. وترددت أنباء غير موثوقة أن بانيا لوكا على وشك السقوط، وكانت طوابير من اللاجئين الصرب تغلق الطرقات من ممر بوسافينا متجهين نحو صربيا، وهدد ميلوشيفتش بالتدخل مباشرة في النزاع العسكري الدائر، خاصة بعدما واجه ضغوطات هائلة من موجات اللاجئين الصرب، وانتقادات كارادجتش وملادتش بالإضافة إلى التهديد الذي يمثله أولئك اللاجئون الغاضبون المخدوعون لنظام حكمه. ولقد ذكرت فرقتان صربيتان أو ثلاث، تستعد للتدخل إلى جانب قوات كارادجتش.

ولم أصدق ذلك على العكس من الأمريكان الذين صدقوا تلك الأنباء. ومن ثم جاء السفير مينزيز لمقابلتي مرة أخرى، وقام هذه المرة وبنبرة حادة بنقل رسالة من الناتو تحمل تهديداً بأن يقوم الحلف بتوجيه ضربات جوية ضد قواتنا إذا لم يتوقف القتال. ولقد أضاف بأن هذا تهديد حقيقي، وأنه سيتم تنفيذه. ولقد طلبت من الجنرال راسم ديلتش أن يذهب بنفسه إلى منطقة كرايينا نظراً لأن الاتصالات الهاتفية والبرقيات لا تلقى آذاناً صاغية هناك. وقام الجنرال ديلتش بنفسه بتنفيذ وقف إطلاق النار وتوقف القتال أخيراً في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر). ونجحنا قبل ذلك بيوم في تحرير سانسكي موست وهي آخر بلدة تم تحريرها في تلك الحرب.

وهكذا فإن الحرب التي استمرت ١٢٨٠ يوماً، وكلفت الكثير من الخسائر البشرية والماديّة وضعت أوزارها، ومن ثم كانت تنتظرنا محادثات السلام الشاقة.

الفصل السابع

يوميات دايتون

خطة السّلام ذات السّت عشرة نقطة. خطاب في الجلسة الخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة. اجتماع مع الرئيس بيل كلينتون..اجتماع مع محمد علي. تصريح عن السلام. معرض جوي في قاعدة رايت- بيترسون الجوية. محادثات مع ميلوشيفيتش وبولاتوفيتش. محادثات مع جرانيش وشوشاك. القسم الأول من الإطار العام لاتفاقية للسلام. توازن الأسلحة في المنطقة. البنك المركزي والعملة. إيفور-قوة التنفيذ المتعددة الجنسيات. مسألة الانتخابات. مؤسسات. قضية سرايفو. دهليز إلى غوراجده. توقيع اتفاقية تطبيق الاتحاد. حول تودجمان. محادثات مع وزير الخارجية الأمريكي كريستوفر. خرائط، خرائط، خرائط. محادثات مع بيلدت وثلاثة مدراء شؤون خارجية أوروبيين. ثوار زوباك. محادثات مع شاتوك. إشراف على الانتخابات.تصويت المهاجرين والمهجّرين. محادثات مع أنتوني ليك. تحفظات على مشروع "دلتا". محادثات مع الوزير ويليام بيري. ميلوشيفيتش يتراجع. قوة التنفيذ تقوم بدوريات الشرطة في البوسنة والهرسك بأكملها. رواق بريتشكو. ميلوشيفيتش يسلم سرايفو ولكن ليس بريتشكو. انهيار المحادثات لليلة واحدة. ميلوشيفيتش يوافق على التحكيم على بريتشكو. الرئيس بيل كلينتون يعلن السلام. وقّع عليه بالأحرف الأولى في دايتون ووقّع نهائياً في باريس. خطابات. إلغاء حالة الحرب. بيان لصحيفة الموندو (العالَم): الحرب الأهلية-خدعة.

لقد قمت في حياتي الطويلة بالأعمال الكثيرة جداً: ولكوني محكوكاً عليه حفرت الأرض، وحملت الملاط، وقطعت الخشب، وبعد أن أصبحت رجلاً حراً، أدرت موقع إنشاءات، وصرت مندوباً في المحاكم. وكتبت مقالات صحفية. وما زالت أصعب مهنة لدي هي المفاوضات. وأَن تُفاوض معناها أن تُقَرِّر، واتخاذ القرار هو العمل الأصعب للكائن البشري غير المحظوظ.

وكانت مشكلتي أنني لم أستطع كسب سلام مُرضٍ ولا قيادة حرب مرضية. فالمفاوضات كانت تعقد في ظروف ابتزاز وتهديد بسيف مُسلَّط فوق رأس البوسنة. وأيضاً فقد هوجم شعبي بأعداد هائلة ذات تسلح كبير، وكانوا عرضة لمعاناة مريعة. والسلام المقترح لم يكن متعارضاً مع مبادئي فَحسب، ولكن كذلك مع العدالة في أدنى درجاتها. وبصعوبة قبلت سلاماً كهذا، حتى إنه كان من الأسهل عليَّ العودة إلى الوطن حاملاً رسالة استمرار الحرب. كانت معضلاتي صعبة لدرجة وأني شعرت بأنني مصلوب.

وقبل عشرة أيام من بدء مفاوضات دايتون، حددت في اجتماع للمجلس التنفيذي لحزب العمل الديموقراطي (٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥) أهدافنا. وهذا هو برنامجي لشهر آب (أغسطس) المكوّن من اثنتي عشرة نقطة، وفي هذه المرة، هُو مَطروحٌ بتفصيل أكبر:

١- إن هدفنا هو الحفاظ على البوسنة والهرسك كمنطقة موحدة ذات سيادة. ويمكن إنجاز هذا الهدف من خلال وسائل عسكرية وسياسية، وأعتقد أننا وصلنا النقطة المبتغاة عند توقف الحرب. وبناءً عليه فإنه يمكننا مواصلة الطريق باتجاه بوسنة وهرسك موحدة من خلال الوسائل السياسية. وفي هذا الإطار فإن مفاوضات السلام المقبلة ستختبر مدى صحة هذا التوقع.

٢- إن المؤسسات العامة ووظائف الدولة تضمن وحدة البوسنة. ومن بين هذه المؤسسات مجلس الأمة والرئاسة والحكومة والمحكمة التأسيسية ومصرف مركزي لإصدار النقد. والوظائف هي: الشؤون الخارجية والاتصالات والنقد، والجمارك

والتجارة الخارجية والميزانية، والتمويل على مستوى الدولة. وإن الجانب الصربي سيفعل كل شيء لتخفيض عدد الوظائف المشتركة. ومصلحتنا هي -بالطبع- عكس ذلك.

٣- في الوضع الحالي، وبخصوص التكافؤ المحتمل لتكوين الأجهزة العامة، إن المشكلة الرئيسية هي احتمال إحباط وظائف المؤسسات العامة عن طريق حق النقض. ونحن نريد دولة يمكنها أداء وظائفها، ولن نسمح بإعادة وضع ١٩٩١-١٩٩٢. وبسبب حق النقض، لم يمكن التوصل إلى أي قرار ذي أهمية كبيرة. وإننا نحتاج إلى(أ) بوسنة موحدة و(ب) دولة يمكنها أن تقوم بوظائفها. ويبدو أن هذين المطلبين متناقضان، والمهمة أمامنا الآن هي فك هذه العقدة. ويقترح البعض اتخاذ القرار بحسب الغالبية، وعندئذ سيكون هناك خطر حقيقي في توصل طرفين إلى اتفاق يؤذي الطرف الثالث. وقد يكون الطرف الثالث هو الطرف البوسني. وقد يكون المَخرج هو تطبيق آلية غير محبطة، وقد تشمل المحكمة التأسيسية في هذه الحالة قضاة أجانب. وعلى أية حال فإن طريقة اتخاذ القرار وإمكانية حجبه تبقى المسألة الأكثر خطورة التي تواجه البوسنة كدولة تأسيسية.

٤- إن إحدى الخطوات الهامة في إعادة توحيد البوسنة هي الاتحاد البوسني-الكرواتي. وهذا أمر مُعطل، وما تم الاتفاق عليه من تقسيم البلاد إلى أقاليم لايحصل الآن، أو أنه يُطبّق ببطء شديد. والحكومة الاتحادية -هي بالفعل- حكومة قسم واحد من المنطقة الاتحادية، وهذا القسم هو الواقع تحت سيطرة جيش جمهورية البوسنة والهرسك. أما بالنسبة إلى الجَانب البوسني الواقع تحت سيطرة مجلس الدفاع الكرواتي- المسمى حكومة الهرزغ بوسنة - فإنّه لا يزال يعمل، ولا تصدر عنه أيّ مؤشّرات على نيته بحل نفسه. وبهذا الصدد، تُعتبر قضية تشكيل شرطة اتحادية وعودة اللاجئين من المسائل الراكدة. ويجدر بنا القول أيضاً في هذا الإطار: إن حرية الحركة مقيدة في الكثير من المناطق. لذلك لا بدّ من بذل جهد جديد من أجل الانتهاء من إنشاء الاتحاد، ذلك لأن هذا في مصلحتنا الحيوية. وفي اجتماع اليوم وضمن البند الثاني من جدولنا اليومي، سيضع البروفيسور جانيتش برنامج عمل قد يقود إلى ما

نبتغي. ويُعتزم على إنجاز هذه الأفعال في الوقت ذاته أو في تقارب زمني كل مع الآخر. وسيتم التنسيق الجزئي لهذه الخطة مع الجانب الكرواتي.

٥- يجب أن تكون خارطة مجموعة الاتصال سارية المفعول في حال عدم التوصل إلى اتفاق على إجراء التغييرات. ولن نتنازل عن المطالبة بكل من غوراجده وبرتشكو كما أوضحنا للوسطاء الأمريكيين في مناسبات عديدة.

٦- وبخصوص سراييفو، لدينا بضعة خيارات، ولكن جميع الحلول قائمة على مفهوم مدينة استثنائية غير مُقسمة، هذا إلى جانب مشكلة الوظائف المشتركة، ومن المؤكد أنها النقطة الأصعب في المفاوضات. وبخصوص هذا، يُوصى بأن نتقدم في الحال نحو إعادة تنظيم مدينة سراييفو عن طريق تشكيل إقليم سراييفو، ملتزمين بالتوجيهات التي هي-وفقاً للدستور الاتحادي - صالحة لتشكيل الكانتون (الأقليم). وعلينا أن نمارس أقصى درجات الحذر وأن نبقى ملتزمين حدود في المستوى والآليات خلال نقل السلطة من البلديات إلى الإقليم. فالدستور الاتحادي لا يتطلب نزع سلطة البلديات بشكل إلزامي ولا آلي ويسمح بحلول مرنة في هذه القضية، وإن نقل السلطة من البلديات إلى أقاليم يجب أن يكون نهائياً وتدريجياً.

٧- إن اتفاقية السلام -إذا كان هناك شيء سيوقَّع- يمكن تنفيذها فقط بمساعدة قوى دولية قوية؛ إذ لا يمكن تنفيذها من قبل قوات الحماية الدولية، ولكن يمكن تنفيذها فقط من قبل قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وبالطبع ُيلحَق بها جنود آخرون من دول صديقة. فإذا كانت روسية ستقوم جنودها، فإن عددهم يجب أن يكون متوازناً مع عدد جنود الدول الإسلامية.

٨- يجب أن تُنشر قوات تطبيق السلام على شكل حاميات في كُل من البوسنة والهرسك، وإنه من غير المقبول بالنسبة إلينا أن تنشر فقط على الحدود.

٩- يجب أن يتم تمويل الجنود القادمين من الدول الإسلامية من قبل الأمم المتحدة.

١٠- لايجوز للقوات العسكرية الدولية الخاصة بتطبيق السلام أن تتدخل في الجهود الدفاعية لجيش البوسنة والهرسك.

١١- قد تمكث القوات العسكرية الدولية لتطبيق السلام في أرض البوسنة والهرسك مدة سنة، تُمَدّد فقط بناء على طلب الرئاسة البوسنية.

١٢- قد تمكث القوات العسكرية لجمهورية كرواتية في أراضي جمهورية البوسنة والهرسك لمدة ثلاثين يوماً كحد أقصى بعد توقيع السلام، والتي ستمدد فقط بناء على طلب رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك.

١٣- نرحب بجاهزية المجتمع الدولي لتزويد الدعم الاقتصادي لإعادة بناء الدول المتضررة من الحرب في جمهورية يوغسلافيا السابقة، وخصوصاً إعادة إعمار جمهورية البوسنة والهرسك. وعلى أية حال، فإننا نطلب بوضوح أن تكون هذه المساعدة وفقاً للشروط التالية:

أ- احترام الدول المجاورة لوحدة أراضي البوسنة والهرسك.

ب- احترام حقوق الإنسان واحترام حقوق الأقليات القومية.

جـ- احترام المُهاجِرين والمُهَجّرين وحقهم في العودة إلى بيوتهم.

وبهذه الطريقة لن تكون البلدان الغربية قادرة على مواصلة ارتكاب الأخطاء من خلال الموافقة على تنازلات جديدة غير مبدئية. وكما يعلم الجميع فإن المساعدة الاقتصادية -كما تجمع كل الأطراف التي تحتاجها- ما هي إلا أداة قوية لإقناع القيادات العامة ببدء المسير في طريق احترام القانون.

١٤- تعتبر الانتخابات الديموقراطية في جميع أرجاء البوسنة والهرسك فرصة عظيمة لخلع الأنظمة المجرمة والقوميين المتعصبين. وهذه فرصة يجب عدم تفويتها، وهو الأمر الذي قد يحصل في حال عدم ضمان شروط الانتخابات الديموقراطية الحقيقية. ولتحقيق هذا، من الضروري:

أ- ضمان الحد الأدنى اللازم من الحرية (حرية نشاط الأحزاب السياسية، وحرية الصحافة، والسلامة الشخصية، وسلامة ممتلكات المواطنين، إلخ)

ب- إعادة الجزء الأكبر من المواطنين المطرودين إلى بيوتهم.

جـ- تسهيل المراقبة الدولية للانتخابات.

د- المساعدة على عقد الانتخابات أثناء وجود قوات الأمن الدولية لحفظ السلام. أما الانتخابات البرلمانية والرئاسية فيجب أن تكون مباشرة.

١٥- عدم السماح للأشخاص الذين اتّهمتهم محكمة لاهاي بارتكاب جرائم حرب بالاشتراك في الانتخابات.

١٦- قد يكون من المفيد إنشاء مفوضيات ومجالس مُختلطة من أجل استقبال ومساعدة اللاجئين في جميع الأجزاء الكبيرة من جمهورية البوسنة والهرسك.

وبعد عشرة أيام سافرت إلى أمريكا مرتين، ومكنتني الفرصة الأولى من التكلّم أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. وهناك أبديت آرائي في السلام ورؤيتي للبوسنة في المستقبل. وهذا هو الخطاب الذي ألقيتهُ في الرابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر):

خطاب في الجمعية العامة للأمم المتحدة

نيويورك ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥

إن الأمم المتحدة التي نحتفل بيوبيلها اليوم، كانت مصدراً دائماً لأملنا، ولكنها كانت أيضاً السبب في خيبة أملنا. ويقول بعض النّاس في الوقت ذاته: إنها النظام الأعظم والأقل فاعلية في التاريخ البشري. وعدد القرارات غير المنجزة يثبت هذا. بما أن هذا هو الحال، فإنه من المحتمل أن منظمتنا تعكس عدم كمال عالمنا. وإذا لم يكن الإصلاح المتلاحق للعالم مجدياً، فإن المزيد من تحسين العالم ليس مطلوباً فقط، بل هو ممكن كذلك.

إن هدفنا الأسمى هو الحفاظ على السلام. وفي هذا الإطار أسهمت الأمم المتحدة في منع حرب عالمية، إلا أنها في الوقت نفسه أثبتت بأنها أقل فاعلية في إيقافها النزاعات الإقليمية. وعلى أية حال، فإن مقدار تبعات الكوارث في الحروب المحلية منذ تأسيس الأمم المتحدة حتى هذا اليوم لمأساوي. لقد عملت الأمم المتحدة بفاعلية

لإيقاف الأزمة الخليجية، ولسوء الحظ، لم تكرر هذه الفاعلية في مسألة العدوان على بلدنا، وكان ثمن التردد مرعباً.و قد دفع شعبي هذا الثمن الباهظ.

أرغب في تكرار كلمات وزير الخارجية الجورجي، الذي قال وهو يقف أمام هذه المنصة ذاتها: "علينا أن نمتلك الشجاعة والإرادة لتسمية العدوان باسمه، وأن نسمي الإبادة الجماعية باسمها."

وكما تعرفون، كان هناك في أحيان كثيرة جداً افتقار إما إلى الشجاعة وإما إلى الإدارة، وفي بعض الأحيان إلى كليهما.

وفي غضون يومين ستبدأ مفاوضات السلام في البوسنة، وإننا نتقدم نحو هذه المبادرة التي بدأتها أمريكا ورئيسها بكل صدق وأمل. وإن شعبنا يحتاج السلام ويريده؛ حيث إننا لم نبدأ الحرب–ومع أننا نكسبها– فنحن لم نحلم أبداً في كسب حرب. ولقد عملنا دائماً لصالح السلام ونريد أن نكون فائزين من خلال السلام.

إننا نرغب في إيجاد مجتمع قائم على التعددية السياسية والعرقية، واحترام حقوق الإنسان وشركات المقاولات الخاصة. وحيث إن لكل شيء عكسه في جانبه الآخر، فإن أفكارنا–ونحن متأكّدون من ذلك–ستنتصر في اللعبة السياسية في غضون السنوات الخمس إلى العشر القادمة. والشكر–في هذا المقام– يُنسب للتفوق الاستثنائي لمجتمعنا ولنموذج بلدنا، وسوف نكسب بعون الله.

إن الحكومة والجيش البوسنيّين لن يقبلا تجزئة البلاد وتقسيمها، بغض النظر عن الإطار الذي تقوم به، حيث إن تقسيم البوسنة قد يقود إلى استمرار الحرب، سواء على الفور أو فيما بعد.

إن الانتخابات الديموقراطية الحرة في البوسنة هي فرصة ضخمة حقيقية –إن لم تكن الوحيدة – لإزاحة مجرمي الحرب والمتعصبين القوميين الذين بَدَؤوا الحرب، والذين سيواصلون دس السم في العلاقات بين الشعوب والأمم عن طريق الوظائف القيادية والعسكرية. لذلك يجب وضع شروط تضمن أن لا تضيع هذه الفرصة الأخيرة للديموقراطية في البلقان، وهذه الشروط هي الحرية والإشراف الدولي الفعَّال على

الانتخابات.وإذا ما وصلت مفاوضات السلام إلى نهاية ناجحة، فإن ذلك يجب أن يتبع بإعادة إعمار لمناطق دمرتها الحرب، وخصوصاً في البوسنة، لاسيما أن المجتمع الدولي قد وعد بدعم كبير لخطة إعادة الإعمار. وفيما يتعلق بهذا الجانب فإنني أتقدم باقتراح قد لا يكون متوقعاً: ضعوا شروطاً لهذا الدعم. أرسلوا رسالة واضحة بأن الجانب الذي لن يحترم حقوق الإنسان والحريات لن يحصل على المساعدة. واتخذوا قرارات بخصوص الاحترام الصارم لهذه الأحكام، ولا ترتكبوا الأخطاء مرة أخرى أملاً في شراء أو تحسين مجرمين أو طغاة من خلال امتيازات جديدة. واتخذوا خطوة جديدة: اعزلوا المجرمين والطغاة؛ وهذه هي -في طبيعة الحال- الطريقة الوحيدة.

إن الرجال الذين قادوا الشعب إلى طريق الإجرام يجب إزاحتهم، وبدون هذا لن يكون هناك سلام أو سلامة لا في البوسنة ولا في المنطقة.

إنّ لدينا الرغبة والحق في توحيد البوسنة، التي لم تتفكّك بإرادة شعبها، ولكن بقوة السلاح. والاتحاد البوسني -الكرواتي خطوة هامة في هذا الاتجاه، وعلى جميع أصدقاء البوسنة أن يدعموا ويساعدوا هذا المشروع.

ولتحقيق السلام- ولكي يُكتَب له البقاء- يجب أن يكون هناك توازن في التسلّح. ويمكن تحقيق هذا التوازن بمستويات عليا ودنيا. وإننا ندعم الخيار الثاني ونطالب بتخفيض المدفعية الصربية الثقيلة، وإذا لم يقبل الصرب هذا، فإن الخيار الوحيد هو إمداد الجيش البوسني بالمعدات، والذي إذا ما تمّ تعزيزه فإنه سيصبح عامل سلام واستقرار في المنطقة.

أما الآن، فإنّ جميع مدننا تقريباً في مدى نيران المدفعية الصربية. وهذه المدفعية يجب أن تُزال أو تُدمر. ولا يمكننا، ولن نقبل، مواصلة العيش تحت تهديد دائم. وأخيراً، جرى في اليومين الماضيين إلقاء الكثير من الخطابات. وسمعنا الكثير من الكلمات الجميلة والسامية التي تتحدث عن الديموقراطية والحرية، وكل شيء يتماشى معها. وعن الحرية والعدالة تكلم أناس داسو هم أنفسهم على الحقوق الأساسية للإنسان وما زالوا يواصلون فعل ذلك. ويقول أحد الكتب المقدسة القديمة: "احكموا عليهم بأفعالهم"، دعونا نستمع لما يقولون، ولذا اسألوهم عما يفعلون. وفي اللحظة التي

يعودون فيها إلى أوطانهم فإنهم سيواصلون فعل الأشياء على طريقتهم. وبالطبع، سيكون هذا هو الحال إذا سمحنا لهم بذلك.

وبعد خطابي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، استقبلني الرئيس كلينتون في فندق والدورف آستوريا في نيويورك، وتلقيت أخباراً هامة خلال هذا الاجتماع: لقد وافق الروس على وضع قواتهم في البوسنة تحت إمرة حلف شمال الأطلسي، الأمر الذي يعني من الناحية العملية أن يكونوا تحت السيطرة الأمريكية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يحصل فيها هذا الأمر في تاريخ حلف الشمال الأطلسي.

في فترة وجودي هذه في أمريكا، تحققت أمنية أخرى لي، قابلت محمد علي، أسطورة الملاكمة. وكان قد قدم إلى نيويورك في ذاك اليوم –ولا أتذكر من أي مدينة– يرافقه مدير أعماله. وكان الشيء الأول الذي قلته له هو أن اسمي علي. وقال إنه عرف ذلك، وأومأ برأسه. كان محمد علي لا يزال يبدو بحالة جيدة، ولكن كانت لديه صعوبات في الحركة والكلام. وشعرت تقريباً بقرب أخوي من هذا الرجل. فلسنوات طويلة جميع مبارياته في الملاكمة، وعندما أمكنني ذلك، هتفت له مشجعاً، وبالطبع لن أنسى المباراة المشؤومة بين محمد علي وفريزر التي حصلت قبل ثلاثين سنة. وكانت سراييفو مستيقظة طوال الليل، إلى أن بزغ الفجر وهي تعسة. وبابتسامة ذكية على وجهه، عرض عليَّ محمد علي مباراة في الملاكمة، رافعاً يده باتجاه وجهه، واتخذ وقفته، وقبلت اللعبة. كان محمد علي ولداً كبيراً، ومضت الأمور لصالحه في أن رياضة قاسية مثل الملاكمة يمكن أن تُدعى "مهارة نبيلة". وعند عودتي إلى البوسنة، كان الناس الذين سألوني عن مواجهتي لمحمد علي أكثر من الذين سألوني عن مواجهتي للرئيس كلينتون.

كانت الجماهير في يوغسلافيا ملقنة عقائدياً من قبل الدعاية القومية، وكان القادة أسرى وحش صنعوه في الغالب بأنفسهم. والكثيرونَ الذين عرفوا

ميلوشيفتش تعجبوا فيما إذا كان هو نفسه قومياً، أو فيما إذا كان قد استخدم القومية كأداة سلطة. ولدعمه واختياره، كان عليه إقناع الصرب بأنه كان صربياً عظيماً. وبهذا الصدد، فإن القول بأن "الناس يحكمهم القادة الذين يستحقونهم" قولٌ صحيح.

شعرت بكراهية تجاه مآدب الغداء الرسمية وللاجتماعات السياسية غير الرسمية بشكل عام، وبَدا لي أنه أمر غير طبيعي أن آكل وأحاول الدردشة مع أناس ليسوا بأصدقائي الحميمين. وعليّ أن أعترف أنّ الأمر استغرق مني وقتاً طويلاً كي أُدرك أن الابتسامات والتحيات الدبلوماسية الودودة تعني لاشيء. ذلك لأنه في الوقت ذاته قد يوقعون وثيقةَ موتك. وعلى العموم ليس هناك عباقرةٌ أو رجالٌ تُعجب بهم بشكل خاص في السياسة. إن العباقرة الحقيقيين هم رجال العلوم والآداب. أما السياسيون فإن كل واحد منهم متوسط العبقرية، سواءٌ منهم "الكبير" أو "الصغير". أما الأطماع والأهواء فهما الأمران الوحيدان اللذان يتميزان عندهم بالتضخم. وبالطبع هناك استثناءات نادرة.أما مآدب الغداء السياسية فما هي في النهاية إلا ابتساماتٌ متصنعةُ وتفاهةٌ وتكلفٌ وتمثيلٌ، وجميعها مبَهّرة بطعام لا تحبه.

الأول من تشرين الثاني (نوفمبر): كانت مآدب الغداء والعشاء جزءاً من بروتوكول اتفاقية دايتون. وقد حاولت تجنبها بقدر الإمكان. وقد تم الشروع بعقد اتفاقيات السلام في أحد مآدب الغداء الرسمية في فندق هوب في قاعدة رايت-بيترسون الجوية الأمريكية في دايتون، أوهايو. وقد كان هذا في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٥. وقد ضم وفدنا -بالإضافة إلي- كل من حارس سيلادجتش وكريشيمير زوباك، ويادرانكو برلتش، وميرولازوفيتش، وايفو كومشيتش، ومحمد شاكر بيغوفتش وكذلك ضم خبراء قانونين مثل قاسم ترنكا، وقاسم بيغتش وجميل صبري حافظوفتش.

وكان وزير الخارجية وارن كريستوفر والسفير ريتشارد هولبروك قد عقدا قبل الغداء محادثات منفصلة مع كل وفد من الوفود الثلاثة: نحن والصرب والكروات. وفي الجلسة المكتملة الحضور التي تلت قدّم كلٌّ مِن وارن كريستوفر وكارل بيلدت وتودجمان وميلوشيفتش -بالإضافة إلَيّ- عرضاً تمهيدياً.

أشار كريستوفر إلى جاهزية الولايات المتحدة الأمريكية للمساعدة على الحفاظ على دولة البوسنة والهرسك كدولة متميزة في خصوصيتها، وعلى تأسيس الاتحاد والمحافظة على شخصية جمهورية البوسنة والهرسك كدولة متعددة العرقيات. وقد أجرى مقارنات مع مفاوضات كامب ديفيد في تشديده على ضرورة عدم التواصل مع الصحافة. وأضاف أن الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية، وبعد مشاورات مع مندوبي الوفود، قد يقدم بيانات للصحافة. وأشار كريستوفر إلى اهتمام الرئيس بيل كلينتون في كل ما كان يحدث في المفاوضات، وتحدث أيضاً- وهذا في اعتبارنا أمر ذو أهمية خاصة- عن تفضيل الولايات الأمريكية في الحفاظ على سراييفو فريدة كعاصمة للجمهورية.

وبدوري قلت:

إننا هنا لنفاوض بإخلاص. وإنا لمصممون على فعل كل شيء نقدر عليه لتحقيق سلام صالح ودائم. وأيّاً منهم أتى حاملاً النية ذاتها التي نحملها فإنه سيجد مفاوضين ليّني الجانب من طرفنا.

لقد عبرنا عن شروطنا للسلام بوضوح كبير بأمثلة كثيرة راهنة، ولا زلت أعتبر أنه من الضروري تكرار وجهةنظرنا هنا اليوم:

١- إن سيادة ووحدة البوسنة والهرسك لأمرٌ جوهري. ويجب أن يرتكز هذا على الديموقراطية، والتعددية، واحترام حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات، بحيث تسمح الظروف بعودة المُهجّرين إلى بيوتهم.

٢- إن بوسنة كهذه قد تتألف من قسمين: الاتحاد والكيان الصربي. وقد تشكل الاتحاد بإدارة وقرار البوسنيين والكروات كأمتين دستوريتين متساويتين من البوسنة والهرسك.

٣- ستحافظ البوسنة والهرسك على بقاء المؤسسات العامة المشترَكة التي تعتبر ذات أهمية قصوى لقيامها بوظيفتها ولوصفها بلدنا بأنه بلد مستقل ذو سيادة ومعترفاً به دولياً. ويجب اتخاذ القرار حول هذه المؤسسات بطريقة تجعل ممكنة إزالة الحواجز بسرعة وبفاعلية.

٤- إن خارطة الحدود الداخلية، فيما يخص مسألة الاتحاد، لا يمكنها-سواءً بطريقة كمية أو نوعية-أن تكون بمستوىً أدنى من خارطة مجموعة الاتصال.

٥- على القوات العسكرية الدولية ضمان تطبيق الاتفاقية. وهذه القوات يجب نشرها في جميع أرجاء أراضي البوسنة والهرسك وعلى الحدود الدولية.

٦- يجب مواصلة مقاضاة مجرمي الحرب. وإننا لنطلب من صربيا والجبل الأسود التعاون مع المحكمة الدولية في لاهاي.

٧- يجب ضمان المراقبة الدولية الفاعلة على الانتخابات. وأن تكون هذه الانتخابات حرة ومباشرة لبرلمانات الكيانات، والبرلمان القومي. وأن تكون الانتخابات الرئاسية حرة ومباشرة. وفي هذا الإطار، يجب ضمان مشاركة تصويت مهاجري البوسنة والهرسك في هذه الانتخابات.

٨- يجب أن تكون المساعدة الاقتصادية لإعادة بناء البوسنة والأقاليم في جميع أجزائها مشروطة باحترام حقوق الإنسان والأقليات.

وقبل أن أنهي هذا الخطاب القصير، فإنني أعتبر أنه من الأهمية تحويل انتباه هذا الاجتماع إلى مسألة تبدو لي أنها الأكثر أهمية في هذه اللحظة. ويمكن القول: إنه أثناء تفاوضنا هنا وَعَملنا لمذكرات احتفالية ووعود، فإنه يستمرّ في الأراضي الخاضعة لسيطرة جيش ملادتش- خصوصاً في بانيالوكا والبوسنة الغربية -إرهاب شديد ضد السكان المدنيين غير الصربيين.

لقد انتهت الحرب على الجبهات، ولكن الحرب ضد المدنيين تتواصل، بل تشتد. فالنساء والأطفال يلقون في الشوارع بينما يؤخذ الرجال بعيداً إلى المجهول. والأخبار السوداء عن القتل الجماعي تصلنا يومياً. اقرؤوا أياً من إصدارات الصحف الأمريكية لهذا اليوم.

إن شعبنا يحتاج للسلام، وقد جئنا لتحقيقه، ولكنني أسألكم: كيف يمكن أن نتفاوض والإبادة الجماعية ضد سكاننا في مستمرة؟

لهذا أطلب من الرئيس ميلوشيفتش إصدار أمره لوقف هذا الإخلاء المُكره للوطن. وإنني لأدعو المجتمع الدولي وعلى رأسه مجلس الأمن الدولي لاتخاذ الخطوات الكفيلة بالتعامل مع هذا الوضع. وإنني لأطلب من الرؤساء بيل كلينتون وشيراك ويلتس والمستشار كول ورئيس الوزراء ميجور استخدام نفوذهم من أجل وضع نهاية نهائية لمعاناة المدنيين في البوسنة.

وعند انتهاء خطابي تسلمنا جزءاً من اتفاقية مبدئية عامة حول السلام في البوسنة والهرسك احتوت على شروط إنهاء أعمال العنف، والفصل بين القوات، واحتوت أيضاً على فقرات شرطية تتعلق بالانتخابات. وقد تكرر الطلب بعدم تسليم مذكرات للصحافة حفاظاً على المجرى الطبيعي للمفاوضات، وهذا شيء احترمناه جزئياً فقط.

الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر): في اليوم التالي قابل فريقنا المفاوض الرئيس تودجمان وأعضاء من الوفد الكرواتي، وكان الوسيط هو هولبروك. وقد كانت هناك محادثات حول تأسيس الاتحاد والمشاكل التي تبعت هذا. وعلى أي حال، جرت الموافقة على عودة مئتي عائلة من الجانبين الكرواتي والبوسني إلى ترافنيك وبوغوينو وبابيتسة وستولاتس.

الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر): عَقدتُ عدة اجتماعات مع ممثلي وزراء خارجية فرنسا وبريطانيا العظمى وألمانية وروسية. وقد أَبرزت الوفودُ الأربعة جميعها أهمية المفاوضات وعَرضت مساعدة بلادها في مسيرة السلام.

وخلال ذلك اليوم جرى تسليمنا ملاحق عن حقوق الإنسان وعودة اللاجئين عن المعالم الثقافية. وقبل الظهر كان لدي اجتماع مع الرئيس الصربي سلوبودان ميلوشيفتش، وهو الاجتماع الأول خلال هذه الاتفاقيات. ولقد قَابلته في مناسبات عديدة سابقة، وكانت أغلبها في اجتماعات للرئاسة اليوغسلافية في بلغراد.

لست متأكداً من أنني أعرف ميلوشيفتش بشكل جيد، ولكن الذي يصدمني غالباً ما يبدو وكأنه هو وسياسته أمران مختلفان. وما يصعب علي الجمع بين ما يفعله وبين انطباعي عنه كشخص. فهو ليس شخصاً بغيضاً. والحقيقة أنه دائماً تملّ بعض الشيء ًأو على الأقل يبدو كذلك- ويرغب في غالب الأحوال في التحدث. وكأنه يعتقد بما يقول. ولا بد أنه شجاع - ولكن لا يمكنني القول: إنه منافق - وقد يكون ذا شخصية منفصمة، ولكن ذلك شيء آخر. وعلى أي حال، يبدو بأن الجانب الشرير مسيطر على شخصيته. ومن البديهي القول بأن ميلوشيفتش مصدر للشر.

وربما تعكس إحدى التفاصيل خلال مفاوضات دايتون تعكس شخصية ميلوشيفتش المتناقضة. فبعد مفاوضات طويلة، غيّر فجأة موقفه تجاه مسألة سراييفو وقَبِل طلبنا بشكل عام. وعند مغادرته الغرفة خاطبني وسيلادجتش بهذه الكلمات: " كان من السهل عليكم السيطرة على سراييفو، وعليّ أن أضع الخوذة فوق رأسي وأسير بين أولئك الحمقى."وكان يعني بذلك كرايشنيك، مومتشيلو وكوليفتش اللذين كانا ينتظران النتائج في المبنى الآخر بلهفة شديدة. ولا أعتقد بأنه كان يُمثّل في ذلك الوقت. بل على العكس، أنا متأكد أن ذلك كان مايعنيه بالضبط.

ودُعينا في تلك الليلة لزيارة قاعدة رايت-بيترسون الجوية حيث كانت تجرى المفاوضات. وكان قد أقيم فيه أكبر معرض جوي في العالم، والذي كان جسّد

التاريخ الحقيقي لصناعة الطيران بدءاً من الطائرة البدائية الأولى التي ابتكرها الأخوان رايت وانتهاءً بأحدث صواريخ توماهوك. وعُرِضت طائرة ال بي-٥٢ التي أُطلقت منها أول قنبلة نووية (على هيروشيما) في السادس من آب (أغسطس) عام ١٩٤٥، وأيضاً تم عرضُ نموذج للقنبلة. وفي ساحة كبيرة بين أو تحت هذه المعارض المثيرة كان هناك مطعم معد من أدوات مستوحاة من المعرض ومزود بطاولات طعام أُعدّت خصيصاً لهذه المناسبة. تمتعنا بالاستماع للموسيقا في هذا المطعم. ولم أكن أرغب بتناول الطعام، لذلك أخذت أنظر متفحصاً في المكان. ولا أعرف فيْمَا إذا كان الأمر مصادفة أم لا. ولكن طاولة نيكولا كوليفتش -المساعد المقرب من رادوفان كارادجتش- وضعت مباشرة تحت صاروخ توماهوك الضخم، وهو السلاح الذي استُخدم ليلة ١١-١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥ على بانيا لوكا من غواصات في البحر الأدرياتيكي (نيكولا كوليفتش من بانيالوكا)[١].

الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر): ابتدأ اليوم باجتماع بين فريقنا وفريق ريتشارد هولبروك ومستشاريه. وناقشنا البنية الرئاسيّة والطريقة التي قد تُختار بها. وقد طلبنا في هذا الاجتماع بأن يُمنع كارادجتش وكذلك مجرمي الحرب الآخرين من الترشيح للانتخابات. كما ناقشنا المعضلة المتمثلة فيما إذا ستكون الحكومة الوطنية منتخبة مباشرة أو معيَّنة، وناقشنا أيضاً الانتخابات العامة، ومسائل ذات مصلحة قومية حيوية.

وبعد ذلك درست المادة المتعلقة بحل مشكلة الاتحاد البوسني والتي أعدها ميخائل شتاينر، الممثل الألماني في مجموعة الاتصال. وفي وقت متأخر من الليل تناولت العشاء مع مندوبين من الفريق الكرواتي، هما ماتيه غرانتش وغويكو شوشاك.

(١) انتحر كوليفيتش في عام ١٩٩٧ (رواية رسمية).

الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر): في اليوم الخامس من أيام المفاوضات تلقيت زيارة من السيدة اليزابيث رين، مراسلة الأمم المتحدة المختصة بحقوق الإنسان، والسيدة كريستين واليتش من البنك الدولي، التي كان دورها تناول التعاون مع جمهورية البوسنة والهرسك. ثم تقابل وفدنا مع الوفد الكرواتي برئاسة الوزير ماتيه غرانيتش. وناقشنا آراءنا حول المادة المتعلقة بالاتحاد والتي قدمها شتاينر. وتبع هذا الاجتماع اجتماع مع سيلادجتش، واجتماع آخر مع ميلوشيفتش وبولاتوفيتش استغرق ثلاث ساعات تقريباً.

السادس من تشرين الثاني (نوفمبر): تم عقد اجتماع مع الجنرال الأمريكي سويل حول تنظيم القيادة المشتركة على قوات الاتحاد العسكرية والمساعدة الأمريكية المتعلقة بهذا الخصوص.

قدّم السفير شتاينر اقتراحاً جديداً حول الاتحاد، بعد قبول جزئي للملاحظات المكتوبة التي قدّمها وفدنا. ثم جاءت مسألة التعاون مع صندوق النقد الدولي، والعلاقات بين حكومة جمهورية البوسنة والهرسك وبين الاتحاد في مسائل تتعلّق بالدفاع وبكيفية جباية الجمارك وتوزيعها. وتبعه اجتماع آخر لمدة ساعتين مع ميلوشيفتش وبولاتوفيتش. واختتم النهار بعشاء مع ريتشارد هولبروك وقادة الوفود المفاوضة حيث أكد فيه هولبروك استعداد أمريكا وحلفائها لإرسال قوات عسكرية إلى البوسنة لتطبيق اتفاقية السلام.

لقد كنت في جميع اتفاقيات السلام السابقة مهتماً بفكرة واحدة فقط، وهي كيفية تطبيق ما قد تم الاتفاق عليه، بغض النظر عن محتويات الوثائق الموقعة. ولم يكن لدى المفاوضين الدوليين السابقين قوات عسكرية تحت تصرّفهم. كيف كانت ستبدو اتفاقية السلام هذه لو أن كارادجتش سيطبقها طوعاً؟ كان من الممكن أن تعني فقط اتفاقية استسلامنا. وبهذا الخصوص، كان وضع دايتون مختلفاً. إذ قد جرى إيضاح – وهذه المرة قدمت الالتزامات حول الموضوع

علناً- أن الاتفاقية سوف تطبق حتى وإن ثبت أن استخدام القوة ضروري. وعلى الرغم من جميع سيئات اتفاقية دايتون كان لها هذه الحسنة التي تفوقت بها على جميع الاتفاقيات السابقة.

لكن كان لهذه الحسنة وجه آخر، الجانب الآخر من العملة؛ فإذا كان هناك شيء أردته وكرهته في الوقت ذاته، فهو وجود قوات أجنبية في البوسنة. ولكن أي رجل عاقل إذا خيِّر بين العدو وبين البحر العميق فإنه سيختار أقلهما شراً. فهل يُعدُّ وجود الأجانب أمراً سيئاً لأنهم سلطة دون رقابة؟ وكل سلطة دون رقابة ستتحول حتماً إلى إرادة ذاتية. وقد يحصل هذا في البوسنة أيضاً. لقد كنا نواجه اختياراً دراماتيكياً: إما أجانب (أمريكيون، فرنسيون، بريطانيون) وإما متطرفون محليون. إما العنجهية الأجنبية وإما العنف غير المحدود للمتطرفين والإنفصاليين الصرب والكروات. إنهما أمران أحلاهما مرّ. و لم يكن هناك خيار ثالث. وفضّلت وجود أجانب لا يحبونك على وجود محليين يكرهونك.

السابع من تشرين الثاني (نوفمبر): بدأ النهار باجتماع -وجهاً لوجه- مع هولبروك. وجرى النظر في التوازن المستقبلي للتسلح في المنطقة. وأكد هولبروك أن تقدماً كهذا في المفاوضات يعني إحراز تقدم في مسألة الاتحاد، ولكن لم يكن هناك أي تقدم بخصوص سراييفو. وقد أعلن أنه ينبغي لي أن أتحدث مع ميلوشيفتش يومياً من أجل الوصول إلى حل. وبعد سبعة أيام من المفاوضات، كان واضحاً أن الفريق الأمريكي لم يكن راضياً عن النتائج.

وبعد ذلك قابلت ميلوشيفتش وهولبروك بحضور رئيس الجَبَل الأسود -مملكة كانت على البحر الأدرياتيكي حتى نهاية الحرب العالمية الأول- بولاتوفيتش ووزير الخارجية الصربي ميلوتينوفتش. وحين ثار الجدل حول سراييفو، طالب الصرب بتقسيمها. فنظرت إلى هولبروك الذي قام بدوره بالرفض المطلق قائلاً: إن تقسيم المدينة هو أمرٌ غير قابل للتفاوض. وبدلاً من

ذلك، اقترح الجانب الأمريكي حلاً يقضي بجعل سراييفو "منطقة اتحادية"؛ الأمر الذي يعني أن تبقى ضمن الاتحاد، ولكن تحت إدارات عرقية متوازنة وقوات من شرطة خاصة بها. وكنت في وقت سابق، تواقاً -بشكل خاص- إلى أن يصرّ الأمريكيون على اتّخاذ موقف يضمن أن لا يتكرر ما حصل في موستار. وكان طلبنا أيضاً أن تتم الموافقة على القوات الدولية لتطبيق الاتفاقية (IFOR) أثناء مفاوضات دايتون.

وزيادة على ذلك وافق الأمريكيون على اقتراحنا أن تكون الانتخابات للجمعية الوطنية والرئاسة مباشرة، ولكنهم اقترحوا كذلك ما يسمى بالنموذج المشترك: انتخابات عامة لبرلمان وطني، وجعل الرئاسة مؤلفة من ثلاثة أو ستة أو تسعة أعضاء. واقترحت أن يكون هناك أكثر من ثلاثة أشخاص في الرئاسة، وإلا فإنهم سيمثّلون البلدان التي انتخبتهم لاغير. وأيّد آزرَ هولبروك المطالبة الكرواتية بأن يعطى الكروات حقيبة وزارة الخارجية، أقرّه أيضاً بالحاجة إلى تأسيس مفاهيم تتعلق بمن سيكون مسؤولاً من قِبَل من؟ (رئيس الوزراء من قِبَل الجمعية العمومية، والحكومة من قِبَل رئيس الوزراء، إلخ...). أما في أوربة، فقد كانت هناك حلول مختلفة: الحكومة مسؤولة من قِبَل قائد البلاد (وفي حالتنا، الرئاسة) أو من قِبَل جمعية وطنية. وفي فترة ما بعد الظهر، قابلت رئيس الاتحاد "زوباك"، وفي فترة المساء قابلت الوفد الفرنسي، كما قابلت ميلوشيفتش.

الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر): بدأ الاجتماع في الصباح الباكر. وكان هذا هو الوقت الذي طرحت فيه جميع المسائل الصعبة. وحضر الاجتماع هولبروك مع فريقه المفاوض ورئيس الوزراء سيلادجتش ورئيس الاتحاد زوباك والرئيسان ميلوشيفتش وبولاتوفيتش. واقترحتُ خطة مجموعة الاتصال أساساً للحديث، الأمر الذي عَنَى استعادتنا لـ (جيبا وسيربرينيتسا). ومن جانبه أصرّ ميلوشيفتش على أن صيغة الحل السلمي تتطلبت كيانين وتعريفاً واضحاً لأي فريق تعود إليه ملكية كل منطقة من المناطق. وقال: "ففي اللحظة التي يعرف فيها كل طرف

من الأطراف الأراضي التي تعود إليه سيكون كل شيء واضحاً (...) دعونا ألا نتجمد في المواقع الموجودة". وبهذه العبارة حدد ميلوشيفتش تماماً استراتيجيته خلال الحرب وبعدها.

كانت هناك استراحات عديدة للراحة والتشاور. وخلال إحدى الاستراحات انضم كرايشنيك إلى المحادثات. وأشار هولبروك إلى الحاجة لمناقشة الدستور والخرائط، وفوق كل هذا مناقشة وضع سرايبفو. وكرّر الحديث عن النماذج الانتخابية الرئاسية الثلاثية وعن ضرورة أن يكون أحد الأعضاء في موقع متفوق. وطلبت وضع شروط لتأمين انتخابات نزيهة في جميع أرجاء منطقة البوسنة والهرسك. ومن ذلك (حرية الكلام والصحافة والحركة، إلخ...). وإذا لم تكن هذه هي الحال، عندها تبقى أية انتخابات مجرد رسميات. كما تحدثت عن كيفية إدارة هذه الانتخابات؛ وتحدثت بشكل خاص عن فكرتي المتعلقة بالكيفية التي يفترض بالمؤسسات الوطنية أن تكون عليها، والبرلمان جسد سياسي يعكس التركيبة السياسية للبلاد. فالحكومة مسؤولة من قِبَل البرلمان، وللرئاسة حق النقض. كما يجب التصويت على كل من البرلمان والرئاسة في انتخابات مباشرة.

واقترح ميلوشيفتش النظام الذي يكون عليه وفد الرئاسة. وبناء عليه يتوجب علينا الاحتفاظ بخصوصية البوسنة والهرسك والحاجة لإنشاء النموذج الأسهل. وهو الأمر الذي يمنع تواجد أي عوائق. وعليّ أن أعترف بأنني لم أفهم تماماً كيف يكون نظام وفد كهذا مانعاً من العوائق، ولكن هكذا كان تفسيره للأمر. وكان ميلوشيفتش يؤيد إجراء انتخابات كيانات بأسرع وقت ممكن. وكرّر ميلوشيفتش بأنه يجب أن تكون هناك انتخابات مباشرة للاتحاد والجمهورية الصرب من أجل استمرار حياة الكيانين مع الدساتير القائمة، والتي ستكون بموجب دستور البوسنة والهرسك. آخذين بعين الاعتبار إيفاد أربعة وعشرين

مندوباً من الاتحاد واثني عشرة مندوباً من جمهورية صرب البوسنة إلى البرلمان الوطني. واقترح كذلك أن يكون للاتحاد موقعين في الرئاسة، وموقعاً واحداً لجمهورية الصرب؛ وأن يكون عضوي الرئاسة من الاتحاد وهما رئيس الاتحاد ونائب الرئيس. وتَدَخّل السفير هولبروك عند هذا الاقتراح مشيراً إلى أن الرئاسة -كواجهة للبلاد- تمثل البلد ككل. وأشار رئيس الوزراء سيلادجتش إلى أن الانتخابات المباشرة كانت مقبولة من الجميع وأن مانحتاجه بلادٌ ذات تناغمٌ وثبات تحافظ بدورها على كرامتنا. ومن وجهة نظره فإن ما اقترحه ميلوشيفتش كان في حقيقة الأمر اتحاداً بالفعل. وما على البوسنيين الصرب أن يفهموه ويقبلوه هو أن البوسنة والهرسك قد تكون بلادهم أيضاً. وكان زوباك قد دعم الفكرة التي تنادي بالجمع بين الانتخابات المباشرة وبين التعيينات وأكد على ضرورة أن تعكس الحكومة البنية القومية.

واعتقد هولبروك أنه يجب إزالة نقاط المراقبة في أرجاء البوسنة والهرسك كلها قبل الإنتخابات. كما شدّد مرة أخرى على أن تكون سراييفو مدينة غير مقسمة. وعدت بنفسي مرة أخرى إلى القضايا المتعلقة بسيربرينيتسا وجيبا وغوراجده وسراييفو مصراً على أن تكون لغوراجده صلة إقليمية بباقي الاتحاد، عبر روغاتيتسا (أو غيرها).

وصرّح هولبروك مراراً وتكراراً أنه لا يقبل بوجود جدران فاصلة أو ما شابه ذلك في سراييفو وهو الأمر الذي قد يعيد إلى الأذهان جدار برلين. وعلى الرغم من ذلك، فقد طالب كرايشنيك، مومتشيلو بأن تتبع نوفو سراييفو (أوسراييفو الجديدة) لجمهورية صرب البوسنة. وأشار كومشيتش إلى عدم قبوله تجزئة المدينة سواء ذلك عن طريق الحرب أو عن طريق هيئة الأمم في جنيف. وقال: "إن سراييفو ستواصل وجودها كعاصمة موحدة"، ودعم الاقتراح المتعلق بالإقليم الخاص. وطالبتُ بحلّ مسألة الأمن ضمن المدينة، واقترحتُ تشكيل

قوات شرطة خاصة بالبلديات، وعارضتُ إزالة القوى العسكرية من المدينة، بسبب وجود القنّاصة فيها، كما أنّ جيش كارادجتش كان ما يزال رابضاً حول المدينة. واقترح كرايشنيك، مومتشيلو أن يبقى الاتصال مع توزلا تحت سيطرتنا، وأن نبني طريقاً جانبياً لزينيتسا في إيلياش. ومرّة ثانية واجهنا مايذكّرنا بطرق عندها مذكرات كارادجتش الجانبية، والأنفاق والمعابر الفوقية والجسور. وكرّر هولبروك تأكيده بأن هدف الولايات المتحدة الأمريكية ومجموعة الاتصال كان حل النزاع وتقديم حل لسرايفو بوصفها إقليماً خاصاً.

كما قد عُقد اجتماع ثالث حول موضوع الاتحاد حضره شتاينر ودانييل سيرفر، المنسق الخاص بوزارة الخارجية للشؤون الاتحادية ووزيران كرواتيةن هما جرانتش وشوشاك ورئيس الاتحاد زوباك. وقُدّم اقتراح جديد حول "الاتفاقية التي تهدف إلى تحقيق الاتحاد في البوسنة والهرسك". وأصرّ زوباك على فصل اختصاصات الحكومتين: الاتحاد والدولة. واقتُرحَت أيضاً تغييرات أقل على النص المقدَّم.

التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر): عُقدت ستة اجتماعات في ذلك اليوم. التقيتُ والوزير شاكر بيغوفتش والفريق الاستشاري الأمريكي برئاسة الجنرال ويسلي كلارك لمناقشة مهمتهم المستقبلية في البوسنة والهرسك (المساعدة في تدريب الأفراد واقتراح تنظيم للجيش والأسلحة).

وبعدها، التقى وفدنا كله بالسفير هولبروك والجنرال ويسلي كلارك وفريق التخطيط لإجراء المزيد من المحاورات. وأوضحتُ بأنّ أولويتنا تتعلّق بممر برتشكو وسرايفو وغوراجده. وتبع ذلك جدل حول الحدود فيما يتعلق بخارطة مجموعة الاتصالات. وتواصلت المحادثات حيث جرى حديث حول الدستور والانتخابات، ودور منظمة الأمن والتعاون في أوربة. فعلى سبيل المثال، هل كانت منظمة الأمن والتعاون في أوربة ستنظم الانتخابات أم ستشرف عليها فقط؟ وكنت داعماً لأن تقوم منظمة الأمن والتعاون في أوربة بكلا الواجبين.

وبعد الغداء اجتماع مع تودجمان والوزير جرانيتش، وكان شاكر بيغوفتش حاضراً آنذاك. وكان على جدول أعمالنا اليومي مراجعة الاتفاقيات المنجزة مع استعدادات مسبقة للمستقبل.

وفي وقت متأخر من بعد الظهر قمتُ ورئيس الوزراء سيلادجتش بلقاء روبرت أوين لمناقشة حلول دستورية. وأخبرنا أوين أن ميلوشيفتش لايرغب بوجود برلمان ذي مجلسين تشريعيين. كما كان ميلوشيفتش معارضاً لقيام منظمة الأمن والتعاون في أوربة بتنظيم الانتخابات (وكان اقتراحه إشرافها على الانتخابات فقط). كذلك طلب من الناس الذين يعيشون خارج البوسنة والهرسك العودة إليها من أجل الإدلاء بأصواتهم الانتخابية. وأوضحنا أن دستور جمهورية الصرب لم يكن متوافقاً مع المبادئ الدستورية، وكذلك دستور جمهورية البوسنة والهرسك، وطالبنا بمواعيد نهائية للتوافق. كما طُلبَ من منظمة الأمن والتعاون في أوربة أن تحل مسألة حقوق السكان الغير صربيين في جمهورية الصرب. وقد سأل أوين -نيابة عن الجانب الصربي- عن الوقت الذي يشارك فيه هؤلاء الناس في سلطة الدولة.

قابل فريقنا المفاوض الجنرال ويسلي كلارك ومندوبي البنتاغون مرة أخرى لمناقشة مقترح خارطة الصرب. ووجدنا العرض غير مقبول، واقترحنا - لأغراض المقارنة - من الآن فصاعداً، أن ترسم التصحيحات والعروض بناء على خارطة مجموعة الاتصال.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة كان هناك اجتماع مع أوين والسفير مينزيس حول المسائل الدستورية والنص الأمريكي المقترح حول الانتخابات وإشراف منظمة الأمن والتعاون في أوربة ودار نقاش حول كيفية تفسير كلمات "الإشراف على الانتخابات"، وطالبنا أن تشمل انتخابات الجمعية الوطنية كافة مناطق البلاد، كما طالبنا بجعل هذه الانتخابات متاحة للسكان الغير صربيين

ممن يعيشون في جمهورية الصرب وتمكينهم من التصويت على قدم المساواة مع أهل البلاد، وتمكينهم كذلك من الدخول في القائمة الخاصة بانتخابات الرئيس. وفي نهاية اليوم، تلقيتُ النص النهائي للاتفاقية الخاصّة بتحقيق الاتحاد في جمهورية البوسنة والهرسك.

العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر): في الصباح الباكر استقبلت ورئيس الوزراء سيلادجتش السفير شتاينر وتحدثنا عن الاتحاد، ثم استقبلنا وزير الخارجية الأمريكي كريستوفر والسفير هولبروك. وأكد وزير الخارجية على أهمية إنجاز الاتفاق المتعلق بالاتحاد، وطالب بتقسيم منطقي للمناصب الرئيسية في السلطة خلال الفترة الانتقالية. واقترحت وقتذاك أن يحصل الكروات على منصبي نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية، مع بقاء سيلادجتش رئيساً للوزراء. وأوضحت أننا قد أعطينا بالفعل تنازلات للكروات، وذلك بفصل حكومة الاتحاد عن حكومة البوسنة والهرسك، وشددنا كذلك على الشرط القاضي بفصل هاتين الحكومتين بشكل متوازٍ مع نهاية الوجود الهرسغ-البوسني. وأشار وزير الخارجية كريستوفر إلى ضرورة وجود تنظيمات سلام واضحة ودقيقة، لأنه بناء على ذلك الشرط فقط سيقوم الرئيس بيل كلينتون-بعد توقيع اتفاقية السلام- بالتحدث إلى الكونجرس والمطالبة بأن تصبح القوات الأمريكية جزءاً من قوات التنفيذ الدولية.

وعارض الرأي العام الأمريكي التورط العسكري في البوسنة. كما حاول البنتاغون تخفيض قواته إلى أقل حد ممكن، مقترحاً أن تتم عملية نشر قوات التنفيذ الدولية في الاتحاد فقط. وقلتُ: إن الاقتراح مرفوض بشكل قاطع؛ إذ كان على القوات الدولية لتطبيق اتفاقية السلام أن تتخذ مواقعها في جميع أرجاء البلاد، بما في ذلك حدود البوسنة والهرسك. وقد أُثيرت حساسية أمريكية تجاه التورط العسكري متذكرين تجربتهم المريرة في فيتنام، وما جرى

معهم حديثاً في الصومال. وكان عليهم أن يحسبوا حساب الخسائر وهذا ما جعلهم حذرين. وأكّدتُ لجميع المسؤولين الأمريكيين بأن عليهم ألا يتوقعوا مشكلة كهذه في البوسنة. وقد ثبت لهم صدق عبارتي. وكان هذا نتيجة لحسن تصرف جنود قوات التنفيذ الدولية ونتيجة سياستنا ونتيجة رسائلنا إلى الشعب ونتيجة أيضاً للشعور المتداول بين الناس بأن وجود جنود أجانب كان ضرورياً في هذه المرحلة. ومع ذلك، لم يكن أحد ليصدق- ولو كان أكثر الناس تفاؤلاً أنه بعد خمس سنوات لم يسجل أي هجوم ضد قوات حفظ التوازن (SFOR). (ملاحظة، أعيدت تسمية القوات الدولية IFOR، لتصير قوات الاستقرار Stabilization Force (SFOR) في عام ١٩٩٧م، وأعطيت تفويضاً جديداً.

كرّر هولبروك قوله: إن ميلوشيفتش قد وافق على إجراء انتخابات مباشرة، وعلى أن يكون الانتداب الأول للرئاسة والجمعية لمدة سنتين، وأصرّ على إجراء المزيد من المحادثات مع مندوبي الاتحاد الأوربي ومع كارل بيلدت ليصبح لزاماً عليهم تسليم قواتهم إلى قوة دولية تقوم بتطبيق الاتفاق. وأشار مرّةً ثانية إلى أنه ليس بمقدور الولايات المتحدة الأمريكية الالتزام بأي شي مالم تحصل على موافقة الكونجرس، التي تعتمد بدورها وبشكل تام على وضوح تنظيمات السلام. وطالب رئيس الوزراء سيلادجتش بتقديم تعهدات تلتزم الولايات المتحدة الأمريكية من خلالها بمساعدة البلاد على إعادة بناء نفسها على أن يدرج ذلك ضمن ملاحق الاتفاقية.

وبعد هذا الاجتماع الذي دام ساعتين تقريباً، جرت مراسيم توقيع اتفاقية الاتحاد. وقد ألقى كل من وزير الخارجية كريستوفر، والسفير إيشينجر النائب عن الاتحاد الأوربي وهولبروك خطابات تمهيدية، تبعها خطابات ألقاها ثلاثة

رؤساء وهم: زوباك وتودجمان وأنا. وشعرتُ بأنني في ورطة تتعلّق بتطبيق الاتفاقية من قبل الموقعين أنفسهم. حيث كانت تجاربي مع تودجمان سيئة للغاية حتى ذلك الوقت. بدا ذلك جلياً منذ أن نطقت الجملة الأولى في خطابي التالي:

لن أسمي هذا اليوم يوماً تاريخياً، وسأترك للمؤرخين الحكم على أهميته في المستقبل البعيد، فهم لن يحكموا عليه بما يقال عنه، ولكن بما سيتم فعله. وعوضاً عن ذلك، سأدعو هذا اليوم بيوم تصميمنا أو بيوم الأمل، كنحو تعبير وزير الخارجية كريستوفر.

لقد أكّدنا مرات عديدة تصميمنا على مواصلة الجهود لتأسيس اتحاد البوسنة والهرسك الذي وافقنا عليه في واشنطن منذ ما يزيد على ثمانية عشر شهراً مضت. ولهذا الهدف، وافقنا على تغييرات معينة وصفت في الوثائق التي وقعنا عليها للتو. وقررنا كأناس عقلاء تصحيح ما لم يعمل به، مستبقين الأساس الذي بنينا عليه اتحادنا بلا تغيير.

كان مصدر أملنا أن جميع عوامل الشخصية الدائمة للاتحاد كانت في صالح الاتحاد. وكانت العوامل الأخرى مؤقتة عفا عليها الزمان. وهذا الحكم-بالرغم من كل الأمور الأخرى – هو مصدر صبرنا، مع أن هذا الأمر لم يكن مفهوماً لديّ في بعض الأحيان كما لم يكن مفهوماً لدى الآخرين.

أضف إلى ذلك أنّه بموجب اتفاق هذا اليوم قرّرنا عودة عدد معين من العائلات إلى يايتسه وبوغوينو وستولاتس وترافنيك. إنها خطوة صغيرة، لكنها هامة جداً. وأقول هذا لكلا الطرفين، إنها اختبار لحسن النوايا واستعداد لتنفيذ كل شيء قد تمّ الاتفاق عليه. والشرط واضح: السلامة في تلك البلدات.

من جانبنا، أودّ أن أعبّرَ لكم في هذا المقام عن أننا مصممون على ضمان السلامة. ومما لا يقل عن هذا أهمية اتفاقنا حول موستار؛ حيث اخترنا شروطاً ستساعد على التغلب على تقسيم المدينة كما هي عليه اليوم.

إنني سعيد بدعم أمريكا وأوربة القوي لهذا المفهوم كما أشكر السيد كريستوفر على الكلمة التي ألقاها اليوم بهذا الشأن.

تعامل تودجمان في خطابه، مع الاتحاد كدولة، وتحدث عن علاقاته مع كرواتية. لم أحب تودجمان؛ لأنه كان مغروراً في سلوكه بعض الشيء، وكانت مراسم تشريفاته رديئة؛ لقد أراد دائماً امتلاك جزءاً من البوسنة، سواء أكان ذلك الجزء صغيراً أم كبيراً. كما أنني لم أقرأ أطروحته التي تقدّم بها لنيل درجة الدكتوراة، ولكنني عرفت أنها كانت عن موضوع بانوفينا هرفاتسكا (أو كرواتية الجديدة) التي تأسست عام ١٩٣٩، بموجب اتفاقية تسفيتكوفتش - ماتشيك. وكانت بانوفينا تتوافق مع ذوقه ومقياسه، لأنها اشتملت على أجزاء شاسعة من البوسنة. وأفترضُ بأنه قرأ "هتنغتون" بمتعة كبيرة. وبالفعل إن "صراع الحضارات" لهتنغتون قدَّم عذراً نظرياً جيداً لشهيته تجاه البوسنة.

فالتقسيمات وفقاً لمفهوم هتنغتون كانت أفكار تودجمان الثابتة. وعندما كانت أزمة كوسوفو في ذروتها سنة ١٩٩٩، وذلك خلال هجمات الناتو الجوية، جاء توجمان باقتراحه تقسيم كوسوفو إلى قسمين، ألباني وصربي. فهو يحب كلمة "انفصال". وعندما طُلب مني التعليق قلت: إن ما ينقص اقتراحه أنه لم يُعلن في كاردجوردجيفو.

ومع ذلك، فقد كان تودجمان نافعاً لكرواتية ونافعاً للبوسنة وبقية العالم. منافعه لكرواتية لا تقدر بثمن. فقد وضع أساس الدولة الكرواتية التي سوف تكون في يوم ما- بعد رحيله- دولة ديموقراطية ومتقدمة. منافعه لكرواتية دائمة، وأما أخطاؤه فمؤقته وقابلة للإصلاح. وخصوصاً تأثيره على الأحداث في البوسنة، فالأشياء في غالب الأحوال، تأتي عكس المتوقّع منها.

تشككت بمقدرة الكروات على تنفيذ الالتزامات التي تعهدوا بها لأن فكرة الاتحاد طُرحت منذ سنتين تقريباً. ولكن لم يكن لدينا أيّ خيار، وكان علينا أن نجرّب المرة تلو الأخرى. وفي هذه المرّة خطونا خطوة أوسع: وافقنا على ترك مهمّة الشؤون الخارجية للكروات. فاستقال شاكر بيغوفتش ليتولى برلتش هذا المنصب. وكان وزير الخارجية الأمريكي كريستوفر قد سعى لإقناعنا بأن هذا

هو الشرط لبدء المؤسسات المشتركة عملها. حيث قال: " ستشكّل المؤسسات السياسية والاقتصادية المشتركة الموحدة للمجتمعين ". ولم يثبت حتى الآن أن تفاؤل كريستوفر كان مُبرراً؛ فالاتحاد لا يزال شكلاً دون مضمون. ولا يزال هناك جيشان، وصندوقان لصرف الرواتب، وصندوقان لصرف معاشات التقاعد، وخطتان للتعليم ومكاتب البريد والطرق الحديدية وموستار مقسمة. ومع ذلك، فالأشياء تتحرك باتجاه الاتحاد وليس ضده.

وفي اختتام الاحتفال أكّد كريستوفر على إبقاء صلاحية حكومة البوسنة والهرسك المركزية التي تتضمن بدورها سيادة الدولة والسياسة الخارجية والتجارة والسياسة النقدية، بينما ستنقل مهام مراكز الشرطة والمحاكم ومراكز جباية الضرائب وإدارات الصحة والتعليم إلى الاتحاد. وأضاف أن هذه الاتفاقية أجبرت الاتحاد على احترام الحقوق الإنسانية لجميع المواطنين لتمكينهم من التحرّك بحرية فوق أراضي الاتحاد كلها، وكذلك تضمّنت نصوص هذه الاتفاقية إزالة جميع نقاط المراقبة الجمركية الداخلية.

وفي نهاية اليوم التقيتُ وسيلادجتش وشاكر بيغوفتش مع كل من وزير الخارجية الأمريكي والسفير هولبروك. وأوضح كريستوفر أهمية هذا اليوم وحثنا على الإسراع في تحقيق الاتفاقية، معبراً عن أمله في تحقيق تقدّم فيما يخص الخرائط. وقال: وأخبرنا أنه والفريق الأمريكي المفاوض قد أبلغوا الكونجرس بشكل متكرر بمسار المفاوضات. وأكدتُ لهم أننا سنقوم بفعل أي شيء من أجل تحقيق السلام وأوضحت الحاجة إلى نهج يحتاجه كل من البوسنة والهرسك للدفاع عن نفسيهما بعد رحيل القوات الدولية. وسلّمنا الجانب الأمريكي مذكرة بهذا الخصوص. وكرّر رئيس الوزراء سيلادجتش ضرورة وضع بند يتعلق بإلزام المجتمع الدولي بالمساعدة على إعمار البوسنة والهرسك، ومرة أخرى أكد كريستوفر على أهمية إشراك أكبر للاتحاد الأوربي في اتفاقية السلام.

ولدى مغادرتي سراييفو توقعت أن تستمرّ المفاوضات مُـدّةَ عشـرة أيـام. إلاّ أن هذه المدة قد مضت ولم يتم إنجاز شيء جوهري. فقدت بصيص الأمل الذي حملته معي إلى دايتون. أكلتُ قليلاً ونمتُ قليلاً. استيقظت منتصف الليل وقلبـي يدق دقّات واهنة. يبدو أن هولبروك لاحظ حالتي هذه لأنـه جـاءني، وبشـكل غير متوقع، بعد الانتهاء من اجتماعات ذلك اليـوم وأقـترح أن يلحـق بـي أحـد أطفالي في دايتون. لكنني رفضت هذا الاقتراح. واستنتجت من هذا الحديث أن هولبروك لم يكن متشائماً مثلي، ولم تكن لديه النية للاستسلام بسـهولة. وبـدا لي أن كل يوم يقرّبني من أزمة قلبية. وبالفعل أصابتني هذه الأزمة -بعـد ثلاثـة أشهر- وأنا متأكد أن متاعب دايتون هي السبب.

الحادي عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): بدأت الجولة الثانيـة مـن المفاوضـات بمزيد من الجدل حول جغرافية المنطقة. وخرج علينا هولبروك بعرض غير مقبولٍ البتة، وهو العرض الذي اقترحه الجانب الصربي.

تبع ذلك مناقشة حول الخطوط التي -بحسب العرض الصربي- يجب علينـا وعليهم الانسحاب منها. وأثناء الجـدل المتعلّـق بممـر برتشـكو، رفضنـا الطلـب المتعلّق بزيادة عرضه. ثم اقترح هولبروك أن تبقى خطوط برتشـكو بـلا تغيير، لأن الصرب لن ينسـحبوا طوعـاً مـن هـذا المنـاطق، ولأن قـوات حلـف شـمال الأطلسي -وفقاً لـرأي لهولـبروك- لـم تكـن مسـتعدة لإخراجهـم منهـا بـالقوة. واقترحَ أن نسمي هذا الخط "بخط الفصل". وعلى أي حال، عبرنا عـن خشـيتنا من إمكانية اندلاع حرب أخرى بسبب برتشكو. وذكّر سيلادجتش الجميع بأن ميلوشـيفتش قـد أشـار إلى أن العقوبـات قـد خُفّفـت لأنـه قبـل بخطـة مجموعـة الاتصال، وأن تلك الخطة لم تنص على توسعةٍ للمرّ. وفي ساعات ما بعد الظهـر عقدنا اجتماعات منفصلة مع روبرت أوين تتعلّقُ باشتراك الصرب مع جمهوريـة

صرب البوسنة في النظم السياسية المشتركة لكل من البوسنة والهرسك وكذلك الإشراف على الانتخابات.

وفي وقت متأخر من الليل تلقيت اتصالاً هاتفياً من هيئة إذاعة وتلفاز البوسنة والهرسك، وأخبرتُ الصحفي المتصل أنه لم يكن هناك أي تقدم جوهري حتى ذلك الوقت وأضفت: "إن هناك شيئاً واحداً مؤكداً: علينا أن نتقاسم شيئاً ما، إما الأراضي وإما السلطة؛ ونرغب بتقاسم السلطة".

الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): قابلتُ وكومشيتش ولازوفيتش وسيط الاتحاد الأوربي للشؤون الاتحادية (شفارتز كريستيان شيلينغ). وأكّد شيلينغ رأيه في أن توقيع الاتفاقية المتعلقة بالاتحاد تعتبر أمراً هاماً جداً من أجل تعزيز عملية السلام، كما عبَّر عن اعتقاده بأن الأيام الثلاثة القادمة من المفاوضات قد تكون حاسمةً لاتخاذ قرار.

وبحسب رأيه فإن اتحاداً قوياً جاذباً لرأس المال الدولي قد يكون عاملاً من عوامل إعادة ضمّ جمهورية الصرب إلى البوسنة والهرسك. وقدم مثالاً على ذلك جمهورية ألمانية الاتحادية وجمهورية ألمانية الديموقراطية السابقة، اللتان توحدتا بعد خمسين عاماً ويعود ذلك الى القوة الاقتصادية لجمهورية ألمانية الاتحادية. وأكد على ضرورة تمكين أصحاب الأملاك القانونيين من العودة إلى ممتلكاتهم، واقترح تشكيل لجنة على الفور لهذه المسائل، بالتعاون مع البلدان الأخرى التي كانت قد قبلت باللاجئين. مشيرا إلى أنّ هذا الإجراء قد يساعد على تجنب مأساة إنسانية جديدة في حالة توقيع اتفاقية سلام وعزم البلدان المضيفة على الفور إعادة لاجئينا إلى وطنهم.

في ذلك اليوم التقى أعضاء من وفدنا بـ عائلات أعضاء الفريق الأمريكي المفاوض الذين لقوا حتفهم في إجمان (Igman) في شهر نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٥ (وهم بالاسم: فرازور، كروزل، ودرو). ونقلتُ تعازيَّ لزوجاتهم

وأطفالهم وسلّطت الضوء على الإسهامات التي قدمها هؤلاء الرجال من أجل عملية السلام. واستمرت المحادثة بشكل غير رسمي باشتراك أطفال أعضاء ذلك الفريق. وفي نهاية اللقاء دعوت أعضاء من هذه العائلات لزيارة البوسنة والهرسك ليروا المكان الذي قتل فيه أقرب المقرّبين إليهم.

وبعد ذلك اجتمعت مع هولبروك وأعضاء فريقه، وكذلك مع شاسيربيجوفيتش وزوباك، حيث تقدّم هولبروك باقتراح جغرافي عرضه ميلوشيفتش إلا أنه ربطه بملاحظة مفادها أنه كان مجرّد رسول ليس إلاّ، وأنه لا يقف وراء هذا الاقتراح. وبناء على ذلك رفضتُ الخارطة جملةً وتفصيلاً. كذلك سلمنا هولبروك مقترحاً على شكل وثيقة عنوانها: "عناصر المبادئ المتفق عليها بشأن سراييفو تحتوي على إحدى عشرة نقطة من اقتراح روبرت أوين".

وفي وقت متأخر من تلك الليلة عقد اجتماع عمل لكامل وفدنا وخبرائنا القانونيين بخصوص المسائل الدستورية.

الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): قابلت وسيلادجتش السفير الأمريكي هولبروك والوفد المرافق له. وكرّر الصرب عرضهم للخريطة نفسها دون تغيير. ورفضت ذلك، وهدّدت بأنني قد أتحدث إلى وسائل الإعلام لأفضح تلك الممارسات والضغوط التي تمارس علينا. كما سلّمت هولبروك ردّنا على وثيقة "عناصر المبادئ المتفق عليها بشأن سراييفو".

واجتمعنا بعد ذلك مع بولينا نيفيل-جونز وآلن تشارلتون من وزارة الخارجية البريطانية. والسيدة نيفيل -جونز- التي لم تحاول أبداً إخفاء كرهها لنا- جاءت لتعبّر عن قلقها بسبب عدم التقدم في المفاوضات، وهدّدت بسحب قوات الأمم المتحدة من البوسنة. وقالت السيدة نيفيل-جونز، بل هدّدت بقولها: "عليكم أن تدركوا أن المجتمع الدولي مستعد للبقاء في البوسنة إذا ما جرى التوصل إلى اتفاق. وإن أي إشارة سلبية من طرفكم قد تؤدي إلى

انسحاب قوات الأمم المتحدة التي قد خففت من معاناة شعبكم. وإن التبعات ستكون أعلى بكثير إذا لم تتوصلوا إلى اتفاق الآن، لأننا لن نعود إلى الوضع الراهن". وأضافت أنها جاءت "لتحذرنا في الوقت المناسب". وعندما تلقيت هذا الضغط الصريح الغير مبرر أجبت: "دافعي عن خارطتك -خارطة مجموعة الاتصال- ولا تدعي الجانب الصربي يكافأ على الإبادة الجماعية التي ارتكبها".

بعد ذلك، دافع الوفد البريطاني عن الطلب الصربي الذي يتضمن إنشاء ممر أعرض لبرتشكو، دون إخفاء الرغبة الصربية بالانفصال، وكنت قد اعترضت قائلاً: "إنكم هنا لمساعدتنا على الحفاظ على وحدة الدولة. والعالم لا يعرف أننا واقعون تحت الضغط هنا. عليكم ألا تكونوا داعمين للقتلة. إن ميلوشيفتش يريد رفعاً للخطر، وهو يريد ذلك بشكل بائس، اضغطوا عليه، وليس علينا". قلت هذا مبدياً قلقي بوضوح.

تابعت نيفيل-جونز حديثها بالنبرة ذاتها، قائلة بأن مواقفنا قد تكون أضعف بكثير من مواقف الصرب في حال توقّف المفاوضات، وقد تكون التبعات علينا أصعب بكثير ممّا قد تكون عليهم. حاولتُ أن أبيّن أن ميلوشيفتش أراد فحسب توسيع الممر بحيث يتمكن من اقتطاع جمهورية الصرب، وعليه فإنّ على بريطانيا العظمى ألا تدعم الانفصال. واستمرت المجادلة عنيفة. وكان تعليق سيلادجتش كما يلي: "لقد ارتكب الصرب إبادة جماعية وخلقوا هذا الوضع المأساوي ولا يحق لك الدفاع عن مواقفهم". هنا تدخلتُ وقلتُ بأننا كنا قد وافقنا على هذه المفاوضات فقط بعد قبول ميلوشيفتش خطة مجموعة الاتصال، لم ترفق قضية ممر برتشكو بتلك الخطة. لذا قلت لها "عليك أن تذكّريه بهذا وتهدّديه". وهكذا غادر أعضاء الوفد البريطاني وهم غير راضين عن نتائج الاجتماع.

وصلت أخبار تمرّد البوسنيين الكروات على تودجمان، وهو التمرد الأول بعدما حصل في كليوتش عام ١٩٩٢. لقد رفض زوباك تسليم بوسافينا للصرب، وهو ما وافق عليه تودجمان من قبل، وربما تعامل مع بديل من منطقة بارانيا وهي منطقة نظيفة (من الصرب). فقال تودجمان لزوباك محتجاً "ستكون بك أو من دونك". فكانت إجابة زوباك "إذن من دوني".

بعد ذلك تابعنا حوار اليوم السابق مع شفارتز كريستيان شيلينغ. وكرر شيلينغ اعتقاده حول الحاجة لتدعيم الاتحاد كعامل في توحيد البوسنة والهرسك. ووافقنا على المسائل ذات الطبيعة المالية، وعلى المعضلة التي قد يواجهها الاتحاد أمام المجتمع الدولي عندما يتعلق الأمر بالدين، وعلى نوع العلاقة المالية التي ستكون له مع المجتمع الدولي مقارنة مع الدولة. وأكد شاتشيربيغوفيتش على وجوب امتلاك الدولة وسائل لسداد الدين. وعبر سيلادجتش عن رأيه في أن الاتحاد قد لا يقدر على الظهور كعضو في المجتمع الدولي لأن ذلك يتطلب تفويض الحكومة المركزية. وكان قد تقرر أن تدعى السيدة واليتش من البنك الدولي لإحضار التوضيحات المطلوبة. وكررت تقييمي الحيوي لعرض الخرائط، مشدداً على أننا واقعين تحت ضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى لقبول تلك الخرائط المعروضة، وأخبرت الوفد بأن إجابتنا كانت واضحة: "إن هذه خارطة حكومتكم وليست خارطتنا. دافعوا عن خريطتكم. وإن استمر الضغط، فسنتحدث إلى الصحافة".

وفي المساء قابلنا السفير شتاينر وكريستيان كلاجيه من وزارة الخارجية الألمانية. وقد اقترح كلاجيه بأن نصحح ملاحظاتنا المقترحة حول "عناصر المبادئ المتفق عليها بشأن سرايفو". وكانت لنا مجادلات على الحكم بخصوص الفترة الانتقالية وطريقة تعبئة الأفراد، وكذلك على المخطط الذي سيكون عاملاً إلى وقت عقد الانتخابات. وكان عرض شتاينر أن يكون الرئيس في السنتين

الأولين بوسنياً. واقترحت بدلاً من ذلك أن يكون الرئيس هو المرشح الذي يحصل على أعلى عدد من الأصوات. وتابعنا الحديث متكلمين عن البنية العسكرية وطريقة القيادة العسكرية. وعندما وصلنا إلى الحديث عن الحكومة، اقترحت أن تكون حكومة خبراء.

وفي الظهيرة قابل وفدنا كارل بيلدت والمديرين السياسيين لوزارات الخارجية البريطانية والألمانية والفرنسية. وتحدثنا عن مشاكل السلامة في سرايفو بعد مغادرة قوات الأمم المتحدة. واقترحنا قوة شرطة دولية. ومرة أخرى أخبرت أولئك الحاضرين بأن الخرائط التي كانت لا تزال على الطاولة غير مقبولة لنا، خاصة فيما يتعلق بممري برتشكو وشرق البوسنة.

وبعد ذلك، قابلتُ شاتشيربيغوفيتش وجون شاتوك، مساعد وزير الخارجية الأمريكي لحقوق الإنسان. بما أن هذا اللقاء تزامن مع عودة شاتوك من البوسنة، كان سؤالي الأول متعلقاً بالأوضاع في بانيا لوكا. فأجابني شاتوك بأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص المفقودين، وأوضح مشكلة العمل الإجباري في المناطق الخاضعة للصرب. وقال شاتشيربيغوفيتش بأن ميلوشيفتش عرّف هذه المناطق بأنها معسكرات احتجاز، ولكن برر وجودها بعذرٍ هو أن "على كل واحد أن يعمل". وأجاب شاتشيربيغوفيتش على النحو التالي: "لدينا قرار من مجلس الأمن الدولي، يقول: إن معسكرات العمل يجب أن تلغى، وإنه يجب على كل طرف الإذعان للقرار". وذكر جون شاتوك وضع سبعة عشر سجيناً، هم موظفو "ميرهاميت" الذين رآهم مندبو الصليب الأحمر الدولي، حيث أدعى الجانب الصربي أنه كان راغباً في مبادلتهم. وبهذا الخصوص، طلبنا مساعدته لضمان حصول المبادلة، وهو الأمر الذي وعد به.

جاء هولبروك ثلاث مرات خلال اليوم، وفي كل مرة كان يجلب عرضاً جديداً.

الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): عُقدت محادثات بحضوري وحضور كلٍّ من وزير الخارجية كريستوفر والسفير هولبروك، وسيلادجتش وشاتشيربيغوفيتش وزوباك. عبَّر كريستوفر عن رضاه أن أتيحت له الفرصة وهو في طريقه إلى اليابان، أن يمكث في دايتون مدة يوم، وأن يتحدث مع رئيس كل وفد مفاوض. وعبرت له بأننا لانزال تحت الضغط لقبول حل جغرافي يختلف كلياً عن خارطة مجموعة الاتصال. وأكدت أن هناك حداً لا يمكننا تخطيه. وسلمت رسالة لوزير الخارجية (موجهة كذلك إلى جميع مندوبي مجموعة الاتصال في دايتون) فصّل فيها وفدنا شكاويه. كان مضمونها أن الرئيس الصربي ميلوشيفتش قد تلقى تعليقاً للعقوبات على أساس قبوله بخطة مجموعة الاتصال التي كان يجري تجاهلها. ونحن جئنا إلى طاولة المفاوضات على شرط أن تحترم خطة مجموعة الاتصال، وكنا مستعدين لمناقشة تغييرات على خريطة مجموعة الاتصال حالة إذا ما قدمت صيانة التوازن الكمي والنوعي. وفي مناقشة الممر القريب من برتشكو، أشار زوباك إلى أن إصرار ميلوشيفتش على ممر عريض لأنه كان يحسب حساب التقسيم. ولم يكن هذا واضحاً فحسب، بل كان غير مقبول أيضاً.

وخلال النهار، جاء كريستوفر ثلاث مرات بعد محادثاتٍ قام بها مع ميلوشيفتش وتودجمان. وكانت المرة الأخيرة التي قدم بها بعد منتصف النهار. وفي كلٍّ من هذه الاجتماعات، تمت مناقشة الخارطة، ومناقشة إمكانية قبول بناء محطة "لتوليد الطاقة الكهربائية بواسطة المياه" في فوتشا وفي جزء من نهر درينا من أجل تغطية حاجاتنا الكهربائية، وناقشنا استعادة سريبرينيتسا وجيبا... إلخ. وأعلمنا كريستوفر أن الصرب رفضوا بشكل مطلق أن يعيدوا دوبوي وأن المحادثات من الآن فصاعداً متعثرة.

كانت سراييفو موضوع الاجتماع الثالث. وقد قدّم الفريق الأمريكي نعرض المعدّل لـ"عناصر المبادئ المتفق عليها بشأن سراييفو". وقد كانت الورقة

غير مقبولة على الإطلاق، لأنها اشتملت على تقسيم المدينة؛ حيث نصّ العرض أنه يجب على كل بلدية أن تبقي على قوة شرطة محلية. وبعد ذلك تم الاتفاق على وجوب اقتراح خبرائنا اقتراح البدائل الضرورية. وقد أكد وزير الخارجية على أن الأمريكيين كانوا- بشكل مطلق- إلى جانبنا في هذه المسألة، أن الرئيس بيل كلينتون قد قضى ثلاث ساعات مع الكونجرس متحدثاً عن البوسنة، وذلك لتأمين الموارد اللازمة لنا من الميزانية. ثم تحوَّل كريستوفر إليَّ مباشرة قائلاً: "إننا في الحقيقة نريد أن نساعد. وفي هذه اللحظة لدينا فرصة عظيمة لإنشاء دولة متحدة، ولإنهاء الحرب وللحصول على موارد مالية لإعادة البناء، وإنني أناشدكم عدم تفويت هذه الفرصة الفريدة. أنتم، سيدي الرئيس، في هذه اللحظة الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يشير إلى ضرورة اقتراب إيجابي من هذه العروض. لا تدعوا التفصيلات تطغى على الجوهر، فهي غير مهمة جداً مقارنة مع ديمومة الحل.

إننا نضغط على ميلوشيفتش ليتخلى عن كرادجتش وملادتش، حيث يمكننا حقيقة أن نطبق أشياء نتفق عليها في دايتون. فإذا حقّقنا اتفاقية مستقرة هنا، فإن الكونجرس سيدعم إرسال قوات إلى جانب قوات التنفيذ الدولية. ولكن إذا لم يحدث هذا، فإن بعض الناس في الولايات المتحدة سيكونون سعداء وسيقولون: "دعونا نعلن عدم مسؤوليتنا عن أي شيء يحدث؛ فقد حاولنا مخلصين، لكن ليس هناك ما يمكننا فعله أكثر من ذلك" وبعد ذلك أخبرنا وزير الخارجية كريستوفر: أنه قد يعود إلى دايتون يوم السبت، في الثامن عشر تشرين الثاني (نوفمبر)، وقد يقدم مساعدته في مسائل اللحظة الأخيرة.

وبعد ذلك، استقبلتُ ممثلي الاتحاد الأوربي وكارل بيلدت وثلاثة مديرين في وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والألمانية. وقد مهّدتُ للاجتماع بمناقشات اليوم السابق وبالمشكلات المحيطةِ بالحدودِ الداخلية.

وفي المستقبل، استقبلتُ وسيلادجتش كلاً من ميلوشيفتش وبولافتش، وتحدثنا عن سراييفو وإطلاق سراح الأسرى.

الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): كانت الأحداث تجري دون تقدّمٍ ملموس. وكانت إمكانية إجراء أي اتصال إقليمي آمن مع غوراجده معدومة، أما سراييفو فقد كانت معضلتها في ذلك الوقت قد حُلّت جزئياً، ولكنهم [أي الصرب] كانوا غير راغبين بتسليم سريبرينيتسا وفوتشا وفيشغراد. وبقي أيضاً عدد من المسائل الدستورية غير محلول. وفي الوقت ذاته، كان هناك ضغط من قِبل جميع الجوانب؛ فالرئيس شيراك ورئيس الوزراء ميجور والرئيس ديميريل جميعهم كانوا قد أخبروني بالهاتف الشيء نفسه: هذه أفضل فرصة متوافرة لتحقيق سلام مُرضٍ، وقد تُصبح الأمور بعد ذلك أكثر صعوبة. كذلك جاء كارل بيلدت برسالة من وزراء الاتحاد الأوربي تخبر في أن المفاوضات التي كانت تراوح مكانها، يجب مواصلتها والعثور على حل. وقريباً قد لا تكون هناك مفاوضات جديدة. وهذه هي الفرصة الأخيرة "للحاق بقطار السلام". وقد كانت الرسالة متماثلة تقريباً مع ما قبلها؛ فخط اليد الأمريكية يمكن التعرف عليه فوراً.

بعد ذلك، عقدت اجتماعاً مع جون شاتوك والسفير مينزيز وجاك زيكولتش من وزارة الخارجية. وتركّزت المحادثات حول الأسرى في منطقة بانيا لوكا. وقد تم الاتفاق على أن يقدم شاتوك عرضاً بخصوص إطلاق سراح جميع الأسرى المدنيين، مستدعياً قرار مجلس الأمن رقم ١٠١٩ بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٩٥، والذي طُلب بناءً عليه من البوسنيين الصرب أن يسمحوا بمرور آمن للأسرى من سريبرينيتسا وجيبا، وكذلك للأسرى من مناطق بانيا لوكا وسانسكي موست. ووفقاً لهذا القرار، كان سيسمح للصليب الأحمر بتسجيل جميع الأسرى وأن يسمح لهم بالدخول إلى جميع أماكن أسرهم. وأبلغنا جاك زيكولتش بطلب الصرب بأن يصوت المهاجرين والمهجَّرين في

المكان الذي كانوا فيه وللبلدية التي كانوا فيها في وقت الانتخابات. وهذا ما رفضته بحزم.

وكذلك كان المندبون الكرواتيون إلى جانب السماح لأولئك الناس بالتصويت حيث يقيمون الآن. أي في تلك الأماكن التي استولوا فيها على ممتلكات الآخرين وبيوتهم. وكان هذا هو إجراء بي-٢ (p-2) المستقبلي المشهور. وكان رأينا مختلفاً ويقضي بأن يصوِّت المهاجرين والمهجرين في البلديات وللجان حيث كانوا يقيمون في عام ١٩٩١. وكان معنى هذا المدخل المختلف واضحاً؛ فقد أراد الجانب الصربي والكرواتي -على الأقل من خلال الناس الذين مثلوهم عندها- المحافظة وتدعيم الصورة الديموغرافية التي صنعتها الحرب للبوسنة والهرسك. ومثل هذا الوضع الديموغرافي يضمن على الأقل إمكانية تقسيم البوسنة إلى ثلاثة أقسام. ولم يكن هناك أي استخدام آخر تذكر فيه السياسات المختلفة تجاه وجود ومستقبل البوسنة أكثر وضوحاً من استخدام صيغة بي-٢.

وكذلك حددّتُ المشكلة التي تَحفُّ تفسير مصطلح "الإشراف" على الانتخابات من قبل منظمة الأمن والتعاون في أوربة؛ فالصرب فهموا هذا على أنه وجود في الانتخابات فقط، بينما بدا الأمر بالنسبة إلينا أنه تنظيم لتلك الانتخابات، والإشراف عليها. وبعد اقتراحنا التصويت وفقاً لإحصاء عام ١٩٩١م، كان موقف الحكومة الأمريكية أنه على منظمة الأمن والتعاون في أوربة أن تسجل جميع اللاجئين، وأن تعقد صفقة مع تلك البلدان التي كانت قد قبلت لاجئينا. وذلك ليصوتوا دون خوف من أن تقوم البلدان المضيفة لهم (ألمانية، النمسا، سويسرة) بإعادتهم مباشرة إلى البوسنة.

وبعد ذلك قابلَ وفدنا كارل بيلدت ومندوبي الاتحاد الأوربي الثلاثة. واعترضت السيدة نيفيل-جونز على "ما أسمتهُ" إساءة المعاملة الإنسانية مع العمال ومندوبي الأمم المتحدة في وسط البوسنة. وبدوري أكّدتُ لجميع

الحاضرين أنني قد أمرتُ بالتحقّق من الاتهامات. وسألَ كارل بيلدت عن مدى نضج المفاوضات. وأجبته بأنه -ولسوء الحظ- لم تكن هناك أي أخبار سارّة، على الرغم من العمل في اليوم السابق بشأن الخرائط من التاسعة صباحاً إلى الثانية عشرة منتصف الليل. والمشكلة هي أن حلول ميلوشيفتش اختلفت كلياً مع خرائط مجموعة الاتصال. وبعد ذلك نتابع العمل على الملحقات. لكن كانت هناك اختلافات على الكثير من المسائل. وقد عبّرَ الوزيرُ شاتشتربيغوفيتش عن رأيه القليل التفائل وسلّط الضوء على تلك المدلولات التي تنوي تقسيم البلاد.

اقترحَ السفيران أيشينغر ونيفيل-جونز أن أذهبَ إلى الكونجرس وأطلب دعماً كاملاً لضمان تنفيذ الاتفاقية. ولما كنتُ أعرفُ مسبقاً الموقف الأمريكي، قلتُ: إنّه كان بإمكاني أن أفعل ذلك فقط حال وجود وثيقة ذات قيمة، لأن الكونجرس طلب اتفاقية واضحة وقوية. وأكد لنا سفراء الاتحاد الأوربي أن حلف شمال الأطلسي كان مُصمِماً على قيادة الجنود فوراً بعد توقيع الوثيقة وأن الصعوبات حول هذه المسألة لم تنشأ من أوربة بل من الولايات المتحدة.

ثم جاء حفل توقيع الاتفاق على إنشاء مجلس التعاون بين الجمهورية الكرواتية وجمهورية البوسنة والاتحاد. وكنت قد قُدتُ وفدنا وقاد تودجمان الوفد الكرواتي. وعند انتهاء الحفل، عقدنا اجتماعين قصيرين مع هولبروك. وكان هذا مواصلة لمناقشاتنا حول تحديد الحصص الجغرافية.

السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): في الصباح الباكر عقد اجتماع بين وفدنا وبين بيلدت مع ثلاثة مديرين سياسيين من وزارات الخارجية في كل من ألمانية وفرنسة وبريطانية العظمى. وقد ناقشنا في ذلك الاجتماع توقيت المؤتمرات الثلاثة؛ في باريس حيث قد تُوقّع اتفاقية السلام، وفي لندن بخصوص إعادة البناء الاقتصادي للبوسنة والهرسك، وأخيراً في بروكسل حول تطبيق الأوجه المدنية لاتفاقية السلام. وسأل الرئيس زوباك -الذي استقال فيما بعد-

حينها: "ما أهمية الاتفاقيات إذا خسرنا الناس لكونهم لن يرجعوا إلى بوسافينا لأنها ما تزال تحت السيطرة الصربية؟". فأجبته قائلاً بأنني سأكون متفائلاً بعض الشيء إذا كان من مقدورنا تأمين حلٍ لغوراجده. وأبلغت المنظمين أنني قد تكلمت عبر الهاتف للتو مع البروفيسور جانيتش، الذي كان في سرايفو. وقد حذرنا جانتش من أن الدعاية الصربية، بقيادة كارادجتش، قد أرسلت رسالة إلى البوسنيين الصرب بألا يقبلوا الخطة.

ثم استقبلت وسيلادجتش وشاتشيربيغوفيتش انثوني ليك مستشار الرئيس بيل كلينتون للأمن القومي. والتحق السفير هولبروك بالاجتماع. وأبلغنا ليك أنه تكلم مع الرئيس بيل كلينتون للتو، وأنه جلب لنا رسالة قوية من الإدارة الأمريكية في فحواها أنه قد حان الوقت لإيجاد حل. وقد وضع قائمة بالإيجابيات التي قد تحققت حتى الآن في المفاوضات: بوسنة وهرسك موحدة ضمن حدود مُعترف بها دولياً. وقد كان هذا في نظره حلاً مبرراً أخلاقياً. وشدد على حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تجبر أحداً -يؤمن بأن هذا الاتفاق يعتبر مقبولاً- على توقيع الاتفاق. ولم يكن دور الولايات المتحدة في هذا الأمر كله الوصول إلى اتفاق فحسب، بل كان دورها أيضاً العثور على الاتفاقية الأفضل التي يمكن إنجازها. فلو أن المفاوضات لم تكن جِدَّ فاعلة في دايتون، لكان قد جرى في باريس اتخاذ قررات بخصوص المسائل التي لم يتم إيجاد حلول لها. وقد أشار إلى أن الكونجرس كان منقسماً حول إرسال قوات أمريكية إلى البوسنة، وكذلك حول الاستعداد لتقديم امتيازات. وكان كل هذا على الرغم من أن الناس يلقون الضوء دائماً على الأشياء التي لم تُنجز بالمقارنة مع تلك التي أُنجزت.

وشَرحتُ بأنّنا قُمنا بِكل ما بوسعنا. وأبلغت ليك بالدعاية الصربية التي شجعت البوسنيين الصرب على عدم قبول أي اتفاق. وقد نصحنا هولبروك بأن ميلوشيفتش قبل ممر غوراجده، ولكن ليس بعرض يزيد على ثلاثة كيلومترات،

وأنه كان مستعداً لإعادة غرابافيتسا إذا اكتسبت دولة الصرب أجزاء على الجانب الشمالي الشرقي لسرايفو. وشرح رئيس الوزراء سيلادجتش أن الصرب أرادوا ممراً ضيقاً لغوراجده ليكون الناس خائفين فيتركوا المدينة. ومن جانبه، أوضح شاتشيربيغوفيتش أن هناك آليات ثابتة غير كافية لتطبيق الاتفاقية، وكذلك قوات الشرطة الموجودة لضمان سلامة عودة اللاجئين، وللإشراف على الانتخابات.

وعبَّر ليك عن الاهتمام بخصوص رفض بعض أعضاء الكونجرس قبول مشروع "دلتا" (برنامج تجهيز جيشنا وتدريبه من قبل خبراء أمريكيين). وسأل شاتشيربيغوفيتش فيما إذا كان ممكناً مناقشة أمر إقامة علاقات خاصة بين البوسنة والهرسك أو عوضاً عن ذلك إمكانية مناقشة مذكرة حلف شمال الأطلسي التي تفيد أن البوسنة هامة للاستقرار الكلي لأوربة، وكذلك لحلف شمال الأطلسي. وأشار سيلادجتش إلى المشكلة في منطقة السنجاق، وخصوصاً أنه لم تكن أي بعثة من منظمة الأمن والتعاون في أوربة هناك. وطالب ببدء المباحثات حول المسألة مع الأوربيين.

وكانت هناك استراحة للغداء، وبعدها تكلمنا مرة أخرى مع أنثوني ليك والسفير هولبروك. وفي المناقشة حول التوزيع الجغرافي الحصصي، أوضحت أننا لن نتساهل أكثر وأنه من الضروري معرفة ما إذا كان ميلوشيفتش جاداً بخصوص هذه المفاوضات. وأخبرنا هولبروك أن الجنرال جولوان قد يتكلم مع ميلوشيفتش في اليوم التالي وسيشرح له أن ممر غوراجده- وعرضه ثلاثة كيلومترات فقط-غير مقبول من وجهة نظر عسكرية، وأن غرابافيتسا لن تصبح مهما حصل مدينة صربية. وكذلك أبلغنا أن ميلوشيفتش كان قد وافق على وجود حلف شمال الأطلسي بناء على شروط الحلف، الأمر الذي يعني وجوده دون ازدواجية.

السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): عُقِدَ اجتماع مع ويليام بيري، وزير الدفاع الأمريكي، وكان هولبروك حاضراً. وذكر بيري أن هذه في رأيه كانت لحظة تاريخية، وأن كل شخص في واشنطن كان يترقبها وأنه قد أحرَزَ تقدماً عظيماً مقارنة مع الوضع قبل أسبوعين. وأوضح أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مستعدة للمشاركة في قواتها لتطبيق الاتفاقية، ولكن قد تكون هناك حاجة للدعم الروسي؛ لكي يمكن تطبيق الخطة بأقل قدر ممكن من المخاطر. وأفادنا أنه ليس للأوربيين الالتزامات ذاتها تجاه البوسنة. وزيادة على ذلك، كان قد أعد كل شيء لإنشاء اتحاد قوي. وأوضحتُ أن كريستوفر-وزير الخارجية- قد تقدم بالعرض الجغرافي الذي قبلناه، ولكن الصرب رفضوه، وأنه بهذه الطريقة قَدّمنا تنازلات ضخمة. وأفاد هولبروك أنه نتيجة لحديثه الطويل مع ميلوشيفتش في الليلة السابقة، وافق الأخير على أن يكون عرض ممر غوراجده ثمانية كيلومترات. وأشار بيري كذلك إلى اشتراك حلف شمال الأطلسي، وأشار أيضاً إلى أن ذلك كان مهماً ليس بالنسبة للبوسنة فحسب وإنما لأوربة أيضاً. وبعد ذلك قامت الوكالة الأمريكية بوضع خرائط لجولة في منطقتنا، حيث عُرِض شريط فيديو للممر وكذلك عُرِضت شرائح جوية خاصّة بمنطقة غوراجده.

وعندما استؤنف الاجتماع، التحق الجنرال جولوان بالمناقشة. وأكّد - في اجتماع له مع الرئيس بيل كلينتون-على أن الروس قد وافقوا على وضع قواتهم العاملة ضمن قوات التنفيذ الدولية تحت إمرَةٍ أمريكية خلال عشرين يوماً. وكنتُ قد علمتُ من قبل بهذه المعلومة الغير اعتيادية والتي كشفت تعقيد العلاقات بين هذين البلدين.

أعلمنا هولبروك بأن ميلوشيفتش وافق على طلبنا، بأن تُنشر قوات التنفيذ الدولية فوق كامل الأراضي البوسنية، وأَخبرَنا أيضاً أن هذه كانت خطوة إلى

الإمام بكل تأكيد. وأوضحتُ له أنه ليس على الصرب أن يَنسحبوا من غرابافيتسا والمقبرة اليهودية -منطقتين من مناطق سرايفو- فحسب، بَل عليهم أيضاً الانسحاب من التلال المشرفة على المدينة. وعبَّر الجنرال جولوان قائلاً: "شَرحتُ لميلوشيفتش أن قواتنا ستكون عرضة للهلاك إذا بقيت القوات الصربية على التلال المشرفة على المدينة، كما شَرحتُ له بأننا سنرد بقوة إذا تعرضنا لأي هجوم".

سأل شاتشيربيغوفيتش ما الذي قد يحدث لو هُوجمَ المدنيون، وهل ستتصرف القوات الدولية على نفس الشاكلة. ولم يعطِ الجنرال إجابة مباشرة. وطالبت بأن تُنشأ المنطقة الخالية من الوجود العسكري حول ممر جورازدي من كيلو مترين إلى كيلو متر واحد من كل جانب، واقترحتُ بأن الناس سيمكثون في المدينة إذا شعروا بالسلامة، وإذا لم يشعروا فسيغادرون. فأوضح جولوان أنه سيصر على أن يتم التوقيع على الملحق العسكري من قبل مندوبين من جمهورية الصرب كذلك. ولم أوافق على هذا لأن ميلوشيفتش كان مخولاً بالتوقيع باسم البوسنيين الصرب فقط. وشرح هولبروك أن الكونجرس لن يُرسل قوات دون أن يوقع المندوبون العسكريون لجمهورية الصرب على الملحق ذي الرقم واحد (الملحق العسكري). وقال هولبروك في هذا الإطار: "إننا لا نقسِّم بلدكم، إنه مجرد توقيع بأن جيشهم يوافق على وصولنا". ولم يبد التوضيح مقنعاً على نحو ما. وتلت ذلك مناقشة طويلة حول قانونية توقيعهم وحول من سَيُوَقّع الملحق العسكري.

وبعدها وفي مساء ذلك اليوم استقبلتُ بيلدت والمديرين السياسيين الأوربيين الثلاثة. وشرحتُ وضع الخرائط، وكذلك شرحت نقاطاً حيوية وعملية حول عرض ممر غوراجده. وتكلم زوباك عن حل للمسائل المتبقية، وخصوصاً حول البنك المركزي والنظام النقدي المتبادل. وقد تلى ما تقدم مناقشة حول

الانتخابات، بما في ذلك كيف سيصوت اللاجئون؟ هل سيكون ذلك في المكان الذي سَجّلوا فيه في عام ١٩٩١ أو حيث يقيمون حالياً؟ وأوضحَ بيلدت الصعوبات وطلبَ أن يدير المجتمع الدولي الإشراف على الانتخابات فحسب. وهذا ما رَفضناه في وقت سابق. وأجبت بطلب حضور مراقبو منظمة العمل والتعاون الأوربي ومؤسسات دولية أخرى في وقت أقرب، وخلال الحملات الانتخابية، وليس في وقت الانتخابات.

وخلال الليل، عقدتُ اجتماعاً مع وزير الخارجية كريستوفر والسفير هولبروك. وحضر سيلادجتش وشاتشيربيغوفيتش الاجتماع. وأخبرنا كريستوفر بأنه قد أُبلغَ بنشاطاتنا المكثفة، وباجتماعتنا مع الوزير بيري والمستشار كول ليك، وعبر عن رضاه عن التوسعة المقترحة لمر غوراجده. وأوضحت بأنه لم يكن هناك حل حتى حينه لبناء محطة طاقة هيدروكهربائية على نهر درينا وأن مشكلة برتشكو بقيت دون حل. واقترح هولبروك أن تقترح أمريكا ضماناً مكتوباً لمحطة طاقة هيدروكهربائية ولبعض البنود الأخرى. وبعدها أَفدتُهم أننا قد نسعى في اليوم التالي لإنهاء معادلة الخارطة، وفي اليوم الذي يليه سوف ننهي المسائل المتبقية دون حل.

الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): أَبلَغنا السفير ميتريز والجنرال كيريك بضرورة إنجاز اتفاقية هذا اليوم قبل منتصف الليل، وذلك للتّمَكّن من إنهاء الوثائق، ولكي يتم التوقيع بالأحرف الأولى في يوم الإثنين. وكرّرتُ بأنه إذا لم يكن اتفاق حول برتشكو، فلن يكون هناك أي حل، ولا أي احتفال. فالتحق وزير الخارجية كريستوفر بالمباحثات وقال: إننا قد وصلنا إلى مرحلة من الضروري فيها تحديد فيما إذا ستستمر المفاوضات أو ستعلق. ومن ثمّ أكد على توقيت الاتفاقية والحفلة التي كانت قد وضعت لنا في وقت مبكر من ذلك اليوم.

عرض السفير هولبروك المكاسب التي ستحققها البوسنة من اتفاقية السلام، وأدرجها على النحو التالي:

١- حكومة وطنية واحدة ذات دستور ديموقراطي، ومؤسسات مركزية وتواصل واعتراف بالبلد، وحرية السفر في طول البلد وعرضها، ورئيس بوسني لأول فترة انتداب، وانتخابات مباشرة للرئاسة والبرلمان، والحماية الحازمة لحقوق الإنسان، واستبعاد مجرمي الحرب من السلطة الحكومية، وانتخابات حرة في الكيانين قد يتم الإشراف عليها من قبل المجتمع الدولي، وبنكاً مركزياً بنقد واحد، وبرنامج مكفول دولياً لتدريب الشرطة والإشراف عليها.

٢- إعادة بناء اقتصاد دولة (هبات دولية)، وبرامج صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لإعادة الإعمار والتنمية مع النية بإعادة بناء سريعة، وشطب قسم كبير من ديون البوسنة، واعتمادات وضمانات لإعادة بناء البنية التحتية، وعضوية واعتمادات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ودعم ابتدائي من الولايات المتحدة الأمريكية بمبلغ وقدره خمس مئة مليون دولار أمريكي.

٣- قوات دولية إيفور (IFOR) يقودها حلف شمال الأطلسي تحت إمرَة أمريكية؛ مكونة من ستين ألف جندي منهم عشرون ألف جندي من الأمريكيين، وفصل للقوات ولكن بوجود القوات الدولية في الكيانين، ومراقبة تسلح إقليمية، ورفع لحظر الأسلحة، وتكافؤ عسكري مع القوات البوسنية الصربية.

٤- اتحادٌ مُدعّم بشكل ملحوظ (إذ إن الاتفاقية الجديدة للاتحاد ستضمن تعريفاً واضحاً للقوى الحكومية وستضمن أيضاً تفكيكاً لحكومة البوسنة والهرسك).

٥- قد تتسع مساحة المنطقة الاتحادية من ٥٠٪ إلى ٥٥٪ خلال المفاوضات[١]، وسيكون هذا الاتحاد إقليماً متضامناً وقابلاً للاستمرار. وكانت غوراجده منطقة مُؤمّنة ومُمكناً الوصول إليها، وأن القوات الدولية إيفور (أو آخرون) سَيبنون طريقاً جديداً خلال ممر غوراجده، إلى أن يكتمل، فإن القوات الدولية ستراقب بشكل كامل طريقي

---

(١) قد تهبط هذه النسبة في مكان ما لتكون أقل بقليل من ٥١٪ مرة أخرى.

روغاتيتسا وفوتشا. وكانت هناك أيضاً لجنة لتطبيق الاتفاقية، وقد تقود هذه اللجنة مجموعة توجيه من بروكسل بينما قد يتم تنسيق عمل وكالات دولية أخرى مختلفة من قبل تمثيل عالٍ من ضباط في سراييفو، ووفقاً للحاجة إلى ضمان وإيجاد مقاييس ضرورية للثقة وحماية حقوق الإنسان، فإنه قد يتم الإشراف من قبل منظمة العمل والتعاون في أوربة والمنظمات الأخرى.

٦- حماية أقوى لحقوق الإنسان، وضمان حقِّ عودةِ اللاجئين أو تعويض مقابل فقدان الممتلكات، ودعم محاكم جرائم الحرب، وإطلاق سراح جميع الأسرى، وتبادل أسرى الحرب، وإنشاء لجنة للتحقيق في جرائم الحرب.

٧- موافقة بلغراد على تطبيع العلاقات بين البوسنة والهرسك بما في ذلك إضافة معايير الثقة (زيارات الرئيس عزت بيغوفتش، ورئيس الوزراء سيلادجتش وسلطات أخرى إلى بلغراد، وربط نقل جوي مباشر بين بلغراد وسراييفو، واعتراف بلغراد بسيادة البوسنة ووحدة أراضيها، وفتح سفارات في بلغراد وسراييفو، وتعاون في مسائل النقل واستخدام الكهرباء والماء والغاز، وتعاون تجاري واقتصادي، وتأسيس "خط ساخن"، ونظام اتصالات هاتفية مباشرة، وغرفة تجارة مشتركة، وتعاون ثقافي ورياضي وعلمي، وتبادل لزيارات وفود القوات المسلحة وإيجاد اتحاد جمركي، إلخ...).

لاحظ سيلادجتش أن مندوبي الاتحاد الأوربي كانوا ضد فكرة تنظيم منظمة الأمن والتعاون في أوربة للانتخابات. ولكن سيلادجتش بيَّن أنه عند ذلك سيكون من المستحيل الحديث عن انتخابات "بقيادة دولية". وبخصوص إمكانية رفع الحظر عن صربيا، شدد السفير هولبروك بأن هذا سيحدث فقط بعد انتخابات حُرة ونزيهة.

وبعد ذلك جرت مباحثات حول الجغرافية والخرائط مرة أخرى. وأبلغنا هولبروك أن ميلوشيفتش كان قد طلب أن يكون الممر قرب برتشكو بعرض خمسة عشر كيلومتراً، ولكن هولبروك أخبره بأن ذلك مستحيل بالنسبة إلينا. وأوضح سيلادجتش بأن هذه القضية لا يمكن لها أن تبقى دون حل. ومن

جهتي طالبتُ بتنفيذ حل قضية برتشكو وفقاً لخطة مجموعة الاتصال. فرد هولبروك قائلاً: "إنه لم يَكن بإمكاننا تأمين ممر برتشكو وأن موقفنا العنيد يعني العودة إلى ساحة المعركة". وذكّرنا وزير الخارجية كريستوفر بأن ثمن السلام كان باهظاً وأنه كان من المستحيل بالنسبة لنا تحقيق المزيد.

بعد ذلك، انضم لنا ديفيد ليبتون من البنك الدولي. وتحدثنا عن إنشاءِ عملة خاصة ومؤسسة مالية خاصة. وبعد نقاش طويل، وافق زوباك على العروض.

تبع ذلك إيجاز يومي مع كارل بيلدت والمديرين السياسيين الأوربيين الثلاثة. وكان هذا جزءاً من جدولنا اليومي. وفي هذه المَرّة جرت مناقشة المشاكل التي لم نجد لها حلاً من خلال الخرائط والنصوص القانونية. وأشار رئيس الوزراء سيلادجتش إلى مشكلة ساندزاك على وجه الخصوص، وأصَرّ على ضرورة إرسال مراقبي حقوق إنسان أوروبيين إلى داخل منطقة السنجاق.

فيما بعد عقد اجتماع مع وزير الخارجية كريستوفر والخبير المالي مرة أخرى. فطالبتُ ببيان حول الدعم المالي المستقبلي. وكذلك طالبتُ بحلٍ لمسألة كيفية تصويت اللاجئين، حيث سَجّلوا أم حيث يعيشون حالياً. وخلال مناقشة جديدة حول التوزيع الجغرافي الحصصي أكدتُ أنني لم أكن مستعداً للمزيد من مناقشة المسألة وأنهيت الاجتماع ذلك لعدم الرضا حيال الاقتراح المتعلّق بـ(غوراجده).

ثم حصل تحوّل؛ قرّر ميلوشيفتش التنازل عن سرايفو. ويصف هولبروك هذه اللحظة المثيرة بالطريقة التالية، صفحة ٢٩١- ٢٩٢:

وأخيراً في وقت مبكر من عصر يوم السبت، طلبت من ميلوشيفتش القيام بنزهةٍ قصيرةٍ على الأقدام حول المُجَمّع الداخلي. واشتكيتُ بمرارةٍ من سلوكه الذي كان سيسبب انهياراً في المحادثات، ورَكّزتُ على سرايفو. قُلت: "يمكن المراوغة في بعض المسائل أو طرحها جانباً، لكن سرايفو لابُدّ من تسوية قضيتها هنا في دايتون". قال ضاحكاً، " حسناً. لن آكل هذا اليوم قبل أن نحل قضية سرايفو".

وبعد فترةٍ قصيرةٍ، وبينما كنت أتكلم مع هيل ويسلي كلارك، فتح باب جناحي دون إنذار، ودخل ميلوشيفتش قائلاً. "كنت بجوارك، ولم أرد تجاوز بابك دون أن أقرع بابك"، قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة. ومن الواضح أن كان لديه شيئاً هاماً يخبرنا به.

"حسناً، حسناً"، قال وهو يجلس. "ليذهب نموذج عاصمتكم واشنطن إلى الجحيم، إنه مفرطٌ في التعقيد، ولن ينجح. سأحل قضية سراييفو. ولكن عليك ألا تناقش عرضي مع أي من الوفد الصربي. إذ عليّ أن أَتَدبر أمر "التكنولوجيا" فيما بعد، بعد أن تتم تسوية كل الأمور".

"أقول لك"، تابع متحدثاً "لقد كسب عزت بيغوفتش سراييفو بعدم هجره لها، إنه رجلٌ صلب، إنها له".

ربما كانت هذه الكلمات هي الأكثر إدهاشاً والأقل توقعاً في المؤتمر. وبينما كان يتحدث، تتبع ميلوشيفتش بقلم على الخارطة، الجزء من سراييفو الذي كان مستعداً لإعطائه للمسلمين. وفي الحال، اعترض كريس هيل: لقد كان امتيازاً ضخماً، لكنه لم يكن كل المدينة. إذ أبقى ميلوشيفتش للصرب غرابافيتسا وهي منطقة رئيسية عبر النهر من مركز المدينة. وعلى الرغم من أن هذه الخطوة المثيرة كانت خطوة إلى الأمام، إلاّ أنّ عرض ميلوشيفتش لم يوحّد تماماً.

وعندما بيَّن هيل هذا، انفجرَ ميلوشيفتش وكأنه على وشك الصراخ في وجه كريس: "إنني أعطيكم سراييفو، وأنت تتحدث بتهكم كهذا!" أخبرنا ميلوشيفتش أنه بينما كان عرضه "خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح" فإنه كان من المحتمل أن يرفضها عزت بيغوفتش.

وعلى الفور مضيت وهيل لرؤية الرئيس البوسني عزت بيغوفتش الذي لم يعترف بأهمية العرض، بل على النقيض من ذلك ركّز الحديث على مساوئه.

حيثُ قال منفعلاً " لا يمكن لسراييفو أن توجد دون غرابافيتسا". إن المنطقة التي أراد ميلوشيفتش إبقاءها للصرب برزت مباشرة في مركز المدينة وكانت معروفة

للصحافيين الأجانب بـ "سنيير آلي" (زقاق القنّاصة). ومع ذلك، اعترفنا جميعاً بأن المفاوضات حول سراييفو دخلت مرحلة جديدة.

عدتُ وهيل ويسلي كلارك وقد أخذنا خريطة شوارع مفصلة لسراييفو إلى جناح ميلوشيفتش. وعندما بدأنا بفحص كل الطرق وكل المعالم والتضاريس، بدا ميلوشيفتش مرناً. وتنبأَ هيل بعد الإجتماع بأننا إذا تشبثنا بموقفنا فقد نحصل على سراييفو في اليوم التالي. وعند شعورنا بالحماسة فجأة، أجّلنا اجتماعنا وكلّنا آمال عريضة.

هكذا وصف هولبروك تلك اللحظة متسائلاً: لماذا فعل ميلوشيفتش هذا؟ اعتقد هولبروك أن ميلوشيفتش أراد أن يضعف الصرب في باليه من خلال استلام سراييفو. أمّا بالنسبة لي، فلا أعتقد أن هذا هو التفسير الصحيح، بل أعتقد أن ميلوشيفتش، وبعد ثمانية عشر يوماً من المفاوضات، أدركَ أنه لن تكون هناك تنازلات بخصوص مسألة إبقاء سراييفو موحدة، خصوصاً وأنّه قدّر أن موقف المجتمع الدولي كان ثابتاً ومجمعاً عليه في هذه المسألة.

قدّمَ الشاعر عبد الله سيدران في مناقشةٍ لاحقة تفسيره الخاص به: احتاج ميلوشيفتش إلى مئة وخمسون ألف صربي من سراييفو لتعبئة المدن المحاذية لنهر درينا. هذا ما اعتقده سيدران، وكان السؤال الذي بقي مطروحاً هو: "لماذا رفض ميلوشيفتش أي نقاش حول مثل هذه الفكرة لمدة ثمانية عشر يوماً؟" ربما لن نعرف دافع ميلوشيفتش الحقيقي، ولكن، على أي حال، تحقّقَ هدفنا في دايتون.

التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر): بدأ هذا اليوم الحاسم مبكراً جداً (أو متأخراً جداً)؛ ففي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، اجتمعتُ وسيلادجتش وزوباك وشاتشيربيغوفيتش وترنكا بروبرت أوين وفريقه من الخبراء القانونيين. وكانت المناقشات في ذلك اللقاء قد تركّزت حول مسألة دستورية خلافية.

وبسبب مطالبة زوبــاك المتكرّرة، تمّت الموافقة على وجـود مجلسين للبرلمان، وعلى تعيين للوزراء (تسمية) شريطة الموافقة عليهم من قبل البرلمان.

و في وقت مبكر من العصر زرتُ وزوبــاك وشاتشـيربيغوفيتش مجموعـة مـن علمائنـا وطلبتنـا، الذيـن كـانوا يدرسـون في أوهـايو وولايـاتٍ أخـرى مجـاورة (وكـان مجموعهـم أربعـون طالباً). وقـد حضـر وزيـر الخارجيـة كريسـتوفر وهولبروك هذا الاجتماع أيضاً في وقت لاحق. وفي محادثـة وديـة غـير رسـمية، حاولت شرح وضع البوسنة الحالي وشرحَ أهدافنا.

و قـد حـدّد وزيـر الخارجيـة كريستوفر فيمـا بعـد موعـد غـداء لـي مـع سيلادجتش وزوباك. وكـان السـفيران هولـبروك وميـتريز حَاضِرين. وتَواصـل النقاش حول مواقفنا المختلفة، وتلك المسائل الخلافيـة التـي بقيـت بـارزة. وقـد استمرَّ هذا حتى أول المساء. وأثناء فترة الغـداء هـذه أوضحـتُ مـرة أخـرى أن الخرائط كانت هي حجـر العثرة. أمّـا وزيـر الخارجيـة كريسـتوفر فقـد لَخّـص النتائج المنجزة حتى ذلك الحين. وذكّر وزير الدفاع بيري بالالتزام الـذي تعهـد به فيما يخص توسعة ممر غوراجده، وما يعتقده بيري هو أن تطوير قوات التنفيذ الدولية وزيادة فعاليتها قد يخفف من أي مشكلة. ومن ثم كـرّرتُ إدراج قضيـة برتشكو؛ فأكد كريستوفر أنه كان مدركاً لأهمية برتشكو، وأشارَ مـرةً أخـرى إلى الحل الإيجابي الذي تمّ إنجازه بخصوص غوراجده وسـراييفو، وأشـار كذلـك إلى رسالة الرئيس بيل كلينتون المُلزمة للولايات المتحدة ببدء الإجراءات المتعلقـة برفع مجلس الأمن الدولي قرارات الحظر علـى الأسـلحة علـى كـل مـن البوسـنة وكرواتية مباشرة بعد توقيع اتفاقية السلام. وقد أصـرّ الأمريكيـون علـى تنازلنـا وعلى إنجازنا للاتفاقية. فحاولت تفسير عزمي وتصميمي المتعلق بهـذه القضيـة. ولإنقاذ المفاوضـات اقـترحتُ تـأجيلَ مسـألة برتشـكو، وتوكيـل بعثـة يترأسـها أمريكيون وتتكوّن من بوسنيّين وصربيّـين وكرواتيـين بهـذه القضيـة تهـدف إلى حلّها خلال الشهرين القادمين.

وبناء على طلب كريستوفر، غادر جميع الموجودين الاجتماع باستثنائنا نحن الإثنين. وأكد كريستوفر أنه كان من بالغ الأهمية إيقاف الحرب، وأنه يقع على عاتقي أن أخفف من حدة موقفي تجاه برتشكو؛ هذا لأنه كان من السهولة أن يفقد ميلوشيفتش السيطرة على وفده، وأنه إذا واصلنا عدم تقديمنا التنازلات فإن كل شيء سينهار عندئذ. فكرّرتُ الفكرة التي تتضمن في فحواها ترك قضية برتشكو دون حل، ومن ثم شرحتُ أن شعبنا ما كان ليقبل حلاً سيئاً.

وفي اجتماع لأفراد وفدنا جميعهم، قدّم هولبروك قائمة طويلة من النجاحات التي كنّا توصلنا إليها وقائمة أخرى من التبعات التي كان من الممكن أن تترتب لو أن المفاوضات أخفقت.

ولستُ أدري متى حصل الشيء التالي، هل كان في ليلة الأحد أو صباح الإثنين؛ إذ أصبح الليل والنهار لا ينفصلان. وبالفعل، بقينا يقظين من ليلة السبت حتى يوم الإثنين. وكان سيلادجتش مشغولاً في مفاوضات مع ميلوشيفتش والوفد الأمريكي منذ أول المساء. وكنت أجلس في شقتي الصغيرة، ومن حين لآخر كنت أُبَلّغُ بمجريات المفاوضات. وكنت قد تركت سيلادجتش ليتصارع مع ميلوشيفتش في ذلك المساء؛ إذ كان يصغرني سناً وحاله أفضل من حالي. لقد جاءني سيلادجتش خلال المساء وجاء مرةً أخرى حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل قائلاً: "إن الأمور تسري بشكلٍ حسن". وعند الرابعة صباحاً كنت قد ارتديتُ ثياب نومي واستعددتُ للذهاب إلى النوم عندما طُلب مني الذهاب والاحتفال بالاتفاقية. فلبست على عجلٍ معطفاً شتوياً فوق ملابس نومي وذهبت إلى المبنى المجاور، حيث كانت المجموعة كلها قد اجتمعت: كريستوفر وهولبروك وهيل ويسلي كلارك وميلوشيفتش وسيلادجتش والآخرون. فشعرتُ بشيء من عدم الارتياح؛ إذ كنت أفكرُ بشأن برتشكو. وعندما نشروا الخريطة، كان الشيء الوحيد الذي نظرت إليه هو بقعة على نهر سافا: لاحظتُ أنها تُرِكت للصرب. كنت صامتاً للحظة. وقرأ هولبروك

أفكاري؛ فسألني متردداً إذا ما كنت راضياً، فأجبت أني لست كذلك وإنه بغير برتشكو لايكون في مقدوري قبول الاتفاقية. ولاحظتُ الذعر يعتري جميع الحاضرين. وبعدها عرفتُ لماذا،كانوا قد احتفلوا بالاتفاقيـة، وبالنهاية الناجحة لمفاوضات السلام في دايتون، فجئتُ أنا وأفسدتُ عليهم أجواء الحفلة. وبهذا تفرّقنا دون أن نقول وداعاً.

العشرون من تشرين الثاني (نوفمبر): كان هذا آخر يوم في المفاوضات؛ إذ أبقتنا الزيارات والدعوات والضغوط و الوعود والالتماسات مشغولين طوال اليوم. وكنت قد قابلت كريستوفر وميلوشيفتش وتودجمان والجنرال ويسلي كلارك وخبراء وضع الخرائط والفرق الدستورية مرات عديدة، وبالطبع كان السفير هولبروك من ضمن الذين قابلتهم.

وقبل نهاية اليوم، ذكرنا مرة أخرى أن مسألة برتشكو وما نسبته ١,٥٪ من الأراضي التي يجب علينا إعادتها للصرب -وفقاً للخرائط والعلاقة النسبية ٥١:٤٩- تركت من دون حل. وفي وقت متأخر من الليل-حوالي الساعة الحادية عشرة- زارني وزير الخارجية كريستوفر طالباً يحدثني قليلاً لأجيب على سؤالين اثنين؛ وهما بالضبط: هل كنّا مستعدين لإعطاء برتشكو للصرب؟ وهل كنّا مستعدين لإعادة الزيادة البالغة ١,٥٪ من الأراضي إلى الصرب؟ وأضاف بأنه إذا كنّا غير مستعدين لفعل هذا، عندها، فإن المفاوضات ستنتهي وستعتبر غير ناجحة. وفي الحال استشرت فريقنا، وأجبناه من خلال شاتشيربيغوفتش: "سنرجع ١٪ من الأرض، ولكنّنا لن نتنازل بشأن برتشكو". وبعد ذلك بقليل، جاءَ جون كورنبلوم إلى غرفتي وجَلبَ ورقة تفيد بأنه وعلى الرغم من الجهود المبذولة حتى ذلك الحين، فإن مفاوضات السلام لم تكن ناجحة، ولهذا السبب أُغلقت. وأنه قد تم حثّ الأطراف المتحاربة بشكل أكبر للامتناع عن صب الوقود على نار النزاع. وقد طَلبَ مني الرسول التوقيع على أنني قد استلمت الرسالة. وبالفعل وقعتها ومن ثم ذهبت لأنام بسلام وطمأنينة لأول مرة منذ خمسة أيام.

ومع ذلك، كان هناك انعطاف جديد في الأحداث خلال الليل، لقد قبل ميلوشيفتش تحكيم برتشكو. ويصف هولبروك هذا الحدث كما يلي، (ص ٣٠٨):

فجأة اندفعت كاتي إلى داخل الغرفة، وقالت: "إن ميلوشيفتش ينتظر خارجاً تحت الثلج ويريد أن يتحدث معك". وللمرة الأولى لاحظت أن الثلوج كانت تتساقط. ثم خرجت راكضاً وجذبتهُ إلى داخل غرفتي حيث قابلته أنا وكريستوفر. وبدا وكأنه لم ينم طوال الليل.

فقال ضجراً "يجب فعل شيء لمنع الإخفاق، أقترح أن أوقع أنا وتودجمان الاتفاقية وأن نتركها مفتوحة ليوقعها عزت بيغوفتش فيما بعد".

فقال كريستوفر بحزم "إن ذلك مستحيل تماماً، لا يمكننا قبول اتفاقية لم يوقعها كل الأطراف. إنها ليست عقداً قابلاً للتطبيق".

فقال ميلوشيفتش "حسناً، حسناً. إذن سأمشي الميلَ الأخير من أجل السلام. سأوافق على التحكيم على برتشكو بعد سنة من الآن، ويمكنك اتخاذ القرار بنفسك يا سيد كريستوفر".

لم أعرف عمّا كان يتحدث، إذ كنت مستعداً لعودتي إلى البوسنة. حوالي الساعة الثامنة صباحاً، تلقيتُ ملاحظة بأن كريستوفر يريد بشكل ملحّ أن يراني. فوصل يرافقه هولبروك، ورفضَ أن يجلس، وسألني وهو يقف إلى جانب الباب، "هل تقبل تحكيم برتشكو؟" كنتُ مرتبكاً للحظة ثم أجبت "نعم، أقبل". فقال "إذن هل كل شيء على ما يرام؟". همس له هولبروك شيئاً، ومن ثم قالا وداعاً، وغادرا الغرفة مهرولين.

الحادي والعشرون من تشرين الثاني (نوفمبر): عند الساعة الحادية عشرة والأربعين دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الموافق للواحد والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) خرج الرئيس بيل كلينتون إلى مرج البيت الأبيض وأعلن أمام عدد لا يحصى من الصحافيين أنه تمَّ التوصل إلى اتفاقية بخصوص البوسنة والهرسك.

بعد حوالي أربع سنوات، قُتِلَ خلالها مئتان وخمسون ألف شخص وهُجِّرَ حوالي مليوني نسمة، وأرعبت الأعمال الإرهابية الناس حول العالم، كان للشعب في البوسنة أخيراً الفرصة لترك رعب الحرب والدخول في وعد السلام.

كانت الساعة في البوسنة في تلك اللحظة الخامسة والأربعين دقيقة مساءً مساءاً. وأخبرتني ابنتي سابينا فيما بعد: "عند عودتي في ذلك المساء من العمل دخلت الردهة خالعةً معطفي. وعبر باب شبه مفتوح، رأيت الرئيس بيل كلينتون على شاشة التلفاز يخبر الصحافيين المتجمعين أنه قد تمَّ التوصل إلى سلام. وما كدت أفهم ما كان يجري لأننا كنا قد سمعنا طوال اليوم في الكلية أن الوضع في المفاوضات أبعد من أن يُتوصل فيه إلى اتفاق فقد سمعنا عن انهيار مفاوضات دايتون وعودة وفدنا إلى الوطن. وطوال الصباح فكرت: أي شتاء آخرٍ صعب وغير مضمون ينتظرنا؟ وكيف سأستمر في أخذ أطفالي مشياً إلى المدرسة، وأتعجّب فيما إذا كانوا سيعودون سالمين وأصحاء. وقد نستمر- غير عارفين إلى متى- بالاحساس بالخوف النهار وفي الليل. أما الآن فهو السلام الذي يأتي فجأة! وعندما أدركتُ ما كان يحدث انفجرتُ باكية غير قادرة على التوقف عن البكاء". واعتقد أن عدداً كبيراً من الرجال والنساء في البوسنة والهرسك في تلك الليلة فكّروا وشَعروا مثل سابينا. تمت جدولة حفلة التوقيع على الاتفاقية بالأحرف الأولى عند الساعة الثالثة مساء بتوقيت أمريكا. وألقى كل من كريستوفر وبيلدت وإيفانوف وهولبروك خطبهم، وألقيت وميلوشيفتش وتودجمان- كلاً منا خطبته. أما أنا فقلت:

إن هذا يوم تاريخي لكل من البوسنيين والعالم. أما بالنسبة للبوسنة، فلأن الحرب -كما آمل- ستُستَبدل بالسلام. وأما بالنسبة للعالم فلأن المأساة البوسنية وكل ما دار خلالها كانت مسألة أخلاقية في الدرجة الأولى، والمسألة الأخلاقية تهم كل رجل وامرأة في العالم.

إن الوثائق التي وقعناها للتو تضمن بوسنة وهرسك موحدة وذات سيادة وموحدة وإعمار إضافي لمجتمع مفتوح مبني على التسامح والحرية.

إننا نعتبر أن هذه هي النتيجة الرئيسية والأكبر للمفاوضات التي انتهت للتو.

إننا لمصممون على القيام بالالتزامات التي تعهدنا بها.

إننا نطلب من العالم المساندة والمساعدة في هذا.

إننا نَتَوقّع هذه المساندة والمساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، رئيساً وحكومة وشعباً.

لا تَتَردّدوا في فعل هذا، لأنه سيضع نهاية لمعاناة الكثير من الناس، وسَيُساعد على إخماد محور حرب خطيرة تمثل تهديداً للسلام في كل من المنطقة والعالم.

أما شعبي! فأقول له: إن هذا قد لا يكون سلاماً عادلاً، ولكنه أكثر عدلاً من مواصلة الحرب. وفي الوضع الذي عليه الحال، وفي العالم الذي هكذا حاله، لم يكن بالإمكان تحقيق سلام أفضل من هذا.

والله شاهد علينا بأننا بذلنا كل ما باستطاعتنا لتقليل مقدار الإجحاف بحق شعبنا وبلدنا.

وعند عودتي من دايتون، سألني صحفي من ليليان عما كنت أعني بكلماتي "العالم الذي حاله هكذا..." فأجبته: "إنه عالم من الممكن فيه أن تقود حرباً غير عادلة وأن يفرض فيه سلامٌ غير عادل".

ولكي تكون فرنسا – بل أوربة– سعيدة، تقرّر أن يتم الاحتفال بتوقيع اتفاقية السلام في باريس. (في دايتون وقعت الاتفاقية بالأحرف الأولى فحسب).

و قد اجتمع كل مَن كان قد شارك في مفاوضات دايتون–بعض المئات منهم– في الرابع عشر من كانون الأول في العاصمة الفرنسية في قصر الإليزيه. وكان الجو احتفالياً، لكنني تمنيت لو كنت وحيداً. وبعد التوقيع أُلقيت الخطابات. وكان خطابي كما يلي:

جئنا هنا لنوقع اتفاقية السلام التي كنا قد وقّعناها بالأحرف الأولى في دايتون قبل عشرين يوماً.

لقد قبل شعبنا وبرلماننا هذه المعاهدة. وفعلوا هذا دون حماس، كرجل يتناول دواءً مراً لكنه مفيد. ومع ذلك، أتمنى أن أؤكد لكم تصميمنا على وضع الاتفاقية الموقّع عليها ومكوناتها موضع التنفيذ بثبات وبشرف.

كان هدفنا ولا يزال بوسنة موحدة وديموقراطية، ونصوص الاتفاقية تضمن هذا. ولكن سواء أصارت هذه البنود حية أم بقيت حرفاً ميتاً على ورق حتى هذه اللحظة، فإن الأمر يعتمد بشكل عظيم علينا، وعلى ما نريد، وعلى ما يمكننا فعله؛ فالمعركة من أجل تحقيق هذه الأهداف لم تضع أوزارها بعد، ولم نكسب. إذ إنها ستمضي من خلال وسائل سلمية أخرى، ليس بقوة السلاح، الذي حُرمنا منه، ولكن بقوة الأفكار والروح. لقد اعتقدنا وادّعينا أن نموذج مجتمعنا المتعدد القوميات والمنفتح كان متفوقاً من حيث إنه لا يمكنه أن يخسر. والآن حان الوقت لإثبات هذا لأنفسنا وللآخرين.

وإننا بهذه الأفكار نُرسِل رسالة للصرب تفيد بأن الحرب انتهت، وأن الشر يجب أن يتوقف. وإننا لنعلن مرة أخرى أنه ليس هناك انتقام أو ثأر، لكنه يجب أن يكون هناك عدالة وحقوق، يجب أن تؤسس في كل مكان، فللأشخاص المطرودين الحق في العودة إلى بيوتهم والجديرون باللوم ينبغي أن ينالوا عقوبتهم. هذا لأن العقوبة هي حق الإنسان في حق المجرم.

يجب أن يعطى الصرب حول سراييفو الخيار إما أن يغادروا أو أن يبقوا. وإننا لندعوهم للبقاء وبالعيش بسلامة، وشرطنا الوحيد هو أن يحترموا البوسنة والهرسك، التي تأمر بالحرية وتحرِّم العنف. دعوهم يساعدوا جيرانهم على العودة إلى بيوتهم، ودعوهم يتعاونوا مع السلطات الشرعية للبوسنة والهرسك في تنفيذ القانون والنظام. وسنطلب من قوات التنفيذ الدولية والمنظمات الدولية التوسط في إقامة اتصال على جميع المستويات خلال الفترة الانتقالية بحيث تُطَبّق أحكام الاتفاقية التي وقعت اليوم بالكامل.

إننا لندعو العالم إلى مساعدة البوسنة في هذه اللحظة التاريخية، أرسلوا قواتكم لتطبيق معاهدة السلام، وأنجزوا وعودكم بخصوص المساعدة الاقتصادية لإعادة بناء

البلد؛ وسترد البوسنة لكم هذا المعروف بأفضل طريقة ممكنة، بأن تكون عامل سلام واستقرار في هذا الجزء من العالم.

وفي الثاني والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٥ وقّعتُ على قرار رئاسة البوسنة والهرسك المتضمن إنهاء حالة الحرب في البوسنة والهرسك. ونص القرار على ما يلي:

١- تلغى في أرضِ جمهورية البوسنة والهرسك حالة الحرب التي أُدخلت بقرار رئاسة البوسنة والهرسك في العشرين من حزيران (يونيو) ١٩٩٢ (السجل الرسمي لجمهورية البوسنة والهرسك ٩٢/٧).

٢- يبقى القرار بإعلان خطر الحرب الوشيكة الحصول في الثامن من نيسان (أبريل) ١٩٩٢ ("السجل الرسمي لجمهورية البوسنة والهرسك"، رقمي ٩٢/١ و٩٤/١٣) ساري المفعول.

٣- ستَتخِذ جميع أجهزة الدولة -دونما إبطاء- الاستعدادات، وستؤكد على تطبيق اتفاقية السلام العامة والعريضة في البوسنة والهرسك.

٤- ستتخذ وزارة الدفاع التدابير اللازمة من أجل تطبيق هذا القرار، بالتعاون مع القيادة العامة لجيش البوسنة والهرسك وأجهزة الدولة الأخرى.

٥- ستقوم رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك بإبلاغ مجلس الأمن الدولي بهذا القرار.

وكانت آخر مقابلة أجريتها في عام الحرب ذاك، مع الصحيفة الإسبانية (العالَم) ايلموندو EL Mundo في الثامن والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٥. وقد تعلقت بالسلام الذي جرى التوصل إليه في البوسنة والهرسك.

- إيلموندو: في خطابك في باريس عرّفت هذا السلام بأنه "مرٌّ" لشعب البوسنة والهرسك. هلا شرحت ماذا عنيت بذلك؟

- عزت بيغوفيتش: كان ذلك السلام مُراً لأسباب عديدة. السبب الرئيسي، بالطبع، أن ذلك السلام يعترف عملياً بنتائج الحرب العدوانية على أبواب البوسنة،

خاصة تلك النتائج التي تتعلق بالتقسيمات والتطهير العرقي. فكيف كانت أوربة ستبدو لو أن قوة سماوية قد أوقفت الحرب في صيف عام ١٩٤٤؟ أما كان ذلك السلام سيكون مراً للكثير من الأمم؟ فالحرب العدوانية يجب أن تنتهي بهزيمة المعتدي. وأي نتيجة أخرى هي غير عادلة وتترك مذاقاً مُراً.

– إيلموندو: أي لحظة كانت لك هي الأصعب في سنوات الحرب الثلاث، في "تلك الأيام المنزوعة الأمل"؟

– عزت بيغوفتش: لقد كانت هناك أيام صعبة جداً: ولم تكن سربيرينتسا أقلها مأساة، حيث ذُبِحَ الكثير ممن هم قريبون إلى قلبي. ولا يزال التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٣ ماثلاً أمامي. ففي ذلك اليوم دمرت نيران الدبابات عن سبق إصرار وترصد الجسر القديم في موستار، تلك المعجزة المعمارية الصغيرة ذات الجمال غير المرئي. ولبرهةٍ كرهت الجنس البشري. فقد كانت تلك أصعب أيام هذه الحرب: "أيام بلا أمل" كما سميتها. كان شعبي في حصار مُطبق عليه من كل جانب: ظلام دامس أحاط بنا. ولم يكن هناك أي أمل، وبدا أن المقاومة فقدت أي معنى لها مَهما كان نوعه، وأنها استمرت بشكل خامل فحسب.

– إيلموندو: كيف يشعر الشخص الذي قاد شعب البوسنة والهرسك بعد التوقيع على استسلام جيبا وسربيرينيتسا وزفورنيك وبرتشكو وبيليتشا وأجزاء أخرى من الأراضي البوسنية؟

– عزت بيغوفتش: أشعرُ بالمرارة، ولكنني لا أيأس، لأنه لم يكن هناك خيار آخر. لقد تجاوزنا منذ مدة طويلة حدود تحمُّل شعبنا. وعلى أي حال، لا أعتقد أن هذه المدن قد ضاعت إلى الأبد، وبرتشكو –قطعاً– لم تضع. فقد قال أناس بأننا خسرنا سربيرينيتسا تسع مرات في الثلاثمئة سنة الأخيرة واستعدناها تسع مرات. فلم نستطع أن نفعل الشيء نفسه للمرة العاشرة؟

– إيلموندو: من هم الفائزون في هذه الحرب من وجهة نظركم؟

– عزت بيغوفتش: نحن الفائزون من وجهة نظرٍ أخلاقية. فليس هناك فائزون عسكريون. إذ كل طرف قد فاز وخسر.

هذه هي الكيفية التي انتهت بها حربٌ مدمرة. وعندما بدأ العامة بنسيان كلٍّ من أسباب الحرب وبداياتها، أطلقت ببراعة في الهواء معضلة حول هيئة وشكل هذه الحرب: هل كانت حرباً عدوانية أم أهلية؟ وصارت هذه المسألة اختباراً لا يكذب للتفريق بين أصدقاء البوسنة وبين أعدائها. فبالنسبة للأصدقاء كانت حالة كلاسيكية للعدوان، بالنسبة للأعداء كانت حرباً أهلية؟

وجد المسؤولون السياسيون في المعارضة البوسنية الصمت في هذه المسألة المحتومة مفيداً إلى الحد الذي يتمكنون به من المحافظة على ابتذال المسؤولية المتساوية للأطراف الثلاثة في حرب البوسنة والهرسك. ووجدوا أن الطريقة الأكثر فعالية لهم لإيذاء حزب العمل الديموقراطي - الذي قاد بدوره الدفاع- هي في وضعه في نفس السلة مع كل من حزب الاتحاد الديموقراطي الكرواتي والحزب الديموقراطي الصربي. وكانت الطريقة الأسهل هي الإعلان بأن النزاع كان أهلياً؛ فلو أنه حصل عدوان وإبادة جماعية، إذن لكان العالم ملزماً بفعل شيء من أجل حماية أولئك الذين هُوجِموا، ولكانت هناك التزمات واضحة وفقاً لميثاق الأمم المتحدة بخصوص معاقبة مرتكبي الإبادة الجماعية بداية من تاريخ شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨.

وعلى أي حال، ظهرت الحقيقة على السطح تدريجياً؛ لأن الحقائق كانت جلية وصلبة. وزيادة على ذلك، فإن ثنائينا الدبلوماسي- سيلادجتش وشاتشيربيغوفتش-قاما بعمل ضخم في توكيد الشيء نفسه. فلو رجعنا إلى الوراء قليلاً للنظر في الدليل، لوجدنا أنه من الضروري استذكار قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٧٥٢ بتاريخ الثاني عشر من أيار (مايو) ١٩٩٢، الذي طلب "وضع نهاية فورية لجميع أشكال التدخل خارج البوسنة والهرسك.بما في ذلك قوات جيش الشعب اليوغسلافي، وعناصر الجيش الصربي..." (الفقرة الإجرائية رقم ٣ من القرار). وحيث إن نظام بلغراد عَصَى أوامر القرار القرار رقم ٧٥٢

في الثلاثين من أيار (مايو) ١٩٩٢، فإن مجلس الأمن الدولي كرّر المطالبة بإنهاء التدخل من قبل الجيران في الشؤون الداخلية للبوسنة والهرسك، وطلب فرض عقوبات ضد صربيا والجبل الأسود.

في القرار رقم ٧٨٧ الصادر في السادس عشر من كانون الأول ١٩٩٢، وفي الفقرة الإجرائية رقم ٥، طالب مجلس الأمن الدولي البلدان المجاورة بإيقاف تسلل المجموعات العسكرية غير النظامية إلى داخل البوسنة والهرسك. وفي هذه المرة ناشد عناصر من الجيش الكرواتي كذلك.

ذكرت كلمة العدوان بصراحة لأول مرة في القرار رقم ٤٧/١٢١ تحت عنوان "الوضع في البوسنة والهرسك" المُؤرخ في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢م. والذي بدوره يعبر بحزن عن العقوبات المفروضة بقرار مجلس الأمن والتي لم يكن لها أي أثر، وأن الجمعية العامة للأمم المتحدة اتهمت الجيش اليوغسلافي السابق بتقديم "العون المباشر وغير المباشر للأعمال العدوانية ضد البوسنة والهرسك". وزيادة على ذلك، فإن الفقرة الإجرائية رقم ٢ من القرار "تُندِّد بشدة بجمهورية الصرب والجبل الأسود والقوات الصربية في جمهورية البوسنة والهرسك لأنها جلبت الاضطراب لوحدة أراضيها واستقلالها السياسي، ولتصرّفهم المخالف للقرارات ذات الصلة الصادرة عن مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، ولاتفاقية سلام لندن في الخامس والعشرين من آب (أغسطس) ١٩٩٥". وفي الفقرة الإجرائية رقم ٣، طَالَبت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن توقف جمهورية الصرب والجبل الأسود "أعمالها العدوانية وعنفها، وأن تلتزم في تصرّفاتها -بشكل كامل غير مشروط- بقرارات مجلس الأمن". (وتبع ذلك البند الخاص في قرارات مجلس الأمن الدولي والجمعية العامة للأمم المتحدة التي وصلنا لها حتى الآن). وفي الفقرة ٧ ناشَدت الجمعية العامة مجلس الأمن "لاستخدام الوسائل المطلوبة لإقامة وصيانة سيادة جمهورية البوسنة

والهرسك ووحدة أراضيها". وأشار القرار للمرة الأولى إلى الفصل السادس من الميثاق الذي يتيح استخدام قراري مجلس الأمن الدولي رقم ٨١٩ و٨٣٨ الصادرين بتاريخ العاشر من حزيران (يونيو) عام ١٩٩٣. وكذلك أشار إلى المذكرتين الرئاسيتين الصادرتين في الرابع والعشرين من نيسان (أبريل) عام ١٩٩٢ والسابع عشر من آذار (مارس) عام ١٩٩٣. وينص القرار رقم ٤٨ الصادر بتاريخ العشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٣ على أن العدوان على البوسنة والهرسك ما زال مستمراً وأنها تطالب مجلس الأمن بالتطبيق الفوري لأوامر القرار رقم ٨٣٨ بدءاً من العاشر من حزيران (يونيو) لعام ١٩٩٣.

وبسبب تَردّد القوى العظمى فإن قرارات الأمم المتحدة لم تبلّغ، ولم يتبع التدخل العسكري لإيقاف الإبادة الجماعية. هذا على الرغم من أنه قد تمَّ التعبير بشكل لا لُبسَ فيه وفي شواهد عديدة بأن هذا يُعدُّ عملاً من أعمال العنف ضد البوسنة والهرسك. أما البلدان الإسلامية -دون استثناء- فقد دعمت القرارات الخاصة بالبوسنة، وبادرت بها في حالات معينة.

وكانت الخطابات التي ألقاها مندوبو معظم الدول الغربية -بلا شك- متعلقةً بطبيعة النزاع في البوسنة والهرسك. وبمناسبة تبني القرار في أس؟؟؟ ٧٥٧ بتاريخ ٣٠ أيار (مايو) ١٩٩٢، سمعنا بيانات كالآتي:

هنغاريا: "لم تبلّغ نصوص القرار ٧٥٢ مطلقاً. والعدوان على البوسنة والهرسك يتواصل بزخم كامل".

فترويلا: "إن هذا القرار ينـدّد بتصرّف أحد البلدان الذي أساء استخدام قوته العسكرية وانتهك سيادة بلد آخر- هو عضو في منظمتنا- البوسنة والهرسك".

النمسا: "إن القرارَ الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي هذا اليوم لفرض العقوبات على جمهورية الصرب والجبل الأسود ثقيلٌ على قلوبنا، ولكنه ضروري، فلقد أصبح

ضرورياً بسبب السلوك العنيد وغير المسؤول الذي سلكته سلطات بلغراد-العسكرية والمدنية- والتي قد تسببت سياستها وممارساتها بالمعاناة والتدمير على نطاق واسع يفوق الخيال في عصرنا. وسيُحكم عليهما ليس فقط من قبل التاريخ بل من قبل شعبها كذلك".

الولايات المتحدة: "إن عدوان النظام الصربي وقواته المسلحة ضد البوسنة والهرسك يمثلان تهديداً صارخاً للسلام الدولي وتحدياً خطيراً للقيم والمبادئ القائمة على المرسوم النهائي الصادر من هيلسنكي والصك الذي وقّع في باريس، ولقوانين الأمم المتحدة".

روسية الاتحادية: " لقد تجاهلت بلغراد النصيحة الطيبة والتحذيرات، ولم تتعاون مع طلبات المجتمع الدولي. وبذلك فقد استحقّت فرض عقوبات الأمم المتحدة عليها. وبتصويتها لصالح العقوبات، فإن روسية تقوم بواجبها كعضو دائم في مجلس الأمن الدولي حفاظاً على القانون والنظام الدوليين".

فرنسا: "إن الاتحاد الأوربي ودوله الأعضاء قد تبنّوا بالفعل مجموعة من التدابير ضد جمهورية الصرب الاتحادية ودعوا مجلس الأمن الدولي إلى القيام بفعل مشابه".

بريطانية العظمى: "... حقيقي أنه لم يعد هناك شك في الطرف الذي تقع عليه المسؤولية الآن: إنها تقع على السلطات والمدنيين والعسكريين في بلغراد. فلا يمكن لهذا أن يَخفى. فليس بإمكانهم إثبات عدم مسؤوليتهم عما يجري في البوسنة والهرسك، إذ لا يمكن أن توجد راجمات صواريخ في مخزن فلاح للحبوب؛ فهي تأتي من مستودع الجيش اليوغسلافي. وهم يزودون أنفسهم بالذخيرة من مخزونهم. فلو أن سلطات بلغراد أرادت أن تؤكد لنا براءتها؛ فإنني أشك في أنها قد تقوم بقصف دوبروفنيك اليوم مما يسبب افتراضها بأننا فعلاً أناسٌ أغبياء".

تمتلك خدماتنا عدداً من الوثائق الأصلية- أوامر وسجلات وما إلى ذلك من الأشياء التي كانت قد صُودرت من ثكنات الجيش الوطني اليوغسلافي، وجيش جمهورية الصرب عند تحرير أجزاء من البوسنة والهرسك (سراييفو، قوزوتشا،

منطقة بيهاتش)- من هذه الوثائق يمكن الوصول إلى استنتاجات حول القيادة اليوغسلافية للحرب في البوسنة والهرسك، وحول التسليح العلني للشعب الصربي خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٩١، ١٩٩٢، وحول تشكيل قوات مظلية عسكرية لدخول البوسنة (كقوات آركان، وشينشلي، وما شابه)، وحول تحويل المنطقة العسكرية الثانية في اقليم سراييفو إلى مقر قيادة جمهورية الصرب -جاعلين من ملادتش زعيماً لها- من قبل قيادة الجيش الوطني اليوغسلافي، وحول الدعم بالإمدادات لجيش جمهورية الصرب كقسم من الجيش الوطني اليوغسلافي.

يورد بوريسلاف يوفتش في مذكراته كلاماً مطولاً حول اجتماعه مع ميلوشيفتش في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩١م، الذي ناقشا فيه مسألة "الصراع المستقبلي في جمهورية البوسنة والهرسك". واستخلص أنه كان من الضروري تشكيل ما سمّوه "بالقسم الصربي من الجيش الوطني اليوغسلافي" (JNA) .

وفي كتابه أوديسا (ملحمة) البلقان Balkan Odyssey، يذكر اللورد أوين أنه في محادثة مع ميلوشيفتش وتشوسيتش، في نهاية شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٩٣، أشار إلى الاشتراك المباشر للجيش الوطني اليوغسلافي في الحرب البوسنية. يقول: "لقد كان تشوسيتش مضطرباً جداً، ومن المحتمل أنه لم يكن كامل على اطلاع بحقيقة تورط هذا الجيش. ومع ذلك فإنّ ميلوشيفتش لم يرتبك عندما قدمت له حقائق كان هو مطلعاً عليها كل الاطلاع وربما، مطلعاً على كل وجه من أوجه العلاقات العسكرية)[١].

إن محكمة لاهاي، التي تحكم في تهم جرائم الحرب، قد حكمت في قضيتين حتى الآن، بأن الحرب في البوسنة والهرسك كانت نزاعاً دولياً. ففي حكم

(١) أوديسا البلقان ١٦٥.

المحلفين المُلزِم في قضية تاديتش قررت هيئة الأمم محلفي المحكمة: ".... إن تشكيل هذا جيش لجمهورية الصرب كان قصة قانونية، وحتى أنه بعد التاسع عشر من أيار (مايو) عام ١٩٩٢ بقيت بنية قيادة الجيش الوطني اليوغسلافي بلا تغيير. ومن ثم أعادت تسمية نفسها بالجيش الوطني اليوغسلافي ومضت بشكل متواصل تسيطر على الجيش الصربي للبوسنة والهرسك. وبقيت الأسلحة نفسها، والمعدات نفسها، والضباط أنفسهم، والقادة أنفسهم، وعلى الأغلب بقيت القوات نفسها، ومراكز الإمدادات نفسها، والأهداف والمهمات نفسها، والأفعال نفسها. وكانت جمهورية يوغسلافيا الاتحادية متورطة في النزاع، بينما أبقت حكومتها على القوة نفسها التي حكمت صرب البوسنة". واختتمت هيئة المحلفين قائلة: "إن قوات صرب البوسنة تصرفت كأدوات لدولة أخرى- ألا وهي جمهوريةِ يوغسلافيا الاتحادية". وفي الحكم المُلزِم في قضية اليكسوفسكي خلُصت هيئة المحلفين إلى القول: " لقد تصرّفت القوات العسكرية لكروات البوسنة تحت إمرة كرواتية وتحت سيطرة مجلس الدفاع الكرواتي، وقامت بتنفيذ هجمات مسلحة على البوسنة والهرسك. وبناء عليه، كان هذا النزاع ذا طبيعة دولية".

وأخيراً، وصف الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بوضوح الحرب البوسنية -في تعليق بخصوص الحملة الجوية لحلف الشمال الأطلسي في قضية كوسوفو لصحيفة النيويورك تايمز الصادرة في الثالث والعشرين من أيار (مايو) ١٩٩٩- بأنها حربٌ عدوانية، كان الهدف منها تطهيراً عرقياً لتشكيل صربيا الكبرى، التي فيها حكم على أمة بالإبادة بسبب انتماءاتها العرقية والدينية. واختتم الرئيس بيل كلينتون بقوله: "شُوهد هذا في كرواتية والبوسنة أول مرة، ولكنّ عندها ردّ المجتمع الدولي حينها ردّ بحيادية مما جعل الضحية والمعتدي سيّان."

الفصل الثامن

بعد مؤتمر دايتون

يحاول الصرب تأجيل التقدم السريع نحو سرايفو. رسالة إلى الأدميرال سميث. الهجوم على سانتا كلوز. اجتماع روما. بوغوريليستسا. رسالة إلى السيدة أنيلي. الذبحة الصدرية. رسالة إلى شعب موستار. قوانين المرور. توحيد سرايفو. مغادرة الصرب، حرق سرايفو، قوات حفظ السلام -الناتو- يشهدون ذلك. رسالة إلى الصرب. إصدار قانون العفو. التآمر في برتشكو. رسالة إلى كارل بيلدت. خطاب في زينتسا. خطاب في جوتسا. أول أمارات الفساد. خطاب في علسنكيرتشن. خطاب في غريياك وما سمعه صحفيو نيويورك تايمز. نهاية الحرب. رئاسة الجمهورية في البوسنة والهرسك. خطاب في الدورة الحادية والخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة. خفض الأسلحة. إجابات لأفاز- موازنة لعام ١٩٩٦. مزيد من التآمر على برتشكو. أخذ الاستقالة بعين الاعتبار. منحة من المركز الأمريكي للديمقراطية. لقاء الرئيس بيل كلينتون. زيارة البابا إلى سرايفو. مؤتمر بون. المعركة من أجل عملة واحدة. خطاب في مؤتمر الدول المصدرة للبترول في طهران. الخطأ في البروتوكول الفرنسي. رسالة إلى الرئيس جاك شيراك. ميتران وشيراك. بيرنارد هنري ليفي. كرواتية تستمر في سياستها الثنائية. الانتخابات العامة والنصر. معاهدة حق استخدام ميناء بلوتسه بورث ومعاهدة العلاقات الخاصة مع كرواتية. اللقاء الأخير بالملك الحسن. مؤتمر مدريد، ما يسمى ب"التقرير السري". القرار الأخير بخصوص برتشكو. شَهَادتِي. تستمر عودة اللاجئين

ببطء شديد. مبادارات رئاسية غير ناجحة تخص أمور العودة. حملة المعارضة تزداد وتتصاعد. أزمة كوسوفو وضربات الناتو الجوية ليوغسلافية. خطاب في المجلس الأوربي. مبادرة سيلادجتش لمراجعة اتفاقية دايتون. مؤتمر قمة لميثاق الاستقرار لجنوب شرق أوربة، تقرير كلاين حول الفساد في البوسنة والهرسك. مقالة نيويورك تايمز عن الفساد في البوسنة والهرسك. رسالة مفتوحة للممثل العام. تقرير اللجنة الدولية. دورة نيويورك حول رئاسة البوسنة والهرسك – قرار حول خدمات الحدود. خطابي المثير للجماهير. الانتخابات العامة، نيسان (إبريل) ٢٠٠٠، وتأجيل انتخابات الحزب الإسلامي الحاكم. التدهور الصحي. الاستقالة من الرئاسة. الحكم الأجنبي.

وبمشيئة الله، السلام بانتظارنا. ليس حالاً بل قريباً. كونوا مستعدين لهذا السلم. قال نبينا عليه الصلاة والسلام أثناء عودته من معركة حامية الوطيس، قال: إنه ذاهب من معركة بسيطة إلى معركة كبيرة شاقة، يعني بذلك معركة السلام. وفي حقيقة الأمر، ما ينتظرنا عند حلول السلام لن يكون سهلاً أبداً. أخشى أننا سنفكر دوماً في الأيام التي لم يكن فيها إلا الحرب. عندما يكون الإنسان مريضاً، ولديه رغبة واحدة فقط- استرداد عافيته وعندما يستردّها – تتداعى مئة رغبة ورغبة ويصبح عندها أقل سعادة مما كان أثناء استلقائه على سرير المرض. أشبه ما يكون ذلك بالناس في أثناء الحرب وفي مثل حالنا. ويبدو أنه: عندما يتوقف القصف ويأتي السلم، سيكون كل أمر سهلاً، إنها طريق مستقيمة واضحة المعالم أمامنا. معظمكم هنا شباب. كونوا على حذر، ما زالت أمامكم معضلات ومشاكل كبيرة: الصناعة المحطمة، البطالة، الجوع... العالم يطعمنا الآن. كل واحد يتلقى المبلغ نفسه قلّ أو كثر. وعلى أي حال، ما الآتي- عدم المساواة- سيكون هناك أناس أثْرياء، مستفيدو حروب يستغلون عامَّة الناس من العاطلين عن العمل. ولذا فعليكم أنتم قيادة المعركة في أثناء السلم أن تكونوا على أهبة الاستعداد! لا تَعيشوا في الخيال أو تعملوا على نشر الخيال الذي سيكون أمراً صعباً جداً. سنكون بلداً يخرج من الحرب بعشرات

الآلاف من الجرحى- أمورٌ غير مشروعة. لن يكون عددٌ كبير منهم قادراً على القيام بأي عمل. سيحتاجون لمساعدتنا. ستكون هناك أعداد كبيرة من العوائل لا معيل لهم ليوفر لهم لقمة العيش، يَتامى كُثر. إنني أنسى الرقم، ولكنني أتذكر كم يكون خوفي ورعبي عندما أخبرتني امرأة اسمها "سوميا" أو "فاطمة" عن عدد اليتامى الذين يتولون رعايتهم. وبطبيعة الحال، هناك مسائل لا حصر لها تخص العدالة والظلم اللذين لا يمكن تحاشيهما. ولهذا فأنا أردد: يا إلهي كن معنا!

قُلتُ هذه الكلمات قَبل مؤتمر دايتون بعشرين شهراً في مؤتمر الحزب الإسلامي الحاكم (حزب العمل الديموقراطي) (في ٢٥ أيار (مايو) ١٩٩٤). وبكل وضوح لم يأخذني الخيال بعيداً. لقد تكهنت بأشياء كثيرة، ويا ليتني لم أتكهن لكنت سعيداً.

وبَعد توقيع اتفاقية السلام في باريس، بَادَر الصرب بجهد دبلوماسي يائس لمنع توحيد سراييفو. وقد حقّقوا نجاحاً بهذا الخصوص. ونجحوا في تنصيب الأدميرال سميث قائداً لقوات حفظ السلام-الناتو-، والذي لم يكن حازماً فيما يخصّ تطبيق اتفاقية السلام. دَخَل الأدميرال سميث المحادثات الخاصة بسراييفو دون حذر. حذّرته بفظاظة كبيرة وأعلَمته بأنه غير مُخوّلٍ لِفعل ذلك. وفي اليوم الذي سمعت عن محادثاته حول "باله"، كتبت له قائلاً:

مُحَادثاتك حَول "باله" في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٥ وتصريحاتك اللاحقة سَبّبتا إحباطاً عميقاً بين مواطنينا.

وبمحاولاتهم وأدَ اتفاقية السلام، سيعمل النظام في باله أي شيء من شأنه الإكراه على إجراء النقاش حول اتفاقية دايتون الخاصة بسراييفو الصربية. لا أجد من الضروري بمكان أن أثبت أن ليس هناك اتفاقية خاصة تتعلق بسراييفو أو سراييفو الخاصة بصربيا. هناك كَمٌ ضخم في اتفاقية السلام، وهذا الكم كلٌ متماسكٌ. لا يمكن

لسراييفو بأي حال من الأحوال أن ينظر إليها بمنأى عن هذا الكل، وهذا ما يريده نظام باله تماماً. لقد قدّمنا تضحيات جِسام لنصل إلى مدينة ذات سيادة. ولأجل هذا فإن أي ملاحظة انفصالية لسراييفو تعد في النهاية غير مقبولة تماماً. وَوَعدك بافتراض احتمالية تأخير تطبيق الاتفاقية في الجزء المتعلق بسراييفو يمكن أن ينتج الشك والاستفسار حول تطبيق الاتفاقية في أماكن كثيرة تعد جزءاً لا يتجزأ عن سراييفو. وستعمل أيضاً على تَعزيز نظام باله، وتؤخّر عودة اللاجئين وستؤدِّي إلى تأخير الانتخابات. وباختصار، ستعمل على خلق مناخ سياسي قد يؤذي السلام.

إذا ما كنتم، وكذلك نحن أيضاً، ترغبون بجعلها أيسر للمواطنين الصربيين في إيلدجا وأماكن أخرى، أن يقيموا في مساكنهم، عندها عليكم أن تعملوا على التسريع في مغادرة جنود كارادجتش عوضاً عن تأخيرهم. قصِّروا المدة المعطاة للمواعيد بدلاً من إطالتها. وهذه هي السبيل الوحيدة التي يمكنكم من خلالها تقديم المساعدة. وأي تأخير سيعمل فقط على التسبب في متاعب جديدة.

السيد الأدميرال:

نَحنُ نعلم أن لديكم صلاحيات بتغيير مواعيد تطبيق الاتفاقية، ولكن هذا الحق ينطبق على المشاكل العسكرية والفنية –الطقس وظروف المنطقة والتضاريس– وليست الأمور ذات الطابع السياسي. انتهت المفاوضات السياسية في دايتون وطُوِي هذا الكتاب الآن. وتَمّ اختياركُم لمهمة تطبيق الاتفاق، وليس لمهمة تغيير الاتفاقية السياسية المنجزة.

ولهذه الأسباب مجتمعة، نتوقع منكم الشمولية والإصرار على تطبيق الاتفاقية وأن تُعْلموا نظام باله بذلك. وأي رد آخر على أي استفسار من جهة نظام باله سيؤدي إلى زعزعة الثقة بصحة إجراءاتكم وقد يؤدي إلى الفشل.

السيد الأدميرال، أسألُكم، ولصالح السلام، ألا تكرِّروا الأخطاء التي ارتكبتها قوات حفظ السلام التابعة لهيئة الأمم المتحِّدة من قَبلكم.

كانت الرسالة مؤثِّرة. وتم توحيد سراييفو بناء على الخطة.

لم يَسبق لي أن سبَب لي تصريح من تصريحاتي رَدّة فعل مُرّة مثل تصريحي في عيد رأس السنة الجديدة عام ١٩٩٦. وعُرف التصريح في ذلك الوقت "بتصريح ثلج الجد". وفي حقيقة الأمر، كُنتُ أحتَجُّ على الطريقة غير المناسبة التي احتفل بها بعض الناس فيما يخص نهاية عام ١٩٩٦. كل هذا يمكن ملاحظته في رسالتي المفتوحة لمحرِّري الإذاعة والتلفاز في البوسنة والهرسك في ٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٦:

أيها السادة،

انتابني شعور بعدم الارتياح! انتابني بعد مشاهدتي لأخبار الليلة البارحة وبعض المشاهد التي تَدّعون بأنها تصف احتفالات رأس السنة الجديدة في البوسنة. أعتقدُ بأنّ الغالبية العظمى من شعبنا، وخاصة المقاتلين، شعروا بالاكتئاب نفسه بعد هذا العرض. في واقع الأمر، استغربوا وتساءلوا عن المكان الذي يعيشون فيه.

لأن ما عرضتموه كاحتفالات وطنية بمناسبة السنة الجديدة هو حقيقة احتفال يهمّ الأقلية، وبالتحديد ليس أكثر من ١٪ من الناس في بلدنا. ولكن ماذا عن نسبة الـ ٩٩٪ المتبقية؟ إذا ما افترضنا أنهم احتفلوا وكانت عندهم الفرصة والإرادة لذلك فقد يحتفلون احتفالاً متواضعاً، وعلى استحياء وبطريقة لا تؤذي مشاعر الناس الذين فقدوا منازلهم وأحباءهم. مجرّد أعداد بسيطة من الأفراد الوقحين وعديمي القلوب تجرؤوا على السُكر والظّهور أمام عدسات الكاميرا في حين ما زالت القبور والجروح نَديّة، كما لو أنه لم يحصل شيء.

وأنتم محرِّرو الإذاعة والتلفزيون تُحمَّلون جزءاً من المسؤولية. أظهرتُم ذلك ولم تعلقوا أي تعليق، ويبدو أنكم استحسنتموه.

نحن بلدٌ أوروبي، ولكن هذا لا يعني أن نفتح الباب على مصراعيه لكل الرذائل الأوربية: مثل: الكحول والدعارة والمخدرات والطيش والتهور بجميع أشكاله. سنقدّر الدقة الأوربية، والجد والاجتهاد، والحس بالتنظيم. ولكنّنا لن نتبع الأمريكان وأوربة في كل طرائقهم وأساليبهم دون وزن للأمور واخضاعها للمعايير.

أودُّ أن أَطلبَ إليكم أيضاً ألا تفرضوا علينا تقاليد مثل "ثلوج الجد" أو أي رموز أخرى غريبة عن شعبنا. كل إنسان يمكنه الاحتفاظ بذلك لنفسه في منزله إن رغب بذلك. التلفاز مؤسسة عامَّة، وشعبُنا ليس ساذجاً بما فيه الكفاية لتُجدع أنوفهم.

لن نصل وبطبيعة الحال إلى درجة التقريع والمنع، ولكننا سنتأكد من أن الناس يرفضون ويحتقرون كثيراً من القيم الوضيعة التي يحاول بعضهم أن يفرضها باسم الثقافة والحرية، وفي الحقيقة ثقافة خاطئة وحرية خاطئة أيضاً.

وبعد عام ونصف، عندما اعتبرت قضية تقليد "ثلج الجد" أمراً منسياً، تلقيت رسالة من محرِّر نيويورك تايمز، أوكونور، حيث عبّر عن رغبته بمناقشة عدد من القضايا معي. إحدى القضايا، ركَّزت بشكل خاص، كما قال هو، على القديس نيكولاس. وكان يشير بذلك إلى تقريري عن تقليد "ثلوج الجد". وأجبتُ عنه عِبرَ رسالة في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) للعام ١٩٩٦:

عزيزي السيد أوكونور

لقد لاحظتُ سوءَ فهمٍ صعباً ومضحكاً. هنالك شخصيتان بينهما تشابه غامض، ولكنهما مختلفتان تماماً، ولأكون دقيقاً فإنهما متشابهتان في المظهر ولكنهما مختلفتان في الجوهر؛ سانتا كلوز و"ثَلجُ الجَد". يرتديان الملابس نفسها وغالباً ما يظهران بالوقت نفسه، ولذلك يخطئ بهما الناس ولا يفرقان بينهما. يخطئ في ذلك كل الناس هنا وفي أمريكا على وجه الخصوص. سانتا كلوز من التقاليد النصرانية ويظهر عشية عيد الميلاد، أما "ثلج الجد" فيأتي من الاتحاد السوفيتي سابقاً ويظهر عشية السنة الجديدة.

وهنا فيما يخص الأراضي اليوغسلافية سابقاً، وكما كانت الحال أيضاً في جميع دول الكتلة الشرقية السابقة؛ لم يكن هناك القديس نيكولاس أو سانتا كلوز في العَلن، فقط كان هناك "ثلج الجد" الذي يظهر في رأس السنة. ولم يكن له علاقة بالدين، وتم استحداثه في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية بعد الثورة في محاولة لوضع نهاية للتقاليد الدينية.

وفي رسالة مفتوحة كتبتها في بداية عـام ١٩٩٦، كَـرَدَّة فِعل على السلوك غير اللائق لبعض الأفراد في احتفالات عشية رأس السنة الجديدة، مذكّراً إياهم أن جروحنا ما زالت طرية، حيث لم يمـض ستة أشهر على المأساة الصربيـة. وفي هـذه الرسـالة، ذكرت أيضاً تقليد "ثلج الجد" وقلت بأن ذلك لم يكن جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا، فهو ليس كذلك فعلاً. لم يكن هناك من كلمة واحدة في الرسالة تذكر سانتا كلوز.

وهنا في البوسـنة يُحتفـل بـرأس السـنة بطريقـة مشـرّفة. يحترم المسـلمون تقـاليد الآخرين، ولكنهم غير مهيئين للقبول بها كما لـو كـانت تَخُصّهـم، ولا يعترفون بهـا، ولكن لا يمكن مساءلتهم عن ذلك.

آمل أن يصل توضيحي إلى قرّائكـم، وآمـل أن توصلـوا لهـم أطيـب أمنيـاتي بعيد ميلاد سعيد ورأس سنة مباركة.

وفي السابع عشر من شباط (فـبراير) لعـام ١٩٩٦، دُعينـا إلى رومـا لحضـور اللقاء الأول بين رؤساء كرواتية ويوغسلافية والبوسـنة والهرسـك، وذلـك بعـد توقيع اتفاقية السلام في دايتون. رتّبـت هـذا الاجتمـاع السـيدة سـوزان انيلـي، والتي كانت عندئذ وزيرة الشؤون الخارجية الإيطالية، ورئيسة الاتحاد الأوربـي. وتبرز أهمية هذا اللقاء من خلال حضور وارن كريستوفر وزير خارجيـة أمريكـا، وقائد حلف النّاتو في أوربة الجنرال الأمريكـي جولـوان بالإضافـة إلى شـخصيات مهمة أخرى. أما حضور ريتشارد هولبروك فقد كان أمراً مفروغاً منه.

كان هناك عدد كبير من المسائل على أجندتنا اليومية، كل منها كان أصعب من الآخر: نقاط التفتيش، الاعتقال الشرعي وغير الشرعي على الطرق، خطوط الحدود بين الكانتونات، سـراييفو (مقاطعـة كـانتون)، قـوات الشـرطة الدوليـة، إدارة الجمـارك الفيدراليـة، توحيـد رواتـب التقـاعد، إلـخ... أمـا مــن الناحيـة الاقتصادية، فقد كنت مهتماً بمسألة مدينة موستار.

كانت هناك أزمة في موستار في بداية شـهر شباط (فبراير)، وذلـك عندمـا قام هانز كوشنيك، الممثل للاتحاد الأوربي لتلك المدينة في ذلك الوقت، بتقديـم

خطة لتنظيم موستار ملحقاً بها مساحةً مركزية كبيرة. لم يقبل الكروات بذلك، وبدلاً من ذلك نظّموا المظاهرات وهاجموا كوتشينك، وبصعوبة تمكّن الرجل من الفرار حياً.

كانت موستار، إضافة إلى سراييفو، أكثر المدن التي تعرضت للدمار. سميناها هوريشيما بلادنا. تقع على الضفتين اليمنى واليسرى لنهر نيريتفا، وترتبط بعدد من الجسور، إحداها قوس من الحجر على شكل هلال يعود تاريخه إلى أكثر من خمسمئة عام مضت، وتم تدميره عام ١٩٩٣، بحريق مفتعل قامت به وحدات كرواتية مسلحة كانت قد أعلنت عن جمهورية خاصة بها.

قُمنا بعملٍ المستحيل لتوحيد مدينة قُسِّمت إلى جزأين بفعل خطّ الحرب. حاول كوتشينك بمقاطعته المركزية الكبيرة والتي يمكن أن تكون تحت إدارة عامة، العمل على خفض هذا الفصل والقيام أيضاً بإجراء نحو توحيد المدينة. من جانبنا رَحَّبنا بالخطة ولكن الجانب الكرواتي رفضها بشدة.

وبدلاً من دعم خطة ممثليه، فإن الاتحاد الأوربي الذي يواجه تهديد المتطرفين الكرواتيين، قد تراجع. وكما كانت عليه الحال في مرّاتٍ سابقة كثيرة، فقد طلب منّا الاتحاد الأوربي أن نتفاوض في أمر المسألة المحلولة مرة أخرى.

مسألة موستار، التي تمّت مناقشتها في وقت متأخر من ليلة أمس عن طريق الهاتف، تُعدُّ وبشكل أساسي مسألة تتعلّق بالديموقراطية وحقوق الإنسان. وفي الجانب الغربي من موستار تم تعليق أربعة حقوق أساسية من حقوق الإنسان، حرية الحركة، وحرية المعتقد، وحرية النشاط السياسي، وحق التملك. وموستار هي المكان الوحيد في أوربة (وربما في العالم) الذي يمنع به التعبير عن المشاعر الدينية، إلا أولئك الذين ينتمون إلى دين واحد.

ومنذ ليلتين طافت المظاهرات التي قام بها البوسنييون والصرب، أخذوا ممتلكاتهم ورفضوا إعادتها. إنهم يريدون مدينة مقسّمة لكي يتمكنوا من تحقيق هذه الحالة غير

الطبيعية وغير العادلة وذاك هو جوهر المعارضة للمقترحات التي قدّمها المدير الأوربي هانز كوشنيك.

كنا جاهزين لبعض التنازلات التي قمنا بها لتجنب النزاع، ولكن تواجهنا الآن مسألة أكثر أهمية: هل سيتم جعل العنف مشروعاً ومستمراً أم سيكون هناك مجال للحرية واحترام حقوق الإنسان؟ وسؤال من هذا النوع لا يهم فقط مدينة بعينها، ولكن أوربة وكل العالم بشكل عام.

وأي تصالح أبعد من ذلك قد يكون مجرد أخذ ورد على حساب معايير وقيم اختارها العالم المعاصر.

وفي اليوم نفسه الذي سافرت فيه إلى روما -كان التاريخ هو السادس عشر من شباط (فبراير)- قامت قوات حفظ السلام -الناتو- بإنجاز عمل في بوغوريلتسا، وهو قاعدة وزارة داخليتنا الموجودة على التلال، غرب سرايفو بستة عشر كيلومتراً. كل الصحافة العالمية طبعت عناوين مثل: قوات حفظ السلام -الناتو- تَكتشف قاعدة إيرانية غير شرعية في البوسنة. أسلحة ووسائل إرهاب تكتشِف. عزَّت بيغوفتش يَخرق اتفاقية دايتون،....إلخ. لم يسبق لي أن سمعت بهذه القاعدة، ولكن إذا تناسينا مبالغات الصحافة وإثارتها، فقد كان هناك أساس من الحقيقة لكل الأمور التي ذكرت. تم العثور على أسلحةٍ ووسائل مشكوك في هدفها في بوغوريلتسا. وزير الشؤون الداخلية باكير علي سباهتش صرَّح بأن هذه الوسائل ما هي إلا لأغراض التدريب فقط، والذي لم يبد أمراً مصدقاً حتى بالنسبة لأصدقائه نحن. وبهذا كان عليه أن يستقيل وأن يُغادر.

اعتقدت الصحافة أن قوات حفظ السلام -الناتو- عرفت عن هذه القاعدة مسبقاً، ولكنهم خططوا لفعلتهم في وقت اجتماع روما ليجعلوا موقفي أكثر صعوبة. لا أعرف الحقيقة، ولكن موقفي في روما كان بكل تأكيد في غاية الصعوبة. وقد تمّتَ تسوية ذلك عن طريق ضغط الاتحاد الأوربي لمراجعة خطة

كوتشينك. وقد اقترح تقليص ملحوظ للمقاطعة المركزية تمَّ اقتراحه في موستار، ولكننا قد أفشلناه منذ البداية. وتبع ذلك تهديدُ الاتحاد الأوربي بالانسحاب من كل موستار، وهذا ما صرحت به الوزيرة أنييلي.

وأمضينا طيلة يوم السبت حتى مساء الأحد في اجتماعات. الكثير من الأوراق تمت كتابتها، أو تغييرها، أو رفضها أوإعادة كتابتها. خارت قواي. فإذا ما قبلت بخفض مقاطعة موستار المركزية قد يشعر شعبي بالهزيمة، وقد يحتفل بذلك المتطرفون الكروات. وإن لم أقبلها، فقد يغادر الاتحاد الأوربي موستار وهذا -باختصار- ما يعني وداعاً للوحدة. عرفتُ أن كلا الجانبين في موستار تابعوا بقلق كل كلمة قيلت في روما. أعلمت الصحفي الذي كتب التقرير في هذا الاجتماع أن يبدأ بهذه الكلمات: "هذا المكان هو مستشفىً للمجانين".

سألت أوروتشيفيتش ما الذي بوسعنا فعله.كان جوابه بأن يقبل كل ما أقرره ليس جواباً شافياً. قمت بقبول التعديلات في الخطة إثر توقعي احتمالية مغادرة الاتحاد الأوربي، وهو ما كان يهدف إليه المتشددون الكروات. واستقالة هانز كوشنيك أشعرتني بخيانة الاتحاد الأوربي. كان أمراً سهلاً عليه أن يستقيل، ولكن لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك. على الأقل اعتقدت أنه لا يمكنني ذلك.

فقبول إملاءات الاتحاد الأوربي ومراجعة المنطقة بعثت موجة من الصدمات من خلال موستار الشرقية. أحسست أن مواطني موستار كانوا يلعنون اسمي، ولكنهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا على دراية كاملة بالحقيقة. عدت إلى سراييفو. في أواخر شهر رمضان وقبل عطلة العيد بيوم واحد.

المصائب لا تقع منفردة، ولكنّها تقع دفعة واحدة. كنت جالساً في مكتبي، والله يعلم ذلك، وحالما انتهيتُ من مكالمتي أحضرَ لي السكرتير رسالة مكتوباً عليها "شخصية". كانت استقالة صفوت أوروتشيفيتش من منصبه عمدة لمدينة

موستار. ولي أن أتخيل السبب الذي جعل صفوت يقدم على هذه الخطوة. أجبتُ على ذلك برفض استقالته. يجب ألا يكون هناك أ ي استقالات إلى أن يتم تنفيذ أمورٍ هامة في البوسنة.

كنتُ في وقت سابق قد وعدتُ بزيارة قسم الشلل في المستشفى الحكومي في اليوم الأول من العطلة. وقبل هذا، ذهبت إلى المسجد من أجل تأدية فريضة صلاة العيد، وصافحتُ ألف فرد على أقل تقدير. فالحديث مع المشلولين هو حديث مع أناس يائسين لا أمل لهم في الحياة. وكنت هناك لأكثر من ساعتين وأصغيت لقصصهم واحداً تلو الآخر. شعرت بأنني عاجز عن الحديث والتفكير. ما الذي يمكنني قوله لأناسٍ يشعرون بالحرمان بقية أيام أعمارهم؟ وفي صبيحة اليوم الثاني من أيام العيد وهو يوم الجنود الشهداء الذين سقطوا في الحرب وفي مقبرة الشهداء في كوفاتشي، كرّرت الأمهات والزوجات وأخوات الضحايا مواقف يصعب تحملها. كانت أعينهن تتوسل إلي، ولم يكن بمقدوري فعل شيء لمساعدتهن. حتى لم أكن أفهم مطلقاً ما يعانينه تماماً! لك أن تتصور شعور من تفقد ابناً أو زوجاً أو أباً؟ هل بمقدور الآخرين الذين لم يعانوا هذه التجربة أن يفهمو ذلك حقاً؟

كان ذلك يوم عمل شاق. وفي المساء ذهبت لأقوم بزيارات منتظمة تقليدية تتم في العيد: لأخي وأخواتي الثلاث. كنت أجري من منزل لآخر ولم أشعر بطعم الفرحة مطلقاً. وحاولت أن أشارك في حفل استقبال أقامته هيئة العلماء. أستطيع عدم الذهاب؟ لا. كان علي أن أذهب. وتمنيت أن تنتهي طقوس العيد بأسرع ما يمكن. وفي صبيحة اليوم التالي، شعرت بألمٍ كبير في صدري، نقلت على إثرها إلى المستشفى. وشخّص الأطباء بأن ذبحة صدرية ألمّت بي.

وبعد لقاء روما السيئ الذكر بشهر بعثت رسالة إلى مواطني موستار:

أعزائي نساء ورجال موستار:

أشعر بما تشعرون به تجاه الأخبار التي قدمت من روما قبل حوالي شهر. كنتُ أنوي زيارتكم عندها في الحال بعد .للقاء مباشرة لأتحدث معكم وأفهم غضبكم. لكن المرض أعاقني عن هذا اللقاء ولهذا فأنا اتصل بكم الآن بهذه الوسيلة في وقت متأخر ومن على فراش المرض. ما حَدَث في روما كان لا يمكن تحاشيه. رُبّما لم يكن حلاً مُرضياً، ولكن أي حل آخر –حسب تقديري– كان يمكن أن يكون أسوأ من ذلك. فعندما وصلنا إلى روما، كان الأوربيون يفتحون جعبة كوتشنيك. كانوا يَبحثون عما يمكن تَسميته حلاً يقبله الطرفان. هذا ما أوضحوه لنا.

وأمّا لأولئك الذين لا يعلمون إلا القليل، فسأقدم تفسيراً واحداً :

أوربة عملاق اقتصادي، ولكنها مسلوبة الإرادة السياسية. لا يمكن الوصول إلى خاتمة حاسمة بسبب قرارها إحراز تقدم. فإذا ما كانت خمس عشرة بلداً –على سبيل المثال– مؤيدة لقرار ما بينما ترفضُه دولة واحدة فلا يمكن التوصّل إلى ذلك القرار. وهذا،بالإضافة إلى أمور أخرى، هو السبب الذي من أجله كان أمراً ممكناً الإعداد للحرب وبدء حرب إبادة في قلب أوربة، وكل ما يمكن أن تفعله أوربة آنذاك هو أن تُراقب دون أن تَستطيع تَحريك ساكن.

وبطبيعة الحال، كان من الممكن الاعتماد على تحكيم كوتشنيك، وأن نغادر روما بتظاهرة، وما الفائدة التي كُنّا قد نجنيها من ذلك؟ والحقيقة هي أن الطرف الآخر قد لا يعجبه ذلك، ولربُما أن بعض حكومات أوروبية أساسية أخرى قد تلتزم بجانبنا، ولربما لا يتمّ فعل شيء. كان يمكن للوضع في موستار أن يبقى على حاله لفترة طويلة. وهذا قد يساعد موضوعياً الكروات المتطرفين. لانّه إن لم يتم فعل شيء فإن الوقت لا يعمل لصالح موستار الموحدة ولا الفيدرالية ولكن ضدها. وبعد مرور أشهر قليلة، لربما كان علينا أن نجلس مرة أخرى على طاولة المفاوضات ونبحث عما يمكن أن نسميه جدلاً مقبولاً متبادلاً. كنتُ أفَكّر: إن كان عليَّ أن أصل إلى تسوية في أشهر قليلة. سأقوم بذلك الآن وعلى أقل تقدير سأحقق تقدُّما – ولو بسيطاً– نحو هدفنا. ومن الأهمية بمكان ألا تبقى الأمور على حالها. ويجب أن تتحرك الأمور، وإن تحركت يمكنها أن

تسير في اتجاه واحد: نحو مدينة موحّدة. وأخيراً ما الذي علينا أن نخسره، فهل بأيدينا أي شيء نفعله على أي حال؟

كانت تلك هي أفكاري.

علينا أن نكون صبورين، وفي تلك السنين، كان مصير شعبنا للقرن القادم قد حُسم أَمْره، ومِمّا يتطلبُ عاطفة أقل، وتفكيراً أكثر، وتصميماً وصبراً أكيدين.

هدفنا الإستراتيجي واضح: موستار موحدة وفيدرالية قوية على ذلك الأساس، حرية مصونة ودولة ديمقراطية. يمكن أن نسير باتجاه هذا الهدف متغلبين على العقبات يوماً بيوم ومحاولين المرة تلو الأخرى. وهذا هدف إنساني وحضاري لا نقبل بفقدانه.

من خلال ما ذكر آنفاً تستطيعون أن تستنتجوا ما سأخبركم به: وهو القرار بخصوص موستار، أهو صحيح أم خطأ وهل هو من مسؤوليتي وحدي ولا أحد غيري. اعتقدتُ وما زلتُ أعتقد أن ذلك ستثبت صحته في الأيام القادمة. وإن لم يكن الأمر كذلك، عليكم أن تعرفوا الحقيقة: لقد صممتُ على ذلك القرار وأنا مسؤولٌ عنه، أمامكم وأمام التاريخ ولا أحد غيري.

وفي الختام: لا تكونوا حزينين وبؤساء كثيراً بسبب أفراد ومجموعات يحتفلون على الطرف الآخر من نهر نيريتفا. تصرّفَ الصرب المسلحون بوحشية وعنف وانظروا إلى ما انتهوا إليه. فالقانون والعدالة في نهاية الأمر أقوى من الجبروت والطغيان، ولكن علينا أن نتحمل.

شيء جيد حَدثَ في روما: تمّ التوصل إلى قرار وتحت اسم غريب: وتحديداً "قوانين الطرق"، وكان جوهر هذه القوانين ألا يتم سجن أحد أو اتهامه بجرائم حرب دون موافقة محكمة لاهاي. كان الهدف هو العمل على توسيع حرية الحركة التي كانت تضيقُ بمرور الأيام؛ لأن الناس كانوا يُسَاقون وبطريقة عشوائية إلى المعتقل بتهمة أنهم مجرمو حرب. لم يتم القبول بالقرار برحابة صدر، ولكن ثبت أنه كان مهماً. لأن ذلك أتى ضمن آليات وأعيدت من خلاله حرية التنقل.

وتمَّ توحيد سراييفو طبقاً للمخطط. وبدأ الأمر مع فوغوشتشا في ٢٢ شباط (فبراير)، وانتهى بغريافيتسا في ١٨ أذار (مارس) عام ١٩٩٦. وحدث ذلك عندما حصل النزوح الكبير لصرب البوسنة، كونهم فشلوا في إفشال توحيد المدينة فقد قرروا تكتيكياً تنفيذ سياسة الأرض المحروقة. تركوا المدينة خلفهم خاوية إلا من الخراب والدمار. لا يُمكنني أن أعثر على شهادة أفضل، وأنسب مما حدث مع ريتشارد هولبروك نفسه. ففي الفصل العشرين من كتابه المشهور "لإنهاء حرب ما".

يصف هذه النبوءة كالآتي: (الصفحات ٣٣٥-٣٥٧)

تمَّ توحيد سراييفو تماماً حسب الخطة. ففي ١٨ آذار (مارس) عام ١٩٩٦، قامت مجموعة من شرطة صرب البوسنة، والذين لاتكاد أصواتهم تُسمع ضمن أنغام سلام وطني مشوش ليوغسلافية قبل الشيوعية، بإنزال عَلَمِهمْ عن مركز شرطة غربافيتسا وغادروا إلى باله. "حافظنا على هذه المنطقة عسكرية" كما قال ميلينكوكاريسك، مساعد وزير الداخلية لصرب البوسنة، "ولكننا فقدناها في دايتون". وفي اليوم الثاني، استسلم صرب البوسنة للفيدرالية وسيطر الصرب على جزء من سراييفو. لم يحدث قتال، ولم تتم أي محاولة لمنع الحدث.

وفي اللحظة التي مَثّلت أعظم منجزات دايتون، استغل صرب البوسنة سَلبيْة قوات حفظ السلام -الناتو- وضعف قوتها العسكرية للقيام بالانفصال. وقبل توحيد سراييفو بأسبوعين، أمَرَ نظام باله كل الصرب في البوسنة بأن يعملوا على إشعال النيران في شققهم ومغادرة المدينة لدرجة أنهم أذاعوا إرشادات مفصلة عن كيفية إشعال النار. (احزموا كل أثاثكم في وسط الغرفة، اغمروها بزيت الكاز، افتحوا الغاز وأرموا بعود ثقاب حال مغادرتكم). فالمحرقون ومعظم قاطعي الطرق من باله، جابوا شوارع سراييفو محذّرين صرب البوسنة من إنه إن لم يدمّروا منازلهم حال مغادرتهم، فستتم معاقبتهم بوحشية، لدرجة تعريضهم للقتل.

فصرب البوسنة هم أولئك الذين أتوا إلى سراييفو من الضواحي خلال الحرب. بعد تدميرهم شققهم، عليهم أن يغادروا وبأي طريقة يجدونها سهلة. ولكن عشرات

الآلاف من العائلات الصربية من سراييفو كانت قد عاشت بسلام لأجيال في مدينة كانت يوماً ما مدينة متعددة الأعراق ومتحررة. معظمهم كان مستعداً للبقاء لو لم يجبروا على الرحيل. فقد قرّر ذلك، كريس يانوفكسي، الناطق باسم المبعوث السامي للأمم المتحدة لأمور اللاجئين، قبل الطرد حين كان هناك سبعون ألفاً من صرب البوسنة في سراييفو، حيث إن ثلاثين ألفاً منهم رغبوا بالبقاء حيث هم. وبعد تكتيكات بيل المرعبة، لم يبق سوى أقل من عشرة آلاف وكثير منهم قد يغادرون في أي فرصة. ففي الأسبوع الذي يسبق ١٩ آذار (مارس)، عمد سيل من الصرب إلى إغلاق الطرق الخارجية لسراييفو، معظمهم يحملون الأثاث وأدوات التمديدات الصحية وحتى الأبواب. وخلفهم ارتفعت سحب من الدخان من بقايا غربافيتسا وايليدجا. "يجب علينا ألا نسمح لصربي واحد أن يبقى في الأراضي التي تتبع للسيطرة الإسلامية الكرواتية". كما قال غويكو كليتشكوفتش (مدير مكتب إعادة التوطين لصرب البوسنة وفيما بعد رئيس وزراء جمهورية صرب البوسنة).

وقد كتب الصحفيون تقارير غير مفهومة تقريباً عن مشاهد غريبة: إمرأة صربية تُضرب وتُغتصب من قبل سفاح صربي قبل أن يشعل النار بالشقة، وزوجان عجوزان صربيان ممن عاشا أحداث الحرب في سراييفو يتوسلاّن إلى القوات الإيطالية عندما أشعل سفاح صربي النار في شقتهم. كان روبرت غلبرت مساعد وزير الخارجية لتطبيق القانون وقضايا المخدرات الدولية، يزور سراييفو في ذلك الوقت بناء على اقتراح منّي، وقد شاهد كل ذلك باشمئزاز حال رفض قوات حفظ السلام -الناتو- وقوات الأمن القيام بالمهمات الأمنية ضد محترفي السلب وحارقي المباني.

واحتفظت قوات حفظ السلام -الناتو- بمعدات إطفاء الحريق لديها داخل مجمعاتها. ومن واقع الإحباط، أرسل المسلحون معدات الإطفاء إلى القطاع الصربي من المدينة ووُوجِهُوا بحارقي المباني الصرب يقذفونهم بالحجارة. ولكن قوبل طلبهم للحماية من طرف قوات حفظ السلام -الناتو- بالرفض. شاهد غلبرت المباني تحترق حيث تقف قوات الناتو على بعد أقل من ١٥٠ متراً وراقبوا الجنرال البريطاني مايكل وولكر، أحد الضباط من الرتبة الثانية في قوات الناتو، يرفض بكل برود طلب مساعد الممثل السامي مايكل شتاينر تدخل قوات حفظ السلام -الناتو-. "كنت خجلاً من

ارتباطي بذلك"، أخبرني روبرت غلبارد فيما بعد "لكوني غير قادر على جعل الناتو يفعلون أي شيء". وبعد عام، وعند اختياري من طرف الرئيس بيل كلينتون والوزيرة أولبرايت من أجل تنسيق جهد التطبيق المهلهل، فسوف يكون لغلبارد دوراً أهم.

كان يمكن منع الكارثة بسهولة لو اتخذت الناتو إجراءً ما. ولكن رغم عدم مقاربته ومعارضته والخوف منه فإن الناتو والتحالف العسكري العالمي لم يعملا شيئاً. وقال الناطق باسم الناتو إنه في حين كانت الحرائق أمراً مثيراً للاستياء إلا أنه لدى الصرب الحق في حرق منازلهم. وقالت الناتو على لسان ناطق آخر: "نحن لسنا قوة شرطة ولن نقوم بواجبات الشرطة".

وصُدِمنا من سلبية الناتو المفاجئة ومن موظفي الأمم المتحدة الرسميين، وبردٍّ تهكمي على الأمر، انتقدوا الناتو لعدم نشاطها ولسلبيتها. "لو كانت الناتو أشد، لكانت الأمور حتماً مختلفة". كما قال كريس يانوفكسي. "نحن نرى أن عرقيات البوسنة المتعددة قد تمَّ طرحها من خلال التواليت".

لقد تم انتقادي لأنني أقوم بكل ما هو لازم لإبقاءِ الصرب في ذلك الجزء من سراييفو، والذي تمَّ تحويله إلى القضاء الفيدرالي. وقد كتب بيلدت: "القادة المسلمون، وخاصة عزت بيغوفتش خانوا المبدأ الداعي إلى "سراييفو متعددة الأعراق". ولقول الحقيقة، تصرف عزت بيغوفتش بغاية العنف من وقت لآخر...، ولكنه لم يظهر شجاعة ذلك السياسي ورجل الدولة بمهارته التي تدعو الحاجة لها لمد يده للسلم ليبقى العدد القليل من الصرب في سراييفو حيث هم". (مجلة الرسالة، (بعثة السلام) صفحة ٢٢٧، زيد سراييفو، ١٩٩٨).

يمكن للقراء أن يقرروا حقيقة بيلدت من خلال ما نستخلصه مما قاله هولبروك عن وصفه للوضع في الجزء الموحد من سراييفو في شباط (فبراير) وآذار (مارس) من عام ١٩٩٦، وكذلك من خلال الحقائق التالية. ففي دورة ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٥، دعت الرئاسة الصرب إلى البقاء في منازلهم وكان البيان كالآتي:

تدعو رئاسة الجمهورية في البوسنة والهرسك المواطنين من مقاطعات غربافيتسا، إليدجا، فوغوشتشا، إلياش وهادجتش إلى قبول الحل السلمي لسراييفو، وأن يبقوا في منازلهم وعلى أرضهم.

تقول الرئاسة: إنها مستعدة لتؤكد أن الحقوق المدنية والإنسانية الكاملة والأمان لكل مواطني سراييفو محفوظةٌ وبالتعاون مع المجتمع الدولي.

وستقوم الرئاسة، بالوقت نفسه، ببذل جهود لمعاقبة مجرمي الحرب على ما يستحقون.

وفي دورتها الحادية والعشرين من شباط (فبراير) للعام ١٩٩٦، وقبل بدء الاندماج، ذكرت الرئاسة أن قانون منظمة العفو الذي صُرِّحَ به أساس لأمر يتعلق بجنسية المواطنين الصرب مستقبلاً في سراييفو الموحدة.

وبالتصريح الصادر في هذه المناسبة أعلنت الرئاسة ما يلي:

تطلب الرئاسة مرة أخرى من الصرب ألا يقعوا في شَرَك الدعاية التي يطلقها نظام باله، الذي يريد أن يصنف الصرب ضمن الأقليات القومية، لطردهم من مساكنهم. لا تصدقوا الوعود الزائفة. عليكم أن تعرفوا أنه وبموجب اتفاقية دايتون سيعود كل إنسان إلى بيته. لا تدعوهم يطردونكم فيما بعد من أراضي أناس آخرين يمنحونها لكم بكل سرور الآن. ابقوا في ملككم أنتم. كل الذين سيبقون في سراييفو آمنون وإن أعضاء الدولة والفيدرالية في البوسنة والهرسك يضمنون وحدتها وحريتها وأمن وسلامة الأشخاص فيها وممتلكاتهم.

يا صرب سراييفو:

قانون منظمة العفو الدولي تم قبوله. كل الشرفاء آمنون ومتساوون في الحقوق. لا تغادروا مساكنكم. إن أولئك الذبن يخفون ويبررون جرائمهم هم الذين يريدونكم أن تغادروا. المجتمع الدولي أيضاً يضمن حقوقكم. ابقوا في سراييفو الموحدة ودعونا نبنِ مستقبلنا معاً بسواعدنا. الرئاسة في البوسنة والهرسك تطلب من المجتمع الدولي أن يمنع طرد الناس بالقوة وسرقة ممتلكاتهم ونشر الهلع والخوف بين من يبقون في منازلهم.

هذه المناشدات من الرئاسة ومنظمة العفو الدولية كانت شريفة وصادقة، ولكنها كانت بعد كل ذلك مجرد نظرية. كانت الممارسة شيئاً آخر. أما ما كان يحدث في الميدان فهو أمر سيئ، وتعرض الصرب حقيقة للمضايقات. وكان التوتر الذي استمر لسنوات عدة يأخذ مجراه. وعندما سئلت عن هذا خلال مقابلة تلفازية في العاشر من تموز (يوليو) لعام ١٩٩٦ قلت:

أعتقد أن كثيراً من الشكاوى فيما يخص هذا الأمر كانت فعلاً واقعية، علي أن أكون أميناً وأعترف بذلك. ليس من اللياقة أن أنكر بعض الأشياء التي تحصل فعلاً. إن أنكرتموها فلن تتوقف هذه الأمور. وبرأيي، يعاني الصرب من مشاكل في هذه النواحي. ومن ناحية أخرى، فهذه الأمور ليست منتشرة إلى درجة تجعل شتاينر يصرح قائلاً: "أنا خجل من سراييفو". هذا أمر مختلف، ويمكننا القول: إن فيه كيلاً بمكيالين. عندما يمارس أحد الصرب شيئاً بغيضاً قرب سراييفو، عندها يتحدث كل إنسان عن هذا، وتكتب عنه الصحافة العالمية. وفي الوقت نفسه ففي كوتور-فاروش -بانيالوكا- يستمر إخلاء العائلات البشناقية بعد ضربهم. لم تحدث ضوضاء بهذا الشأن، اعتاد العالم على ذلك، ولم تعد تتحرك ردات فعل. ولكن على أي حال، إن أردنا أن نكون دولة قانون وديمقراطية علينا أن نسيطر على أي نوع من العنف. وحسب رأيي فتلك هي الطريقة التي نصل بها إلى الحق في اتباع هذا المبدأ في البوسنة والهرسك، وكذلك الحق المعنوي لنشر هذا النموذج من الدولة الديموقراطية والتي تعد دولة قانون فيما بعد. وعلينا أن نعمل على تطبيق هذا النموذج هنا وعلى الجميع. وأي إنسان يرفض نداء كرادجتش ليغادر بيته ويبقى هنا واثقاً بالسلطات ووعدها بأن تتم حمايته، يجب أن تتم حمايته. وأي أمر سيئ قد يحدث لذلك الإنسان فإنه غير مبرر، وهذا فعلاً ما هو غير مقبول حقاً.

قامت سلطات بيل بتوجيه جزء كبير من النازحين الصرب من سراييفو بإتجاه برتشكو. وكان المنطق يستدعي ما يلي: خسرنا سراييفو. دعونا على الأقل نتحول إلى برتشكو. وشاهد كارل بيلدت، الذي كان عندئذ الممثل الأعلى للمجتمع الدولي، والأدميرال سميث، ما كان يحدث فعلاً بسلبية

لا يمكن تبريرها. وقد ادَّعيا أن لا سبيل لديهم لوقف ذلك. وفي التاسع من آذار (مارس) بعثت لهم الرسالة التالية:

وبطرد الصرب من ضواحي سراييفو، فإن قيادة باله مستمرة في سياسة حرب الإبادة والتطهير العرقي والذي تم تطبيقه في كل مراحل الحرب. إنك تدّعي بأنك لا تملك الوسيلة لتؤثر في السياسات التي تناقض وبوضوح روح ونص اتفاقية دايتون للسلام.

وتدعي أيضاً بأنك لا تملك الوسيلة للتأثير في حركة هذه الأعمدة واتجاهها.

علاوة على ذلك، فأنا أعتقد أن حرية الشخص في اختيار المكان الذي يعيش فيه، والذي تدعي القيادة الصربية مراراً وتكراراً التزامها به، فيه استثناءٌ وحيدٌ وهو بريشكو.

ليس لدى الصرب أي حق في أخذ مواطنيهم غير المحظوظين، والذين يتم نقلهم من منازلهم إلى بريشكو بلا سبب. وذلك لأنّ، وطبقاً لاتفاقية سلام دايتون، التحكيم الدولي هو الوسيلة الوحيدة لتقرير مصير هذه المدينة.

وهذا يعني أن برتشكو تقع ضمن نظام خاص في الوقت الراهن، وأن جميع الأفعال التي تؤدي تحيّز القرارات التحكيمية لعرق ضد آخر لا يمكن السماح بها. وإذا ما كان احتلال الصرب للمساكن البوسنية في زفورنك وفوتشا غير شرعي، فإن فعل الشيء نفسه في برتشكو يمثل انتهاكاً مزدوجاً لمقررات مؤتمر دايتون للسلام، لأن الهدف من هذا هو بكل وضوح خلق حقيقة نهائية وحل قانوني قوي لهذه المسألة البالغة الهشاشة والحساسية. إنني أحملكم مسؤولية إيجاد مخرج لوقف هذا العنف غير المشروع والأفعال المناقضة لاتفاقية دايتون.

أود أن أؤكد لكم نيّتنا لحماية حقوقنا المتعلقة بمدينة برتشكو.

لم يكن للرسالة أي نتيجة.

وبعد مغادرة المستشفى، أجبت عن أسئلة قليلة طرحها صحفي من مجلة سراييفو المسماة (ليليان) في ٢٤ آذار (مارس)، ١٩٩٦:

ليليان: يبدو أن الرحلة إلى روما كانت حقاً حدثاً ذا فأل سيئ. ويبدو أنها كانت أكثر أهمية مما اعتقدنا. وأخيراً، وفجأة حلّ ما حل أليس كذلك؟ فالجميع عندنا، إذا سمحت لي، قد صعقوا، وخاصةً جزءاً من بشناق منطقة الهرسك. ما الذي حدث، حقاً، في روما؟

ما الحل الذي كنتم ترقبون؟ وما المعضلات التي فرضت نفسها؟ كيف تصرّف المشاركون في روما؟ هل لكم أن تفسروا بشكل عام ما حصل في روما للناس هنا؟

عزت بيغوفتش: لا يسعني أن أوافقك كلياً عندما يتعلق الأمر بأهمية لقاء روما. نحن لم نكسب ولم نخسر شيئاً ذا أهمية خاصة. لقد أفشل الكروات خطة كوتشنيك، وأوربة رفعت يدها كالعادة. هل هذا يدهشك، وهل هذا شيء جديد؟ ألم يقولوا لنا في الأيام الأكثر صعوبة من حرب الإبادة: يجب أن تفاوض، فليس لديك خيار آخر. من الذي كنا سنُجري معه هذه الصفقة؟ القتلة! وهذا سبب عدم فهمي لماذا يُحبط ويصعق المرء هذه الأيام. وتمت رؤية ذلك كلّه سابقاً. فقد كانت خطة كوتشنيك ومقاطعته المركزية الكبرى مجردَ مشروع، ليس شيئاً نملكه ثم خسرناه في روما. فالأمر الأساسي الذي يحتاج العامة معرفته كي يفهموا اجتماع روما هو أن الاتحاد الأوربي رفض خطة كوتشنيك قبل أن تطرح في روما. لقد كانوا يعقدون الاجتماعات ويبحثون عما يمكن أن نسميه حلاً طبعياً ومقبولاً. لقد أخبر المندوب الألماني لدى الاتحاد الأوربي، خبيرنا الدكتور قاسم بيغيتش بكل صراحة ووضوح: "إن لم توافقوا اليوم، فالاتحاد سينسحب من موستار في غضون ثلاثة أيام". لدي هدف واحد فقط في هذا الظرف: إجبار الجانب الكرواتي على قبول حرية الحركة وقوة شرطة متنوعة في المدينة. عرفت أن هذا قد لا يتم فعله كلياً، ولكن الأمر المهم كان الضغط العالمي بذلك الاتجاه للاستمرار وليس الاضمحلال. وأعتقد أن اللقاء الحالي في جنيف سمح لي بفعل ذلك. وفيما يتعلق بأجواء الاجتماع في روما، كان جحيماً بحق لأنه كان هناك ثلاثة اجتماعات تعقد في الوقت نفسه ودون تخطيط مسبق، وفي ثلاث غرف مختلفة طيلة الليلة الماضية واليوم اللاحق. تم إخراج عدة أوراق، رفضتُ، غيّرتُ ثم رفضتُ مرةً أخرى. وفي ليلة الأحد، رأيت صحيفة تكتب تقريراً من جنيف، وأعلمتها أن تبدأ

التقرير بهذه الكلمات: " هنا مستشفى مجانين" ولحسن الحظ، تمَّ فعل ذلك، ولكنها كتبت شيئاً شبيهاً.

ليليان: مرضك قد جلب إغراءً ليس في الحسبان إلى البوسنة والهرسك والشعب البوسني. أولاً، هل هجرت البلدان التي وقعت على دايتون جمهورية البوسنة والهرسك؟ لدينا انطباع بأنه في الفترة التي أعقبت جزئيات دايتون قد تمَّ دفع هيئات معينة إلى الأمام دفعاً بدلاً من دولة البوسنة والهرسك متعددة القوميات، ومن ثمَّ وافق الأوربيون على مبدأ الدول القومية في البوسنة والهرسك ككيان فيدرالي كنفدرالي، كما قال السيد زوباك في سلوبودنا دالماسيا. ويبدو أن غيوماً جديدة تتحرك فوق الشعب البوسني في حالة وقوع المجتمع الدولي في أي واحدة من هذه المغامرات. ففي مقابلة لاحقة قلتم: إنكم لم تكونوا متأكدين إن كان عامة شعبكم عالماً بجدية الموقف. هل يدور الأمر نفسه في ذهنكم؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أن هذا هو السؤال الصحيح وليس كباقي الأمور في روما. فالقوات الانفصالية في البوسنة على الصعيدين الداخلي والخارجي تفعل فعلها. أما الأمر الذي يقلقني أكثر هو حقيقة أنه حتى بعد مؤتمر دايتون، فإن التطهير العرقي قد استمر. وأن الشرط الأكثر أهمية على الإطلاق في اتفاقية دايتون للبوسنة والهرسك كان إعادة توحيد نهائي على أساس عرقي. فعودة الأشخاص المطرودين ليست مستمرة كما يجب، وحتى الآن لا نرى أية سبيل تمكننا من جعل هذا الأمر يتحرك في اتجاه إيجابي. فهذه هي المشكلة الأعظم، وهي أكبر تهديد يحوم فوق رأس البوسنة. هناك محاولات لإقناع العالم أننا جميعاً متساوون في الذنب، حيث إنه ليست السلطة البوسنية الشرعية وحدها متصفة بضيق الأفق والقومية، وإن البوسنة كدولة أمر ليس محتملاً. إنَّ بعض أخطائنا -هناك حتماً بعض الأخطاء- تستخدم في هذه الدعاية المغرضة. وعلى أي حال، فالوضع الصحيح هو ألا يكون هناك أخطاء، لأن العالم يضع إشارة مساواة بين أخطائنا وجرائمهم. هذا ليس مؤلم حقّاً، ولكن طبيعة العالم هكذا، ولا نستطيع تغييرها. ما نستطيع معرفته هو الحقائق، ولا يهمّ إن أعجبتنا تلك الحقائق أم لا، ثم نضع تلك الحقائق في معادلة، ولنحاول أن نحصل على النتيجة الصحيحة قدر

الإمكان. دعايتنا كبيرة جداً كذلك؛ فوسائل الإعلام تتنافس على نشر الجرائم التي أوقعها الصرب والكروات على البوسنيين. وبطبيعة الأمر يجب ألا يُسكَتَ عن هذه الجرائم أويُستَّرَ عليها، ولكن هل هناك بين هذه الأممِ الثلاثِ ما هو جيد وإنساني؟ هل هناك أية إيماءات تظهر الاهتمام المتبادل بين الشعوب مختلفة العقائد والقوميات في بلدنا هذا؟ لا أعتقد أن ذلك غير موجود، ولكن لا أحد يذكر ذلك، ولا أعرف لماذا. وهذا هو تماماً ما تجب الإشارة إليه في وضع كهذا. لأن الاستمرار في عدم إيضاح ذلك لا يرسخ شيئاً إلا المشاكل بين هذه الأمم الثلاث ولا يدل ذلك إلا على أن دولة بوسنية أمر ليس وارداً، وأعتقد أن كل من كرايشنيك وبوبان يقومان بهذا العمل بكل جدارة بنفسهم. أما واجبنا فهو أن نثبت خطأ ذلك. ليس من مهماتنا أن نجد أمثلة إيجابية ونوضحها بالذكر. وبطبيعة الأمر، علينا ألا نعمل على تلميعها. تسألونني إن كان العالم قد وافق على مبدأ الدول القومية في البوسنة والهرسك؟ ليست المشكلة إن وافق العالم أم لا. المشكلة هي أنه يبدو كما لو كنّا قد وافقنا نحن على هذا أو على الأقل أننا نعمل مثل هذا. فعلى سبيل المثال، انظروا إلى بعض المقالات في صحافتنا، حتى مجلتكم الخاصة؛ فقراءتهم لا تعزِّز الاعتقاد بأن البوسنة محتملة كدولة متعددة الجنسيات مطلقاً، بل هي على عكس ذلك تماماً.

ففي بداية عام ١٩٩٦، بدأت المعارضة هجوماً سياسياً. ومعالم المرحلة آنذاك يمكن استشعارها من خطابي في زنيتسا في ملعب بيلينو بولييه (بيلوني بوللي ستاد يوم ١٤ نيسان "أبريل").

وضعنا الداخلي وصل درجة الغليان. تمَّ تشكيل أحزابٍ جديدةٍ، والمعارضة بدأت بتصعيد انتقاداتها التي ليس لها أساس من الصحة. نوع من النوايا السيئة، والعمل على تثبيط الحيوية والذي تقف وراءه جهات معينة. فالمعارضة تعتقد أن وجود جيش أجنبي وأجانب بشكل عام يتيح لها الفرصة. أعتقد أنهم خاطئون، لأنه وفي أسوأ الاحتمالات، سيكون شعبنا، وليس الأجانب، من سيصنعُ القرارات في الانتخابات.

فسياسة المعارضة وعلى الدوام هي الإشارة إلى ما لم يتم إنجازه بعد، والتغاضي –أو لنقل التجاهل– لما تم إنجازه حتى في أقسى الظروف. هم يقولون: لم يتم تحرير

بودرينييه، الأرض تم تدميرها، التشيتنيك بقي غالبهم في نصف الأراضي المدمرة، الجنود عاطلون عن العمل، قوات حفظ السلام -الناتو- قد قلصت سيادة البلد، الفيدرالية لن تتزحزح، النازحون لم يعودوا...إلخ. كل هذا يعتبر صحيحاً، ولكنهم يغضون الطرف عن بعض الأشياء، إنهم لا يقولون: هناك سلام، ولم يعد الناس يُقتلون ولم يعد يُعانون، وتوقف الموت والقتل والشلل، وتم الدفاع عن نصف البوسنة، وهناك جيش قوي قد تمَّ تشكيله من لا شيء. أكثر من مئة دولة تعترف بالبوسنة، ثم إنقاذ الشعب البوسني من الإبادة التي أعلنت ضدنا. إنهم يصمتون ويسكتون عن هذه الحقائق الهامة. كما أنهم يسكتون أيضاً عن أنه في عام ١٩٩١ كانت البوسنة تواجه اختباراً؛ فإما أن تصبح جزءاً من صربيا العظمى أو أن يتم تدميرها، لم يقولوا بأن البوسنة أضحت جزءاً من صربيا الكبرى، ولم يقولوا بأنها دمِّرت. ولا حتى أنها دافعت عن نفسها، وأنها وبكل بطء تنهض من بين الرماد، وأن الحياة أصبحت أفضل مما كانت عليه قبل عام ونصف، وأن سراييفو التي لم تعرف إلا القنابل، والجوع والظلام محررة الآن، مضاءة وتعج بالتجارة، وأن عدداً كبيراً من مقاتلينا هم الآن في وظائفهم، وأن الناس في البوسنة أحرارَ في أن يقولوا، ويكتبوا، ويشكلوا الأحزاب السياسية، وهم حتى أحرار في أن يكذبوا- ولا أحد يقاضيهم عمّا يتحدثون.

والمشاكل التي لم تُثِر حرب الإبادة قد تمَّ طي صفحتها، وكل هذا التطور الجيد والإيجابي يُغض الطرف عنه باستمرار ويَتم السكوت عنه.

لِمَ يَتِمُّ هذا؟ لإرباك الناس وبالتالي إحكام السيطرة. فالأكاذيب وأنصاف الحقائق قد تمَّ استخدامها وسائل في هذا الصراع.

ولولا حزب العمل الديموقراطي لكانت البوسنة مقاطعة من صربيا الكبرى اليوم، أو لكانت قد دُمِّرت. ولم يكن حزب العمل الديموقراطي ليتمكن من إنقاذها، ولا حتى بعضُ الأحزاب الأقلية. ولو لم يكن هناك حزب العمل الديقراطي، لما وجد الحزب الاشتراكي، ولربما كان هناك تحالف من البوسنة والهرسك الشيوعيين أو حزب ميلوشوفيتش الاشتراكي جزءاً من يوغسلافية ميلوشوفيتش. لقد جعلنا تحويل الرابطة إلى حزب العمل الديموقراطي ممكناً ولقد فتحنا الطريق أمام مسيرة الديموقراطية في هذا

الجزء من العالم. ومن منظور تاريخي، دفعنا ثمناً باهظاً لذلك من العام ١٩٤٥ وإلى العام ١٩٩٥.

بالأمس تمَّ تأسيس حزب جديد في سراييفو، مؤسسو هذا الحزب يناضلون من أجل جعل البوسنة بوسنية. أفترض أنهم يريدون أن يقولوا: إننا نقاتل من أجل بوسنة إسلامية. حسناً، دعهم يقولوا ذلك، بل يبدو أنهم يقاتلون من أجل السلطة في البوسنة، وليس من أجل البوسنة نفسها، وهناك فرق كبير بين هذين الأمرين. لأنه وفي الجزء -في البوسنة- الذي حرره الجيش البوسني تمَّ إحراز بوسنية البوسنة، وهذا القتال يجب أن تتم قيادته على الجزء من البوسنة الذي ما زال تحت قبضة الصرب والكروات حالياً. هل سيطبقون هذا الأمر المتعلق ببوسنية البوسنة في بانيا لوكا، بيليينا، وتشابليينا، ليفنو؟ إن كانت الإجابة بنعم فإن جهودهم مستحسنة ومشكورة، وجميعنا سيصوت لهذا الحزب، ولكن لا أمل في ذلك، فهم لا يخططون لفعل هذا. إنهم يحاولون مرة أخرى أن يحرروا البوسنة المحررة أساساً ويجعلون الجزء الأقل سعادة والأقل حرية للآخرين.

لهذا أقول: إنه صراع من أجل الهيمنة. إنه حقاً صراع من أجل الهيمنة في بوسنةَ ديمقراطيةٍ بالطريقة نفسها التي أوجدناها بها. إنه أمر شرعي، ولهذا فحظ سعيد لهم. ولكنَّ صراعاً من أجل الهيمنة يجب ألا يُفهمَ على أنه وطنية. فالوطنية والتطلع نحو الديموقراطية أمران مختلفان. إن لم يكن صراعاً من أجل الهيمنة عندها تكون محاولةً للشعب البوسني بأن يحتكموا للمنطق، لأنهم احتكموا إلى مشاعرهم كثيراً ويطلبون الكثير أيضاً. يجب أن نعمل على تهدئة هؤلاء الناس قليلاً.

هناك من يدعي أن الأصولية الإسلامية شائعة هنا. ودليلهم في هذه النظرية هو أن رئيس الدولة يذهب إلى المسجد للصلاة يوم الجمعة. والرئيس المحترم بيل كلينتون والمستشار كول يذهبون للكنيسة أيضاً ولا يعتبر أحدٌ ذلك مثيراً للشك.

اعتدت على أن أطلب من منتقدي من المعارضة أن يخبروني عمّا يقترحونه. إنها حقيقة، أقول لهم: إن الفيدرالية لا تفعل فعلها- فما الذي تقترحونه؟ هناك ثلاثة جيوش في البوسنة وهذا أمر في غاية السوء، فما الذي علينا فعله لنجعله جيشاً واحداً؛ جيشاً بوسنياً؟ في موستار يترابط مجلس الدفاع الكرواتي مع الجمعية الديموقراطية

الكرواتية، فما الذي تعتقدون أن بوسعنا فعله لنضع حداً لهذه المعوّقات؟ تتبع كرواتية سياسة الرياء والكذب، فهل تقترحون أن نقطع علاقاتنا معهم؟ كما تعرفون هناك الكثير من هذه الأسئلة وما يشبهها. كان أندادي عادةً رجالاً بألقاب أكاديمية، ولكنني لم أحصل مطلقاً على إجابات منهم، ولم أشعر أنهم عرفوا ذلك. هؤلاء المنتقدون هم مثل طبيب يقول لك: بأنك تعاني من حمّى- هذا أمر تعرفه بنفسك- ولكنهم لا يصفون لك دواءً أو ربما لا يعرفونه. وعلى أي حال، أنتم تعرفونهم، اسألوهم الأسئلة التي ذكرت وستتأكدون مما أقوله لكم. ولهذا، أصل إلى خاتمة مفادها أني لا أهتم بما يقولون وعليّ أن أواصل مشواري. ليس هناك حلٌّ سحري، هناك الصبر والعمل الدؤوب فقط. فالمعارضة كمعارضة، لا تثقل كاهلَهم المشاكلُ اليومية، ولهذا فعندهم الوقت الكافي للدعاية والإعلام. إنهم يتصيدون أخطاءنا، وهم على حق، إن أعطيناهم المادة لفعل هذا، وهذا ما يحدث فعلاً.

ولهذا، وعلى سبيل المثال، فإن رئيسَ البلدية، وهو عضو من حزبنا، لا يجد لديه متسعاً من الوقت طيلة شهر ليقابل جندياً قد تمّ طرده من شقته مع عائلته. هل لدى رئيس البلدية أمر أهم يفعله من أن يستقبل جندياً وجد نفسه في الشارع مع زوجته وطفليه؟ وإن كان لديه أمور أهم من ذلك الأمر، فليرسل الجندي إلى موظف حكومة يعرف ببعض القوانين. تقول هذه القوانين: إن هذه الشقة تعود ملكيتها لامرأة أمضت سنوات الحرب في بلغراد...إلخ. هذه قصة عن الناس والقوانين والترتيبات، أناس أشرار وقوانين شريرة، لا أسوق ذلك مصادفة، ولكن لأن القصة تعبّر عن عدم الاهتمام والظلم وبصور متعددة ومختلفة تكرِّر نفسها إن لم يكن كل يوم ففي أغلب الأحيان. إنها قصته عن السلطة، كل سلطة كما هي عندنا، كيف أن السلطة تفسد الناس، وكيف أن الوظيفة تصبح بيروقراطية وتبعد الناس وكيف أن الاهتمام يضمحل يوماً بعد يوم، ولهذا فالسلطة تخدم مصالحها وليس مصالح الناس، والسلطة لا تساعد نفسها بذلك.

ففي الحشد الكبير بمناسبة المعركة في جوتش في الثامن من حزيران (يونيو) ١٩٩٦، حين أبدينا احترامنا للصرب والكروات الذين سقطوا دفاعاً عن سرايفو والبوسنة والهرسك متحدين في جمع يزيد عن ٢٠ ألفاً من الناس، قد قلت:

أعزائي جنود جيش البوسنة والهرسك، أعزائي مواطني سراييفو، أعزائي مواطني البوسنة من أي حدب تنسلون:

أحييكم واشكركم على ترككم لعملكم للحظة والقدوم إلى هنا كي نتمكن معاً أن نستذكر تلك الأيام الصعبة والعظيمة، أيام المعركة من أجل خلاص سراييفو والبوسنة والهرسك. إلى من بقوا أحياء من المعركة العصيبة والذين تجمعوا هنا اليوم، لقد أتينا لنقدم لكم جُلّ احترامنا. طلبت من المنظمين ألا ينسوا أحداً من المشاركين في المعركة والذين بقوا أحياء، وأعتقد أنهم حاولوا جهدهم ليؤكدوا ذلك.

أنتم هنا في أعداد غفيرة في هذا اليوم، والذي يعني أنه لا يوجد عفو كما لن يكون ذلك بعد اليوم أبداً.

ها أنتم ترون، لقد بدأ اليوم بالطريقة الصحيحة، بالنشيد والاحترام لأولئك الذين قضوا دفاعاً عن سراييفو. ورغم أن الكثير منهم، الغالبية، كانوا بوسنيين، ليس الفاتحة فقط التي تتلى على أموات المسلمين، ولكننا ننهض دقيقة صمت حداداً على القتلى الكروات، الصرب والآخرين. ولكن إن قتل واحد من الصرب أو الكروات دفاعاً عن سراييفو، ولم يكن واحداً بل كُثر، علينا أن نقف ونقدم احترامنا له وبالطريقة التي تليق به.

علينا أن نفعل ذلك لأن هذه هي البوسنة، أود قول بعض الكلمات عن هذه البوسنة، عن حلم البوسنة هذا.

لقد تخيلناها دائماً أرض الخير، أناساً طيبين متّزنين. واعتقدنا أنه في هذا تكمن قوةُ البوسنة، وكذلك عَجْزُ المهاجمينَ الذين طالما حاولوا مراراً وتكراراً هزيمتنا، هزيمة البوسنة. وعندما تتم التحليلات في يوم ما، وعندما يُحل لغز المقاومة البوسنية، ويتم اكتشاف هذا السر الذي كان في مكان ما في أرواح الناس وشخصياتهم – أنا متأكد من ذلك–.

تذكروا ربيع وصيف عام ١٩٩٢. لقد كنا فارغي الأيدي، وكانوا مسلحين حتى أضراسهم. وبعد ذلك دحرناهم مع شياطينهم الفولاذية وتدريجياً من المدينة وإلى الغابات التي ينتمون إليها. كان نزاعاً حقيقياً بين الخير والشر، بين الإنسان والوحش.

فربحت الروح. ولا بأي منطق عسكري أو أي حساب كان تركهم لسراييفو ممكناً في ذلك الوقت. كل أوراق اللعبة العسكرية كانت لصالحهم ولا واحدة لصالحنا، ورغم ذلك طأطؤوا رؤوسهم وغادروا في كل العام ١٩٩٢، وكذلك اليوم في العام ١٩٩٦. لماذا؟

يجب علينا أن نتفكر في ذلك اليوم من أجل معضلاتنا وشكوكنا وأخطائنا المحتملة. وحتى اليوم يحارُ بعضنا فيما إذا كنا قادرين على الكفاح مع المماسك القانونية والعسكرية التي تهددنا والتي تعمل لغير صالح البوسنة الموحدة أو لا. الجواب هو نفسه كما كان منذ أربع سنين خلت: يمكن أن نكون أقوى ونربح إن كنا أفضل من خصومنا، إضافة إلى القوة العسكرية التي يجب أن نمتلكها، ونحن في الوقت نفسه نحمل قيماً إنسانية راسخة ضد التفكير المتحجر والهمجية والتطرف والعنف مهما كان نوعه. والعكس بالعكس أيضاً؛ فنحن سنخسر هذه المعركة إذا اتبعنا معهم أسساً منطقية، مثل أن نفعل معهم تماماً كما فعلوا. وهنا نخسر أخلاقنا وميزتنا السياسية، وعندها ستطغى قيمهم المادية لأنها هي الأغلب. علينا ألا نرتكب هذه الخطيئة.

واحدة من المعارك الغريبة من هذا النوع، وهي في التاريخ الخارجي معروفة إلى حد ما- وبعض منها سمعتموه من خلال حديث الجنرال ديلتش- ولكن تاريخها الداخلي سيكتب لاحقاً، حيث حدثت تلك المعركة قبل أربع سنوات في المكان الذي نقف فيه الآن. لم تستمر هذه المعركة لأيام قليلة، بل يمكن القول إنها استمرت لسنتين قادمتين، ولربما لنهاية الحرب. وبالتحديد لما بعد سنة، في حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) من العام ١٩٩٣ وليس بعيداً من هنا، قد قتل وفي فترات زمنية قصيرة، واحداً تلو الآخر، قائدان مشهوران هما شيها وصفوت. كان لي الشرف أن أعرف شخصياً هذين الرجلين المتواضعين والمحاربين الشديدين العظيمين كذلك. وتلك الأيام الصعبة كانت فترة أزمة منطقة (حي) إيغمان، فقد ألقى التشتنيك من دون مبالغة آلاف القنابل على هذه البقعة الصغيرة من الأرض التي يبدو الهدوء اليوم فيها غير حقيقي. ومن ثمّ استمروا في محاولاتهم للسيطرة على جوتش حيث استمر ذلك حتى نهاية الحرب. والمقاتلون الناجون الذين أراهم هنا اليوم بأعداد كبيرة، يتذكرون هذا الجحيم،

ويمكنهم أن يقولوا أكثر مني عن تلك الأيام. كان إيبرو يخبرنا شيئاً عن هذا، وهذا مجرد جزء بسيط من القصة الواقعة فعلاً عن الشجاعة التي لا نظير لها للجيل الذي عاش ومات من أجل البوسنة.

ومن وقت لآخر، كانت الأخبار ترد عن سوء استخدام القوة. بعض الناس استخدموا مواقعهم ومناصبهم ليغتصبوا أشياء ليست من حقهم، فالسلطة تفسد الناس. فهذا القانون الجائر بدأ يفعل فعله في البوسنة والهرسك. وفي السادس من تموز (يوليو) لعام ١٩٩٦، بعثت رسالة مفتوحة لكل المنظمات الفرعية لحزب العمل الديموقراطي في البوسنة والهرسك قلت فيها:

لقد تلقيت الأنباء السيئة عن إعطاء مواقع العمل بغير عدل في بعض البلديات. وعادة ما يكون الادعاء غير قانوني أو غير عادل، جنود مسرحون من الجيش يدعون أنه قد تمّ استثناؤهم كلية من هذه المواقع وأن معظم مكاتب العمل قد تمّ تسليمها للمستفيدين من الحرب أو لأصحاب وأقارب الشخصيات المهمة.

إن كان هناك بعض الصحة في هذه الشكاوى -ويبدو ولسوء الحظ- أن جزءاً كبيراً منها حقيقي- عندها تكون هذه إشارة أكيدة بأن حسّنا الإنساني والسياسي قد فشل. أما الإنساني فلأن المقاتلين يستحقون أن يلقوا كل عناية بهم، قد وعدناهم بذلك. وأما سياسياً فلأننا سنواجه عدم رضاهم إضافة إلى غضبهم المبرّر.

أريدكم أن تصغوا جيداً لهذا السؤال، وإن تحاولوا جهدكم منع إساءة استخدام التوظيف في مكاتب العمل تلك. لا تضعوا قوانين وضوابط للقرارات الهزيلة، فإذا ما كانت القوانين غير عادلة وغير صحيحة غيروها أو اقترحوا تغييرها. وفي أي حالة، ومن دون إبطاء، اعملوا ما بوسعكم لتصفية الظلم.

و قريباً، سأطلب مناظرة أمام العموم -الصحافة والتلفاز- حول هذه المسألة، والمتهمون سيستدعون للدفاع عن أنفسهم.

وما حصل أخيراً أظهر أن رسالتي لم ينتج عنها أي أثر فعّال. استمرت إساءة الاستخدام، ولكن بحِرَفِيَّةٍ أدقّ وسرية أكثر.

إضافة إلى هذه الأنباء السيئة، فقد أتت معلومات أخرى من حملة الانتخابات التي كانت في ذلك الوقت، فإن ممثلي الكروات ستيبيان كليوتش وإيفو كومشتش -وهما رفيقاي الطيبان في الحرب- قد تمّت الإساءة إليهما بسوء معاملتهما في اجتماع سياسي في غراداتشاتس وكاليسيا. وبناءً على تلك الظروف، فكان من الممكن أن نخلص إلى نتيجة أن المهاجمين كانوا أعضاء من حزب العمل الديموقراطي . وفي حديثي، في الخامس عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٩٦ كنت قد أدنتُ تلك الحوادث:

أعبر عن عميق معارضتي وأسفي بسبب هذا، وأبعث بكلمة لكل فرد، بغض النظر عمن يكون ذلك الفرد، بألا يذكروا اسمي عندما يمرون في حوادث شبيهة. كنت أناضل من أجل البوسنة، ليكون الناس قادرين على التفكير والحديث بكل حرية. وأكون حزيناً عندما أرى أفراداً، يصرخون ويجرّم أحدهم الآخر، بدلاً من استخدام الحوار، وبهذه الطريقة فإنهم يساعدون أعداء البوسنة.

أعرف كليوتش وكومشتش جيداً، أعرف تصرفهم في الحرب، وكذلك الآن في السلم. بالنسبة إلي، إنهم وبغض النظر عن مواقفهم السياسية المختلفة أناس شرفاء ويستحقون الاحترام.

وفي نهاية شهر آب (أغسطس)، كان يوماً يَعجُّ بالمشاكل، وفي ستاد غيلزنكيرشن في جمهورية ألمانية الاتحادية حيث تجمع عدد كبير من البوسنيين ودعيتُ أنا للحديث آنذاك. وكان معي هناك: الجنرال دوداكوفتش، وصفوت أوروتشيفيتش، وعدد من المقاتلين المعروفين خلال الحرب مثل: موتيفيليا وبريفيلياك ولوفاتس وهومو وموديريس،وآخرون. قدمت حينها خطاباً مطوّلاً وإليكم ملخّصَه :

توصّلنا إلى سلام في دايتون. والآن نواجه تقريباً ما يمكن تسميته غياب الحرب، وليس حلول السلام الحقيقي. كان مؤتمر دايتون مصالحةً، والمصالحاتُ قد لا تكون عادلة. وعلى أي حال، لم يعد هناك مزيد من القتل في البوسنة، كان الموت حاضراً

كل يوم. كان يجب وقف الموت، وعلينا ألا نندم لعدم تمكننا من ذلك. وإذا ما ندمنا في يوم ما على توقيع الاتفاقية، فعلينا أن نتذكر أولئك الذين بقوا أحياء، شكراً لذلك السلام. إنها مسألة آلاف الأطفال الذين لربما قد يصبحون مشوهين وعاجزين لو استمرت تلك الحرب. وبالنسبة إليهم فقد كان السلم جيداً، لأن الموت سيكون عند ذلك بأعداد كبيرة. وعدد شعبنا صغير ولا ينبغي علينا الاستمرار في عدّ القتلى والمشوهين كل يوم.

لقد أبدت لكم ألمانية حسن الضيافة، ومنحتكم الحماية عندما كان ذلك الأمر هو الأصعب لكم ولنا. أعبر عن عميق امتناني للحكومة الألمانية والشعب الألماني العظيم. الاحترام والتقدير لشعب هذا البلد الذي لم يسأل عن الأسماء عندما عمت المشاكل. عليكم أن تُعبِّروا عن عميق شكركم لهذه الأرض. وأفضل عرفان بالجميل هو أن نحترم قوانين هذا البلد. آمل أنكم تنفذون ذلك فعلاً إلى الآن وأنكم لم تلطخوا سمعة شعبنا. أكون سعيداً عندما أسمع أن أطفالنا يتعلمون جيداً ويتصرفون بكل لطف. ينبغي أن يكونوا الأفضل في كل شيء، عليهم أن يتعلموا لغة الدولة المضيفة لتترسخ الروابط بين الشعبين والبلدين الصديقين.

نحن نريد السلام. لاتترددوا إن كنتم تصوتون أو تعملون لصالح السلام، لأن البوسنة بحاجة له. لم تكن الحرب تدمر أرواحنا وبيوتنا فقط، بل والفكرة البوسنية أيضاً والتي لا يمكن أن تحيا دون سلم. لقد شتّتتِ الحرب شعبنا، وفرقتهم في أنحاء المعمورة. ونحن الآن بصدد خُطا هادئة لتجميعهم مرة أخرى. ولهذا فإن شعارنا الدائم كان: سنفاوض عندما نقدر على ذلك، ونقاتل عندما يكون ذلك لزاماً علينا.

ولهذا نحن نفعل ما بوسعنا للحفاظ على السلام. فاتفاقية دايتون تعتبر كلاًّ متوازناً من عدة عناصر، تمخّضت عن مفاوضات شاقة وطويلة. ولذلك لا يمكن تطبيقها مجزأة. ليس من المعقول أن نختار أسلوب التطبيق بأن نقول مثلاً: هذا النظام يناسبني، لذا سأطبقه، بينما لا أريد ذاك، ولذا لن آخذ به. هذا ما يفعله الجانب الصربي بالضبط، وما زال العالم يغمض إحدى عينيه في وجه هذه الحقيقة. هذا لن يكون كما يريدونه. إن أهم قرار لمؤتمر دايتون، والذي من أجله قد تجرعنا المرَّ كثيراً، يتعلّق بعودة كل فرد إلى منزله. وقد

قبلَ الصرب بذلك في دايتون وسيكون لزاماً عليهم تطبيقه، أو لن تكـون هنـاك جمهوريـة صربيا. لقد دفعنا الثمن غالياً من أجل عودة شعبنا إلى منازلهم وليس هنـاك، ولـن يكـون هناك، صفقة حول هـذا الأمـر. فـالصراع مـن أجـل عودتكـم إلى قراكـم ومدنكـم التـي انحدرتم وطردتم منها، كان على الدوام هدفاً هاماً. ومن الآن ستكون تلـك أهـم مهمـة، بينما تكون الأمور الأخرى ثانوية أمام هذا الهدف. وسنطلب ذلك من كل أولئك الذين وقّعوا على مقرّرات مؤتمر دايتون، وسيكون تعاوننا في كـل أمـر ومجـال مشـروطاً بتطبيـق هذا، وهو أهم مرسوم في اتفاقية السلام تلك. لقد قاموا بتطهيرهم العرقي، سنقوم بعكس العملية تلك، نعيد الناس إلى مساكنهم. وهاتان العمليتان متناقضتان كعملتين حسـابيتين: الضرب والقسمة أو الجمع والطرح. هاتان العمليتـان تحمـلان معـالم أخلاقيـة متناقضـة، والعلاقة بينهما كعلاقة الشر بالخير أو الجريمة بالعقاب.

جزء من هـذه العمليـة يمثـل رسـالة أو توصيـة لكـم، لتصوتـوا للمؤسسـة المرتبطـة بالمكان الذي عشتم فيه قبل الحرب :

عودة أهل تريبنييه إلى تريبنييه، وأصل يائيالوكا إلى يائيالوكا وأهل ستولاتس إليهـا أيضاً وكذلك أهل زفورنيك وهكذا دواليك.

تريينيـاتش للبثريبنيـان، بنيالوكـا لرلبنيالوكـا، ستوشـانز للسـتولاك، زفورنيشـانز للزفورنيك...الخ.

أما المضّطهِدون، والمطهِّرون العرقيون للبوسنة، كمـا تعرفـون، قـد عملـوا العكـس تماماً. لقد طردوا مواطنيهم من قراهم وبلداتهم التي عاشوا فيها، والآن يجبرونهم علـى أن يصوتوا هناك. هذا يعني: بقاؤهم تحديداً في منـازل وممتلكـات أنـاس آخريـن – أي منازل وممتلكات لبوسنيين مطرودين. لقد أوجدت المجتمعات العالمية النموذج المشهور P-2 ، والذي أعطاهم حق إظهار الوضع على أنه شرعي. يقول بعضهم: إن ذلك كـان مدبراً، وبعضهم يقول: إنه تمَّ بفعل الحماقة، كما لو كان مهماً. ما يهمنا جداً وحصـراً هي النتائج، وهي كارثيَّة في مثل هذه الحالة. لقد أعلنا الحرب على الـ P-2 وأعلنّا بأنها وسيلة للاستمرار في التطهير العرقي، كنـوع مـن "الحـل النهـائي" للمسـألة العرقيـة في البوسنة.

ففي حديثي قبل الاجتماع الانتخابي لحزب العمل الديموقراطي في يابلانيتسا في ٤ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٦، تذكرت قدرين من أقدارنا، حرب نيسان (أبريل) وسلام دايتون:

ذكرتُ الأشياء التي لم يكن بد من ذكرها، يمكنني ذكر اثنين منها: حرب نيسان (أبريل) واتفاقية دايتون: هذان الشيئان كانا مصيرين محتومين لنا.

تم التخطيط للحرب. أما بالنسبة إلى أولئك الذين لا يفهمون ذلك، يمكنني أن أقترح شهادات محكمة لاهاي لأولئك المدعوين شهوداً سياسيين. ولأولئك الذين لا يجدون بذلك سبباً مقنعاً بما فيه الكفاية، ارجعوا عشرة أعوام للوراء، للعام ١٩٩١ والعام ١٩٩٢. بذل حزب العمل الديموقراطي كل ما في وسعه لمنع الحرب. فقط تذكروا كل تلك المفاوضات التي لا طائل من ورائها في صيف عام ١٩٩١ ومبادراتنا نحن أيضاً. ففي شهر حزيران (يونيو) حدثت هجمات الجيش اليوغسلافي سلوفينيا، وفي تموز (يوليو) حدث العدوان على كرواتية. أعلنت هاتان الدولتان استقلالهما عن دولة يوغسلافية السابقة، وفي أواخر العام ١٩٩١، اعترف المجتمع الدولي بهما. ووقفت البوسنة أمام الخيار الدراماتيكي المثير: أن تبقى أو لا تبقى ضمن المنظومة اليوغسلافية. وكان ذلك، في حقيقة الأمر ورطة مثيرة، إما أن نبقى ضمن يوغسلافية المختلفة مع صربيا و(الجبل الأسود) ، أو أن نعلن استقلالنا ونقع في خطر الحرب. وكما تعلمون، فقد خاطبنا الناس من أجل ذلك القرار الهام. أُجري استفتاء،و النتيجة كانت معروفة، وتبع ذلك الاستفتاءَ عدوان.

والقرار الثاني الذي كان لا مفر منه هو اتفاقية دايتون. كان لا مفر من هذا المؤتمر في ظل حرب نيسان (أبريل). هذان المصيران قد حدثا، سواء أكانا خيراً لنا أم شرّا. كان هناك الجنرالات الكبار بعد الحرب، وبعضهم ادعى إنه كان يمكن لنا أن نتحاشى الحرب. لربما كان بمقدورنا، لو طأطأنا رؤوسنا، ولكن لأننا لم نتمكن من فعل ذلك، فقد سِرْنا نحو ذلك المصير بأنفسنا. هكذا كان السياق التاريخي للعالم وكان شعبنا صاحب الأنفة، كلهم قالوا "لا" ليوغسلافية السابقة. كما حدث في الظروف التاريخية التي حصلت في العام ١٩٩٥ تماماً. مبادرة سلام أمريكية، تدخل عسكري محتمل،

آلاف من القتلى والجرحى، مئات الآلاف من المشردين، شعبنا الذي ذاب وانصهر في الخارج كما الثلج، شتاء قادم، فرصة أخيرة محتملة وموعودة، حتى بضغوط من القوى العالمية الكبرى، كل هذا لم يكن بوسعنا تجاهله. فسلام دايتون، سواء أكان جيداً لنا أم لا، كان مصيرنا وكل واحد منا قبله بناءً على ذلك كما تعلمون.

وعلى أي حال، علينا أن نعود لذلك: كل شيء تمَّ فعله، جيداً كان أم سيئاً، كان نجاحاً أم خطأً للحزب، فالمعارضة جاهزة لتعترف بكل شيء كان سيئاً أو تمَّ حذفه، ولكن ليس لتعترف بما كان جيداً.

ومن الأشياء الجيدة، وفي المقام الأول، كان تنظيم دفاعنا. ولأنهم يعرفون فلم يفعلوا الكثير ضمن هذا الاعتبار، اللهم إلا الدعم الكلامي، ويريدون أن ينكروا ذلك علينا أيضاً. لقد خلقوا نظرية شاملة فيما يخص الطريقة التي تمَّ بها دفاعنا وتمَّ تطويره في سراييفو والبوسنة بشكل عفوي. كل شيء حصل بشكل عفوي. ولأنها لم تكن هناك حينها، فلم يكن حزب العمل الديموقراطي هناك أيضاً. وبقليل من التهكم فإنني أسميها "مذهب العفوية". وإذا ما كان هذا المذهب صحيحاً، عندها يكون تأهيل وتنظيم ٢٠ ألف مقاتل، بمعداتهم، وتدريبهم وتسليحهم قد حصل تلقائياً. كنّا نعاني من حظرين اثنين على السلاح، وقد حاربنا كليهما. يقولون عفوياً والنفق تحت المطار قد حفر نفسه، وبطريقة ما، هنا وهناك، واكتسابنا الهليوكبتر والذي عزز دفاعاتنا في الأماكن المحاصرة حول غوراجن وبشكل خاص كرايينا- هاتان الاثنتان كانتا عفويتين أيضاً. وإنه لم يمت أحد من الجوع في البوسنة، أمر حدث بنفسه تلقائياً. أتى الغرباء وقدموا لنا الدعم الغذائي. الدينار مستقر، وهذه مصادفة. والظروف السياسية القاسية التي اندلعت منذ الأيام الأولى من العام ١٩٩٣، وحتى الآن. بناء على رأيهم كل ذلك حدث من تلقاء ذاته. عندما يقولون عفوياً، يعنون بذلك دون تفضل ومنّة من حزب العمل الديموقراطي.

ففي خطابي في يابلانيتسا، أجبت عن سؤال مهم بشأن نشاط المعارضة في سراييفو. قلت: إنه قد يكون أمراً مفيداً لو قاموا بنشر تأثيرهم كما كانوا قد وعدوا الطرف الآخر. بمعنىً آخر، سيكون أمراً حاسماً لو بقوا فقط في المناطق

التي تسيطر عليها السلطة الشرعية. وكما هو معلوم الآن، فقد حدث العكس، وتم إضعاف موقف الشعب البوسني.

وبعد عدة أيام وفي ٣١ تموز (يوليو) تحديداً، كنت أتحدث عن غريباك، وهو مكان لم ننتبه لمعاناة الناس فيه خلال الأعوام ١٩٩٢ و١٩٩٣. لا يسعني كبت عواطفي. فقد كان الناس يستغربون بالتكبيرات وهم يصرخون الله أكبر. لأنه وفي ظل وجود الموت، فإن الإيمان يكون في ذروته. ورغم أنه كان اجتماعاً سياسياً، فقد كان مصبوغاً بالدين، ولم أهتمَّ بذلك. وعلى أي حال، اهتمت بذلك صحيفة غربية واحدة.

سمع مراسل صحيفة نيويورك تايمز في سراييفو بعض الرسائل التي لم أقم بإرسالها، ومن ثم سمع بعض الرسائل التي قمت أنا حقاً بإرسالها. وقد كتب، على سبيل المثال، إنني دعوت الناس إلى التسلّح، مع أنني لم أتفوه بكلمة من ذاك القبيل. لقد بالغ بسرد الحوادث التي تمت في حملة ما قبل الانتخاب، ورآها فقط ضمن الهيمنة البوسنية. لم ير تلك الأشياء التي كانت تحصل ضمن الهيمنة الصربية.

وبشكل جوهري، فقد شكا من شيئين:

الأول، أنني قلت بأن على الصرب أن يطبقوا الملحق ٧ من اتفاقية سلام دايتون، وإلا لن يكون هناك وجود لجمهورية صرب البوسنة. نعم قلت ذلك وما زلت أؤمن بالشيء نفسه، ولا أدري ما يعيب وجهة النظر هذه.

الثانية، قلت: إن الصرب المنتَخَبين، بغض النظر عمّن هم، عليهم أن يلتزموا بدستور البوسنة والهرسك إن أرادوا المشاركة في مؤسسات عامة. ومن المؤكد أنهم سيقومون بذلك. لا أقول: إن عليهم أن يضعوا أيديهم على القرآن، ولكن على دستور البوسنة والهرسك، وهو دستور دايتون، ولكن هذا السيد ما زال لا يحب ما قد قلت. لماذا يا ترى؟

في نهاية خطابي الخاص بغريباك، قلت أيضاً شيئاً قد ترغب الأذن الأمريكية بسماعه، ولكن هذا السيد حتماً لم يذكر ذلك. قلت: نريد للبوسنة أن تصبح دولة ديمقراطية، بلداً يمكن لأي فرد أن يصلي لله كما علمته أمه، حيث لا يمكن أن يتم اضطهاد أحد بسبب دينه الذي يعتنقه، أو بسبب قوميته أو معتقده السياسي. ورغم أنني قلت ذلك، فإن ذلك السيد لم يسمع هذا الكلام، وعوضاً عن ذلك لخص الأمر: "يريد الرئيس عزت بيغوفتش بوسنة مسلمة". أنا لا أريد بوسنة مسلمة، بل بوسنة ديمقراطية تماماً. بوسنة يمكن لشعبنا أن يكون فيها حراً، وعلى سجيتهم حيث لا يمكن للتطهير العرقي أن يحدث مرة أخرى.

الانتخابات وشيكة الوقوع، ومعها تقع نهاية الانتداب لرئاسة الحرب في البوسنة والهرسك. وفي الدورة البرلمانية في ١١ أيلول (سبتمبر) من العام ١٩٩٦، الخاصة بجمهورية البوسنة والهرسك، قدمت تقريراً يتعلق بالعمل الرئاسي للفترة ما بين ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠ و١٠ أيلول (سبتمبر) من العام ١٩٩٦. وكانت مقدمة التقرير كالآتي:

مئات من المحققين قد تدعو الحاجة إليهم ليخرجوا بتقرير مفصل وحقيقي فيما يخص العمل الرئاسي، مما قاد البوسنة والهرسك نحو الفترة الأكثر عنفاً وفوضى كفترةٍ حرجة جداً من تاريخ هذا البلد.

وهذا الذي أمامك ليس بحثاً استقصائياً، بل إنه مجموعة من الملاحظات المختصرة والتي ستعطيك صورة أكيدة عن العمل المتعلق بأهم مؤسسة للجمهورية في الزمن الذي تركناه الآن وراءنا.

هذا العمل الرئاسي يوضح حقيقة أنه قد تم عقد ٣٢٥ دورة خلال فترة الانتداب، وإنه تم من خلالها مشاهدة أكثر من ٢٠٠٠ نقطة في البرنامج اليومي، في حين أن المواد والقرارات والمراسلة تتضمن أكثر من عدة آلاف من نصوص متنوعة.

نتوقع أن ذلك سيكون موضوعاً للبحث والتحليل الموضوعي في يومٍ ما، وآمل أيضاً تقييماً غير متحيز بل منصف لعملنا.

و قد أنهيت التقرير بالكلمات التالية:

نحن أعضاء هذه المجموعة لدينا موقفنا الناقد تجاه النتيجة التي تمَّ التوصل إليها. وعلى أي حال، نعتقد بأن الحرب الدفاعية، والتي كانت الشغل الشاغل لهذه المؤسسة، آخذين بعين الاعتبار الظروف بالغة الصعوبة التي تمَّ توجيهها بها، قد تمت بنجاح. فقد خلقت النتائجُ البنية الأساسية بحيث يمكن وبالوسائل السياسية -من أجل السلام- الاستمرار في المواجهة من أجل بوسنة وهرسك ديمقراطية.

هذا هو هدفنا حتى عندما نكون مواطنين عاديين في هذا البلد.

عضوية الرئاسة ذات المقاعد السبعة قد تغيرت خلال الحرب. فمنذ نهاية العام ١٩٩٣، أصبحت تلك الرئاسة مستقرة وبدت كالآتي: علي عزت بيغوفتش، أيوب غانتش، نياز دوراكوفتش، ستيبان كلويتش، تايتانا ليويتش-مياتوفتش، إيفو كومشيتش وميركو بييانوفتش (ثلاثة بوشناق، كرواتيتان وصربيان).

وفي الدورة الحادية والخمسين للجمعية العمومية للأمم المتحدة، ألقيت خطاباً وصف بأنه صاعق. ويبدو أن القاعدة غير المكتوبة تنص على إعادة بعض العبارات المقبولة عادة. إنها مسألة "سلوك حسن" في مؤسسة الأمم المتحدة هذه. لا تهمني هذه القواعد كثيراً. وفي الطائرة، أثناء ذهابي إلى نيويورك، وقَعْتُ على نسخة من صحيفة الواشنطن بوست، حيث نقلت وفي سياق سلبي مسألة تسليح جيشنا خلال الحرب، حيث طبعوا بعض التعليقات. وفي اليوم التالي، وأمام الجمعية العمومية، كنت مباشراً جداً:

خطاب في الجمعية العمومية للأمم المتحدة
نيويورك، ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦

خلال سفري إلى نيويورك أمس على الطائرة قرأت مقالاً منشوراً في جريدة أمريكية محترمة، حيث قالت بعض الشيء عن تسليح الجيش البوسني خلال الحرب. الكاتب لا يقولها بوضوح وصراحة، ولكن من الواضح أن كل شيء يمت إلى الإسلام بصلة يُذَكِّرُهُ بالإرهاب. وبالنسبة إليه، يكفي المرءَ أن يكون له اسم إسلامي ولحية ليكون مشبوهاً. ويذكر الكاتب أيضاً بعض الأسماء كذلك، كان ذنبهم الوحيد أنهم ساعدوا الجيش البوسني على امتلاك بعض الأسلحة خلال الحرب. واليوم، هناك أكثر من مليار مسلم في العالم. لاأعرف لمصلحة من يتم بمثل هذه المقالة وغيرها، دفع هؤلاء المسلمين إلى اللجوء إلى التطرُّف.

أرضنا وشعبنا عانا الويلات. افترض العالم أن لديه الحق في حظر الأسلحة، واعتقدنا نحن أن لدينا الحق في الدفاع عن النفس. وفي تنافس كلا الحقّين، نعتقد أن حقنا كان أقوى. لهذا ليس عندي أية نية بالاعتذار، لأننا عملنا ما بوسعنا للحصول على أسلحة خلال الحرب للدفاع عن أنفسنا. وعلى النقيض تماماً، أدينُ للناس الشجعان وأشكر الدول الصديقة التي ساعدتنا خلال حرب: طويت صفحة تاريخنا، وقلبنا الصفحة الأخرى: السلم.

أشكر الولايات المتحدة الأمريكية لأنها بدأت بالمبادرة من أجل السلام ولمحاولتها مع بلدان أخرى تقوية وتعزيز ذلك السلام المعقد والهشّ.

نحن بلد صغير، ولهذا علينا أن نسير على هدي سياسة انفتاحية وعادلة. الدبلوماسية السرية واللعب المزدوج هي ما تفضله الأقطار الكبرى. ولهذا السبب وأسباب أخرى كثيرة، إحداها المقال المذكور سابقاً، سأعيد بعض الحقائق وأهدافنا. البوسنة محتملة فقط كدولة ديمقراطية ولثلاثة شعوب تتمتع بالحكم الذاتي ومواطنين أحرار. وهذا هو الجزء الأساسي من اتفاقية دايتون للسلام والتي نقبلها بكامل نتائجها. تلك هي المعادلة المشهورة: بلد واحد، كيانان، وثلاثة شعوب.

وعادةً ما يدّعون أن اتفاقية دايتون ليست جيدة. إنها جيدة لأنها أوقفت المـوت في البوسنة، ولأنه لم يكن بالإمكان عقد اتفاقية أفضـل. فـالنقص الأساسي ليـس في ذات الاتفاقية نفسها، ولكن في تطبيقها. كل عيوب ومساوئ الاتفاقية يمكن إعادة المطالبة به لو طبقت بشكل عادل وشامل. ولسوء الحظ ليست هذه هي الحـال. أمـرت الاتفاقيـة بأن كيان هرسك - بوسنة يجب ألا توجد بعد الآن، مشكلةً كما كانت بلداً موازٍ أثناء الحرب. ومع ذلك، ما زالت موجودة وتفرض نفسها، وتقلق تطبيـق فيدراليـة البوسـنة والهرسك. كما أن الاتفاقية تأمر بأن كيان البوسنة الثـاني، جمهوريـة صـرب البوسـنة، عليه أن يسمح بعودة كل البوسنيين والكروات إلى منازلهم. هذا الأمر لم يحصـل، بـل على العكس من ذلك استمرت سياسة الطرد والنفي.

تَكمن معضلة معاهدة دايتون في انتقائية أو جزئية تنفيذها. فعلى سبيل المثال يَـروق للصرب الفقرة الثانية من الملحق الرابع والتي تشير إلى كينونة جمهوريـة الصـرب. وفي الوقت نفسه لا يروق لهم تطبيق الملحق السـابع من المعـاهدة نفسـها والـذي يتضـمن عودة اللاجئين. ورداً على هذا، أشار المجتمع الدولي وخصوصاً مجموعـة الاتصـال إلى أن معاهدة دايتون كم متكامل. أي لا يجوز تطبيق جزء منها دون تطبيق الجـزء الآخـر. وهذا يعني أنه إذا لم يكن هناك عودة لأولئـك المضطهديـن الذيـن أُرْغمـوا علـى تَـرك بلادهم فإنه لن تكون هناك جمهورية للصـرب في البوسـنة. وبالنتيجـة فإنـه إذا لـم تـتم معاملة هذه المعاهدة بهذا الشكل فإننا سنرى نمواً سلبياً لمعاهدة دايتون من اتفاق مقبول وسهل التطبيق إلى معاهدة لا تُحتمل ومعقدة التطبيق. وكما نعلم فإن الظلـم الـذي لا يُحتمل ينتج صراعات جديدة لا نهاية لها إلا بزوال الظلم.

تفرض معاهدة دايتون احترام حقوق الإنسان في كامل المنطقـة، ولكـن الـذي نـراه هو أن حقوق الإنسان منتهكة في كل المنطقة.

وقد كانت انتخابات أيلول (سـبتمبر) وحملاتهـا الانتخابيـة فرصـة لفحـص الموقـف فحصاً فاعلاً على أرض الواقع. وكان الموقف أكثر سوءاً في منطقـة التواجـد الصربـي، وذلك بسبب تقييد حرية السفر، وحرية التنقل لشعب الاتحاد الفيدرالي. أما الأحـزاب السياسية، فكانت وحيدة في حصولها على هـذه الحرّية. وبالإضافة إلى ذلـك، كـانت

المنظمات الانتخابية التي قامت بتسجيل الناخبين وعدّ الأصوات في المحيط الصربي ذات قومية وحزبية واحدة.

أما الحكومة البوسنية الشرعية فقد كانت وحيدة في إحراز تقدم ملحوظ فيما يتعلق بحرية الصحافة. حيث إن هنالك عدداً ضخماً من الصحف المستقلة والمجلات في البوسنة الآن ٤٠ محطة إذاعة صوتية و١٢ محطة إذاعة مرئية. وكان التلفاز الحكومي (تلفاز البوسنة والهرسك) قد خصَّص عُشر بثه التلفازي في وقت الذروة (أي من الساعة ٨ حتى ١٢ مساءً) لصالح الحزب الحاكم بينما استحوذت المعارضة على الحصة المتبقية (أي ٩/١٠ من البث). وفي الوقت نفسه، أعطت الحكومة رخصاً محلية للعمل على إيجاد شبكة تلفازية مفتوحة. والحكومة أيضاً مستعدة لإعطاء ترخيص دائم لهذه الشبكة على شرط أن تكون تغطيتها شاملة لكل البوسنة والهرسك، وأنْ تكون أيضاً شاملة لكل الاتجاهات السياسية يمينية كانت أو يسارية.

أما مشكلة برتشكو فسيتم الحل العملي لها عن طريق الحاكم الأمريكي روبرت أوين، والسبب في ذلك أن الجانب الصربي لا يمتلك الحرية الكاملة في اتخاذ القرارات. فحريته محدودة اعتماداً على الملحق الثاني من الجزء الخامس من معاهدة دايتون والتي تنص على ضرورة احترام مبادئ العدالة والإنصاف.

وسأنهي هذا التحليل المُختصر لتطبيق معاهدة دايتون بالتصريح بأن مجرمي الحرب الرئيسيين وهما كارادجتش وجلادتش ما زالا طليقين رغم معاهدة دايتون، ورغم مطالبات محكمة لاهاي، ورغم مطالباتنا بتقديمهم للعدالة.

أريد هنا أن أنادي بتطبيق مبادئ التصالح بين كل الشعوب، فالبوسنة بحاجة ماسة لهذا. ويجدر بنا القول هنا: إنه لا يوجد من يؤيد شمول الذنب للجميع، بل إننا نؤمن أن العقاب لا يشمل إلا فاعل الذنب بغض النظر عن عدد المتهمين به. وبذلك يجب معاقبة المجرمين حتى تتم المصالحة بين كل أفراد المجتمع. ولهذا السبب أُنشِئت محكمة لاهاي. وعلى الرغم من إيجاد هذه المحكمة فكلنا يعرف أن كلاً من النائب العام ورئيس المحكمة الدولية في لاهاي غير راضيين عن سلوك المجتمع الدولي، لأن كل محاولاتهما لاستدعاء المتهمين واستصدارهم لنشرات خاصة بالمطلوبين قد باءت

بالفشل. ونحن في الوقت الذي يطالب فيه المجتمع الدولي بقرارات معتدلة لا تؤذي أحداً، أي تساهل مع المجرمين الذين ارتكبوا المجازر وجرائم الإبادة الجماعية في البوسنة، نعتبره خيانة للعدالة والإنصاف، ونصرة للمجرمين الفارّين الذين سيستمرون في دس سمهم في العالم، وفي تدميرهم لمؤسساته.

وبعد كل هذا يظهر للعيان من يسأل في أوربة وأمريكا "هل يمكن قيام دولة بوسنية؟" إن هؤلاء إما أن يكونوا جهلة بالحقائق أو أنهم منحدرون أخلاقياً. وكأني بهم لا يدركون أنه قد قُتل أو اضطهد نصف مليون بوسني (أي ٤٠٪ من العدد الأصلي للسكان قبل الحرب) في الكيان الصربي! إن من يسأل هذا السؤال مهمل لهذه الحقيقة. وجوابي لهؤلاء أنه إذا تركت جرائم الإبادة الجماعية من دون عقاب لمرتكبيها فإن قيام دولة البوسنة غير ممكن. وبذلك فإنني أتفق مع من يقول: إن معاقبة مجرمي الحرب أمر باهظ الثمن، وقد تكون عواقبه وخيمة. ولكنني في الوقت نفسه أذكرهم بأن ثمن ترك هؤلاء المجرمين من دون عقاب سيكلف العالم ثمناً أكبر.

لذلك، إن السؤال الذي يجب طرحه في هذا الموقف ليس "هل يمكن أن تعيش قوميات وأعراق مختلفة بعضها مع بعض؟" وإنما يجب طرح السؤال بواقعية أكثر وهو ببساطة "هل يحق لقومية أو لعرق أن تطرد أمة تصغرها حجماً وبعد ذلك تسلب الأمة الأكبر حجماً أملاك الأخرى تحت شعار "لا يمكننا أن نعيش بعضنا مع بعض" وبعد ذلك تطلب المغفرة لتصبغ ما فعلت بنا صبغة شرعية؟" أما جواب هذا السؤال فهو واضح لأصحاب المبادئ والأخلاق.

وفي نهاية المطاف، ماذا يفترض من الحكومة المستقبلية للبوسنة والهرسك أن تفعل في هذه اللحظة التاريخية الحرجة؟ والجواب باعتقادي: عليها أن تنشئ حكومة عليا من المندوبين، وعلى هذه الحكومة أن تكون ممثلة من كل الأطياف السياسية بما ينسجم ونتائج الانتخابات.

ومن ثمَّ، على الحكومة المستقبلية أن تعلن عن منهج يتألف على الأقل من ثلاث نقاط؛

أولاً: عليها أن تطلب التطبيق العادل من كل من وقّعَ معاهدة دايتون. وكما نرى الآن إن الاتجاهات الدولية الداخلية تعبر- حتى لو كان هذا التعبير لفظياً- عن تأييدها

لهذه المعاهدة. وبذلك، على الحكومة المستقبلية أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الالتزامات من الدول الأخرى؛ لأن الضغط الدولي في هذا الاتجاه سيكون لوقت طويل أساسياً.

ثانياً: على الحكومة المستقبلية أن تنادي بالمصالحة بين الناس وبين الأمم التي تورطت في مثل هذا الظلم والاضطهاد.

ثالثاً: على الحكومة أن تضمن حرية الصحافة والإعلام طريقاً لالتئام جروح البلاد. فالصحافة هي التي بدأت الحرب قبل عدة سنين بترويجها غير المعقول للحقد والبغض. ولذلك يمكن للصحافة والإعلام أن تحافظ على السلام بنشرها للتسامح والتفاهم بين صفوف الشعب. وقد كان تلفاز ومذياع الدولة مبادراً في تقديمه أنموذجاً يحتذى به، وذلك في الفترة التي سبقت الانتخابات. وفي الإطار نفسه يمكن لشبكة البث الإذاعي المفتوح أن تساعد في نشر التسامح إذا فتحت أبوابها لكل الأحزاب السياسية، وإذا كانت تحت رقابة الجمعية التشريعية.

ولعلي أقول في هذا الموقف: إنه ليس بمقدور الحكومة البوسنية أن تنفذ هذه الإصلاحات وحدها. فالبوسنة ما زالت منهكة وبحاجة ماسة للدعم الدولي، وأيضاً ستكون البوسنة بحاجة لبقاء وجود القوات العسكرية الدولية ولبقاء المساعدات الاقتصادية لوقت طويل.

وأريد الآن أن أختم بقول بعض الكلمات التي تخص الأمم المتحدة، فنحن نؤيد الإصلاح في نظام الأمم المتحدة. هذا الإصلاح ليس ضرورياً لتغيير نظام الأمم المتحدة فقط، وإنما هو ضروري أيضاً لتغيير سيكولوجية المجتمع الدولي: وذلك لأننا بحاجة إلى موقف جديد وجدّي تجاه الواجبات الملقاة على عاتق الجميع. وبذلك، لا يمكن للأمم المتحدة أن تتولى مسؤوليات لا طاقة لها بها. فلا يمكن مثلاً أن تعلن عن منطقة بأنها منزوعة السلاح ومحمية من قبلها، ثم تتركها لتواجه مصيراً أسود. فهذا أمر غير مقبول! لقد دفع شعبي ثمناً غالياً لهذا التجاهل للمسؤوليات. فمنطقة سربيرينيتسا وسكانها آل ٨,٠٠٠ الأبرياء ليسوا المثال الوحيد ولكنه المثال الأقسى لهذه العلاقة غير الواضحة المعالم. وبصفتنا لا نجرّم أحداً نطلب فقط تغييرات وإصلاحات تضمن عدم تكرار هذه الممارسات.

قمت بالأمس في هذا المبنى بتوقيع معاهدة على الحظر الدولي للاختبار النووي في الوقت الذي نحن فيه بلد صغير، ومع أن توقيعي لا يحمل أهمية كبيرة. ومع ذلك، أريد أن نشارك في أي أمر بنّاء حتى لو كانت هذه المشاركة رمزية. وستوقّع البوسنة من خلال ممثليها على معاهدة لمنع الإرهاب، وستوقّع على دعم مكافحة المخدرات والجريمة المنظمة...إلخ. وكلي أمل أن البوسنة ستقوم بالمشاركة بكل عمل هدفه إعاقة الشر، وأي عمل هدفه التحرك الثابت نحو عالم آمن. وشكراً!

لقد كانت صناعة الأسلحة ذات أهمية كبيرة للمقاومة البوسنية، ولكن كان الحل الأمثل هو حد التسلح في الجوار. فقد وقعنا على اتفاقية جنيف المتعلقة بالإشراف على التسلح المحلي. وأيضاً، تمت في دايتون الموافقة على خفض مستوى التسلح في يوغسلافية، البوسنة، الهرسك، وكرواتية لتكون (٥:٢:٢) على الترتيب. وفي داخل دولة البوسنة والهرسك كانت نسبة التسلح بين الاتحاد الصربي واتحاد البوسنة والهرسك (٢:١) على الترتيب. وبذلك تمَّ تعزيز خفض التسلح. (فلورنسا تموز (يوليو)، ١٩٩٦).

و قد انتهت المرحلة الأولى من عملية خفض التسلح في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٦. ومنذ ذلك الوقت تمَّ تدمير ١,٧٠٠ قطعة مدفعية ثقيلة ذلك لأن هدف المرحلة الأولى كان خفض الأسلحة الثقيلة بنسبة ٤٠٪ وقد شمل ذلك الطائرات العسكرية، الطائرات العمودية والمعدات المدفعية. وأيضاً اشتملت هذه المرحلة على خفض الدبابات ومدرعات النقل بنسبة ٢٠٪، وقد دمرت الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية في المرحلة الأولى ٤٠٠ قطعة سلاح من الأنواع سالفة الذكر. وفي المقابل قام اتحاد البوسنة والهرسك بتدمير ما يقرب من الـ ٧٠٠ قطعة سلاح كانت في أغلبها مدافع من العيار الخفيف، وبذلك أَنجزَ الاتحاد التزاماته للمرحلة الأولى. أما بالنسبة لجمهورية الصرب فقد دمَّرت في البداية أقل من ٥٠ قطعة سلاح والذي هو أقل من الكمية الملتزم بها، وبعد ضغط دولي قامت جمهورية الصرب بتدمير قرابة آل (١١٠٠) قطعة سلاح.

وفي المرحلة الثانية، سجَّلت جمهورية الصرب تدمير ٢٠٠٠ قطعة سلاح كان عدد ضخم منها أسلحة ثقيلة. وكان الجانب الصربي قد بدأ مرحلة التدمير هذه في شهر أيار (مايو) من عام ١٩٩٧. وبحلول شهر أيلول (سبتمبر) تمّ تدمير ٥٥٠ قطعة سلاح أخرى. ومن ناحية أخرى، قام اتحاد البوسنة والهرسك في المرحلة الثانية بتسجيل تدمير ١,٣٠٠ قطعة سلاح وبحلول أيلول (سبتمبر) قام بتدمير ٥٠٠ قطعة سلاح أخرى. وبهذه السرعة دَمَّرت البوسنة ما هو مطلوب تنفيذه في عام ١٩٩٧. وفي المرحلة نفسها دَمّرت كرواتية قرابة ٦٠٠ قطعة سلاح معظمها من سلاح المدفعية، والذي كان بدوره أعلى مما هو مطلوب. وكانت في معظمها من الأسلحة الثقيلة. وقد تمَّ البدء بتنفيذ هذا في شهر أيار بشرط أن يتم الانتهاء في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٧. وقد أشار المسح الذي قام به مراقبون دوليون أن الجمهورية اليوغسلافية ستدمر الكمية المطلوبة من الأسلحة في الوقت المحدد. وبالإجمال، كان التقدير أن يتم تدمير ٤,٦٠٠ قطعة سلاح تم تدمير ٢٠٠٠ قطعة منها حتى الآن. وبنهاية هذه المرحلة سيتم تدمير ما مجموعة ٦,٢٠٠ قطعة سلاح في خطوة لا بد من تنفيذها ليتحقق السلام في هذا الجزء من العالم.

وقمتُ في ردِّي عن سؤال تمَّ طرحه من قبل صحيفة نيزافيسنه نوفينه الصادرة في مدينة بانيالوكا في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩٦- بتقييم التطورات الديموقراطية في كرواتية وتأثير هذه التطورات على العلاقات مع البوسنة والهرسك، حيث قلتُ:

نجد التعاون مع كرواتية ضرورياً عند الحديث عن الوضع الجيوسياسي في البوسنة والهرسك. وأعتقد أن على كل الحكومات البوسنية بغض النظر عن معتقداتها واتجاهاتها السياسية أن تحترم حقيقة أهمية هذا التعاون. لقد كان هذا التعاون موجوداً حتى في أيام التصادم مع مجلس الدفاع الكرواتي خلال الحرب. وبشكل عام، ستعتمد هذه العلاقات على التطورات الديموقراطية في كرواتية. وشخصياً أعتقد أن على كرواتية أن تتبع النهج الديموقراطي. ولهذا فإنني أؤمن بمستقبل تكون فيه العلاقات طيبة معها.

وبعد ذلك، تم عقد مؤتمر حول البوسنة في مدينة لشبونة البرتغالية في الثالث من أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٦. وكنت قد أوردتُ في تقرير قدَّمته بعنوان "تقرير مختصر من البوسنة" التطبيق البطيء والمنتقص لمعاهدة دايتون، وتحدثتُ أيضاً عن الصعوبات الناتجة عن هذا التطبيق المنتقص. وكنت قد ختمت تقريري بالكلمات التالية:

دَعُوني أنهي هذا المسح البسيط بتعليق أخير حول الوضع الحقيقي في البوسنة، وهو تعليق حول المبدأ الأخلاقي للعدالة والمساواة. ففي البوسنة يتكرَر سماع كلمة عظيمة ألا وهي المساواة. ولكنه في الوقت نفسه تتكرر إساءة استعمال المساواة قدر تكرر سماعها.

في هذا الموقف ينتابني شعور يلزمني الحديث عن موقفي الشخصي: إنها لعدالة تشمل كل الناس تلك التي نريد. نعم! عدالة تشمل كل المواطنين البوسنيين والكروات والصرب...إلخ. أما تلك العدالة التي تساوي بين القاتل وضحيته فلا وألف لا، كان من كان القاتل أو ضحيته.

وبذلك، اقتربت نهاية عام ١٩٩٦ الذي جاء حافلاً بالأحداث. وفي مقابلة مع صحيفة مدينة سراييفو أفاز، أجبتُ عن بعض الأسئلة التي طرحها رئيس التحرير حول رؤيتي لعام ١٩٩٦:

أفاز: كيف تنظر إلى الوضع البوسني في السنة التي انصرمت؟ وبكلمات أخرى، ماذا سرّك من الأحداث، وما الأحداث التي لم تسرّك؟

عزت بيغوفتش: في البداية أريدُ أن أعبّرَ عن سعادتي بالسلام الذي جاء نهاية لإطلاق النيران والقتل. ومع ذلك، عندما تجد بلداً نفسها في سلام بين ليلة وضحاها فإن المعايير تتغير بسرعة. ففي الوضع الطبيعي للسلام، يجد المرء نفسه في وضع اعتيادي حيث الوظيفة والراتب الشهري والكهرباء والدفء ومعاش التقاعد... إلخ. ولكن ما يحدث على أرض الواقع مختلف عما هو مأمول؛ فالبطالة مرتفعة جداً، والرواتب منخفضة، وتزويد الماء والغاز متقطّع والعدل غائب. وبهذا فإن عدم الرضا

هو الشعور الذي ينتابني في هذا الوقت. وربما قد يضمحل هذا الشعور بعدم الرضا عندما أستذكر أن الوضع قد يكون أكثر سوءاً: فقد يكون هنالك الجوع والتسوّل ولحسن الحظ لا توجد مثل هذه الأمور. أيضاً كانت هنالك إمكانية لحدوث تضخم كبير، ولكن هذا لم يحصل أيضاً. وكانت هنالك إمكانية لعدم توافر الكهرباء نهائياً ولكن بحمد الله فالكهرباء متوافرة...إلخ. وفي الوقت نفسه، عند قياس الوضع بالمعايير العالمية فإننا نجد الوضع صعباً. فمع أن البوسنة احتلّت قمة السلم في الشجاعة، فإننا نجدها تحتل نهاية سلم المعايير المعيشية، الأمر الذي لم يعتد عليه أهل البوسنة.

أفاز: ما زالت هناك مصالح وأهداف استراتيجية للبوسنة. وأنا أؤمن أن هذه الأهداف والمصالح تتحقق بالمعيارين اللذين ذكرتهما. وأريد الآن أن أسألك عن التزاماتك الشخصية باعتبارك "أبو الأمّة البوسنية" على الرغم من أنك قد تعترض على هذا التأويل؟

عزت بيغوفتش: أمقتُ ما يسميه الآخرون بـ "أبَاء الأمم". وبصراحة فإنني لا أحب هذا اللقب. ومع ذلك سأجيب عن الشق الأول لهذا السؤال. باختصار، يغطي كل البوسنة ويشمل أيضاً الشخصية الديموقراطية لهذا البلد، فأنا أرى أن هذين الشيئين متلازمان من أجل البوسنة متحدة. فقد تبع مفهوم البوسنة دائماً إما إبادة جماعية أو عنف على الأقل. وفي المقابل فإنه إذا كَرّست نفسك للمبدأ الديموقراطي فإن هذا يعني بوسنة متحدة. ولذلك يمكنك أن تعبر عن غايتنا بكلمة واحدة ألا وهي الحرية. وأقصد بالحرية حريتي كمواطن بأن أكون بوسنياً أو أن أكون كرواتية أو صربياً. وببساطة أعني الحرية بأن يكون المرء مواطناً يكتب ويتكلم ويسافر من دون عوائق. وبكلمات أخرى نسعى إلى حرية لا ينظّمها إلا القانون.

أفاز: ما شعورك الشخصي –مع أنه يجب عدم سيطرة العواطف على المرء– في الوقت الذي تقود فيه المفاوضات مع كرايشنيك؟

عزت بيغوفتش: هذا جزء من عملي. وفي هذا العمل نادراً ما تجد ما يسرك. ومع ذلك فقد اعتدت على هذا.

أفاز: لقد كان التحكيم حول مدينة برتشكو هاماً جداً واختبار للمجتمع الدولي. كيف يمكن لهذا القرار أن يؤثر على احتمالات عودة الحرب أو على تقوية وتدعيم السلام في البوسنة والهرسك آخذين بعين الاعتبار كلمات الحرب النارية التي نسمعها كل يوم من مدينة باله؟

عزت بيغوفتش: بالفعل، إن المحاكمة حول مدينة بريشكو مهمة جداً. بل إنها الأهم للسلام منذ توقيع معاهدة دايتون. فأنا لا أستطيع تصوّر ردّة فعل شعبي لقرار غير عادل حول مدينة برتشكو. فقد طَفحَ الكيل. وأيضاً نحن من الناس الذين لا يمكن خداعهم. فمدينة برتشكو لنا في سكانها وفي أصولها وفي ملكيتها. أما جريمة الإبادة الجماعية التي تمّ تنفيذها ضد شعبي عام ١٩٩٢ فهي حجة أخرى لنا. وهي حجة تجعل من الوضع الراهن سخيفاً وذلك لأن الصرب يطالبون بمكافأة على الجرائم التي ارتكبوها. فهم ليسوا بحاجة لإثبات ملكيتهم لهذه المدينة كونهم يُحكِمون السيطرة عليها. ومع أنهم يظهرون دماثة في تعاملهم مع الآخرين، إلا إنني أعرف كما يعرف شعبي أن ما يجري في عقولهم هو "لقد اضطَهدنا وقَتَلنا السكان الأصليين لذلك هذه المدينة لنا". ولكننا لا نملك إلا أن نقول لهم: "لقد ولّى عام ١٩٩٢ وتولت القوة التي كنتم تلوحون بها علينا". وأنا أدرك أنهم يعرفون هذا. ولهذا السبب فأنا أؤمن أن غياب العدل لن يحصل مرة أخرى.

أفاز: في الوقت الذي يمنع فيه الصرب عودة اللاجئين غير الصربيين لأراضيهم. تسمحون أنتم للاجئين الصرب بالعودة إلى أراضيهم التي يُحْكم جيشكم السيطرة عليها. هل يمكن أن ينتج ما تقومون به بعودة البوسنيين إلى أراضيهم في جمهورية الصرب المُحْكمة الإغلاق وإلى المناطق المحكومة من قبل مجلس الدفاع الكرواتي، وفي المقابل زيادة نسبة الكروات والصرب في المناطق التي تخضع لحكومتكم؟ كيف يمكن للحكومة أن تضمن عودة ثنائية الطريق من دون الحاجة إلى اللجوء إلى الأساليب المطبقة من قبل نظام الحكم في كل من باله وفي غرب موستار؟

عزت بيغوفتش: لقد وصفت لتوك معضلتنا الكبيرة والتي تبدو في بعض الأحيان غير قابلة للحل. إذا ما جارينا هذه التبادلية مع الصرب فإنه سيتم في يوم من الأيام

إعاقة رجوع اللاجئين، وبذلك سيتم تنفيذ خطط التطهير العرقي. وإذا تناسينا هذا فإن ذلك يعني تطبيق القانون من طرف واحد الأمر الذي سَيُنتج حالة يعرفها القانون الروماني بقانون الظلم. فعلى سبيل المثال قد يحصل الصربي الذي استولى على بيت مسلم في زفورنيك على بيته السابق في البوسنة، وبذلك يصبح له بيتان، أما المسلم فيصبح مشرداً. ولهذا علينا أن نحافظ على التبادلية، وما نستطيع عمله الآن هو ألا نكون متصلبين وأن نكون جاهزين للقيام بالخطوة الأولى من أجل الكشف عن الطريق للقيام بالخطوات الأخرى حتى يعم الخير بلدنا. أقصد هنا بالتبادلية تلك التي تتصل بالبضائع المادية والبيوت والشقق...إلخ. أما التبادلية في حقوق الإنسان فإنني أعتقد أنها غير ممكنة! فلا يمكنك القول مثلاً: أنت لم تعط الحقوق الدينية الحرية في الوصول إلينا، لذلك لن نسمح للحقوق الدينية بالوصول إليك. فالأمور بهذا الشكل غير مقبولة. ويمكن تفسير عدم قبولها بسببين:

أولهما أن حقوق الإنسان أسمى من المبادئ النفعية.

وثانيهما أن حقوق الإنسان ما هي إلا حقوق تخص تلك الفئة التي تطبقها فقط.

ومن الأشياء التي تمَّ إثباتها أن الديموقراطية والحرية ذواتا نفع كبير للمجتمع أو للبلد الذي يطبِّقهما. فالمجتمعات الاستبدادية في انحسار دائم. ويجدر بنا القول في هذا المقام: إنه على المرء أن يحترم أخاه المرء. وذلك لأن احترامك لغيرك هو في حد ذاته احترام لذاتك. وبرأيي المتواضع علينا أن نحترم حقوق الإنسان؛ لأنها جزء من المبادئ الأخلاقية التي يفترض بالجميع التحلي بها.

قامت- وكالة رويترز في الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٧، بنشر أخبار تضمنت أن بريشكو قد تمَّ التحكيم فيها وكان القرار بأن تكون برتشكو من نصيب جمهورية الصرب على شرط الإيفاء ببعض التعهدات لاتحاد البوسنة والهرسك، على افتراض أن الأمريكيين قد قاموا بهذا الاقتراح. وقد أدّى هذا الخبر إلى ردّة فعل قوية ومباشرة لبلدي استدعيتُ فيها سفراء مجموعة الاتصال (الولايات المتحدة الأمريكية، ألمانية، بريطانية العظمى، فرنسة،

وروسية) وأَخبرْتُهم أنه إذا كانت تلك الأخبار صحيحة فإنني سوف أقدم استقالتي من الرئاسة في اليوم نفسه، وسأحرص على أن يعرف العالم كلّه ما حدث من ظلم. وقد أرسلت لهم رسالة تعبر عن ذلك وجاء فيها:

تروج شائعات تقول بأن التحكيم في مدينة برتشكو وتحت ضغط جانب واحد من جوانب المجتمع الدولي قد يعطي برتشكو للصرب. وإذا حصل ذلك فإنني سأستقيل مباشرة وسأترك وظيفتي رئيساً لاتحاد البوسنة والهرسك. وهذه الاستقالة ما هي إلا احتجاج على الاختراقات الصريحة لمبادئ العدالة والتي كان المُحَكِّم مجبراً عليها حسب البند الخامس من الملحق الثاني من معاهدة دايتون، وكذلك بسبب هذا الاختراق الأخير من قبل المُحكم الذي لم يكن إلا الأخير في طابور الظلم الذي نفذه المجتمع الدولي تجاه البوسنة وشعبها. فعلى الرغم من أننا هُوجمنا في ديارنا، قيّدَ المجتمعُ الدولي أيدينا بتحريم التسلح الذي كنا الوحيدين الملتزمين به، والذي كوفئنا عليه بجرائم إبادة لشعب البوسنة بدءاً من أهل زفورنيك عام ١٩٩٢ وانتهاءً بمجزرة سربيرينتسا عام ١٩٩٥. ولم يكن موقف المجتمع الدولي واضحاً تجاه كل تلك الأحداث المأساوية. أما برتشكو فهي قضية أخرى عُوقبت بها الضحية بقرار مقصود وكوفئ فيها المجرم.

أجد نفسي الآن غير قادر على التعاون والمتابعة في مجتمع دولي، لا يجد حرجاً في القيام بمثل ما قام به للبوسنة وشعبها. لذلك أرى أنه لا بدَّ لي- وبحكم شرف وظيفتي- أن أستقيل لأفسح المجال لغيري بالموافقة على مثل هذا. ومع ذلك لا أرى من الشعب البوسني من يوافق على مثل هذا القرار. فباعتقادي أن كل من سيلادجتش وبتشاكتشتش وغانيتش وموراتوفتش كما هو الحال لكثير غيرهم لن يوافقوا على مثل هذا القرار. وفي حال تطبيق القرار فإننا سنرى انفجاراً في البوسنة. فأنا لا أعتقد أنه يوجد شخص يمكن أن يفسّر للشعب البوسني هذا القرار محاولاً إقناعهم بمثل هذا الظلم. فقد طفح الكيل. وإذا استقلت فإنني سوف أبذل كل جهدي لأوضّح للمجتمع الدولي في الشرق والغرب، ماذا حصل في البوسنة في السنوات الخمس الأخيرة؟ ولماذا سارت الأمور بهذا الشكل؟ على أمل أن يتم تقليص حجم تفاهة وسخرية الدبلوماسية الدولية.

لا أعلم لأي حدٍّ أثَّرت هذه الرسالة على سير الأمور. ولكن يبدو أنه قد تـمَّ تعديل قرار المحكّم بناء على طلب أمريكي من أجل أن يكون القرار سـلاحاً ذا حدين. وبالنتيجة، لم يتم إعطاء برتشكو للصرب، ولكنهم قـد يحصلون عليهـا إذا حقَّقوا في يوم من الأيام الشروط المتعلقة بحقوق الإنسان، وإذا كـانت القـوة الأمنية والإدارية مختلطة بين اتحاد البوسـنة والهرسـك وجمهوريـة الصـرب، وإذا رجع المضطهدون البوسنيون والكروات إلى بلادهم. وأنا أعلم أن الصرب ليـس باستطاعتهم ولن يكون باستطاعتهم تحقيق مثل هذه المتطلبات.

وقد استمرت المناورات السياسية والمؤتمر حول برتشكو لعامين آخرين حتـى جاء المحكّم روبرت أوين، وأعطى حلاً حكيماً أعلنه في الخامس من أيار (مايو) عـام ١٩٩٩، جـاعلاً برتشـكو مقاطعـة لهـا وجـوداً ثالثـاً في دولـة البوسـنة والهرسك، ومُمَكّناً إياها من وجود حكومة لها ذات أعراق متعددة. وأيضاً تـمَّ إيجاد محكمة وقوة أمنية خاصة بها. أما تطبيـق هـذا القـانون فبحاجـة إلى نضـال مستمر نهايته غير واضحة المعالم.

وبُعيدَ ذلـك، دُعيـت إلى نيويـورك في نهايـة آذار (مـارس) مـن عـام ١٩٩٧ لأتسلم جائزة من قبل المركز الأمريكي للديمقراطية. وقد ألقيت خطاباً في حفـل التسليم بالإضافـة إلى كـل مـن رئيـس المركـز الدكتـور فاينتشـتاين والسـفير الأمريكـي لـدى الأمـم المتحـدة بيـل ريتشاردسـون. وتَمحـورَ حديثي في هـذا الخطاب حول الوضع الراهن في البوسنة والهرسك وخصوصاً بطء عملية تطبيق معـاهدة دايتـون. ومـن خـلال خطـابي يمكـن للمـرء أن يستشـف الصعوبـات والمشاكل التي تعاملنا معها في ذلك الوقت. وجاء في الخطاب:

إن الدفاع عن الديموقراطية في البوسنة جدارة استحقها كثير من الذين انتموا لأمم وأحزاب سياسية مختلفة، وفي هذا الموقف لا يسعني إلا أن يكون تقديري لهؤلاء مقدمة أستهلّ بها كلامي. إن تقديري يشمل كل من صمدوا في هـذه الأوقـات العصيبـة من

الحرب والفوضى، وبقوا ثابتين على التسامح والديموقراطية. ولهذا فقد طلبت من السيد ميرو لازوفيتش رئيس مجلس النواب أيام الحرب، والبروفيسور إيفو كومشتش عضو رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك أيام الحرب الحضور في هذا الاحتفال. ولا يسعني إلا أن أتقدم بآيات العرفان والشكر على تشريفهم بالحضور معنا اليوم.

إن رؤيتي للبوسنة واضحة؛ إنها رؤية لبلد ديمقراطي ذي وِحْدَة واحِدة متكاملة. وأعتقد أنكم تحملون الرؤية نفسها للبوسنة. ولكن الواقع بعيد عن الآمال والرؤى. فالحرب تترك دائماً اختبارات صعبة للديمقراطية والديموقراطيين. وهذا ما حدث في البوسنة. فأنتم تعلمون عن النجاح والفشل الذي حققناه في مقاومة هذه التحديات. وأعتقد أن انتصاراتنا الأخلاقية كانت أكبر بكثير من الهزائم، وهذا هو النسق الذي أفسر فيه إعطائي مثل هذه الجائزة.

سألني أحد أصدقائي الأمريكيين إذا ما كنت أؤمن بإمكانية وجود بوسنة متعددة الأعراق. وكان قد تمَّ توجيه السؤال نفسه إلي في أوربة من قبل كثير من أصحاب النوايا الحسنة. وعادة أجيب عن هذا السؤال بسؤال آخر: ما البديل؟ فإذا كنتم تعتقدون أنّه أمر يتعلق بتقسيم البوسنة فأنتم تبسطون المشكلة بشكل لا يُغتفر. إن القضية أكثر تعقيداً مما تتصورون. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما حصل بدءاً من ربيع عام ١٩٩٢، ثم جرائم الإبادة الجماعية، ووصولاً إلى التلاعبات في معاهدة دايتون، فإن التقسيم لن يُعتبر هزيمة سياسية فقط، بل سيعتبر كارثة ذات عواقب لا حصر لها، وسيكون بمثابة إقرار بالقوة والاحتيال في العلاقات الدولية، وبمثابة باب لتشريع جرائم الإبادة الجماعية والعنف، وهزيمة للديمقراطية وانتصاراً لنظامين فاشيين تافهين لكنّهما حقيران ومؤذيان، واحدة على الطرف هذا منّا، وأخرى على الطرف المقابل. وبهذا هل يمكن لهذه الهزيمة النكراء للديمقراطية والقانون أن تكون موضع اهتمام بوسني فقط! أو ليس هذا موضع اهتمام لكل رجل وامرأة في العالم! لقد اختبر البوسنيون قوة الدافع الأخلاقي وشجاعة المجتمع الدولي. وإلى الآن هنالك لسوء الحظ دلائل كثيرة على ضعف الوازع الأخلاقي في هذا العالم.

وفي اليوم التالي، صرّح سياسي أمريكي بارز أن الجنود الأمريكيين قد ينسحبون من البوسنة في الوقت المحدد، حتى لو أدى ذلك إلى عودة الاصطدامات. وقال حرفياً: "إذا أراد البوسنيون والصرب والكروات القتال فهو خيارهم". لقد صَعقني ذلك لأن الأمر متعلق بأطراف مُولَعة بالحرب وتريد استمرارها. وبذلك تكمن المشكلة في حقيقة أن المجتمع الدولي يتسامح مع اختراقات فاضحة لاتفاقية دايتون. فلا توجد هنالك حرية تحرك ولا عودة لاجئين كما هو منصوص في المعاهدة. وفي الوقت نفسه يصرّح نظام الحكم في باله بأنه لن يسلّم مجرمي الحرب، ولن يقبل ببنك مركزي، أو عملة مشتركة، مع أن الاتفاقية تنص على ذلك. ومع ذلك لا نرى ردة فعل دولية حيال هذا.

أعرف كثيراً من أهل البوسنة الطيبين الذين لا يريدون القتال، بل يريدون السلام. وذلك لأنهم بحاجة ماسة إليه. أما القادة الكبار والصغار فيريدون الاستمرار في الحرب، الأمر الذي أثّرَ على مناقشتنا للوصول لبعض النتائج التي تحد من قدراتهم.

إن معاهدة دايتون تكاملية، وذلك لأنه تمت موازرة هذه الاتفاقية بمجموعة من العناصر المختلفة، والتي تمَّ الوصول إليها بعد مفاوضات طويلة ومضنية. وكما تعلمون فإن طبيعة مثل هذه الاتفاقات لا تحتمل التطبيق الجزئي. لذلك لا يجوز لجمهورية الصرب أن تطبق ما يحلو لها من المعاهدة وفي الوقت نفسه تترك ما لا يتناسب وهواها دون تطبيق. وأمثّل على ذلك بالملحق السابع غير المطبق من اتفاقية دايتون والذي يضمن حقوق اللاجئين بالعودة إلى ديارهم، والذي أدى بدوره إلى هدم الشخصية البوسنية المتعددة الأعراق والتي كانت هدفاً في دايتون. أما نظام الحكم في باله فإنه يحقق أهدافه عن طريق استغلال المعاهدة، وليس عن طريق تطبيقها. أما أهدافنا المتمثلة بعودة اللاجئين والوحدة التكاملية للبلاد، فإننا لا نرى أي تحقيق لها. ولذلك إذا لم يتم إيقاف هذا السلوك السلبي من قبل كل من جمهورية الصرب ونظام الحكم في باله، فإن معاهدة دايتون ستتلاشى وستبقى مجرّد حبر على ورق، وسيخرج الوضع عن نطاق السيطرة.

هذا هو الوجه الحقيقي لمعاهدة دايتون في جانبها المدني. وبعد كل هذا نرى من يعتقد في الغرب بأنه قد تمَّ الوصول إلى السلام عندما تمَّ تحقيق الجانب العسكري بصرف القوات العسكرية من الخدمة. ورداً على هؤلاء أقول: إن الجانب العسكري لا

يمثل الكثير؛ فإذا لم يتم تطبيق الجانب المدني من اتفاقية دايتون فإن النتائج العسكرية سيتم التراجع عنها في يوم من الأيام، وبذلك تعود الحرب من جديد. لذلك لا يمكن ضمان السلام العادل في هذه المنطقة التي ما زالت تعاني من الاضطرابات والأزمات إلا من خلال التطبيق الكامل لمعاهدة السلام. وشخصياً، أعتقد أن المجتمع الدولي لا يستطيع لسبب أو لآخر ملاحظة هذا.

ما عسانا أن نفعل في موقف كهذا؟ فعلى الرغم من أننا قد أضعنا الكثير من الوقت، اسمحوا لي أن أؤكد أنه ما زال لدينا فسحة من الوقت. لذلك أوصي أصدقاء الشعب البوسني في أمريكا وفي أي مكان في العالم أن يضمنوا التطبيق المتسق وغير المنتقص لمعاهدة دايتون. وأوصي أولئك المندوبين ذوي الرواتب العالية بألاّ يدعوا إلى اتفاقيات جديدة، بل أن يدعوا إلى تطبيق ما تمَّ الاتفاق عليه.

إنني لأنادي المجتمع الدولي بإيقاف ما تقوم بها السياسات الدولية الجائرة من إفساح الطريق للشر ليمارس الظلم والعدوان. وذلك لأن السياسات الدولية هذه تشجع المتطرفين على المضي في تطرفهم. واسمحوا لي بأن أطلب من المجتمع الدولي عدم القول بأن الخطأ يقع على عاتق الجميع مساوياً البوسنيين الأبرياء بالصرب القتلة. فهذا افتراء لا يروي عطشان، ولكنه يعطي الاحتلال والاضطراب التربة الخصبة لنموِّه.

أنادي المجتمع الدولي أيضاً بإجبار كل الأطراف على الملائمة بين دساتير بلادهم لتنسجم ومعاهدة دايتون. وأنادي أيضاً بإجبار كل الأطراف على تدمير الفائض من أسلحتهم، وفقاً لمعاهدة دايتون.

ولعلي أضيف في هذا الحفل الكريم بأنه يمكن إيجاد التصالح بين الشعوب بتوافر شرطين هما: معاقبة مجرمي الحرب، وتحرير وسائل الإعلام. أيضاً على كل الاطراف أن تؤمن بقضية فردية الذنب وليس بِجَماعيَّته، قبل أن توقِّر أولئك المتعصِّبين ذوي الأوهام العرقية.

إننا لندرك في البوسنة، أن إيجاد التصالح والتفاهم بين الناس يمثل الجزء الأكبر من وظيفتنا التي يجب أن نقوم بها بأنفسنا كون أن القضية قضيتنا. ومع ذلك، وفي هذه الحال الصعبة التي نحن فيها لا نجد أنفسنا إلا بحاجة ماسة لمساعدتكم فساعدونا!

ولهذا السبب، لا تتركوا البوسنة؛ لأن أي تطور في الأحداث أكان ذلك إيجابياً أم سلبياً سيؤدي إلى التأثير على المنطقة بأكملها، والتي هي في الأصل مثقلة بالأزمات.

إن دولة البوسنة ما هي إلا جسر تواصل لحضارتين وثلاث ثقافات مختلفة وأربعة أديان. وبالنتيجة فإن قضية البوسنة ما هي إلا استجواب مُلِحٌّ للديمقراطية الدولية.

وكنتُ قد دعيت خلال زيارتي هذه للولايات المتحدة الأمريكية لمقابلة الرئيس بيل كلينتون في البيت الأبيض مقابلة غير رسمية. وفي ذلك اللقاء أتيحت لي الفرصة لتعلم المزيد عن شخصية هذا الرجل، والذي ربطته ظروف غريبة بمصير البوسنة.

فمنذ زمن طويل وبالتحديد في شهر آذار (مارس) من عام ١٩٩٢، تسلمت وثيقة رائعة كانت عبارة عن صك إخاء بين ولاية أركنسو الأميريكية واتحاد البوسنة والهرسك. وكان قد كتب في نهاية هذا الصك، الذي تضمن أن يُنشئ مدنيو أركنسو علاقات ثقافية وتعليمية واقتصادية وعلمية قوية مع البوسنة والهرسك، التالي:

"وكشاهد على ذلك، أضع بموجب هذا ختم ولاية أكنسو. تمت المصادقة عليه في العاصمة (ليتل روك) في اليوم الثامن من شباط (فبراير) عام ١٩٩٢. التوقيع: الحاكم بيل كلينتون".

إن هذا الجمع بين أركنسو والبوسنة في بداية التسعينات ما كان إلا حصيلة جهود مجموعة واحدة من البوسنيين قادها الدكتور أديب كوركت الذي عاش وعمل في الولايات المتحدة لفترة طويلة.

وفي تموز (يوليو) عام ١٩٩٢ قام حاكم ولاية أركنسو- بيل كلينتون- بإعطاء المراكز الرئيسية للانتخاب في ليتيل روك الإذن بالتصريح بأن تطلب الولايات المتحدة الأمريكية من مجلس الأمن أن يصادق على قرار يسمح بشنٍّ

غارات جوية على أولئك الذين يعيقون وصول المساعدات الإنسانية إلى أماكنها المنشودة. وكانت هنالك تصريحات مفادها بأنه على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة لتقديم دعمٍ عسكريٍّ لهذه العملية، وفي نهاية التصريح جاء الآتي:

"علينا أن نقول بوضوح: إن الحصار الاقتصادي ضد الصرب سيتم تشديده ليس فقط على الأسلحة، وإنما على الوقود وبضائع أخرى مهمة لبقاء نظام حكم سلوبودان ميلوشفتش. وعلى الأمم المتحدة أن تعطي الإذن للقوات البحرية الأمريكية والأوربية في البحر الأدرياتيكي بأن تُوقفَ وتُفتِّش كل السفن خوفاً من تهريب هذه السفن لبضائع للصرب وحلفائهم في مونتنغرو (الجبل الأسود)".

ولكن ما حصل هو أن الرئيس بيل كلينتون قد أصبح مقيداً بشكل ملحوظ عندما أُنتُخِبَ رئيساً في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٣. وأعتقدُ أن وزير الخارجية وارن كريستوفر- العقل المدبر للإدارة الأمريكية في ذلك الوقت - قد نصحه باتخاذ هذا الموقف. وأخال كريستوفر قد نصحه بعدم زج العواطف والأخلاق في السياسة. وكان السيناتور بيدن قد اشتكى عند رجوع كريستوفر من جولته في أوربة في ربيع عام ١٩٩٣ - التي كانت من أجل تفحص إمكانية تدخل عسكري أمريكي في البوسنة والهرسك -من مواجهة كريستوفر لتنوع ضخم في أوربة من اللامبالاة والجبن. وكنت قد علمت النتيجة مسبقاً في أثناء مراقبتي لجولة كريستوفر في أوربة لأن كريستوفر ذهب متوقعاً وجود هذا الشعور من عدم الاهتمام وهو الأمر الذي يناسبه. ومع ذلك نجح الرئيس بيل كلينتون في إقناع كريستوفر في نهاية آب (أغسطس) عام ١٩٩٥ بالموافقة على ما كان ينوي فعله في اثناء حملته الانتخابية بعد أحداث سريبرينيتسا المأساوية، وبعد قصف سوق سراييفو التجاري مُؤَكِداً [أي بيل كلينتون] على ضرورة شن غارات جوية على جيش كارادجتش في البوسنة.

وبعد لقائي بالرئيس بيل كلينتون أذكر أنه صافحني مبتسماً مودعاً. فعلاً، لقد كان هنالك شيء طفولي في الرئيس الموصوف من قبل السيناتور بيدن بأنه أكثر رجل عقلانية بين كل الذين عاملتهم. لن أنسى رفضه لطلب هولبروك بممارسة ضغط علينا عندما تَعَثَّرت مفاوضات دايتون قائلا: "لا أريد أن أمارس ضغطاً على المسلمين".

وخلال مغادرتي للبيت الأبيض كانت هنالك مجموعة من الصحفيين تنتظرني في الفناء والذين بدورهم سألوني عن الاعتقال المتوقع لكارادجتش، وعن إمكانية سحب القوات الدولية التي تعتبر من قبل الكثيرين على أنها قوات انتداب للبوسنة. وسألوني أيضاً إذا ما وعد الرئيس الأمريكي بالقيام بعمل في إطار اعتقال كارادجتش. وكنت قد أجبت عن السؤالين الأول والثالث بغموض، الأمر الذي لم يسر الصحفيين. أما السؤال الثاني فقد قلت في إجابته: إن هنالك أربعة شروط هي:

١- تطبيق المعاهدة المتعلقة بالسيطرة -في المناطق الفرعية -على التسلح والموقَّع عليها في مدينة فلورنسا في تموز (يوليو) عام ١٩٩٦.

٢- أن تصبح البوسنة شريكاً حقيقياً في عملية السلام.

٣- التنفيذ الكامل للبرنامج الأمريكي لتسليح جيش الاتحاد الفيدرالي.

٤- الدمج الكامل لعناصر الجيش الكرواتي مع جيش الاتحاد الفيدرالي.

وفي الثاني عشر من نيسان (أبريل) عام ١٩٩٧، وبعد كثير من التأجيل زار قداسة البابا يوحنا بولص الثاني سرايفو. وصدقاً، أُكِنّ احتراماً عميقاً لهذا الرجل. وأنا معجب به عندما كان ما يزال أسقفاً في الكنيسة البولندية. وزاد إعجابي بهذا الرجل عندما أعلن حرية شعبه من الديكتاتورية الشيوعية. فعمله المتواصل من أجل السلام والتفاهم بين الشعوب ما هو إلا صفحة مضيئة في تاريخ القرن العشرين.

وقد كنت ما أزال في السجن عندما زار الكاردينال فويتيلا [الاسم الحقيقي للبابا] المغرب في عام ١٩٦٥. وكان قد تَكلّم في تلك الزيارة أمام ٥٠,٠٠٠ مسلم عن جدِّنا المشترك إبراهيم. وبعد ذلك، زار في نيسان (أبريل) من عام ١٩٨٦ جماعة يهودية كاثوليكية. والمراقب للأمور يجد أنها المرة الأولى التي يقوم بها رأس الكنيسة الكاثولوكية بزيارة عتبة يهودية، حيث أُتّهم اليهود على مدى العشرين قرناً الماضية بقتل السيد المسيح.

وقد حظِي البابا بشعبية كبيرة في البوسنة والهرسك، كونه حرص على استغلال أي فرصة ليجذب انتباه العالم للوضع في البوسنة.

وقد قال البابا في أحد خطاباته المشهورة:

"لقد اقتربت نهاية قَرْن [أي القرن العشرين] وُسِم بأكثر الجرائم بشاعة ضد البشرية في تاريخها. فقد ابْتدأ بحرب، بدأت هنا في سراييفو. وبنهاية هذا القرن شهدت سراييفو مرة أخرى أحداثاً مأساوية ذات مستويات مؤلمة من الكراهية وسوء التفاهم. وتقف الآن سراييفو مدينة التضحية كمثالٍ لكثير من المدن التي ما زالت تخاف شبح الحرب..."

ولم تمنعنا الرياح الشمالية من الاستقبال الحار للبابا في المطار. وكنت قد قلتُ في كلمة رحبت بها بالبابا:

"إنه لشرف عظيم أن أُرحب بك اليوم في بلد طالت معاناته. ومما لا ريب فيه أن زيارتك لنا محل ترحيب في كل البوسنة والهرسك، من كل أولئك ذوي الإرادة الطيبة بغض النظر عن ديانتهم أو بقاعهم.

إن تكريس نفسك للسلام والحرية في كل بقاع الدنيا يوقفنا وقفة احترام وتقدير لشخصك الكريم. ولقد كانت إدانتك المتكررة للعنف في البوسنة بلسماً لجراحنا وتشجيعاً لنا، وخلق أملاً في أنفسنا.

قداسة البابا، أنت الآن في مدينة يدين أهلها بأربعة معتقدات: الإسلام، الكاثولوكية، الأرثوذكسية، واليهودية.

وبنظرة متفحصة لهذه المدينة يستنتج المرء أن مساجد المسلمين وكنائس الأرثوذكس والكاثوليك وكنس اليهود قد عاشت بمقربة بعضها من بعض بسلام على مدى قرون.

إن التواجد المتعدد ليس محض الصدفة، ولكنه نبع من حكمة أجدادنا الذين عرفوا أنه لا يوجد عنف في أي دين، وآمنوا أيضاً بأنه يستحق أي شكل من المعتقدات، التي تدعو إلى إله واحد، الاحترام والتقدير.

ولكن عاصمة التسامح سراييفو باتت ضحية على مدى قرون لعنف غير مرئي، وكانت موضع تألم لنا. ويمكن لك أن ترى ما حلّ بسراييفو من خلال ما تراه عند قدومك من المطار إلى المدينة، وأيضاً من خلال ما تراه في الصور".

وقد أدّى البابا صلاة جامعة ملأ فيها المصلون ملعب كوشيفو. وخلال الصلاة التي استمرت ساعتين شهدتا تغييرين فصليين؛ فقد شهدنا عواصف شهر كانون الثاني (يناير) الثلجية وشمس نيسان (أبريل) الربيعية.

وقد قمت في نهاية تموز (يوليو) من العام نفسه بإجراء مقابلة مع جريدة نين من بلغراد. وكنت في تلك المقابلة قد أجبت عن سؤالين مشوقين طرحتهما الصحفية غوردانا إيغريتش"

نين: هل تثق بإمكانية بقاء اتحاد البوسنة والهرسك متحداً متآلفاً؟ ولماذا لم تقبل بدخول البوسنة والهرسك في دولة يوغسلافية الجديدة؟

عزت بيغوفتش: أنا لا أؤمن فقط ببقاء اتحاد البوسنة والهرسك متماسكاً ومتحداً، بل إنني أعمل من أجل ذلك، ولدي الدعم الكامل من شعبي. وفيما يخص الشق الثاني من السؤال فالإجابة بسيطة: لأننا لا يمكننا القبول بأن نكون مدنيين من الدرجة الثانية، وهذا ما كان سيحصل لنا على الأقل في حال انضمامنا ليوغسلافية الجديدة. فقد عشنا في هذه البلاد مواطنين ينظر إلينا على أننا درجة ثانية وعلى أننا هامشيون لأكثر من ١٠٠ عام، الأمر الذي استدعى إلى أن نخاطر في الاستقلال، لأننا أناس أبِيُّون لا نقبل الظلم.

نين: رَاجَتْ في شتاء وربيع العام الماضي إشاعة تتحدث عن هجوم متوقع لقوات الجيش البوسني على جمهورية الصرب، وسربت مصادر مقرّبة من حزبكم خرائط جديدة على أساس عرقي. والسؤال الآن: هل باعتقادك سنجد على المدى البعيد بوسنة بسكان بوسنيين فقط وصربيا وكرواتية بسكان صرب وكروات [على التوالي] فقط؟

عزت بيغوفتش: يوجد في هذا الاتحاد كروات بدءاً من مدينة نيوم ووصولاً إلى مدينة برتشكو. ويوجد أيضاً بوسنيون من مدينة فيشغراد إلى مدينة بيهاش. وهذا أمر ينطبق أيضاً على الصرب. لذلك كيف بإمكاننا أن نؤسس دولة عرقية في مثل هذه الأماكن؟! الجواب واضح لي ولكل أصحاب النوايا الطيبة. ولكن يوجد هنالك من يتفاعلون مع هذا السؤال بعنصرية وفاشية مثل ستاشا والتشتنيك الذين وجدوا الجواب بممارسة خطط ديمغرافية قذرة ويجبرون السكان على "الحظائر" العرقية كما فعلوا في الحرب العالمية الثانية وفي الفترة من عام (٩٢-٩٥). وأيضاً يمكن فهم سؤالك بالطريقة التالية: "هل تتفق مع التطهير العرقي؟" وإجابتي في هذه الحالة ستكون "لا". وأتبع ما تقدم بالقول: إن دولة عرقية في البوسنة أمر مستحيل من وجهة نظر قانونية وأخلاقية. والحالة الوحيدة التي يمكن فيها قيام مثل هذه الدولة هي عند تحطيم كل الأعراف القانونية والأخلاقية. وهذا ما حدث للأسف. ولكنني أعتقد أنه آن الأوان ليفهم الجميع أنه لا يمكن قيام دولة على أساس العنف، وإذا نشأت فإنها لن تدوم.

لقد واصلت السلطة في باله بكل الطرق الممكنة اعتراضها لسبيل البوسنة والهرسك. وقد قامت هذه السلطة بتضليل الناس بقولها لهم بأن جمهورية الصرب ما هي إلا عبارة عن دولة منفصلة، وليست كياناً موجوداً في داخل اتحاد البوسنة والهرسك. وقد قامت هذه السلطة أيضاً بتخريب آلية عمل دستور البلاد. وقامت بإبطال ما هو مشترك بين الكيانات الموجودة في الاتحاد. لا بل إنها قامت جاهدة بتجنّب ذكر اسم البوسنة والهرسك تعبيراً عن عدم اعترافهم بها. وقد نتج ذلك كله بتعميق مقت شعبي لجمهورية الصرب.

وكنتُ قد قرَّرت أن أحدد هذه المشكلة في مؤتمر حول البوسنة والهرسك تمَّ عقده في مدينة بون الألمانية في التاسع من أيلول (سبتمبر) لعام ١٩٩٧. وجاء في خطابي:

لقد صُعِق قسمٌ من شعبي عندما اعترفنا بجمهورية الصرب، الأمر الذي كنا له كارهين. ومع ذلك، لدينا سببان لما قمنا به:

١- أوقفنا حرب جائرة هددتنا بالموت والدمار.

٢- ضَمِنّا بتوقيع اعترافنا بالصرب دوام وبقاء البوسنة بلداً متحداً، ومعترفاً به دولياً.

وفيما يتعلق بالسلوك الصربي الحالي وتردد المجتمع الدولي في اتخاذ قرار حاسم فإنني أقول: إذا لم تعترف دولة الصرب باتحاد البوسنة والهرسك كما هو محدد في البند الأول من الدستور البوسني، فإننا لن نعترف بجمهورية الصرب، وسنطلب من المجتمع الدولي الذي ضمن تنفيذ معاهدة السلام هذه بألا يعترف بهم.

إن سبب فشلنا اليوم هو تجاهل هذه الحقيقة الأساسية في معاهدة دايتون. ولذلك ستؤدي كل حالات الإخفاق في تطبيق معاهدة دايتون بالنهاية إلى الانهيار التام لها. وبذلك ستتم خسارة كل الجهود التي تمَّ بذلها.

وكنت قد أنهيت كلامي بالمطالبة بتطبيق المعاهدة في جانبها الدستوري، أي أن يتم تعديل الدساتير بما يتناسب والمعاهدة. وشددت على أن يتم إيجاد دستورية للأعراق الثلاثة في الوجودين الصربي والبوسني. وذلك بأن يكون هنالك وجود صربي في البوسنة. وفي المقابل يكون وجود بوسني وكرواتي في جمهورية الصرب. وبعيد هذا المؤتمر مباشرة قمتُ بتقديم طلب رسمي يتعلق بما تقدم إلى المحكمة الدستورية في البوسنة والهرسك. وقد وافقت المحكمة على هذا الطلب في الأول من تموز (يوليو) لعام ٢٠٠٠، بتصويت خمسة أعضاء مع التعديل مقابل أربعة أعضاء ضده بعد إجراءات طويلة، مضت سنتان ونصف كنَّ مثيرات بسبب ما أظهره الصرب من معارضة في حين، ومن معارضة كرواتية جزئية في حين آخر. وبعد هذا وذاك تمَّ إصدار هذا القانون رسمياً. وبعد ذلك، كان هنالك عمل ضخم قد يكون الأضخم منذ دايتون ولا بدَّ من

تطبيقه ألا وهو تطبيق قرار المحكمة الدستورية. وكانت كل المؤشرات تدل على أن العمل هذا سيكون شاقاً ومجهداً يمكن توضيح سلوك حكومة باله من خلال الجدال البيزنطي والمتعلق بالعملة الجديدة للبوسنة والهرسك. فببساطة نحن نريد عُمْلة خاصة بنا. وقد طالب الحزب الديموقراطي الصربي بعملتين منفصلتين واحدة للصرب وأخرى لنا. وبالنسبة إليهم، كانت جمهورية الصرب عبارة عن دولة، ولذلك لها الحق بأن يكون كل شيء خاص بها مختلف. وكان الجدال حول العملة البوسنية قد بدأ في عام ١٩٩٧ واستمر لمدة عام تقريباً.

ففي شهر نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٧ قامت رئاسة الجمهورية في "متحف الأرض" في سراييفو بمقابلة كل من: كورنبلم وغيليارد ودايفيد ليبتون وهو خبير من البنك الدولي من أجل مناقشة هذه القضية، والتي كانت ذات أهمية كبيرة لمستقبل البوسنة والهرسك. وقد كان كرايشنيك، مومتشيلو مستعداً لهذه المناقشة؛ فقد قام مباشرة باقتراح أنه يجب ألا يكون للبوسنة والهرسك عملتها الخاصة بها. وببساطة قال بأنه يمكن حل هذه المشكلة بأن يكون المارك عملة البوسنة والهرسك، وفي المقابل أن يكون الدينار عملة لجمهورية الصرب. وبعد ما قدم ما عنده قال: على البوسنة والهرسك أن ترينا ما عندها من الاقتراحات! فعلاً لقد كان من الواضح أن الكفاح من أجل عملة خاصة بالبوسنة والهرسك سيكون صعباً وشاقاً.

وفي بداية تموز (يوليو) من عام ١٩٩٧، تمَّ عقد اجتماع ضمَّ: رئاسة الجمهورية وغيلبارد وهولبروك في مدينة لوكافيتشا. وكنت قد طلبت في هذا الاجتماع أن تحمل العملة البوسنية رسماً حيادياً. وفي الوقت نفسه قدَّمَ كرايشنيك، مومتشيلو اقتراحاً شدد فيه على الشعارات والرسومات العرقية. وقام كارادجتش بإحضار رسومٍ تخطيطية اشتملت على صلبان، كنائس، ماركو كراليفتش، ونيغوش، وكنيسة القديس سافا في بلغراد... إلخ. وفي

ذلك الوقت كان الممثل الأعلى كارل بيلدت مستعداً للقيام بتسوية لحل هذه المشكلة. وفي المقابل، لم يظهر مدير البنك الدولي- الفرنسي روبرت سيرج- أي اهتمام من أجل الوصول إلى حل الأمر الذي اعتبرته وقوفاً إلى جانب كارادجتش.

وقد استمر هذا الاجتماع لساعات لم يُظهر فيها كرايشنيك، مومتشيلو أي تنازلات. وفي بعض الأحيان كان يقوم بإخراج عملاتٍ نقدية ومعدنية من جيبه تحمل شعارات إنجليزية واسكتلندية، مدعياً أنه على الرغم من أن بريطانيا العظمى دولة واحدة فإن لها عملاتٍ مختلفة تمثل الكيانات العرقية الموجودة فيها. وفي أحيان أخرى قدَّم أمثلة من دول مثل الأرجنتين وبنين.

وكان كرايشنيك، مومتشيلو قد أرسل رسالة إلى الممثل الأعلى ويستند روب في العاشر من تموز (يوليو) جاء فيها:

"إن طلب السيد علي عزت بيغوفتش من أجل تصميم لعملتنا يشمل رموزاً بوسنية وكرواتية على سبيل الحصر هو أمر غير مقبول.

وكما تعلمون فإنه تم الاتفاق على تصاميم عملات تحتوي على رموز متعلقة بالشعب الصربي. وبما أنه يوجد شعب صربي خارج الصرب فمن المنطق أن تحوي تصاميم العملات رموزاً لأماكن توجد في خارج حدود البوسنة والهرسك".

وبناء على هذه الرسالة، قدّم كرايشنيك، مومتشيلو اقتراحات ورقة نقدية يمكن صرفها ب ١٠٠مارك. وتحوي هذه الورقة صوراً لبيتار كوتشتش ودير غراتشانيتسا. أما بالنسبة للقائمة الأخرى من الاقتراحات فقد احتوت ورقاً نقدياً اشتمل على الفئات (٥٠،٢٠،١٠، ٥، ١، ٠,٥) والتي حملت العناصر السالفة الذكر نفسها، إضافة إلى شخصيات مثل: برانكو تشوبتش، إيفواندرتش، ميشا سليموفتش، نيكولا تيسلا، يوفان دوشيتش. وأيضاً احتوت صور بعض الأماكن الدينية مثل: كنيسة غراتشانيتسا وديراوستروغ، وديرزيتوميسلتش ودير موستاليتسا وكنيسة القديس سافا ودير اورزن ودير كركا.

و قد حرص كرايشنيك على أن تكـون ألـوان وأحجـام وأشـكال الحـروف والرسومات للعملات مختلفة عـن تلـك التـي قدمهـا اتحـاد البوسـنة والهرسـك. فمثلاً، إذا كان اللون المستخدم مـن قبلنـا أحمـر فإنـه يسـتخدم لونـاً أزرقَ، وإذا كانت هنالك زهرة في عملتنا فإنه يستخدم بناء. لم يهمه مـاذا كـان يقـدم مـن أشكال، ولكن الذي استحوذ على اهتمامه، هو أن يقدم شيئاً يختلف عـن ذلـك الذي نقدمه.

وبعد ذلك، تمَّ عقد جلسة لرئاسة اتحـاد البوسـنة والهرسـك في الثـالث مـن كانون الثاني (يناير) لعام ١٩٩٨، وقد حضر هذه الجلسـة كـل مـن: جيلبـارد، فيسـتندورب، كلـين، والحاكمـة الجديـدة للبنـك المركـزي- نيكـول. وكـان كرايشنيك قد أعدَّ نفسه لإضافة أربعة حروف "S" على الورق النقـدي مفسـراً ذلك بالمساواة بين الكيانات الأربعة، ويحق للصرب باختيار العملة الخاصة بهـم، وكذلك لا يحق للمجتمع الدولي أن يحدد العملة التي سـيحملونها في جيوبهـم. وقد تمَّ رفض هذا الطلب بالطبع. وعندما شعر كرايشنيك بأن نضاله قد أصبح بلا معنى، اقترح أن تتخلى البوسنة عن عملتهـا وأن يحـل محلهـا المـارك الألمـاني معتبراً أن هذا سيكون مقبولاً من كل الأطراف. وكان كرايشـنيك قـد عـرض استخدام الدولار كحل مؤقت الأمر الذي لم نقبله أبداً، وذلك لأن هذا يُـأَمْرِك كلاً مـن الصـرب والكـروات والبوسـنيين لستة أشـهر علـى الأقـل، وهـو أمـر لا نرضاه. وقد علل كرايشنيك ذلك بأننا سوف نوفر ٣٠ مليون مارك ألمـاني، وهي تكلفة طباعة عملة جديدة. أما فيستندورب، فقد كان في موقف لا يحسـد عليه؛ وذلك لأن أي اقتراح قد يقدمه يمكن رفضه. أما غيلبارد فإنه قد أعلـن في مؤتمر صحفي أنه "لسوء الحظ لم تصل الأطـراف الثلاثـة إلى اتفـاق!"، وبذلـك تجنب تحميل كرايشنيك المسؤولية وراء هذا الفشل.

أما أنا فقد قررتُ أن أتخذ دور المحتال. إذ قمت قبل الاجتماع الذي تمَّ تعيينه ليكون في التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) لعام ١٩٩٨، بإيداع كل التصاميم والرسومات في بنك البوسنة والهرسك. وبعد ذلك، قلت: إنني قد قبلت التصميم الصربي على شرط ألا يحتوي رموزاً دينية أو عرقية وهو الأمر الذي أدهش الجميع.

ومن ثم قمت بوضع قائمة لأسماء ورموز موجودة الآن على هذه العملة. أما كرايشنيك فإنه لم يصدق ذلك، وتبدّلت تعابير وجهه كأنه شخص رجله على حافة الهاوية.

لقد كان الموقف مأساوياً هزلياً. فقد قال: إنه إذا كان الاتحاد البوسني قد قبل بالتصاميم فنحن الآن لا نقبل بها. وبذلك نشأ خلاف بين غيلبارد وكرايشنيك. إذ قام غيلبارد بدعوة كرايشنيك إلى غرفته وبعد برهة خرج كل منهما وقد ظهر عليهما الانزعاج، وبعد يومين كشف كل من فيستندورب ونيكول عن تصميم الأوراق النقدية الجديدة. وقد اشتملت هذه العملة على صور شخصيات تمثل أعراقاً مختلفة، ولكنها كلها مأخوذة من الثقافة البوسنية. وكان مُسْتَشاري الإعلامي كمال فوفتش أول من نصحني باستخدام فكرة قبول الاقتراحات الصربية بهذا الشكل قائلاً: "بما أن حجم ولون عملتنا كما نريد هل من المهم حقاً أن يكون مرسوم عليها شجر ونبات كرمة بدلاً من أزهار؟ المهم أن يكون مميزاً".

وعلى الرغم أن كل ما حصل، يجدر بي القول هنا أنني لم أحمل أي ضغينة لكرايشنيك، ولم يكن كرايشنيك بصراحة أسوأ الناس الذين قابلتهم فأسوأ الناس هم الخونة الذين يشغلون آخر مراتب جهنم كما يرى دانتي. وكما تعلمون فإن كرايشنيك ليس خائناً، لأنه حاول خدمة الشعب الصربي في النهج الذي تصوَّره الشعب الصربي ولمصالح هذا الشعب.

وبالنتيجة، انتصرت العملة البوسنية بفضل دعم الودائع الضخمة وفاقت في انتشارها الكورونا الكرواتية والدينار الصربي اللذين كانا فيما مضى ذوي شيوع ضخم في أجزاء متعددة من البوسنة والهرسك.

وقد تمَّ تحديد مواعيد ثلاثة مؤتمرات دولية في خضمّ الجدال حول قضية العملة الذي استمر لمدة خمسة أيام، فقد دعيت لحضور جلسة المؤتمر الإسلامي للتربية والثقافة والعلوم والتي تمَّ اعتزام تنظيمها بين السابع والثامن من أيلول (سبتمبر) لعام ١٩٩٧.

وأيضاً دُعيت لحضور مؤتمر هام جداً لتطبيق خطط السلام في البوسنة والهرسك اعْتزم تنظيمه بين التاسع والعاشر من أيلول (سبتمبر) في مدينة بون الألمانية. وأخيراً تمّتْ دعوتي إلى قمة المؤتمر الإسلامي التي اعتزم عقدها بين العاشر والحادي عشر من أيلول (سبتمبر) في طهران.

فبدأت تلبيتي لهذه الدعوات بإقلاعي إلى الرياض بطائرة سعودية خاصة في السادس من أيلول (سبتمبر). وقد أثلجت السعودية صدري بأماكنها المقدسة وبالازدهار الذي بدا واضحاً في كل مكان. ومن ذلك الازدهار أن جامعاتها حوت ١٥٠,٠٠٠ طالب وطالبة وكان مخططاً أن تتم السعودة الكاملة لمدرسي الجامعات بحلول عام ٢٠٠٠. ولقد كان هذا تطوراً كبيراً، وذلك لأنه قبل ٥٠ عاماً فقط أُحيطت الرياض بالأسيجة والشوارع الموحلة واحتوت أيضاً على أعداد كبيرة من الأميين.

وبعد هذا وذاك تسلمت شهادة الدكتوراه الفخرية في العلوم الشرعية من جامعة الرياض في صباح السابع من أيلول (سبتمبر). وفي ظهر اليوم قمت بزيارة الملك فهد في مكان إقامته الذي ذكرني بإحدى القصص الخيالية. وكان ذلك اللقاء الخامس بيننا. وكان الملك فهد الذي استقبلنا في غرفته المهيبة في وعكة صحيّة اضطرت به الجلوس على كرسي. وأذكر أنه كان يرتدي عباءة

سوداء رقيقة. وأذكر أيضاً قال لي بصعوبة بالغة "كيف صحّتك الآن وقد كان لديك مشاكل في القلب؟" فأجبته: "إن قلبي يتعافى في كل مرة آتي بها إلى المملكة العربية السعودية". ومن ثم أضفت إنني في الملكة العربية السعودية بناء على دعوة تلقيتها من جامعة الرياض، وإنني سأستمر في طريقي إلى طهران لحضور قمة المؤتمر الإسلامي. وبعد ذلك قلت له "لقد: عرفت اليوم أن في السعودية ١٥٠,٠٠٠طالب وطالبة جامعي وعلمت أيضاً أنكم ستعملون على سعودة أساتذة الجامعات" فرد عليَّ بالايجاب مفتخراً بما وصل إليه المستوى التعليمي في السعودية. وقد كان هذا النجاح في طبيعة الأمر نجاحاً له، لأنه قد بدأ هذا العمل منذ أن كان وزيراً للمعارف قبل ٤٠ عاماً. وعند افتراقنا صافحني الملك فهد مبتسماً ومتمنياً لي نجاحاً في المؤتمرين القادمين. وأنهى حديثه قائلاً: "سنلعب كرة القدم في المرة القادمة!" ساخراً من أوضاع كلينا الصحية البائسة.

أما ولي العهد الأمير عبد الله ذلك الرجل المهيب الطويل فقد انتظرنا في البهو ورحّب بنا بحرارة عند خروجنا. وأذكر أنه تكلم معي باختصار وبسرعة. وعندما قلت له: إنني سأحضر المؤتمر الإسلامي في طهران سألني إذا ما كنت سألقي كلمة في هذا المؤتمر. فقلت له: "نعم، سألقي كلمة، وسأتحدث عن مشاكل الأمة الإسلامية المتأخرة عن ركب الحضارة الحديثة. البارحة فقط تلقيت تقريراً من المنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم قيل فيه: إن نسبة الأمية في بعض الدول الإسلامية قد وصلت إلى ٦٠٪،" فأجابني "نعم، هذه المشكلة الأولى، أما المشكلة الثانية فتكمن في الخلاف والنزاع فيما بين الدول الإسلامية. هل تدرك كم من الحمقى بيننا؟ لذلك سأعمل على تحسين العلاقات مع إيران فلا توجد جدوى من الشجار".

وكنت قد أعددت خطاباً لألقيه في قمة المؤتمر الإسلامي قبل زيارتي

للسعودية. ولكن بعيد زيارتي للسعودية وشعوري بمسؤولية تجاه هذه الأمة قمت بتمزيق خطابي الأول وبدأت أكتب خطاباً آخر في الليلة التي سبقت المؤتمر. وفي الساعة الخامسة صباحاً سلمت هذا الخطاب لهايرتس حتى يترجمه، ومن ثم استلقيت على الفراش نائماً لبعض الساعات. وأريد أن أشير إلى أن خطابي كان ثورياً بعض الشيء، وكان أيضاً جاذباً لكثير من ردود الأفعال.

وكان مستضيفو قمة المؤتمر الإسلامي -الإيرانيون- قد أقاموا مبنى خاصاً في شمال طهران لهذا المؤتمر. وكانت قاعة المؤتمرات مزودة بكل التقنيات اللازمة. ولكن الذي حدث أنه سقطت كميات ضخمة من الثلوج في يوم المؤتمر ذاته أدت إلى إتلاف تجهيزات السقف الفنية، الأمر الذي جعل بعضاً من نخبة الأمة الإسلامية يجدون أنفسهم في الظلام. وبالنتيجة تمَّ تأجيل كلمتي لمدة ساعتين. وبذلك ألقيت كلمتي في ساعات منتصف الليل، عندما كانت كل الشبكات التلفزيونية الضخمة في العالم الإسلامي تقوم بالبث المباشر لهذا المؤتمر.

كلمتي في قمة المؤتمر الإسلامي في طهران
الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٧

"إنه لشرف عظيم لي أن أحظى بفرصة إعطاء كلمة في هذا الجمع الكبير من رجالات الدول الإسلامية.

لقد رجعتُ لتوي من بون حيث عُقِد مؤتمر خُصص للحديث عن البوسنة. ولسوء الحظ تزامنت هذه القمة مع مؤتمر بون الذي أخّر وقت إعطاء كلمتي لتكون في مثل هذا الوقت. فشكراً جزيلاً لكم على هذه الفرصة الاستثنائية.

سأُركّز حديثي الليلة على موضوع واحد وهو الشرق والغرب ووقوع البوسنة بينهما، فقد توصلت إلى فكرة هذا الموضوع خلال ترحالي الحالي والمستمر؛ ففي بداية هذا الأسبوع توجهت من البوسنة إلى المملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر التربية.

ومن ثم توجهت إلى أوربة لحضور مؤتمر يتعلق بالبوسنة، وأنهيت هذا التنقل بوجودي هنا بينكم في طهران للمشاركة في قمة المؤتمر الإسلامي. وبهذا كان مساري في هذا الأسبوع شرقاً ثم غرباً ثم شرقاً مرة أخرى.

وفي هذا الإطار، أعتقد أنني أعرف هذين الجزأين من العالم [أي الشرق والغرب] معرفة جيدة. وفي هذه الرحلة نشأت لدي حقائق جديدة عن الشرق والغرب سرني بعضها وأزعجني بعضها الآخر. فمثلاً، اكتشفت أن عدد الطلاب والطالبات في السعودية هو ٥ مليون، الأمر الذي اعتبرته مشجعاً جداً. ولكنني في الوقت نفسه اكتشفت أنه في بلدان إسلامية أخرى تصل الأمية إلى ٦٨,٥٪. أما الأمر الآخر الذي سرَّني معرفته وهو أن هنالك ٢٠ مليون إيراني يذهبون إلى المدارس. أما الأمر السيئ الآخر الذي توصّلت إليه هو أن نسبة الأمية بين النساء عالية جداً في العالم الإسلامي بشكل لا يمكن تصوره. ففي الوقت الذي تشكل فيه النساء نصف المجتمع، فإن أمية النساء في العالم الإسلامي ستعيق جلب من يقود الأمة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين ويصحح نهجها.

سأكون الآن صريحاً جداً فاعذروني؛ فالأكاذيب الحسنة الطالع لا تروي ظمآن. ولكن الشفاء يكمن بالحقائق المرَّة والثقيلة على القلب. فالغرب ليس بفاسد وليس بمنحل. ولكنه قوي ومنظم ومثقف؛ فمدارسهم أفضل من مدارسنا، ومدنهم أنظف من مدننا. وأيضاً نجد الغرب ذا معدلات حقوق إنسان أعلى من تلك التي هي عندنا، ونجده أيضاً ذا رعاية اجتماعية للفقراء أكثر تنظيماً. وهذا ليس إلا من خبرتي معهم، الأمر الذي يجعلني على دراية بالإفرازات السلبية للتقدم الذي يعيشون.

إن الإسلام لهو الدين الأمثل، ولكن المسلمين بواقع حالهم اليوم ليسوا بالأفضل. وهذان شيئان مختلفان علينا ألا نخلط بينهما، فبدل كره الغرب علينا أن ننافسهم. أولم يأمرنا القرآن بهذا عندما قال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٩/١٠٥]. لذلك يمكن لنا أن نحقق القوة التي نريد بالاعتماد على الدين والعلوم، وكما تعلمون أن طريق الوصول إلى القوة والعزة شاق وطويل ومتعب كونه طريقاً للوصول إلى القمة الذي لا مفر منه.

لذلك، فلنجد رؤوس أموال في كل الدول الإسلامية يتم استثمارها في التعليم، ولنتخلص من جهل أي طفل غير متعلم، ولنساعد إخواننا الفقراء. دعونا نقوم بهذا اليوم قبل غد، أو دعونا أن ندعو إلى مؤتمر خاص يناقش هذه الأمور.

إن هنالك من يعتقد بتحقيق الصالح عن طريق العنف الأمر الذي هو وَهمٌ ينتشر بسرعة فائقة بين الناس. والإرهاب ما هو إلا نتيجة الضعف، وهو عمل غير أخلاقي وبلا ثمار؛ فهو غير أخلاقي لأن هنالك ضحايا أبرياء كُثر لمثل هذه الأعمال. وهو بلا ثِمار لأنه لم ولن يحل أي مشكلة، وقد رفضته كل الحركات السياسية على مر التاريخ. وأعتقد أن القرآن قد حرّم الإرهاب في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢/٥]. ولسوء الحظ فإن هنالك الكثيرين من يتغافلون عن هذا.

واسمحوا لي الآن بتوجيه كلامي ليكون عن البوسنة؛ فقد بدأت كلامي في الحديث عن الشرق والغرب، ذلك لأن البوسنة تقع في وسط هذين الإطارين الضخمين. وكنتيجة لهذا الموقع دفع شعب البوسنة عُشر سكانه ثمناً لنيل حقه في البقاء والحرية. لذلك، عليكم ألا تدعو ظلماً جديداً يحدث في البوسنة، وعليكم أن تخبروا الجميع بأن مستقبل البوسنة يهمكم مجدداً؛ ذلك لأن البوسنة قد بُلّلت بدماء الأبرياء الذين هم إخوانكم في الدين".

وبُعيد انتهاء كلمتي، خيّم صمت على قاعة الاجتماع وهو مؤشر على أن كلمتي قد تركت انطباعاً معيناً عند المستمعين. وعند ذلك شعرت براحة روحية. وبعد ذلك لمحت عندما كنت أشق طريقي بعيداً عن قاعة الاجتماع شاباً كان يبذل جهداً كبيراً للوصول إليّ حتى يسلمني قصاصة ورق كُتب عليها بالإنجليزية جملتين: الأولى كانت سؤال والثانية كانت توكيد. أما السؤال فكان "هل نسيت أن الغرب الذي تمدح قد ترك شعبك يُباد على مرأى عينيه دون أن يحرك ساكناً؟" أما التوكيد فكان "تذكر دائماً أن المسلمين هم أصدقاؤك الحقيقيون".

قام الرئيس الفرنسي جاك شيراك والكاتب والفيلسوف بيرنارد هنري ليفي بزيارة البوسنة في نيسان (أبريل) من عام ١٩٩٨. وكنت في ست السنوات السابقة لذلك الوقت قد عقدت بعض الاجتماعات مع الرئيس جاك شيراك كان أولها في عام ١٩٩٢، عندما كان رئيساً لبلدية باريس، وكان وقتها يعتزم الترشح للرئاسة. وكان جاك شيراك في ذلك الاجتماع قد أدهشني بقلة ما يعرف عن البوسنة ومشاكلها. ولكن الوضع اختلف تماماً عندما قابلته مرة أخرى في عام ١٩٩٥؛ إذ كان يعرف أشياء كثيرة مثل طريق سراييفو- كسيلياك وعن جبل إيغمان، وعن المدافع الفرنسية ذات عيار ١٥٥ التي كانت موجودة على ذلك الجبل.

وقد كان جاك شيراك النقيض التام لسلفه فرانسوا ميتران؛ إذ إنهما كانا ذا شخصيتين وأيديولجيتين مختلفتين. فميتران كان انطوائياً وعميق التفكير ومتحفّظاً، أما جاك شيراك فقد كان دائم الحراك. وينظر مباشرة في عينيك عندما يتحدث معك في محاولة لإقناعك فيما يتحدث من الأمور. ولذلك أخبرته في غداء عمل بأنه ليس دبلوماسياً فأطبق صامتاً في شك غريب لبعض الوقت. فسارعتُ إلى تفسير تعليقي بالقول: إن ما سبق من كلامي كان ثناءً وحسب! فابتسم ابتسامة عريضة معبراً عن تقديره.

يحمل كل من جاك شيراك وميتران تصورين مختلفين لقضية البوسنة والهرسك كاختلاف شخصيتهما، بالأحرى أعتقد أن تصوريهما كانا عبارة عن رؤى مختلفة للصرب وجمهوريتهم؛ فَتَصَوُّر ميتران كان نابعاً من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية عندما وقف الصرب والفرنسيون جنباً إلى جنب في علاقة سُميت "الأخوة في السلاح". ولذلك من الصعب تغيير مثل هذا الولع ذي الجذور التاريخية. أما جاك شيراك فقد حمل المشاعر نفسها تجاه الصرب إلى أن اطّلع على صورة تظهر جنوداً فرنسيين تمَّ ربطهم على أعمدة

من قبل الصرب في مدينة باله في نيسان عام ١٩٩٥، الأمر الذي أدى إلى تغيير رؤى جاك شيراك للصرب، فقد كان هذا العمل إذلالاً لفرنسة وجيشها، الأمر الذي لم يكن بمقدور جاك شيراك مغفرته.

وزار ميتران سراييفو في أيامها السوداء عندما كانت تحت الحصار في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٩٩٢. وقد تمّ استقبال ميتران في ذلك الوقت كمخلّص لسراييفو. وقد قام ميتران في تلك الزيارة بالذهاب إلى موقع مذبحة سوق سراييفو التجاري، ومستشفى سراييفو في الوقت الذي توقف فيه القصف توقفاً مفاجئاً. وبذلك طفت شكوك ما زالت تساور الجميع في البوسنة تتمحور حول هدف زيارة ميتران؛ فهل كان حافز زيارته مساعدة سراييفو أم منع التدخل العسكري لقوات المجتمع الدولي ضد المعتدي الصربي؟ وهو -أي التفسير الثاني- ما يرجحه الكثير.

وكان قد صدر في هذا الخصوص كتابٌ ألفه ماثيو برونستاين في باريس يتحدث عن زيارة ميتران الغامضة لسراييفو. وتضمّن هذا الكتاب للمرة الأولى أن ميتران قد التقى بتنظيم قائد قوات الحماية الدولية الجنرال الكندي ماكنزي وبكل من كارادجتش وملادتش في مطار سراييفو، وفي هذا الخصوص كتب برونشتاين:

على الرغم من أن ميتران التقى كارادجتش وملادتش لمدة دقيقة، فإنه كان قد أخبرنا أنه لم يذهب بزيارة رسمية لبلد حديث الاستقلال، وبذلك فهو يتحمل مسؤولية كبيرة للأحداث التي تلت عام ١٩٩٢ مدة ثلاثة أعوام.... وعلاوة على ذلك أخبر علي عزت بيغوفتش ميتران عن مكان وجود معسكرات حشد للقوات الصربية، وأخبره عن أماكنها بدقة، ولكن الرئيس الفرنسي لم يتفاعل نهائياً مع ما سمع وبقي صامتاً بدل أن يطلب تحقيق دولي في أماكن مثل: كيراتيرم وأومارسكا كما كشفت الصحافة الإنجليزية فيما بعد.

اقترح الرئيس الفرنسي جاك شيراك بعد مذبحة سريبرينيتسا تنفيذ عملية عسكرية من أجل إعادة تأسيس ما تمَّ تدميره من المنطقة المحمية من قبل الأمم

المتحدة. ولكن الأمريكيين والبريطانيين اعتبروا أن هذه خطة غير واقعية. وبذلك أصبح التردد الفرنسي واضحاً للعيان. في هذا الإطار كان أبرز محامي محكمة لاهاي قد انتقد في بداية عام ١٩٩٢ الحكومة الفرنسية بشدة بسبب تعاونها المنتقص مع المحكمة. وبعد شهر من الانتقاد -سالف الذكر- استقبل جاك شيراك بيليانا يلافشتش رئيسة جمهورية الصرب استقبالاً ملكياً، الأمر الذي صعق جمهوريتنا.

وعلى أثر ذلك، بعثتُ رسالة احتجاج للرئيس الفرنسي. وجاء الرد بأن الفرنسيين أرادوا فقط أن يعبروا عن دعمهم لشخصية سياسية جديدة ومعتدلة بين الصرب والبوسنيين. وأخبرونا أيضاً في رَدِّهم أنهم قد أرسلوا رسالة تخبر نظام الحكم في باله بأنهم لا يحظون بشرعية أو دعم دولي. ومن جانبنا، اعتبرتُ في مقابلة مع صحيفة لوموند الباريسية في الرابع من نيسان (أبريل) عام ١٩٩٨، أن هذه ليست الطريقة المثلى لإرسال هذه الرسالة. وجاء من جانبي في المقابلة التالي:

قد تكون النية الفرنسية نية نبيلة عندما يتم الترحيب بالسيدة بلافشتش في قصر الإيليزيه، ولكن النتائج السياسية لمثل هذا الاستقبال فإنها متعددة وحاوية لما هو غير نبيل؛ فقد كانت النية الفرنسية من هذا الاستقبال كما تمَّ تفسيره لنا من قبل الفرنسيين إظهار تأييدهم للصرب البوسنيين في جمهورية الصرب، وبعث رسالة لنظام الحكم في باله تبين أن حكومتهم في باله لا تحظى بشرعية أو تأييد دولي. ومع ذلك، فقد كان تصورنا للأمور تصوراً مختلفاً ومعتمداً على معاهدات دولية تخص دولتنا، اتفق فيها كل من الصرب والبوسنة على أن جمهورية الصرب ما هي إلا كيان في اتحاد البوسنة والهرسك؛ وبذلك فالبوسنة والهرسك هي الدولة الوحيدة حسب معاهدة دايتون. أما جمهورية الصرب فما هي إلا كيان في هذه الدولة. وهذا يبرهن بأن النوايا السياسية لا تعني الكثير، ولكن الآثار المترتبة على مثل هذه النوايا هي الأمر المهم الذي يجب أخذه بالحسبان- وبالنتيجة فإن جزءاً من هذه النتائج لهذه الزيارة قد تمّ إغفاله في رسالة السيد جاك شيراك التي بعثها رداً على رسالة احتجاجنا.

أما المفكر الفرنسي المشهور برنار هنري ليفي فإنه لم يتردد أبداً كما فعل جاك شيراك، إذ قام بزيارة البوسنة اثنتي عشرة مرَّة كانت أولها في حزيران (يونيو) ١٩٩٢، في الوقت الذي كانت فيه الحرب دائرة، وكانت سراييفو تحت الحصار. وحول زيارته الأولى لسراييفو كتب ليفي:

كانت سراييفو في زيارتنا الأولى لها عام ١٩٩٢ تحت الحصار، وكان الناس يعيشون تحت القصف وأطفالهم يلهون في سراديب البيوت. وأمام هذه الصورة المؤلمة تجرَّدت عقولنا من التأثيرات السياسية والتاريخية حتى ارتقينا إلى شعور هؤلاء الأطفال وهؤلاء الشيوخ. وبذلك شعرنا أنه لا بدَّ من اتخاذ موقف تجاه هذه الحال

قام ليفي بعد ذلك بإصدار كتاب وفيلمين سينمائيين عن المأساة البوسنية، ومن ثم قام مع جيل هيرتزوج بإنتاج فيلم عن الجيش البوسني. وكان الفرنسيان ليفي وهيرزوغ اللذان كان لهما إخلاص للبوسنة كإخلاص رجل الدين لدينه، قد طلبا مِنّي أن أقترح على جاك شيراك أن يمكّن الجيش البوسني من أن يكون السبّاق في دخول مدينة سراييفو بعد استردادها كما كان الجيش الفرنسي أول الداخلين لباريس عام ١٩٤٤. لكن هذا لم يحدث لأسباب نعرفها. ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أنسى رومانسية هؤلاء الأصدقاء الحميمين للبوسنة.

وكنت قد قمت في الثامن من نيسان (أبريل) بتسليم ليفي الوسام الفضي للجيش البوسني قدم له من قبل وزير الحرب في البوسنة والهرسك. وقد جاء في كلمة ألقيتها في هذه المناسبة التالي:

لقد مضت ستة أعوام على بداية العنف ضد البوسنة والهرسك. وقد كانت الأحداث المأساوية ذات أثر فاجع على البوسنة وعلى كل أوربة. وفي هذه الأحداث حاولت القوة أن تنتصر على الحرية ولكنها لم تَنتصر، وفي الوقت نفسه لم تُهزم، ذلك لأننا في هذه الدنيا في كفاح مستمر لا نهاية له من أجل الحرية. لقد كنت أول من قدم إلينا وشجَّعنا في تلك الأيام العصيبة. وإذا لم تَخُنّي ذاكرتي فقد كان أول

قدوم لك في حزيران (يونيو) عام ١٩٩٢، عندما كان العدوان في أشده. لقد كنت من أوائل الذين أدركوا أن هذه ليست حرباً تقليدية، وإنما هي ذات عمق أكبر يجعلها مهمة لكل فرد في العالم.

وما زال يتوافد إلينا منذ قدومك الكثير من الأصدقاء الحميمين. ومع ذلك، كنت أول من طرق الباب مشجعاً من هم مثلك من مفكرين وكتّاب وفنانين على القدوم إلى هنا. حقاً، لقد كانت زيارتكم بَلْسماً لجراحنا وضوءاً أنار ظلمتنا، أما وسام التقدير المتواضع الذي أسلمك إياه اليوم فما هو إلا رمز عرفان لخطواتك الشجاعة في زيارتنا أيام المحن في حزيران (يونيو) من عام ١٩٩٢، ولكلماتك الشجاعة في كتابك ذي العنوان الرمزي "الزنبق والرماد"، ولفيلمك "يوم في قتل سراييفو" ولفيلمك "البوسنة" وأيضاً لمعاونتك في إنتاج فيلم "الجيش"، ولكل ما لا يمكن حصره في هذا الكلام من أعمال قدمتها للبوسنة.

وأريد في هذا الموقف أن أؤكد لك بأن البوسنة بغض النظر عن الحيرة والمآزق التي لا يمكن تجنبها، ستستمر في تطورها بما ينسجم مع مفهومها ومفهومكم للديمقراطية والتسامح بشكل يجعلك غير نادم على الوقوف إلى جانبنا في أيام المحن.

فكل الشكر لك يا سيد ليفي وكل الشكر لأحرار العالم.

وبعد ذلك دُعيت في الثلاثين من حزيران (يونيو) ١٩٩٨ إلى احتفال في جامعة مرمرة في إسطنبول، حيث تم تشريفي بلقب دكتور فخري في القانون. وفي تلك المناسبة لم تُجدِ مكيفات الهواء في امتصاص صيف يوم حار في مبنى غصَّ بالمئات من المدرسين والطلاب وعدد من الضيوف كان أبرزهم رئيس الدولة التركية سليمان ديميريل. وأذكر أنه كانت هنالك في هذا المبنى فرقة تتألف من عدد ضخم من الفتيات والفتيان رددوا بعض الأغاني التركية التي كانت تشبه الألحان العسكرية.

وبعد أن شُرِّفت بلبس الرداء المميز للأساتذة الجامعيين، ألقيت كلمة قصيرة لم تخلُ من النغمات الشخصية. وجاء فيها:

عذراً لن تكون كلمتي طويلة ومتناولة للقانون والعلوم التشريعية التي تعرفون عنها أكثر مني. وإنما ستكون كلمتي قصيرة وذات شجون شخصية:

لقد كان القانون طموحي منذ أن كنت شاباً. فعندما كنت طفلاً حلمت بأن أكون محامياً كي أستطيع أن أدافع عما اعتبرته في ذلك الوقت "العدالة". ولكن تمّ حبسي عندما وصل الشيوعيون إلى سُدَّة الحكم، وبناء على نصيحة والدي بدأت بعد ثلاثة أعوام من التعذيب بدراسة علوم التربة، والسبب في ذلك، أنه ساد اعتقاد في ذلك الوقت أن المحامين الذين يختلفون في الرأي مع النظام الشيوعي لا يحتملون ليلة وضحاها في قبضة هذا النظام. مع هذا رجعت إلى حبي الأول -القانون- بعد ثلاثة أعوام من دراسة علوم التربة.

لم يكن القانون مجرد مهنة لي وإنما كان تصميمي وإيماني وبعض من فلسفة حياتي. فقد آمنت دائماً أن ما يدعوه الآخرون بـ "حق الأقوى" ليس بالحق والعدل. ومن هنا جاء دور المحامي كي يحمي الأضعف في المجتمع، وجاءت حرية الرأي لتكون حرية للتفكير المتعدد.

هذا ما كنت وما سأبقى أؤمن به. فقد دفعت مرتين ثمناً لحريتي عندما حبست ما يقرب في مجموعة من تسع سنوات.

ولكن يجدر بي القول هنا: إن السنين التي أمضيتها في السجن لم تكن حافزي الأبرز على دراسة وممارسة القانون. فعلى العكس من ذلك كانت سنون العزة والقوة هي حافزي. فقد كان عليّ أن أراجع أيام شبابي لشعوري بضرورة تحمل مسؤولية بلد صغير مُعتدى عليه من الخارج والداخل.

وفي إحدى المناسبات كانت بالصدفة لدي الفرصة القاسية بأن أقوّم نفسي والآخرين من أجل الوصول إلى العلاقة بين القوة والقانون، والمبادئ والمصالح، والأخلاق والسياسة. وبالنتيجة، أصبح بقاء من هم مثلي موضوع بحث. وبذلك تمّ فحص أساسيات العدالة والقانون بشكل ثابت. ويجدر بي القول هنا: إنه ليس من وظيفتي أن أحكم بأنني قد تجاوزت هذا الاختبار الصعب أم لا.

ختاماً، إذا كان هذا التقدير منكم لما بذلته من كفاح بغض النظر عن نتائج هذا الكفاح، فإنني أعتقد أنني أستحق هذا التقدير.

لم تتغير سياسة كرواتية بقيادة تودجمان نحو اتحاد البوسنة والهرسك. فقد كانت سياسته منمقة ببعض العبارات اللطيفة، ولكن وفي الوقت نفسه تمارس ما لا يعكس عباراتها اللطيفة سالفة الذكر. ففي الثامن من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٨ زارني مراسل صحيفة (فري يوروب) وسألني بعض الأسئلة يتعلق بعضها بسياسات جيراننا:

فري يوروب: كيف ترون حقيقة أن الرئيس الكرواتي تودجمان قد دعا إلى اتفاقية في زغرب لكل المرشحين الرئاسيين من الكروات في الوقت الذي يوجد فيه مندوبون يمثلون كروات البوسنة والهرسك في مجلس النواب الكرواتي؟ هل تعتبر هذا استخفافاً في السياسة البوسنية؟

عزت بيغوفتش: حسناً، لقد ضعف تأثير تودجمان على الكروات البوسنيين. ففي لقاء دعا إليه تودجمان تسعة من مندوبي الكروات البوسنة لم يحضر منهم سوى اثنين. فمن الواضح، أن علاقات تودجمان بالشؤون الداخلية للبوسنة والهرسك قد أصبحت غير مرحب بها من كروات البوسنة أنفسهم. فقد ولّى ذلك الزمان المظلم. أما فيما يخص الجزء الثاني من سؤالك فإن هذه ممارسة غير شرعية ونادر حدوثها في هذا العالم. ويبدو لي أن كرواتية تحاول أن تدخل الإتحاد الأوربي. وبهذا التصرف فإنني أعتقد أنه لن يكون بمقدورها دخول الإتحاد الأوربي الآن، وذلك لأن عليهم كما نصت معاهدة دايتون أن يوقعوا على اتفاقية قبل دخولهم للاتحاد تضمن ثنائية المواطنة لكل من البوسنة والهرسك وكرواتية. وقد تمَّ توضيح بعض الأمور في هذه المعاهدة مثل: دفع الضرائب، الخدمة العسكرية، والحق في التصويت، وأن تكون الإقامة الدائمة هي المعيار في أخذ مواطنة إحدى البلدين. وعلى كل حال، فإن الأمور تسير نحو التطبيع. أما فيما يتعلق بالوضع الحالي فما هو إلا بقايا للوضع السابق المؤلم وغير الاعتيادي في أيام الحرب.

فري يوروب: ما الأهمية السياسية لكل من جمهورية الصرب وجمهورية كرواتية للبوسنة والهرسك؟ هل بالإمكان وجود ديمقراطية في البوسنة والهرسك دون وجود تحول ديمقراطي في جمهوريتي الصرب وكرواتية؟

عزت بيغوفتش: يمارس جيراننا تأثيراً مهماً على العمليات الإصلاحية في البوسنة والهرسك، ولكنه ليس تأثيراً جوهرياً – فمنذ زمن ليس ببعيد، عانينا من بعض أشكال العنصرية والفاشية في أجزاء من البوسنة. ولكن في الوقت نفسه توجد مستويات جيدة من الديموقراطية التي تحكمها السلطة في سرايفو، وبذلك سيتم الاعتراف الكامل بالبوسنة بتحقيق عاملين لا بد منهما: أولاً: التحول الديموقراطي في كرواتية. وثانياً: إضعاف الصرب. ونحن نتوقع مثل هذه التطورات في المستقبل القريب. وبالطبع يمكن حصول معجزات فقضيتنا مليئة بالأحداث غير المتوقعة.

وبعد ثلاثة أيام طُرح عليَّ أسئلة مشابهة من قبل جريدة الجمهورية الإسطنبولية:

الجمهورية: ما رؤاكم للجانبين الصربي والكرواتي؟ وكيف يمكن لقراراتهم أن تؤثر على مستقبل البوسنة؟

عزت بيغوفتش: هنالك اتجاهان عند الصرب بالكروات وهما مؤيد للبوسنيين وانفصالي. ويشار إليهما بالقسوة والعدوانية والتطرف. وبذلك يعتمد تطور الحال البوسني على مدى العلاقة المشتركة بين هذين الاتجاهين. وشخصياً أعتقد أن التيار الأول المعتدل سوف ينتصر. ومع ذلك، فإن موقف البوسنيين أنفسهم أساسي لتحديد مصير البوسنة. وفي هذا الموقف اسمح لي القول: بأن البوسنة بلدنا ولن نتخلى عنها.

ومن ثم أُجريت انتخابات في البوسنة، وبعد ثلاثة أيام من الانتخابات قمت بإجراء مقابلة مع مراسل صوت أمريكا. وأعتقد أن أسئلة وأجوبة هذه المقابلة كانت مميزة. وقد كانت المقابلة على النحو التالي:

صوت أمريكا: السيد عزت بيغوفتش، لقد مضى على توقيع معاهدة دايتون وانتهاء الحرب ما يقرب من ثلاثة الأعوام، وقد تمّ تحقيق الكثير مما نصّت عليه معاهدة دايتون.

وعلى الرغم من كل ما تقدم لا تعيش البوسنة والهرسك حالة السلام الدائم كما أراد المجتمع الدولي وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية. فكيف ترى الوضع الراهن في البوسنة والهرسك؟

عزت بيغوفتش: لقد مضى عامان ونصف على توقيع معاهدة السلام. وقد نصّ تقرير تحليلي قرأته قبل فترة أن أي دولة في العالم تحتاج إلى ثلاثة أضعاف فترة الحرب حتى ترجع إلى وضعها الطبيعي. وبذلك تحتاج كل سنة حرب ثلاثة أعوام من السلام. وكما تعرفون فإن السلام لا يمكن أن يكون مستقراً بشكل كامل، ولا يمكن للسلام أن يصون نفسه. ولكن يبقى لنا أن نقول: إننا قد قطعنا شوطاً طويلاً من تحقيق السلام الدائم والشامل. فالآن نرى أن السلام يتم تطبيقه من دون حوادث خطيرة، ونرى الناس يعبرون الحدود بحرية، الأمر الذي كان حلماً في العام الماضي.

صوت أمريكا: يُعتبر حجم الدعم الاقتصادي الدولي الذي قدّم للبوسنة والهرسك أكبر حجماً من ذلك الدعم الذي قُدم لألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك نجد أن الاقتصاد البوسني ما زال غير قادر على تدبر أمره. وسياسياً، نجد صعوبة بالغة في الوصول إلى اتفاقية واحدة من دون تحكيم دولي. فهل البوسنة والهرسك حقاً دولة مستقلة وذات سيادة؟ وبكلمات أخرى، لأي حد تعتبر البوسنة والهرسك دولة ذات سيادة، حيث يوجد في داخل هذا الاتحاد كيانان وثلاثة أوجه من الوجود، في الوقت الذي تصدر فيه كل القرارات المهمة من قبل الممثل الأعلى للمفوضية الدولية كارلوس فيستندورب؟

عزت بيغوفتش: يمكنك اعتبار البوسنة رجلاً تعرّض لحادث سير لا ذنب له فيه أدى بالنتيجة إلى تحطيمه. ولأن هذا الرجل يعاني من صعوبة في الحركة فهو بحاجة إلى مساعدة شخص آخر، وهو في حالتنا المجتمع الدولي. والآن نرى أن المريض يتعافى وهو أمر واضح في الفترة الأخيرة. وفيما يتعلق بإعادة تأهيل ألمانية الغربية بعد الحرب العالمية الثانية. فإنني لا أعتقد أنها هنا ستكون أسرع من تلك في ألمانية. ومع أن كلامي يعتمد على الذاكرة، فإنني أعتقد أن هنالك ثلاثة فروق بين ألمانية والبوسنة وهي مجملها تصب في مصلحة ألمانية. أما الفرق الأول فيكمن في حقيقة عدم وجود مشاكل عرقية في ألمانية؛ فألمانية– كما تعرف – كانت عبارة عن بلد متحد وجدانياً وجغرافياً

وسياسياً. وثاني هذه الفروق أن ألمانية كانت في الأصل-أي قبل الحرب العالمية الثانية- بلداً متطوراً؛ إذ كان في ألمانية عدد ضخم من المهندسين والاقتصاديين، وعدد ضخم من موظفي الصيانة والموظفين الإداريين. أما الفرق الثالث فيكمن في أن ألمانية كان لديها- على الرغم من المؤسسة السياسية الفاشية- نوع من الاقتصادية الرأسمالية أو نوع من الوعي الاقتصادي. أما هنا في البوسنة، فقد سيطر الشيوعيون على سدة الحكم مما يزيد عن ٤٠ عاماً. والآن عندما نريد تطبيق الخصخصة فإن علينا أن نغير كلاً من العلاقات الاقتصادية وطرق تفكير الناس. وبالنهاية، فإن البوسنيين ليسوا بألمان؛ فلدينا الكثير من الخصال التي لا توجد عندهم ولديهم أيضاً بعض الصفات التي لا توجد عندنا. فمثلاً يوجد عند الألمان درجات عالية من الانضباط والاجتهاد؛ أما بالنسبة إلينا فنحن مستهترون بعض الشيء. وأريد أن أقول في هذا الموقف: إنني أحترم الألمان جداً، ولكنني في الوقت نفسه سعيد جداً كوني بوسنياً.

صوت أمريكا: يعيش الناس في البوسنة والهرسك في تجمعات عرقية. هل بإمكان البوسنة والهرسك أن تكون ذات أعراق مختلفة؟ وماذا أنجزتم- أنتم وحكومتكم- في هذا الإطار؟

عزت بيغوفتش: نحاول هنا في البوسنة القيام بكل ما هو ممكن؛ فنحن نوصي الجميع بالتسامح وندعو إلى إمكانية العيش مع الأعراق الأخرى، وهو أمر نربي الناس عليه هنا في البوسنة. وبكلمات أخرى ملموسة، فإننا ندعم ونشجع عودة اللاجئين وأولئك المظلومين والمضطهدين إلى بيوتهم وديارهم كما نصَّ الملحق السابع من معاهدة دايتون ذات السيادة الكبرى في تصحيح الصورة الديمغرافية المشوهة للبوسنة والهرسك. وفي الوقت نفسه على عملية عودة اللاجئين أن تكون مستديمة من الطرفين وليست محصورة التطبيق من طرف واحد كما هي الآن؛ فقد رجع إلى اتحاد البوسنة والهرسك ما يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ لاجئ من الصرب والكروات، أما إلى جمهورية الصرب فلم يرجع إلا القليل. لقد تمَّ عقد الانتخابات في البوسنة البارحة، وأتمنى أن تشهد عملية عودة اللاجئين زخماً بعد هذه الانتخابات. ولسوء الحظ، فلن يكون بمقدور البوسنة أن تكون ذات طوائف عرقية بسبب جرائم الإبادة الجماعية التي حصلت لأهلها.

صوت أمريكا: ما مدى التوجه الديني والوطني لحزب العمل الديموقراطي والأحزاب القومية الأخرى؟ وبكلمات أخرى هل هنالك إفراط وتفريط في هذه التوجهات؟

عزت بيغوفتش: نعم، لدى حزب العمل الديموقراطي توجه ديني ووطني، ولكنه توجه معتدل وإيجابي إذ يقول شعارنا: "أحبب نفسك واحترم الآخرين" وأيضاً جاء التوجه الديني لحزبنا ردة فعل على خمسة وأربعين عاماً من الشيوعية. وكما تعرف فقد كان هدف العدوانية العرقية إبادة الشعب البوسني وبالمنطق أدى إلى إعادة لم شمل الأمة البوسنية لمواجهة هذا الخطر، كما هو الحال عند كل الكائنات الحية التي تتعرض للتهديد.

صوت أمريكا: يدعي الكثير أن المجتمع الدولي يريد عن طريق مساعدة المعارضة أن يفكك الحزب الديموقراطي الصربي، ومن ثمّ حزب الاتحاد الديموقراطي الكرواتي، ومن ثمّ حزب العمل الديموقراطي المسلم. فما تعليقك على هذا؟

عزت بيغوفتش: لا يمكنك النظر إلى هذه الأحزاب الثلاثة بالمنظور نفسه، بل من يفعل هذا يرتكب خطأ فادحاً؛ فنحن كنا على أطراف نقيض في الحرب التي دارت في البوسنة، فمثلاً هاجم الحزب الديموقراطي الصربي البوسنة الأمر الذي حتّم علينا الدفاع عن بلادنا. وأيضاً، حافظنا من جانبنا على مستوى جيد من الديموقراطية والحرية، وأقصد بالحرية حرية الصحافة وحرية الممارسات السياسية، الأمر الذي لاتوفره الأحزاب الأخرى. وهنالك اتهامات تلتف حول كل من الحزب الديموقراطي الصربي وحزب الاتحاد الديموقراطي الكرواتي لقيامه بجرائم حرب في الوقت الذي طال حزبنا مثل هذه الاتهامات. وعلاوة على ذلك، يمثل حزبنا أحزاباً اتحدت من أجل بوسنة متحدة وديمقراطية، بينما تسود الاستبدادية والانفصالية كلاً من حزب الاتحاد الديموقراطي الكرواتي والحزب الديموقراطي الصربي.

صوت أمريكا: لقد ناقشنا الحاضر والمستقبل للبوسنة والهرسك. وكما تعلم فإنه لا يمكن تغيير الماضي. ومع ذلك، لعله يحق لي أن أسألك إنه إذا رجعنا إلى الماضي أيام الحرب في البوسنة والهرسك، ما الأشياء التي ترغب في تغييرها في شخصك، وفي سياسة حزب المسلمين السلافك للعمل الديموقراطي؟

عزت بيغوفتش: قد أرغب في تغيير بعض تفاصيل الأمور، ولكن لن أسعى إلى تغيير الأمور في جوهرها، لأنني أعتقد أننا لم نرتكب أخطاء استراتيجية،،وأودّ أن أجلب انتباهك إلى أننا قد حاولنا أن نبقي على يوغسلافية متحدة عندما كان ذلك ممكناً. ولكن عندما انهارت يوغسلافية بانفصال كل من: كرواتية وسلوفانيا قرَّر شعبنا الاستقلال بعد استفتاء قمنا به، وبعد ذلك ناضلنا حتى يتم الاعتراف ببلدنا. وعندما هوجمنا في ديارنا نظمنا صفوفنا للدفاع عن بلدنا. وفعلاً، نجحنا في الدفاع عنه وفاوضنا بعد ذلك من أجل السلام. ومن ثم عقدنا اتفاقية سلام عندما كان ذلك ممكناً...إلخ. وبالنتيجة، أعتقد أن انفصال دولة مستقلة عن يوغسلافية كان أمراً حتمياً لا يمكن تغييره. أما بالنسبة إلى الدماء البريئة التي سُفكت فهي بالطبع تستحق تمني الرجوع إلى الوراء لمنع سفكها. وكما تعلم فإن الآخرين- أي الصرب والكروات- هم المسؤولون المباشرون عن سفك هذه الدماء.

وبعد ذلك، أجرت صحيفة يابانية مرموقة اسمها (أساهي شيمبون) لقاءً معي في الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٨، وتضمن الآتي:

أساهي شيمبون: إلى متى ستبقى البوسنة بحاجة إلى وجود دولي في أرضيها خصوصاً ذلك الوجود العسكري، والمتمثل بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام؟ وهل تتفق مع فكرة تقليص عدد هذه القوات في السنوات القادمة؟ أيضاً، لاحظنا مشاركة فاعلة للسيد فيستندورب بعد مؤتمر بون في حل بعض المشاكل عن طريق فرض قرارات صارمة.وكما تعرفون فإن السيد فيستندورب لم يخفِ رغبته في فوز أحزاب أخرى في الانتخابات التي جرت. فما رأيك بوجهات نظر المجتمع الدولي في هذا المجال؟ وهل تعتقد أن موقف السيد فيستندورب كان عادلاً؟

عزت بيغوفتش: وبعد ذلك، لقد دعمت في بون وفي سينترا الإعلانات الزائدة والتي فرضها السيد فيستندورب، وليس بإمكاني أن أغضب جراء هذه القرارات. أما فيما يخص رغبته برؤية أحزاب جديدة تفوز بالانتخابات فإنني لا أعتقد أن ذلك كان عادلاً. فنحن كالشعوب الأخرى لا نحب أن يتم تفصيل ثوب حرية لنا بمقاييس أجنبية. ولذلك أعتقد أن على الممثّل الأعلى، السيد فيستندورب، أن يكون حيادياً في هذا

المجال. وأيضاً عليه أن يلتزم بعمله وهو مراقبة مدى تطبيق معاهدة دايتون على أرض الواقع، الأمر الذي يهمنا.

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وقَّعْت في زغرب اتفاقاً يسمح بالاستخدام المشترك- لنا والكروات- لميناء بلوتشه. وكان البروفيسور غانتش قد وقَّع على اتفاقية تسمح بعلاقات خاصة كهذا الاتفاق بين اتحاد البوسنة والهرسك وكرواتية.

وعليّ الاعتراف هنا أننا لم نكن راضين عن مثل هذا الاتفاق. لذلك استدعي الأمر أن يتم تعديل النص الابتدائي في هذه الاتفاقية. بحيث تصبح مقبولة لنا. وفي خطاب مختصر وقصير ألقيْتُه بعد توقيع هذه الاتفاقية قلت:

أوصي من يتحفظ على مثل هذه الاتفاقية بأن يستقرئ المستقبل مشاركاً عاملَ الوقت مضافاً إلى العوامل التي استند إليها في الوصول إلى مثل هذا التحفظ؛ فالأمور لا تبقى على حالها بل تتغير. ولذلك فإنني أرى في الأفق كلاً من اتحاد البوسنة والهرسك وكرواتية كدولتين ديمقراطيتين تنضمان للوحدة الأوربية.

ولم يُظهر تودجمان الذي وقع هذه الاتفاقية بالنيابة عن جمهورية كرواتية أي تأثر بما قلت، بل إنه بدا صامتاً في أثناء الغداء الذي دعانا إليه وبدا عليه عدم الاهتمام، ولكنه كان مهذباً ولبقاً في الوقت ذاته. أما أنا فقد تظاهرت بعدم ملاحظتي لهذا.

أما تطبيق السلام في البوسنة والهرسك فقد استمر في سريانه البطيء على الرغم من مؤتمر سينترا في الثلاثين من أيار (مايو) عام ١٩٩٧، ومؤتمر بون في التاسع من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٧ ومؤتمر لوكسمبرغ في التاسع من حزيران (يونيو) عام ١٩٩٨، وبعد ذلك، تمَّ عقد مؤتمر جديد حول البوسنة والهرسك في مدينة مدريد الإسبانية في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٨، ولم أشعر في ذلك الوقت أنه يقع على عاتقي تهدئة

حالة الاستياء التي عبّر عنها المجتمع الدولي. بل العكس، قمت بإعطاء إحصائية لِمَا تمّ تنفيذه من توصيات مؤتمر سينترا الخمس عشرة، وتوصيات مؤتمر بون الاثنتين والثلاثين، وتوصيات مؤتمر لوكسومبرغ الخمس والثلاثين، وركزت في إحصائيتي على تلك التوصيات ذات التأثير الإيجابي في إيجاد الوحدة الداخلية في البوسنة والهرسك. وفي خطابي الذي وجهته لمؤتمر مدريد ذكرت ما يلي:

١- إنه لم يتم احترام الالتزام بهجر الرموز القومية التعصبية في كثير من الأماكن.

٢- إن يوغسلافية ما زالت تفرض شروطاً على إقامة علاقات دبلوماسية مع البوسنة والهرسك على الرغم من التعليمات المنصوص عليها في معاهدة دايتون، وعلى الرغم من توصيات مؤتمرات بون، وسينترا، ولوكسمبرغ.

٣- إن معظم المتهمين بجرائم الحرب ما زالوا طليقي الأيدي، وإن السلطات المحلية في جمهورية الصرب لم تقم بأي عمل يظهر نيتهم القبض عليهم وتسليمهم لمحكمة لاهاي.

٤- إن عملية إعادة بناء النظام الأمني في جمهورية الصرب ما زالت بطيئة.

٥- تمت إعاقة المفاوضات على ما تركته يوغسلافية السابقة من ملكيات.

٦- إن دستور جمهورية الصرب ما زال في تنافر مع دستور اتحاد البوسنة والهرسك في عدد من النقاط.

٧- إن معدلات رجوع الأقليات السكانية ما زالت غير كافية، حتى أن هذه المعدلات قليلة جداً في مدينة بانيا لوكا.

٨- لم يتم التقيد الكامل بنتائج الانتخابات البلدية، وخير دليل على ذلك سيربرينيتسا، مع العلم أنها ليست المدينة الوحيدة.

٩- لم يتم اكتمال انتشار النظام القضائي والقوى الأمنية في كثير من الأقاليم.

١٠- إن جمهورية الكروات ما زالت تموّل مجلس الدفاع الكرواتي، الأمر الذي يعيق الوحدة بين جيشي الاتحاد.

وفي ختام كلمتي بيّنت المقاومة التي يمارسها الكثير حيال وحدة البوسنة والهرسك بمثال قد يبدو بسيطاً ولكنه صاعق في الوقت ذاته. ويكمن هذا المثال في عملية إبقاء جمهورية الصرب وبعض أجزاء جمهورية البوسنة والهرسك على المفاتيح القديمة ليوغسلافية السابقة، دون استخدام الرمز أو المفتاح الجديد المميز لإتحاد البوسنة والهرسك وهو "٣٨٧"، والذي تمَّ إقراره في دايتون، وتمَّ التأكيد عليه في مؤتمري بون ولوكسمبرغ.

وكنت في هذا المؤتمر قد طالبت بإضافة ست نقاط جديدة للمسودة التحضرية الخاصّة بإعلان مؤتمر مدريد. فمثلاً طالبت في إحدى هذه النقاط (النقطة الثانية) بدعم المؤتمر لحق شمول العمليات الانتخابية كل أفراد شعب البوسنة والهرسك. وأيضاً نصَّ اقتراح آخر(النقطة الرابعة) لي على ما يلي:

ندعو مُحَكّم برتشكو الالتزام بمبادئ القانون والمساواة عند اتخاذ قراراته كما هو منصوص عليه في معاهدة دايتون، وندعوه لإيجاد حل لبرتشكو يرضي فيه القوميات الثلاث وكل سكان البوسنة والهرسك".

وعرض المقترح بوضوح حلاً لمشكلة برتشكو باعتبارها مقاطعة خارج كل من كياني الصرب، والبوسنة والهرسك.

وأدَّت النتائج من المؤتمرات التي عُقدت لبحث موضوع البوسنة، والمآزق الناتجة عن هذه المؤتمرات، والتطبيق غير المكتمل لمعاهدة دايتون، والنتائج المنتقصة التطبيق للمؤتمرات التي عقدت حول البوسنة والهرسك إلى ايجاد حالة

من اهتزاز إيمان البوسنيين في اتحاد البوسنة والهرسك. وبذلك لم يهزم المتطرفون في كل من الجانبين كما وعدنا وكما سعينا، بل نراهم ينتظرون الفرصة الملائمة لثورانهم ودسّ سمهم.

والآن فقد حان الوقت لتحديد وجهتنا؛ هل علينا أن نقبل بوجود القوات الأجنبية والتي هي مهمة لنا، ولكن من جهة أخرى إعلان بأن هذه القوات ما هي إلا حكومة وصاية علينا. وبرأيي المتواضع: كان لا بد من حدوث أمرين هما: (١) انضمامنا لأوربة و(٢) محافظتنا على هويتنا القومية. وقد يسأل سائل هل من الممكن تحقيق هذين الشيئين في الوقت ذاته؛ وجوابي: إنه على الرغم من أن هذه معادلة معقدة يبدو أنها الحل الوحيد.

ولدى عودتي من مدريد مباشرة دعوت مجلس حزب العمل الديموقراطي للانعقاد حيث تمحور الاجتماع حول الحالة القائمة ومستقبل الشعب البشناقي على عتبة هذا القرن الجديد. ولقد قمت بإعداد ورقة مسبقاً وأنا على متن الطائرة في طريق عودتي الى سراييفو وكان نص الورقة كما يلي:

"الإخوة والأخوات الأعزاء،

السادة أعضاء المجلس

أود أن أطرح في اجتماع اليوم موضوعاً في غاية الأهمية لمستقبل البوسنة والشعب البشناقي، وسوف يكون خطابي موجزاً على نحو مغاير لأهمية الموضوع الكبرى.

وسوف أبدأ بالحديث عن مؤتمر مدريد ، الذي انتهى للتو حيث استمر لمدة يومين (١٥-١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨) وخلُص المؤتمر إلى إصدار إعلان وملحق من ١٦٠ نقطة ككل. وإن أهم تلك النقاط التي أضيفت هي تلك التي تتحدث عن الحفاظ على وحدة أراضي الدولة البوسنية وعودة

اللاجئين. واحتفظ المندوب السامي بصلاحياته، وهو أمر ليس بالسيّئ حيث سيتم أيضاً تشكيل قوة شرطة حدودية، وسيتم توسيع المجلس الوزاري وسيكون دور اللجنة العسكرية البرلمانية بمثابة نواة للبيئة الموحّدة والدفاعية المستقبلية للبوسنة والهرسك، وتوجد أيضاً مبادرة لإنشاء مؤسسة قضائية على مستوى الدولة حيث لا يوجد لدينا الآن سوى المحكمة الدستورية فقط، وسيتم صياغة قانون انتخاب عالم لكل البلاد. وباختصار ستغدو الدولة البوسنية أقوى مما هي عليه الآن. ولم يكن أياً من ذلك كله مشكلة بالنسبة إلينا، ولكن المشكلة هي كيف ننفذ ونطبق كل ما ذكر؟

إن روح اتفاقية مدريد والخطابات التي ألقاها ممثلو المجتمع الدولي تبعث برسالة واضحة، وإن لم يكن هناك تصريح بهذه الرسالة. إن دولة البوسنة التي هي مدار الحديث، ومع أخذ جميع الظروف بعين الاعتبار وخاصة تلك الجغرافية والسياسية منها، يجب أن تُدمج بالمنظومة الأوربية من أجل تحويل البوسنة إلى دولة مواطنين مما يضعف الشحنة أو النزعة القومية أمام سيطرة ما نسميه عادة بالحضارة الغربية.

وعندما يتعلق الأمر بالقضية الثانية توجد هناك بعض المعضلات بين أفراد المجتمع البشناقي وأعضاء حزبنا. وحان الوقت كي نقرر ماذا نريد نحن: فهل نريد مثل هذا التطور ومثل تلك الدولة؟ وهل ينبغي لنا أن نقاوم هذا التوجه أم نذعن أمام هذا التدفق؟ ماذا يجب على الحزب أن يقوم به وبأي اتجاه يتوجب علينا قيادة الشعب؟

إن هذا هو السؤال الذي أودّ أن نناقشه اليوم إذ لا يمكننا تفاديه بل إننا نواجهه يومياً وبأشكال مختلفة، ويجب علينا أن نختار وأن نتحمل تبعات ذلك الاختيار.

إنني اقترح أن نتناقش حول هذا الموضوع غداً بينما نفكر فيه منذ الأن.

وسوف أخبركم بوجهة نظري: يجب علينا أن نتخذ القرار الشجاع بالتحرك نحو الانضمام إلى أوربة كي تصبح مظلة البوسنة نظراً لأن كل البدائل الأخرى تنطوي على مخاطر كبيرة.

ومازال شعبنا مهدداً نوعياً مما يعني أنه يتعرض للتهديد الروحاني (الديني) أيضاً . فعلى المرء أن يؤكد وجوده حتى يصبح أو يحقق شيئاً ما. إن السلام في البوسنة ما زال صامداً بسبب وجود القوات الأجنبية. ولا يبدو الأمر واضحاً حيال ما سيحدث عندما تغادر هذه القوات. هل ستنشب الحرب مرّة أخرى؟ وهل سيعيش أبناؤنا أو أحفادنا تجربة المعاناة، والاغتصاب، والنفي؟ فلقد وجد شعبنا نفسه محشوراً ما بين صربيا وكرواتية. ولم يختر شعبنا هذا الوضع. كما أن الشعوب والدول لاتختار جيرانها. فلقد وجدنا أنفسنا في هذا الوضع حيث نحن الآن، ويتوجب علينا أن نكافح من أجل البقاء على المستويين الروحي والحسّي.

ولسنا نحن المسؤولون عن هذا الوضع المقلق والذي لا نحسد عليه، إن موقعنا الجغرافي السياسي على ماهو عليه بالإضافة إلى وجودنا في منطقة البلقان غير المستقرة. ولم نرتكب ولو غلطة استراتيجية واحدة حتى الآن. فلقد استطعنا خلال السنوات العشر الماضية أن نتخذ القرار الأقل ضرراً وذلك كلما وصلنا الى مفترق طرق تاريخي حيث أننا ساندنا بقاء الاتحاد اليوغسلافي عندما كان قائماً وحاولنا إعادة هيكلية وهي عملية مشروعة طبعاً.

ومن ثم أعلنا الاستقلال عندما انهار الاتحاد مع انسحاب كرواتية وسلوفينيا، كون الاستقلال هو حل أفضل من اتحاد يوغسلافي ناقص يتألف على أرض الواقع من صربيا الكبرى برئاسة ميلوشفتش وكرادجتش. ولقد اخترنا المقاومة عندما هُوجمنا وتحدينا ذلك بالصمود والمقاومة. ولقد قبلنا بالسلام الذي عُرض علينا بعد ٤٣ شهراً كون ذلك حلاً أفضل من استمرار الحرب.

وعندما خُيِّرنا بين دولة البوسنة والهرسك الموحّدة كما هي الآن ودولة مسلمة في جزء من البوسنة قمنا بتبنيّ الخيار الأول. ولا أعتقد أننا ارتكبنا خطأً بهذا الخصوص مهما كانت المشاكل التي سيتمخض عنها ذلك القرار والاختيار.

فلو اخترنا دولة مسلمة في جزء من البوسنة لأصبحنا مثل (الغيتو) والذي هو حل أسوأ من الحال الذي نحن فيه الآن.

وها نحن أمام مفترق طرق مرة أخرى ويتوجب علينا أن نقرر أين وكيف نمضي قدماً.

إن الصعوبات التي تواجهنا الآن ليس لها علاقة بقدرتنا على بناء دولة. فلن تكون معرفة شعبناً أسوأ من غيرهم في كيفية إنشاء بلد قوميّ. ولكن وضعت الظروف أمامنا مهمة من نوع آخر وهي أن نقوم بإنشاء دولة متعددة القوميات وهو أمر صعب جداً. فمثل هذه الدولة نادرة جداً في العالم. وتكاد تكون معظم الصعوبات التي نواجهها اليوم ناتجة من طبيعة مشروع إقامة دولة متعددة القوميات.

ويعد هذا هو الجزء الأصعب والأهم في نفس الوقت من اتفاقية سلام دايتون بالنسبة إلى شعبنا. وتعد هذه تجربة لفحص إمكانية إقامة دولة للجميع: القوميات الثلاثة، والأديان الثلاثة والثقافات الثلاثة.

وينطوي نجاح هذه التجربة على أهمية تاريخية ليس بالنسبة إلينا فقط وإنما بالنسبة إلى العالم أجمع.

إن بعض الظروف في صالحنا وأعني هنا بعض التغييرات الحتمية في محيطنا. وسوف تتولى القوى الديموقراطية في السلطة في كرواتية وستحمل معها سياسة جديدة تجاه البوسنة والهرسك. وستصبح صربيا ضعيفة لوقت طويل قادم وستتوجه الى الديموقراطية وإلى أوربة في نهاية المطاق. وهكذا فإنه سيكون لدينا

خلال السنوات العشر الأولى من القرن القادم صربيا ضعيفة في الشرق وكرواتية ديمقراطية في الغرب.

وسيتعين علينا أن نراجع أولوياتنا، آخذين بعين الاعتبار أن خصمنا الرئيس ليس المعارضة الموجهة ضد البوسنة بل المتطرفون الصرب الكروات وبالأخص التشتنيك والأوتاشا. وهكذا يتوجب علينا أن ننشر المعايير البوسنية في كل شيء.

إن هدفنا هو الشعب وليس الحزب كما أكدنا مراراً وتكراراً في السابق. إن الحزب هو مجرد الوسيلة. ولحسن الحظ فإن الحزب هو الآن في السلطة وعلينا أن نكافح من أجل إبقاء الحزب في السلطة، ولكن يجب ألا يكون أمن شعب البوسنة مرهوناً بنتائج الحزب في الانتخابات المقبلة، لأن ذلك سيجعل الأمر محفوفاً بالمخاطر، خاصة وأن الأحزاب السياسية تخسر كما تفوز، فلذا يجب أن يعتمد أمن البلد على عوامل ذات ثبات واستمرارية أكبر.

ولا أرى مثل هذا الأمن يتحقق إلا عندما تصبح البوسنة دولة ديمقراطية بحق وعضواً في المجموعة الأوربية فلا مكان للبلشفيين أو التشتنيك أو الأوتاشا في دولة متحضرة، ولذا فإنه لا يوجد خطر حقيقي على بقاء الشعب البشناقي. وسيتم توفير قدر كبير من الأمن والأمان كونه لا يوجد في التاريخ شيء اسمه أمن مطلق وتام.

وطبعاً فإن مثل هذا الخيار ينطوي على بعض المخاطر المتعلقة بالحفاظ على الهوية القومية بكل معنى الكلمة، وسوف ننقذ جسم الشعب ولكن هل سيكون بإمكاننا إنقاذ روحه؟

وسنتمكن من الحفاظ على هويتنا فقط عندما نستحقها. إن الحرية دَيْن ومسؤولية وكفاح مستمر يخسر فيه الطرف الأضعف. ولسنا بالضعفاء روحانياً ولذا فإنه لا ينبغي لنا أن نخسر المعركة.

وعلى أي حال فإننا نواجه يومياً التحديات التي تفرضها علينا الحضارة الأمريكية - الأوربية، وهو أمر لا مفرَّمنه ولكنه مفيد، وطبعاً فإنه يجب علينا أن نتعلم وأن نعمل بجدّ. وإذا ما خسرنا بسبب تقاعسنا وإهمالنا فإن ذلك سيكون لآننا خالفنا أحد قوانين الله الثابتة ألا وهو قانون وسنة العمل والكفاح وعندها ليس عندنا من نلجأ إليه.

ونظراً لأن تلك الورقة كانت مصنفة على أنها سرية فلقد أطلقت بعض الصحف التي حصلت على نسخة منها اسم (ورقة علي عزت بيغوفتش السرّية) فيما أطلق عليها البعض اسم (شهادتي السياسية). ولم أنكر ذلك.

ومع نهاية عام ١٩٩٨ اقترب موعد النطق بقرار التحكيم الخاص بمنطقة برتشكو، فلقد الزم الملحق الثاني في اتفاقية دايتون للسلام المحكمّ الدولي أن يلتزم بالشرعية في اتخاذ القرار. ولقد كان السؤال هنا والمساواة.

هل سيلتزم المحكّم بتلك المبادئ أم أنه سيذعن للضغوطات السياسية والنظرات البراغماتية، وهكذا نرى أنه كان لدينا العديد من الأسباب التي تثير قلقنا.

ولقد كان على المحكّم أن يعطي مدينة برتشكو لدولة أو اتحاد البوسنة والهرسك لو أراد أن يكون نزيهاً وقانونياً، ولكن ذلك سيؤدي إلى فصل أراضي الكيان المسمى بالجمهورية الصربية مما سيؤدي إلى خلق مشاكل كثيرة لمشروع صربيا الكبرى. وهكذا فقد يلجأ الصرب إلى استخدام سلاحهم المعهود بالتهديد باستخدام القوة وزعزعة استقرار هذه المنطقة والمنطقة الحدودية كذلك. ولن يسمح الأمريكان الذين أرسلوا ٢٠ ألف جندي من قواتهم إلى البوسنة بحدوث أي شيء من ذلك القبيل يمكنه أن يعرّض حياة جندي أمريكي واحد للخطر. ومع ذلك فلقد بدأ الصرب بمضايقتنا واستفزازنا نحن وقوة المراقبة

التابعة للأمم المتحدة. لقد كان رئيس دولتهم رجل يُدعى بوبلاشن، وهو سياسي متطرف أدلى بتصريحات مزعجة بخصوص تحريك القوات الصربية وهو مالم ترغب قوة المراقبة بالسماح له بالحدوث. علاوة على ذلك، قمنا بمساعدة هيئة الإغاثة السعودية بإصلاح الأضرار في اجزاء تابعة لبلدية برتشكو.

"... وبمساعدة اللجنة العليا السعودية لإغاثة الشعب البوسني، قمنا بإعادة إعمار ماتم تدميره، قمنا بإنشاء أكثر من ألف من البيوت والمستشفيات والمدارس والمساجد الجديدة مع عودة السكان إليها. وكانت الآلاف من أسطح بيوتنا ذات القرميد الأحمر مدعاة لإغاظة المتشددين من الصرب. وبكلمة واحدة، كان هذا الأمر يمثل فرصة حقيقية للدبلوماسية الغربية.لاقتراح وضع راهن لأجل السلام في الوطن".

وقررت مخاطبة أحد أصدقائي المتنفذين ممن يستطيع تخفيف ما يتم ممارسته علينا من ضغوطات سياسية سلبية، ووقع اختياري على ملك المغرب الحسن الثاني. وكان الملك الحسن مؤثّراً في الغرب كما هو مؤثّر في العالم الإسلامي إضافة لكونه صديقاً كبيراً للدولة البوسنية. وقررت زيارة الملك مباشرة قبيل انعقاد مؤتمر مدريد لتطبيق مقرّرات مؤتمر السلام الذي كان يزمع انعقاده في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) من العام ١٩٩٨م.

وقد جلس العديد منا في طائرة صغيرة تتسع لثمانية مقاعد كان يجلس فيها د. سيلادجتش ود. ترنكا وجمال لاتيش، ومترجم فوري، وحارس شخصي وأنا. ولم يأت البرفسور جانيتش معنا كما وعد بذلك. وكطرفة قلنا: إنه كان يخاف من الطائرات. رغم أن هنالك بعض الشيء من ذلك. وحينما وجدنا أنفسنا نحلق فوق جبال الألب وعندما بدأت الطائرة تخترق تيارات الهواء العنيفة اعترفنا بأن البرفسور جانيتش كان على قدر كبير من الذكاء مما كان لدى بقيتنا. وشعرنا بالراحة عندما هبطنا في ملقا لأخذ استراحة قصيرة في مساء

معتدل وردي. ولم يحل الظلام بعد عندما حلّقنانا فوق جبل طارق. كانت هذه فرصة فريدة لنا لنرى هذا المكان. وبالطبع، بدأنا مباشرة بالتحدث عن البطل الأسطورة طارق بن زياد لمروره بجبل طارق الذي لم يكن ضيّقاً فحسب بل كما بدى لنا من الطائرة مرتفعاً بسطحه، مثل بركة تنتشر بين صحاري المغرب والجانب الصخري من شواطئ إسبانية. بعد كل الذي حدث مؤخراً في البوسنة، ينبغي ألا يكون المرء مسلماً ليتذكر المصير المأساوي الذي لقيه المسلمون الإسبان في هذه المناسبة. "إلهي، إلهي. أين زرعتنا!" وهذا ما قاله شاعرنا لاتيتش مقتبساً جملة من عمل إسكندر الأدبي (يونورنيتسا).

وكان الملك الحسن في مراكش حيث المناخ أفضل بالنسبة لصحته المتوعكة. وقد كان في استقبالنا الدكتور عبد اللطيف الفيلالي، الذي سبق أن كان رئيس الوزراء المغربي وبعدها وزيراً للخارجية، وكما عرفنا لاحقاً أنه من أقرباء الملك.

أما الفندق الذي أقمنا فيه كان ممتازاً ومبنياً على الطراز البربري ويقع في متنزه يعجُّ بالخضره. وبمجرد دخولي إليه رأيت صوراً كبيرة لـ وينستون تشيرتشل معلقة على جدران الجناح الخاص بي. نعم، لقد كان هذا جناح ونستون تشرتشل الذي كان يقيم فيه سراً لدى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، ومن حيث خطط العمليات العسكرية ضد جيوش هيتلر الموجودة في شمال إفريقية والتي يصفها في مذكراته. كان لي الشرف أن أقيم في نفس الجناح الذي أقام فيه السياسي العظيم قبل أكثر من نصف قرن سابقاً".

كان الملك الحسن في انتظارنا أمام مقره في ساحة مليئة بالخضرة وأشعة الشمس والمياه الجارية والوسائد والمتكئات والأعمدة. كان قصيراً كطفل بوسني في طوله، ولكنه ودود وذو ذوق راق. وعندما تكلّم همسَ بصعوبة. وكانت صوره معلقة خلف المكان الذي كنا نجلس فيه. وهو بالملابس التقليدية المغربية بطربوش أحمر طويل وثوب أبيض.

وعُرف الملك الحسن بأنه حاكم عربي مثقف جداً. فقد كان على اطلاع بالشريعة الإسلامية، ويقرأ القرآن الكريم، وكان يتكلم بالعديد من اللغات، وكان يمضي وقتاً مع مدرسي الدين الإسلامي، ويقيم حلقات دراسية خاصة معهم. وقد رحَّب بنا بالفرنسية مشيراً إلى أنه على علم ومتابعة لما حصل في البوسنة. "ما الموقف الراهن؟ وماذا نستطيع أن نقدِّم لكم؟" هذا ما سألني إياه في البداية. ورددت عليه على الفور مباشرة إن سبب زيارتنا: العدالة لبرتشكو. لقد استمع إلي بإنصات مومئاً برأسه. "السيد الرئيس"، قالها بعد وهلة، عليك أن تمضي في طريقك، إنني أعتقد أنك تمارس سياسة صحيحة، وبالنسبة إلى مشكلتكم، في اعتقادي، على الدول الإسلامية أن تهتم بمسألة برتشكو، وأن تطالب بالوصول إلى قرار شرعي لا سياسي حيالها والذي يمثل اهتمامكم". أجبت أن هذا كل ما نطلبه. وكان هذا آخر اجتماع لنا، حيث توفي الملك الحسن في صيف السنة التالية.

لذلك، دخلنا العام ١٩٩٩ مع شعورنا بالقلق حيال برتشكو. ولقد أُعلن أن الوسيط روبرت أوين سيقوم باتخاذ القرار النهائي تلك السنة، وأن هذا يتوقع في آخر شهر شباط (فبراير) أو بداية شهر آذار (مارس).

وفي الحادي والعشرين من شباط (فبراير) قام المدير العام بجريدة آفاز اليومية التي تصدر في سرايفو بطلب إجراء مقابلة حول برتشكو.

وفيما يلي بعض الأسئلة والإجابات التالية:

آفاز :أيها الرئيس، إن السؤال الواقعي والأهم في أنحاء البوسنة والهرسك هو حالياً مسألة برتشكو. هل هنالك ثمة احتمال أن الوسيط الدولي أو بشكل أدق المجتمع الدولي أو حتى الولايات المتحدة ستقوم بتسليم البلدة إلى الجمهورية الصربية؟

عزت بيغوفتش: ليس بمقدوري التكهن بعدم وجود مثل هذا الاحتمال نظرياً، لكنها ستكون هفوة مأساوية.

آفاز: إنني أتفق معك، لكن هل باستطاعتكم تفسير إجابتكم لقرّائنا بشكل أكبر بعض الشيء؟

عزت بيغوفتش: حسناً، باعتقادي أن الفوضى ستعم. ولن يبقى أي شيء كما كان بعد مثل هذا القرار؟ ولن يعتبر الشعب البوسني هذا خيانة لمصالحهم فحسب، بل استهزاء بالقانون والعدل الدوليين. إنك تعلم أن مثل هذا الحل كان مرفوضاً في دايتون كذلك. هنالك خط بل مستوى من الظلم الذي لايطاق.

آفاز: ما حججكم الأساسية حيال الوساطة المقبلة؟

عزت بيغوفتش: وبالفعل جميع القرائن إلى جانبنا مع تحديدها بالعدد في مناسبات كثيرة. أما عناء إثباتها ينبغي أن يكون من الجانب الآخر، وذلك لأن حقنا واضح.

آفاز: ولكن، إن حجتهم هي الوحدة الإقليمية لجمهورية الصرب؟

عزت بيغوفتش: ولم يريدون الوحدة الإقليمية في دولة مباحة للجميع؟ فالاتحاد ليس كاملاً. كما أن حجتهم تظهر نيّة للانشقاق. وذلك لأنهم يحتاجون مثل هذا التوحد الإقليمي فقط من ذلك المنحى. وهذا سبب آخر يستدعي أن تنضم برتشكو إلى الاتحاد. وبهذه الطريقة، سيتم تصويب القرار غير العادل لمؤتمر دايتون، وفي نفس الوقت سيوحي ذلك برسالة قوية مفادها أنه لن يحصل شيء نتيجة للانشقاق. إن من يطالبون بانضمام برتشكو للجمهورية الصربية ومن يدعمونهم يسعون بالفعل نحو الانفصال، وإلى تفكيك البوسنة والهرسك ونحن واثقون من ذلك.

وفي نهاية الحوار، سألني رادونتشيتش إذا مازلت أعتزم الاستقالة من منصبي في الرئاسة في حال ضمِّ جمهورية الصرب لبرتشكو. وكانت إجابتي إيجابية. "وبالنسبة إلى السيد سيلادجتش؟". "ليس هنالك شك في ذهني أنه سيقوم بالمثل". وهذا كان ردي.

إن مهمة تنسيق جهودنا بالنسبة إلى برتشكو تمَّ إيلاؤها إلى المفوضية المحلية لتحكيم الوضع في برتشكو الذي يرأسه د. جانيتش. وهو بذلك كان أحد أركان رئاسة البوسنة والهرسك. ومن ثم رئيساً لاتحادها. كانت مسؤولية

المفوضية في توفير الوثائق وإعداد حججنا للوساطة، وقد قامت بهذه المهمة بنجاح ومهارة.

أما المجلس القضائي لبلدة برتشكو فقد بدأ بالعمل يوم الخامس عشر من تموز (يوليو) من سنة ١٩٩٦م عندما سمّى رئيس محكمة العدل الدولية المحامي الأمريكي روبرت أوين وسيطاً.

وقد تم انعقاد أول اجتماع للوساطة في روما من الحادي عشر إلى السادس عشر من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٧. وقد تمَّ التوصل إلى قرار تحكيمي سُمي مؤقتاً. لقد أدى القرار إلى وجود تمثيل وإشراف دولي كهيئة مجلس بلدي يوافق "الأغلبية الصربية". لكن مسائل الوضع النهائي للأرض والمدينة فقد بقيت من دون حل. وكان هذا القرار انعكاساً للسياسة الحقيقية وليس للعدالة وللقرارات الشرعية. وأبدى أعضاء مجموعة الاتصال قلقهم ومخاوفهم من الحاجة إلى التدخل العسكري لتطبيق هذا القرار العادل في برتشكو مما قد ألقى بظلاله على الوسيط أوين. ورغم الحجج الواضحة التي تدعو إلى ضم برتشكو لاتحاد البوسنة والهرسك. فلقد أرجئ القرار الأخير إلى اللحظة الأخيرة. والتي أطالت أمد الوضع الفعلي لحكم جمهورية الصرب لهذه المدينة. وبما أن الوسيط يمثل الإشراف الدولي، فقد اعتبرت الأوساط الدولية (أعضاء مجموعة الاتصال وهي بالتحديد: الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانية وبريطانية العظمى، وفرنسة، وروسية، وإيطالية) القرار عادلاً. وقد أعطى هذا المراقب الدولي صلاحيات معتبرة في مجال القوانين والتشريعات المحلية وفي جهاز الشرطة وعودة اللاجئين والانتخابات وإعادة البناء الاقتصادي وإعادة تفعيل الموانئ وإنشاء المعابر الحدودية والخدمات الجمركية وغيره.

وبدأ تطبيق قرار التحكيم المؤقت هذا مع افتتاح مكتب المراقب الدولي في برتشكو بحلول شهر آذار (مارس) من العام ١٩٩٧. وقد تمَّ تعيين الأمريكي

روبرت فاراند لذلك المكتب. وقد تمَّ تحويل المفوضية الحكومية لبرتشكو إلى مفوضية فيدرالية تطبق قرار التحكيم حول برتشكو. وكان من مهمتها تفعيل الاتصال من الاتحاد الفيدرالي للبوسنة والهرسك مع المراقب الدولي، وذلك لتقديم اقتراحات ملموسة وللقيام بنشاطاته وكذلك لتطبيق التزامات اتحاد البوسنة والهرسك الفيدرالي التي وجبت عليه من خلال هذا القرار. وفي عام ١٩٩٧ أعطى المراقب الدولي أحد عشر أمراً وأربعة ملحقات بهذه الأوامر لإنشاء وتفعيل مجلس متعدد الإثنيات، وقوة للشرطة، ومكاتب رسمية ومراكز قضائية.

وبمرور سنة لاحقة تمَّ عقد الجلسة الثانية للمجلس البلدي لبرتشكو (٥-١٢ شباط (فبراير) ١٩٩٨)، وقد تابع مجتمعنا المحلي هذه الجلسة باهتمام شديد وكل كلمة قيلت هناك. أما ممثلنا القضائي المحامي الأمريكي ادوارد ديليني، فقد ذكر أن الجانب الصربي لم يقم بأي شيء لتطبيق قرار التحكيم المتخذ في روما (فبراير العام ١٩٩٧) وأنه غير مقبل على فعل شيء. لقد اقترح ضم برتشكو أو التوصل إلى حل يرضي الأطراف والذي يعني وضع برتشكو تحت سيطرة السلطة المركزية لحكومة البوسنة والهرسك.

وأصدر الوسيط الدولي أوين ما سماه قزاراً وسائطياً ملحقاً يوم الخامس عشر من آذار (مارس) عام ١٩٩٨، والذي أرجأ القرار النهائي حول برتشكو لسنة أخرى. ورغم أنه استخدم مصطلحات قضائية وكرَّر كلمتي (العدالة) و(المساواة) كثيراً، جعل تفسير أوين من الواضح أن القرار حول برتشكو قد تجاوز المستوى العدلي إلى المستوى السياسي لاتخاذ القرار، وهذا ما لم يلائمنا بأي شكل من الأشكال.

وبعد إصدار القرار الملحق، قمت بالإجابة عن بعض الأسئلة لصحيفة دنفني آفاز (١٥ آذار (مارس) ١٩٩٨):

آفاز: إن سؤالي الأول هو: هل أنتم متفاجئون بالقرار الوسائطي حول برتشكو؟

عزت بيغوفتش: بصراحة، إنني لست متفاجئاً. فعندما يكون الحديث عن العالم، أو عن المجتمع الدولي، كما يطيب لك، فهم توقفوا منذ أمد طويل عن مفاجأتي.

آفاز: هل قام فريق العمل الذي يرأسه البورفيسور جانيتش بعمله بشكل جيد؟

عزت بيغوفتش: ليس بشكل جيد كنتيجة، ولكن بنظري قاموا بعملهم بشكل جيد جداً. لقد أطلعت على المادة والأوراق الموثقة التي سلموها إلى المحكمة. تمَّ إنجاز كل العمل بنظامية كبيرة وبشكل جيد جداً. ولقد أحضروا جميع الشهود ممن لهم علاقة، من الحاكم (د.ياماكوعصمانوفتش) إلى بيشلاغتش وأوروشليتش، وكومشتش ود.هدولن، وأشخاص من الحكومة ومن محافظة برتشكو وجميع الأحزاب السياسية وحتى عمدة أوسييك (كرامارتيش).

وذكر ضمن حجتنا مسؤولون من منظمات دولية: منظمة الإغاثة وقوات المراقبة الدولية وغيرها. وإلى جانب خبرائنا كان هنالك محامون أمريكيون، وفي نهاية المطاف قام البرفيسور جانيتش بزيارة الولايات المتحدة وفرنسة وألمانية. ولقد خطونا خطوات سياسية واسعة من جانبنا. ولكن، كما يقولون: ((إن الغمز لرجل أعمى هو بلا جدوى)). فقد كان هذا قراراً سياسياً اتخذته القوى العظمى.

آفاز: إن صحفيينا الذين كانوا حاضرين في فيينا لم يمدحوا فريقنا بهذا الشكل. لقد قالوا: إن أفراد الفريق لم يظهروا مقارنة مع (دوديك) الذي حصد إعجاباً لايمكن مقارنته من قبل وسائل الإعلام ومثيلاتها.

عزت بيغوفتش: ما قلته أخيراً هو صحيح، لكن كل هذا لا يؤثر في القرار الوسائطي. ولم يقدم (دوديك) حججاً مهمة لدى العامة، ولا حججه التي لم تلعب أي دور. لقد هدد بأن تصبح برتشكو جزءاً من جمهورية الصرب، وإلا فإنه سيستقيل، ذلك التهديد الذي لم يعمل به، ولم يتوقع أحد أن يفعل ذلك. صحيح أن الأضواء الإعلامية سُلّطت على(دوديك) لكن السبب وراء ذلك مختلف تماماً: وأخيراً، قد ظهر سياسي صربي طبيعي على المسرح السياسي بعد سبع سنين. فذهب الناس لرؤية هذه المعجزة التي نادراً ما تحدث في طبيعتها. وبالطبع فإن هنالك العديد من الصربيين

العقلاء ضمن الناس العاديين، لكنهم نادرون جداً إذا كان الحديث عن السياسة. وإذا كان الكلام حول المدح أو النقد الصحفي. هذا أمر متداول الآن. فمن الشائع بل من المربح مهاجمة السلطة في سراييفو ومدح مناوئيها.

آفاز: **إنكم تقولون: إن القرار ذو طابع سياسي. هل بمقدوركم أن تكونوا دقيقين أكثر في قصدكم؟**

عزت بيغوفتش: حسناً، لقد ابتدأت حملة ما قبل الانتخابات للتو. تريد أمريكا وأوربة تقوية شأن دوديك.

والقرار بالنسبة إلى برتشكو، على هذه الطريقة، هو رسالة واضحة للصرب للتصويت لـ (دوديك) وليس للنظام الهرم. ونحن، ندفع الثمن هذه الأيام.

آفاز: **وما الذي تعنونه بقولكم "بالنسبة للآن"؟**

عزت بيغوفتش: إن قرأت القرار بتمعّن فإنك ستجد كذلك رسائل أخرى هامة فيها: على دوديك أن يعيد الوجود البوسني والكرواتي في البلدة وينشئ سلطة وشرطة متعددة القوميات، وأن يخلّص برتشكو من مجرمي الحرب، وأن ينشئ منطقة اقتصادية حرة بالتعاون مع المراقب الدولي، وأن يسهل إمكانية إعادة فتح المرافق الحيوية للدولة مثل الميناء وغيره.

إنني قلت: إنه كان غير قادر على أداء هذا الأمر، وذلك لأن عليه أن ينتظر حتى السنة القادمة. إن تنبؤ ذلك لا يتطلب درجة كبيرة من الوضوح.

أما جلسة التحكيم الثالثة والأخيرة حول موضوع برتشكو فقد عقدت في فيينا ما بين الثامن إلى السابع عشر من شباط (فبراير) ,١٩٩٩ وتمَّ الاستماع إلى ستة شهود من المجتمع المحلي مع سبعة عشر شاهداً قدمتهم جمهورية الصرب وستة عشر شاهداً قدمهم الاتحاد. وفي السادس عشر من شباط (فبراير) كنت هناك الشاهد الثاني عشر من شهود اتحاد البوسنة والهرسك. وقد عبرت عما يلي:

معبراً عن احترامي للوسيط أوين ولزملائه، أريد أن أذكر ما يلي: يجب أن تنتمي برتشكو لاتحاد البوسنة والهرسك. والسبب في ذلك:

– رفضنا في مؤتمر دايتون بكل تأكيد الحل الذي ستكون برتشكو بناءً عليه ضمن جمهورية الصرب. ووقعت في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٩٥ مرسوماً حول ترك محادثات السلام وعودة وفدنا إلى البوسنة بسبب قضية برتشكو. وأنه عندما طرح هذا التحكيم، تبعه توقيع اتفاق السلام العام. وهذه الحقيقة لا جدال فيها. وإنني أعتقد أنك إضافة للسيد أوين على علم بها من حيث شاركتم في اتفاقات دايتون.

– ويذكر الملحق حول برتشكو (الملحق ٢، النقطة ٥) بوضوح أن الوسيط سيرتكز على مبدأ الشرعية والمساواة حينما يتخذ القرار. وبذلك، لا يملك الوسيط سلطة مطلقة وحرة لاتخاذ القرار. فهو لا يستطيع العمل من منظور الفكر السياسي الذرائعي وتجاهل أسباب العدالة. فهو مقيّد بضرورة تمسكه بمبدأين يجب أن يكون قرارهما شرعياً وصائباً، وإلا فإنه سيفتقر إلى الانسجام مع ما جاء في مؤتمر دايتون.

– كانت برتشكو بلدة ذات أغلبية بوسنية وكرواتية قبل الحرب. ويُظهر التعداد السكاني لعام ١٩٩١ أن الصرب وغيرهم كانوا بنسبة ٢١٪ إلى ٧٩٪ مقارنة مع غير الصرب في برتشكو. وحتى أن نسبة الأملاك العقارية كانت كذلك. أما في بداية العدوان (من أيار (مايو) إلي حزيران (يونيو) ١٩٩٢) نفّذ الجيش الوطني اليوغسلافي السابق والتشكيلات شبه العسكرية الصربية إبادة جماعية ضد سكان بريشكو البوسنيين والكروات. حيث قُتل قسم منهم وشُرِّد معظمهم. وهكذا فإن الوضع الحالي صنعته وأدامته القوة وليس القانون.

– ونتيجة للحقائق الثابتة، لم تقل أية خطة سلام للبوسنة والهرسك، على كثرتها (خطة كوتيليرو، فانس–أوين، أوين–شتولتينبرغ، خطة دول مجموعة الاتصال الخمس العظمى، إلخ) بأن برتشكو يجب أن تعطي للقسم البوسني الواقع تحت السيطرة الصربية. في المقابل فإن جميع مشاريع السلام حتى الآن تقول بإرجاع برتشكو إلى أصحابها الحقيقيين– أهل برتشكو.

– تُظهر تصرّفات السلطات الصربية في أثناء الحرب وبعدها، في برتشكو خاصة وفي جمهورية صرب البوسنة عامة، بأن هذه السلطة لاتضمن الحد الأدنى من الحقوق والعدالة للسكان من غير الصرب، الذين هم بالفعل أكثرية سكانها قبل الحرب. هناك

عدالة وحرية وتسامحاً أكثر بكثير مع الأقليات في الاتحاد. هذا هو الوضع الراهن للشؤون بالنسبة إلى التقييم العام، حتى إن هذا الوضع سيكون أسوأ بكثير في المستقبل.

– عندما يقرِّر المحكِّم تجاهل الحقائق الثابتة أعلاه ويتخذ قرارات مجحفة، فإن ذلك سيثيرعدم الرضا بين معظم سكان البوسنة والهرسك ويوقف تطبيق اتفاقية دايتون للسلام.

وبسبب جميع ما ذكر أعلاه، وأسباب أخرى، التي أوضحها وفدنا خلال هذه الجلسة وجلستي التحكيم السابقتين، فإنني أعتبر أن قراركم هو: "أن برتشكو تابعة للاتحاد".

أعلن المحكِّم في قراره النهائي في ٥ آذار (مارس) أن برتشكو ليست تابعة لاتحاد البوسنة والهرسك ولا لجمهورية صربسكا، وإنها ستكون منطقة خاصة ضمن البوسنة والهرسك. وستدار المنطقة من قبل حكومة متعددة العرقيات، ستعمل إلى حين إلغائها (لم يحدد موقف نهائي)، تحت إشراف دولي.

وأثبتت توقعاتنا بأن دوديك لم يستطع إنجاز طلبات القرار التكميلي بتاريخ ١٥ آذار (مارس) ١٩٩٨، وأُثبتت بأنها صحيحة. ففي النقطتين ٦ و٧ من قراره النهائي ذكر المحكِّم أوين:

٦– في معرض الاستماع للحجج في فيينا عام ١٩٩٩ تمَّ التوصل إلى أن جمهورية صربسكا لم تنجز القرار التكميلي منذ ١٥ آذار ١٩٩٨ بخصوص الإثبات المطلوب. ويجب أن يعرض الدليل المقدَّم برنامجاً نشطاً وموثوقاً للتغير، وأن يحترم اتفاقية دايتون والقرارات التحكيمية السابقة له خلال عام ١٩٩٨. وعلى الرغم من النوايا الحسنة لرئيس وزراء صرب البوسنة ميلوراد دوديك إلا أن القيادة السياسية الصربية التي لها سيطرة محلية مباشرة على برتشكو، وبشكل خاص على الأفراد المرتبطين بأحزاب شرقية معارضة لدايتون مثل الحزب الديموقراطي الصربي والحزب القومي على المستوى المحلّي ومستوى الكيان، ساندت مستوى عالياً من العرقلة لاتفاقية دايتون ولأهداف المحكمة، خاصة حول المطامح إلى:

(أ) تشجيع المشردين واللاجئين وتسهيل عودتهم إلى بيوتهم.

(ب) المساعدة على تنمية المؤسسات الديموقراطية المتعددة العرقيات.

(جـ) التعاون مع نظام الإشراف الدولي.

٧- وجدت المحكمة أن المستوى المحلي من العوائق المحلية لن ينخفض ما دامت العناصر السياسية المعارضة لدايتون، خاصة الأحزاب مثل الحزب الديموقراطي الصربي والحزب القومي التي يقودها الرئيس الجديد المنتخب لصربيا نيكولا بوبلاشين، تَسمح لهم بالمحافظة على دور مسيطر في الجزء من برتشكو الواقع ضمن جمهورية صرب البوسنة. وبالفعل فلو أمكن للبنى ذات التوجهات المؤيدة لاتفاقية دايتون تنفيذ برامجها في برتشكو خلال العام الماضي، لما كان قرار المحكمة الحالي بطلب تغيير في الإدارة ضرورياً، ولكن عناد الحزبين الديموقراطي والقومي لم يترك أي خيار آخر أمام المحكمة.

وبعد يومين من إعلان القرار النهائي أجبت عن سؤالين لوكالة أنباء البوسنة والهرسك تعلق أحد السؤالين ببرتشكو:

وكالة أنباء البوسنة والهرسك : لقد انتهى صراع الطرفين حول برتشكو، وبالتكلم بروح رياضية وبمودة، وهو أمر غير سيئ بالنسبة إلى البوسنيين، يقول بعض الناس: إن هذا الفضل ينسب إليك أكثر من أي شخص آخر.

عزت بيغوفتش: قد تدهشك إجابتي، ولكنني أعتقد بصراحة أن ذاك الفضل يعود لبوبلاشين[١] وليس سراً أن العوامل الدولية رأت إمكانية ترك برتشكو للصرب لفترة طويلة، ليس لأن هذا قد يكون عادلاً، ولكن لأنه قد يكون أسهل لهم. وبناء على سمعته بأنه رجل من شيشلي، كما يعود ذلك لسلوكه في الأشهر الست الأخيرة، وبالتأكيد أقنعهم بوبلاشين بأن هذا الشيء مستحيلٌ.والشخص الآخر الذي يعود إليه الفضل في هذا القرار هو المحكِّم أوين الذي كانت له الشجاعة للاعتراف بهذه الحقيقة. وكانت شخصية بوبلاشين بالنسبة إليه مثيرة للجدل. وهذا ما كتبه أوين في قراره. ولذا أقدم الشكر لهما. وسنتكلم عن فضل بقيتنا في مناسبة أخرى.

---

(١) بوبلاشن هو رئيس جمهورية صربيا المعزول.

إن تطبيق القرار الأخير يتحرك ببطء وبصعوبة عظيمة. وعلى أية حال، فإن جزأه الأضعف- نزع سلاح الأقليم- انتهى بنجاح دون أي حادث. وكانت آخر وحدات جيش الاتحاد التي تركت منطقة الإقليم في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩، وتلك العائدة لجمهورية صرب البوسنة في ٦ آذار (مارس) ٢٠٠٠.

جرى تطبيق التحكيم الأهم في اتفاقية دايتون، عودة اللاجئين، ببطء. ولم تكن العودة بطيئة فقط، بل كانت غير متساوية أيضاً، خاصة في البلدات الواقعة تحت السيطرة الصربية والكرواتية. وبما أنّ يبلافيتش أنته، العضو الكرواتي في رئاسة البوسنة والهرسك مساند شفوياً هذه العودة، فإنني أردت أن أختبر إخلاص هذه الكلمات عملياً.

خلال منتصف شهر شباط (فبراير) ١٩٩٩، بدأت مبادرة لعودة ١٠٠٠ عائلة من المهاجرين البوسنيين والكرواتيين إلى موستار وسراييفو. وكالمعتاد، قال يبلافيتش "لاتوجد مشكلة"، وفي جلسة رئاسة البوسنة والهرسك التي عقدت في يوم الثلاثاء ٢٣ شباط (فبراير)، قبلت الخطة، ولكن ألحق بها ملحق كذلك، وهكذا، شملت الصرب والعودة بشكل أولي إلى بلدات بانيا لوكا وموستار وسراييفو.

وبعد يومين، نظمت رئاسة البوسنة والهرسك عشاء على شرف أمين عام حلف شمال الأطلسي في أوربة خافيير سولانا، والجنرال ويسلي كلارك، اللذين كانا يزوران البوسنة والهرسك في حينه. وحضر المأدبة كذلك المندوب السامي فيستندورب وقائد قوات المراقبة في البوسنة والهرسك الجنرال مايغز. وكانوا هم أهم الناس الذين تقصدهم إذا أردت فعل شيء بخصوص عودة اللاجيئين.

وعلى العشاء أثار الجنرال ويسلي كلارك مسألة عودة اللاجيئين والمبادرة الرئاسية. وقال بأنهم -كان يقصد الحضور الأجانب- كانوا مستعدين لتقديم المساندة السياسية والعسكرية والمالية للقيام بالعمل. وأشارت كلمة (العسكرية)

بهذا السياق إلى سلامة أولئك العائدين. وكانت العودة إلى سرايفو وموستار وبانيالوكا، هذه هي الوجهات الأكبر قسوةً وأهميةً للعائدين. وأنه يجب أن تكون هذه المدن الثلاث مثالاً يحتذى، وتقدم خطوة للأمام. وكانت المواصفة كذلك وضع خطط مفصلة للعودة (سميتها أدلة هاتف) تحتوي على أسماء الراغبين بالعودة، وعناوينهم الحالية والعناوين التي أرادوا العودة إليها، وحالة السكن الذي سيعودون إليه، والمكان الذي سينتقل إليه الساكن الحالي (إذا كانت الملكية الحالية مشغولة مؤقتاً)، إلخ. ومن الممكن تنسيق القوائم وتبادلها. وقد يتم تعيين المنسقين وسيحلون المشاكل التي ستظهر حتماً مع كل من السلطات المحلية وممثلي المجتمع الدولي.

وبعد كل ما قد حصل لم أكن متفائلاً على الإطلاق. كنت قلقاً لأن الشعارات الغوغائية ظهرت على الفور: لا نريد أية أعداد، نريد أن يعود كل واحد إلى ممتلكاته". أو "نريد عمل خطة عامة للعودة إلى البوسنة والهرسك. وبالطبع لم يكن وضع خطة كهذه أبداً، ويأتي هذا النوع من العروض عادةً من أناس معروفين بأنهم يفعلون كل شيء بحيث يتمكن كل واحد من البقاء حيث هو، وفي أغلب الأحيان في ملك شخص آخر. "وكل شخص على أرضه"، شعار جميل، ولكنه يصبح في بعض الحالات عذراً لكي لا يتم عمل أي شيء".

إن عودة الناس إلى بيوتهم، بالنسبة إلى أولئك الذين يعملون عليه، عمل صعب. وفي العادة، سواء بحق أو بغير حق، هناك أشخاص يعيشون في منازل أولئك الذين سيعودون؛ لاجئ أو جندي أو شخص ذو سلطة يحتله. فبالنسبة للاثنين الأولين لاجئ أو جندي، لهما حق أخلاقي لا يمكن لأحد إغفاله، وعليك أن تعثر لهما على بيت آخر ملائم، والرسميون في العادة لهم ارتبطات قوية ويصارعون بكل قوتهم. ولهم جميعاً في العادة زوجات وأطفال.

وخلال عام ١٩٩٩ كله، تواصلت الأحاديث حول عودة "كل واحد إلى بيته"، خاصة إلى المدن الثلاث الكبرى، حيث قيل الكثير، وفُعل القليل. وكان العائدون إلى موستار الغربية وبانيالوكا من القلة بحيث يمكن تجاهلهم. وبناء على بيانات أعدتها وكالة الأمم المتحدة للاجئين، عادت أقلية مكونة من ٢٦٨٣ عائلة إلى أقليم (كانتون) سراييفو، و٩٨ إلى القسم الغربي من بلدية موستار، و١٣٣ إلى منطقة بلدية بانيالوكا. عملية التطهير العرقي في الفترة من عام ١٩٩٢-١٩٩٥ كانت سريعة، والعملية المعاكسة لها- عودة الناس إلى بيوتهم- كانت بطيئة جداً.

في يوم السبت ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٩٩، نشر البيان حول اتحاد الحزبين اللذين لهما سمة ديمقراطية اشتراكية في اسميهما: الحزب الديموقراطي الاشتراكي في سراييفو وحزب الديموقراطيين الاشتراكيين في توزلا. ساند الأجانب توحيد الديموقراطيين- الاشتراكيين بكل قوتهم سراً وعلانية.

وفي حديثي الأسبوعي المنتظم لصحيفة آفاز من سراييفو، أجبت عن سؤال طرحه أحد القراء حول كيفية تأثير التوحيد على البوسنة والهرسك (٤ آذار (مارس) ١٩٩٩).

كانت إجابتي: قد يكون هناك تأثير جيد، أوتأثير سيئ، أو لاتأثير على الإطلاق. وهذا يعتمد على إرادتهم وعلى كيفية ومقدار ما سيفعلونه في جمهورية صرب البوسنة وفي ذاك القسم من الاتحاد الذي نقول في العادة بأنه تحت سيطرة الجمعية الديموقراطية الكرواتية. وما سأقوله لك هو رأي مخلص: إذا صاروا قوة سياسية مناسبة هناك، وإذا حصلوا على عدد معتبر من الأصوات من الجسم الصربي من جمهورية صرب البوسنة، ومن القسم الكرواتي حيث يسود مجلس الدفاع الكرواتي الآن. عندها سيخلق هذا كمية جديدة كاملة في الحياة البوسنة والهرسك. وهذا يعني بأنهم على وشك عبور "الروبيكون" وإذا لم يفعلوا هذا، وإذا بقوا على هذا الجانب من "النهر" فسيكون الأمر تافهاً جداً، محاولة صريحة لسلب السلطة من الشعب البوسني تحت ستار

الديموقراطية الاشتراكية، لأنه في تلك الحالة يأتي كل شيء تحت سؤال: هل الشعب البوسني (وأشدد- الشعب البوسني لأن هذا كل ما في الأمر) سيقوده علي حارس أو أدهم أو صفاء غداً؟ أم هل سيكون زلانكو ورفاقه في المستقبل البعيد؟ وسيكون ثمن هذا الأسلوب بالتأكيد نوعاً من النسيان للتحرير الوطني للشعب البوسني. ومع ذلك، إذا نجح هذا في الجسم الصربي والكرواتي، وهو ما أتمناه لهم بإخلاص، لأننا يجب أن ندعمهم لصالح البوسنة، وعندما يأتي الأمر إلى حد النسيان، فإننا سنتأكد من أنه لن يكون هناك أي من ذلك.

حقّق الديموقراطيون الاشتراكيون في الانتخابات البلدية، في نيسان (أبريل) ٢٠٠٠، نجاحاً باهراً بين الشعب البوسني وفشلاً ذريعاً بين الكروات والصرب. وخسر حزب العمل الديموقراطي بلديات كثيرة كانت تحت سيطرته خلال السنوات العشر الماضية، أما الأحزاب الوطنية الصربية والكرواتية، وهما الحزب الديموقراطي الصربي وحزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية، فقد عززت مواقعها.

ولعدم القدرة على إنجاز شيء مهم بين الصرب والكروات، فإن المعارضة ووسائل إعلامها وجهت انتباهها وهجومها نحو الجسم البوسني وحزب العمل الديموقراطي. وفي دعايتهم كان حزب العمل الديموقراطي شريكاً في إثم الحرب وكل ما جرّته الحرب. ولم يعد أي أحد يذكر تجمع الثمانية للاتحاد الاشتراكي الصربي (أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧) الذي بدأ فيه التفكيك الحقيقي ليوغسلافية، وتجنّب كلمة (العدوان) بعناية. ونُسيت بعض أهم الحقائق التاريخية ولم تقل لأنها لم تتلاءم مع مخطط الصراع على السلطة. لذلك قررت استخدام عيد الاستقلال التالي وسيلة لمواجهة هذه المحاولة للإرباك وإحداث النسيان.

خطاب في حفل عيد الاستقلال

سراييفو، مبنى رئاسة البوسنة والهرسك

١ آذار (مارس) ١٩٩٩

أيها السيدات والسادة المحترمون، أصدقائي الأعزاء،

طلبت منكم أن تنضموا إلينا للاحتفال بعيدنا العظيم - عيد استقلال البوسنة والهرسك. وقبل أن أقول بضع كلمات عن عظمة هذا اليوم لسكان البوسنة والهرسك، دعوني أحيِّي الحضور. واحترامي الخاص لممثلي الجماعات الدينية، حيث أرى بين الحضور الرئيس الدكتور تسيرتس، والأسقف السيد سودار، وفلاديكا نيكولاي والسيد فينشي من الجماعة اليهودية، والجليكانيونا المبجلون وعلى رأسهم الأب بيتار، إلخ. وكذلك أريد أن أرحب بأصدقائنا من العالم، وبممثلي سفارات البلدان الصديقة، وبممثلي هيئات دولية أخرى، وبمنظمات حكومية وغير حكومية موجودة هنا في مهمات سلام، وبأعضاء مجلس الوزراء والحكومة الاتحادية، وبمسؤولي الإقليم الأعلى، وبممثلي الأحزاب السياسية وبالجميع لأنكم تشاركوننا فرح هذا اليوم.

إن هذا الاحتفال البسيط هو في ذكرى استفتاء حصل في مثل هذا اليوم منذ سبع سنين، عندما صوَّت حوالي ثلثي سكان جمهورية البوسنة والهرسك الاشتراكية في حينه لصالح استقلال البلد.

وكان شعار الاستفتاء: "من أجل بوسنة وهرسك موحدة ومستقلة وذات سيادة". وبقي الشعار المبدأ الدليل لجميع القوى التي دافعت عن استقلال البلد وبقي شعاراً خلال الفترة الصعبة للغاية حتى هذا اليوم.

قررت حكومة يوغسلافية التي لم تكن كاملة بالفعل حينها والجيش اليوغسلافي الذي كان موجوداً والوحدات البرلمانية للحزب الديموقراطي الصربي تجاهل إرادة الشعب ورفضت القرار.

في ٦ نيسان (أبريل) ١٩٩٣،اعترفت دول الاتحاد الأوربي باستقلال البوسنة والهرسك. وفي ٢٣ أيار (مايو) قَبِلت الأمم المتحدة البوسنة وجيشها ووحدات

الحزب الديموقراطي الصربي البرلمانية هذا القرار الذي أجمع عليه العالم. إلا أن حكومة يوغوسلافية غير المكتملة وجيشها تجاهلت هذا القرار الذي اتُّخِذ بالإجماع.

وبدأت الحرب العدوانية بالفعل ضدَّ أصغر عضو في الأمم المتحدة، وكانت الحرب التي حدثت طويلة وشرسة. ونتج عنها عدد كبير من الضحايا البشرية ودمار غير مرئي لقرى وبلدات ومصانع ومعالم تاريخية وثقافية.

إننا نسمي هذه الحرب، حرباً عدوانية، بكل ما في الكلمة من معنى، لأنها ضدٌّ دولة معترف بها دولياً، ولأنها هدفت إلى حجب إرادة سكان البوسنة والهرسك بالقوة.

وبحق اعتبرنا أنفسنا المدافعين القانونيين والشرعيين عن البوسنة والهرسك، لأننا عملنا في تلك الأيام العصيبة وفقاً لإرادة أكثرية هؤلاء السكان وانسجاماً مع أحكام القانون الدولي. تحدثت بما يكفي عن الماضي، الذي نعود إليه في هذه المناسبات بالقدر الذي ينبغي علينا فعله.

تحدّث الكثيرون عن الحقيقة والمصالحة كخطوة أخرى باتجاه المستقبل ". الحقيقة والمصالحة نعم، ولكن العدالة أيضاً. فبعض الناس ينسون هذه العدالة بقصد أو بغير قصد.وهذا هو سبب أننا سنساند وبقوة عمل محكمة لاهاي، بغض النظر عن المشترك في هذه المسألة، وفيما إذا كنّا سننسى جرائم الحرب.

دُفِع في هذه الحرب ثمن باهظ، انتهت قبل ثلاث سنوات ونيِّف باتفاقية سلام في دايتون. وأنشئ تنظيم داخلي جديد لدولة البوسنة. ووفقاً للكثيرين، فهي لا تعمل لأن حلول دايتون لم تكن جيدة. وكان من الممكن لاتفاقية دايتون أن تكون جيدة، لو أنها طبقت بشكل متماسك. أوقِفت الحرب لكنها استمرَّت بوسائل أخرى، وهذا النوع من الحرب يسمى " الحجب" وهو لسوء الحظ، يعمل في الكثير من الأماكن الحساسة في الاتحاد والدولة.

والحل الوحيد لهذا هو تصميمنا وتصميم العالم على تطبيق متماسك ومتكامل لما تمَّ الاتفاق والتوقيع عليه في دايتون. وهذا التصميم مفقود أو إنه ليس هناك ما يكفي

منه. وإنني أعترف بأنه في داخل كل واحد هناك أقوال لكثير من الأفعال. وإن إنجاز قرارات مؤتمر مدريد اختبار جيد. وعلى أية حال، هناك مؤشرات على التردد والتعب. وأتمنى أن يتغير هذا الوضع في المستقبل. وباسمي وباسم جميع من أمثلهم، اليوم ومن هنا، فإنني أرغب في تأكيد استعدادنا لاستثمار جهود جديدة في تعزيز سلام وأمن البلد، وإعادة اللاجئين، وبناء اقتصاد سوق مفتوح، ومحاربة الفساد والجريمة المنظمة، وفي تحويل السلطة القضائية. وباختصار بناء بوسنة وهرسك موحدة وديمقراطية ومزدهرة، هذا البلد يعمل في مصلحة جميع سكانه بغض النظر عن ديانتهم أو قوميتهم أو معتقداتهم السياسية. وسيكون جهدنا هذا أكثر نجاحاً إذا تمَّ العثور على حل عادل لبريشكو، وإذا اعترف بدستورية القوميات الثلاث على أرض البوسنة والهرسك. وإذا تواصلت المساندة السياسية والمادية للبوسنة والهرسك، بوصفه بلداً متعدد العرقيات مؤلفاً من كيانين وثلاث قوميات متساوية كما آمل.

وبهذه الأفكار والأمنيات، أشكر حضوركم هذا الاحتفال البسيط، وبالطبع، أقدم لكم التهنئة بمناسبة يومنا التاريخي هذا. وشكراً لكم.

لا سلام في البلقان أبداً! في هذه المرة قرر نظام بلغراد إيجاد (حل نهائي) لمسألة كوسوفو. ويوماً بعد يوم، تصاعد التطهير العرقي للألبان في كوسوفو.

وكنس التطهير العرقي كل شيء أمامه بقسوة وشدة، وترك ما يزيد عن مليون رجل وأمرأة وطفل بيوتهم وتوجهوا إلى مكدونية وألبانية والجبل الأسود. وجاء حوالي ٢٠,٠٠٠ إلى البوسنة، ذهب عدة آلاف إلى بلدان غربية. ورداً على ذلك، بدأ حلف شمال الأطلسي في ٢٣ آذار (مارس) حملة جوية ضد أهداف في يوغسلافية رداً على ذلك. وانتشرت الأخبار عن مذابح جماعية ضد المدنيين الألبان، ولكن أيضاً عن تردد الحلفاء الغربيين حول مواصلة الحملات الجوية. وفي ٧ نيسان (أبريل) أرسلت الرسالة التالية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي الذي كان يعقدا اجتماعاً في جنيف عبَّرت فيها عن خالص احترامي وشكري للحضور ممثلين وأعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي، وخاصة أعضاء مجموعة

الاتصال. أريد أن أطلب من أعضاء المؤتمر الإسلامي للطوارئ مساعدة سكان كوسوفو الذين يعيشون في ظروف صعبة.

أولاً، اقترح أن تدعم المنظمة بلا تردد الأعمال الجارية لحلف شمال الأطلسي، إذ إن حوالي مليون ألباني شرِّدوا من بيوتهم. ولسوء الحظ قد تتحوّل ألبانية إلى واحدة من أكبر الكوارث البشرية بعد الحرب العالمية الثانية. وهذا التشريد الذي لم يُشهد له مثيل لسكان مدنيين يمكن أن يمر بعقوبة أو من دون عقوبة، والأمر الأكثر أهمية هو أن يكون هناك أمل في عودتهم، أو ألا يكون. فإذا ما أوقف عمل حلف شمال الأطلسي، فإن الجريمة ستبقى من دون عقاب. ولن يعود المشردون إلى قراهم ومدنهم أبداً.

ثانياً، أطلب من الدول الأعضاء في المؤتمر الاسلامي أن تقدّم، دون تردد، أي نوع من المساعدة للاجئي كوسوفو، الخيام خاصّة، والملابس والأدوية، وأن تنشئ لجنة لتنسيق المساعدة لهذه الغاية. وإنني أشكر المملكة العربية السعودية وتركية اللتين كانتا نموذجاً في هذا المجال.

ثالثاً، أطلب منكم أيضاً إرسال كلمات تشجيع ومساندة للأقلية القومية البشناقية في منطقة السنجاق من خلال وثيقة تقدمها هذه اللجنة العليا.

أبعث إليكم بسلامي الأخوي معبراً عن عميق احترامي وعن تمنياتي بنجاح أعمال اجتماع اليوم للمنظمة.

لم يكن هناك إجماع في رئاسة البوسنة والهرسك تجاه عمل حلف شمال الأطلسي. وكان هذا واضحاً في مناسبتين. وأراد العضو الصربي في رئاسة البوسنة والهرسك في مناسبتين طرح مسألة استخدام قاعدة البوسنة والهرسك الجوية في البرنامج اليومي للهجمات الجوية على يوغوسلافية، وطلبت من قائد القوات الدولية دليلاً على استخدام قاعدة البوسنة والهرسك لهذه الأغراض. ثم قلت بأنني لم أكن على استعداد لمناقشة افتراضات، وإن لحلف شمال الأطلسي الحق في القيام بإعمال الدورية في سماء البوسنة والهرسك بناء على قرار الأمم المتحدة بخصوص منطقة الحظر الجوي الساري المفعول منذ عام ١٩٩٣. والدليل

على ضرورة هذا هو إسقاط طائرتي الميج اليوغسلافيتين اللتين كانتا قد اخترقتا المجال الجوي البوسني بالقرب من توزلا.

تَوَقَّف قصف صربيا في ١٠ حزيران (يونيو)، بعد قبول ميلوشيفيتش انسحاب الجيش اليوغسلافي من كوسوفو.

بأخذ الأوضاع المشوشة في البلقان بعين الاعتبار، كان من الواضح جداً أن إدخال البوسنة والهرسك في دوائر الوحدة الأوربية هو السبيل الوحيد الذي يمكنه ضمان أمنها على المدى الطويل. ففي ٢٧ نيسان ١٩٩٩ سافر وفدنا إلى ستراسبورغ لحضور اجتماع المجلس الأوربي. وكانت البوسنة والهرسك قد حاولتا طيلة السنوات الثلاث التي سبقت هذا الاجتماع أن تصبحا دولة عضواً في هذه المجموعة التي كانت تشكل نوعاً من جماعة ضغط لدخول الشراكة من أجل السلام ثم فيما بعد الدخول في الاتحاد الأوربي. وكان خياري الأكبر هو سياسة أوروبية تجاه البوسنة على الرغم من جميع الإغراءات بعكس ذلك، وهذا مابيّنته في خطابي الذي دعاه الصحفيون "خطاباً سرياً" (كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨). وذهبنا إلى ستراسبورغ لإقناعهم بتسريع العملية. وألقيت خطابي أمام قاعة مليئة بالكامل بأعضاء المجلس.

يجب عليَّ أن أعترف بأن خطابي كان مفرطاً في التفاؤل. وبدا كأنه صورة بلا ظلال، وكان يتماشى مع المناسبة. إذ لم أذهب الى أوربة، لأقف أمام ٦٠٠ مشارك حضروا من ١٩ بلداً ماعدا الصحفيين وجمهور المستمعين في الرواق الفسيح، لأطالبهم بقبولنا، ولأخبرهم بأن أوضاعنا سيئة. حيث سيقوم آخرون بذلك. فمن بين الحضور كثيرون من الأعداء يعنيهم والكثير ممن لا يعنيهم الأمر إطلاقاً (وأجد الكثير ممن يثير الاشمئزاز)، ممن يتكلمون عن المشاكل في البوسنة والهرسك. وكان واجبي تحسين الصورة قليلاً وأن أظهر بعض الأمل والمخرج الذي يمكنني الإيمان به بصدق. ويبدو وكأنني حققت ذلك جزئياً. ففي

اجتماع مجلس الوزراء (بحضور ما يزيد على ١٠٠ من المسؤولين)، ألقى ثلاثة من الرئاسة خطابات تمهيدية ثم أجابوا عن الأسئلة. وسألني ممثلو سلوفينيا وإيطالية وقبرص. وتركّزت أسئلتهم على عودة اللاجئين (الشروط والفرص) وحقوق الإنسان في البوسنة والهرسك (نظراً للتقرير غير المرضي حول هذا) وتأثير الضربات الجوية لحلف شمال الأطلسي على الأوضاع في البوسنة والهرسك. وأجبت بأنه لابدّ من توفير العديد من الظروف المسبقة لعودة اللاجئين (الأمن، السكن، الأعمال، برامج التعليم في المدارس)، ولكن كان هناك أمران رئيسيان: تنظيم قوة الشرطة المتعددة العرقيات، عمل أنجز نصفه، والمساواة بين السكان في جميع أجزاء البوسنة والهرسك. وفيما يخص الأمر الثاني، قلت: إننا قد بدأنا إجراء أمام المحكمة الدستورية للبوسنة والهرسك (طالبنا بدائرة انتخابية للقوميات الثلاث جميعها في جميع أجزاء البوسنة والهرسك). وأوضحت بأنه قد لا يعود أحد (وليس من المحتمل أن يعودوا) إذا كانوا سيتحولون إلى مواطنين من الدرجة الثانية. وانعكس هذا الوضع على السكن والعمل والتعليم. وبخصوص حقوق الإنسان حيث كنت غاضباً من التقرير، طالبت بأن يقوم مجلس صحيفتي أوربة بعمل تقارير محددة وأن يفحصوا المعلومات والبيانات التي يضعونها فيها. وقلت بأن وضع حقوق الإنسان في البوسنة والهرسك كان مختلفاً جداً، وأنها اختلفت من بلدة إلى أخرى، حيث تكون في بلدة مثل ما هو الوضع في النمسا وفي أخرى مثلما هو في ألبانيا تحت حكم أنور خوجا، وأنه ليس من الممكن إعطاء أي حكم عام. والتقارير العامة التي توضع الآن، تساعد فقط على إخفاء المنتهكين الوحشيين لحقوق الإنسان ضمن ذلك المعدل المتوسط". فمن المستحيل خلط البيانات عن حقوق الإنسان في سراييفو وتلك في فوتشا واشتقاق متوسط منها. ولكن ذلك ما كان يحصل، فالأوضاع المحددة في سراييفو وتوزلا وزينتسا وبانيالوكا

وبيهاتش وبيليينا وفيشغراد... إلخ. يجب أن توصف. وأعتقد بأن أعضاء من اللجنة فهموني جيداً. وكانت إجابتي عن السؤال الثالث بأنه كان هناك اختلافات في الآراء حول ضرورة عمل حلف شمال الأطلسي، ولكن كان هناك اتفاق مطلق بين جميع أعضاء الرئاسة الثلاثة. وأن معظم مواطني البوسنة والهرسك يرون إبقاء بلدنا بعيداً عن الحرب. ولجميعنا، بالطبع، أسباباً مختلفة لمواقفنا، ولكن النتيجة كانت نفسها وكان ذلك جيداً.

عقدنا اجتماعات منفصلة مع الأمين العام للمجلس الأوربي، دانييل تارشيز، ورئيس الجمعية البرلمانية للمجلس الأوربي، اللورد جونستون، وهو صديق عظيم للبوسنة. وحصلت المناقشة الأكثر مرارة، على أية حال، خلال اجتماع مع مراسلي المجلس الأوربي عن حقوق الإنسان في البوسنة والهرسك. فقد وجدتُ عدداً من الأخطاء في تقاريرهم، خاصة المتعلقة بسراييفو. ولست أدري من أين حصلوا على هذه المعلومات، ولكن الصحفيين ذكروا أن السكان كانوا يغادرون المدينة بسبب الحالة السيئة لحقوق الإنسان، (والناس الذين غادروا المدينة كانوا أكثر من الذين عادوا إليها، حسب قولهم). وقلت: إن هذا كان مجرد كذبة، وسألتهم إن كانوا عرفوا ما يلي: "في سراييفو، التي كانت وما زالت مدينة ذات أغلبية مسلمة منذ نشأتها، كان هناك مركز كاثوليكي ضخم ومدرسة ثانوية وصالة ألعاب قوى ومدرسة طبية، وكانت هناك جامعتان كاثوليكيتان وأن أكبر جمعية ثقافية كرواتية نابريداك كانت نشطة، وأن الأحزاب السياسية الكرواتية كانت تعمل بحرية وأن ما يزيد عن ستين ألف صربي وكرواتي كانوا يعيشون في سراييفو حينها، وأن تلفاز البوسنة والهرسك لم يكن وسيلة إعلام لحزب العمل الديموقراطي (واقترحت أن يسألوا عن معلومات حول صحفيي ومحرري تلفاز البوسنة والهرسك)، وأن وفدنا في المجلس الأوربي لم يكن وفد حزب العمل الديموقراطي؛ لأن عضواً واحداً من

أعضائه الخمسة كان من الحزب وهو بتشاكتشتش، ومن بين الأربعة المتبقين كان هناك صربيان وكرواتي واحد، إلخ. وأعتقد بأنهم سمعوا هذا للمرة الأولى، ومع ذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم مراسلين عن الأوضاع في البوسنة والهرسك. وأنهيتُ بهذه العبارة: إذا كانت الأوضاع في كل مكان كما هي عليه في سراييفو، لكان المجلس الأوربي قبل البوسنة والهرسك على الفور بعد اتفاقية دايتون، ولكن بما عليه الأوضاع الحالية، من يدري كم علينا أن ننتظر ذلك. واقترحت أن يجيبوا عن هذا السؤال بدقة.

ألقى جيفكو راديشتش، العضو الصربي في الرئاسة عند نهاية النهار وفي اجتماع اللجنة الوزارية الذي تحدَّث فيه عن البوسنة فقط.. الأمر الذي جعلني أقول "آمين" فقط. وفي اجتماع سابق للجنة العسكرية، وبعد خطاب مماثل، قلت هذا بصوت مرتفع. فضحك الأمين العام لحلف شمال الأطلسي، خافيير سولانا، وقائد الحلف في أوربة الجنرال ويسلي كلارك، اللذان حضرا الاجتماع، بحماسة لقولي "آمين". وهذه المرة لم أقل "آمين" (حدثت نفسي فقط)، لكن كان لي إيجاز قصير بعذ ذلك قلت فيه: إنني وافقت مع السيد راديشتش بالكامل إلى حد أنني وددت التوقيع على كل كلمة كان قد قالها للتو.

وبعد الاجتماع جاءني المندوب الإيطالي وقال: "أعتقد أنك قريب جداً من غايتك، أفعل شيئاً هاماً وإيجابياً بأسرع وقت ممكن، ساعدنا بحيث يمكننا أن نساعدك". وهكذا انتهى هذا اليوم الحيوي جداً والمنهك.

في شهر أيار (مايو)، بادر الدكتور حارس سيلادجتش بفكرة تغيير اتفاقية دايتون. وأثارت هذه الفكرة اهتماماً عظيماً بين العامة. فمثلاً أوجدت مخيمات مؤيدة للاتفاقية وأخرى معادية لها. أما الذين كانوا معادين لها فكانت دعواهم أن المبادرة كانت غير قانونية، وأنها كانت تعني تحطيم اتفاقية دايتون، وهذا

هراء. والحقيقة على العكس من ذلـك، إذ احتـوت الفكـرة أساسـاً قانونيـاً في الاتفاقية، ففي أهم أقسامها- الملحق ٤، أي دستور البوسنة والهرسك- زرعت آليـة للتغييرات. حيـث يمكـن تغيير دستور البوسـنة والهرسـك بقـرارات مـن البرلمان، وأعتقد بأن هذا ما سيحصل في المستقبل.

إن الطلب قانوني، لكن هل هو واقعي؟ فالحصول علـى موافقـة أغلبيـة ثلثـي أعضاء مجلس النواب وإجماع مجلس الشعب ضروري من أجـل تغيير الدستور. وبوجود العلاقات القائمة بين القوى السياسـية المختلفـة، أعتقـد بـأن هـذا غـير واقعي تماماً. وذاك هو السبب في هذه اللحظة، في أن الاستخدام الوحيد للطاقـة هو تحقيق بعض المسائل الهامة جداً للبوسنة والهرسك، كتطبيـق قـرارات مؤتمـر مدريد، خاصة تلك المتعلقة بعـودة اللاجئـين، وشـرطة حـدود، وتحويـل مجلـس الوزراء. ثم علينا أن ننظر في إنجاز عقد حول ازدواج الجنسـية ووسـائل الملكيـة ونظام السوق مع كرواتية، ولإنجاز الهبات الموعودة من مؤتمري الهبـات الثـالث والرابع لمواطنينا خارج البوسنة والهرسك للحصـول علـى جـوازات سـفرهـم في الوقـت المحـدد، وبكلمـة، لبعـض الأشـياء الأكـثر دنيويـة وواقعيــة. وفي هــذه اللحظة، إن أفضل طريقة لتعديل اتفاقية دايتون هي تطبيق أفضـل جوانبهـا قـدر المستطاع. وإن فتح مسائل أخـرى لا أمـل لهـا الآن، أمـر جيـد لأولئـك الذيـن يستبدلون العمل الشاق في تحقيق الأشياء الممكنة بالجدال حول المسـتحيل الـذي لا جدوى منه. وأحد الأمثلة الجيدة علـى هـذا هـو الاجتمـاع الـذي عقـد بـين رئيـس وزراء صـرب البوسـنة، ميلوراد دوديـك وبـين غيلبـارد في ٩ حزيــران (يونيو). فبدلاً من الحديث عن ١٠,٠٠٠ لاجئ بوسني وكرواتـي حيـث وعـد بإعادتهم إلى جمهورية صرب البوسنة تحول دوديك بدهاء لمناقشة جدليـة حـول فكرة سيلادجتش. وسجل دوديك نقطتين: قدَّم نفسه مدافعاً عن اتفاقية دايتون والمصالح الصربية وتجنب مسألة عـودة اللاجئـين. فلمـاذا لـم يفعـل هـذا عندمـا سنحت له الفرصة؟

بدأ الصيف عاصفاً في البوسنة. فأولاً، نشر نائب المندوب السامي جاك كلاين مقالة صحفية عن الفساد في البوسنة والهرسك قال فيها: إن الفساد كان ضارباً جذوره في ثقافة هذا البلد، معطياً، حسب اعتقادي، أرقاماً مستحيلة عن الفساد في إقليم كانتون توزلا. ثم اشتكى وزير الداخلية في إقليم سراييفو من عدم كفاءة النائبين العامين والقضاة بخصوص مسألة اضطهاد المجرمين. وفي نهاية هذا كله ترك الدكتور سيلادجتش ليتساءل عن شرعية جمهورية صرب البوسنة؛ لأنها لا تعمل على تطبيق اتفاقية سلام دايتون.

يمكن رؤية أوجه المناخ العام من مقابلة أجرتها معي مجلة آفاز في سراييفو في تلك الأيام (٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٩٩):

أفاز: كانت هناك بعض المجادلات العنيفة في مجلتنا بين السيد كلاين وبين سيادتكم عن الفساد في البوسنة والهرسك، ثم تحدث السفير الأمريكي كاوزلاريك، ومن قبله السيد سكلار عن الموضوع ذاته، وكانت ردود أفعالكم، يمكن القول غير متوقعة، لإنكم كنتم تتحدثون دائماً عن الأمريكان كأكبر حلفائنا.

عزت بيغوفتش: لم أقل أمريكان، بل قلت: الولايات المتحدة الأمريكية، فأمريكا حليفة وصديقة لنا، وأنا مؤمن بهذا بقوة. ولا أعرف عن الأمريكيين. فهناك أناس يحبوننا وهناك من لا يحبوننا، ولكن الأكثرية لا تحبنا ولا تكرهنا، فهم يقومون بأعمالهم غير آبهين بما يجري في العالم بعيداً عنهم.

أفاز: على أية حال، الشُح في ردودكم لم يكن متوقعاً بعض الشيء. خاصة تلك التي قيلت للسيد سكلار: "اتركونا وشأننا". والآن هناك ردكم على السيد كلاين. فبعض الناس يعتقدون بأنكم فقدتم أعصابكم، وأن ذلك قد يكون مضراً بالعلاقات بين البوسنة والهرسك وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

عزت بيغوفتش: في الحديث عن السيد سكلار، كانت الجملة كاملة: "أخبرونا ما تعرفون، وإلا انزلوا عن رقابنا". وذلك مختلف جداً. إنني لم أفقد أعصابي. والحقيقة هي عكس ذلك، كانت كلماتي معبِّرة، وإذا أمكنني القول، قلتها عن قصد.

أفاز: لماذا؟

عزت بيغوفتش: هناك العديد من الأسباب وراء ذلك؛ الأول، جعلهم أكثر تحديداً، والثاني ليس لديّ ما أخشى من افتضاحه، وهكذا أستطيع أن أدفع ثمن هذا الترف. إنني أعيش في شقة من غرفتين وهي ملك لرئاسة البوسنة والهرسك، دون خدم أو بذخ. ولا أمتلك أي شيء سوى ممتلكات بدائية. وليس لأولادي ممتلكات كذلك. فهم لايملكون سوى شقق بسيطة وأثاث متواضع وسيارات غير فارهة. لكن هذا ما يمتلكه نصف المواطنين في سراييفو. وفي عائلة بيغوفتش، بما فيهم أولادي، هناك الكثير من الناس المتعلمين والأكفياء. وعلى أية حال لا أحد منهم وزير أو رئيس بلدية أو سفير. وهذا يعطيني الحق أن أسمي كل شيء باسمه الصحيح.

أفاز: على أية حال، هناك إشاعة بأن ابنك، بَكر، يتمتّع بنفوذ كبير في سراييفو؟

عزت بيغوفتش: إنها ليست إشاعة، بل هي ما تكتبه مجلة محلية، طيلة الوقت، من عدد إلى عدد. فهذا موضوعهم المفضل، لكن الناس في سراييفو يعرفون أن هذا غير صحيح. بكر لايتمتع بنفوذ كبير، ولكن بكراً رجلٌ بحق ولا يتبع أحداً، والرجل الفعلي يتمتع بالقوة. فهو يقول ويفعل ما يريد وبعض الناس لا يحبون ذلك.

أفاز: نعم، ولكن هذا ليس من دون تبعات. فهناك بعض التضمينات في أن الأجانب يأخذون هذه القصص وكأنها حقيقية.

عزت بيغوفتش: نعم، بعض الأجانب، أعرف ذلك، لكن ماذا يمكنك أن تفعل؟ قد يكون من الأفضل أن يمحِّصوا الأمور. فإيمانهم بالأكاذيب يضر بأولئك الذين يثقون بهم.

أفاز: إن موضوع الفساد هذا يهز حزب العمل الديموقراطي بخطورة، ويقول البعض بأنه يدمره أيضاً. هل سمعتم بمثل هذه العبارات، وما رد فعلكم عليها؟

عزت بيغوفتش: دعني أذكرك: نحن (حزب العمل الديموقراطي) بدأنا هذا الموضوع. فهذا الجدال يمكنه فقط أن يجعل الحزب قوياً. فالصمتُ أسوأ الأشياء. فالضفادع فقط تفرِّخ في المستنقعات. وكل ما يحدث يتضمن أن الحزب حي، وأنه عضو قوي يكافح ضد عدوان خطير. وأننا سنخرج من كل هذا أنظف وأقوى.

أفاز: هل الأجانب، أعني من المجموعة الأوربية، يساعدون في هذا أم لا؟

عزت بيغوفتش: إذا تكلموا عن الفساد عموماً فهذا لايفيدنا. أما إذا أظهروا لنا حالات ملموسة وأعطونا معلومات فهذا يفيدنا. ولكن هذا نادر الحدوث. والقصة التي تتهمنا بالفساد وأن الفساد ضاربة جذوره في ثقافة شعبنا وأن مئات الملايين من الماركات مختفية من الصناديق العامة، هي كذبة تساعد على محاربة السلطة وليس الفساد.

أفاز: موضوعنا التالي وثيق الصلة بالموضوع الأخير. إنه عن المجرمين والشرطة والقانون الذي بدأ الحديث العام عنه للوزير عصمت داهيتش. إذ اشتكى داهيتش من عدم كفاءة النواب العامين والمحاكم. فما رأيكم بهذا؟

عزت بيغوفتش: أشاطر داهيتش الرأي، حيث تحدثت عن هذا مرتين في السنتين الماضيتين. فقلت في بداية السنة الماضية أن مكاتب النواب العامين والمحاكم هي المؤسسات الأقل كفاءة في النظام، وإن كنت تذكر، حصلت على إجابة مثيرة للاشمئزاز من جمعيات المحاكم. وقلت لجانيتش بأننا لن نكسب المعركة ضد الجريمة بوجود هؤلاء الناس في مكاتب النواب العامين، واقترحت عليه بعض التغييرات المتطرفة. والقرارات تقع ضمن سلطته القضائية بكونه رئيس الاتحاد. ولا أعرف لماذا، لكنه لم يسمع إلي. ومنذ ليلتين أو ثلاث استمعت لأقوال نواب عامين وقضاة على تلفاز البوسنة والهرسك كردود على ملاحظات داهيتش، ولم أسمع أية إجابات حقيقية. وكما اعتاد الناس القول: هو يتحدث عن شيء وهُمْ عن شيء آخر. وقد فتح الرجل ملفات ل ١٤ شخصاً وهو يريد أن يعرف ماذا حصل. وهم يعَلّقون على ١٠ أو ١٥ حالة، ثم يتكلمون عن أشياء أخرى. إنني لا أتساءل عن حجم خطيئة شخص ما، ولكن من الواضح أن هذه ليست الطريقة لعمل كهذا. بل إنني سأقترح القدوم إلى البرلمان والإجابة عن أسئلة نواب البرلمان. ودعنا نأمل أنهم لن يقولوا: إن هذا هجوم ضد الاستقلالية.

أفاز: قاد فعل حلف شمال الاطلسي إلى تغيير حيني في البلقان. فهل معادلتك الاستراتيجية: "صربيا ضعيفة في الشرق، وكرواتية ديمقراطية في الغرب" لا زالت صالحة.

عزت بيغوفتش: إن القسم الأول من المعادلة قد يتغير. وهذا يعني أن صربيا ديمقراطية، وحتى قوية، في الشرق أمر مرغوب به. والسؤال الوحيد هو متى؟ وإذا كانت هناك إجابة، ما دامت هناك استبدادية هناك، فإن صربيا ضعيفة أفضل وستكون البوسنة والهرسك أكثر سعادة وسلامة إذا بدأت تعيش في منطقة ديمقراطية، الأمر الذي يعني منطقة قوية ومستقرة سياسياً.

وصلت الحملة ضد الفساد إلى ذروتها في ١٧ آب (أغسطس) عندما نشر الصحفي الأمريكي كريس هيدجيز مقالة عن الفساد في البوسنة والهرسك في مجلة نيويورك تايمز، وزعم من بين أشياء أخرى، أن مليار دولار من الصناديق العامة والمعونات التي أرسلتها بلدان غربية قد اختلست في السنتين الأخيرتين في البوسنة والهرسك. وبعد ثلاثة أيام من المقالة الأولى، نشرت النيويورك تايمز تصحيحاً، حوالي ٢٠ مليون دولار من المعونة الأجنبية كانت قد اختفت، وأن البقية كانت أموالاً محلية. وحتى هذا لم يكن صحيحاً، ولكن هذا كان تصحيحاً لأوراق أمريكية.

وسببت المقالة موجة من الصدمات في البوسنة والعالم، وخاصة أمريكا. وقبل هذا كان هيدجز في البوسنة لمدة عشرة أيام، يتصل بصحفيي المعارضة والتقط معلومات "صديقة" منهم. وبعد ذلك، اكتشف بأن بعض الأجانب كانوا طرفاً في هذا كله. لكنهم لم يعطوا أية معلومات محددة، بل اتبعوا شكوك هيدجز بالهتاف. وقال أحدهم: "إنهم أومؤوا برؤوسهم". وأشاروا إلى ٤,٠٠٠ صفحة من تقرير مكتب المندوب السامي عن الفساد.

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هيدجز أشار إلى مكتب المندوب السامي كمصدر لمقالته، وفي اليوم ذاته الذي نشرت به هذه المقالة أرسلتُ رسالة مفتوحة إلى المندوبِ السامي ابتدأتها بـ: "أطلب الحقيقة والعلانية، يا سيادة المندوب السامي". وقالت الرسالة:

يا مواطني البوسنة والهرسك، يا شعبي على وجه الخصوص، يجب عليكم أن تعرفوا:

لقد نُشرت مقالة بقلم الصحفي كريس هيدجز بعنوان "قادة في البوسنة سرقوا مليار دولار" في طبعة اليوم من نيويورك تايمز. فمن بين ما قالته ما يلي:

– فُقِد أو سُرق مليار دولار من الصناديق العامة.

– مجموعة معادية للفساد في مكتب المندوب السامي تستقصي ٢٢٠ حالة إساءة استعمال السلطة والفساد، وإنها كتبت تقريراً من ٤,٠٠٠ صفحة حول هذا الموضوع، أُخفيت عن العامة.

– في توزلا، المدينة المسلمة، كما سماها مؤلف المقالة، اختفى مبلغ ٢٠٠ مليون دولار من ميزانية هذه السنة، وما يزيد على ٣٠٠ مليون دولار طيلة السنتين الأخيرتين.

– مدارس توزلا دُهنت أربع مرات من موارد حكومية، مع أنه أعيد بناؤها ودهانها قبل الآن من معونة دولية.

– هناك قصة تقول بأن بكر عزت بيغوفتش، ابن الرئيس عزت بيغوفتش، يُسيطر على معهد تطوير المدينة الذي يتبع له ٨٠,٠٠٠ شقة من شقق المدينة وأن الكثير من هذه الشقق كانت ملكيتها تعود للصرب والكروات، وأنها أعطيت إلى أعضاء في حزب العمل الديموقراطي الحاكم، وأن آخرين يمكنهم تملّك مثل هذه الشقق إذا دفعوا ٢,٠٠٠ دولار لعزت بيغوفتش. وأن بكر عزت بيغوفتش– تقول الصحيفة– هو مالك ١٥٪ من خطوط البوسنة الجوية، شركة جوية حكومية، وأنه يتلقى حصة من أموال يأخذها أعضاء في عصابات من أصحاب المحلات، إلخ.

إنني أزعم أن هذا كله كذب وأزعم أنه دُبّر لاستغابة الحكومة البوسنية ولمنع البلدان الصديقة من إنجاز التزاماتها العسكرية والمالية في البوسنة والهرسك.

لحسن الحظ، أن بعض هذه الكذبات واضحة، حيث إن ميزانية إقليم توزلا بلغت بكاملها لعامي ١٩٩٧ و١٩٩٨ وكذلك للنصف الأول من العام ١٩٩٩، ٦١٢

مليون مارك. ووفقاً لمؤلف المقالة كانت هناك ٥٠٠ مليون دولار مفقودة، أي ٩٠٠ مليون مارك، مما يعني ما يزيد عن ٥٠٪ من كل ميزانية الأقليم مجموعة بعضها مع بعض.

بالنسبة إلى الثمانين ألف شقة عامة في سراييفو التي يذكرها كاتب المقالة (العدد غير صحيح، هناك ٦٩,٠٠٠ شقة)، هذه ليست تحت سيطرة إدارة معهد تطوير المدينة، ولم تكن أبداً، بل هي ملكية المئات من شركات الحكومة والمؤسسات وأن هذه الحقيقة معروفة للجميع. وليس لمعهد تطوير المدينة أي شأن بهذه الشقق، وهو منظمة لإحياء وإعادة بناء المدينة. وهو مشغول بإحياء المباني المدمرة والمتضررة.

وهاتان الحقيقتان توضحان مدى اطلاع الكاتب ومصادره على الحقائق.

أريد أن أقول: إنه من المستحيل مواصلة العمل بهذه الطريقة. فلا يمكن عمل تقارير سرية كهذه، ليكون من الممكن اختراع كذب وهراء دون أية أدلة مسؤولة. وهذا هو سبب أنني أطلب من مكتب المندوب السامي الإجابة بوضوح:

– هل مزاعم المقالة مستندة إلى تقارير مسؤولي مكتب المندوب السامي؟

– هل هذه التقارير صادقة وصحيحة، وإن كانت كذلك، فإنني أطلب نشرها كاملة.

– هل سيجيبنا مسؤولو مكتب المندوب السامي ماقد يحصل إن تبيّن أن هذه البيانات غير صادقة وغير صحيحة.

كان هدف هذه المقالة هو اغتياب ما يسميه كريس هيدجز، الحكومة البوسنية. نحن لم نكن قتلة، ولم نقد حملات إبادة جماعية، ولا يمكنهم، لسوء حظهم، إلصاق هذه التهمة بنا، لكن يمكنهم أن يقدموا أنفسهم كلصوص من خلال تقارير مزيفة وسرية. وهم يفعلون هذا، بكل أداة يقدرون عليها.

لقد أُحْسِن اختيار لحظة نشر هذه المقالة، حيث كان المندوب السامي السابق، السيد فيستندورب، قد غادر لتوه، ولم يستطع أن يتفاعل مع هذه المقالة. والمندوب السامي الجديد قد وصل للتو ولا يستطيع أن يتفاعل كذلك. وفي الوقت ذاته يمكن

للكذبة أن تنتشر بحرية، وأن تسيء إلى البوسنة في جميع أرجاء العالم تماماً كما فعلت الحرب التي مرَّت بها.

مُقدِماً هذا لشعبنا فإنني أتوقع منه سؤال المندوب السامي عن الحقيقة كلها.

ارتكب أحد ما خطيئة كبيرة هنا على حساب البوسنة، ويجب عليه أن يدفع ثمنها كائناً من كان.

أرسلت رسالة إلى وزيرة الخارجية الأمريكية السيدة أولبرايت، وكذلك التماساً لها، لتستخدم نفوذها بخصوص ما يدعى "التقرير السري"، فإذا ما وجد شيء كهذا، أن يُنشر بالكامل. وعلى الفور تقريباً بعد هذا الالتماس كان رد فعل مكتب المندوب السامي تصريحاً بأن لا وجود لمثل هذا التقرير.

بعض وسائل الإعلام أدركت أن في النيويورك تايمز محاولة شخصية ضدي وسألني أحد قرّاء آفاز مباشرة (دنيفني أفاز، أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩):

قارئ أفاز: سيدي الرئيس، يعتقد بعض الناس أن المقالة التي نُشِرت في النيويورك تايمز هي محاولة سياسية ضدكم شخصياً وأن السفارة الأمريكية وراءها.

عزت بيغوفتش: كما تعرف، كان هناك تصحيح لهذه المقالة، نشرته النيويورك تايمز نفسها، وهي حالة نادرة بالنسبة إلى هذه الصحيفة، وتبع ذلك إنكار من مكتب المندوب السامي وبعض مؤسساتنا، وطلبت نشر ما يسمى "التقرير السري"، الذي ينكر وجوده الجميع الآن. كذلك طلبت استفساراً دولياً عن مزاعم النيويورك تايمز. وليست هناك أية إجابة. إنهم صامتون. وهذا الصمت أبلغ من الإنكار. وأعتقد بأن هذه الحالة ستحفز كل شخص، حتى ممثلي المجتمع الدولي على أخذ قصص من "أوراقنا الصفراء" والعديد من الأقاويل معكوسة في المستقبل، أي لفحصها قبل تحويلها إلى "اكتشافات وتقارير".

إنك تذكر محاولة سياسية ضدي. وقد أتّفق مع هذا، وذلك في كيفية شعوري تجاه المقالة، ولكنني لا أتفق أن الحكومة الأمريكية وراء هذا. فليس للقيادة السياسية

الأمريكية مصلحة في أن تسمي المشروع البوسنوي، الذي استثمرت فيه الكثير الكثير، إخفاقاً، خطأ، وهذا بالضبط هو ما سمته به هذه المقالة. قد تكون بعض الدوائر الأمريكية وراء هذا. وبعد كل شيء، ذكر كريس هيدجز بعض الأمريكيين في مكتب المندوب السامي بالاسم. وكما تعرف، أنكر أية صلة بأي من هذا. ومن يدري؟ وعلى أية حال، حصلت المحاولة السياسية، وتأذيت منها، وعلى الرغم من كونها جرحاً بليغاً، لست أدري، لكنني بقيت حياً. هذا كل ما في الأمر الآن.

ألحقت مقالة النيويورك تايمز أذى أخلاقياً ومادياً عظيماً بالبوسنة والهرسك، وطلبت استفساراً دولياً في الرسائل التي أرسلتها لرؤساء عدد من الدول. وفي حوالي منتصف شهر أيلول (سبتمبر)، سَمّت الإدراة الأمريكية روبرت فرويك، خبير جيد في الشؤون البوسنية، رئيساً لفريق مكافحة الفساد، وشغلت الحكومة الاتحادية شركة قانونية، ماكديرموت ويل آند إيمري، لفحص مصداقية الاتهامات المنشورة في صحيفة النيويورك تايمز باسم البوسنة والهرسك.

وأعطى الفريق الدولي من الخبراء القانونيين برئاسة بول ويليامز "النتيجة الأولية" الأولى في نهاية تشرين الأول (أكتوبر)، وصرَّح بول ويليامز لوسائل الإعلام: "لم نجد أي شيء صحيحاً في نص صحيفة النيويورك تايمز، ويأسف أولئك الذين أعطوا معلومات للصحفي هيدجز على ماأعطوه".

وفي الوقت ذاته، صرَّحت المتحدثة باسم مكتب المندوب السامي ألكسندرا شتيغلماير، بأن المكتب لم يعط أية معلومات لكريس هيدجز، وبعد ذلك بكثير، عندما هدأت العاصفة بعض الشيء من تلقاء نفسها، قالت في مقابلة مع صحيفة أوسلويودجينه (٨ أيار (مايو) ٢٠٠٠): "بالتأكيد، إن أكبر تعاون غير ناجح كان مع كريس هيدجز وصيحفة النيويورك تايمز عندما فَبْركوا القصة المتعلقة بالفساد. عمل ذلك الصحفي بشكل منحط، وارتكب أخطاء في المئات من الأشياء، وكان للقصة مضاعفات شنيعة. وكانت هذه هي الفضيحة الأكبر.

وتكوّن التقرير النهائي من ٥٣ صفحة (مع ما يزيد عن ٢٠٠صفحة من الملحقات). قُدِّم من قبل الفريق الدولي من الخبراء في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠. وفي بداية هذا التقرير، وردَ بأن الحكومات الأمريكية والكندية والبريطانية والأمم المتحدة مكتب المندوب السامي أنكروا علانية أن صناديق الدعم سُرقت وأن تقرير مكتب المندوب السامي ذكر أن قصة كريس هيدجز ليس لها وجود.

ضُغطت النتائج الرئيسية في النقطتين الأوليين من التقرير. وذكرت النقطة الأولى: إن لتقرير النيويورك تايمز أخطاء غير مقصودة في الأساسيات لأنه ركّز على المبالغة في قضية الفساد المتعلق بالدعم الدولي. ووجدت المفوضية أدلة قليلة على أهم مزاعمه حتى في الصيغة "المصححة". والنقطة الثانية كانت أكثر أهمية، أثبتت أن النقطة موجودة: "الفساد مشكلة خطيرة في الاتحاد. وكما لوحظ، فهو يتألف من الاستخدام غير الصحيح من قبل الاتحاد والأقاليم والمناطق البلدية للصناديق وبخرق القوانين الاتحادية. خاصة المتعلقة منها بالضرائب والجمارك والصكوك والمصادر العامة.

وسوف يتم استغلال قصة الفساد بشكل كبير في الحملات السابقة للانتخابات التي ستحصل في نيسان (أبريل) ٢٠٠٠. وكان الشيء المؤلم هو أن القصة المتعلقة بالفساد، على الرغم من أنها لم تقترب كثيراً مما كتبته نيويورك تايمز، كانت صحيحة. وبقي الطعم المر للمعرفة بأنها موجودة في البوسنة.

بدأ النصف الثاني من عام ١٩٩٩ بتوقيع ميثاق الاستقرار لجنوب شرق أوربة، بمبادرة من الرئيس الجديد للدبلوماسية الألمانية، يوشكا فيشر. وعقدت قمة الميثاق في سرايفو في ٢٩ تموز (يوليو)، وفي الوقت ذاته، أعادت شعور الثقة والأمل. وحضر القمة جميع الزعماء الذين كانت لهم بعض الأهمية في العالم، ابتداءً من الرئيسين: الأمريكي والفرنسي، بيل كلينتون وجاك شيراك،

ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير، والمستشار كول الألماني شرودر إلى الرئيس التركي ديميرل. وفي ختام كلمتي التي سبقت نهاية القمة بقليل ذكرتُ رجلاً أوربياً عظيماً أعجبت به دائماً، ووشعرت بروحه حاضرةً في القاعة: الرئيس الفرنسي الراحل تشارل ديغول. وقلت:

"واجب أنيط بي وهو أن أكون آخر المتحدثين في هذا الاجتماع الهام، قبل أن يقوم المشرف على المؤتمر آهتيساري بوضع توازن اجتماع هذا اليوم الذي شارك فيه ثلاثون وربما أربعون متحدثاً.

إن واجبي، باسم البوسنة والهرسك، هو استضافة قمة اليوم، وأن أشكركم على وجودكم هنا، وأن أتمنى لكم عودة سالمة إلى بلدانكم، وبالطبع أن أعبر عن أملي بتحقيق سريع لقرارات هذا الاجتماع الهام. إنني أعلم أن هذه عملية ستأخذ بعض الوقت، ولكنني أعتقد أن علينا أن نعملِ دونما تأخير.

ومعبراً عن تلك الأمنيات، فإن عليَّ أن أعلق بأننا قد حققنا اليوم رؤية الرئيس الفرنسي شارل ديغول في أن تكون أمامنا "أوربة من الأطلسي إلى الأورال". ولسوء الحظ، لقد بقي جنوب وشرق أوربة خارج هذه العملية التاريخية لزمن طويل. وإن قمة الاستقرار التي تنتهي للتو في سراييفو، تصحح هذا الخطأ. ومن هنا، يحدث ما يتنبأ به أن يحدث. ويمكنني الاعتقاد بحقيقة هامة بهذا الصدد: مشاركة الولايات المتحدة بكل إخلاص في هذا المشروع العظيم.

وبحلول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من ذاك العام، مضت أربع سنوات منذ توقيع اتفاقية دايتون، وسألتني صحيفة أفاز أن أعطي رأيي بهذا الحدث التاريخي (حسب قولهم). فأجبت:

كثير من الأحداث هي غير تاريخية بالرغم من تسمية الناس لها بذلك. لكن اتفاقية دايتون تاريخية. فهي لم تحقق السلام – على الرغم من أهميته– فحسب بل أنهت موت وإعاقة شعبنا الزائدة في البوسنة. لقد كان هناك قدر غير محتمل من الموت والجراح، خاصة بين المدنيين، لأمة صغيرة كأمتنا. وإلى جانب ذلك، فالسلام أنقذ حتى

فكرة بوسنة كاملة وديمقراطية على الأقل، فإطالة الحرب أبعدت يوماً هذا المنظور إلى أبعد حد. وبالتفكير بنتائج سلام عمره أربع سنوات، نجد ما يلي: أُصْلحت الجسور والطرق وحتى جميع المدارس والمستشفيات. وأعيد تركيب شبكة البرق والبريد والهاتف، وكذلك الإمداد بالكهرباء، ومحطات الطاقة. واليوم لدينا تلاميذ وطلابٌ أكثر مما كان عليه الحال قبل الحرب، والمستشفيات ومكاتب البريد لها معدات أفضل، وتوجد لدينا كهرباء للتصدير. ولدينا عملة استثنائية، وهي ثابتة كذلك. وقد أعيد ما يزيد عن نصف مليون لاجئ ومشرّد. وكانت سرايفو مدينة تموت قبل أربع سنوات، لكن يمكنكم أن تروا كيف هي الآن. صحيح أن لدينا صعوبات في تشغيل مؤسسات الدولة، لكن ذلك لم يكن غير متوقع أبداً. والأمر الأساسي، هو في تقنية سن القوانين واتخاذ القرارات. وتشير المعارضة إلى تنافر في البرلمان. حسناً، فجميع البرلمانات الشيوعية التي كانت في بلادنا هي برلمانات جماعية، ولكنها لم تكن برلمانات على الإطلاق. وإلى جانب ذلك، فالبوسنة ليست بلداً كالنمسة أو هنغارية أو هولندة أو إيطالية. فهذه بلدان أحادية القومية تقريباً مع بعض الأقليات القومية. وتتخذ جميع القرارات هناك بأصوات الأكثرية. لكن البوسنة بلد من ثلاث قوميات وثلاث ديانات وحتى ثلاث ثقافات. ولاتخاذ أي قرار هام فإن الإجماع ضروري. وهو حالة نادرة في العالم. وتأتي الصعوبات على الأغلب من طبيعة المشروع المحدد جداً والذي يدعى البوسنة. فمثلاً، كان يفترض عمل مسودة قانون عن الخدمة الحدودية يوم أمس في الرئاسة ونشره في صحف اليوم ولكن لم نفعل ذلك. وعندما يصل الأمرلهذا الحد، تظهر جميع اختلافاتنا التي هي ليست اختلافات حزبية أو منهجية بشكل رئيسي، بل هي مسألة ارتقاء طويل الأمد، لكن الأشياء الصغيرة تتقدم وسيستقر قرارها. وإننا نحتاج لقدر أقل بكثير من الهجمات المدمرة وللمزيد من الانتقاد الودي، إلى الزمن وإلى العمل المخلص.

في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ اقترح رتشارد هولبروك أن تقوم رئاسة البوسنة والهرسك بزيارة نيويورك لحضور مؤتمر لمجلس الأمن الدولي. وكان السبب الحقيقي لرحلة نيويورك هو جلسة للرئاسة من أجل قبول

إعلان نيويورك بوساطة هولبروك، والغرض الرئيسي لهذا الإعلان كان تأسيس خدمة حدود في البوسنة والهرسك. ولعب هولبروك هذا الدور باحتراف. فما بدا مستحيلاً قبل شهر فقط، جرى حله. وبعد أربع ساعات فقط من المناقشة جرى التوصل إلى قرار خدمة الحدود.

وفي الوقت ذاته تقريباً، غيّر المندوب السامي بيتريش ٢٢ مسؤولاً في البوسنة والهرسك، وفي كرواتية المجاورة سرت الحمى قُبيل الانتخابات العامة القادمة. وأجبت عن السؤال عن تغيير المسؤولين في اجتماع نيويورك وعن الانتخابات الكرواتية في العمود الأسبوعي المعتاد في آذار (مارس) (٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩)، وجاء السؤالان والإجابتان كما يلي:

أفاز: السيد الرئيس، سبّبَ قرار بيترتيش فولفغاغ وباري بتغيير ٢٢ مسؤولاً ردود أفعال مختلفة بين العامة. فما تعليقك على هذه الخطوة من جانب مندوبي المجتمع الدولي، خاصة عندما يصل الأمر إلى ممثلين في حكومة البوسنة؟

عزت بيغوفتش: للقرار جوانب جيدة وأخرى سيئة. وهناك على أية حال، جوانب جيدة. فالبطالة المتجذّرة، التي تعيق العودة إلى جمهورية صرب البوسنة وموستار الغربية أزيلت. وتغيير هيئة موظفي البوسنة ثمن لذلك حسب رأيي. ومن الواضح أن البوسنة لا تتمكن من العمل من دون "مفتاحها" الشهير. وأنت تعرف ما حصل في الأزمنة الشيوعية: فهم احتجزوا تشتنيك وأوستاشا، ومن ثم احتجزوا شيخاً مسلماً، ليس بسبب ذنب اقترفه، ولكن "من أجل السلام في الوطن". ولهذا فكل واحد سعيد وغير سعيد. فهل يمكننا، مثلاً، أن نقارن بين رؤساء بلديات غوراجده وما يسمى غوراجده الصربية وهريليا وتوبالوفيتش؟ فالأول يريد جلب بوسنيين إلى كوباتشي وأن يستقبل صرباً في غوراجده، والثاني يريد فعل أي شيء. ومن ثم يضعهم "الدوليون" في السلة نفسها تحت لافتة "أعاقوا العودة". أو يذلون رجلاً في سراييفو، يتهمونه بأنه غير أمين، ولا يقدمون أي دليل على ذلك، ومن ثم يتحدثون عن حقوق الإنسان. ويريدون منا أن نثق بكلمتهم. إنهم يرفعون لافتة المساواة بين رئيس بلدية بانيالوكا، الذي يمنع

علانية إعادة بناء جامع فيرهاديا المدمَّر وبين حاكم منطقة وكراينا حيث جميع الأماكن الدينية المقدسة كانت مفتوحة حتى إبان الحرب. فمن الواضح أن المجتمع الدولي ليست لديه الشجاعة ليعمل وفق الحقيقة، بل هم يقومون بالأشياء وفقاً للطريقة الأسهل لهم. ومن الأسهل إيقاع اللوم على الجميع. ولكن هذا ليس حلاً طويل الأمد للمشاكل. بل الحقيقة والشجاعة فقط هي التي تحرك الأشياء للأمام. وعلى أية حال، فالقرار شيء لا نستطيع أن نشطره، فلا بد أن يقبل ككل أو أن يُرفض. ولا أعتقد أن لدينا خياراً.

أفاز: شدَّد إعلان نيويورك مرة أخرى على وحدة أراضي البوسنة والهرسك وسيادتها من خلال قراراته الأكثر أهمية. وعلى أية حال، أنكر بعض الممثلين الحكوميين في جمهورية صرب البوسنة الجوهر الكلي للإعلان بمجرد عودتهم. فما التحركات الجوهرية لتطبيق إرادة دايتون، برأيك، التي عملتها القرارات التي وقعت في نيويورك؟

عزت بيغوفتش: إن إعلان نيويورك صك هام جداً. وإنني أعرف حالات التردد هذه التي تتبع العودة. ولكن شكراً لهؤلاء "الدوليين" الذين نغضب منهم في بعض الأحيان، فسيطبق الإعلان، نقطة بعد نقطة. والنقطة الأولى والأكثر أهمية، انتهت جزئياً. فالرئاسة بعد عودتها بقليل أقرت مشروع قانون الخدمات الحدودية، وسيتم المصادقة على القانون من قبل برلمان البوسنة والهرسك. وهو القانون الأهم بعد اتفاقية دايتون. الأكثر أهمية من حيث وحدة واستقرار دولة البوسنة والهرسك، وأتوقع بعض الصعوبات في البرلمان، لكنني لا زلت أعتقد أن القانون سَيُقْبل. وسيتم تقديم جوازات سفر فريدة أيضاً، فليس لدي شك في ذلك، وصحيح أن التقديم سيمضي شيئاً فشيئاً. لذلك فإن جوازات السفر الحالية سَتُسْتخدم لحين انتهائها أو أنها ستوجد بموازاة الجديدة. فمن المهم أن نمتلك إمكانية جواز سفر فريد.

أفاز: ستجري كرواتية المجاورة انتخابات برلمانية. وبالفعل فإن هناك إشاعة حول حقبة ما بعد تودجمان في هذا البلد. وكنت غالباً تلهج بكرواتية ديمقراطية كإعداد قبلي لمستقبل أفضل للبوسنة والهرسك، فهل سيحصل شيء إذا فقد حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية سلطته في الانتخابات في كرواتية؟

عزت بيغوفتش: نعم، فبالتأكيد سنغير شيئاً، لكننا لا نعرف قدره. وشخصياً، أعتقد أنه سيكون هناك تغيير هام. وإننا نعتقد أن الحكومة في زغرب سترسل الكروات البوسنيين لحل مشاكلهم في سراييفو بدلاً من زغرب. وذاك هو التغيير الأكثر أهمية. فإذا أخذنا بعين الاعتبار التغييرات في صربيا كذلك، فإن الوضع بأكمله في منطقتنا يتغير لصالح البوسنة. وأخيراً، يبقى وراءنا عقدٌ صعبٌ للغاية، وأمامنا عقد قادم جديد، الذي سيكون أفضل، بإذن الله.

كانت الأحداث تجري في مسارها، واستغلت المعارضة، باقتراب الانتخابات، مسألة الفساد إلى أقصاها، وبطريقة مجردة. وبمبالغة متوقعة؛ ازداد الانتاج بمعدل متواضع قدره ١٠٪ (متواضع إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قاعدته المتدنية)، ونقص معدل البطالة قليلاً، وكانت مقاطعة برتشكو تتأسس ببطء، وكانت الأوضاع مع كرواتية تراوح مكانها وتنتظر أياماً أفضل، ولم يتم حتى حينه إقرار معاهدة بلوتشه ولا معاهدة عن العلاقات التجارية. ولعب دوديك لعبة:

كن لبقاً ودمثاً جيداً مع الأجانب، ولكن لا تدع البوسنيين والكروات يعودون (منذ نهاية عام ١٩٩٩ عاد منهم ٢٪ فقط، وسيتطلب الأمر منهم ٥٠ سنة ليعودوا بهذا المعدل)، إلخ.

في جو كهذا اقتربنا من الانتخابات البلدية التي حصلت في نيسان (أبريل) ٢٠٠٠. وخلفنا كانت هناك عشر السنوات الأصعب في تاريخ البوسنة والهرسك، زمن غَلَت فيه البلد وبدت بركاناً. لكن تمَّ عمل الكثير. فالبوسنة جرى الدفاع عنها في الحرب، وأُوجد الجيش، وجميع المدارس أُعيد بناؤها في زمن السلم، وكذلك جميع المستشفيات، ومحطات الكهرباء والطاقة، ونقل البريد والبرق والهاتف جرى إحياؤه، وأصلحت معظم الجسور والطرق. وكان ذلك جانباً واحداً من الميدالية (الوسام). لكن الجانب الآخر كان أكثر قتامة: إذ كان الاقتصاد يتعافى ببطء شديد، وكان الكثير من الناس عاطلين عن العمل.

وجرى التنبؤ بانخفاض قوي لفرص حزب العمل الديموقراطي. وثبت بأن هذا صحيح. حيث في انتخابات نيسان فقد الحزب الكثير من البلديات التي كان يحكمها. وكنت حزيناً لكن غير متفاجئ. وتذكرت إحدى مقابلاتي منذ أكثر من ثلاث سنوات. فبعد انتصاري الثاني في انتخابات أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦، سألتني محررة صحيفة سرايفو فتشرينيه نوطينه (أخبار المساء)، ياسمينا شابيتش، فيما إذا كنت سعيداً بانتصاري (المقابلة في ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧)، فقلت:

دعيني أخبرك بشكل مباشر، لست سعيداً. والآن أتذكر، إحدى القصص الذكية أو اللاذعة عن الحب. ويقال: إن لكل قصة حب نهاية مأساوية: فهما إما يتزوجان أو ينفصلان. والصراع السياسي مثل هذا: إما أن تفوزي وإما أن تخسري، وهي ليست نهاية سعيدة على أية حال، فأم اختفى ابنها في مأساة سريبرينيتسا تسألك أن تعثري عليه، ولاجئ في ألمانية يسألك أن تعيديه إلى بيته في بيلينا أو دوبيتسا، وجندي عاطل عن العمل يسألك أن تجدي له عملاً، ومدير مصنع أن تجدي له مالاً ليبدأ الإنتاج، إلخ. وفي البوسنة، هناك آلاف المفقودين، والعاطلين عن العمل، والمئات من القرى والمدن المدمرة. فمن يستطيع إنجاز جميع هذه التوقعات، وجميعها معقولة من وجهة نظر معينة؟ وخيبات الأمل محتمة.

وجاءت خيبات الأمل. وبدأت حملة إعلامية غير مرئية ضد حزب العمل الديموقراطي. ووصفت الحملة الحزب بأنه قومي، وما كان صفاقة حزبية وتزوير تاريخي، وضع في السلة ذاتها مع الحزبين القوميين، الحزب الاشتراكي الديموقراطي الصربي وحزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية؛ إذ كان على حزب العمل الديموقراطي أن يحمي البوسنة منه، ونجح في ذلك الدفاع. والتحق الأجانب بهذه الحملة كذلك.

جعلت مساواة حزب العمل الديموقراطي المسلم. بهذين الحزبين القوميين بعض الناس غاضبين والسذّج حزانى. وعلى أية حال، لقد كان هذا سلبياً في

تصنيفنا لدى الناس. فالشيوعييون السابقون الذين كانوا غيروا اسمهم إلى الديموقراطيين الاشتراكيين كانوا يتكلمون عن يوغسلافية بتوق إلى الماضي. ليس من دون سبب، فلقد كانت لهم قوة وامتيازات كلية السلطة حينها. وللأجيال الأصغر بدؤوا بإظهار تيتو من خلال نظارات رومانسية: سلام وبناء وتوافق على النقيض من حالة الحرب والنزاع والركود في ديمقراطية اليوم. وتركوا الجوانب المظلمة من النظام اليوغسلافي وأسباب نهايته. وعند مواجهتهم بأدلة حقيقية، اعترفوا بأنه لم تكن هناك حرية، ولكن كان هناك أمان. واخترع الرأي بأن الشيوعيين قدموا الأمن من دون الحرية، وأننا قدمنا الحرية من دون الأمن، ومرة أخرى هذه معضلة يوسوس فيها الشيطان للمسيح في الصحراء.

لقد قلت قبل الآن بأنه كان هناك شيء واحد كرهته وأردته في الوقت ذاته وهو وجود قوات أجنبية، ولكن بمرور الأيام، يصيرون رؤساءك. وحصلت أشياء غريبة فعلاً بهذا الصدد. ففي يوم الجمعة ٣ آذار (مارس) ٢٠٠٠، ألقيت خطاباً في اجتماع للحزب (العمل الديموقراطي) قبل الانتخابات في سراييفو. وعقد الاجتماع في القاعة العظيمة في مجمع سكنديريا في سراييفو أمام ٧٠٠٠ مؤيد للحزب معظمهم من البلدية الوسطى. وبعد ثلاثة أيام وعلى التلفاز المحلي وفي الصحف صنف المندوب السامي للبوسنة والهرسك، النمساوي بيترتيش فولفغاغ، ورئيس منظمة دول الأمن والتعاون الأوربي الأمريكي روبرت باري، بأن خطابي كان "استفزازياً بشكل استثنائي". وزعما بأن خطابي "يسيئ إلى" مشاهد العيش معاً والتسوية في البوسنة والهرسك، بسبب ذكره التشتنيك (متعصبو الصرب) والأستاشا (متعصبو الكروات) إلخ. إنني أقدم فيما يلي ذاك الخطاب "الاستفزازي" بحيث يتمكن القراء من الحكم عليه بأنفسهم:

أيها الأخوة والأخوات الأعزاء،

أولاً وقبل كل شيء أطلب منكم الجلوس، فرفاقي من السجن ينتقدوني، وهذا كأنني أخلق جماعة من المعجبين بـ (علي عزت بيغوفتش)، مع أن هذا ليس خطأ. لذلك أريد منكم ألا تقفوا لي.

أتلقى في هذه الأيام الكثير من الرسائل من أطراف مختلفة فهناك أسئلة عن معاشات التقاعد والخصخصة والشهادات والمعارضة والأجانب، إلخ. ولكن هناك سؤالان استثنائيان في غاية الأهمية. الأول عن ماضي البوسنة والثاني عن مستقبلها. وأختار لذلك، الإجابة عن هذين السؤالين في خطاب اليوم.

السؤال الأول (سأقتبس بقدر ما أتذكر): هل كان من الممكن تجنب الحرب والقتل خلال فترة ١٩٩٢-١٩٩٥؟ على الأقل، مضى السؤال على ذاك النحو. فيما يلي إجابتي: قبل أن تنفصل سلوفينيا وكرواتية عن يوغسلافية كان من الممكن تجنب الحرب. وبعد ذلك لم يكن بالإمكان فعل أي شيء.

فبعد انفصال سلوفينيا وكرواتية عن يوغسلافية، وجدنا نحن والبوسنة والشعب البوسني،أنفسنا على مفترق طرق: إحدى الطرق قادت إلى يوغسلافية غير كاملة، الأمر الذي كان يعني دولة اتحادية من صربيا والجبل الأسود يحكمها الثنائي ميلوشيفيتش-كارادجتش؛ والأخرى قادت إلى الاستقلال. ولم يكن هناك خيار ثالث. الموت أو الحرب، والأخيرة بالإمكان تجنبها لأننا كنا أضعف والمعتدي لم يكن ليفاوض. أمكننا أن نختار في أن نكون عبيداً، ولكنا تحولنا إلى أكراد أوربة. وهذا لم يحصل، والشكر للمقاومة التي نظمها حزب العمل الديموقراطي صحيح، أن حزبنا لم يكن الوحيد الذي قاوم. ولم يكن أعضاؤه هم الوحيدين الذين قاتلوا، لكنه كان المنظم للمقاومة والقوة القيادية التي قادت القتال على الدوام من أجل البقاء الروحي للشعب البوسني على مدى السنوات العشر الأخيرة. وبفضل هذا ها نحن نستطيع أن نجتمع هنا اليوم ونتحدث بحرية. وبفضل هذا، يتمكن معارضونا السياسيون من الاجتماع بحرية ويتحدثوا كما يريدون. وهُزِمت مشاريع ميلوشيفيتش وتودجمان. وخرجنا على أننا الفائزون أخلاقياً وتاريخياً في القتال ضد هذه المشاريع.

والسؤال الثاني الذي أريد الإجابة عنه في هذا الاجتماع يخص مستقبل البوسنة. ما الذي نريد تحقيقه في البوسنة، وما الذي نأمل به؟

إن غايتنا بوسنة وهرسك كاملة وديمقراطية. فإذا كان هذا هو هدفنا- وهو كذلك- فإن أعداءنا الرئيسين ليست أحزاب المعارضة، إنهم مجرد خصومنا السياسيين، وذاك شيء آخر. بل إن أعداءنا الرئيسيين هم التشتنيك والأوستاشا. فهم الذين رفعوا أيديهم ضد الأبرياء، وهم قاتلوا ضد البوسنة والهرسك وكل مايمثلانه، لذلك هم ضد خدمة الحدود، ومؤسسات دولة تؤدي وظيفتها، وجواز سفر استثنائي، إلخ. يريدون أن يجمدوا الوضع مع ثلاثة جيوش في البوسنة، فهم ضد جمع شمل البوسنة والهرسك في أوربة وفي العالم، وهم ضد عودة أي أحد إلى ملكيته الخاصة، على أمل إدامة الوضع الذي خلقته الحرب عن طريق التطهير العرقي، إلخ.

وبالقدر الذي يعني المعارضة، فأنا أتحدث عن تلك الأحزاب التي لاتعادي دولة البوسنة، فهي ترى الأشياء على نحو مختلف قليلاً، ونحن نتنافس معها. وهي كلعبة كرة قدم هامة، التي نهتف لها بحماس لأننا نعتقد بأننا أفضل، وأننا نستحق النصر. نحن نطلب منكم أن تنظروا إلى الأشياء وإلى اجتماع اليوم بهذه الطريقة. إننا نستطيع أن نتحدث على هذا النحو لأننا أقوياء، ولأننا ننظر إلى الأشياء بهذه الطريقة فإننا سنفوز.

إننا نحتاج للسلام في البوسنة من أجل أطفالنا وأحفادنا، بالطبع، السلام والحرية لكل شخص يريد الخير لهذا البلد، مهما كانت قوميته، ومعتقداته الدينية أو السياسية.

ولهذا أطلب إليكم في النهاية أن تؤكدوا على أهدافنا بالتصفيق لكل إنسان يتمنى الخير لهذا البلد، وللعيش معاً، وللحرية، وللتسامح والتسوية حيثما أمكن، وأخيراً، لشعب بوسنة قوية. وشكري وتحياتي لكم.

كان ذلك هو الخطاب الذي سماه الأجانب استفزازياً. وأجبتُ عن انتقاداتهم في اليوم ذاته بقولي: إن رد فعل الأجانب كان طلباً لننسى الماضي. "يمكننا الحديث عن الصفح والتسوية ولكن ليس عن النسيان". قلت:

وبالطبع، تبقى مسألة لماذا تفاعل بيتريتش وباري بهذه الطريقة؟ أعتقد أن ما يلي يشرح ذلك، عندما حصلت المذابح الجماعية بين عامي ١٩٩٢-١٩٩٣ وظهرت معسكرات الموت في البوسنة والهرسك، أغمض معظم السياسيون الأوربيون أعينهم في وجه الحقيقة. وبدلاً من استخدام القوة أو حتى الكلمات، بقوا في صمتٍ مخزٍ. واليوم، لا يريدون أن يتذكروا هذه الحادثة المشينة. فهم يعانون من المشاكل عندما يتذكرونها وأولئك الذين شاركوا فيها. فهم يرغبون في أن ينساهم الناس. وبالطبع، يمكنهم أن ينسوا، ولكننا يجب ألا ننسى، ولا يمكننا أن ننسى، لأن مذبحة منسية تعيد نفسها.

إن وجود قوة أجنبية في بلد من البلدان شر عظيم. وعزاؤنا الوحيد هو حقيقة أن البوسنة لم يكن لها خيار، وأنه كانت هناك شرورٌ أكبر من هذه التي تواجهنا- ليس أقلها التشستنك والأستاشا.

على أية حال، عليَّ أن أتوقف هنا لأعلق تعليقاً واحداً: دفع المندوب السامي بيترتيش فولفغاغ مشروع دولة البوسنة إلى الإمام بإخلاص شديد، بالطريقة التي فهم فيها البوسنة وذلك المشروع. ولا شك بحسن نيته. فهل تحركاته كذلك؟ بالتأكيد احترمت جميع نواياه، ولكن ليس جميع قراراته.

حصل أول سوء تفاهم لي مع المندوب السامي بعد ذلك بقليل، في مسألة طرد اللاجئين البوسنيين. فعندما شرِّد البوسنيون من بيوتهم في بودرينيه خلال الحرب، وجاء معظمهم من سرايبفو وتوزلا وأماكن محلية أخرى مستوطنين في منازل وشقق كان الصرب تركوها. وأمرت اتفاقية دايتون بعودة الجميع إلى أملاكهم، ولكن تلك العملية كانت بطيئة وجزئية. وفي الأجزاء من البوسنة التي قد كانت تحت سيطرتنا، كان الصرب يعودون بمعدل أسرع بعشر مرات (أو أعيدت لهم بيوتهم وشققهم) من عودة البوسنيين إلى الجزء - الذي سمي جمهورية صرب البوسنة. مارس بعضٌ من شعبنا، تحت تأثير أجنبي، بلهفة قوانين إعادة الممتلكات، وفي بعض الأحيان متجاهلين حتى العدالة الأولية. ففي بداية شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩، طرد اللاجئ دوغاليا سليمان مع زوجته

وطفليه من منزل صربي. واعترضت على هـذه الممارسـة التـي تخطـت الحـدود. وجاءت مذكرتي (٧كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩) على النحو التالي:

في هذا اليوم، اكتشفت أن اللاجئ دوغاليا سليمان قد طـرد هـو وزوجتـه وطفـلاه من شقة كان يشغلها مؤقتـاً. وطـرد بـأمر مـن المحكمـة، الـذي وقعـه القـاضي أنديـرا كاراهودجتش. وكان دوغاليا سليمان طـرد مـن بالـه في عـام ١٩٩٢. وفي ٧ كـانون الأول (ديسمبر)، قبل تسعة أشهر، قدّم طلباً لتمكينه من العـودة إلى المـنزل الـذي هـو ملكيته، ولم يُمكن من ذلك.

وفيما يخص هذه المسألة فإنني أذكر ما يلي: إن طَرد لاجئ بأمر قضـائي كـان طُـرد من بيته ولا يمكنه أن يعود إليه، أمر غير مقبول على الإطـلاق. إنـه لا يمكـن لأحـد أن يأمر بشيء كهذا لأنه مناقض، ليس للأحكام الأولية للعدالة، بل لاتفاقيـة دايتـون نصـاً وروحاً. ولم تأمر اتفاقية دايتون بطرد اللاجئين بأوامر قضائية، بل بعودتهم إلى بيوتهم. ولجعل الوضع أسوأ، فالمالك الأول بريلتش فلا ستيمر لم يطالب بالشـقة ليعـود إليهـا، بل ليبيعها. والشقة المخلاة يستعملها الآن أوداياشتش ياسـمين مـن سـراييفو. وكـانت المحكمة على إطلاع بهذه الحقيقة.

اختارني الشعب في انتخابات حرة عضواً في رئاسة البوسنة والهرسك، أطالب كـل شخص بعدم تقديم أو تنفيذ أوامر بطرد لاجئين لم يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم، لأن هذه الأوامر غير أخلاقية وغير قانونية. وإن أولئك الذين ليست لديهـم الجرأة المدنيـة للقيام بواجبهم وفقاً لضمائرهم، عليهم أن يستقيلوا من وظائفهم.

كان قسم من الصحافة إلى جانبي؛ أمـا صحافـة المعارضـة، علـى أيـة حـال، فإنها اتهمتني بالدفاع عن "العدالة المجردة" ضـد القـانون. وكتـب بعضهـم: إن القانون غير العادل يجب احترامـه كذلك، وزيّن آخـرون أنفسـهم في محـاولات أكاديمية عن علاقـات العدالـة والقـانون. ومضـى مسـؤول في مكتـب المنـدوب السامي خطوة إلى الأمام. وقال بأنني قد حثثـت الشـعب علـى خـرق القـانون، إلخ. أو أن جميـع الأجـانب بقيـادة المنـدوب السـامي بيـترتيش فولغـاغ شـجبوا

موقفي، وقالوا: إن القوانين حول الملكية "كاملة ولايوجد عليها تحفظات". "فحق أي شخص بالعودة إلى ممتلكاته لا يعتمد على قيام الشخص الآخر بذلك، وورد بمذكرة المندوب السامي:"هذان الأمران لا يمكن الجمع بينهما". على أية حال، إن "عدم التحفظ" هذا قاد إلى العودة غير المتناسبة للناس إلى بعض أقسام البوسنة والهرسك الأمر الذي يعني عملياً مواصلة التطهير العرقي.

تفاوتت صحتي من يوم إلى آخر، على الرغم من أنني، بشكل عام كنت محظوظاً جداً فيما يتعلق بوضعي الصحي. مرضتُ ثلاث مرَّاتٍ في حياتي. وكانت المرَّة الأخيرة نوبة قلبية في عام ١٩٩٦. وها قد مضتْ سنواتٌ منذ ذلك الحين، وكنت ما أزال في منتصف ولايتي ذات أربع السنوات. فهل كان بإمكاني تحمل ٣٠ شهراً أخرى؟

قبل الانتخابات في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٩٨، فكرت جدياً بعدم الترشُّح، وكنت متردداً في ذلك. وفي أيار (مايو) ١٩٩٨، كتبت رسالة وجهتها "إلى أصدقائي" وأرسلتها إلى حوالي ٣٠ عنواناً، أعلنت فيها انسحابي من عضوية الرئاسة. وكانت أسبابي السن والصحة والتعب. ولم يكن من العدل أن أشغل وظيفة إذا لم أكن قادراً على أداء جميع المتطلبات المترتبة عليها.

رفض معظم أصدقائي المقرَّبون بإصرار أية فكرة تتعلّق بانسحابي قبل الانتخابات، ووجدتُ نفسي في معضلة كذلك. وقرَّرتُ أن أسأل أعضاء حزب العمل الديموقراطي على مستوى القاعدة عن هذا الأمر. وخلال شهر أيار (مايو) وبداية شهر حزيران (يونيو) ١٩٩٨ عُقِدَتْ مؤتمرات في جميع التنظيمات المحلية للحزب الذي كان على أعضائه الإجابة عن عدد من الأسئلة تتعلق بالانتخابات المقبلة. وكان أحد الأسئلة: "هل تعتقد بأن على الرئيس عزت بيغوفتش أن يترشح/لا يترشح في رئاسة البوسنة والهرسك في الانتخابات

المقبلة؟. وكان هذا سؤال ذا خيارات ثلاثة: "عليه ألا يترشح"، "من الأفضل إذا ترشح"، "من الضروري أن يترشح". واختارت عشرة تنظيمات بلدية الإجابة الأولى، وستة الإجابة الثانية، وخمسة وثلاثون الإجابة الثالثة.

كذلك تمت مراجعة المسألة في اجتماع للجنة الرئيسية للحزب. عُقِدَ في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٩٨. وطلبت تصويتاً سرياً وقلت: بإنني أعد بقبول قرار اللجنة الرئيسية، وعند عد بطاقات التصويت، تبين أن ٥٨ عضواً من ٧٦ عضواً اعتقدوا بأن عَليَّ الترشيح للانتخابات. وأعتقد ١٨ عضواً عكس ذلك. وبعد ذلك ترشحتُ للانتخابات وفزت بنسبة ٨٠٪ من الأصوات البوسنية.

واصلتُ عملي في ولايتي الجديدة، وفكرت في الاستقالة مرة إثر مرة. وفي شهر آب (أغسطس) ٢٠٠٠، بلغت سن ٧٥ سنة وكانت سنتي العاشرة في قيادتي للدولة. وشهدتُ حربين كبيرتين، إحداهما وأنا في سن الشباب والأخرى وأنا في سن الشيخوخة وسجنت لفترتين طويلتين بينهما. أفلا يكون هذا كافياً في حياة الشخص؟

على الرغم من إنجاز نجاحات كبيرة من اندماج وإعادة بناء البلد في أقل من خمس سنوات على الرغم من الأوضاع القاسية، فإن تبعات حرب مدمرة كانت لا تزال حاضرة، خاصة في الاقتصاد. وبقيت صحف المعارضة صامتة فيما يخص نجاحاتنا وركّزت فقط على أخطائنا وعيوبنا. وورّطت نفسها في حملات غير مرئية لم تقف عند شيء؛ ففي السياسة يسود قانون الغاب: ليست هناك رحمة ولا صدقة، فالغاية تبرِّر الوسيلة.

وأخيراً، في يوم الجمعة ٢ حزيران (يونيو) ٢٠٠٠، بينما كنت عائداً من صلاة الجمعة، اتخذت قراري. ودعوت سناد حاجيفيزوفيتش إلى مكتبي، وكان حينها المحرِّر الرئيسي لإذاعة وتلفاز البوسنة والهرسك وطلبت منه أن يحدد لي موعداً على الهواء بحيث يمكنني أن أقرأ تصريحاً هاماً. وحدَّد موعد المقابلة يوم

الثلاثاء ٦ حزيران (يونيو). وفي ذلك اليوم ظهرتُ في مكاتب الأخبار الرئيسية الساعة السابعة والنصف مساءاً وقرأت البيان التالي:

أعزائي مواطني البوسنة والهرسك،

أرغب بأن أخبركم بقراري التقاعد من الرئاسة عند انقضاء ولايتي كرئيس رئيساً البوسنة والهرسك، في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) من هذا العام.

وفي الوقت ذاته، يمكن إيجاد الأحكام القانونية بخصوص استبدال عضو الرئاسة الذي تنتهي وظيفته. وهذه الترتيبات غير موجودة حالياً.

هناك أسباب عديدة لتقاعدي ولكن السببين الرئيسين هما عمري (سأبلغ ٧٥ سنة في آب) وصحتي. ووظيفة عضو في الرئاسة في هذه الأوضاع تتطلب وضعاً جسدياً وعصبياً لم أعد أمتلكه.

أتقدم بالشكر لجميع أولئك الذين ساندوني خلال السنوات العشر الصعبة الماضية من تاريخنا.

أتمنى لحلم الوطنيين البوسنيين في بوسنة وهرسك موحدة وديمقراطية ومزدهرة أن يتحقق.

وبعد هذا البيان سألني حاجيفيزوفيتش سؤالين.

فعن سؤاله عما اعتبرته نجاحي الأعظم، أجبت بأنه كان استقلال البوسنة والهرسك. فخلال فترة ١٩٩١-١٩٩٢ كان هناك خطر في أن تصبح البوسنة والهرسك إقليماً من أقاليم صربيا الكبرى. ومنعتُ حدوث هذا، وإنني أعتبرذلك أعظم إنجازاتي".

وتبعه السؤال الثاني بشكل طبيعي من تلقاء نفسه: "وماذا عن إخفاقك الأكبر؟" فأجبته: "بطء عملية تأسيس بوسنة وهرسك موحدة وديمقراطية ومزدهرة يعيش مواطنوها بسلام" .

استقبل الأجانب نبأ استقالتي بسرور ودهشة. واعتبروه خدعة تسبق سابقة الانتخابات وسألوا عن مقاصدي الحقيقية. وفي منتصف شهر تموز (يوليو). وخلال إحدى المحادثات التي حصلت في مكتبي، وجّه لي روبرت باري، رئيس منظمة الأمن والتعاون الأوروبي للبوسنة والهرسك سؤالاً فيما إذا كنت سأتقاعد بالفعل أم لا، وإذا كان الجواب نعم، فلماذا؟ فقلت له بإنني كنت أخشى أن أموت وأنا رئيس وأنا ولا أحب أن أبقى رئيساً مدى الحياة. فضحك. ولمعرفتي بباري، راهنتُ بأنه لم يكن ليصدق توضيحي على الإطلاق. لكن قراري بالتقاعد كان مخلصاً ونهائياً. ففي ٢٤ تموز (يوليو) أرسلت رسالة إلى رئاسة البوسنة والهرسك أؤكد فيها رسمياً نيتي بالانسحاب من وظيفتي. هذا عندما بدأت المحاولات حول قانون ملء منصب الرئاسة الشاغر في البوسنة والهرسك. أرادَ الأجانب "شخصاً تابعاً لهم" في منصب الرئاسة وأراد البرلمان "شخصاً تابعاً لهم". وصوَّت البرلمان على قانون يعلق بذلك، لكن الأجانبَ غيّروه.

كان هناك افتراض صريح بين البعض تمَّ تداوله بين الناس يتعلق بمن سيخلفني. ففي عام ١٩٩٩، سألني صحفي من تلفاز أو.بي.أن مباشرة عمن سيخلفني ومدى الصدق في الإشاعة حول تولي بكر الرئاسة، فأجبت:

"من الذي سيخلفني؟ هذا الأمر ليس عائداً لي لأقرر، أما بخصوص ولدي بكر، فهو مثله مثل أي رجل آخر، وهو مستقل كذلك. ويعود إليه تقرير ما سيفعله بنفسه، وعليك أن تصدقني بأن الأمر كذلك. إنه أفضل مستشار غير رسمي لي ويمكنني القول: إننا نتحدث عن الفلسفة أكثر من حديثنا عن السياسة. لكن عندما اعتقلت في عام ١٩٨٣ وحكم عليّ لمدة ١٤ عاماً على شيء كتبته، كان عمر بكر ٢٦ عاماً. وبكر حينها، كأي شاب، عاش بطيش، وعزف على الجيتار بشكل جيد جداً وكانت له حلقة واسعة من الأصدقاء. ثم، وبشكل مفاجئ، كان عليه أن يتحوّل إلى رجل جاد. كافح ست سنوات من أجل حياتي وحريتي. وكان مهدداً بالسجن بسبب هذا.

وفي نهاية عام ١٩٨٦ زارني في السجن رجل من يو.دي.بي.إيه. (UDBA) وأخبرني بأن عليّ أن أكبح جماح بكر، أو أنهم سيعتقلونه، ولم يكن بكر ليخاف. بل سافر، وقابل المعارضة الصربية والكرواتية، وجعل الناس في الخارج يهتمون بقضيتي، مراقبة هلسنكي Helsinki Watch، ومنظمة العفو الدولية وروابط الكُتّاب. وعندما خرجتُ وشكلت حزباً، انخرط فيه بنشاط. وعمل في عدد من البرامج الهامة زمن الحرب. وإذا اعتقدت في أنه يستمع لي، فأنت مخطئ. بل هو مثلي، يفعل،في العادة، ما يريد. إنه ليس مشاركاً نشطاً في السياسة، على الرغم من أنه عضو في لجنة إقليم سراييفو لحزب أس.دي.إيه. وليس لدي انطباع بأنه سيغير شيئاً في أثناء حياتي، وبعد وفاتي، سيقرر لنفسه ما يريد فعله وإلى أين سيذهب (تلفاز أو.بي.إن.، ١٢ آب (أغسطس) ١٩٩٩).

ومع ذلك، فالعملية في البوسنة، وإن كانت تتحرّك ببطء، إلاّ أنها كانت تسير في الاتجاه الصحيح. حيث تناقص عدد الذين يتمنون عزل البوسنة عن باقي دول العالم. فمن سياق جغرافي وتاريخي، فإن المنظور الواقعي الذي يشمل البوسنة في الوحدة الأوربية ثبّط همة الانفصاليين والمتطرفين الصرب والكروات. إذ أصبح بالإمكان أن تسمع أكثر كلمتين محظورتين سابقاً -البوسنة والهرسك- في تصريحاتهم وبشكل متكرر. وتأسست حرية الحركة في معظم أقسامها. وأصدرت المحكمة الدستورية قراراً عن المساواة بين جميع القوميات في أراضي البوسنة والهرسك، وتولّت خدمة الحدود، المنشأة حديثاً، السيطرة على معابر الحدود، وأصدرت عملة نقدية استثنائية وجوازات سفر استثنائية وبدأت الأحاديث عن جيش استثنائي. وفي صيف عام ٢٠٠٠ كان للبوسنيين والهرسكيين ٥٠ ممثلية دبلوماسية مفتوحة في العالم (سفارات وبعثات وقنصليات) وبدأت تصير دولة حقيقية تدريجياً. وكانت هناك أوقات عندما شعرتُ، على الرغم من كل شيء، بالسعادة لأن رؤيتي للبوسنة كانت تمضي قدماً.

ولأقول الحق، فإن الكثير من هذا لم يكن ليتحقق من دون مساعدة الأجانب وذلك ما كان سَبَب وضعنا الفصامي. ووصف مفكرٌ كبير هذا

الوضع بذكاء وظرافة قائلاً: "نعوذ بالله من عدم وجودهم، والويل للناس من وجودهم".

وشعرنا وكأننا صلبنا بين أهدافهم، التي ساندناها عموماً، وبين طرقهم، التي لم تكن مقبولة. فمقدار ضخم من العون الأجنبي المخصص للبوسنة أنفق على رواتبهم المرتفعة، ونفقاتهم خلال مكوثهم في البوسنة. والأمر الأكثر أهمية، أنهم بدؤوا بالتصرف وكأنهم حماة البوسنة. وتدريجياً، أقاموا سلطتهم التي لم تكن مسؤولة أمام أي كان. وذكرني هذا بشكل متزايد بالشيوعيين؛ إذ تدخلوا بشكل مباشر بعمل البرلمان والسلطة القضائية والإدارة ووسائل الإعلام كذلك. ولأننا شعرنا بالضعف عوضاً عن الفخر، فإن ذهنية عبودية نمت لدينا. إذ كتب عدد كبير من الصحفيين بناءً على أوامر صادرة لهم وكتب عدد قليل وفقاً لضمائرهم. ولا يمكن لأية حكومة أن تقاوم إغراء التسلط، إذا لم تسيطر عليها أدوات كُفُؤة. وسلطة الأجانب لم تكن تحت سيطرة أحد في البوسنة. فأناس مجهولون، وفي بعض الأحيان غير أكفياء تماماً تراهم يعملون في خدمات مختلفة في مكتب المندوب السامي ومنظمة الأمن والتعاون، ومنظمات معينة تابعة للأمم المتحدة، اتخذوا قرارات غير مدروسة بشكل ملائم وغير موضحة وفي بعض الأحيان خاطئة كلياً. ولكن كان من المتعذر تغيرها. فهم أتوا هنا ليبقوا لفترة معينة، لمدة عامين في العادة. وفي الغالب دون معرفة أولية بالبلد الذي جاؤوا إليه، أو، الأسوأ من ذلك، جاؤوا وهم يحملون معهم أفكاراً نمطية مسبقة تجاه الشعب البوسني وثقافته. وأخذ معظمهم فكرتهم عن البوسنة من روايات أندريتش المشهورة في أوربة التي تقدِّم صوراً سلبية عن البوسنة. أقتبس: "أولئك الذين ينتمون إلى ديانات ثلاث يكره أحدهم الآخر بشكل كبير، من الولادة وحتى الوفاة، بغير عقلانية." من المعروف أن هذا الكاتب معروف بتحيزه الكريه ضد المسلمين. وعليه فقد كان من الصعب تغير هذه الصورة النمطية المتحيزة.

ما أردناه لم يكن إسداء النصح والموعظة، بل مشاركة نافعة من العالم مع شعب البوسنة. وكانت السلطة الأجنبية ضرورية ما دام لم يكن هناك ثقة بين القوميات الثلاث في البوسنة والهرسك. وهذه السلطة يجب أن تتناغم مع درجة عدم الثقة.وعليها أن تنتهي عندما تبنى الثقة بين أبناء البوسنة. وهكذا يتضح ما يجب فعله من أجل وضع نهاية لحكومة الوصاية في البوسنة. وهذا هو الواجب الأسمى لجميع الناس المسؤولين والعقلاء في هذا البلد.

في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) تركت مبنى الرئاسة الذي قضيت فيه عشر سنوات من حياتي، السنوات الطبيعية والسنوات القاسية، والسنوات الرهيبة. وعلى الرغم من أنني لا أحب الوداع، لكنني لم أشعر بأي حزن.

وقبل هذا، وفي فترات قصيرة، تلقيت رسائل دافئة من الرئيس بيل كلينتون والرئيس ديميريل ورئيس الوزراء توني بلير وآخرين كثيرين. كما تلقيت رسائل من رجال ونساء مهمين أو أقل أهمية ممن كانوا بطريقة أو بأخرى متورطين في الحالة البوسنية المتناقضة على مدى العقد الأخير من القرن العشرين. ونظمتُ حفلات وداعية مع رفاق الدرب لسنوات طويلة. بل وحضر هذه الاحتفالات بعض الأشخاص ممن كانوا في صفوف المعارضة في ذلك الحين. وألقيتُ خطاباً قصيراً وصافحتُ المئات من الناس، ممَّن تمنوا لي الخير. ولاأدري إن كانوا مخلصين في أقوالهم أم لا.

وشعرت بأن كل مايجري مجرّد رسميات، وكأن الأمر لا يعنيني. إلا إن كان هناك كان استثناء واحد في ١١ تشرين الأول (أكتوبر)، حيث التقيتُ بمجموعة من التلاميذ والطلبة في قاعة مبنى الجيش الكبرى حيث كانت الممرات المؤدية إليها مليئة بالأولاد والبنات. ولم أكن أعددت خطاباً للمناسبة، وعوضاً عن ذلك أخبرتهم بأنني قد أتيت إليهم لأقول لهم وداعاً كان ذلك بصوتٍ متهدج حزين.

لا أدري ما إذا كان كل شيء مصادفة أو فيما إذا كانت الأحداث لها ارتباطات غير مرئية لا يمكن بلوغها. فبالقرب منّا تشاهد مبنى مدرسة الذكور الثانوية الأولى التي قد قضيت فيه ثماني سنوات من طفولتي وشبابي المبكر قبل حوالي نصف قرن من الزمان. وكان هناك حينها مدرستان ثانويتان أخريان في نفس الشارع، مدرسة عادية وأخرى تجارية. وفي أسفل الشارع عبر الجسر الخشبي الصغير فقط كانت مَدْرسة للإناث. وكما تحدثت في اجتماع ذلك اليوم، تلاحقت صور العالم منذ ما يزيد عن خمسين عاماً في شريط ذكرياتي: أوجه شابة وبشوشة كتلك التي شاهدتها اليوم في مبنى قاعة الجيش. أساتذة صارمون وفسحة غداء عند العاشرة والنصف. ركضٌ في الممرات المعتمة وفي الشوارع المزدحمة بالأولاد والبنات، وباعة البوظة صارخين ومادحين منتجاتهم. وحانوتاً صغيراً يبيع الكعك المحلى قليل القشدة. النظرة الأولى والحب الأول. مناقشات عنيفة عن العدالة والظلم، وحديث عن بناء عالم جديد أفضل مثير. وللحظة عدت عندها إلى شبابي، شبابي المبكر، عندما اجتمعت جميع الأحلام الوردية اجتمعت بعضها مع بعض. ثم جاءت الحياة، كريح قوية عصفت بها واحداً إثر الآخر.

إن ما نسميه سعادة هي في بعض الأحيان التوافق بين حياتنا وبين الظروف، وبين سيرتنا الذاتية وبين التاريخ، وبين طموحاتنا وبين التيارات التاريخية، فإذا نظرت إلى الأشياء بتلك الطريقة، فيمكنني أن أقول: "ولدتُ في حقبة من الزمن بعيدة كل البعد عن زمن سعادتي". ولكن تاريخ الولادة ليس بمقدورنا اختياره. إنه جزء من قدرنا.

فلو عرضت عليّ الحياة مرة أخرى لرفضتها. لكن لو كان عليّ أن أولد من جديد، لاخترت حياتي.

الملحق الأول

رسالة الجنرال ديفياك

ديفياك يوفان نائب عن NŠVK OS RB&H

٠٢/٦٨٨-١

سرايفو، ٢٧ أيار (مايو) ١٩٩٣

استقالة من وظيفة نائب مفوض في NŠVK OS RB&H

علي عزت بيغوفتش

أقدم لكم استقالتي المكتوبة من وظيفة النائب المفوض لجيش البوسنة والهرسك..

الأسباب:

١- في شهر أيار (مايو) سلّمتكم باليد استقالتي، لأنه كان هناك عدد من الأعمال الإجرامية ضد مواطني سرايفو. فقد قامت عصابة موشانا - تساتسه توبالسفتش بالتسبب بجراح خطيرة لولدي جيليمر، وبناء على طلبكم بالتروّي في التفكير واعتبار ما يمكن أن تعنيه هذه الحادثة لمصالح البوسنة والهرسك، فقد اعتقدت أنكم كنتم تعنون جدياً بأنكم تحتاجون لي عضواً ثالثاً من أعضاء

الشعب الدستوري في رئاسة الدفاع عن أراضي البوسنة والهرسك. ولأجل هذا السبب فقط، وهو سبب ثقتي بنواياكم المخلصة قمت بالفعل بسحب استقالتي.

٢- أظهر مسار الأحداث في الفترة التي تلت ذلك أنني غالباً لم أكن سوى قطعة (ديكور) كما يقول بعض العاملين في مقر قيادة الجيش. فخلال أشهر الحرب الثلاثة عشر، لم يتم معاملتي أبداً نائباً مفوضاً، وإنما باعتباري "الشخص الثالث". الدليل يكمن في حقيقة أنه لم يتم أبداً مشاركتي في العمليات. وفي التخطيط للمعارك والقتال، وفي تنظيم جيش البوسنة والهرسك. على سبيل المثال، ليس لدي أدنى معرفة بعمليات "يوغ ٩٢" أو "إنغلوب ٩٢"، لأنه جرت معاملتي على اعتبار أني "غير جدير بالثقة". وكان هناك بعض التصريحات المعينة مفادها أنني كنت على اتصال مباشر مع التشتنيك.

٣- لم يتم الأخذ بعين الاعتبار أو قبول أي من اقتراحاتي المتعلقة بتشكيل وتنظيم مشاكل الوحدات والأجهزة. ولم أشأ الموافقة على قادة الفيالق الذين كانوا رجالاً ليس لديهم المعرفة الحرفية العسكرية الكافية (وأنتم على دراية بحادثة فرقة فدائيي البلدة القديمة) وأولئك الذين لم يكن بوسعهم قيادة وأمر مواقع إيغمان (ميدو خازندار، مرصاد تشاوشبفتش وريدجو مبيهتش)، لكن ذلك تمَّ غض النظر عنه. ولدى عودتي من المنطقة الحرة، قدَّمت تقريراً حول الأوضاع وظروفها في مناطق إيغمان، كونتش، ويابلانيتسا. لكن مع ذلك لم يرغب أي كان بالأخذ بشكل جدي بالتقرير واتخذت إجراءات عملية لمنع الأسباب التي أدَّت إلى مهاجمة مجلس الدفاع الكرواتي لجيش البوسنة والهرسك.

٤- لم أتفق مع سلوك قيادة قواتنا فيما يتعلَّق "بوضع" كونيتش وبسجني في بارسوفيتشي لمدة ٢٧ يوماً. بناء على أوامر تلك القيادة . كان يفترض بنا أن

نجتمع في إغمان لدى عودتي من نيويورك. وبما أن عناصر القيادة لم تحضر إلى إيغمان، فقد جُعل مني "كرة بشرية" لمدة ١٠٠ يوم. لم يكن لديّ حتى الحد الأدنى من الظروف التي تمكنني من العمل. فقد كنت أتسلل من مبنى إلى مبنى دون أي حماية، ووضعتُ في حالة بين الحياة والموت: من أجل البوسنة والهرسك. نعم، لكنني لا أعرف من أجل من أيضاً، فأنا لا أعرف الأسباب التي حدت بالقيادة ألا تعلن، على الملأ أنني لست مجرماً كما كان قد ذكر مجلس الدفاع الكرواتي في موستار. فهذا الأمر يجب أن يتم توضيحه من قبل الجهاز المسؤول. وإني أسألك أنت، القائد الأعلى لجيش جمهورية البوسنة والهرسك، ألم يكن من صلاحياتي زيارة المنطقة الحرة إلى جانبكم في أشهر تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٢ مثل ياسمين ياغانياتس وأرمين بوهارا؟

٥- إني لا أتفق مع سلوك قيادات الجيش والقائد الأعلى في الجيش الحالي، بأن ما يجري إلى الآن هو أقسى فترة من فترات الحرب. لا أحد يتخذ إجراءات مناسبة ضد السلوك الإجرامي الذي يقوم به بعض منتسبي الجيش ضد مواطني البوسنة والهرسك (وإني لا أقبل البيان القائل بأنهم يقابلون بالثناء من قادة جيش البوسنة والهرسك).

ولعدة شهور الآن، أو نحو ذلك، تم العثور على بعض الأفراد من أعلى المراتب في الجيش في أحوال غريبة، وهؤلاء يحدثون ضرراً كبيراً على جيش البوسنة والهرسك. ولا أدري من الذي أذن بوجود سجون خاصة في كل من هراسنيتسا ودوبرينيا. يجب أن يُقرأ تقرير الصليب الأحمر الدولي حول زيارة سجن سراييفو بتاريخ ٢ أيار (مايو) ١٩٩٣. إن ما يجري حالياً في مدينة سراييفو غير مناسب حتى لوحدات قبلية مسلحة في إفريقية. ويتوجب عليكم تلقي معلومات حول وحدة عدنان سلو كوفتش من مواطني سراييفو الشرفاء-

من الزوجات والآباء والأصدقاء. أعطيكم مثالاً واحداً فقط لتوضيح ما أقول. حدث ذلك منذ حوالي ٣٠ يوماً مع شخص ما، وهو في طريقه إلى العمل (لدي بيانات صحيحة بم حدث). تمَّ إيقافه في الشارع على يد رجال سليشكوفتش، وقد أطلعهم على شهادة المهمة التي يقوم بها، إلاّ أنهم قاموا بتمزيقها واقتادوه إلى الوحدة بالقوة. إن ذلك الشخص هو من أولئك الرجال المهمّين لتشغيل شبكات المياه وأنظمة الصرف الصحي. ولا يخدم في الجيش؛ لأنه منذ الولادة يعاني من مرض في الكلى. وعلى الرغم من محاولته شرح وضعه الصحي لم يستمع إليه أحد، وإنما على العكس من ذلك تم إدخاله في تدريب صعب ومعقد على خوض المعارك، وأصيب بنوبة كلى، ولكن لم يتم التماس أي عذر له، ومن ثم فقد وعيه بعد أن أُغمي عليه. تمَّ نقله على وجه السرعة إلى المستشفى حيث تلقى عناية طبية. مع ذلك، قام سليشكوفتش بإرسال اثنين من رجال الشرطة التابعين له إلى المستشفى لإعادته إلى الوحدة. وليس لدي أي معلومات عما حدث معه بعد ذلك.

لكن مع ذلك، فإن أصعب الأوضاع في هذا كله تتعلق بجيش البوسنة والهرسك. إن طرق تعامل قائد الفرقة العاشرة غير لائق بتضحيات المواطنين والجنود على حد سواء. وعلى الرغم من أن المعلومات حول السلوك الإجرامي متوافرة أمام قيادة الشخص، إلا أنه لم يتم اتخاذ أية إجراءات ضده. أعلم أن القيادة لديهم اطلاع على الظروف والأحوال، ولكني مع ذلك سأقوم بتقديم بيانات ملموسة تتعلق بقيادة الفرقة العاشرة. ولا أدعي أن البيانات صحيحة تماماً لكن يمكن اعتبارها ذات دلالة.

في منطقة أبلاكوفينانا (نادليبا) هنالك مجموعة من المواطنين والجنود من جيش البوسنة والهرسك تعمل على أساس مختلف. في معظم الحالات جرى تجريدهم من كافة وثائقهم الشخصية. جرى تقسيمهم إلى خمس مجموعات.

المجموعة الأولى تتألف من سجناء. هناك حوالي عشرة منهم. وأسماؤهم هي دراغن، وسينيشا، وايفو.. (لا أعرف أسماء الآخرين). وقد ظلت هذه المجموعة لمدة تتراوح من ٤٠-٥٠ يوماً دون أية مرافق صحية شخصية أو حمامات... (صدقوني- كانت رائحتهم نتنة). لقد قيل لي أن "تيهو"، مدير الشرطة العامة في البوسنة كان من بين أولئك [السجناء]. إنهم يحفرون خنادق يومياً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساءاً. وتتكون المجموعة الثانية من أفراد تمت معاقبتهم. وهم هنا لأسباب كبيرة أو صغيرة أو صغيرة جداً إلى أقصى حد على سبيل المثال. خيّاط الفرقة "هايرو" موجود ضمن "حفّاري الخنادق" فقط لأنه ألقى نكتة حول عدم وجود قماش صيفي للبذلات العسكرية. وتمثل المجموعة الثالثة أولئك الذين جرى أخذهم تحت الوصاية. كان بعضهم هناك لمدة من شهر واحد أو أسبوعين أو أسبوع واحد. وهم يعملون ١٢ ساعة يومياً. ويمكنك سؤال الأشخاص التالية أسماؤهم حول أحوالهم وظروفهم: سلوبودان لوتشتش، نائب وزير الصحة؛ وصفوت حجي حسانوفتش ووالدة حارس ألاتوفيتش، التي يعمل ابنها على جهاز كومبيوتر في SVK OS، ويبلغ من العمر ١٨ عاماً، وليس لديه أدنى نوعٍ من أنواع التدريب العسكري؛ ووالدة جيلكو فويكوفيتش، التي كان ابنها يعاني من نزيف داخلي حاد، والذي تمَّ تسريحه من الخدمة من طبيب الفرقة، ولكن مع ذلك أمره القائد بمواصلة الحفر؛ وزوجة ميهو محمدوفتش، الرجل الذي تم اعتقاله في الشارع حينما كان في طريقه لعمله، مرتدياً بدلة صيفية وربطة عنق وحذاء بالإضافة المئات الآخرين الذين جرى تحطيم كرامتهم. وإني أتوجه إليكم بالسؤال: كيف يا ترى تشعر عائلات هؤلاء المواطنين؟

كذلك تم تكوين فئة رابعة.إنهم جنود الفرقة. سيتحدثون هم أو سيتحدث التاريخ. وتتألف الفئة الخامسة من أشخاص جرى إحضارهم للعمل من أجل

الفرقة من خلال شخص يدعى مرصاد، وكان قائدهم. دعوه يقول ما يعرفه. إنني على اطلاع وثيق بحقيقة أن هذه المجموعة تعمل من الثامنة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر. وإني أعجب وأتساءل عمن سيتحمل عناء المسؤولية عن هؤلاء الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى الخطوط الأمامية لحفر الخنادق؛ قتل منهم خمسة وجرح حوالي عشرين خلال ٢٠يوماً.

٦- بوصفي فرداً من أفراد جيش البوسنة والهرسك فإن لدي تحفظات على إصرار البعض على عدم التعاون ما بين الحكومة، وقيادات الجيش، والجهات، وغيرهم من الرعايا في حرب التحرير، كما هو الوضع الآن. إن مطلبي بوجوب أن يتم حل مسألة الأنشطة القتالية على ولكن لم يتم أخذ ذلك بشكل جدّي. وليس بمقدوري قبول ذلك ولا أرغب بتحمل المسؤولية عن عدم تعاون أفراد المجموعات المختلفة في المعارك المسلحة.

إنني أود أن يتم تقصّي الظروف في سجن دوبرينيا. وأطالب بنقلي من مقر القيادة إلى الخدمة جندياً في جيش البوسنة والهرسك. وعندما تتلقى تقريراً خلال ١٠-١٥ يوماً يقول: إنني قتلت في أثناء محاولتي الفرار إلى الجانب الآخر، أرجو منك عدم تصديقهم. إن قلبي وروحي مع جمهوريتكم:جمهورية البوسنة والهرسك.

مقدّمه

يوفان ديفياك

الملحق الثاني

من محادثة مع سيدران

نص مختصر

سيدران: إنني كاتب وأحب أن أبدأ حياة إنسان من البداية. الجميع يعرف أن المدن التي ذكرتها بوصفها مدناً مهمة في سيرتك هي بلغراد، وشاماتش، وسراييفو، ولكن ليست هناك معلومات أكثر تفصيلاً معروفة عن هذا. إن لدينا فضول حقيقي وتشوق أكيد لمعرفة ما تعنيه بلغراد بالنسبة إليك، وما هي سلالات العائلة التي عاشت هناك، وكيف قدموا إلى البوسنة وما الظروف التاريخية وراء ذلك؟

عزت بيغوفتش: عاشت عائلتي في بلغراد حتى عام ١٨٦٨. وهذا هو العام الذي غادر فيه المسلمون مدينة بلغراد. ذهبت إحدى المجموعات إلى أوجيتسه، وذهبت مجموعة أخرى إلى تركية، وجرى منح المجموعة الثالثة أرضاً بالقرب من شاماتش. في ذلك الحين لم تكن بلدة شاماتس قد وجدت بعد. قبل أيام قرأت كتاباً حول العيد المئوي لتلك البلدة، وكان الكتاب قد نشر عام ١٩٦٨. في البداية أطلق على شاماتس اسم عزيزية تيمناً باسم السلطان عزيز الذي قام بإعطاء المسلمين القادمين من بلغراد قطعة أرض عند مصب نهري البوسنة وسافا، على الجانب الأيمن من البوسنة. وكان ذلك عندما بدأ عدد من العائلات

المسلمة بالعيش معتمدين كلياً على الأرض؛ وإني لا أعرف كيف أمضوا تلك الأيام الأولى من بناء أمكنة إيواء ومن ثم البيوت، وكانت هذه هي الكيفية التي وجدت فيها بلدة شاماتس.

سيدران: هل صحيح أنه كان هناك عزيزية عليا وعزيزية دنيا، بحيث كان هناك بلدتان على نهر سافا؟

عزت بيغوفتش: محتمل جداً، ولكني لا أعرف الكثير حول ذلك. أعلم أن جدّي، الذي كان يسمى علي، وسميت على اسمه، كان عمدة (رئيس بلدية) شاماتس قبل الحرب العالمية الأولى وأنه ذهب للبلاط التي مع (النمسا) أو التي كانت حينها السلطة الحاكمة لبلغراد، لا نزال نمتلك مساحة واسعةُ من الأرض هناك في أدا تسيغانليا. وبما أنني ذكرت جدّي، فمن المثير للاهتمام التحدث عن شيء مهم فيما يتعلق بحياتي الشخصية الخاصة.

بعد اغتيال فيردناند عام ١٩١٤، قام الجيش النمساوي بأخذ رهائن صرب في معظم الأجزاء الكبيرة تقريباً من البوسنة والهرسك. ولم يستطيعوا القيام بهذا في" شاماتس"، لأن جدّي وقف لهم بالمرصاد. هذه لحظة مهمة في حياتي الخاصة. وفي عام ١٩٤٤ قام التشتنيك باعتقالي بالقرب من غراداتشاتس، حيث كان بعض أبناء عمومتي لاجئين إثر استيلاء الأستاشا على شاماتس. كنت قد ذهبت إلى هناك من سراييفو. وعندما اعتقلني التشتنيك، كانت حياتي في خطر. لكن، قامت مجموعة من الصرب بالتدخل والتوسط لدى العقيد كيسروفيتش، الذي كان قائد المجموعة في حينها ورئيس النشتنيك وأخبروه بقصة كيفية إنقاذ جدّي لأربعين من الصرب عام ١٩١٤، وأن الواجب يقتضي أن يرد الجميل. وبفضل هذه الحادثة، غادرت المكان ورأسي فوق كتفيّ.

سيدران: ماذا كانت مهنة والدك؟

عزت بيغوفتش: كان والدي تاجراً في "شاماتس" لكنه خسر، لأنه لم يكن موهوباً في عمليات البيع. وكان مشاركاً لشخص خدعه فانهارت تجارته. ثم ذهبنا إلى سراييفو. كان عمري عامين فقط حينها. لهذا السبب أشعر أنني أنتمي إلى سراييفو أكثر من انتمائي إلى شاماتس. كنت أزور" شاماتس" من حين لآخر في الإجازات الصيفية لزيارة أعمامي الذين كانوا لا يزالون يسكنون هناك. لكنني أعيش في سراييفو منذ العام ١٩٢٧.

سيدران: كيف كانت الحياة لدى وصولكم سراييفو؟

عزت بيغوفتش: صعبة. كان والدي كاتباً في شركة صغيرة. كنّا خمسة أطفال، ثلاث بنات وأخي وأنا. من دواعي فخري واعتزازي القول بأني درست في أول مدرسة ثانوية للذكور، والتي كانت مشهورة آنذاك. لقد كنت أداوم في تلك البناية، مقر المدرسة الثانوية الأولى للذكور، وهي البناية المجاورة لمقر الجيش، لمدة ثماني سنوات. يشكو الناس من أن الحياة قصيرة، (أما) بالنسبة إلي فتبدو طويلة جداً. لقد أنهيت ست صفوف هناك في زمن يوغسلافية القديمة، وتخرجت في عام ١٩٤٣. كان يتوجب عليّ تقديم نفسي للجيش حينها، لكنني لم أفعل، وإنما قررت الفرار. وكانت غراداتشاتس، حيث ذهبت تحكمها التشتنيك وميلشيات حادجي افندتش المسلمة. وكان كلا الطرفين مسلحاً، ولكن كان هناك نوعٌ من الهدنة بينهما. ولم يكن في هذه المنطقة أية أعمال إجرامية أو نفي للصرب أو المسلمين خلال فترة الحرب العالمية الثانية بأكملها، كانت هناك ظاهرة غريبة. إن أفظع الأعمال الإجرامية قد حدثت في شمال البوسنة هذه المرة. ففي الحرب السابقة، لم يُقتل أي مسلم على أيدي الصرب في أي من " برتشكو" أو" شاماتس"، أو غرادتشاتس، أو مودريتشا، على الأقل على حد علمي.

سيدران: إذن، لقد أكملت تعليمك، الدراسة الثانوية، في سراييفو؟ كم طالت مدة غيابك؟

عـزت بيغوفتـش: لقـد كنـت هاربـاً منـذ عـام ١٩٤٣، واختبـأت في "غراداتشاتس" و"مورتيشاه" طوال عام ١٩٤٤ بأكمله. كنت أقوم سـراً بزيـارة سرايفو في مناسبات معينة. في عام ١٩٤٥، قدمت العصابات الحزبيـة. وعندما دخلت سرايفو في الأول من نيسان (أبريل)، كنت مريضاً جداً بمرض التيفوس. قـاموا بـالطرق علـى بـابي ليلـة٥/٦ نيسـان (أبريـل). لاحقـاً، عندمـا تعـافيت، التحقت بالجيش. في نهاية هذا، بعد أن خدمت في الجيش المدة المطلوبـة، جـرى اعتقالي. كـان هـذا في الأول مـن آذار (مـارس) ١٩٤٦. أُجريـت لـي محاكمـة عسكرية من الجيش السادس وحُكم عليّ بالسجن ثلاث سنوات. تصرفت كما لو كنت أُعارض كل من الأستاشا والجماعات الحزبيـة معاً، لأنني فـررت مـن الأستاشـا، وفي الحديـث عمـا إن كنـت سـأنضم إلى الجماعـات الحزبيـة، قلـت بصراحة: إنني لن أفعل. وكانوا يعرفون ذلك.

سيدران: إني أرى هذا على أنـه نـوع مـن التنفيـس عـن النفـس أو التطهـير الفكري، مشهد أخير من فيلم ينتهي بفعل غير عادل: مدافع بريء يُحكم عليـه بالسـجن لمـدة ١٤ سـنة، ملامـح وجهـه يكتسـحها القهـر والصمـت الحزيـن والسكون المهيب. ويمكنك رؤية هذا كذلك على الجنب في صورة جانبيه محاطة بالظلال لرأس مائل قليلاً إلى الخلف. لا بد أن وجه سقراط كان يبدو هكذا، أو هكذا أعتقد، حينما صادق قضاة أثينا علـى حكمـه بـالإعدام وأن عليـه تنفيـذه بنفسه على نفسه. نعم، العام كان عـام ١٩٨٣، وعمليـة ملفقـة ضـد المفكريـن المسلمين، والمتهم علي عزت بيغوفتش، ومحامي، وأحكام مرعبة، على الرغم من أنه، قبل يوم أو يومين، كنا قـد غادرنـا قاعـة المحكمـة كمـا لوأنـه كـان لدينـا أجنحة، من يستطيع، كمـا اعتقـدت، القـول مذنـب بعـد مثـل ذلـك الدفـاع؟ لا أحد، في مكان غير موجود في العالم.هذا العار البوسني التـاريخي،(أي) هـذه المحاكمة، لم يتم أبداً الإعلان بمنع حضورها من قبل العامة، لكـن "المشـاهدين"

كانوا يعدون على الأصابع: فقد اختارت الدولة قاعة صغيرة للمحكمة، وعندما أخذ المدعى عليهم ورجال الأمن ورجال الصحافة المعتمدين مجالسهم- لم يتبق أي مكان لأي شخص آخر. وبعد الكثير من المشقة، تمكنت أخيراً من الحصول على نوع من التصريح من نيدجو (سلوبودان نيدجو نيكولتش، وهو صديق من جلسات المحكمة في" سيليو)، سكرتير المحكمة، وذهبت هناك لأيام عديدة، لمشاهدة ميليكا وليمكنها مشاهدتي. وقمت بإعداد ملفات، من أجل التوثيق في البيت، من أجل إعداد فيلم في المستقبل عن كافة الأمور التي شاهدتها وسمعتها في ذلك الحين في قاعة المحكمة، فإن الصورة التي بقيت محفورة بشكل قوي حاد لا يمكن نسيانها في ذاكرتي كانت وجه علي عزت بيغوفتش، في اللحظة التي تم فيها النطق بالحكم عليه.

لقد رأيت تلك النظرة على وجهه مرة أخرى، بعد ذلك بعشر أعوام، لقد جلبها معه من الغرف الرئاسية التي كان يحيا بها، إلى الميكرفون، بعد محادثة مع أحد مجرمي وقتلة البوسنة الدوليين. ولم تستقر بالجمل المنطوقة، وقد اكتشفت ذلك لاحقاً. فهذه الشخصية الدولية، ذات السلطة، حاولت أن تقنعه أن "المسلمين هم الجانب المهزوم في هذه الحرب، وأن على المرء الانطلاق من هذه الحقيقة لدى محاولة إيجاد حل سلمي" (إن القول بأن اتفاقية دايتون للسلام أنقذت التشتنيك من هزيمة عسكرية كاملة هو قول أقرب للحقيقة). مع ذلك فإني مهتم بمعرفة اهتماماتك الروحانية في ذلك الوقت: الأدب والفلسفة. كيف تكونت أفكارك؛ حقيقة كيف تم تشكيلها وصياغتها في ذلك الزمن؟

عزت بيغوفتش: من حسن الحظ أو من سوئه أني أقرأ كثيراً، وبرأيي، أنه أحياناً أقرأ كتباً غير ضرورية عن الفلسفة. هذه الأيام، أعتقد أحياناً أنني أقرأ العديد العديد من الأشياء عديمة الفائدة وأنه كان من الأفضل لي لو أني تعلمت اللغة الإنجليزية بشكل أفضل، عملياً، من أجل العمل الذي أقوم به الآن، أو

هكذا بدت لي الأمور؛ لو أني فعلت ذلك لكانت استفادتي أكبر من لغتين، مثل الفرنسية والإنجليزية، مما استفدت منه من الفلسفة الهندية، لأني لا أدري إن كانت هذه الفلسفة مفيدة بالنسبة إلي أم لا.

سيدران: ماالمدى التي كانت به مفهومة بالنسبة إلى شاب في مقتبل العمر؟

عزت بيغوفتش: كأنك تبتلع تلك النصوص ويعلق منها بعض الشيء في حلقك.

سيدران: إنني أقوم الآن بدراسة مثل تلك الأعمال والكتب وأتصارع معها بمشقة.

عزت بيغوفتش: كنت قد قرأت" بهاغافاد جيتا" ذلك الحين، وهي جزء من ملحمة " المهابهاراتا" كانت تصيبني نوبات قراءة مثل نوبات ألم الأسنان؛ فقد كان يمر عليّ ثلاثة أو أربعة شهور دون قراءة شيء، ثم بعدها أبدأ بالقراءة بشكل محموم للأشهر الثلاثة التالية. وبعدها، تكرر العملية نفسها. لقد قرأت تقريباً كافة الأعمال التي كتبها دوستويفسكي وتولوستوي، وكل شيء تقريباً كتبه كانط. عندما كنت في التاسعة عشرة، قرأت كتابه" نقد العقل المطلق ". ولا أزال أذكر بشكل جيد بعض الأجزاء التي كان لها تأثير خاص عليّ، وعلى الخصوص تناقضاته الشهيرة في الجزء الأوسط من ذلك الكتاب. ومن الكتب التي أذكرها كتاب شبنغلر " سقوط الغرب". ولم أتمكن من تحرير نفسي مما جاء به من خطط لفترة طويلة، فهي خطة فولاذية نوعاً ما يسقط المرء في حبائلها ولا يستطيع التفكير على نحو يختلف عنها.

سيدران: في تلك الأعوام كان ذلك الكتاب يجري تناقله بين الدوائر الفكرية، ونال مكانة في مكتبة والدي. قمت بفتحه وتصفحته وأنا طفل، وكان شخص ما قد وضع خطوطاً حمراء تحت أجزاء منه. لم أفهم منه شيئاً، ولكني واصلت قراءته مع ذلك. كنت حينها في الخامسة عشرة أو نحو ذلك.

عزت بيغوفتش: لقد تأثرت إعجاباً بمعرفة شبنغلر الضخمة بالحقائق. هنالك في الواقع مجلدان. وأعتقد أن العمل احتوى بأكمله على ألف صفحة. وأن الناشر على ما أعتقد هو كوزموس من بلغراد. هذه المكتبة نشرت العديد من الكتب المهمة في فلسفة العالم. كذلك فإن بيرغسون مهم. فقد كان أسلوبه مدهشاً على نحو غير اعتيادي. بيرغسون كان في الواقع عالماً، متخصصاً في علم الأحياء. إن ذلك التركيب المزدوج بين كون المرء عالماً وفيلسوفاً هو، إلى حد ما، مدهشاً وخطيراً. إن أفضل كتبه دون شك هو كتاب التطور الإبداعي. واعتبره الناس الأفضل أسلوباً من بين الفلاسفة. وهذا الأمر مخالف لكانط الذي لم يكن أبداً صاحب أسلوب فذ. يقول البعض: إن" انتقاداته" كان يمكن أن تكتب في ثلث المساحة أو الكمية التي استغرقتها. بالنسبة إلى بيرغسون فقد كانت كتاباته كثيفة وجزلة بالحد المطلوب، ذات جمل ممتازة ومجازات رائعة. فما كتبه في كتاب" التطور الإبداعي"، برأيي، لم يكن بالإمكان شرحه دون استخدام المجاز اللغوي.

سيدران: بما أننا قفزنا عن جزء من الوقت الذي أمضيته في السجن، وسنقوم بتناول ذلك الموضوع مستقبلاً، قد يكون من المناسب لو أخبرتني عن طبيعة الحياة في السجن سواء في المرة الأولى أو الثانية، غير تلك العناصر السياسية، وغير تلك القانونية، وغير تلك المتعلقة بالدولة. هل تم إعفاؤك من العمل الجسدي الشاق، وما وجه الاختلاف بين الفترة التي قضيت فيها فترة السجن الأولى والثانية، وهل كانت من ناحية جسدية شاقة جداً أكثر مما يحتمل. وماذا كان وضع شاب في مقتبل العمر، مسجون سياسياً، بين آخرين ممن كانوا في السجن بسبب أعمال إجرامية وغيرها من السلوكيات السيئة؟

عزت بيغوفتش: كما ترى، يمكن القول: إنه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أصبح هناك سجون سياسية. من ناحية إحصائية، كان في تلك السجون

٩٠٪ سجناء سياسيون و١٠٪ مجرمون. عندما ذهبت للسجن مرة أخرى عام ١٩٨٣ كان الوضع معكوساً أي ٩٠٪ مجرمين و١٠٪ محكومين سياسياً. لهذا السبب كان السجن الأول أسهل بالنسبة إلي من الثاني حيث وضعت بين مجرمين. مع ذلك، ليس لدي أية ذكريات سيئة على نحو خاص من تلك السجون. ففي المرة الأولى، في شبابي، كان زملائي أشخاصاً ممن يحملون فكراً مختلفاً لذلك كان بوسعنا التحدث (الهمس) حول أي شيء منه. في المرة الثانية، من الغريب نوعاً ما، كنت فيها محامياً، والمحامون يتمتعون بتقدير كبير في السجن. فالمحكومون بحاجة إلى محام لكتابة عرائض الشكاوى، والمطالب وما إلى ذلك. وبالتالي فإن هذا الوضع جعلني أحظى باحترام ومحبة أولئك الأشخاص. أحياناً كانوا يقومون بإخباري بأمور لم يكونوا قد اعترفوا بها أثناء المحاكمة. وهكذا، كنت أعرف قصصهم، ومصائرهم. كذلك فإن المحكومين يعانون من الوضع المؤسف بأن تهجرهم زوجاتهم، وبالتالي يكون هناك إجراءات طلاق. وهكذا، لدى كتابة تلك المطالب والأوراق، يحدث لدى المرء اطلاع على المأساة والوضع المؤثر لطلاق الأشخاص الذين لديهم أطفال. إنها خبرة إنسانية فظيعة. من جانب آخر، فإن المجرمين في السجون ليسوا على النحو الذي نتخيلهم به. هنالك أشخاص طيبون جداً من بينهم. عندما كنت في السجن للمرة الثانية كنت في غرفة رقم ٩٠ كانت تلك غرفة القتلة. كان هناك ما بين ٩٠-١٠٠ شخص في تلك الغرفة التي كنا نطلق عليها اسم جناح. كانت تتألف من مساحة واسعة مع غرفة طعام وأربع منامات وحمّام. كانت تلك الكيفية التي توصلت بها لمعرفة قصة كل قاتل من أولئك، لأني أمضيت الحكم الذي عليّ لمدة ستة أعوام تقريباً. وفي العديد من الحالات كنت سأتصرف على النحو الذي قاموا هم به. وبالتالي، عندما ننظر إلى أولئك الأشخاص من الخارج، فإننا نرى الأشياء باللون الأسود والأبيض. بالنسبة إلينا،

هم مجرمون ولا شيء غير ذلك. حينما يتعلق الأمر باللصوص فإني لا أعرف نوعية أولئك الأشخاص. إنما، حين يتعلق الأمر بالقتلة، فإنهم نوع خاص من الأشخاص. فهم مجرمون من ناحية، ومع ذلك من ناحية أخرى هم رجال لهم شخصياتهم وشرفهم ولا يستطيعون تحمل العيش بإهانة أو ظلم أو غضب شديد. لقد كان يونوز كيشو كودوز* معي في فوتشا، لمدة عامين أو ثلاثة. إني أعرفه جيداً، فقد كنا في نفس الغرفة.

سيدران: هل كان يعمل في مشغل نجارة الموبيليا؟

عزت بيغوفتش: نعم، جرى توزيعنا معاً إلى مشغل نجارة الموبيليا. وقد عملت هناك لفترة من الزمن، أعتقد لنصف المدة التي قضيتها في السجن. لم أعمل هناك في النصف الثاني لأني أُصبت بالتهاب رئوي مازلت أعاني منه حتى اليوم. إن العمل بالخشب ليس حرفة سيئة، لكن هناك فيه الكثير من الغبار. إن التنجيد يخرج نوعاً من الغبار يسبب لي المرض، ولأني كنت قد أصبت بالالتهاب الرئوي من قبل، فقد عانيت من مشاكله منذ ذلك الحين، وربما حتى سأموت بسببه.

سيدران: دعنا نعود مرة أخرى إلى كيشو.

عزت بيغوفتش: إني أعرف قصته حول تلك الفتاة الصغيرة. مع ذلك، فإن كيشو لا يبدو مثل ذلك الشخص الذي في فيلمك.

سيدران: نعم، لقد وظف أديمير وجهاً كان جميلاً جداً أكثر مما ينبغي.

عزت بيغوفتش: كان كيشو صموتاً جداً، ميالاً للوحدة وغير سعيد. أفضل طريقة لوصفه هو أنه شخص حزين إنما طيب. وهكذا، فهو واحد من أولئك الأشخاص الذين حدثتك عنهم. أنا لا يمكن أن أقتل نفسي بسبب خيانة

* الشخصية الرئيسة في فلم عبد الله سيدران (كودوز).

زوجتي، لكنَّه فعل ذلك. وإذا كنت لا أستطيع تبرير ما حدث، فإني أستطيع على الأقل تفهم ذلك. كان هناك العديد من الأشخاص الذين لم يقدروا تحمل نوع ما من الظلم والعنف، فكان ردّ فعلهم على ذلك النحو. وبالتالي أصبحوا مجرمين وقتلة في الشخصية الرئيسية في فيلم كودوز (سيناريو عبد الله سيدران).

النهاية. كان لديّ صديق في السجن ارتكب جريمة قتل دفاعاً عن والده. كان في ذلك اليوم يعمل في بناء بيت، وكان من المفترض أن يقوم ببناء السقف حين أتى بعض الأشخاص وأخبروه أنه وقع هجوم على والده في أحد المقاهي. ذهب إلى موقع المشاجرة ورأى والده ملقى تحت الطاولة، والرجال يرفسونه بأرجلهم. تناول أول شيء وقعت عليه يداه وقتل أحدهم. إن الخبرات والتجارب مع تلك الأنواع من الأشخاص غريبة جداً.

سيدران: ما أول عمل حصلت عليه بعد ذلك، وهل كان من الصعب عليك العثور على وظيفة مع تلك البطانة السياسية التي حُسبت عليك؟

عزت بيغوفتش: لا، لم يكن صعباً. كان هناك الكثير من الأعمال، لكن الرواتب كانت متدنية جداً. رجال الحزب كانوا يحاولون عمل وبناء شيء ما. كانت الإدارة تتضاعف بالحجم. كان بوسع أي شخص يجيد القراءة والكتابة إيجاد عمل. وقد عثرت على عمل فوراً، لأني كنت أنهيت الدراسة الثانوية. حصلت على عمل بعد ١٢ يوماً من خروجي من السجن. خرجت في ٤ آذار (مارس) وبدأت العمل موظفاً في ١٦ من الشهر نفسه.

سيدران: توظفت مع شركة بناء تسمى" بوت"

عزت بيغوفتش: نعم. توظفتُ في شركة "بوت"، وهي شركة هندسية، وعملت هناك حتى عام ١٩٦٤، حين انتقلت إلى شركة آي بي أس ايه. وكنت في المحكمة لمدة سنة في أثناء ذلك، من ١٩٦٢-١٩٦٣، حيث كنت

أقدم امتحانات قانونية. وكان عليّ الوجود في المحكمة لمدة سنة كمتدرب لضمان استيفاء شروط اجتياز ذلك الامتحان.

سيدران: لديّ انطباع بأننا لم نقم بعمل ما يكفي للحفاظ على التركيب المتعدد الأعراق لجيش البوسنة والهرسك. ففي سراييفو، كما في بعض المدن والبلدات الأخرى في عام ١٩٩٣ كانت تركيبة قوات دفاعنا العسكرية مشابهة للتركيبة السكانية. إذا كنا متفقين على العبارة القائلة أن بقاء البوشناق وحياتهم مشروط ببقاء الدولة المتعددة الأعراق للبوسنة والهرسك في حدودها التاريخية، ما الذي يتوجب فعله بالنسبة إلى الجيش ليعكس بحق كافة الشعوب والأعراق الموجودة فيها (البوسنة)؟

عزت بيغوفتش: أولاً، إن المعلومات التي وصلتك غير صحيحة: لم يكن في أي مكان، ولا حتى في العام ١٩٩٢، تركيب جيش جمهورية البوسنة والهرسك مشابه للتركيبة السكانية الوطنية. كان هذا مؤسفاً، لكن هكذا الحقائق. كان الوضع أفضل قليلاً في سراييفو وتوزلا فيما يتعلق بهذا، ولكن حتى في هاتين المدينتين لم تكن النسبة والتناسب موجودتين، ولا حتى قريبة من ذلك. في أجزاء أخرى، كانت العلاقة (٩ إلى ١) أو أسوأ من ذلك. لماذا؟ أولاً، من المؤكد أننا لم نطاردهم لإخراجهم، ثانياً من كان يدافع عن البوسنة هم البشناق، وعلى وجه التحديد الوحدات البشناقية. يمكننا أن نحاول إخفاء هذه الحقيقة، لكن يجب ألا يتم تجاهل الحقائق والوقائع التاريخية، لأنه سيأتي يوم تتكشف فيه هذه الحقائق إن عاجلاً أم آجلاً. من الأفضل التعامل معها كما هي ورؤية ما يمكن عمله للبدء بالتحرك باتجاه أفضل، إذا كان ذلك ممكناً. ذلك يعتمد على التطورات العامة في البوسنة والهرسك الآن ومستقبلاً. إنها مسألة نجاح أو فشل وحدة أراضي البوسنة والهرسك وما إلى ذلك، لكن هذا موضوع آخر أوسع بكثير.

سيدران: في أحد الاجتماعات بدا لي أنك قبلت بسهولة فكرة إنشاء تلفاز بوشناقي. بدا الأمر محزناً بالنسبة إلي، لأنه يثير السؤال: هل يسهم ذلك في دمار البوسنة أو خلاصها؟ إذا أثبت شخص ما الأمر المستحيل تماماً بأن تلفاز بشناقي وطني منفصل سيسهم ويؤدي إلى خلاص البوسنة، فإن السؤال حينها سيكون: أي مؤسسة ستدعم هذا التلفاز؟ (هل سيكون) مكتب تحرير إحدى دور النشر؟ لم لا يتخذ قرار إدارة مثل تلك اللحظة التلفازية من قبل تجمع البرلمان البوشناقي، أو على سبيل المثال، المجلس المنبثق عن مجلس رجال الفكر البشناقي؟

عزت بيغوفتش: إن هذا لا يتعلق باستبدال تلفاز بشناقي بالمحطة الحكومية الموجودة حالياً، وهي محطة مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك، إنما يتعلق بتأسيس محطة أخرى إلى جانب تلك الموجودة حالياً. لو أنه كان تبديل أو إحلال واحدة محل أخرى لكنت أنا أول من يقف ضده. لكن عندما يتعلق الأمر بتلفاز بشناقي، فإن السؤال الحقيقي هو: هل تقوية وتعزيز الشعب البشناقي يصب في صالح بوسنة موحدة وديمقراطية أم أنه يسحب في الاتجاه الآخر؟ أو إذا عبّرنا عنها بطريقة بسيطة، أي من العبارات المنطقية التالية صحيحة: شعب بشناقي أقوى. بوسنة أقوى، أو العكس بالعكس: شعب بشناقي ضعيف، وبوسنة أقوى؟ هنالك من يعتبر أن العبارة الثانية صحيحة ويعتقد أن بوسنة موحدة وديمقراطية ستحتاج، أو حتى تتطلب، " تجاهل ونسيان" معين للشعب البشناقي. وفقاً لأمثال أولئك، سيكون من المفيد لو أن البشناق نسوا إيمانهم، وأسماءهم، وماضيهم (لأن) كل هذا سيقوّي البوسنة. أنا لا أدري ما رأيك؟ لكن لا بد لي من القول: إني لا أشعر على ذلك النحو. على النقيض، أنا أعتقد أن الشعب البشناقي القوي والواعي يمثل العمود الفقري الأساسي للبوسنة والهرسك، والضمانة الرئيسة، إن لم تكن الوحيدة، لبقاء وحياة البوسنة والهرسك، خصوصاً في الوضع الوشيك الحدوث من مشاريع " الدولة العظمى"

العدوانية سواء من الجانب الشرقي أو الغربي للبوسنة. في مثل تلك الظروف، فإن شعب بشناقي قوي فقط يمكنه إنقاذ البوسنة وإعادة الوحدة لأراضيها بشكل تدريجي. ومثل هذه الظروف هي الضمان الحقيقي الوحيد لعدم إسدال الستارة على الدولة البوسنية.

وإذا حلت هذه المعضلة، فإن الباقي سيتم حله تلقائياً. إن اكتساب الوعي لدى الشعب البشناقي- ويتعلّق دوماً بمعلومات معينة عن الماضي والمستقبل- أمر لا يمكن توقعه من محطة مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك، لأنه بالتعريف لا يتوجب أن يكون وطنياً، ويتوجب أن يكون بوسنياً وليس بشناقياً. وهؤلاء يستطيعون الترويج والتشجيع على التحديد لقيم بشناقية، التي من بينها الدين، دون السير باتجاه معاكس للطبيعة التي تتجاوز ما هو وطني التي يتصف بها. ويواجه العاملون في التلفاز الحكومي هذه المعضلة على وجه الدوام وليس لديهم أدنى معرفة بكيفية حلّها.

بالطبع، فإن الافتراض المسبق لكل هذا هو أن التلفاز البشناقي لن ينخذل ويتخلى عن تقاليد الروح البشناقية، أي إنه لن يقوم بنشر تعاليم الكراهية وعدم التسامح وكل ما يتبع ذلك وينبع منه. على أية حال فليس كل ما هو قومي سيئ. فالشعور القومي ليس مقدساً مثل الأممية العالمية، لكنه وضع طبيعي وصحي، وكان على الدوام قوة دفع قوية عبر التاريخ. إنها فقط قضية اجرائية. أو باسم هذا المبدأ يمثل الاستثناء أكثر من كونه القاعدة. وأخيراً، فإذا كان فكرة التعددية يمكن أن تكون تلفزيوناً حسب رأي سوروس أو كمارك بيلدت، فلماذا لا يمكن أن تكون تلفزيوناً بشناقياً؟

سيدران: حينما يقوم حزب سياسي ما باختيار شعاراته للانتخابات، أو عهد شرف، أو اتجاه جماعي، فإن عليه حينها القيام بذلك بطريقة جدّية. إن الشعارالانتخابي (لحزب) SDA "بإيماننا، على أرضنا"، يقلل تماماً، برأيي،

المساحة التي نتجمع عليها معاً في معركة البوسنة الموحدة والمتعددة الأعراق. أود أن أعرف ملاحظاتك وتعليقاتك حول كيفية قيامنا بحق كياننا الموحد بالدواء البوسني إذا كنا نتحدث عن ديننا وأرضنا؟

عزت بيغوفتش: أنا آسف، لكن يبدو لي أنك تنطلق من افتراض مسبق خاطيء. إنك تنطلق من الافتراض بأن (حزب) العمل الديموقراطي هو حزب بوسني، وهو في الواقع حزبٌ بشناقيٌ. إن حزب العمل الديموقراطي هو بوسني بالقدر الذي يسير به لكن تركيبته بشناقية، ونحن لا ننكر ذلك. علاوة على ذلك، فإن حزب العمل الديموقراطي يؤمن بأن الأمر يتوجب أن يكون كذلك. فالشعور البوسني لابد أن يتولد من البشناقي أو أنه سيكون مزيجاً مشتركاً من الشعورين معاً، إثر العديد من سنوات التفاعل المشترك، والشرارات والتحرك جيئة وذهاباً، من الصعب التنبؤ بالكيفية التي ستسير عليها الأمور، لأن الأمم والشعوب في البوسنة والهرسك قد تشكلت من قبل. إن الشعوب الأوربية تعمل الآن على خلق اتحاد قوي، لكنها تبقى (شعوباً) فرنسية وألمانيا وسويدية، إلخ. إنهم يعتبرون أوربة أو الأوربية مصلحتهم المشتركة المتبادلة ومجموع قيم مشتركة معينة. وبالنسبة إلى شعوب البوسنة والهرسك، فإن البوسنة هي الاسم الذي يمثل الاهتمام والمصلحة المشتركة المتبادلة ومجموع القيم المشتركة فيما بيننا.

سيدران: إذا نظرنا إلى هذا الأمر عن قرب، فإني أرى أن هناك تشابهاً مذهلاً بين حزب العمل الديموقراطي الذي تتزعمه مع ما كان يسمى الاتحاد الشيوعي السابق. فقد كتب لينين في مكان ما قائلاً: إن هناك ثلاث مراحل في تاريخ البشرية: الانتساب للأم، والانتساب للأب، والانتساب للسكرتارية (للأمانة العامة للحزب). مع ذلك، فإن الشيوعيين مضوا شوطاً أطول من هذه الرحلة من ربائب (الأمانة العامة) المفضلين حينها.

عزت بيغوفتش: من الواضح أننا ننظر إلى العالم من منظورين مختلفين. أنا، على سبيل المثال، لا أرى أي تشابه بين حزب العمل الديموقراطي والاتحاد الشيوعي السابق، عندما يتعلق الأمر بأساليب الإدارة. هنالك تشابه مذهل فقط في المعارضة المتساوية للتشتنيك والأستاشا فقط، لكن فيما يتعلق بالتنظيم والعمل الداخلي فإن الأمور المذهلة فقط هي الفروق والاختلافات. إن الديموقراطية تمثل على الدوام المسألة الأساسية للتنظيم الداخلي، وهنا يكمن عدم وجود أي تشابه على الإطلاق بين حزب العمل الديموقراطي والاتحاد الشيوعي. قرأت قبل أيام قليلة في (مجلة أو صحيفة) أوسلوبودجينه تحليلاً لأحوال الإعلام في البوسنة والهرسك، والذي يمكن من خلاله رؤية أن هناك أكثر من ٢٠٠ وسيلة إعلام نشطة في المنطقة الواقعة تحت سيطرة السلطة الشرعية، حوالي ١٥٠ مجلة وصحيفة، و٤٠ محطة إذاعية، و١٢ محطة تلفازية، و٤ وكالات صحفية. إني أذكر هذه الأرقام من الذاكرة، لكنني أعتقد أنها صحيحة تقريباً. والغالبية العظمى من وسائل الإعلام هذه هي إما معارضة أو مستقلة. الأحزاب السياسية تعمل بحريّة، لا يوجد هناك رقابة، وليس هناك أي محرر من محطة الإذاعة والتلفزة الحكومية، أعني المحطة الرسمية التابعة للدولة، من الأعضاء الفاعلين لحزب العمل الديموقراطي. هل بالإمكان تخيل نفس الوضع في ظل الحكم الشيوعي، وهل كان بإمكانك التحدث مع" رفيق" على قدر ما من الأهمية من " لجنة" مثل هذه؟ هل كنت ستجرؤ على إخباره أن سلطته تذكرك بشكل مذهل بكل ما كان سيئاً في النظام " القديم"؟ لا أدري إن كنت ستصدقني، لكن في أثناء تحدثنا أشعر بنوع من الرضا، لأنه برغم لذع أسئلتك، فإني أجد فيها برهاناً على أنك في أعماق روحك تشعر وتؤمن بالحرية والقانون في هذا البلد. وإلا، ما كنت لتسألني مثل تلك الأسئلة أو ماكنت لتجرؤ على السؤال.

سيدران: سيدي الرئيس، أود أن أسألك عن ملاحظتك وتعليقك على السؤال الصعب المتعلق بالتعريف التاريخي المستقبلي لشخصية وأفعال علي عزت

بيغوفتش التي تحدثنا عنها قبل التسجيل أمام الميكرفون. فهو يبدو مهماً جداً وحتمياً تقريباً في حديث مثل هذا الجاري الآن. هل تذكر عبارتي التي قلت فيها: إن علي عزت بيغوفتش سيصبح شيئاً ما إذا ظلت البوسنة والبشناق على قيد الحياة ونجت، وسيصبح شيئاً آخر مختلفاً تماماً إذا اختفت عن وجه البسيطة؟

عزت بيغوفتش: لا أحب التحدث عن شخصية وأفعال علي عزت بيغوفتش، لكني أود الحديث عن البوسنة ومستقبلها. إني أؤمن أن فكرة البوسنة ستنتصر، وأن البوسنة ستنجو وتبقى على قيد الحياة. إنني أؤمن بهذا لثلاثة أسباب على الأقل.

الأول، القوة التي ثبت وجودها لدى شعبنا؛

الثاني، صربيا الضعيفة لفترة طويلة من الزمن، وهي صربيا التي لن تتمكن من دخول مغامرة ١٩٩٢ مرة أخرى،

والسبب الثالث: التطورات الديموقراطية الحتمية في كرواتية.

بكلمات أخرى، فإن مشاريع "الدولة العظمى" التي تمثل الخطر الرئيس للبوسنة والهرسك لن تنجح. فصربيا لن تكون قادرة على تحطيم البوسنة، وكرواتية لن ترغب بذلك. وهكذا فإن قوتنا المتزايدة في البوسنة، ووجود صربيا ضعيفة وكرواتية ديمقراطية خارج البوسنة، تمثل رؤية أو صورة تاريخية أراها تتشكل ببطيء في هذه المنطقة. في مثل ذلك الوضع التاريخي، ستنجو البوسنة وستعمل على ترسيخ وجودها تدريجياً كبلد ديمقراطي وموحد.

سيدران: آخر مرة تحدثنا فيها، عرّجنا على ذكر عائلتك. يعرف الجميع أن لديك ثلاثة أطفال وخمسة أحفاد.

عزت بيغوفتش: بشكل دقيق أكثر، خمس حفيدات. سأخبرك بالجانب الخارجي من القصة، أما الجانب الداخلي فسأحتفظ به لنفسي. بالعودة إلى عام

١٩٤٣، حينما كنت في الثامنة عشرة من عمري، قابلت زوجتي خالدة. كنا نتقابل إلى أن دخلت السجن عام ١٩٤٦. كنت أحب هذه الفتاة جداً، وليس من المخجل أن أقول لك ذلك، لأنك يمكن أن تتفهمه، لقد كان حباً يمكن أن أضحي بنفسي من أجله، كما يقول شعراؤكم. على أية حال، ذهبت إلى السجن وانتظرتني هذه الفتاة للسنوات الثلاث من السجن. حينما أطلق سراحي، تزوجنا. لدي ثلاثة أطفال من هذا الزواج: ليلى وسابينا وبكر. كانوا جميعاً قد وُلدوا بالوقت الذي بلغت فيه الحادية والثلاثين. أما بالنسبة للأحفاد، ولدت اثنتان منهم قبل ذهابي للسجن للمرة الثانية، والثلاث الأخريات أثناء وجودي في السجن. أول واحدة منهن، ابنة بكر، ياسمين ولدت في أثناء محاكمتي، قبل بضعة أيام من صدور الحكم. لاحقاً، عندما كنت في " فوشا"، ولدت آخر فتاتين. هنالك نكتة صغيرةحول ذلك. كنا جميعاً نتوقع المولود الخامس سيكون صبياً. لكن أطلعني بكر على الأمر قائلاً:" والدي العزيز، أصبح لديك حفيدة أخرى"، وبعدها علّق قائلاً:" من الذي سيزوجهن جميعاً؟" ماذا يمكنني القول غير هذا: ابنتي الكبرى ليلى تخرجت في تخصص الرياضيات، وسابينا في اللغويات، وبكر مهندس معماري. سلمى، أكبر حفيداتي تدرس حالياً صحافة. جميع حفيداتي يتكلمن اللغة الإنجليزية بشكل ممتاز، أفضل مني على أية حال.

سيدران: لم تخبرني كيف كانت الحياة معك؟

عزت بيغوفتش: صعبة جداً في البداية. لم تكن لدي شقة لفترة طويلة. وحصلت عليها أخيراً عام ١٩٥٨، بعد تسع سنوات من العمل في الشركة. وكان عليّ القيام بعمل ميداني في مونتنغرو (الجبل الأسود) للحصول عليها.

سيدران: ماذا، الجبل الأسود كذلك في خضم كل هذا؟

عزت بيغوفتش: نعم، لقد عملت في الجبل الأسود لمدة سبع سنوات، من عام ١٩٥٣-١٩٦٠، ضمن شركة نيسكو غرادينيا- بوت، التي كانت تعمل في إنشاء مصنع بيروتشيتسا للطاقة المائية. كنت رئيس الموقع الإنشائي. أولئك هم الشواذ الخارجون عن القاعدة في ذلك الوقت. فقد كان صانع الأقفال مشيراً عسكرياً، ورئيس الموقع الإنشائي محامياً، إلخ. لقد كان موقعاً ضخماً. يعمل فيه ألف شخص ومئات الآليات وسيارات الشحن. وقد كانت خبرة كبيرة بالنسبة إلي، وربما حتى مهمة بالنسبة للعمل الذي أقوم به هذه الأيام. فالموقع الإنشائي يشبه الدولة الصغيرة: إدارة الأشخاص والأشياء أو الأمور. في عام ١٩٦٠ عندما بدأ مصنع بيروتشيتسا بالعمل، حضر "تيتو" إلى هناك، وكانت تلك أول مرة أراه فيها عن كثب. كنت أعتقد أنه أطول قامة، لكنه كان بنفس طولي، وإنما أضخم مني بكثير.

سيدران: كانت تلك ثكنات الموقع المتنقلة التي كنت تسكن وتنام بها؟

عزت بيغوفتش: نعم، لكن كان الأمر كذلك للسنة الأولى فقط، بعدها قمنا ببناء بيت ثابت في نيكشتش. في السنة الأولى كنت في ثكنة لأن الموقع الأول كان يستلزم حفر خندق بطول ٤,٠٠٠متر تقريباً. وكان مخرج ذلك النفق هو المكان الذي تستطيع منه رؤية دير أوستروغ المبني بين الجبال. ما أذكره من تلك الأيام، كنت حينها في الثامنة والعشرين، هو أنه كانت هناك أفاعي حيثما ذهبت، وأنه جرى استقبالي على نحو غريب مِن قبل أهالي الجبل الأسود، الفلاحين، الذين كانوا لا يزالون يحملون ذكريات من العهد التركي ورأوا فيّ شخصاً تركياً. صحيح، أن علاقتنا أصبحت جيدة مع بعض ولكنهم كانوا دائماً يرون بي شخصاً تركيا ويطلقون على زوجتي لقب" بولا" (لقب يطلق على النساء المتحجبات) على الرغم من أنها لم تكن تغطي شعرها. كان ذلك شعورهم نحونا.

سيدران: عادة ما يكون العمال الميدانيون وحدهم، دون عائلاتهم.

عزت بيغوفتش: كانت زوجتي وأطفالي معي خلال الموسم، الذي يمتد عادة من نيسان (أبريل) حتى تشرين أول (أكتوبر)، ويعودون إلى سراييفو لتمضية فصل الشتاء. يمكنك القول: إن ذلك الوقت كان زمناً جميلاً على نحو ما، فقد كان هناك شيء يجري بناؤه وصنعه - وما هو مهم جداً- أننا كنا شباباً.

سيدران: ربما ليس لهذا الأمر أي علاقة بعملنا الصحفي. لكن مع ذلك، ففي إحدى السنوات، عندما كنت طالب دراسات عليا، ذهبت لكسب بعض المال من العمل بحفر إحدى الطرق، كانت أيضاً شركة جي. بي. بوت، تعمل على طريق دونيي فاكوف- بوغوينو. عملت في الحفر ونقل التراب لمدة (١٥) يوماً، كان العمل شاقاً جداً بالنسبة إلي، لكنني لا أزال أذكر مدير الموقع. كان اسمه نيقولا، ويطلق عليه العمال لقب" هتلر". كان صارماً ودقيقاً، بحيث لم يمكننا إضاعة الوقت، ولم أستطع تحمل ذلك وعدت أدراجي أحمل حوالي ٢٠ ألف دينار كسبتها من خلال الخدمات الطلابية. ما أعنيه هو أنني عرفت طعم الحياة في العمل الميداني، ورأيت كيف تعمل الوحدة على جرّ العامل الميداني إلى درب الخطيئة، فيبدؤون بلعب القمار وشرب الخمرة.

عزت بيغوفتش: نعم، تلك هي القاعدة تقريباً. العدد الأكبر منهم، من الرجال العاملين في مواقع الإنشاءات، من فنيّين ومهندسين وعمال، يذهبون إلى الحانات لكسر رتابة الوحدة. لكنهم أيضاً يعملون بجدّ" ففي موسم العمل الأخير في عام ١٩٦٠، عندما كان مصنع الطاقة المائية على وشك الافتتاح، كنت أنهض من النوم الساعة الرابعة فجراً وأبقى أعمل حتى العاشرة ليلاً.

سيدران: كل الساعات طول الوقت هي ساعات عمل، إذا بدأت تمطر، يتوجب على العمال النهوض في أي وقت من أوقات اليوم في الليل أو النهار للعمل على تجنب تبلل الإسمنت وبالتالي عدم صلاحيته للاستخدام.

عزت بيغوفتش: في الموقع الذي نتحدث عنه كان هناك دوماً خطر الفيضان لذلك، كان يتوجب على المرء الحضور طوال الوقت، وكانت المواعيد النهائية لإنهاء العمل قصيرة جداً. ولم يكن هناك كذلك معدّات ميكانيكية كفاية. كنا نعمل ليل نهار على مدار الساعة في النفق. هكذا هو حال موقع البناء. لكن مع ذلك يأتي الموسم الميت، فتتوقف الأعمال، ويبقى الرجال وحدهم، يملؤهم الشعور بالوحدة. وبالطبع، عليهم التعامل مع الرتابة والملل على نحو ما.

سيدران: لقد أُطلق سراحك من السجن عام ١٩٨٨. إذن، كيف حدث هذا التخفيض الجذري لمدة محكوميتك؟ هل كان ذلك إثر رفعك شكوى، أو التماساً، أو إجراءاً ما، من ناحية قانونية أو دستورية؟

عزت بيغوفتش: في آب (أغسطس) من عام ١٩٨٣، حُكم عليّ بالسجن أربعة عشر عاماً. بعد نصف عام، وكان ذلك خلال الدورة الأولمبية، كان هناك عملية من الدرجة الثانية للشكوى التي تقدمنا بها للمحكمة العليا في البوسنة والهرسك. وكان يبدو أننا سنحصل على تخفيض كبير في مدة العقوبة. لكن، خاب أملنا. فقد جرى تخفيض رمزي فقط على الأحكام. فقد حصلت على تخفيض سنتين، وبالتالي أصبح ما يسمى الحكم النهائي عليّ ١٢ سنة. وكان لدينا الحق، بما أن محاكمتنا كانت سياسية، بإعادة التحقيق في الحكم في محكمة يوغسلافية العليا، وبالطبع، تقدمت بطلب ذلك. استمرت تلك العملية لمدة عامين تقريباً. وجرى تخفيض العقوبة إلى تسع سنوات وإعادة تصنيف الفعل (الموجب للسجن). أولاً، كنت متهماً بما يسمى السلوك المناهض للثورية، وأصبح الآن يسمى كما المادة ١٣٣ السيئة السمعة، الإساءة اللفظية (أو الجنحة الكلامية).

سيدران: إذن،(كان هناك) تغيير جذري في تصنيف التهمة، وتغيير رمزي في العقوبة؟

عزت بيغوفتش: بالضبط، وفقاً للقانون فإن الحد الأقصى لعقوبة الإساءة اللفظية أو الكلامية هو عشر سنوات. أنا حصلت على تسع. بذلك الحكم، بدأت أخيراً بقضاء المدة المقررة عليّ. في شباط (فبراير) من عام ١٩٨٧، عُرِض عليّ عرض غريب، لا أدري كيف ولماذا، ولكنني أعتقد أنه كان من خلال نيقولاي ستويا نوفيتش الذي كان حينها عضواً في لجنة الحزب المركزية. وجهت دعوة إلى ابنتيّ للرئاسة، في هذا المبنى تماماً الذي تتحدث به الآن، من قبل زدرافكو دجوريتستش، الذي كان حينئذ سكرتير لجنة العفو. وقام بتسليمهما العرض، الذي كان يحتوي على التماس للعفو. قال لهما:" خذا هذا إلى والدكما للتوقيع عليه وسيتم إطلاق سراحه". وكان ذلك هو الالتماس التقليدي الذي أعترف أن أفكاري كانت خاطئة، وأنني لا أنوي التعامل مع أي سياسة بعد ذلك، وأنني سأنسحب وأحيا حياة اعتيادية هادئة. أنت تعلم ماذا أعني. على أية حال، رفضت التوقيع. ولم يكن ستويا نوفيتش مسروراً لذلك. وقام بشكل غاضب بوضع الورقة في حافظة أوراقه، ولم نتكلم حولها بعد ذلك أبداً. بقيت في السجن لعامين آخرين تقريباً. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) جرى إخباري أن رئاسة يوغسلافية قررت منحي العفو.

سيدران: إذن، هذا كان في النهاية، نتيجة ما كنا نود الحديث عنه. هل شعرت، وأنت بالسجن، بالتغييرات الجذرية التي كانت تحدث في العالم الخارجي؟

عزت بيغوفتش: نعم، بالتأكيد شعرت بالتغيرات في وضع العالم، وخصوصاً في يوغسلافية. كان هناك عملية تفكك الاتحاد السوفييتي، والذي هو، إلى حد ما، حدث عالمي ضخم. ورأينا في ذلك المشهد غورباتشوف، وإعادة البناء"البيروستريكا" التي طرحها، وأزمة جدار برلين، وحرب الألمان الشرقيين وتدفقهم، إلخ. أما في البوسنة والهرسك، فقد كانت هناك أزمة فلل نيوم

وشركة أغروكوميرس، وسقوط يوزديراتس ومأساته، وصراعات في اللجنة المركزية. برأيي فإن سبب ذلك، على الأرجح، كان الشك في المفهوم الاجتماعي الذي ساد جميع الأنحاء جراء الفشل العالمي للمفهوم الاشتراكي اجتماعياً واقتصادياً. بالإضافة لذلك، كان هناك ضغط خارجي على يوغسلافية بسبب موقفها غير المشرف من حقوق الإنسان، ووصول عدد من اللجان للبحث في هذه المسألة، ولأن عدداً كبيراً من الأشخاص كانوا مسجونين بسبب الإساءة اللفظية (أو الجنحة الكلامية).

سيدران: كيف كان شعورك وأنت في السجن، لكونك في الداخل، هل كنت تشاهد التلفاز، أو تصلك الصحف؟

عزت بيغوفتش: نعم كنت أفعل ذلك. كنت على اطلاع جيد بما يجري. كان لدينا جهاز تلفاز في غرفة الجلوس، حيث كنا نأوي بعد الفراغ من العمل. كذلك كانت تصلنا الصحف. كانت الرقابة مفروضة عليها في أثناء التحقيق. مع ذلك،كان بإمكان المرء رؤية ما كان يجري في العالم بوضوح إذا تابع الأحداث من يوم إلى يوم. على الصعيد العالمي، (كان هناك) أزمة الاتحاد السوفييتي، صعود ميلوشفتش السلطة في يوغسلافية، ما كان يسمى الجلسة الثامنة، حلّ الرابطة الشيوعية الموحدة ليوغسلافية. كل هذا كان واضحاً وكل من كان مهتماً كان بوسعه معرفة موقع حدوث الأمور.

سيدران: كل من كان لديه مشاكل سياسياً ربما مرّت به تجربة مشاهدة الناس تهرب إلى الجانب الآخر من الشارع لتجنب توجيه التحية لهم. إني أعلم هذا عبر مئات الأمثلة، ومررت بنفس الخبرة شخصياً. ما أريد معرفته هو كيف كانت مواجهاتك مع الناس بعد إطلاق سراحك مباشرة من السجن عام ١٩٨٨. هل كان سلوك معظمهم على هذا النحو الجبان؟

عزت بيغوفتش: حينما غادرت السجن، لم يعد هناك مثل ذلك الأمر، لكن أعزّ أصدقائي مرّوا بمثل تلك الخبرة في أثناء محاكمتي ولمدة عام أو عامين بعد ذلك. لاحقاً، بدأ شيء ما بالتغير لدى الناس نتيجة للأزمة، وربما لأنه بدأ عامة الناس بالنظر إلى هذه الأمور على نحو مختلف قليلاً. وهكذا، عندما رجعت، لم أشعر بما تتحدث عنه. يبدو لي أن الاستقبال الذي حظيت به كان استقبالاً حاراً. وأعتقد أن النظام كان قد أصابه الوهن والضعف، حيث إن الخوف الذي كان موجوداً عام ١٩٨٣ على سبيل المثال قد تلاشى.

سيدران: ما الذي أدى إلى نضوج الأفكار المتعلقة بالحاجة إلى تنظيم الشعب البشناقي سياسياً: كان هذا، كما أفترض، عملية متكاملة؟

عزت بيغوفتش: غادرت السجن في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٨، وبدأت تشكيل حزب سياسي بعد ذلك بعام بالضبط، أي في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٩. في العام الثاني، ١٩٩٠، كذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) (بالنسبة إلي كل تلك الشهور من تشرين ثاني كانت مهمة)، دخلت المبنى الرئاسي هذا. لقد فكرت في تشكيل حزب سياسي بينما كنت لا أزال في السجن، لأنه كان واضحاً حينئذ أن الأمور كانت تسير بشكل حتمي نحو الديموقراطية، أي إن نظام الحزب الواحد لن يبقى على قيد الحياة، وأن أحزاباً أخرى ستتشكل مثلما هو الحال في كافة الأماكن الأخرى في العالم. لكن الحزب الذي كنت أفكر به كنت أتخيله في البداية حزباً يوغسلافية.

سيدران: هذا ما تقوله الوثائق الأولى (للحزب).

عزت بيغوفتش: يمكن رؤية هذا في إعلان برنامجنا. في الواقع، فإن مجموعة من الأشخاص الذين تجمعوا حولي أرادوا إعادة بناء وتشكيل يوغسلافية من خلال الحزب. كنا نعتقد أن المسلمين كانوا في وضع جيد، وليس لديهم أي

مشكلة مع يوغسلافية، لكن ليس بالطريقة التي كانت عليها، أي دولة ذات حزب واحد، وليس مع تفوق العرق الصربي سائداً ضمنياً. كان همّنا يوغسلافية يكون للجمهوريين فيها المزيد من الاعتماد على النفس والمزيد من المساواة لجميع الأعراق والشعوب. كان هذان المطلبان الرئيسيين عندما أصبح الأمر متعلقاً بمسار سياسي جديد، وكان هناك العديد ممن شاركوني الرأي. لكن لم تكن لديهم الجرأة للتصريح به. في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٩، سافرت إلى زغرب للتحدث إلى مجموعة من الأشخاص حول هذه الفكرة واتفقنا على تشكيل الحزب. كان ذلك بعد عام بالضبط من مغادرتي السجن.

سيدران: هل كان اسم الحزب مسألة ضرورة، لأن القانون كان يمنع تحديد أي صفة قومية بالاسم. وفي الواقع، هل كان اختيار الاسم طوعياً أم أنه أطلق لأن القومية لم يكن بالإمكان ذكرها فيه؟ لا أتذكر أي (اسم) كان.

عزت بيغوفتش: وأنا أيضاً لا أتذكره بالضبط. لكني أعلم أن الاقتراح بذلك كان قد قدم من قبل صفوت إسوفيتش، فناننا العظيم. في البداية فكرت في إعادة هيكلة منظمة مسلمي يوغسلافية التي أسسها محمد سباهو، لكن، في أثناء حديثي مع عادل ذو الفقار ياشتش. ألغيت هذه الفكرة. كما تعلم، فإنه أيضاً كان أحد مؤسسي الحزب. كان يرى أن هذا لم يكن حلاً للسير باتجاهه. وبصراحة، لم تعجبني تماماً فكرة صفوت بالنسبة إلى الاسم، لكن الاختصار (SDA) (أي حزب العمل الديموقراطي) كان جيداً، وكان وقعه الصوتي جيداً. وجرى قبول الاقتراح.

سيدران: إذن، كان توجهك اليوغسلافي غير قابل للشك؟

عزت بيغوفتش: كنا نريد يوغسلافية ديمقراطية، مشكلة على نحو جديد. بعض الأحزاب تجنبت قول ذلك، لكننا لم نفعل. كنا نعتقد أن ذلك يصور بوضوح حقيقة كوننا نريد تغيير الوضع سلمياً. لم يكن خيارنا تمزيق أوصال يوغسلافية،

وإنما كنا نريد إعادة تنظيمها بحيث يمكن أن تصبح بلداً ديمقراطياً حيث تشعر كافة الأعراق بالأمان، بما فيهم الشعب البشناقي كذلك. بالجانب الآخر من المعادلة، لم يكن المسلمون يسكنون فقط في البوسنة والهرسك. فقد كان هناك أعداد كبيرة منهم في كل من السنجاق ومكدونيا وكوسوفو وكرواتية.

سيدران: يبدو أنه في أحد المفاوضات بين كافة رؤساء جميع جمهوريات يوغسلافية السابقة. كنا قد وصلنا إلى النقطة التي كنا مستعدين فيها لقبول أي شيء كانت بلغراد وزغرب تتفق عليه فقط لتجنب الحرب. ويبدو أنه قد جرى نسيان هذا شيئاً فشيئاً.

عزت بيغوفتش: يمكننا القول بأن القرار بإيجاد بوسنة وهرسك مستقلة كان قد انتزع انتزاعاً على نحو ما. لقد تم إجبارنا عليه؛ لأننا كنا نرغب بالمزيد من الاعتماد الذاتي للبوسنة والهرسك ضمن يوغسلافية، لكن استقلال دولتنا على النحو الذي تمت المطالبة به لاحقاً، كان جرّاء استقلال كل من كرواتية وسلوفينيا. لقد قلنا: إن أية يوغسلافية مع وجود كرواتية وسلوفينيا فيها كانت مقبولة بالنسبة إلينا، وأن أية يوغسلافية دون أي من هاتين الدولتين غير مقبولة. وعندما خرجت كرواتية عن يوغسلافية، كان أمامنا الخيار بالبقاء في يوغسلافية جزئية مع صربيا والجبل الأسود أو اختيار الاستقلال. قمنا باختيار الخيار الثاني. ولا أزال أعتقد أن الخيار الآخر لم يكن ممكناً.

سيدران: لقد وافقت على هذا القرار بالنضال من أجل الاستقلال، مع بذل الجهد من أجل البوسنة كوحدة اتحادية لتكون مؤهلة لكل الحقوق التي نالتها جمهوريات يوغسلافية أخرى. لهذا السبب لم أعتبر هذا العمل على أنه انشقاق، على أنه تصرف سيئ. وقد كتبت مرة قائلاً: إنه ليس بإمكان المرء الخروج من بيت غير موجود أصلاً. ويوغسلافية لم تعد موجودة في عام ١٩٩٢.

عزت بيغوفتش: وهذا الأمر مهم، لأن ذلك في العادة المفصل الحقيقي لإلقاء اللوم على النزاع الذي حدث، أي اللوم على الحرب، لقد اتهمنا الصرب

بتمزيق يوغسلافية، وحرمانهم من العيش في يوغسلافية. ويتضح من الوثائق التي صدرت في الأيام الأولى من حزب العمل الديموقراطي أن الأمر ليس كذلك، وأن الصرب لم يكونوا في الواقع مهيئين للتحكم والسيطرة على أنانيتهم القومية. وبالنسبة إلى تلك اللقاءات الرئاسية التي جرت في النصف الأول من عام ١٩٩١، التي ذكرتها للتو، كان من الواضح مسبقاً أنه لم يكن بالإمكان التوصل إلى اتفاق، لأن اثنين من الأشخاص المهمّين، وهما ميلوشفتش وتودجمان- كانوا ضدّه ويعارضونه. هل تذكر بأن الرئيس غليغوروف وأنا قمنا بتقديم اقتراح من أجل اتحاد كونفدرالي في يوغسلافية. هذا الاقتراح كان على وشك أن يتم قبوله، لكن مشكلة السيطرة على الجيش بقيت دون حل. كانت صربيا تريد جيشاً موحداً، ولم تقبل كرواتية هذا، وبالتالي فشل المشروع. على أية حال، مازلت أعتقد بأنه لو أن تلك الخطة نجحت، لكانت أنقذت يوغسلافية السابقة من الانحلال ومن الحرب بالطبع. لكن، حصلت كرواتية على الاستقلال، وبدأ حدوث عدم توازن مطلق، وكان يفترض من البوسنة البقاء ضمن يوغسلافية الناقصة والمجتزأة. ولم يكن بوسعنا الموافقة على هذا.

سيدران: لا أدري إن كنت على صواب، لكن هناك اعتقاد عام معين يرى بأنه في أثناء تلك المحادثات عرفت عن اتفاق ميلوشيفيتش وتودجمان في كارادجوردجيفو لتقسيم البوسنة لأول مرة. ويبدو أنك علمت عن ذلك لأول مرة في"سبلييت"، من خلال هذين الرجلين معاً. من المهم أن تصف تلك اللحظات على صعيد نفسي وإنساني وسياسي.

عزت بيغوفتش: لا، لم يكن ذلك في"سبليت". لقد اطلعت على تلك القصة لأول مرة عن طريق الرئيس المقدوني. غليغوروف، لدى وصوله سراييفو من أجل اجتماع الرؤساء الستة. جاء غليغوروف للاجتماع مبكراً يوماً واحداً لإبلاغي عن محادثة ميلوشفتش وتودجمان في كارادجوردجيفو التي جرت قبل

ذلك ببضعة أيام والتي كان لديه أخبار موثوقة تماماً عنها. ولم يكن من المعروف فيما إذا كانا قد اتفقا على تقسيم البوسنة إلى جزأين أو ثلاثة أجزاء. على حد علمي، لم يتم نشر أية وثيقة من كارادجوردجيفو أبداً، وأنه تم حتى إنكار التوصل إلى أي اتفاق على الإطلاق.

سيدران: لقد حدثت رحلتك إلى سبليت بسرعة كبيرة بعد تحذير الرئيس غليغوروف.

عزت بيغوفتش: نعم، بعد وقت قصير جداً من استلامي دعوة للذهاب إلى سبليت للاجتماع مع ميلوشفتش وتودجمان. وبما أنه كان قد تم إبلاغي عبر غليغوروف، فقد كان لدي إحساس بالموضوع الذي سيطرح في المحادثات. ومن المثير للاهتمام أنهم لم يتطرقوا إلى موضوع التقسيم بشكل مباشر، إنما كانت المحادثات بطولها تجري بلغة ترميزية لاتكاد تفهم، وكانت موجهة نحو إقناعي بأن بقاء البوسنة كان مستحيلاً، وأن علينا السعي نحو حل ما آخر، واقعي، كما قالوا. وكنت أتصدى لهم بكل قوى المنطق طوال اليوم، وعندما رجعت إلى البوسنة ذلك المساء، سألتني الصحافة فيما إذا كنا قد تحدثنا عن تقسيم البوسنة. كان جوابي جملة واحدة فقط هي:" من المستحيل مناقشة تقسيم البوسنة معي!" لكن مع ذلك، من الواضح اليوم أن ما حدث في كارادجوردجيفو يشكل علامة فارقة في تاريخ علاقاتنا بأكمله ويفسر الأحداث التي تلت في كافة الأعوام الأربعة أو الخمسة منذئذٍ.

سيدران: إني أرى سؤالاً هنا في ملاحظاتي حول تصورك للبوسنة في العام ٢٠٣٠؟

عزت بيغوفتش: كيف لي أن أعرف ما الذي سيحدث خلال ٣٠-٤٠ عاماً من الزمن؟ إن هذا ليس مجرد تغيّر قرن، وإنما تغير ألفية كذلك. يزعم البعض أنه

بالتأكيد سيكون هناك تغيرات هائلة. وأن أوربة ستصبح مقاطعة، وأن الشرق الأقصى سيصبح مركز العالم. وأن أمريكا ستخسر نفوذها بسبب عثراتها الأخلاقية. هذا هو السياق الذي يفترض بمستقبل البوسنة أن يحدث به. أعتقد أنه عام ٢٠٣٠ ستكون البوسنة والهرسك حيّة وبصحة جيدة. دون هذا، ودون مثل هذا الإيمان لاأستطيع القيام بعملي. برأيي، أن ما يحيط بنا مباشرة هو ما يؤثر على البوسنة أكثر مما يحدث في بقية أنحاء العالم. فالأحداث في كرواتية وصربيا أكثر أهمية بالنسبة إلينا من تلك التي تجري في الولايات المتحدة، أو أوربة، أو روسية لأن هذين البلدين يؤثران على البوسنة بشكل مباشر، ويمكنني القول: إن تأثير كرواتية أكبر من تأثير صربيا. إنني على ثقة بأنه خلال ٥-١٠ أعوام ستتحول كرواتية وتجعل من نفسها دولة ديمقراطية حديثة. أما صربيا فستبقى ضعيفة لفترة طويلة. مثل ذلك الوضع سيفتح آفاق كرواتية ديمقراطية وصربيا ضعيفة.

سيدران: أو ربما، صربيا التي عادت إلى صوابها؟!

عزت بيغوفتش: حسناً، يمكنك قول ذلك، لكن على أية حال، فإن صربيا ستكون ضعيفة جداً لفترة طويلة بحيث لن يمكنها الدخول في معترك مثل الذي خاضته عام ١٩٩٢. والعامل الثالث والأهم هو، بالطبع، شعبنا الذي تعلم الكثير من هذه الحرب، وهو الشعب الذي أثبت أنهم أقوياء وقادرون على تحمل قسوة الحياة.

سيدران: هل تعتقد أننا -أنت قيادة سياسية ونحن مواطنون عاديون- ستكون لدينا القوة والقدرة على مقاومة الرغبة، أو الحاجة الساذجة، بإدارة المنطقة التي نسيطر عليها بالطريقة التي يدير بها مدمرو البوسنة منطقتهم؟ وأعني بذلك، حزب واحد، قومية واحدة، أو سيطرة أحادية متصلبة. أحياناً يتكون لي اعتقاد بأنه بإمكاننا إعادة البوسنة والهرسك إلى نظامها الدستوري-

القانوني أو الشرعي دون الحاجة لإطلاق رصاصة واحدة، وإنما فقط عبر العيش في الأراضي التي نعيش عليها الآن بطريقة البوسنة المتكاملة. أي، مع المزيد من الاحترام لـ" المتعدد" باختصار، أعتقد بأنه يمكننا الحفاظ على كلية البوسنة دون إطلاق أية رصاصة إذا قمنا بتنظيم الجزء الذي لدينا كما لو أنه البوسنة بأكملها.

عزت بيغوفتش: عندما قلت- ولقد كررت قول هذا مرات عديدة- إن بوسعنا هزيمة الظلام الذي يحيط بنا بقوة نموذجنا السياسي، فإني كنت أشير إلى الشيء ذاته الذي تتحدث عنه أنت الآن. وأساس هذا هو الديموقراطية في أسمى معاني تلك الكلمة. فإنها تحمل في طياتها حرية الناس في التفكير والإيمان والاعتقاد بشكل مختلف. إنها أيضاً تمثل القوة التي يمكنها هزيمة هذا السلوك المتصلب الأحادي التفكير الذي يحيط بنا. لكن، ليس بمقدورنا القيام بذلك وحدنا. إن شعب البشناق، كما هو واضح، يؤيدون هذا المفهوم، أو أن غالبيتهم العظمى مؤيدة له. خلال الشهور الماضية كان السكان البشناق يمرون عبر أزمة معينة فيما يتعلق بهذا، الأمر الذي جرى وصفه وتصويره في مسار الأحداث.

سيدران: بالتجاوزات المفرطة؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أن الناس قد أصابهم نوع من خيبة الأمل، فيما يتعلق بسلوك أحد الأطراف من الصرب والكروات. من الصعب السيطرة على الناس في مثل حالات الغليان تلك. لكن، برأيي، الجانب المنطقي المفكر من الشعب البشناقي لن يفقدوا قدراتهم على التحمل أبداً. لأنه من الواضح أن البوسنة والهرسك لها موقع جغرافي- سياسي سيّئ بكل الأحوال، حتى مع الاعتراف الدولي بحدودها، وخصوصاً في.....

سيدران: وخصوصاً مع تقليص.....

عزت بيغوفتش: خصوصاً مع التقليص. دعنا نترك المثاليات والمبادىء جانباً قليلاً، ونتحدث فقط عن مصالح الشعب البشناقي، الذي ربط مصيره ببقاء

دولة البوسنة والهرسك. كما قلت للتو، فإن الجزء أو الجانب من الشعب البشناقي الذين يفكرون (عقلانياً) يتفهمون ذلك. جميعهم، للأسف، لا يفعلون ذلك، لأنهم تحت تأثير......

سيدران: البلادة؟

عزت بيغوفتش: نعم، البلادة من جانبين. مع ذلك، فإننا لم ندُس مبادئ التسامح بأقدامنا في الحرب، حتى في البداية فإننا قلنا إننا لم نكن نريد الانتقام. ولقد قمنا بمنع انتقامين هنا، وهما اتفاقين قاسيين.الأول، الانتقام المثل ضد الشيوعيين حينما تولينا السلطة عام ١٩٩٠. والثاني، أي انتقام هنا ضد الصرب في وقت حدوث أسوأ جرائم التشتنيك. كانت هناك مجموعات تريد الانتقام والرد بالمثل. وهذا يعني أن سلطتنا قد اجتازت امتحاناً صعباً جداً. علاوة على ذلك، لم نقم بفرض الرقابة على الصحافة، حتى على الرغم من وجود مطالب من الجيش بالقيام بذلك، لأنها كانت دائماً تقوم بتسريب أسرار عسكرية. هل تذكر عندما تقدم رجل فجأة أمام الكاميرا في وسط الحرب على شاشة تلفازنا وقال:" في سراييفو، هنالك خبز يكفي فقط لمدة يومين آخرين." كنت أتساءل لمن كان ذلك الرجل يقول ذلك؟ لأن التشتنيك الذين يشاهدون ويسمعون هذا القول، سيقولون لأنفسهم: إذا كان الحال كذلك، فلنهجم عليهم، لأنهم منتهون تقريباً ومقضي عليهم.

سيدران: ليس هناك أدنى شك بأن هذا يمثل رأس مال سياسي قوي لحكومتنا وأنه يجب، من وجهة نظري، أن يتم إمداده ببعض الفعالية في منع ومعاقبة حالات المبالغة والإفراط التي تحدث على جانبنا. هنالك حزن في قلبي؛ لأننا لم نتوصل لمعرفة الذي قتل المراسل الصحفي الشاب في زافيدوفيتشي. إن لدينا أربعة أو خمسة أمثلة على مثل تلك الحوادث الفردية من المصير المحزن. مثلاً، لاعب كرة اليد، الأرثوذكسي الصربي، والذي كان يوماً ما حارس مرمى

الفريق الوطني، والذي كان يعمل طبيب أسنان، وأمضى مدة الحرب بأكملها يخدم في الجيش، ولا يستطيع الحصول على عمل بعد أن جرى تسريحه. إني أعتقد أن هذه الحكومة تفتقر التصميم والعزم اللازم على الإقرار بما يجري لنا ومعنا في مثل تلك التجاوزات، ولكن ليس بوصفها القاعدة.

عزت بيغوفتش: إني كذلك أتأذى من الظلم. لكن، لا تنسى، يا أفدو (اسم سيدران الأول)، أننا مررنا عبر جحيم، وبقينا أصحاء العقول على الرغم من كل شيء. هذا هو النصر بالنسبة إلينا.

الملحق الثالث

محاضرة ألقيت على الجمعية الألمانية للشؤون الخارجية

بون، ١٧ آذار (مارس) ١٩٩٥

سيداتي وسادتي، أصدقائي الأعزاء،

قيل لي: إن هذه الأيام تشهد مرور أربعين عاماً من النشاط المثمر لجمعيتكم. وأود انتهاز هذه الفرصة لتهنئتكم في يوبيلكم، ولأتمنى لكم المزيد من النجاح في السنوات القادمة.

إن عمل الجمعيات كجمعيتكم يمكن أن تؤدي خدمة جليلة للأشخاص الذين يصنعون القرارات. وعندما يصل الأمر إلى البوسنة التي قدمت منها؛ يمكنني على الفور ذكر مسألتين على الأقل يمكن فيها أن نستفيد ونحتاج فيهما إلى مساعدتكم:

أولاً، هنالك افتقار إلى أفكار وآراء من أجل حل المشكلات في أراضي يوغسلافية السابقة، وخصوصاً في البوسنة والهرسك.

ثانياً، هنالك حاجة لإعادة تمحيص طريقة عمل بعض المؤسسات الدولية المهمة مثل: الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وحلف "الناتو" [شمال الأطلسي]

وغيرها، لأن كافة آليات عمل الأمن الجماعي المشترك قد فشلت على ما يبدو بشكل واضح في حالة أزمة صراع البلقان. لقد أدّت العوامل الدولية إلى إحداث نقلات مغلوطة. إن بإمكانكم المساعدة على التقليل من عدد هذه الأخطاء في المستقبل.

بعد أيام قليلة، سيكون قد مضى ثلاث سنوات على بدء العدوان ضد البوسنة والهرسك. وهو نفس العدد من السنوات التي كان فيها العالم يراقب مراقبة سلبية للصراع غير المتكافئ بين مهاجم مسلح تسليحاً قوياً وجيداً وضحيته.

هنالك تصور خاطئ أرغب على الفور بتصحيحه. لقد قيل بأن المجتمع الدولي لم يكن يرغب (أو لم يقدر على) التدخل في الحرب في البوسنة والهرسك. إن هذه العبارة ليست صحيحة. فقد قام المجتمع الدولي بالتدخل بالفعل في هذه الحرب، ولكن بالطريقة الخاطئة، وهذا الأمر يتوجب تذكّره. لقد كان هذا عبر الحظر الذي فرض على الأسلحة، والذي أثّر عملياً على الضحيّة. وبدلاً من مساعدتنا، عبر التدخل العسكري، من أجل تسليحنا، تصرّف العالم على العكس تماماً: فقد منع تسليح البلد الذي هوجم، وحرمنا من حقنا الشرعي في الدفاع عن النفس.

وكان التفسير، كما جرى تكرار قوله، هو أن: الحظر كان ضرورياً؛ لأنه من دون ذلك فإن الحرب ستطول وستصبح دموية. والآن، وبعد ثلاث سنوات، يحق لنا نحن البوسنيين أن نسأل: ألم تكن الحرب طويلة بما يكفي ودموية بما يكفي؟ هل كان يمكن أن تكون أطول وأشدّ دموية؟

لدينا كافة الأسباب للقول بأنه لو لم يكن هناك حظر، لكانت الحرب قد انتهت قبل الآن، ولكان جرى الدفاع عن البوسنة وكذلك القانون الدولي وحمايتهما. على هذا النحو فإن لدينا الآن حرب شرسة ودموية وانتهاك غير مسبوق لكافة القوانين والشرائع والمعايير الأخلاقية.

عندما يصل الحديث إلى هذه الحرب الفظيعة، تبرز ثلاثة أمور تفتقر إلى تفسير منطقي أو عقلاني وهي:

١- مقدار وكمية الشر الذي انصبّ على البوسنة.

٢- عدم اكتراث واهتمام العالم إزاء هذا الاندفاع المحموم للشر.

٣- معجزة مقاومتنا،

عليكم الاعتراف بأن أياً من الأمور المذكورة أعلاه لم يكن متوقعاً وأنه قد أصابكم الذهول.

هل كنتم حقاً تتوقعون أن البعض في وسط أوربة، وبعد أوشفيتز وغولاغز (سجون ستالين)، سيكون من الوقاحة إلى درجة إقامة معسكرات إبادة اختفى فيها آلاف الأشخاص، ويقوم بدم بارد بهدم المساجد والكنائس والمكتبات والمستشفيات؟

إذا كان بوسعكم تخيل حدوث ذلك في أسوأ هواجسكم وتوجساتكم، فهل كان بوسعكم تصديق أن العالم المتحضر يمكن أن يقف موقف المتفرج السلبي من حدوث ذلك، وأن يغمض عيونه في وجه القتل الجماعي والحرب العدوانية ومعسكرات الإبادة والتطهير العرقي والعنف المطلق؟

وأخيراً، هناك المعجزة الثالثة، وهي إيجابية هذه المرة، إنها مقاومتنا. هل كان بمقدوركم التنبؤ في عام ١٩٩١ أو ١٩٩٢ أن الشعب البوسني الأعزل سينجح في إيقاف الجيش اليوغسلافي (الصربي) المدجّج بالسلاح؟

في شهر أيار(مايو) من عام ١٩٩٢، زارني اللورد كارنغتون في سراييفو وهو يحمل رسالة واحدة فقط لاغير: فاوض، وعندما أخبرته أنهم كانوا يريدون منا الخضوع والاستسلام؛ وإن هذا هو الأمر الوحيد الذي سيفاوضون عليه،

سألني: "حسناً، ماذا ستفعلون؟" فأجبته: "سنقاتل". وردَّ عليّ كارنغتون بيأسس: "من الواضح أنك لا تعرف ما تتعامل معه. إني آسف جداً، لكن ليس أمامكم أي فرصة [للفوز].

كما تعرفون، فقد صمّمنا على المقاومة. وبوجود بضعة آلاف قليلة فقط من المقاتلين المسلّحين تسليحاً خفيفاً نجحنا في الحفاظ على الجزء الاستراتيجي من البوسنة وفي إنشاء جيش، ليس بمقدور أي كان تجاهله.

تلك كانت المعجزات التي لا تزال بحاجة إلى تفسيرات وتوضيح. فالتاريخ يصعب التنبؤ بمجرياته وقصص الأمور غير المتوقعة تحدث بالفعل. ستكون هناك مكتبات من الكتب التي سيكون موضوعها محاولة لتفسير هذه الظواهر الثلاث المذكورة أعلاه، ولكن بوجود أي تفسير حقيقي لها.

لقد أطلق على الشر في البوسنة أنه شر ميتافيزيقي، والذي من الواضح أن القصد من تلك التسمية كونه غير قابل للتفسير وخارج نطاق التصنيفات المألوفة والمعروفة. وقد قال أحد الكتّاب بلغة الشعوب المتحضرة: إنه لا يوجد كلمة ذات درجة من البشاعة لوصف بعض مظاهر ذلك الشر.

وفيما يتعلق بسلوك العالم، هذا لنهج الغريب من التناقضات، فإن فكرة مجنونة في غرابتها تخطر على الذهن بأن شر ما غير قابل للتفسير ولا يصدق قد حدث في روح الأمم خلال الجيلين أو الأجيال الثلاثة الأخيرة. فقد خطّ أباؤنا تلك المواثيق والمعاهدات والإعلانات الرسمية الرائعة التي تحظر استخدام القوة، وحول التعايش السلمي، وحول حقوق الإنسان. وقد قمنا بالتعامل مع هذه الوثائق كما لو كانت مجرد أوراق دون أي قيمة. هل كان أباؤنا أشخاصاً مختلفين؟ ما الذي حدث لنا في هذه الأثناء؟

هنالك سؤال مهم جداً يفرض نفسه هنا، ويتعلق بكل الشعوب في جميع بلاد العالم من الآن فصاعداً: هل سيؤدي خرق القوانين الدولية على مثل ذلك

المستوى العالي كالذي حدث في البلقان إلى انهيار المعايير التي جرى وضعها عبر العصور المختلفة؟ هل سيبقى المجتمع الدولي بقواعد جديدة من السلوك يمكن أن تعطي القوة صفة شرعية بوصفها حقاً؟ وهل هو مستبعد لهذا؟

وحين يتعلق الأمر بمقاومتنا، فإن الحقائق لابد أن تتكشف يوماً ما، لكن هذا لن يكشف سر هذه الظاهرة. هذا لأن مقاومتنا كانت تملك عنصراً معنوياً قوياً، وهو حقيقة ذات طبيعة روحانية، وإن الحقائق من هذا النوع لا تخضع للتحليل العلمي وتستعصي عليه. إن سراييفو ليست المثال الوحيد، وإنما يمكن اعتبارها المثال الأكثر إقناعاً والأكثر إيضاحاً على ذلك؛ نحن في سراييفو كنا وما زلنا نحيا ونعمل على الخط الأول من الجبهة عملياً لمدة ثلاث سنوات الآن. وفي بعض المواقع يقع هذا الخط على مقربة ٥٠٠ متر من مبنى الرئاسة. وقد جرى قصف هذا المبنى أكثر من ١٢٠ مرة خلال ثلاث سنوات، وقتل ٥٧ شخصاً سواء داخله أو حوله. وشهد ١٠٠٠ يوم من الحصار. في ذلك الوقت، سقطت على المدينة حوالي مليون قنبلة. وقد قتل أكثر من ١٠,٠٠٠ مواطن، بما فيهم ١٣٠٠ طفل، إلخ.....

هذا هو الوجه المأساوي من الصورة (العملة). أما الوجه الآخر فهو كالتالي:

لم تتوقف الجامعة عن العمل يوماً واحداً. يتم تخريج أكثر من ١٥٠٠ طالب ومنحهم درجاتهم العلمية المستحقة خلال الحرب، وقبول أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه. وفي نفس الوقت تمَّ عرض برامج التلفاز الإخبارية، خبراً عن عدد الضحايا الذين سقطوا في ذلك اليوم وآخر عن الحفل الموسيقي أو المسرحية التي سيتم عرضها تلك الأمسية. كان الموت المكثف يتبعه حياة مكثفة قوية. صحيح أن تلك الحفلات الموسيقية كانت مجرد أحداث موسيقية، لكنها كانت تمثّل ردّنا على الشر والعنف القادم من التلال، والرد الإنساني من طرفنا على انعدام الإنسانية الخفيّة غير المتطورة.

مع ذلك، فهم يريدون تقسيم مثل تلك البلدة وبناء جدار أو سور خلالها. أنتم، الألمان، تعرفون جيداً ما يعني وجود أسوار وجدران عبر مدينة ما. وأنتم تعرفون أكثر من غيركم ماهية الروح التي تكمن خلف مثل هذه الفكرة الشريرة. إن كافة أولئك الذين يشيّدون جدراناً بين الشعب هم يتشابهون. عندما قام الستالينيون ببناء سور برلين، قالوا بإنهم كانوا يدافعون عن الحرية. في الوقت الحاضر، فنحن نعرف أن السبب الحقيقي لعملهم ذاك كان الفزع، والخوف من الحرية. إن أولئك الذين يعملون على تقسيم سراييفو، أولئك الذين يقطعون أوصال المدينة، يقولون لنا نفس الشيء، وهم مسكونون بنفس النوع من الخوف. إنهم يريدون قتل الرمز، الذي هو شاهد ضدهم، وقتل المدينة التي تمثل كل ما ليس لديهم ولا يمثلونه.

إن سراييفو شاهدة على أن الأشخاص ذوي المشارب والأديان والثقافات المختلفة يمكن أن يتعايشوا معاً. وهنالك شرط واحد فقط لهذا هو: أن يكونوا بشراً عاديين. الأشخاص غير الإنسانيين لا يقوون على ذلك.

في البوسنة اليوم، وفي الجزء الخاضع لسيطرة حكومة البوسنة الشرعية،هنالك ١٢ حزباً فاعلاً برلمانياً ومن خارج البرلمان. بعض تلك الأحزاب ليس فيها عدد كبير من الأعضاء، لأنها مجرد أحزاب أقوال لا أفعال أقوى من قوة أفعالها، ويرى الناس هذا ويعرفونه، لكن لا يحاول أي كان منعها من مواصلة نشاطاتها وكسب أصوات ناخبين جدد. وقد قرأت تقريراً من المقرر الخاص لحقوق الإنسان، السيد تاديوش مازوفيسكي، قبل بضعة أيام، بكل مشاعر الفخر والارتياح. فهو يذكر أن ثلاث محطات تلفازية تعمل بشكل نشط في سراييفو، إلى جانب ثماني محطات إذاعية. بالإضافة إلى بضع محطات أخرى تعمل في أجزاء أخرى من البوسنة، إن محطة الإذاعة والتلفاز للبوسنة والهرسك هي المحطة الحكومية الوحيدة. كافة المحطات الأخرى إما محطات مستقلة أو تتبع

للمعارضة. ومؤخراً هذه الأيام، كان هناك في زغرب، معرضاً يتكون من ١٧٥ صحيفة ومجلة نشرت في البوسنة والهرسك في أثناء الحرب. معظمها لصحافة مستقلة. ليست هناك أية رقابة على الإعلام في البوسنة والهرسك، ولم يتم أبداً منع أية مطبوعة، أو تعقب أي صحفي قضائياً جرّاء كتاباته أو كتاباتها.

من ناحية أخرى، يوجد لدينا على يميننا وعلى يسارنا مجموعة صغيرة من الفاشيين، الذين يفخرون بمفهومهم الخاص بقومية واحدة ودين واحد وضرب واحد. تهب الرياح من هناك، تحاول إطفاء شعلة إضاءة صغيرة تشع من المناطق الحرة من البوسنة والهرسك وعبرها. وهم يلجؤون لحجّة واحدة في مسعاهم ذاك: الأصولية الإسلامية. فهم يزعمون أنهم هم من يقوم بحماية أوربة من الخطر الإسلامي. قد تكون هذه فرصة سانحة، والمكان والزمان المناسب، لتوضيح ما يتعلق بما يسمى الأصولية الإسلامية في البوسنة. أولاً وقبل كل شيء، لا تدعوهم يدافعون عنكم، حتى لو كان ذلك ضد الأصولية الإسلامية. هل بلغ الانحناء بأوربة إلى ذلك الحد الذي يجعلها بحاجة إلى أولئك الذين قاموا بتدمير المواقع المقدسة والمعالم الثقافية من أي شيء كان؟ يوجد هناك إسلام في البوسنة، لكن ليست هناك أصولية، وإذا لم يكن بمقدور أي كان معرفة الفرق بين هذين الاثنين، فإن تلك تكون مشكلتهم هم. فبعد ٥٠ عاماً من الاضطهاد الشيوعي، فإن الدين ينهض من جديد، وهذه تعتبر عملية طبيعية. وتمثل هذه العملية جزءاً من النهوض الوطني للشعب البوسني والذي سوف يستمر.

إن النهضة الدينية في البوسنة لن يتبعها التعصب والتطرف، لأنها طبيعية وحرّة. وقد لعبت بالفعل دوراً إيجابياً في الطابع الإنساني لنضالنا من أجل الحرية. فالدين على الفرق بين الخير والشر، وعلى الرغم من كل شيء، لم نسمح بأن يتم تجاوز ومحو الفروق والاختلافات بين ما هو جائز ومباح وما هو ممنوع وحرام. كل ما كان يدفعنا ويحثنا على الانتقام [بنفس الطريقة]. ولكننا والحمد لله استطعنا التغلب على تلك المغريات.

هذا التوهم الخاطئ، الذي يصف خطأً الإيمانَ أنه أصولية، لا يزال موجوداً هناك بفضل الاتفاق الصامت بين المعتدين والغرب. فالمصلحة واحدة، [ولكن] الأسباب مختلفة. فمصلحة المعتدين الصرب تكمن في منع الغرب من مساعدة البوسنة، باستخدام خدعة الأصولية الإسلامية. وتتمثل مصلحة الغرب في إيجاد ذريعة مقبولة لسلبيته، ولعدم فعله أي شيء. فالغرب يقبل أن يتم إقناعه بشيء يريحه من تبعاتِ القيام بأي واجب يترتب عليه.

هاكم مثالين على ذلك، عندما حدث هناك قبل بضعة شهور حادثة في سوق مدينة سراييفو، تتعلق بلحم الخنزير (طلب المواطنون أن يتم الفصل بين محلات البيع) قامت الصحافة الغربية بالكتابة حول هذا الموضوع بوصفه أمراً خطيراً لعدة أيام، لقد كان هناك عدد أكبر من المقالات التي نشرت في وسائل الإعلام الغربية حول لحم الخنزير في سراييفو من تلك التي كانت تتناول كافة معسكرات الإبادة الصربية حيث كان يختفي الآلاف من الأشخاص الأبرياء. أما المثال الثاني، فقد قال أحد السياسيين الغربيين من ذوي المراتب العليا، في معرض حديثه عن الحرب في البوسنة: كلاهما مذنب بنفس القدر، وحتى يكون واضحاً تماماً فإنه يذكر صراحة: البوسنيون بنفس القدر الذي للصرب وبنفس القدر الذي للكرواتيين. وتحدث زملاؤه عما يسمى الأطراف المتحاربة والحرب الأهلية في البوسنة. والسبب في ذلك واضح جداً إلى حد الشفافية وبسيط بنفس الدرجة وهو: إذا لم يكن هذا إبادة جماعية وعدواناً، فإن الغرب غير ملزم بالردّ، وإن الحظر على الأسلحة ليس فقط أمراً مشروعاً وقانونياً، وإنما أيضاً حاسماً. كيف يمكن لنا نحن البوسنيين النظر إلى هذا، إلا على أنه محاباة مطلقة وتحيزاً فاضحاً؟

لكن، حدث بعد ذلك أن إحدى المؤسسات الأمريكية المرموقة والواسعة الإطلاع- تعرفون [بالطبع] أي مؤسسة أعني- ذكرت أن ٩٠٪ من مجموع

الجرائم المرتكبة في البوسنة قام الصرب بارتكابها. وهكذا، فلست على نفس القدر من الذنب، والحمد الله أن الأمر هكذا. فبذلك، على الأقل تم إنقاذ الأمل. وإذا كنا قد ارتكبنا جريمة واحدة، فلن ندعي لأنفسنا البراءة، لأننا نؤمن أن المبادئ والأرقام لا يمكن جمعها معاً أو طرحها بعضها من بعض. فليس هناك مجال للحساب في هذا الأمر. وعندها حدث قبل بضعة أيام أن قُتل طفلان في أثناء تبادل للنيران في الجزء الصربي من سراييفو، كان جيشنا من الشجاعة بتحمل المسؤولية عما فعله جنوده وملاحقة الجريمة. وجرى القيام بنفس الشيء في حالات أخرى قليلة مشابهة، لأن ثلاث سنوات من الحرب الفظيعة كالتي حدثت في البوسنة تؤدي إلى أوضاع غير متوقعة يصعب التحكم بها. مع ذلك، فقد كان يتم أحياناً وضع اللوم علينا لأننا كنا الطرف الأضعف. ويبدو أنه لا يحق للضعفاء ارتكاب الأخطاء ويتوجب عليهم أن يكونوا مثاليين، أما الأقوياء فليس عليهم ذلك. ولأننا لا نقبل هذه النظرة التي اخترعها الأقوياء، فإننا سنواصل الإيمان بالسلطة التي لا تعهد ولا تؤول القانون والإنسانية على حسب القوة.

في الختام، اسمحوا لي إنهاء هذا الخطاب ببعض الملاحظات الزاهية الألوان على المستوى الشخصي.

لقد أتيت إلى هنا بوظيفتي الرسمية، ولكن أيضاً- لِمَ لا أقولها- بصفتي مسلم من البوسنة. أنا شخصياً أشعر بنفس الوقت مسلم وأوربي معاً، ولا أعتقد أن أحدهما ينفي الآخر. إني لا أقبل وجود فروق بين الأشخاص والحضارات لا يمكن تجاوزها والتغلب عليها. وإذا كانت كل حضارة هي في المقام الأول مجموعة من القيم- والتي هي بالتحليل النهائي قيم أخلاقية يتم الإيمان بها- فإن بوسعنا إذن الحديث عن وحدة محتملة للحضارات.

قبل زمن طويل، عندما كنت شاباً يافعاً، كتبت مقالاً حول الفيلسوف كانط والأمر القطعي الجازم. كانت فكرة المقال الرئيسية أن المبدأ الأخلاقي

الذي كوّنه كانط والمعروف بالاسم المذكور أعلاه. يمكن العثور عليه في التعاليم القديمة جداً بشكله الحرفي تقريباً، ابتداء من حكماء اليهود القدماء وكونفوشيوس في الصين القديمة، إلى تولستوي ومارتين بويد في قرننا الحالي، وهكذا فإن هذا المبدأ الأخلاقي الأساسي هو من ناحية عملية غير محدود بمكان أو زمان أو تاريخ. بالنسبة إلي، كان هذا يعني أنه لا توجد اختلافات بين الحضارات لا يمكن التغلب عليها، وأن جميع الثقافات متشابهة وحتى متساوية إذا نظرنا إلى جذورها العميقة. وعندي كانت هذه المسألة شأناً يتعلق بالمساواة الإنسانية.

هنالك آية جميلة في القرآن [الكريم] تبدأ بكلمات ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/٦٤] والدعوة هنا موجهة لليهود والنصارى. وبالتالي، فإني أدعوكم إلى رفض الدعوات الداعية إلى بناء حواجز مصطنعة بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب. وإنما إلى النظر بعمق في هذا الأمر لرؤية إذا كان بعض من عدم التسامح وعدم التقبل ناجماً عن الأنانية ومظالم الغرب. وفوق ذلك، فإن العديد من الاختلافات التي تشاهدونها وتشعرون بها ليست فروقاً جوهرية، وهي ناجمة عن فروق من مستوى التطور الثقافي والاجتماعي.

أود أن أختتم خطابي بالتمني لألمانية بأن تتبوأ مكانها في العالم الذي تنتمي إليه بوصفها قوة ثقافية وأخلاقية اقتصادية من المرتبة الأولى. وليس لدى ألمانية أي مبرر للتردد. فألمانية والعالم لا بد أن تستفيد من ذلك. أشكركم.

الملحق الرابع

محادثات في المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية

باريس، ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٩٥

جان باريو سيدي الرئيس: أود أن أشكركم على قبولكم دعوتنا إلى هذه الأمسية. يعلم الجميع أن الضغوط التي أثقلت كاهلكم لسنوات عديدة وما تزال. ومن بين الصفات التي تتمتعون بها والتي نعرفها، أذكر واحدة تستحق ثناءً خاصاً، هي شجاعتكم.

اسمحوا لي أن أطرح عليكم السؤال الأول لدفع الحديث كي يبدأ. هل حقاً أننا نقترب من عملية سلام حقيقية هذه الأيام، أم أننا على العكس من ذلك، نمضي باتجاه جولة جديدة من الحرب؟

عزت بيغوفتش: قبل أن أجيب على سؤالك، أود أن أشكركم على دعوتكم الصادقة والحميمة. إنه لشرف أن تتاح لي الفرصة للتحدث إلى مثل هذا العدد الكبير من رجالات الفكر الفرنسي المرموقين. هنالك أربعة أعضاء من وفدنا معي الآن، والذين يستطيعون الإجابة عن السؤال الذي طرحته، وأستطيع الاستراحة قليلاً في أثناء قيامهم بالإجابة. لقد طرحت عليّ السؤال في اللحظة

المناسبة، فقد قمت صباح هذا اليوم فقط بإرسال رسالة إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة وإلى أعضاء مجموعة الاتصال الغربيين، منهم أولئك الذين يمثلون الدول الإسلامية الذين سيجمتعون في جنيف غداً. وفي هذه الرسالة، أطالب بتدمير المدفعية الصربية الثقيلة التي تحاصر سراييفو. لأنها آلة قتل، قامت بقتل وإفناء ١٠ آلاف مواطن من سراييفو كان من بينهم ١,٣٠٠ طفل، بالإضافة إلى ٤١ مواطناً آخر أمس. وطالبت باتخاذ إجراء فعّال وفاعل لتدمير هذه الآلة. وقلت: إننا سنعلّق مشاركتنا في محادثات السلام إلى أن يتم حل هذه المسألة. إذا استمر هذا التردد من المجتمع الدولي، فمن المؤكد أنه لن يتم التوصل إلى السلام حتى زمن طويل. ولأنه علينا إيجاد وسيلة لتجميد هذه المدفعية الثقيلة التي تحيط وتحاصر سراييفو بأنفسنا، فإن هذا يعني بوضوح إطالة مدة الحرب. لا أدري إن كانت إجابتي شافية بالنسبة إليك، لكنني أعتقد أنني كنت على الأقل واضحاً.

جان باريو: من قوانين اللعبة في حفلات الغداء هذه طرح الأسئلة غير الخاضعة للمعتقدات "المأثورة" نوعاً ما، وأود أن أطرح عليك مثل تلك الأسئلة أيضاً.

أحياناً يكون هناك انطباع بأن البوسنة في الحقيقة تريد استمرارية الحرب، لأنها واثقة من أن تطور العلاقات العامة الاضطرارية ملائم بالنسبة إليها. ما رأيك بهذا التفسير؟

عزت بيغوفتش: لقد قدم وفدنا إلى فرنسة في مهمة سلام. في الوقت الذي حدثت فيه مجزرة الأمس، كنا نحن في "موستار" في طريقنا إلى بلدكم. وكما تعرفون، وصلنا متأخرين، وسأشرح لكم سبب ذلك. لقد ترددنا لعدة ساعات. وكنا نفكر في العودة إلى سراييفو، وبعد ساعات من التفكير ملياً ومعاودة التفكير، قررنا في النهاية القدوم إلى هنا. فالصرب قد يكونون قصفوا سراييفو

لإثارة الاضطراب في عملية السلام. وعلينا ألا نقع في المصيدة ونتجه نحو الاستجابة للاستفزاز. لقد أتينا إلى باريس متوقعين رد فعل سريع من المجتمع الدولي إما الأمس أو اليوم. وقد انتظرنا هذا الرد طوال اليوم هذا اليوم، لكنه لما يصل بعد. يعتقد العالم أن بوسعه تقييد يدينا خلف ظهورنا وعدم فعل أي شيء. لا أدري إن كنتم تذكرونه: لقد كنت هنا قبل عامين على شاشة. تلفازكم لقد قمت بوضع يديّ في وضع اليدين الموثقين وأريتهم ذلك، لأنكم بالفعل قمتم بتقييد يدينا بالحظر المفروض على الأسلحة. وقد اعتقدنا أن العالم سيعمل شيئاً ما لمساعدتنا، بما أننا كنا نواجه بهذا الحظر. وكما تعرفون، لم يتم فعل شيء. ويمكننا القول: إن العكس تماماً قد حدث. وإن المجتمع الدولي خان البوسنة والهرسك بطريقة تدعو للخجل. ففي التاسع من شباط (فبراير) ١٩٩٤، توصل حلف الناتو إلى قرار بإزالة المدفعية الثقيلة المحيطة بسراييفو. وقد جرى احترام هذا القرار لمدة نصف سنة فقط. وفي شهر آب (أغسطس) بدأت القنابل بقصف سراييفو مرة أخرى. في البداية، كانت هناك قنبلة واحدة كل بضعة أيام، وبعدها صارت تتكرر بشكل متقارب أكثر فأكثر. لقد جسّ الصرب نبض المجتمع الدولي لرؤية فيما إذا كان مستعداً للتمسك بقراره والقيام بتأدية واجباته. أدركوا أنه كان ضعيفاً وغير مستعد لفعل أي شيء. بعدها، تتابعت الهجمات. كما حدث أمس.

للإجابة على سؤالك، إذا كنا مع السلام أو مع استمرار الحرب، فأقول: إننا قد قبلنا اثنتين من خطط السلام إلى الآن. هما خطة فانس-أوين في بداية عام ١٩٩٣ وخطة مجموعة الاتصال في العام الماضي، قبل عام بالضبط. كلتا الخطتان لم تكونا عادلتين للبوسنة والهرسك. ومن ثمَّ قبلنا بهما لأنهما تؤديان إلى السلام. ورفض الصرب كلتا الخطتين يمكنك التوصل إلى استنتاجاتك الخاصة [بشأن السؤال].

جان باريو: سأطرح عليك سؤالاً واحد آخر فقط، لكني أريد من الآخرين القيام أيضاً بطرح الأسئلة بحيث لا يصبح هذا مجرد حوار ثنائي، إذن سيداتي وسادتي، الرجاء تجهيز أسئلتكم.

سيدي الرئيس، سؤالي التالي هو: هل يمكنك إخباري ما رأيك في الولايات المتحدة؟ وما الذي تتكون منه صلابة هذا الاتفاق، وكيف يمكن تخيل الحفاظ على وحدة الدولة البوسنية بينما تلك الدولة في علاقة اتحاد كونفدرالي مع دولة أخرى، هي كرواتية، وجزء آخر أيضاً مع صربيا؟ وكيف يمكن لمثل هذا النظام أن يكون له معنى في سياق القانون الدولي؟

عزت بيغوفتش: أولاً، إن هذا سؤال مطول نوعاً ما.

جان باريو: نعم. إنك على حق.

عزت بيغوفتش: إن لديكم السيد زوباك، رئيس الاتحاد يجلس على يمينكم، ويمكنه الإدلاء بالقول حول هذا. إن تأسيس الاتحاد يجري على نحو بطيء جداً. ولا زلت أعتقد أن الاتحاد ليس شيئاً مصطنعاً مفروضاً من قبل تأثير خارجي أجنبي. جرى تأسيس الاتحاد قبل أكثر من عام وأدى بشكل مباشر إلى السلام. ولم يتم إطلاق رصاصة واحدة منذ ذلك الحين. وفقاً لرأينا، فإن هذا امتحان عظيم لقيمة هذه الخطة، على الرغم من أن تطبيقها صعب. في اليوم الذي وقعنا فيه اتفاق الاتحاد، توقفت الحرب تماماً مباشرة. أعتقد أن هذه هي الكيفية التي اجتاز فيها اتحادنا الامتحان. وأعتقد أن السيد زوباك وأنا سننجح في إقامته بشكل كامل. وعلى النقيض من ذلك، فإنه يمكن القول: إن الصراع الذي سبق الاتحاد كان غير طبيعي. وبما أن هناك تعاطف عميق بين الشعب البوسني والكرواتي، فإن الصراع كان قد تسبب ونشأ بشكل مصطنع كما هو واضح. وكان هناك بعض مجموعات فقط معارضة للاتحاد وضده. وكان يؤيد الاتحاد كل من رجالات الفكر ومثقفي كرواتية، وكافة جماعات وأشكال المعارضة

الكروات، والحزب الذي يتولى السلطة في كرواتية وقع الاتفاقية. وكانت الكنيسة الكاثولوكية التي لها نفوذ كبير في كرواتية والبوسنة مؤيدة أيضاً للاتحاد. وهكذا، فإن كافة العوامل ذات النفوذ مؤيدة له. وهذا هو سبب إيماني بأن الاتحاد له مستقبل.

جان باريو: سيدي الرئيس، لقد رأيت السيد شيراك اليوم. هل تشعر بخيبة الأمل من التأييد الفرنسي لمشروع نزع أسلحة سراييفو؟

عزت بيغوفتش: صراحة، لست على اطلاع بالمحتوى الكامل لهذا المشروع المقترح. ولم يذكر شيراك هذا الموضوع في أثناء محادثتنا. على العكس من ذلك، تحدثنا عن فتح سراييفو بمساعدة القوات الفرنسية لتأمين الطريق إلى إيغمان وإلى المطار والتي ستفتح سراييفو. وكان الحديث صريحاً جداً ومفيداً. لديَّ شعور بأن البوسنة لديها صديق بشخص الرئيس شيراك، بحكم الطريقة التي نرى فيها نحن البوسنة والطريقة التي يراها هو بها. نحن نرى البوسنة والهرسك بلداً ديمقراطياً سيتم فيها احترام حقوق الإنسان ويسود فيها التسامح. وقد صرَّح الرئيس شيراك أنه يؤيد البوسنة والهرسك لأنها هي البلد الذي هوجم. لقد قال: "إذا أصبحتم الطرف المعتدي في يوم من الأيام، فإننا سنكون ضدكم. ما دمتم أنتم مهاجمين، فإننا إلى جانبكم. لأن ذلك هو الالتزام الأخلاقي لفرنسة. هذا هو الشيء الذي قاله الرئيس.

جان باريو: سيدي الرئيس، هل هناك اختلاف بين الرئيس شيراك والرئيس الفرنسي السابق ميتران فيما يتعلق بمسألة البوسنة؟

بيغوفتش: أعتقد أن هناك فرقاً، لا أستطيع الزعم بأن الرئيس ميتران كانت له مواقف مضادة للبوسنة أو شعور مضاد للبوسنة. لكن موقف الرئيس شيراك إزاء البوسنة أوضح. بالطبع، فإن هذا هو الانطباع الذي لديّ، لكنني أعتقد أن هناك فرقاً موجوداً بشكل واضح.

جان باريو: هل الخطة الأمريكية، وفقاً لمعلوماتك، مجرد افتتاح بسيط لا تلزم الأمريكان بفعل شيء؟ هل يريدون التقسيم الإداري للبوسنة وفقاً للنسبة المئوية: ٤٩٪، للصرب ٥١٪، للكروات والمسلمين، حيث طالب رادوفان كارادجتش بـ ٦٤٪ من الأرض الأسبوع الماضي، بالإضافة إلى ممر يؤدي إلى البحرن إضافة إلى جزء من سراييفو؟ وما رأيك بتصريح كارادجتش في هذا الصباح الذي قال فيه: إنه يقبل الخطة الأمريكية؟

عزت بيغوفتش: لم أستمع لذلك التصريح. لقد كنت مشغولاً جداً هذا اليوم ولم أستمع للأخبار. لكن، أعرف أن كارادجتش يصدر تصريحات ذات التباس لتأخير وتأجيل التوصل إلى قرار أو لتسهيل التشويش والاضطراب، يتوجب على كارادجتش قبول خطة مجموعة الاتصال وأن يقول ذلك بشكل واضح بالإضافة إلى قبوله وحدة وسيادة البوسنة والهرسك. ليس بشكل غير مباشر وإنما بشكل صريح ومباشر.

جان باريو: سيدي الرئيس، خلال حفل غداء يشبه هذا قليلاً، والذي جرى في لندن، قام تودجمان بوضع رسم تقريبي لتقسيمه للبوسنة. ماذا كان رد فعلك الشخصي عندما رأيت ذلك الرسم، وهل طلبت من الرئيس تودجمان تفسيراً شخصياً؟

عزت بيجزفيتش: قبل أن أتحدث معه، أنكر هذه القصة. وبما أننا لا نحب إثارة النزعات الشيطانية. فقد قررت عدم القيام بالبحث في هذه المسألة. لقد أنكرها تودجمان ونحن قبلنا إنكاره. كما تعلم، ليس هناك ثقة مطلقة أبداً في السياسة. لكن، يجب ألا يكون هناك عدم ثقة بشكل دائم تعمل على شلّ القيام بأي عمل. فالأمم لا يحق لها اختيار جيرانها. إن كرواتية إقرب جار لنا وأهم شركائنا. علينا التعايش مع كرواتية. ونرغب أن تسير الأمور نحو الأفضل، وليس بشكل سيئ.

جان باريو: إذن، أنت لا تنفي وجود الرسم، إنك فقط تقبل إنكاره.

عزت بيغوفتش: يمكنك قول ذلك.

جان باريو: سيدي الرئيس، إننا نفترض أن خطر الأسلحة سيتم في النهاية رفعه. هل تعتقد أن الصراع سيصبح محدداً أو أنه سينتشر إلى مناطق أخرى من يوغسلافية السابقة وبشكل أوسع من ذلك حتى؟

عزت بيغوفتش: كلا الاحتمالين وارد: إن الصراع سيتوسع أو أنه سيبقى محصوراً في أراضي البوسنة والهرسك. والاحتمال الثاني أكثر احتمالاً جراء الخوف من انتشار الصراع. وكما ترى، فإن الخوف أحياناً يلعب دوراً إيجابياً. فانتشار النزاع ليصل إلى كرواتية وصربيا يمكن أن يؤدي إلى ألبانية واليونان وحتى روسية. إن الخوف من مثل هذا التطور يمكن أن يبقي الحرب محصورة ضمن نطاق حدود البوسنة والهرسك. لذلك، فإني أعتبر هذا أقوى احتمالاً.

جان باريو: سيدي الرئيس، بعد أربعة أعوام تقريباً من الحرب، ما رأيك بدور أوروبة؟ هل تعتقد بوجوب وجود قدرة أو قوة أوروبية للمساعدة على حل النزاعات، وهل ستكون ذات فائدة تذكر؛ وهل شعرتم بالحاجة لوجودها والافتقار إليها؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أن أوربة قد رسبت في الامتحان، مما يعكس الوضع السيئ لروح أوربة والعالم بشكل عام. لقد ذكرت للتو أحد الالتزامات التي قام بها حلف الناتو والأمم المتحدة، وأعني به الإنذار النهائي بوقف الحرب لحماية مدينة سراييفو. لقد تمت خيانة هذا الالتزام بشكل كامل. حيث حدثت [مجزرة] سربرنيتسا مؤخراً. فقد أعلنت الأمم المتحدة منطقة سربرنيتسا منطقة محمية. وليس هذا فقط أقنعونا بقبول نزع سلاح سربرنيتسا، وعلى أساس ذلك قام جيشنا بتسليم أسلحته إلى الأمم المتحدة. بعد ذلك، تركوا سربرنيتسا تواجه

مصيرها، وحدثت أسوأ جريمة بعد الحرب العالمية الثانية. إني أعتقد أن هذه كانت خيانة مخزية. عندما كنت شاباً قرأت كتاب سقوط الغرب، الكتاب الشهير الذي كتبه أوزفالد شبنغلر. وقد وقعت تحت تأثير هذه الحرب. بدأت بالإيمان بهذه الفكرة مرة أخرى. كيف يمكن تسليم سربرنيتسا إلى قتلتها بعد التزامات يتم وضعها والتصريح بها بشكل واضح وصريح؟ هل تعلمون أن ٤,٠٠٠ شخص قتل خلال أربعة أيام فقط؟ إن كل هذا يحدث والعالم المتحضر يشاهد دون أي احتجاج ملحوظ! إن عالماً يمكنه خيانة التزاماته والتنصّل منها بهذه الطريقة ويترك آلاف الأشخاص يواجهون مصيرهم القاسي يتوجب عليه التوقف والتفكير حول نفسه. دعوني أكرر: إني مرة أخرى أعتقد بسقوط الغرب. ويبدو أن الروح الأنيشتانية المتعلقة بالنسبية تلوح حالياً فوق كل شيء. لم يعد هناك أي شيء أكيد أو مستقر، كل شيء بينها، ويتفتت إلى أجزاء صغيرة.

جان باريو: سيدي الرئيس، بالاستماع إلى بعض البوسنيين، وبعض أصدقائك، أمثال برنار هنري ليفي في فرنسة، فإن المرء يحدث لديه الانطباع بأننا نحن، دول الغرب، مذنبون لأن الصرب والبوسنيين والكروات يقتل بعضهم بعضاً منذ أربع سنوات. لكن هل هناك أسبابٌ محلية بشكل محدد، لهذه المذابح؟ وأيضاً، هذا الأمر يجب التفكير والنظر فيه من حين لآخر.... كيف يمكن لأناس عاشوا بعضهم مع بعض لمدة ٧٠ عاماً وأكثر، القيام الآن بقتل بعضهم بعضاً؟

عزت بيغوفتش: إنها مسألة تتعلق بالقومية في هذا الجزء من العالم. تذكروا الأحداث الأوروبية خلال هذا القرن عندما بدأ أناس عاديون في ظل أيديولوجيات شيطانية بارتكاب الشرور فجأة. إن الفاشية لهي منتج أوربي. وتنبع من جزء متحضر من أوروبة. وليس من البلقان. والبلشسفية هي قصة

مشابهة. كما ترون، الشر ينبع من مكان ما. من الصعب معرفة مصدره، لكن يتولد لديك الانطباع بأن مقداره ثابت ودائم، ولكنه يغيّر فقط مكانه وشكله. وأنا أقول: إن الخير لم يقف ليواجه الشر. ظهر الشر في البلقان هذا صحيح. لكن لم يكن هناك قوى خير في أوربة لإيقافه. ولا يزال السؤال دون تفسير عن سبب حرمان دولة مستقلة، كانت على الرغم من كل شيء واحة للديمقراطية أو نور وسط الظلام الدامس. من حقها الدفاع عن نفسها! فقط في ذلك الجزء من العالم الذي يخضع لحكم الجيش والسلطة البوسنية. كان هناك ديمقراطية وحرية صحافة ومعارضة سياسية وكنائس، سواء كاثولوكية أو أرثوذكسية. كل ذلك على أرض واحدة. وعلى الرغم من هذا كله، جرى تقييد أيدينا. لم يتم إعطاؤنا فرصة الدفاع عن أنفسنا. ومرة تلو مرة، جرى تقديم المزيد من الأسباب التي لا تسمح لنا بالدفاع عن أنفسنا. لماذا؟

جان باريو: دعنا نعود إلى السؤال الجوهري الحقيقي. هل فكرة سلوبودان ميلوشفتش بالاعتراف رسمياً بالبوسنة والهرسك فكرة واقعية أم لا؟

عزت بيغوفتش: لا أدري إن كنت قد لاحظت ملاحظة معينة خفية في الاعتراف الذي قدِّم إلينا. إن ميلوشفتش يعرض اعترافاً أحادي الجانب بدلاً من كونه ثنائي الجانب، ويطلب ثمناً باهظاً جداً مقابله. إنه يعترف ببعض البوسنة. والذي هو غير موجود. هو يعترف ببوسنة وهرسك على مزاجه الخاص. لقد قلنا: إننا غير معنيين بشيء كهذا. من الواضح أن ميلوشفتش يريد ضمان أمرين: رفع العقوبات من خلال الاعتراف بشكل رسمي بدولة غير موجودة. وفي نفس الوقت الاستمرار في تحقيق مشروع أو خطة صربيا العظمى. وبما أن ميلوشفتش يقدم نفسه هنا صانعَ سلام، فإن ذلك يذكرني بفكرة كلوزوفيتش الذكية واللماحة: "حينما يصل المعتدي إلى أهدافه، فإنه يتحول إلى صانع سلام".

جان باريو: قلت: إن الغرب قد خان البوسنة، مما يعني أن البوسنة أقرب إلى العالم الإسلامي. ماذا ترى، ما الذي يمكن للبوسنة توقعه من العالم الإسلامي؟

عزت بيغوفتش: البوسنة بلد أوربي. أنا مسلم، ولكنني أوربي بنفس الوقت. وأشعر شعوراً طيباً من قدراتي على أن أكون الاثنين معاً. وما يحدث مع البوسنة أمر مشابه جداً. فهي تنتمي لكل من الشرق والغرب معاً. إنها بلد مثير للاهتمام، فهي أرض تقع على ما يسمى الحدّ الكبير. إن خط الاتصال والتفاعل بين الشرق والغرب كان يجري عبر البوسنة لمئات السنين، وخلق ما نسميه روحاً بوسنية. أهم خصائص هذه الروح التسامح والقدرة على التعايش مع آخر يختلف عنك. مؤخراً حدثت مذابح في سربرنيتسا وجيبا. لم تكن هناك محاولة من جانب الشعب البوسني للهجوم على الأشخاص الصرب مقابل ذلك. إذن، هذا هو ردّي على السؤال. إننا ننتمي إلى عالمين مختلفين في نفس الوقت ونحن سعداء أن الأمر هكذا.

جان باريو: اسمح لي أن أسألك سؤالاً واحداً آخر سيدي الرئيس. تصر الصحافة الغربية على الانقسام الداخلي بين الصرب، ويقال: إن السيد ميلوشفتش يعرف عن الورقة الدبلوماسية، وأن السيد كارادجتش متطرف. إن الجنرال ملاديش سيكون هو الأقرب إلى ميلوشفتش، وهو الشخص الذي بوسعك التفاوض معه.

عزت بيغوفتش: هنالك اختلاف كبير بين كارادجتش وميلادتش. من ناحية أخرى، فإن كليهما مختلف عن ميلوشفتش. إن ميلوشفتش أقل قومية، وهو ساعٍ للسلطة بشكل أكبر.

جان باريو: المشكلة الرئيسية بين كرواتية وصربيا تكمن في سلافونيا الشرقية. هل ستنسحب صربيا من هذه المقاطعة الكرواتية أم سيكون هناك حرب؟ ما تقديرك؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أنهم سينسحبون من سلافونيا. لكن هذا لا يمكن القيام به على الفور. فالأطباء يقولون: إنه لا يمكنك أخذ حقنتين في نفس اليوم. يجب أن تترك إحداها لليوم التالي. لكن صربيا ستنسحب، إني شبه متأكد من هذا. ربما خلال بضعة شهور.

جان باريو: أود أن أسألك سؤلاً شخصياً نوعا ما. أولاً، هل كان لديك أصدقاء من الصرب قبل الحرب؟ هل لا تزال تلك الصداقات قائمة؟ وعمّ تتحدثون فيما بينكم؟ والسؤال الثالث هو: هل تعتقد أنه في يوم ما ستعقدون سلاماً مع الصرب؟

عزت بيغوفتش: اثنان من أصدقائي موجودان هنا، كلاهما صربي: البرفسور كوفاتش، سفيرنا في باريس، والسيد ميرولازوفيتش، رئيس التجمع البوسني. إنني لم أتربّى على الكراهية. وإذا كنا نتحدث عن العقلية فبالإمكان القول: إن العقلية البوسنية أقرب إلى الصربية منها إلى الكرواتية، لأننا كنا معتادين على العيش معاً لمدة طويلة في ظل السلطة التركية. ويقال: إن البوسنيين والصرب لديهم شيء مشترك: إنهم يحبون النساء الجميلات والخيول الجيدة. إني لا أعتقد أن الشعوب الشريرة موجودة. هناك شعوب ذات قيادة سيئة. والألمان مثال جيد. لقد كنت دوماً أؤمن أن الألمان كانوا شعباً طيباً. غوتة وبيتهوفن وأينشتاين كانوا ألماناً. لكن، في وقت ما قام فريق شرير بقيادة الشعب الألماني، فقاموا بارتكاب جرائم فظيعة.

جان باريو: والآن سؤال يتعلق بسبب الحرب. ما الذي تراه في اللحظة التي تم فيها الاعتراف بكرواتية وسلوفينيا كدولتين مستقلتين؟ أعتقد أنني سمعت أنك قلت أن ذلك جرى في الوقت المناسب. ما رأيك بذلك القرار، وهل أسهم في تطور الأحداث الجارية؟

عزت بيغوفتش: لقد كان قراراً جيداً بالنسبة لسلوفينيا وكرواتية، ولكنه كان سيئاً بالنسبة للبوسنة والهرسك. ربما، وأقول ربما، جعلت من الحل السلمي الذي كان بمبادرة من اللورد كارينغتون مستحيلاً. والسؤال هو: هل كان بالإمكان أن تتجه الأمور وجهة أخرى؟ لكن هذا يأخذنا إلى فلسفة التاريخ: لماذا حدث شيء ما في التاريخ؟ إذا كان هيغل محقاً، فإن يوغسلافية كان لا بد لها أن تنهار وتنقسم. هل تذكرون عبارته القائلة: إن كل ما أخفق في التاريخ قد أخفق لسبب ما. وكتب تولوستوي كتابه الشهير، أو روايته الشهيرة، ليبيّن أن الناس لا تحكم التاريخ. لا أحد يعلم لماذا يجري التاريخ بالطريقة التي يجري فيها. ولا أشعر إني قادر على إيجاد وفهم أسباب مسار التاريخ. الله وحده وقدره. هذا ما أراه.

جان باريو: اسمح لي أن أعارضك بكلماتك الخاصة. لقد قلت للتو: إن الشعب لم يكن سيئاً بحد ذاته، وإنما تتم قيادتهم على يد مجموعة ما، أليس هناك تعارض بين الاثنين؟

عزت بيغوفتش: نعم، ظاهرياً قد يكون هناك تعارض. إن أي حكم مهم على الحياة عادة ما يكون متناقضاً.

جان باريو: سيدي الرئيس، كنت على وشك أن أشكرك علىهذا الحديث، وفي ذهني الالتزامات المرتبط بها. لكن دعني أسألك، هل تعتقد أنه من الممكن قيام يوغسلافية القديمة على نحو جديد؟ وكذلك، آخذين بالاعتبار أن يوغسلافية كانت تعني السلاف الجنوبيين، فهل يمكن أن يقام كيان سياسي جديد خلال ٢٠ أو ٣٠ سنة؟

عزت بيغوفتش: لا أعتقد ذلك، لأن تلك العوامل الأساسية التي يمكن أن تشكل مثل يوغسلافية تلك -سلوفينيا وكرواتية- قررت السير بالطريق الخاص

بهما، بينما كانت البوسنة والهرسك مترددة في قرارها. أعتقد أن سلوفينيا لن تقبل مرة أخرى يوغسلافية بسبب تجربتها المريرة معها. وبما أنه لا يزال لدينا بضعة دقائق أخرى، فإن بإمكاني أن أقول لكم: إن يوغسلافية لم تكن في البداية فكرة سيئة، لكن التعصب القومي الصربي عمل على تدميرها. طوال الوقت بأكمله، حاول الصرب الحفاظ على سيطرتهم وزعامتهم السياسية والعرقية داخل يوغسلافية. وإني أعتذر من أصدقائي الصرب، لكن هذه هي الحقيقة المؤسفة. كان بالإمكان أن تكون يوغسلافية دولة ذات شعوب وقوميات متساوية وأن تستمر في وجودها كذلك. في الأعوام ١٩٩١ و١٩٩٢ كنت ما أزال أؤمن بيوغسلافية. لكن تبين في النهاية أنها آلة لا يمكن إصلاحها. وإذا كان يتوجب علي تقديم نوع من التشخيص للحالة، فسأقول: إن نزعة السيطرة لدى الصرب كانت موجودة في أساس يوغسلافية، وبالتالي فإن فكرة يوغسلافية أصبحت غير مقبولة من جانب كرواتية وسلوفينيا.

جان باريو: هل تعتقد أن يوغسلافية كانت فكرة سيئة؟

عزت بيغوفتش: لا أعتقد أنها كانت فكرة سيئة، لكن تطبيقها كان سيئاً.

جان باريو: لماذا قبل الصرب إدراة الكروات لهم هذه المدة الطويلة من الزمن؟

عزت بيغوفتش: هذا السؤال يتعلق بطبيعة النظام الشيوعي. ففي أعين الكثيرين، لم يكن جوزيف بروز [تيتو] كرواتية، وإنما زعيم الحزب الشيوعي. لكن، بالطبع، هذا الأمر أكثر تعقيداً إن البلشفية كانت نظاماً قائماً على فكرة الشيوعية، وهذه الفكرة، على الأقل من حيث المبدأ كانت ترفض فكرة الأمة والقومية. لكن مع ذلك، فإن الوضع يكون دائماً مرحلياً ومؤقتاً، لأن الأمم والشعوب حقيقة واقعة.

جان باريو: ما دور الدين في هذا الصراع، وماذا تعتقد حول ذلك الدور؟

عزت بيغوفتش: بعد سنين عديدة من القهر الشيوعي جاءت عودة الدين، وذلك تقريباً بمثل ظاهرة طبيعية. إن الدين فكرة عظيمة غالباً ما يساء استخدامها. هذا ماحدث في مناطق البلقان هذه الأعوام الأخيرة. شخصياً، أنا رجل متدين. ولكن بوسعي تقديم مجموعة كبيرة من الأمثلة على إساءة استخدام الدين واستغلاله عبر التاريخ. لكن هذا لن يشين الدين، ولن يشينه العديد من الحلقات المحزنة السابقة. إن فكرة المسيح تجاوزت الصليبيين والبابوات السيئين والعديد من الأمور السيئة والمأساوية التي زالت وبقيت الفكرة، لأن الإيمان غير قابل للتدمير، مثل الحياة. لكن هذا موضوع آخر.

جان باريو: سيدي الرئيس، أشكرك. لكن أدركنا الوقت. أود أن أعبّر عن إعجابنا بشخصيتكم، وقد استطعت كسب تعاطف الكثيرين بسمو ورفعة أفكارك والأهداف النبيلة التي تحارب من أجلها وعلى صبرك وثباتك على مسيرتك. شكراً لك.

الملحق الخامس

مقابلتان صحفيتان لمجلة سراييفو الأسبوعية داني

من بين المقابلات الصحفية العديدة لتلك الفترة الممتدة عشر سنوات، قمت باختيار اثنتين من أجل هذه الملاحق، وكلتاهما منشورة في مجلة سراييفو أسبوعية هي مجلة " داني" أجريت هاتان المقابلتان بفاصل زمني مدته ثلاث سنوات.

فالأولى كانت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤، في أتون الحرب، والثانية في آذار (مارس) ١٩٩٨ عندما كان يعمنا السلام. سأقوم باقتباسهما دون أي تعليق. في جوهر الأمر، فإني أرى أن الأسئلة تصور وتصف الوضع والتغييرات أكثر مما تفعله الأجوبة. كلتا المقابلتين قام بإجرائهما سناد بتشانين، المحرر الرئيس في "داني".

المقابلة الأولى:- ١١ كانون أول (ديسمبر) ١٩٩٤

داني: عبر التاريخ الطويل للبوسنة والهرسك، كان مصيرها يتحدد دوماً إما على يد الغزاة الأجانب أو القوى الكبرى. لكن في كلتا الحالتين، كان الشعب الذي يعيش في تلك البلاد الأقل تحكماً في تقرير مصيرها. هل سيعيد التاريخ نفسه الآن وعلى نحو أكثر صرامة من أي وقت مضى؟

عزت بيغوفتش: لا يمكنني موافقتك الرأي بالإجمال. إننا نقوم وبشكل نشط وإيجابي بخلق ما يسمى مصيرنا. (أما) مسألة النتائج فتلك مسألة أخرى. إنها لا تتعلق بمقدار مشاركتنا من حيث كونها أقل أو أكثر، إنما بالعلاقة بين القوى. لقد دخلت عوامل قوية في التأثير على مصيرنا، سواء من خلال السكون أو الفعل(الحركة). الغرب على الأغلب من خلال السكون، لكن السكون بحد ذاته قوة كذلك. مع ذلك، إذا كان يتوجب عليّ تقدير المحصلة النهائية لهذا الشد والجذب، فإني أعتقد أن شعبنا سيكون له في النهاية دولته والقول الفصل فيها.

داني: إن دور روسية وبريطانية العظمى وفرنسة في العدوان على البوسنة والهرسك، وعلى الرغم من أنه غير منطقي وغير مفهوم، واضح تماماً. لكن يبدو لي أن المقدار غير المعروف الأعظم في سياستنا هو موقف وقصد الولايات المتحدة فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك. هل تعتقد أن الإدارة الأمريكية الحالية ستتغلب على" عقليتها ضيقة الأفق السياسية والإستراتيجية" بالفكرة الرئيسية السائدة لديها بأن" أمريكا في الحقيقة ليس لها مصالح أمنية في البوسنة؟

عزت بيغوفتش: مؤخراً، قرأت عن دراسة قام بها مجموعة من المؤلفين الأمريكيين المؤهلين. وفقاً لهذه الدراسة، فإن البوسنة تقع ضمن الفئة الثالثة من الاهتمام الأمريكي.، والتي هي درجة متدنية جداً. هذا الميل كان موجوداً منذ بداية الأزمة في يوغسلافية السابقة. لقد حاولنا على الدوام، دون نجاح على الأغلب، إقناع أمريكا بالحاجة إلى تدخلها النشط والفاعل، وليس مراقباً فقط، في حل الأزمة البوسنية. وكان الجواب على الدوام، سواء بشكل مباشر أم لا، أن البوسنة هي في الأساس مشكلة أوربية ومسؤولية أوربية.

بصراحة، أنا لا أفهم هذا التقليل من أهمية المشكلة، لكن ليس بوسعنا عمل شيء بهذا الصدد. حينما قابلت الرئيس كلينتون قبل بضعة أيام في بودابست. قمت بالمحاولة الأخيرة، وأخبرته أن الروس قد وصلوا إلى البحر الأبيض

المتوسط. كان تلميحي واضحاً، إن هذا قد حدث في أثناء عهد رئاسة بيل كلينتون. لم يكن ذلك شيئاً جديداً. وأود تذكيرك بأن الولايات المتحدة اتخذت نفس الموقف المتحفظ وقت الأزمة بين يوغسلافية والاتحاد السوفييتي حينما قام بريجنيف بتهديد تيتو بشكل مباشر. ولدى توجيه السؤال فيما إذا كانت الولايات المتحدة ستأخذ يوغسلافية في حمايتها، فإن كل ما قاله الرئيس الأمريكي جيمي كارتر هو أن تلك ستكون مسألة خطيرة جداً، ولكن الولايات المتحدة لن تتدخل عسكرياً. وقال بعضهم: إن كارتر قام بعد ذلك بتقديم يوغسلافية إلى الروس على طبق. وكما ترى، فإن الأمور لم تتغير. إن رأيي الشخصي الأقوى هو أن الأمريكان ليس لهم سياسة محددة حينما يتعلق الأمر بالبوسنة. ولهذا يتوجب علينا مواصلة العمل بحيث تصبح تلك السياسات في مصلحة البوسنة.

داني: هل يمكنك قبول المساعدة العسكرية المعلنة من حيث القوى البشرية من مجموعة البلدان الإسلامية (ماليزيا، إيران، باكستان، وتركية) في حال قيام مجلس أمن الأمم المتحدة بسحب قوات حفظ السلام من البوسنة والهرسك؟ ماذا ستكون العواقب إذا قررت قبول هذا العرض؟

عزت بيغوفتش: نعم، سأقبلها. إني أدرك مخاطر مثل هذا القرار، لكن في الوضع القائم حالياً والذي سيصبح عليه، سيكون من عدم المسؤولية اتخاذ قرار معاكس. فالشعب لن يفهم ولن يوافق عليه.

داني: سيدي الرئيس، يبدو أن كلاً من البوسنة والهرسك وأنت شخصياً تختلفان عن كافة الدول الأوربية الصغيرة والجديدة ومسؤوليها، لأنه لا البوسنة ولا أنت تقعان تحت سيطرة أو حماية أية دولة كبيرة في العالم. ليس هناك أي مسؤول رسمي في أي دولة يمكنه أن يطلبك ويحدد الاتجاه البوسني إزاء أية مسألة كانت. هل كان بالإمكان للبوسنة والهرسك أن تكون منطقة اهتمام

سياسي للولايات المتحدة، أو ألمانية، أو إيران أو تركية على سبيل المثال، وإلى أي مدى كان استقلالكم في اتخاذ القرار يشكل عقبة أمام الارتباط الداخلي بين البوسنة والهرسك وأي "دولة حامية"؟

عزت بيغوفتش: كان عملنا يتسم بالاستقلالية، لكننا لم نرفض درع أي كان، ولا يعني هذا أننا كنا سنقبل حماية أي كان، فهناك" عناقات موت".

داني: هل كان مثل ذلك الارتباط في بداية العدوان ضد البوسنة يمكن أن يكون أدى إلى تقليل العواقب، وهل يمكن لمثل ذلك الارتباط أن يؤدي في النهاية لإنقاذ البوسنة مستقبلاً؟

عزت بيغوفتش: هنالك قول سائر لدى الأمريكيين مفاده أن أي نجاح ينبع من الداخل. علينا الحفاظ على دفاعنا على مستوى عال بدرجة كافية، بأنفسنا، علينا التحمل، ومن ثم البحث عن حلفاء في العالم. لا أرى أي سبيل آخر أمامنا. على أية حال، إذا كان الأمر يتعلق بتأثيرنا ونفوذنا، فإن احتمال نجاح نفوذنا في الداخل عالٍ جداً ومنخفض جداً على الصعيد الخارجي.

داني: السيد الرئيس، إن شخصيتك القيادية المؤثرة لدى لشعب البشناقي ليست موضع شك. فأنت لم تعد مجرد رئيس حزب أو أعلى جهاز في الدولة، لكنك أصبحت أيضاً، رمزاً للشعب البشناقي وأول قائد عظيم لهذا الشعب على مدى التاريخ. وعلى الرغم من أني سأجازف بالشعور مثل واحد من العديد من الصحفيين الذين أجروا مقابلات مع الرئيس اليوغسلافي تيتو(دون أن يكون لديّ قصد سيّئ من ذلك التشبيه، سواء المديح أو الإساءة) فإني أود طرح سؤال عليك: ماذا (سيحدث) بعدك؟ هل ترى حولك أشخاصاً يمكن أن يحلوا محلك في اللحظة الأشد حساسية تاريخياً عند الشعب البشناقي؟ إنني على معرفة بالعديد من الأشخاص المختلفين، من أولئك المعجبين بك جداً إلى أولئك

الذين يرفضونك، لكن الجميع متفقون على أنك تمثل أحد عوامل الدفاع الحاسمة بالنسبة إلى بقاء الشعب البشناقي؟

عزت بيغوفتش: عليّ، استجماع نفسي قليلاً بعد سماع سؤالك. في البداية، أعتقد بأنك تبالغ. ما أنا إلا رئيس جرى اختياره وفق انتخابات حرة وأعرف ماذا يعني ذلك. لقد جرى إطرائي بما قلته للتو، لكن إذا فكرت فيه مليّاً، فإن لديّ أيضاً سبباً يدعوني للحزن، والقلق، وربما حتى الغضب. اسمح لي ألاّ أتفق مع الفكرة القائلة بأني على ذلك القدر من الأهمية من أجل الدفاع عن الشعب البشناقي وبقائه. لن يكون مفيداً إن كان الأمر كذلك، ولكن، الحمد لله، أنه ليس كذلك. هنالك الآن الأشخاص الذين يحاربون، وأنا أسهّل لهم الأمر كما يقومون هم بتسهيله لي، ولكنهم سيحاربون من دوني وسيواصلون القتال بعد ذهابي. لقد كنت واثقاً من هذا في تشرين الثاني (أكتوبر) من عام ١٩٩٢. كانت تلك أول مرة أزور فيها كافة أنحاء البوسنة والحرب على أشدها. قمت بتكرار هذه الجولة بعد ذلك بشهرين، في كانون الأول (ديسمبر)، وذهبت إلى غراداتشاس، التي جرى الدفاع عنها، وكان سيتم تحريرها بشكل مؤكد بعد إحدى المعارك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٢، حينما دمرنا مدرعاتهم في السهول المحيطة بغراداتشاس. والذي قمت به أنا وأهل سراييفو الذين حولي مساعدتهم، ليس بالكثير. ساعدناهم من خلال تنظيم الشعب قبل الحرب وتجهيزهم ببعض البنادق التي لم تكن للأسف كبيرة العدد، ومن خلال تزويدهم ببعض الأسلحة المضادة للدروع قبل المعركة الحاسمة في تشرين الثاني (نوفمبر). أما كل شيء آخر فقد قاموا به هم بأنفسهم، وبمبادرة شخصية منهم، قاموا بتنظيم المساعدة من شعبنا في أوربة. وقد أظهروا قدراً كبيراً من الاستقلالية والمهارة والإبداع في هذا. هل تذكر القطار المسلح الذي هاجمه الجنود من غراداتشاس ودمروه. لم تكن تلك

أفكارنا، هم قاموا بالتخطيط والتنفيذ معاً. إن بإمكاني إعطاء مجموعة كبيرة على مثل تلك الأمثلة. إن إحياء صناعتنا العسكرية يمثل قصة خاصة فيما يتعلق بالذكاء والمبادرة على المستوى المحلي. هؤلاء من حسن الحظ، لا يعتمدون على الأفراد. إن إغلاق سرابيفو كان له جانب إيجابي جيد: لقد أسهم في تطور واستقلالية الشعب. كان نموهم وتطورهم أسرع جرّاء كل تلك المعاناة ومواجهة الخطر المباشر، لهذا فإني أنظر إلى العبارة القائلة: عندما يذهب علي، فإن البوسنة ستهتز- خاطئة وخطيرة. هناك بالفعل، في الحزب والحكومة والرئاسة، شعب وأناس كاملو النمو والتشكيل. فالحزب يديره منذ زمن طويل بيشاكشتيش، والحكومة يديرها سيلادجتش، والرئاسة يديرها غانيتش. وإني أحث هؤلاء الرجال على مواصلة التوصل إلى اتفاقيات وعلى التعاون. والشعب سيقول يوماً من الذي سيكون الرئيس. حالما تتاح لهم الفرصة عبر انتخابات حرة. إلى ذلك الحين، عليهم التحلي بالصبر والعمل معاً مع أفراد الشعب الآخرين.

داني: داخل الشعب البشناقي، وحتى في الحزب والسلطة نفسها، تتعمق الفجوة أكثر وأكثر بين نهجين أو خطين: الخط المتشدد الذي يمكن أن نسميه ديني، والخط المعتدل أو المدني. هل هذا الانقسام يشكل وبشكل بطيء تهديداً جدياً وخطيراً وهل" الحماس الديني المفرط" للخط الأول أو" العوالمية" أو "الافتقار للروح الوطنية" للخط الثاني مسؤولة عن ذلك؟

عزت بيغوفتش: إن حزب العمل الديموقراطي حزبٌ كبير، ولذلك ليس من المستغرب أن يكون فيه أكثر من تيار. فهو يعكس شعباً على النحو الذي هو عليه، وربما بشكل مواز لبعض تناقضاته وتقلباته ومفارقاته. إن شعبنا يحب الدين لكن دون مبالغة. إنه شعب يمثل النمط المعتاد لشعب يقع على الحد الكبير، أو خط الحدود الذي تفصل بين عالمين. إن إيماننا شرقي وتعليمنا وتربيتنا

غربية أو أوربية. قلوبنا تنتمي لعالم، وعقولنا لعالم آخر. هنالك نوع من المكونات الداخلية العميقة من التسامح والطيبة في كل ذلك. إن أي شخص صادق منا عليه أن يعترف بأنهم غالباً ما يسألون أنفسهم. من هؤلاء؟ ما العالم الذي ينتمون إليه؟ إجابتي عن ذلك أنني أوروبي مسلم، وأشعر بالارتياح لهذا التعريف. لقد ابتعدت قليلاً عن سؤالك. إذن، سيكون الأمر سيئاً إذا استمرت الاتجاهات المختلفة في الحزب في التصلب بحيث يبتعد الخط الديني بشكل حاد عن الخط الشائع المشترك. إنني أتمنى أن يواصل الحزب تشبهه بشعبنا، وأن يكون كذلك، على النزعتين ألا يوسعا الشقة بينهما كثيراً. وعليهما الاقتراب بعضهما من بعض. على هذا النحو سيكون لدينا التركيبة المركبة الأكثر فعالية للمستقبل.

داني: يُنظر إليك على أنك شخص متسامح وسياسي ديمقراطي، على الرغم، من أو ربما، بفضل حقيقة كونك خبرت بنفسك الاضطهاد والقهر على يد النظام الشيوعي السابق. لكن، بدأ الحزب الذي أنت مؤسسه وممثّله في الوقت الحاضر بالتصرف والعمل والمطالبة بحقوقهم إذا كانوا أعضاء في حزب العمل الديموقراطي؟ باللغة الدارجة إلى أين المسير؟

عزت بيغوفتش: مؤخراً رأينا تدفقاً قوياً من أشخاص كانوا ينتمون للنظام السابق إلى حزب العمل الديموقراطي بالطبع، هنالك السؤال: هل قدومهم بسبب المعتقدات أو الطموح أو نتيجة للضغط. أمر واحد أكيد: ليس هناك ضغط مباشر، ربما كان هناك ضغط غير مباشر. بالحديث عن الأشخاص في النظام السابق، فإننا نحترم أولئك الذين ظلوا مع الشعب واستمروا في العمل بإخلاص والنضال في المواقع التي كانوا يشغلونها. من جانب آخر، فإن أولئك الأشخاص يحترمون حزب العمل الديموقراطي الذي واصل بشكل مثابر النضال من أجل البوسنة وهؤلاء الناس. وبالتالي فإن الاعتراف والاحترام متبادل.

بالطبع، هناك طموحات وضغوط غير مباشرة هنا وهناك، خصوصاً في المقاطعات، لكن هذا لا يمثل الاتجاه الرئيسي السائد، ولا يمكن له تفسير الوضع. على أية حال، كافة الأحزاب تملك الحرية الكاملة بالعمل، وبعضها لديه وسائل إعلام خاصة به وجهاز مؤهل. قد تكون حالة الحرب تسهم في عملية التجانس، لكن هذا لا يجري تشجيعه والحث عليه من قبل الحزب. الناس الذين يواجهون الخطر يكون لديهم شعور غريزي بالحاجة للتجمع معاً، أو على الأقل عدم التبعثر. وفيما يتعلق بتلك "الحياة الأسهل" -فعلى حدّ علمي، الجميع يعيشون حياة شاقة وصعبة.

داني: السيد الرئيس، بقوة سلطتك ونفوذك، فإن بمقدورك التأثير في مسار كافة الحركات الاجتماعية-من الاقتصاد إلى التربية ووضع التجمعات الدينية، إلى الجهاز والسياسات الخارجية والداخلية والدفاع. كيف تتعامل شخصياً مع هذه الحقيقة، كيف تقوم بتحمل هذا العبء؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أنك تبالغ بتقدير سلطتي وتأثيري ونفوذي الشيء الوحيد الذي أعرفه أن لدي عملاً كثيراً، وأنني دائماً على عجلة من أمري، وأني أتمكن من إنجاز الأمور في الوقت المحدد بصعوبة وأني على الدوام ممتن لأي شخص لا يطالبني بالكثير ويقوم بعمله بشكل جيد.

داني: هل تخشى من احتمال أن الاتجاهات الإلزامية للسياسات الخارجية والمصالح غير المشرفة قد تتداخل فيما بينها عند نقطة معينة يكون من الواضح حينها أنه لن يكون هناك بوسنة وهرسك وأن المزيد من الصراع والنضال يمكن أن يصبح هدّاماً.

عزت بيغوفتش: بعضهم قال: إن حرباً عالمية تجري في البوسنة لكنها غير مرئية. من الواضح أنهم كانوا يهدفون أو يقصدون الصلة القوية لكافة القوى

العالمية ذات الصلة بهذا النزاع. وإذا طلب مني ترتيب القوى التي تؤثر على الأحداث في البوسنة وفق أهميتها، فإني سأضع على رأس القائمة تأثيرنا العسكري والسياسي،بالرغم من كل ذلك، لأن هذا التأثير، قبل أي تأثير آخر، هو تأثير مباشر، ولأننا نعرف الوضع أفضل من غيرنا، سواء بشكل عام أو تفصيلي. ليس لأحد الحق بأن يقول: إنه لن يكون هناك بوسنة بعد اليوم، وأن النضال من أجلها يضرّ أكثر مما يفيد. ليس هناك أي حق برأيي حول هذه المسألة.

داني: هل ستكون هناك بوسنة وهرسك موجودة بعد ١٠٠ عام ومتى ستنتهي الحرب؟

عزت بيغوفتش: أعتقد أنني قد أجبت قبل قليل عن الجزء الأول من سؤالك: ومتى ستنتهي الحرب فإني لا أدري ولا أخجل من قول هذا. ما أنا متيقن منه أنه في هذه اللحظة لا أحد في العالم يعلم هذا. هنالك العديد من العوامل المتغيرة وغير المتوقعة. مهمتنا أن نعمل ونقاتل ونبذل ما في وسعنا، والله يُسيّر التاريخ. هذا ما أؤمن به.

المقابلة الثانية:

داني: السيد الرئيس، إذا كان لنا أن نقف على أن قرار التحكيم الأخير حول وضع برتشكو هو بالفعل قرار اتخذته الإدارة الأمريكية، فهل هناك مجال للتوصل إلى استنتاجات أخرى حول علاقات الولايات المتحدة بالبوسنة والهرسك أو ربما بالبشناق؟

عزت بيغوفتش: نعم، هناك بعض التغيرات في سلوك الجانب الأمريكي أصبحت ملحوظة، لكن لا يمكن الحكم بعد فيما إذا كانت هذه التغيرات ذات طابع تكتيكي أو استراتيجي. إذا تبين أنها استراتيجية، فإن إعلامنا قد ساهم

فيها بدرجة كبيرة جداً، من خلال صمته عن كل ما هو إيجابي وجيد في البوسنة وتضخيمه كل ما هو سيئ، على أي حال، ليس هناك بعد ما يكفي من العناصر للتوصل إلى استنتاج ومعرفة ما يعنيه ذلك. سنرى (لاحقاً).

داني: أعتقد أنك أيضاً على علم بحقيقة أن مسؤولي الإدارة الأمريكية على كافة المستويات، بالإضافة إلى الممثل الأعلى ويستيندورب، إلى جانب زعماء المعارضة هذه الأيام يشيرون بشكل واضح وصريح ودون مواربة إلى أهمية تدميرك سياسياً. هل أنت مدرك بأنه ليس لك مكان، بالإضافة لعدم وجود مكان لزعماء الشعب الكرواتي الحقيقيين، في المنظور الغربي للازدهار والاستقرار في البوسنة والهرسك وفي المنطقة؟

عزت بيغوفتش: إني لا أعتقد، ولست على علم بمثل هذه التكهنات، لكن يبدو أنك تهتف بشكل علني وصريح للأجانب. لا أدري لماذا، بعد كل ما حدث، تعتقد أن الأجانب يمثلون أصدقاء أفضل لهذا الشعب مني. لكن ذلك خيارك أنت. أما فيما يتعلق بي، فأنا أهتف دوماً للفريق المحلّي الوطني، حتى لو كان أسوأ، وهؤلاء الناس ليسوا سيئين، إنهم جيدون. على أي حال، الناس والشعب غير موجودين في سؤالك البتة. إنك تتحدث عن الأمريكيين وفيستندورب والمنظور الغربي، لكن ليس هناك في تصورك ورؤيتك أناس وشعب يدورون حول زعيمهم. لقد نسيتهم تماماً. أعتقد أن لهم كلمة حول هذا، أو على الأقل يجب أن يكون لهم. وفيم إذا كنت موجوداً في كل هذا، فإن هذا أمر أقرره أنا. ما يعزّيني، إذا كنت بحاجة للعزاء بالأصل، أن تنبؤاتك عادة ما تكون خاطئة. أنا لا أقرأ مجلتكم بانتظام، لكنني أستطيع تقديم حفنة من توقعاتك وتشخيصاتك التي كانت خاطئة تماماً. سأذكر فقط آخرها، والذي وقّعته شخصياً بنفسك، بأن التحكيم أو الحكم سيسلّم برتشكو إلى جمهورية سربسكا صرب البوسنة وأن تلك قضية منتهية. ذلك لم يحدث ولن يحدث. أما

عن كل هذه الأقوال عن وضعي بنفس الصف مع أولئك الذين تسميهم الزعماء الكروات والمساواة العنيدة من جانبك بين المعتدين على البوسنة وأولئك الذين يدافعون عنها، فسأتركها لحكم القارئ. شيء واحد مؤكد: هذه المساواة، بغض النظر عمّن يقوم بها، لا تساعد البوسنة، بل على العكس.

داني: العديد كانوا مندهشين عندما ظهر مؤخراً، من بين المعارضين، في الاجتماع الذي دعا إليه الوزير البريطاني كوك، كل من أدهم بيشاكشيتش، ويادرانكو برلتش ونيفين تومتيش هل تعتقد أن الغرب سيستخدم نفس السيناريو لتدمير كل من حزب العمل الديموقراطي وحزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية، وهو نفس السيناريو الذي استخدموه لتدمير الحزب الديموقراطي الصربي، وهل سيبحث المسؤولون الغربيون المؤيدون لكوك من السلطة عن شخص مثل" بيليانا بلافشيتش؟

عزت بيغوفتش: بإمكانهم البحث إذا لم يكن لديهم شيء أنفع وأذكى، مع العلم بأننا لم يكن لدينا أمثال كارادجتش، أو بلافشيتش، كذلك.

داني: أخبرني الأكاديمي محمد فيلبوفيتش أن وضعك الراهن يذكّره بالوضع الذي وجد به حمدي بوزديراتس نفسه قبل استقالته من اللجنة المركزية، لكن وفقاً لرأي فيلبوفيتش هنالك اختلافان هما: أن بوزيدراتس وقف ضده دعاة صربيا الكبرى وأنت وقف ضدك المجتمع الدولي مع أمريكا على رأسه؛ والفرق الثاني أن بوزديراتس لم ينسحب من أجل مصلحة البوسنة والبشناق، بينما كان يتوجب عليك ذلك. ما رأيك بهذه الملاحظة؟

عزت بيغوفتش: ليس لدي علم بما أخبرك به السيد فيليبوفتش، أو بما أخبرته أنت به، لكن لكليكما الحق بالرأي. ذكرت فرقان بين بوزيدراتس وبيني، لكن

نسيت الفرق الثالث، والأهم: كان مصير بوزيدراتس بيد اللجنة المركزية، بينما مصيري سيقرره شعبي وأنا.

داني: اندهش جزء كبير من جمهور الشعب من موقف الأخير السلبي إزاء دور كل من برانكو ميكولتش وبوزيدراتس في التاريخ البوسني مؤخراً. مع تفهم دمارك الشخصي، والشعور بالمعاناة المسؤولين عنه، فإني أود أن أسألك: ألا ترى أن حكمك كان قاسياً أكثر مما ينبغي، وأن جزءاً كبيراً من الشعب، والبشناق إذا أردت، لا ينظر إليهما بذلك الضوء، خاصة ليس بعد الحرب؟

عزت بيغوفتش: ما أدراك بما يفكر به الجزء الأكبر من الشعب؟ وأن رأيي بكل من ميكوليتش وبوزيدراتس ليس له شأن كبير بمشاعري، على الرغم من أن لجنتهما المركزية كانت قد حكمت عليّ ذات مرة بأربعة عشر عاماً من السجن لشيء لا يتعدى الكلمة المكتوبة. كم سنة من السجن كنت ستحصل عليه على كتاباتك، لو أن ذلك القانون السيئ الصيت لم يتم إلغاؤه بناء على مبادرة من حزب العمل الديموقراطي الذي تكرهه بكل هذا القدر؟ دعني أذكّرك: في العرض الذي تتحدث عنه، ما قلته هو أن هذين السياسيين كانا مواطنيين بوسنيين جيدين، ولكنهما لم يكونا ديمقراطيين. وأعتقد أن معظم الشعب يوافقني على هذا الرأي. أم، هل تعتقد أنهما كانا ديمقراطيين؟ إذا كان الأمر كذلك، حاول أن تشرح ذلك في أوراقك وكتاباتك.

داني: بغض النظر عن القدر الذي قام به المسؤولون الدوليون بـ" حكّ أنفك" مع ميلوراد دوديك، على الرغم من أن ذلك دون أساس، جزئياً، فإنه يبدو لي أنك لم تستطع إيجاد إجابة مناسبة للتحول الجذري في سياسة حكومة جمهورية صرب البوسنة، وأعتقد أن مثل تلك الإجابة لا يمكن العثور عليها على يد سلطة مثل طبيعة سلطتك، لكن من غير المهم البتّة ما تراه حول ذلك.

عزت بيغوفتش: ما زلت لا أرى أي تحول حقيقي في سياسة جمهورية صرب البوسنة. وعليّ أن أعترف أنني ذهلت، خصوصاً من الفكرة" الشهيرة" حول التعددية ذات القومية الواحدة، التي كان من المفروض بنا أن نتخذها درساً. لقد فكرت للحظة حينها، إنني لا أعرف معنى التعددية، لكن سرعان ما استجمعت أفكاري. ويبدو أنك لم تفعل ذلك بعد. إنك تأخذ تصريحات السيد دوديك على أنها أمر مسلم به. الأشخاص الجدّيّون لا يقومون بذلك، وأعتقد أن الأمريكيين لا يفعلون ذلك. إني لا أرى أي تحول واقعي وحقيقي وحتى أقل درجة من الجذرية، لذلك ليس هناك ما يدعوني إلى الرد. وإذا كنت ترى شيئاً غير الكلام في شأن دوديك، فإن بوسعك أيضاً تفسير ذلك في كتاباتك.

داني: يبدو لي أنك مؤخراً يتوجب عليك إعادة النظر في القرارين السياسيين الأهم اللذين اتخذتهما في حياتك- ذلك المتعلق بالحرب (استقلال البوسنة والهرسك) وذلك المتعلق بالسلام (قبول اتفاقية دايتون). هل الانطباع الذي لدي صحيح؟

عزت بيغوفتش: نعم، إنك على حق، وكثيراً ما أفكر بهذه الأمور، عليّ الاعتراف بذلك. كان ثمن كلا(القرارين) باهظاً جداً، ولا يمكن إلاّ لشخص لا يتمتع بحس المسؤولية أن يضع تلك الأمور لأغراض معينة. لقد وجّهت لأصحاب الحكمة من رجالاتي السؤال هل كان بالإمكان أن يكون الوضع بشكل مختلف بطريقة أخرى. لم يقل أي شخص كفء من الشعب البشناقي أن قرارات مختلفة كانت ممكنة. لكن الاستثناء الوحيد، مع ذلك، كان السيد خالد تشأوتشيفتش، لكن الرجل بلغ الثمانين من العمر منذ مدة طويلة.

داني: هل السبب لقيامك بشكل متزايد ومتكرر بمهاجمة وتوجيه الإهانات التي تقذفها بوجه منتقديك هو شعورك بالفقدان التدريجي للسلطة والنفوذ؟ حينما يقوم زميلك تودجمان بذلك، فليس ذلك مثيراً للدهشة. لكنني أشعر

بالصدمة من الطريقة التي تسقط فيها أهلية خالد تشاوشفتش، على سبيل المثال، بسبب رأيه الذي نشر في (مجلة) داني.

عزت بيغوفتش: صُدم عدد كبير من الناس، وأعني بهم أولئك الذين لا يعرفون تشاوشفتش، من قوله بأنه كان يتوجب على البشناق البقاء في يوغسلافية لم يبق منها إلا حزمة، وأن اللوم يقع عليهم لقيام الحرب، إلخ. وأنا أيضاً مصدوم من كتاباتك، خصوصاً من حقيقة أن كل ما هو بشناقي تراه غريباً وقبيحاً، وكل ما هو غير بشناقي موثوقاً وجميلاً. إن لديك عقدة لا مبرر لها. وأؤكد لك أن حب واحترام شعبك، خصوصاً إذا كان ذلك الشعب جديراً بالاحترام، كما هو شأن البشناق، ليست قومية من أي نوع. إنه شعور إنساني طبقي.

داني: حينما قمت مؤخراً بتوجيه اللوم والتقريع إلى (مجلات) من سرايبفو، استندت إلى حقك في الرد على الصحفيين الذين يهاجمونك. صحيح أن الرؤساء في المجتمعات الديموقراطية بإمكانهم اختيار أسلوب الرد على وسائل الإعلام، لكن ذلك الحق الديموقراطي ليس لك بسبب طبيعة سلطتك. هذا كان سبب جعل خطابك في اجتماع هيئة مجلس رجال الفكر البشناقي العلامة الفارقة في بداية ملاحقة (المجلات) قضائياً: في البداية. بصق علينا رئيس هيئة العلماء، ثم تبع ذلك وسائل إعلام النظام بإثارة مشاكل في الطباعة والتوزيع، ثم قام المذياع والتلفاز الرسمي بمنع تسويقنا المدفوع. وبعدها حدثت محاكمة في المحكمة كان بإمكاني أن أحسدك على المعاملة التي تلقيتها في أثناء محاكمتك (مقارنة بها). لا أعتقد أنك ترغب أو أنك أمرت بهذه العواقب، لكن لا بد وأنك كنت مطلعاً عليها. هل يمكن أن تكرر خطابك وآراءك حول (المجلات) اليوم؟

عزت بيغوفتش: بالطبع سأفعل، لأني أدين الأكاذيب. أنا لم أدن الصحافة، وإنما الأكاذيب التي بها. ولا أدري ما الذي يوجب أن أغير رأيي حين

الأكاذيب وما الذي سيجعلني ألا أطلق على الأكاذيب اسمها الحقيقي. كذلك فإني لا أدري لِمَ لا أقوم بالرد عليك بخشونة وقسوة؟ لم تعتقد أن الصحفيين غير قابلين للمس بهم. وأن بإمكانك نشر الأكاذيب، ويبقى الجميع صادقاً، وإلا ستبدأ في الصراخ والولولة من تعرض حياتك للخطر. إنك لست كذلك. من يتعرض للخطر هم أولئك الذين جرى قذفهم وتشويه سمعتهم جرّاء كلماتك والذين لا يكادون يحظون بالرضا على ذلك. لقد أسأت لآلاف الرجال الشجعان الذين دافعوا عن هذا البلد، وأثرت غضباً له ما يبرره لدى الجمهور العام الذي تسميه ملاحقة وضغط على ما يسمى الصحافة الحرة. من المعلوم جيداً أن وسائل الإعلام ليست بريئة من خلق الكراهية والتسبب في هذه الحرب. وعندما أشار بعض الناس المنطقيين والعقلانيين إلى هذا الأمر في ذلك الحين، قيل أيضاً: إن حرية الصحافة أصبحت مهددة. لقد ذهبت للمحاكمة لأنك أسأت إلى أحد زملائك الصحفيين، فقام برفع دعوى ضدك. لِمَ تشرك أناساً آخرين بهذا؟ وبعد ذلك تقول: إن محاكمتك كانت أكثر وحشية من المحاكمة التي حدثت لي. ذلك هو المقياس الحقيقي للموضوعية التي لديك. إنك بحق شخص يعتقد أن ما يحتاجه بالفعل هو إطلاق المزيد والمزيد من الحقائق المغلوطة إلى أن يلصق بعضاً منها، إني لا أرى لماذا تعتقد بأن لك الحق بالكذب بمجرد أنك صحفي؟ وهكذا، فإني سأقوم اليوم بتكرار ما قلته، لكنني أشك بأنك ستقوم مره أخرى بالكتابه بذلك الشكل الفاضح عن البوسنه وجيشها، إنك تعتقد أنهم أغبياء وغير مطلعين على ما يجري، إنهم ليسوا كذلك. وليس بوسعك الحفاظ على مستوى اعتقادك بناء على مشاعرك فقط.

داني: على الدعوات التي غالباً ما تكررت المتعلقة بأمانة ونزاهة أشخاص من الدوائر المحيطه بك عن قرب (مثل) تشنفتش وشاهنياشتش.

كانت إجابتك فقط من رأيك الشخصي بأن حسن تشنغتش كان شخصاً مسناً وصادقاً. إجابتك بدت لي ناقصه. حتى إنك ستقوم أخيراً بعرض كشوف التبرعات من أجل الدفاع عن البوسنة. والمسارات التي ذهبت فيها النقود، وكيفية الإنفاق وإجراءاته، وحول الذين ساعدوا البوسنة، وكم (كان ذلك)، في أثناء الحرب؟ كم عدد الأشخاص الذين على اطّلاع على هذه الأسرار غيرك أنت وابنك؟ إذا لم يحن الوقت بعد لنشر هذه المعلومات، هل هناك أي جهاز من أجهزة الدوله ترى أنك ملزم بإبلاغها إياه؟

عزت بيغوفتش: لا يمكنني تقديم وإعداد تقرير لأنني لم أقم بوضع وصياغة أصول التعامل بهذا، ولم يكن ذلك من واجباتي. من قام بهذا هو بنك البوسنة والهرسك الوطني، ولديه كافة وثائق التبرعات التي تمت من خلالي. هنالك عدة مئات وربما أكثر من ألف نقطة. جزء من التبرعات ذهب إلى صندوق الشهيد والعاجز الذي له جهاز خاص يديره. لقد حصلت على هذه الحقائق بالحديث إلى السيد سليشكوفتش، رئيس لجنة البرلمان الاتحادي. ولا أدري إن كان طلبها وحصل عليها من البنك الوطني. أنا شخصياً أعتقد أن لا أحد يملك دليلاً كاملاً على كافة التبرعات التي منحت للبوسنة والهرسك، لأنها لم تكن مركزية ومعظمها لم يذهب من خلال الحكومة، وإنما مباشرة إلى بعض المدن، والمنظمات الإنسانية ووحدات الجيش، إلخ، والتقرير عن استخدام تبرع ما يتم إعطاؤه بشكل منتظم إلى المانح، وعلى حدّ علمي، هذا ما قام به تشنغتش. ولا زلت أعتقد أن تشنغتش رجل أمين. فهو ليس بالشخص الذي يمكن أن يأخذ شيئاً لنفسه، وإني واثق من ذلك. وأنظر إلى سؤالك. على أنه مثال على الاتهام. لقد ذكرت ابني، وكأنه عَرَضاً، لكن ما تفعله حقيقة، هو أنك تجعل منه مشتبهاً به. ما علاقة ابني بالتبرعات؟ إذا كنت تعرف شيئاً، قدّمه بشكل علني كما يفعل الرجال، وليس على هذا النحو، كما لو أنك قلت شيئاً لكنك

بعدها لم تقله. ودعني أذكرك: قبل عامين أو ثلاثة قمت بنشر قصة مفادها أنني كنت أحضّر ابني ليخلفني وغيرها من الترهات المماثلة. وهكذا، ما قولك الآن، هل أقوم بتهيئة ابني ليحل مكاني؟ إنك لم تعتذر أبداً عن هذه المعلومات الخاطئة، لا لي،ولا للجمهور العام، بل إنك تواصل وتواصل هذا الأمر.

داني: أود الاستمرار، إذا لم يكن لديك مانع. ما الذي تغيّر منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) العام الماضي عندما صرحت قائلاً:" بهذه العقلية لن أرشح نفسي للانتخابات القادمة"؟

عزت بيغوفتش: حسناً، أشياء كثيرة تغيرت، والتي يمكن رؤيتها بفضل أسئلتك وأجوبتي. لقد بدأت حملة غريبة. لقد بدأت، من بين ما بدأت به، بالسعي لإقناعنا أن سلطة دوديك الأحادية القومية، والتي هي أحادية- القومية ١٠٠٪، والإعلام الصربي الأحادي- القومية، الأحادي- القومية ١٠٠٪، وأراضي جمهورية صرب البوسنة المطهّرة عرقياً بالكامل، والتي هي بالمناسبة ليست ١٠٠٪ وإنما ٩٧٪ وأن كل هذا هو مثال على التعددية والديموقراطية علينا اتباعه والحذو حذوه. عليّ أن أعترف أن هذا المنطق الملتوي سبب لنا تشويشاً في الفهم للحظة. ولا أدري إن كانَ هناك صلة ربط، لكنه تزامن مع تصريحي بأنني على الأرجح سأتقاعد. بعدها بدأت بالتفكير إذا كنت أساعدهم بهذه الطريقة. وهذا لا يعني أنني قررت خوض الانتخابات، إنني فقط أسجل بعض أفكاري.

داني: كيف تفسر حقيقة أن أوثق أصدقائك السابقين يقومون الآن بتصويرك بصورة سيئة جداً؟ آخر مثال على هذا هو كتاب سيفير خليلوفتش، وقد سمعت أن روسيمير محمود تشيهايتش على وشك إنهاء كتاب لن يعجبك على الإطلاق.

عزت بيغوفتش: لقد ذكرت شخصين فقط ممن لم يكونوا مغرمين ومعجبين بي، وأعتقد أن هناك ألفاً على شاكلتهم. لم يدر بخلدي قط أن على الجميع أن يحبوني، ولِمَ سيفعلون؟ إن كثيرين ممن هم أفضل مني بكثير كان لديهم أعداء مريرون، فلم لا يكون لي؟ لقد سُلِّم المسيح (عليه السلام) إلى الرومان على يد مواطنيه من أتباعه، ولم يتم قتل غاندي على يد رجل بريطاني، وإنما أحد أفراد شعبه، لم يكن هندياً صالحاً بدرجة كافية بالنسبة إليهم، ورابين لم يقتله عربي، وإنما رجل من جماعته، فلم يكن يهودياً بدرجة كافية بالنسبة إليهم، إلخ، ما الذي بوسعنا أن نفعله؟

داني: لقد شرحت الأسباب التي دفعتك للتخلي عن فكرة إضفاء الصفة المدنية (العلمانية) على حزب العمل الديموقراطي. لكن ألم تبالغ في تقدير قوة اليمينيين في السلك القانوني الوطني البوسني؟ والأهم من ذلك، من الذي يستطيع إزالة خطر التطرف السياسي للحزب على أساس ديني، إذا لم يكن أنت؟

عزت بيغوفتش: ما بقي الإسلام حراً واختيارياً في البوسنة، فلن يكون هناك تطرف سياسي لحزب العمل الديموقراطي. سيحدث التطرف هنا وهناك، لكن تلك ستكون حالات فردية. هنالك تطرف لدى كل الشعوب وفي كل الدول. ليس هذا بالأمر المستهجن.

داني: كيف تنظر إلى الوجود الأكثر أهمية لأتباع الوهابية وأولئك المتفقين مع حركة طالبان لدى الشعب. هل يتوجب على المجتمع الإسلامي أن يكون له رأي إزاء ذلك؟

عزت بيغوفتش: من الواضح أن فهمي للإسلام يختلف عن فهمهم له. فأنا لا أرى أن على المرأة أن تغطي وجهها. إني لست فقط لا أعتقد ذلك، بل إني

أعارضه. في حرم مكة، لم أشاهد إمرأة بوجه مغطى، أو أن ذلك كان نادراً جداً. وبالتالي لماذا عليهن فعل ذلك في سرايفو؟ لكن تلك هي بعض المسائل الدينية التي تقع ضمن فقه المجتمع الإسلامي. لا أدري عدد الوهابيين في البوسنة، ومادامو يستخدمون الوسائل المشروعة، أي الكلام، فإن نشاطهم قانوني. فهذا البلد بلد حر. فإذا كنت أنت يا سيد بيتشانين، بوسعك قول وكتابة ما تشاء، فلِم لا يكون ذلك لهم؟ إن مثل تلك الآراء تصبح مثار اهتمام السلطات فقط في حال كون الذين يعبرون عنها يريدون فرضها بالقوة أو إثارة الشعب والحض على العنف.

داني: إنك تطالبنا بـ" أن نكون جميعاً بدرجة أقل بوشناقاً، وكرواتاً، وصرباً، وأن نكون أكثر قليلاً بوسنيين"، وفهمت أنك تعترف أن البوسنة لا يمكن أن تكون بلداً سعيداً على أساس الأحزاب القومية وإسقاطاتها، ولا حتى تلك (التي كانت) قبل الحرب. لتكون كذلك، هل من الضروري التخلي عن جزء من (الكينونة) البشناقية، والكرواتية، والصربية، من أجل الحفاظ على البوسنة؟

عزت بيغوفتش: إن الجملة التي اقتبستها تعبّر عن رأيي بصراحة. وهي أنه: لكي نكون بوسنيين، فليس من الضروري التخلي تماماً عن كوننا بوشناقاً وكرواتاً وصرباً، دعونا نكون بوسنيين إلى جانب ذلك. وبالطبع فإن البوسنيّة ليست مؤشراً عرقياً هنا.

داني: هل تؤمن بأن المصير النهائي للبوسنة سيتحدد من خلال تصادم على شاكلة تصادم" هانتينغتون" أم فقط من خلال المصالح التقليدية للأطراف السياسية الخارجية والداخلية؟

عزت بيغوفتش: سؤال جيد أخيراً. إن التاريخ ليس دقيقاً تماماً مثلما الحال مع الرياضيات والفيزياء. هنا المهم هو ما تعتقده وتؤمن به، وأن تعرف الاتجاه

الذي تسير فيه. كل ما يمكنني قوله: أني لا أعتقد أن صراع الحضارات أمر حتمي على الإطلاق، ولا أعتقد أنه أحد قوانين التاريخ الثابتة العصيّة على الكسر، وأنا لا أعتقد على الإطلاق بوجود شيء يسمى قوانين التاريخ، إنّه من أنواع الحتمية المصيرية في التاريخ. إن التاريخ، على الأقل بمقدار ما، مجال من مجالات الحرية البشرية. ولهذا السبب فإن مساره لا يمكن التنبؤ به. ولذلك، قد يحدث هناك في جزء ما من العالم شيء قريب جداً من أشكال صراع الحضارات، ومع ذلك يحدث في جزء آخر وفي نفس الوقت، شكل مناقض له تماماً: حوار وتعاون. هذا يعتمد على الشعوب، أو على الشعوب العظيمة، التي تقوم بالتأثير بشكل مهم ودال على الأحداث الجارية حالياً. وحينما يتعلق الأمر بالبوسنة، فإننا نتمنى الحوار والتعاون. لكن هذه فقط أمنيتي ومسعاي الذي يصطدم بالعديد من العوامل الأخرى التي يمكن أن تشد إلى الطرف أو الجهة الأخرى. ما النتيجة التي ستصل إليها كل هذه العوامل، يبقى أمر من الصعب معرفته. النتيجة ليست بأيدينا نحن. وأنا سعيد لأنني أؤمن بأن النتيجة هي في يد الله (سبحانه وتعالى).

داني: وأخيراً، بماذا كنت تفكر عندما وقفت على قبر الجنرال خير الله هوفيتش وقلت في خطابك:"..... مع كافة مبالغات البروتوكول....." هل تدري أن العديدين لم تعجبهم هذه الكلمات؟

عزت بيغوفتش: لا أعتقد ذلك. على العكس، أعتقد أن المرحوم مصطفى كان سيوافقني الرأي. وفي تلك المناسبة قلت أيضاً العديد من الكلمات الطيبة والجميلة عن الجنرال. الآخرون لاحظوها. وأنت، كالعادة، لم تفعل (لم تلاحظها؟!).

الملحق السادس

محاضرة في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي للتربية والثقافة والعلوم

الرياض - ٦ كانون أول (ديسمبر) ١٩٩٧

إنه لشرف عظيم أن أتحدث في هذا التجمع الرائع والعظيم لممثلي الثقافة في كافة أرجاء العالم الإسلامي.

وقبل المضي في خطابي، عليّ أن أحمد الله على عونه لنا ومساعدتنا على عقد هذا الاجتماع الرائع.

كذلك أود التعبير عن ثلاثة عرفانات بالجميل لخادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز وحكومة وشعب المملكة العربية السعودية.

أولاً على استضافة هذا التجمع.

وثانياً للجهود التي بذلت من أجل بناء المراكز الثقافية الإسلامية في كافة أرجاء المعمورة.

وثالثاً للدعم والعون الذي قدموه لبلدي في أصعب أيام تاريخها جزاهم الله خيراً عن هذا الجهد العظيم.

وعلى الرغم من أنني قد ابتعدت عن الكتابة لسنوات عديدة، إلاّ أنني سأحاول استعراض وشرح بعض الأفكار حول موضوع فائق الأهمية يتعلق بتربيتنا وثقافتنا وحضارتنا الإسلامية المشتركة. وهذه هي المواضيع التي كتب فيها العديد من الكتاب الإسلاميين والإصلاحيين ذوي المكانة المتميزة في القرنين الماضيين من الزمان.

كما تعلمون، كانوا جمعياً غير راضين عن الظروف والشروط المتعلقة بهذه المسائل، وكان جميعهم يتساءلون باستغراب عن السبب الذي يجعل المسلمين هذه الأيام لا يتمسكون بالأمر الإلهي الذي يتكرر كثيراً والواضح جداً في دينهم التعلق بالتعلم: تذكيراً لكم، فإن الأمر هو"...انظر..." ويتنوع بألفاظ مختلفة عبر القرآن الكريم بشكل مستمر (الآيات القرآنية ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فالِقُ الإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٩٥-٩٩]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٣]، ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٥-٤٦]... إلخ) ويصل إلى صورته الحرفية في بعض آيات الكتاب الكريم: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٨٨/١٧-٢٠] ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ، لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ، لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ النّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٦٣-٧١].

والمشاهدة والنظر هي البداية الحقيقية للعلم الأول.

ويقول جان فوراستي في كتابه (حضارة الغد) قائلاً: "إن النظر ومشاهدة الطبيعة والمجتمع والناس هو المرحلة الأولى للتربية الرئيسة للأطفال في الغرب، إن الاهتمام بالعالم الخارجي يناقض اهتمام الفيلسوف البراهمي الذي يتحول عن العالم الخارجي نحو العالم الداخلي".

لماذا توقف هذا (النظر) لدى العالم الإسلامي، وما عواقب ذلك؟ إن نسبة مئوية غير سارة وغير مبررة من السكان الأميين عالية جداً لدى بعض الشعوب الإسلامية. سأقرأ من تقرير اليونسكو حول نسبة الأمية في عام ١٩٩٥. الدول الإسلامية (لن أذكر أسماءها): ٣٨، ٢٤، ٤٨، ٥٦، ٥٤، ٣٣، ٥٦، ٢٨، ٢١، ١٨، ٢١، وحتى ٦٨٪، لكنه ٦٠٪ لدى نسائنا. هذا الوضع كان موجوداً في أوربة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما يعني أننا متأخرون بدرجة خطيرة ومفزعة. والمقارنات الأخرى مع العالم الغربي هي أيضاً محبطة وتدعو للقلق.

معدل عدد الطلبة في البلدان الإسلامية يصل إلى حوالي ألف طالب لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن، بينما هو ٣,٥٠٠ في بلدان الغرب مما يعني أنه أكبر بحوالي ثلاث مرات ونصف. ومتوسط عدد الصحف اليومية ٤٠ صحيفة لكل ١,٠٠٠ مواطن وأكثر من ٥٠٠ في البلدان الغربية.

ربما كانت المخصصات الحكومية للتعليم متشابهة في البلدان الإسلامية وتلك الغربية، وهي حوالي ٥,٥٪ من الدخل القومي العام، ولكن تلك النسبة نسبية تماماً. فالنواتج النهائية قليلة؛ لأن الدخل القومي متدن جداً في معظم الأحوال في البلدان الإسلامية.

إن التعليم وإعادة بناء وتنظيم الثقافة والحضارة الإسلامية له علاقة مباشرة مع عمليات التحرر التي حدثت في العديد من الدول الإسلامية خلال هذا القرن. فدرجة العبودية تتناسب عكسياً مع درجة التعليم. فالمدرسة تعتبر الوسيلة الأفضل لمحاربة أي نوع من أنواع العبودية.

الخلاصة إذن؟

علينا العمل بقوة لزيادة المخصصات المالية للتعليم والقيام بذلك دون إبطاء.

أحد الكتب الجديدة التي وجدت طريقها إلى يدي كتاب "الإسلام والديموقراطية" تأليف جون إسبو زيتو يذكر المؤلف حقيقة أن نهاية هذا القرن(العشرين) يمر في ظل بروز حدوث عمليتين في البلدان الإسلامية هما: العودة إلى الإسلام والمطالبة بالديموقراطية. تواجه كافة المسلمين العقلاء مهمة الدمج المتناغم لهاتين العمليتين على أفضل نحو. ففي حقبة الثورة التقنية هذه تستطيع أية أمة مسلمة حرة حل مشكلة الأمية بشكل سريع وناجح نسبياً.إن هذه المسألة مسألة إرادة وتصميم سياسي، ومن ثم مسألة تنظيم والتي لا تشكل في العادة جانباً من جوانب القوة لدينا.

لكن التكنولوجيا، أو ما يسمى الموجة الثالثة منها قد انتشرت بالفعل في الأجزاء المتقدمة من العالم مع فوائدها ومخاطرها العديدة. هنالك إحساس واسع الانتشار ومختلط من التوتر والخوف من هذا الذي يسمى تقدماً والذي لا يقوم على الإيمان بالله. لكن هناك أيضاً تعلّم واقرأ وابحث، باسم ربك- هذا المفهوم الإسلامي للتعلم يواجه حالياً تحديات كبيرة جداً، وأرغب بقول بضع كلمات في هذا (الموضوع) اليوم.

في أحد الكتب التي قمت بنشرها قبل زمن طويل، اقترحت التفريق بين الثقافة والحضارة، حيث يجري في العادة التداخل. وقام بعض الكتاب الأهم مني بكثير بعرض فكرة مشابهة عليّ. إن الثقافة والحضارة تعكسان كلمتين منفصلتين بعضهما عن بعض. فحامل الثقافة هو الشخص بصفته فرداً وحامل الحضارة هو المجتمع. وهدف الثقافة هو سلطة المرء على نفسه من خلال رفع معاييره، وهدف الحضارة هو السيطرة على الطبيعة من خلال العلم. والثقافة تتجه نحو عالم المرء الداخلي والحضارة نحو العالم الخارجي، إلخ.

حينما أفكر في هذه الأمور اليوم، فإني، وبشكل حتمي، أذكّر نفسي أن أول آية نزلت من القرآن تغطي جانبي المعنى معاً، وكلتا العلاقتين، وكلا العملين. ففي أول كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١/٩٦] هناك دعوة قوية للتأكيد على الإنسان لاستكشاف العالم الخارجي، لكن هذا الاستكشاف ليس تراكماً بحتاً للمعرفة، ولا تجاهلياً، دون تمنٍ وسعي، إنه ديني بالمعنى الأفضل لهذه الكلمة، لأن الآية تواصل: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١/٩٦]، " إقرأ باسم الله"، مما يجعل هذا التعلم تأملاً سامياً ونبيلاً، ماضياً ومستقبلاً. فهدف الدراسة ليس" طبيعة غير مبالية" وإنما العالم الذي هو عمل فني من صنع الله أو إبداع الله. هذا الاتجاه لم يضع أبداً، بغض النظر عن الهجمات العديدة على الثقافة الإسلامية خصوصاً على أطراف العالم الإسلامي البعيدة، وبغض النظر عن الركود في الحضارة العلمية والفنية الصناعية والتكنولوجية. مجرد نفَس خفيف من الحرية يكفي شعوبنا كي تبدأ العودة إلى منابع ثقافتها الحقيقية. هذه هي القيم التي علينا أن نكون على وعي بها. وهي بوسعها تجنب النواتج السيئة للنمو الحضاري التي نراها في الغرب والتي يدركها الغرب أيضاً. يأخذنا هذا إلى المسألة الحتمية المتعلقة بالعلاقة بين الثقافة والحضارة الإسلامية والغربية. لقد كتبت العديد من الدراسات والكتب المختلفة حول هذا الموضوع. وقد قام أحد الكتاب الذين

تشغلهم هذه المسألة جداً، والذي كانت له خبرات إسلامية وغربية معاً، وهو محمد أسد، بوصف الروح الغربية في كتابه الشهير لمقالات (الإسلام على مفترق الطرق): "لا تعترف الحضارة الغربية المعاصرة بضرورة أن يخدم الإنسان أي شيء غير المطالب الاقتصادية أو الاجتماعية أو الوطنية. إن القيمة الحقيقية لها ليست روحانية: إنها الراحة. وفلسفة الحياة الحقيقية لها تعبّر عنها الرغبة في السلطة والقوة للسلطة والقوة بحدّ ذاتها. وكلاهما (القيمة وفلسفة الحياة) ورثتها من الحضارة الرومانية القديمة".

قد يكون محمد أسد مبالغاً في انتقاده لأوربة وأمريكا وعلينا أن نكون حذرين إزاء ملاحظته الدقيقة بشكل ضيق جداً. أنا شخصياً أعتقد أن طبقة رقيقة نسبياً من المجتمع الغربي فاسدة ومتحللة. وأن الغالبية العظمى من الناس العاديين يدرسون ويعملون بجدّ، ويعيشون من أجل أسرهم. إن الغرب قوي والمجتمع الفاسد لا يمكن أن يكون قوياً.

والحقيقة هي أن الفلاسفة ومنظّري المستقبل الغربيين المعاصرين يشيرون إلى خطر الابتعاد والتشويه الروحاني، لدى وصفهم القواعد الأساسية الحضرية لهذه الحضارة. وهم يقدمون حقائق مقنعة عمّا يسمى الثقافة الكثيفة الانتشار مع ناتجها التسلسلي من " السلع الروحية، أو النُّسخ، التي يتم تنفيذها بشكل رديء وزائف دون أي حس من الفرديّة.

وبالحديث عن العلاقات بين ثقافة الحضارة الإسلامية وتلك التي للغرب- الأوروبي، فإن المسلمين يواجهون خياراً يتوجب عليهم فيه تجنب طرفين حادّين هما: الرفض العام للحضارة الغربية والاتباع الأعمى لها. كلاهما يحمل القدر نفسه من الخطورة. إن لم نتعاون، سيستمر ضعفنا إلى ما لانهاية، وإن قبلنا هذه الحضارة بغير انتقائية، فسنفقد هويتنا ولا نعد نحن.

لكننا لا نستطيع فصل أنفسنا عن العالم. وهنا علينا تذكر أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال: "أطلبِ العلمَ ولَوْ في الصِّين".

إن الحضارة الغربية هي إلى حد ما نتيجة دولية عالية، ساهم فيها العديد من العلماء من أديان وجنسيات مختلفة. إن قوة الغرب لا تكمن في نفوذه وقوته الاقتصادية والعسكرية. فذلك هو الجانب الخارجي. المصدر الدائم لهذه القوة هو التفكير النقدي." الذي حافظت عليه أوربة منذ بيكون، والذي ربما وصل إليه عن طريق العرب. هذا هو الأمر الثاني الذي يعتبر جوهرياً وأساسياً بالنسبة إلينا.

إن عقلاء المسلمين يحذرون مما يسمى مرض الأطفال بالتقليد الحرفي للثقافة الغربية. وقد كان أسد حرفياً حتى إلى حد القول أن العواقب الضارة لهذا النقل الحرفي أكبر بكثير من الفائدة المادية التي يمكن أن تعطيها للمسلمين! فمن المستحيل نقل حضارة ونسخها حرفياً في بعدها الخارجي دون الوقوع في نفس الوقت في أسر تأثير الروح التي أنتجت تلك الحضارة. وحتى أكثر من ذلك؛ لأن الحضارة الغربية أنانية في طرحها وتصورها. وهي تفرض صورة تاريخ العالم بحسب تقديراتها الذاتية ولأن كراهية الإسلام غالباً ما تنطلق شرارته من روحها- تحت الظل الذي لا يزول للحروب الصليبية. وتشرّب هذه الروح يخلق عقدة الدونية لدى الأجيال الشابة من المسلمين، والتي تتضمن رفض ثقافتهم الخاصة بهم. وإذا درسنا الصراع الذي يجري هذه الأيام بين أفراد الشعوب المسلمة- الذين كان لهم اتصال مباشر مع الثقافة الغربية، فسنلاحظ أنها نزاعات بين التقدميين" ذوي التوجه الغربي و" المحافظين" ذوي التوجه التقليدي. هذا النزاع عمل على تمزيق أواصر المجتمع المسلم وخلّف عواقب مخزية وكارثية.

أود أن أنتقي فكرتين معاصرتين وكبيرتين، يجري تناقلهما عبر العقل الأوربي الآن مما يوحي بضرورة التأمل بها.

الفكرة الأولى هي تلك التي تدور حول المجتمع المفتوح(المنفتح) التي دعا إليها كارل بوبر في كتابه (المجتمع المنفتح وأعدائه). مثل ذلك المجتمع (المفتوح) يتضمن حرية الفرد وشخصيته، وتصوره، وحرية تفكيره، وحقه في نقد المؤسسات السياسية، والتبادل الحر للأفكار...إلخ. لِمَ لا يشارك المسلمون في هذا؟ وفوق ذلك، تحض أفكار"بوبر" على التسامح وتقف ضد السلوكات البربرية في أوربة التي غالباً ما تستخدم ضد المسلمين الموجودين في تلك القارة.

والفكرة الثانية هي فكرة النهضة الأوربية الجديدة التي دعا إليها الفيلسوف الألماني فايتساكر. تختلف هذه الفكرة عن النهضة الأوربية الأولى في الالتفات نحو عوالم وثقافات خارج أوربة، وبالتالي، وفقاً لهذا الفيلسوف، فإنها ستلتفت أيضاً نحو الإسلام، وثقافته وحضارته. وأعتقد أن علينا دخول هذه اللعبة. ألم يطالبنا القرآن (الكريم) بقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٥/٤٨]، لكننا لا نستطيع استباق الخيرات إلاّ حين نقوي وعينا بهويتنا فقط. فالمسلمون الواعون يكونون مستعدين للأخذ والعطاء، دون التخلي عن قيمهم الحقيقية الأصلية وطيّها في النسيان. قبل الختام، بضع كلمات حول تجربتنا البوسنيّة. لقد ساهمنا في الثقافة الإسلامية لقرون عديدة، وفي القرن الماضي (ساهمنا) في الحضارة الغربية - الأوربية كذلك. يعتقد العديدون أننا أحد الشعوب المسلمة الأكثر تعليماً. فمواجهتنا مع الحضارة الغربية - الأوربية مواجهة مباشرة ويومية ولا مفرّ منها. والأنظمة التي عشنا في ظلها في الأعوام المئة الأخيرة أو نحو ذلك، لم تكن (أنظمة) مسلمة كل منها بطريقته الخاصة. وعلى الرغم من التدمير الخفي لآثار ثقافتنا الإسلامية، لم نذُب تماماً فيها، وحافظنا على شعورنا القوي بالانتماء لديننا وثقافتنا. في أثناء العدوان الأخير ضد البوسنة، جرى تدمير أكثر من ١٠٠٠ مسجد و٣٣٤ عنصراً ثقافياً إسلامياً. وجرى تحطيم العديد من المدارس والمعاهد والمكتبات. وقد قارن أحد المؤرخين الأتراك التدمير الثقافي في

البوسنة، بالطبع، آخذاً بالحسبان النسبة والتناسب، بتدمير بغداد وتمزيقها إرباً على يد المغول في القرن الثالث عشر! الخلاصات واضحة: فالمهاجمون، هؤلاء وأولئك، كانوا يريدون تدمير ومحو آثار ثقافتنا الإسلامية وذكرياتنا التاريخية. هذا كان هدفهم. لكن مع ذلك، كانت النتيجة عكسية: حدثت صحوة كاملة وخالصة في البوسنة، وعدنا إلى جذورنا.

ومن بين العديد من المعلومات والبيانات المثيرة والمؤثرة، يبدو من الضروري توضيح ما يلي: في مدينة بيهاتش، الواقعة في الشمال الغربي من البوسنة، والتي تشكل أبعد نقطة غربية من الإسلام والتي ربما تعرفونها لمقاومتها الشجاعة، فإن أحد الطلبة الشباب في كلية علوم الدين في سراييفو، اختار مدرسة بيهاتش ليكتب بحث تخرجه عنها. لم يكن يعلم أن المدرسة كانت موجودة سابقاً في المدينة. لم يكن هناك أي أثر يدل عليها في بيهاتش. بعد (اتفاقية) دايتون، بدأ الشاب بحثه الدراسي وأحيا ذاكرة ذلك المعهد الأقدم للتعليم العالي في هذا الجزء من البوسنة. في هذه السنوات، وحتى في أثناء الحرب، قمنا بفتح مدرسة جديدة في تلك المدينة. لم تستطيع الحرب منعنا.

وهكذا، فليس لدينا سبب ولا الحق بالنظر إلى المستقبل بتشاؤم. نحن، شعب البوسنةنريد أن نقول: إن العدوان علينا كان غضباً وعقاباً من الله. كان هناك ذنبٌ، وابتعاد ونسيان، لكن (كان هناك) أيضاً سعي قوي نحو الحرية. لقد أثابنا الله وكافأنا على سعينا. نحن نؤمن أن الأمم العظيمة فقط هي من يواجه الإغراءات الضخمة والهائلة. والأمم القوية هي تلك التي تبقى، بالتمسك بمبادئها الأخلاقية، صادقة مع نفسها ومنفتحة على العالم في أصعب الظروف.

هذا ما أتمناه لشعبي وللعالم الإسلامي.

الملحق السابع

مزيد من الآراء والتصريحات المهمة الأخرى

الديموقراطية

نادراً ما كانت هناك كلمة موضوعاً لمثل هذه الأفكار المتناقضة وإساءة الاستخدام كما هو الحال مع كلمة (الديموقراطية)، وأعتقد أن الدين فقط قد نال مثل هذا المصير عبر التاريخ بأكمله، فالزعماء المطلقون نادراً ما كانوا يعترفون أنهم دكتاتوريون، وكانوا يصفون أنفسهم بأنهم ديموقراطيون، ويطلبون من الآخرين اعتبارهم كذلك، ويصفونهم بذلك، وبسبب مثل تلك الأمور مثار الجدل فإن الأمم المتحدة على حد علمي، قامت بإصدار كتاب (الديموقراطية في عالم التوتر) في الخمسينيات من القرن العشرين، الذي يصور سوء فهم العالم للديمقراطية بشكل مطاط جداً، وربما هذا هو السبب الذي جعلني بحاجة إلى التعبير عن رأيي الشخصي في هذه المسالة.

إنني أؤمن أن الله قد خلق الناس أحراراً ومتساوين، وأن ليس هناك أعراق عليا ودنيا، ولا شعوب خيِّرة وأخرى شرِّيرة، وأؤمن أن الناس لديهم عدد معين من الحقوق غير القابلة للتصرُّف، وأن السلطة لا تملك الحق بحرمانهم وتجريدهم

منها، تماماً مثلما أني لا أؤمن بالسلطة غير المحددة للأغلبية، لأن طغيان الأغلبية هو طغيان مثل أي طغيان آخر، أؤمن أن مقياس الحرية هو معاملة الأقليات، وأن حرية التفكير تسبق أي حرية للتفكير على نحو مختلف، هذا كان مختصر لفكرتي حول الديموقراطية[1].

بما أن الإنسان الأول، بالتحديد،يلعب الدور الرئيسي في أي نظام دكتاتوري، فإن السؤال هو: هل يستطيع (الإنسان) إذا كانت شخصيته إيجابية، أن يحول الدكتاتورية إلى شيء شبيه بالديموقراطية. برأيي، أن الإجابة سلبية، ربما كان هناك بعض الدكتاتوريين الأخيار، لكن ليس هناك دكتاتورية خيرة، جميعها مذلّة، وغير منتجة حتى عندما تكون مؤيدة رسمياً لأمور إيجابية مثل: التنمية الاقتصادية، والتعليم، والنظام الصحي، وما يسمى الضمان الاجتماعي، إلخ. إلا أنه في المحصلة النهائية جميع تلك النظم تعطي نتائج سلبية، فهي لا تشجع وتنمي حقوق الإنسان، وبالتالي لا تؤدي إلى الأمان أو الازدهار، حتى لو أرادت هي ذلك. إن كبتهم للحريات وقمعها والتزامن الصحي، وإدخال معايير عقائدية (المعروفة بالتأقلم) يؤدي إلى دفع الأشخاص المتمردين والقادرين من العمل الاجتماعي إلى الخطة الثانية، وإدخال مقاييس من المستوى المتوسط العادي غير المتميز بشيء، وتكون المحصلة النهائية خسارة اللعبة بالنسبة إلى الدول الحرة (المثال الكلاسيكي هو السباق بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي أثناء الحرب الباردة، ونتيجته الحتمية).

إن يوغسلافية (تيتو) مثال جيد على هذا. وفقاً للعديد ممن عرفوه، كان تيتو شخصية إيجابية، ويبدو أن حكمهم هذا كان في مكانه، لكنه لم يكن بوسعه تغيير جوهر أو مصير النظام المحتوم، كل ما فعله فقط أنه جعل من الممكن

(١) (خطاب في المركز الأمريكي للديمقراطية في حفل الجوائز، نيويورك قصر الأمم المتحدة، ٢٧ آذار (مارس) ١٩٩٧).

تحمّل أحد الأنظمة الدكتاتورية، لكنه لم يختصرها، لـم يكـن بوسـع يوغسـلافية التوصل إلى الازدهار الحقيقي حتى في أفضل أيامهـا، كـانت يوغسـلافية تصـدر العمال (أكثر من ٧٠,٠٠٠ من أفضل عمالها كان يتوجب عليهم البحـث عـن لقمة العيش والعمل خـارج البـلاد)، وجـرى الحفـاظ علـى الرفـاه الظـاهري في السبعينيات من القرن العشرين من خلال الاقتراض الدائم لقروض مـن الخـارج. كان الدين الخارجي ليوغسلافية قبل انهيارها يبلغ (٢٠) مليـار دولار أمريكـي، أي (١,٠٠٠) دولار أمريكي لكل مواطن تقريباً. إن أي نظام متصلب للحـزب الواحد يتجاهل مسألة الحريـة، والحقـوق الوطنيـة، وحقـوق الإنسـان، أو كـان يحلها من خلال استخدام القوة والاعتقالات، والتوتر الذي كان يمكن أن يـزول عبر الحرية السياسية. لكن ذلك تزايد وتواصل في شـدته، وأدى بشـكل حتمـي إلى الانفجار، وأنتم على دراية بالنتائج[1].

التسامح

إن القرن الذي انتهي يمكن أن يسمى بحق قرن العنـف، وأمامنـا قـرن جديـد وألفية جديدة، وبالطبع احتمالات ومخاطر جديدة.

إن الكيفية التي سيكون عليها هذا القـرن الجديـد تعتمـد علينـا إلى حـد مـا، على ما نُعَلّمه وعلى الأمثلة التي سنتركها للجيل القادم، سيكون ذلـك الجيـل، على ما أعتقد أقل تأزماً من ضغوط الماضي، وأكثر التزاماً وتوجهاً نحو المستقبل، مما كنـا عليـه نحـن.وسـيملك كمـا آمـل إرادة جديـدة ويحقـق بطريقـة جديـدة وأسلوب جديد الأفكار التي آمنا بها.

أفضل رسالة ونصيحة حكيمة يمكن لنا تقديمها لهـم هـي التسـامح، لـو أراد الله أن نكون جميعاً شعباً واحداً، لكنا كذلك، لكن سبحانه، مـن الواضـح، لـم يرد ذلك. لقد قسمنا وجعلنا شـعوباً وقبـائل، وأمـر بـالاحترام المتبـادل، وحـرَّم

(١) (خطاب أُلقي في اجتماع كرانز مونتانا، سويسرة، ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩م).

علينا الأذى والتّسبب بأن يضرّ بعضنا بعضاً، هذه الرسالة، رسالة الله المتعلقة بالتسامح والاحترام المتبادل مع الآخر الذي هو مختلف، أصبحت أعظم رسالة إنسانية يتبعها العالم المتحضر، وهي كذلك بحاجة لأن تكون أسمى قانون في البوسنة، لأنه من دونها ليس هناك بوسنة، ولا يكون هناك حياة فيها.

أتمنى أن أرسل مثل تلك الرسالة وأوصلها إلى شعوبنا وإلى العالم، وأن نقوم نحن بتشجيع بعضنا بعضاً للسير على هذا الدرب، احترامي لكم جميعاً ومرَّة أخرى أتمنى لكم كل الخير(١).

المسألة الوطنية

قمت هذه الأيام بتتبع العروض الجارية للأحزاب السياسية من الاتحاد عبر وسائل الإعلام.

إنهم جميعاً يتحدثون عن البوسنة الكاملة والموحدة والديموقراطية، جميعهم يقولون: إنهم يريدون دولة قانون، واقتصاد السوق والتعليم، جميعهم يريدون عودة الذين أجبروا على الخروج من بلادهم والمطرودين، ويؤكدون على قلقهم واهتمامهم بالعاجزين وعائلات الشهداء، وجميعهم يعبرون عن خيارهم للمجتمع المدني (العلماني) وإدخال البوسنة إلى الوحدة والتكامل الأوروبي، إلخ، وجميع برامجهم تبدو متشابهة كما البيض.

هذا يثير السؤال: ما الاختلاف إذن؟ ما الموقع والموقف الخاص المحدد لحزب العمل الديموقراطي؟

حسناً هنالك العديد من الاختلافات لكن أهمها يكمن في توجهه ونهجه نحو المسألة الوطنية أو القومية للبوسنة والهرسك.

هنالك طرحان متناقضان.

(١) (من خطاب في اجتماع برلمان البوسنة والهرسك، سرايفو، ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

الأول: كلما كان الشعب البشناقي أقوى، كلما كانت البوسنة أقوى.

الثاني: كلّما كان الشعب البشناقي أضعف، كانت البوسنة أقوى هذان الرأيان المتناقضان يعكسان رؤى مختلفة وحتى مصائر مختلفة للبوسنة.

تطالب الأحزاب ذات الاتجاه اليساري أبناء الشعب البشناقي التخلي عن جنسيتهم، وهم لا يفعلون ذلك علناً أو بشكل مباشر، لكن كل ما يقولونه ويفعلونه، وحتى ما لا يقولونه، يدفع بذلك الاتجاه. أحد أشكال هذه الرسالة التي ليس لها أساس أخلاقي، أو تاريخي، يتمثل في الإصرار الأحمق والعنيد على وضع حزب العمل الديموقراطي في نفس السلة مع حزبي الجمعية الديموقراطية والديموقراطي الصربي هذه الرسالة تكرر نفسها يومياً بطريقة أو بأخرى.

يجد الشعب البشناقي نفسه تحت ضغط دائم من هذه الدعاية المسببة للتشويش، إن المساواة الدائمة لهذين الحزبين القوميين مع حزب العمل الديموقراطي يعمل على فرض عقدة المسؤولية المشتركة عن الحرب على الشعب البشناقي، ومن أجل التخلص من هذه العقدة واللوم المختلف فإن على الشعب البشناقي التخلّي عن هويتهم، وهذا يقود إلى السؤال من أجل ماذا ولماذا؟

كل هذا يجري القيام به بالرغم من الحقائق التاريخية الواضحة. فمن غير المقنع القول أن الحزب الديموقراطي الصربي كان يدمر البوسنة وحزب العمل الديموقراطي كان يدافع عنها؛ لأن كل الشعب كان يدافع عنها. أليس من الممكن القول أيضاً: إن لهذين الحزبين موقفين مختلفين تماماً من الإنسان والديموقراطية؟ كيف يمكن أن يكونا متساويين وهما مختلفان تماماً؟

علينا أن نذكر السادة من المعارضة أن ما حدث في البوسنة لم يكن نزاع أحزاب سياسية، وإنما نزاع بين الديموقراطية والفاشية، ففي البوسنة جرى الدفاع عن الديموقراطية من العدوان، ونحن لسنا طرفاً ثالثاً في البوسنة (وليس

أحد الأولى أو الثالثة نحن جزء من بوسنة مدافع عنها وحرة، قام بإطلاق شرارة أمل وضياء في أيام العدوان المظلمة).

وهذا يجعل من الصواب طرح السؤال: لماذا تجرِّبون الديموقراطية فقط على الشعب البشناقي، ولماذا هنا فقط كان الدفاع عن الديموقراطية؟ ولم لا تذهبون إلى الكيان الصربي وتجربون حظكم هناك؟ فمن الواضح أن الديموقراطية تعاني من مشاكل أكبر هناك.

إننا لا نضع حزب العمل الديموقراطي في نفس الكفة مع الشعب البوشناقي، لأن الشعب دائماً أكثر من حزب واحد، ولكن بالنظر إلى الحقائق التاريخية، فلابد لنا من القول: إن أي شخص يقول: إن حزب العمل الديموقراطي والحزب الديموقراطي الصربي هما نفس الشيء ومتشابهان، فإنه يعمل بشكل واع ومقصود على تشويش أذهان الشعب البشناقي، وليس هذا فقط، إنهم في النهاية يضعون علاقة مساواة بين مقاتلينا وجزاري التشتنيك، ويجب أن يعلم شعبنا هذا.

بما أن تشكيل شعب كرواتي أو صربي في البوسنة قد انتهى أمره فإن دعوتكم إلى رفض الوطنية أو القومية يقصد منه بشكل واضح البشناق فقط. وإذا كان من الواجب قبول هذه الدعوة، فإنه لن تكون تلك الطريقة لإيجاد بوسنة سليمة أو تمتع بالسلام كما تعتقدون. في التاريخ لا تؤدي النوايا الطيبة دائماً إلى نتائج جيدة. إن نزع السلاح القومي من جانب واحد للشعب البشناقي، لندعوه كذلك، لن يؤدي إلى إضعافه، بل إن تقوية النزعتين القوميتين الأخريين وشهيتهما المعروفة نحو البوسنة. إن الأمة البشناقية بحاجة لحزبها الحقيقي، وإذا لم نكّون ذلك الحزب نحن فسيكونه آخرون. إن حزب العمل الديموقراطي كحزب معتدل بتأكيد مدني قوي يحول المشاعر الوطنية للشعب البشناقي إلى طاقة إيجابية، وإن نقله وتحريكه من موضعه سيفسح مجالاً لتيارات

متطرفة، وحتى متعصبة جداً لدى الشعب البشناقي، مما سيؤدي إلى عدم استقرار دوامة جديدة من النزعة القومية المتعصبة.

وفي حزب العمل الديموقراطي نحن نرى أن السهم قد نفذ، أو تم اجتياز النهر الفاصل، الروبيكون، وأنه لا رجعة إلى بوسنة عديمة اللون وغير وطنية. فبعد أن أصبح لديها وعي بنفسها وباسمها وبعد كل تلك المعاناة التي تفوق الوصف لن يتخلى البشناق أبداً مرة أخرى عن قوميتهم وعن الإسلام بوصفه أحد مكوناتها. لا يمكن إزالة هذا الشعور ومن غير المتعارف أن يوافق أي شعب، بعد أن يصبح علىوعي بذاته، على أن يقبع في طي النسيان. إن بوسنة متعددة الأعراق أمر ممكن، أما بوسنة غير قومية فلم تعد أمراً ممكناً.

إن ما هو واقعي وممكن هو دفع شعوبنا من كروات وصرب وبشناق إلى الأمام نحو الحضارة، ولتنسيق هذه الحقيقة الحتمية المتمثلة بالجنسية الوطنية مع مقتضيات العصر الجديد وسنكون راضين وسعداء إذا كان هناك كروات بدلاً من الكروات العظام، وصرب عاديون بدلاً من الصرب - العظام.

ليس هناك حلول بسيطة ذات شكل واحد في البوسنة. إن حزب العمل الديموقراطي هو في نفس الوقت حزب بشناقي ومدني، وبشناقي وفقاً لهيكلية أعضائه، ومدني وفقاً لبرنامجه. وهذا الأمر في المقام الأول دعوة قومية للشعب للحفاظ على بوسنة متكاملة على أساس الاختلاف والتسامح، وهو معارض فيما يتعلق بالراديكالية والتطرف في صفوفنا، وهو يتعلق بالانفتاح على العالم والحضارة الغربية. وأخيراً فإنه دعوة عملية للتعاون مع جميع أولئك الذين لديهم أهداف مشابهة. نحن لا ندّعي إننا دافعنا عن البوسنة وحدنا فسواء هنا أم في العالم كان هناك كثيرون آخرون قاتلوا وعملوا من أجل نفس الهدف النبيل، ولله الحمد. ونحن لا نرفض أو نجحد أوننسى رفاقنا من الأمم والأديان والقناعات السياسية الأخرى. فكل من يرغب بالسير معنا نرحب به ونحييه. وهذا هو المعنى الحقيقي للتحالف من أجل بوسنة وهرسك كاملة وديموقراطية

موحدة، يتحدث اسمها عنها. هذا هو المسار الذي سيؤدي لكل البوشناق للقول بأنهم بوسنيون، وكذلك الكروات والصرب أيضاً يقولون الشيء ذاته لرؤية هذا اليوم.

يتعين على البوسنة أن تصبح موضع فخار بالنسبة إلينا جميعاً، ولكي تصبح كذلك يتعين عليها أن تصبح موطن الحرية والازدهار. وإن الهالة التي لدينا الآن من المعاناة غير كافية. حينها فقط سيكون بالإمكان لأي مواطن من البوسنة القول بكل فخر: أنا أيضاً بوسني. لكن هذه العملية ستستغرق عقوداً عديدة.

في أثناء السير نحو هذا الهدف البعيد والعظيم، علينا القيام بتثقيف شعبنا وتعليم رجالنا ونسائنا حب البوسنة، ورفع روح الاحترام لديهم نحو تقاليدهم وإرثهم، وكذلك نحو القيم الإنسانية والحرية والتسامح في المقام الأول[1].

النزعة القومية العصبية

إن أول وأهم طريقة يتم من خلالها خلق تشويش دائم في أذهان الأشخاص الأقل اطلاعاً تتمثل في محو الفرق بين الوطني والقومي العصبي. لكن مع كل ذلك فإن الفرق بين الاثنين كبير إلى درجة أنه يصل أحياناً إلى درجة الفرق بين الحب والكراهية نفسها.

فالشخص الذي يمتلك شعوراً وطنياً يحب شعبه وناسه، ويشاركهم في عيوبهم وفضائلهم. أي إنه بكلمات أخرى ينتمي إليهم. أما الشخص الذي يرغب بامتلاك أملاك الآخرين فإنه يخنق ويكتم أنفاس أساليب الآخرين التي تكون مختلفة، ولا يستطيع تحملها، ويعمد إلى استخدام القمع المادي. إنه لا يقوم بالدفاع عما لديه، إنما يريد امتلاك ما ليس له. أن المجاوزة والغلو في العصبية القومية في جوهرها نزعة شريرة وليست دينية.

---

(١) (الجزء الختامي من ورقة مقدمة إلى الاجتماع الثاني لهيئة حزب العمل الديموقراطي، في ٧ أيلول /سبتمبر ١٩٧٧).

فكل أديان العالم العظيمة تعلم حقيقة بسيطة (وكافة الحقائق العظيمة هي حقائق بسيطة) وهي ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعله الآخرون بك، أو تصرف بحيث يمكن أن يكون سلوكك قانوناً عالمياً عاماً، بحيث يكون نفس السلوك سواء لك أم للآخرين[١].

الإيمان الزائف

حسناً، ربما قال شخص بأن زمن القومية العصبية هذا يتميز بيقظة المشاعر الدينية، وربما اقتبس صلوات دينية طنانة، ومواكب جماعية، ومسيرات عبور كبير على بوشتيتيلي وجيبتسه ومحاضرات دينية إلخ دليلاً على ذلك.

وأنا سأقول: إن هذا في أغلبه دين زائف يقدم شكلاً مبالغاً فيه، حيث نجد الصراخ بدلاً من الإيمان الحقيقي الذي يفتقر إليه.

كذلك ليس هناك إيمان حقيقي حينما يتنافس المؤذنون المنادون للصلاة في رفع درجة أصواتهم في مكبرات صوت غالباً ما تكون معطلة. إنهم يعتقدون أن صياحهم وولولتهم سيدخل الإيمان في قلوب الناس، وذلك بدلاً من الصوت البشري الجميل. لم ينجح أي كان من قبل في هذا، ولن ينجحوا هم كذلك.

بل إن ما يمكن أن يسببونه هو الكفر، والنتيجة تأتي عكس ما يريدون. فالإيمان إما أن يكون في القلب والروح أو لا يكون، وإذا كان الإيمان إيماناً حقيقياً، فإنه يكون.

لكن، هنالك وجه آخر للعملة، ونحن نكون على هذا النحو أو ذاك أحياناً بشكل علني وصريح، وأحياناً لا. قد جرى إقناعنا بأنه لا يتوجب علينا الحض على الوعي والانتماء للإسلام بين أفراد شعبنا، أو على الأقل ألا يتم الحديث كثيراً عن ذلك. وأحياناً يتخذ الإقناع صيغة عدوانية. فكل ما هو إسلامي

(١) (دنفني، ٨ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

يوصف بالأصولية، التي يقال عنها: إنها إرهاب، أو إنهم يتحدثون عن خطر الهيمنة الإسلامية في البوسنة والهرسك. نحن الذين نشكل نصف عدد سكان البوسنة والهرسك ولا نسيطر إلا على (٣٢٪) من الأرض. آقل من الثلث ويقال عنّا: إننا نحن من يهيمن. إن الهدف من هذا هو جعلنا نتخلى عن هذا الثلث الذي لدينا. كذلك هناك معارضة لمبدأ العودة المتبادلة باتجاهين. عليك قبول عودة اللاجئين الصرب والكروات حتى من غير سماحهم لأفراد شعبك بالعودة، والمجتمع الدولي لا يقبل بوضع أي شروط إلخ. وإذا استمرت هذه العملية عودة أحادية الاتجاه فإن النتيجة النهائية بالنسبة للبوسنة والهرسك معروفة جيداً[1].

العلاقة بين الأخلاق والدين

ليليان: تسبب أحد رجالات دولتك بردود فعل عالية، وهو أمر غالب الحدوث مع رجالات الدولة لديكم، وربما يمكن أن تذكر أن هذا حدث حينما كنت في ترويج "الكتاب الأسود للشيوعية" وقلت: إن الإلحاد يتضمن غياباً لأي نوع من أنواع الأخلاق، هل يمكنك لو سمحت أن تفسر هذه العبارة؛ لأن عدد الملحدين في البوسنة ليس بالعدد القليل، وبناء عليه، هل هناك أخلاقيات في أي مكان غير تلك المتعلقة بالدين أو الإخلاص التام لله، كما تقول أنت؟

عزت بيغوفتش: عليك أن تعترف أن المقابلة الصحفية لا تمثل الفرصة الأفضل لمناقشة مثل هذه المسالة المتشابكة والمعقدة، فمن الصعب الإجابة عنها في جملتين أو ثلاثة. لقد قمت بتخصيص جزء من كتاب (بين الشرق والغرب) لهذا السؤال. وجوهر الإجابة، أو لنَقُلْ محاولة الإجابة ستكون: بما أن الأخلاقية هي سلوكنا بدافع الواجب وليس المصلحة فإن هناك سؤالاً يتمثل في: لـمَ يقوم

(١) (دنفني أفاز سرايفو ٨ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

شخص ما بالتصرف ضد مصلحته إذا لم يكن هناك إلا هذه الحياة ولا شيء فوقها، أو يترتب عليها أن فكرة الخير لا يمكن تعريفها منطقياً؟

وقد أثبت الفيلسوف كانْ رياضياً أنه ليس هناك أي واجب يمكن أن ينبع ويشتق من العقل البحت، ولم يستطيع أي شخص على علمي أن يتحدى هذه النظرية بشكل ناجح، لأن عمل الخير لا يجزي، وليس له مردود. لو كان له مردود لاندفع الأنانيون وحثالة البشر ليصبحوا نماذج عن الفضيلة. تذكر أن الأشخاص الذين أعجبنا بهم سواء أكانوا حقيقيين أو شخصيات أدبية خيالية كانوا جميعاً ممن عانوا كثيرا.ً سقراط، أنتيغونه، المسيح،... إلخ. وبالتالي لو أنه ليس هناك إلا هذه الحياة وإذا لم يكن هناك إله، فإن هؤلاء الذين عانوا معاناة كبيرة لن يكونوا أبطالاً، وإنما مجرد خاسرين وأن تضحياتهم ذهبت أدراج الرياح.

عندما كنت شاباً شاهدت فيلماً يفقد فيه رجل حياته، لأنه يرفض خيانة أحد رفاقه المقاتلين. حينها فكرت بهذه الجدلية داخل نفسي. طوال الوقت كنت إلى جانب هذا البطل، والذي كان يعني عملياً أنني كنت أريد منه أن يواجه فرقة الإعدام. بين الموت والخيانة، كانت الخيانة تبدو أسوأ. لماذا؟ هنالك إجابة منطقية مقبولة واحدة فقط. لأن هناك شيئاً أعظم من الحياة وفي عالم من دون الله، فإن تضحية هذا الرجل ستتجرد من أي معنى. ومن الواضح أنها ليست كذلك، وجميعاً نشعر بذلك.

المشكلة هي الثبات، وعلى أرض الواقع التقلب وعدم الثبات. المؤمنون يجب أن يقود الواجب خطاهم، وأولئك الذين لا يؤمنون تسيرهم المصلحة. وهذا أمر منطقي تماماً. لكنه لا يحدث دائماً على هذه الشاكلة. الناس يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر. لذلك لدينا العديد من المؤمنين غير الأخلاقيين والملحدين الأخلاقيين. على الرغم من ذلك هنالك شيء واحد مؤكد لا يمكن إقامة أي

نظام أخلاقي دون إله. إن عليك الاستناد إلى شيء أعلى من الحياة والمصلحة، وكل اعتماد واستناد على شيء فوق الحياة وأعلى منها هو نوع من الاعتقاد الديني أو الإيمان. حتى حقوق الإنسان التي أصبحت الآن الشعار الأعظم في الغرب فإن جذورها لا تمت إلى الثورة كما هو شائع اعتقاده، وإنما إلى التعاليم النصرانية. إن مساواة البشر تصنيف ديني. إن البشر متساوون ويمثلون قيمة فقط إذا كانوا مخلوقين على يد إله. فبوصفهم نتاج الطبيعة، بالطريقة التي هم عليها، فإنهم سيكونون غير متساوين بشكل كامل، ولن يكون هناك متسع لقداسة الحياة البشرية. وعليه فإن المذابح التي قام بها ستالين تعتبر منطقية بشكل مطلق. على أية حال فإن إنغلز يرفض الأخلاق بوصفها حزمة من الخدع البرجوازية للعمال في البيان الشيوعي العام، وإنجلز مفكر منسجم في آرائه الأخلاقية التي هي في صالح الطبقة العاملة، كما كتب قائلاً ونتيجة هذه الأخلاقية معروفة لنا. إجابتي طالت نوعاً ما وبوسعي إعطاء خلاصة موجزة بالقول: لا علاقة لها بتاتاً بالآداب الخلقية، وبالطبع فإن هذا رأيي الخاص، أنت سألتني وأنا أخبرتك بما أعتقده[1].

أهم مسالة للبوسنة والهرسك

المسالة الأهم هي بقاء البوسنة والهرسك دولة مكتملة، وإن النضال من أجل هذه المسألة مستمر يومياً، لأن هناك نزعات وميولاً مختلفة. وبالرغم من أن اتفاقية دايتون قد عَرَّفت البوسنة والهرسك على أنها دولة كاملة متكاملة إلا أنها لم تستبعد العوامل التي يمكن أن تعمل بطريقة تفتيتية. وحينما يتعلق الأمر بي من حيث كوني متفائلاً أم لا فإني سأقول لك ما يلي: إذا لم أكن متفائلاً فليس بوسعي القيام بعملي هذا. أؤمن بحياة وبقاء البوسنة والهرسك على الرغم من كل شيء. وسأخبرك على أي أساس أبني تفاؤلي هذا، ففي المقام الأول أنّ

(١) (مقابلة مع ليليان سرايبفو، تموز/ يوليو ١٩٩٩).

هناك ضمانة من اتفاقية دايتون بأنه يجب أن تبقى البوسنة وحدة كاملة. وعلى الرغم من أن هذه الضمانة ليست مطلقة وإنما نسبية، إلا أننا نستطيع تحويلها إلى حقيقة واقعة. ما يجعل هذا التصور حقيقياً يكمن في السياق الذي تحدث به هذه العملية، الذي هو في الواقع في المنطقة المحيطة بالبوسنة والهرسك، وله أهمية كبيرة جداً وحاسمة. ففي الشرق أرى صربيا أضعف نسبياً لفترة طويلة، مما يعني أنها لن تكون قادرة على تطبيق وتنفيذ مفهوم صربيا الكبرى هنا.

وأرى تطوراً ديمقراطياً حتمياً في كرواتية. فكرواتية في طريقها نحو الديموقراطية بغض النظر عن كافة الصعوبات. وكرواتية ستتوقف عن التدخل في الشؤون البوسنية. كما أن جماعة الحكومة الحالية تقوم حالياً بالتدخل بشكل وحشي، ونحن نرى ذلك ولسنا عمياناً. وإننا لا نلقي بالاً كثيراً ولا نعمل على إثارة تلك المشكلة؛ لأننا نعتقد أن ذلك أمر مؤقت. وبالتالي فإن مشروع كرواتية الكبرى لا يمكن تحقيقه أيضاً؛ لأنه ليس هناك من يجرؤ على إعلان الانفصال أو الانشقاق في البوسنة والهرسك هذه الأيام أياً كان. فكراوتيا لا يمكنها عمل ذلك، وكذلك هو حال صربيا دون عواقب وخيمة ضخمة. تلك هي الحقائق التي تؤثر بشكل فاعل في قضية البوسنة. وهنا فإني أتحدث عن نظرة وتصور طويل المدى، وهكذا فإنه من ناحية صربيا الضعيفة نسبياً وفي الجانب الآخر التطور الديموقراطي لكرواتية يجعلان من مفهوم الدولة العظمى الذي يشكل الخطر الرئيسي على البوسنة والهرسك أمراً مستحيلاً. والحقيقة الثالثة هي أنني أعوِّل على اتحادنا. فالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية القوية هي على وشك أن تحدث هنا. وستعمل الديموقراطية على جعل هذه التطورات ممكنة؛ لأن الديموقراطية تدفع المجتمع إلى الأمام. وإذا أحرزنا تقدماً هنا بالعمليات الديموقراطية، وإذا لم نوقف هذه العملية، وإذا أقمنا دولة القانون وكل ما يتبع ذلك فإن العالم لابد أن يساعد ذلك الجزء من

البوسنة والهرسك، وسيتمكن من هزيمة الظلام المحيط بهـا بواسطة قـوة نفـوذ المثال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. هذه هي رؤيتي وتصوري والأساس الذي يقوم عليه تفاؤلي حينما أتحدث عن الحفاظ على بوسنة وهرسك كاملة[١].

"الكيان الثالث" في البوسنة والهرسك

إن اتفاقية دايتون تعتبر توازناً دقيقاً وحساساً بين العناصر الإيجابية والسـلبية، وتلك المقولة، والتي من الصعب القبول بها بالنسبة إلى كل طرف من الأطـراف التي وقعتها على أنها تسوية وحل وسط هائل، لا يمكن تغيير أي شيء بها دون تغيير كل شيء. وبتعبير أفضل لا يمكن تغيير أي شيء موقـع في اتفاقيـة دايتـون للسلام دون عودة الوضع بأكمله إلى نقطة البداية. وأي شـخص لا يـرى هـذا الأمر أو يصدقه عليه قراءة الفصل (١٨) من كتاب هولبروك المعنون" مـن أجـل إنهاء الحرب" (اليوم التاسع عشر واليوم العشرون).

وليس بمقدور أي طرف (اشتراطياً) طلب أي تغيير إيجـابي دون قبـول شـيء غير سار بالنسبة إليهم. وبعدها نجد أنفسنا في نفس الموقع أو نفـس النقطـة مـرة أخرى، مع نفس الهدف ونفس المسافة الفاصلة كما يقول الناس. لقد كنا نؤمن بالاتحاد، وكنا مصممين على تحقيق هذا المشـروع. وبعـد الاتفـاق علـى الاتحـاد الفدرالي في العاشر من تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٩٥ (خلال فترة التفاوض على اتفاقية دايتون، وقبل عشرة أيام من البدء في الاتفاقية العامة حـول السـلام) كنـا نعتقد أن الكروات كانوا يريدون ذلـك بصراحـة أيضـاً. لهـذا السـبب لـم نقـم بإثـارة أي مشـاكل حـول سـيطرة مجلـس الدفـاع الكرواتـي علـى (١٩٪) مـن الأرض، وسيطرة الجيش البوسني على (٣٢٪) منهـا (وليـس ٢٤٪) كمـا يحلـو للبعض القول). واعتقدنا جميعاً بأن الاتحاد سواءٌ الآن أو مستقبلاً سيصبح جيشاً واحداً، وليس مهماً من يسيطر عليه الآن. وكان طلبنا النهائي من مجلس الدفاع

---

(١) (مقابلة مع مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك ١٠ تموز (يوليو) ١٩٩٦).

الكرواتي الانسحاب إلى (١٧,٧٪) الخاصة بهم. مما يعني ضمنياً قبول نوع من الانشقاق، لذلك من الأفضل لنا الصمت حيال ذلك، على أمل أن تسير كافة الأمور نحو التكامل والاندماج العام. لم نرغب بإثارة مشاكل في علاقة (٤٩/٥١) هذه؛ لأن توجهنا كان نحو المستقبل، ونحن نؤمن، ونعمل من أجل بوسنة وهرسك متحدة، ونحن لا نحب ذكر هذه الأرقام كثيراً، لكن هذا هو التاريخ، وقد مرّت البوسنة عبر هذا كله، وليس بوسعنا الفرار من ذلك.

لقد استمعت بكل عناية واهتمام لخطب كثيرة في التجمع الأخير الذي جرى في موستار عن حقوق الإنسان وحقوق الكروات بشكل عام. ولم ألاحظ أن أياً من المتحدثين والخطباء الكثر قد أتى على موقع ومكانة البشناق في بعض أجزاء الاتحاد (بوسافينا، أو جيبتشه أو ستولاتس أو ليفنو) حتى ولو على سبيل المقارنة. في الاتحاد الفدرالي (هل يتوجب علي القول في الجزء الذي يقع تحت سيطرتنا) هنالك عدد من المراكز الثقافية الكاثوليكية نشطة وفعالة. منها جامعتان كاثوليكيتان في سراييفو نفسها. وفي نابريداك أكبر مؤسسة ثقافية كرواتية في هذا الجزء من العالم ومجلات كرواتية... إلخ. وأنا سعيد لأن الأمر هكذا ولو كان على غير ذلك كنت لشعرت بالخجل.للأسف، فمثل هذه الحرية غير مسموح بها في المناطق الواقعة تحت السيطرة السياسية لمنظمي المائدة المستديرة في موستار. هل يعتقد أحدهم أن هذه الازدواجية في حقوق الإنسان يمكن أن تدوم. ولماذا يلتزم المناضلون من أجل حقوق الإنسان الصمت حيال هذا؟

ما الذي يتوجب فعله؟ اتفاقية دايتون لا يمكن تغييرها لكن يمكن تغيير روحها. كذلك من الممكن إيجاد نهجٍ اكثر إخلاصاً، أو إيجاد ممارسة عملية جديدة لا تكون قائمة على مقولة "سوف أستفيد من كل ما يخدمني في اتفاقية دايتون، وسأعمل على إعاقة كل ما لا يخدمني". بالإضافة لذلك فإن بعض

التطور الداخلي سيصبح لكل ما هو وارد ومكتوب في اتفاقية دايتون معنى مختلفاً وأكثر إيجابية لكافة شعوب ومواطني البوسنة والهرسك، إذا حدث للأطراف أو الأحزاب القومية الشوفينية الحالية أن تطورت لتصبح أحزاباً وطنية، وتحولت تلك إلى أحزاب وطنية معتدلة. وأنا أؤمن أن كافة التطورات في البوسنة والهرسك ستسير بذلك الاتجاه. حينها لن تكون اتفاقية دايتون نفس الاتفاقية مرة أخرى. وأن الحكومة في زغرب سواء الحالية أو التي ستأتي مستقبلاً، وأعتقد أنها المستقبلية، ستقول للكروات البوسنيين، حين مراجعتها يوماً ما لتلقي التعليمات والأموال، اذهبوا إلى سراييفو وحاولوا إيجاد لغة مشتركة مع الشعب هناك فهم شعب منطقي وعاقل، وبإمكانهم الاتفاق على كل شيء معكم. عندها سيشرق فجر يوم جديد في البوسنة.

إننا مستعدون لعقد اتفاقيات حول كل شيء، كل شيء على الإطلاق مع الكروات ضمن نطاق اتفاقية دايتون بالطبع ضمن هذه الاتفاقية، وليس خارجها. حينها لن يكون هناك "كيان ثالث" مطلوب. فاتفاقية دايتون مع شعب مختلف ستكون مختلفة كذلك[1].

الحالة البوسنية

يبدو أن خلق شعب بوسني، يشكّل نوعاً من المزيج المندمج من المشاعر الوطنية للبشناق والكروات والصرب، قد حدث بشكل متأخر، للأسف، لأن عملية تشكيل شعب صربي وكرواتي في البوسنة قد انتهت. والآن لا يزال بوسعنا الحديث عن البوسنة دولةً مشتركة عامة، وعن حب الوطن البوسني أو مشاعر مشابهة. لكن الأمر بمجمله يعتمد على حقيقة فيما إذا كانت البوسنة ستصبح دولة مزدهرة وديموقراطية، وفيما إذا كانت ستصبح موطن فخارنا. إلى الآن، كل ما لدى البوسنة هو المعاناة والمقاومة التي يمكن أن تكون سبب

---

(١) (سراييفو، ١١ آذار (مارس) ١٩٩٩).

اعتزازنا، لكن حالة المعاناة لا تكفي. إن البوسنية يمكن أن تصبح شكلاً معيناً من أشكال ما هو أوسع وأكبر من الجنسية الضيقة بالنسبة إلى كافة مواطني البوسنة والهرسك. وهذا أمر ممكن[١].

الحالة السلافية

ليليان: هل حدث وفكرت بجذورك السلافية؟ وما شعورك إزاء عموم السلافية؟ وما الذي يعنيه بالنسبة إليك أن تكون سلافياً؟

عزت بيغوفتش أنا أشعر أني بشناقياً أولاً، ثم أوروبياً ثانياً، وسلافياً ثالثاً. وأعتقد أن سلافيتي تعكس نفسها على أكبر نحو في حبي الشديد للأدب الروسي، فالكاتب المفضل عندي هو دوستويوفسكي[٢].

"سيادة البشناق" وسيطرتهم في البوسنة والهرسك

ما السيطرة البشناقية التي يمكن أن نتحدث عنها؟ انظر إلى خريطة البوسنة والهرسك: ليس هناك أي بشناق على نصف الأراضي تقريباً المسماة جمهورية صرب البوسنة، دع عنك وجود سلطة هناك. وإذا لم يكن الأمر نفسه فإن الوضع مشابه جداً في ذلك الجزء من الاتحاد الذي يسيطر عليه مجلس الدفاع الكرواتي، وإن مجموع هذه الأراضي يشكل حوالي (٦٨٪) من البوسنة والهرسك ومن (٣٢٪) المتبقية من الأرض، يتمتع البشناق بميزة معينة هذا صحيح، لكن هل يمكن اعتبار هذا سيطرة؟ وهذا يذكرني بالقول: ما هو لي فإنه لي وما هو لك فإنه لك ولي في نفس الوقت.

لكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون. لقد قاومنا هذا المفهوم منذ البداية سياسياً أولاً وبعدها بالسلاح، ثم سياسياً مرة أخرى. نحن نريد بوسنة كاملة متكاملة

(١) (جواب مقدم إلى تيدينك، زغرب ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٩٨).
(٢) (مقابلة مع ليليان سرايبفو تموز (يوليو) ١٩٩٩).

وديموقراطية. ولحسن الحظ هذا هو ما يريده العالم. كذلك لأسبابهم الخاصة وليس لأسبابنا نحن. إن السلطة في الأجزاء الواقعة تحت السيطرة الكرواتية والصربية ليست ديموقراطية، لأنها أحادية القومية، لكن وكما ترى هنالك بعض العمليات تجري بشكل مستمر. وهذا الوضع يؤدي إلى التغيير إن عاجلاً أم آجلاً. ستلحق الهزيمة بالمفاهيم أحادية القومية وغير الديموقراطية. ونحن نصر على عودة الأهالي المطرودين والمنفيين، وسنواصل إصرارنا على هذا كل يوم وكل سنة. لابد أن يعودوا، وهذا سيغير الكثير من الأمور بدرجة كبيرة. هنالك أيضاً بعض التغيرات غير الملحوظة. أين بوبان وكرادجتش؟ ألا يدل مصير هذين الشخصين بشكل واضح بدرجة كافية إلى الاتجاه الذي يشير إليه سهم الزمن والتاريخ[١].

"مفهوم تغيير السلطة"

هذا الذي غالباً ما يتكرَّر ذكره المتمثل بـ "مفهوم السلطة" في البوسنة والهرسك هو هكذا، لأن البوسنة هي على النحو الذي هي عليه - أي ثلاثية القومية، وإن إغماض العينين عن هذه الحقيقة لا يجدي. وبالإضافة إلى هذه الحقيقة الواقعة، فإن "مفهوم تغيير السلطة" بحاجة إلى "شيء صغير" آخر وهو تغير دايتون، وعلى الحزب الديموقراطي الصربي القيام بشكل علني وصريح بإخبار الناس كيف سيقومون بعمل هذا. من دون هذا، فإن قصة مفهوم تغيير السلطة تصبح مزحة لتكميم أفواه الناس غير العارفين بحقيقة ما يجري. ولهذا كنت قد قلت: إنه يمكنني رؤية مسار واقعي واحد فقط للبوسنة، وهو ليس العصبية القومية للحزب الديموقراطي الصربي، سواء أكان ذلك جيداً أم لا، وإنما لتخفيض تدريجي للتوترات القومية الوطنية إلى مستوى محتمل ومقبول، وتحويل أحزاب العصبية القومية إلى أحزاب وطنية ثم وطنية معتدلة. وهذه الأحزاب

---

(١) (تصريح لـ نوفي ريبكا، ٧ شباط (فبراير) ١٩٩٨).

الوطنية المعتدلة، سيتوجب عليها وستكون راغبة على الاتفاق بالحد الأدنى من أجل وجود وبقاء الدولة البوسنية، وهذا يعني تطبيق متساوق وثابت لاتفاقية دايتون للسلام. وأقل من هذا يكون غير مقبول، وأكثر من هذا غير واقعي. وإن رد الفعل العنيف أو الابتعاد عن الطرق الوطنية، خصوصاً الصرب والكروات في البوسنة والهرسك، يؤدي إلى نتيجة عكسية - بزيادة عدم الثقة والشك الوطني والترابط والتماسك الوطني. وإن وجهة نظري حول التطورات الممكنة في البوسنة والهرسك هي شيء لا يمكن للحزب الديموقراطي الصربي إنكاره عبر تصريح عادي حول "مفهوم تغيير السلطة" أو عبر التكرار المتواصل لهذا القول. وإنما فقط من خلال تجربة واحدة هي: نتائج الانتخابات في التجمعات الصربية والكرواتية في البوسنة والهرسك، ولا أرى أن هذا سيحدث لفترة طويلة. لكن على حزب الصرب محاولة ذلك. أتمنى لهم مقداراً كبيراً من النجاح في هذا، إضافة إلى النجاح في" الحياة والعمل"(١).

"مفهوم تغيير السلطة"

كل الساحة السياسية يغطيها التحالف، ولم يترك الكثير للمعارضة. إننا ننادي ببوسنة وهرسك موحدة متكاملة، وعودة اللاجئين، وحرية وسائل الإعلام والأحزاب السياسية. نحن ضد التشتنيك والأستاشا، أو أي شكل من أشكال التطرف بشكل عام، ولقد بادرنا بإطلاق العملية مع المحكمة الدستورية في البوسنة والهرسك من أجل تشكيل مجموعات دوائر انتخابية للشعوب، ونحن نناضل من أجل وحدة وتكامل موستار، إلخ. ما الذي تقدمه المعارضة على وجه التحديد ولا نقدمه نحن؟ هل هناك شيء ما؟ لا أعتقد ذلك، لكنني أعتقد أن هناك شيئاً ما عليهم محاولته. إذا نجحوا فسأعترف أن صفحة جديدة قد طويت في تاريخ البوسنة، المشكلة هي أن السيد لاغوميدجيا، وبدلاً من قيامه

---

(١) (دنفني آفاز، سراييفو ٢٥ آذار (مارس) ١٩٩٩).

بمثل تلك المحاولة يقوم وعلى الدوام بتكرار الشيء ذاته: مفهوم السلطة بحاجة للتغيير. عليه فقط القيام بعمل شيء صغير آخر: أن يخبرنا ماذا يعني هذا بالضبط، وكيف نخطط لإنجاز وتحقيق هذا"(١) .

العدالة والظلم واستحقاقات الحرب

"في الحرب كان هناك بعض اللحظات الجيدة والأخرى الصعبة جداً، بالطبع كان هناك أكثر بكثير من اللحظات الصعبة. الذكريات بدأت بالتلاشي شيئاً فشيئاً. مع ذلك، فسأتذكر اللحظات الصعبة لفترة طويلة، هنالك حدثان أذكرهما أكثر من غيرهما. حدث الأول في مكان ما في منتصف عام ١٩٩٣. كان اجتماعاً مع إحدى الوحدات بالقرب من أولوفا، المعروفة بفقرها وشجاعتها. بعد الخطابات المعتادة، سار أحد الجنود أمام مجموعة القوات وسألني:أيها الرئيس، هل سيكون هناك ظلم حينما تأتي الحرية؟ أدهشني السؤال، لكن أجبت قائلاً: نعم، للأسف سيكون هناك ظلم، وسيتعين عليك القتال ضده تماماً كما تفعل الآن ضد أعدائك.

والحادثة الأخرى التي علقت بذهني تتعلق بزيارة لخط من خطوط الجبهة الأمامية فوق فوزوتشا. كان يوماً بارداً، وكان المطر البارد ينهمر بغزارة. كان الوقت أواخر خريف عام ١٩٩٤. عند الغروب وصلنا إلى خنادقنا في إحدى الغابات. وكان الطين يحيط بنا من كل جانب، وكان هناك عدد قليل من الثكنات الترابية. من حين لآخر كانت تسمع بعض الطلقات القريبة. بعد الزيارة، جلسنا مرافقي، ودليلي، وأنا في السيارة العائدة إلى كاكاني عبر طرق التفافية. كنا جميعاً مرهقين جداً، والطين يغطينا، دخلنا غرفة دافئة، وتناولنا طعام الغداء. بقي الجنود في الغابة، لكن عندما حل الظلام، اشتد نزول المطر. والآن، عندما نتحدث عن صحارى الحرب، تقفز هذه الصورة إلى ذهني.

(١) (...... سراييفو، ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

سأترك لك التوصل بنفسك إلى استنتاج ما أراه وأعتقده بشأن العدالة والظلم، وخصوصاً حول استحقاقات الحرب. وإنني على الدوام أسأل نفسي: لماذا الأمور هكذا؟ وهل هناك أي شيء بوسعي فعله لجعلها على نحو مختلف"؟ [1].

السنجاق

ليليان: لم يستجب المسؤولون في بلغراد أبداً لمطلب إقامة وضع خاص للسنجاق. فقد جرى تجاهل هذا الطلب من قبل نظام ميلوشفتش، ما رأيك بشأن وضع ومكانة السنجاق؟

عزت بيغوفتش: أنا أؤيد كل مطلب شرعي لشعبنا في السنجاق، وأودّ تذكيرك أنه، مع إعلان قيام حزب العمل الديموقراطي منذ ١٩٩٩، كان الاستقلال الذاتي للسنجاق مطلوباً. لكن، وقبل أي شيء آخر، يتوجب على نظام ميلوشفتش إعادة السيطرة المحلية لهم، والتي جرى إلغاؤها بالقوة قبل عامين.

ليليان: على الرغم من ذلك، فإن حكومة الجبل الأسود أعلنت عن وثيقة مكتوبة حول وضعها الخاص - بوصفه عملاً انفصالياً. أحزاب المعارضة في صربيا والجبل الأسود تحمل موقفاً مشابهاً. على أي نحو تعتبر مسألة الساندجاك مسالة إقليمية أو عرقية؟

عزت بيغوفتش: القصة المتعلقة بالانفصالية ليس لها أي أساس قومي. فالسنجاق يطلبها مكانة خاصة لا تطلب الانفصال عن يوغسلافية. أو تغيير في وضع الحدود. من الواضح أن قصة الانفصالية قد جرى اختلاقها لإزالة الأهلية السياسية والضغط.

ليليان: بلغراد ترفض رفضاً قاطعاً وصف مسألة السنجاق بالمسألة السياسية، ما رأيك بذلك؟

---

(١) (مقتطف من مقابلة مع مجلة الخط الأول، ٦ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

عزت بيغوفتش: إن مشكلة السنجاق مسألة سياسية بشكل بارز. هل هناك حاجة لإثبات ذلك؟

ليليان: ما المقدار الذي تعمل به العلاقات "الأوثق والأقرب" بين سراييفو ونيوبازار على تسريع إيجاد حل لمسألة السنجاق؟

عزت بيغوفتش: حسناً، من المؤكد أنها قادرة على تسريع حل ما، لكن يبدو أننا غارقون جداً أكثر مما ينبغي بمشاكلنا الخاصة. خلال الأيام القادمة سنجري محادثات مع ممثلي المجلس البشناقي السنجاقي، برئاسة أوغليانين، ومع الدائرة المحيطة بالدكتور راسم ليايتش، وسوف نرى ما يمكننا فعله. فالمزيد من الانسجام لن يضرّ.

ليليان: هل تعتقد أنه مع سياسة الخوف والتشكيك في السنجاق، استطاع ميلوشفتش صنع قاعدة متحفظة يمكنه تفعيلها وفق الظروف والأحوال؟

عزت بيغوفتش: تلك القاعدة موجودة بالتأكيد، ولاأدري ما إذا كانت في صالح ميلوشوفتيش. إنها سيف ذو حدين.

ليليان: باعتقادك، هل "تبادل الأراضي" أمر ممكن فيما يتعلق بالحلول للمشاكل الإقليمية في البلقان؟

عزت بيغوفتيش: لا أجد خيار تبادل الأراضي واقعياً أو مقبولاً. كانوا موجودين في البوسنة وسرايفو.

عزت بيغوفتش: العقلاء من الناس لا يقيمون مثل هذا التميز ولا يحبونه. أعتقد أن الوضع جيد. صحيح أنه منذ حلول السلام هنا، يحاول بعض الأشخاص تعكير المياه الصافية، وكما تعرف، الصيد في المياه العكرة جيد عندهم. سنقوم بكل ما في وسعنا لتعطيل خططهم وإفشالها.

لماذا تفاوضنا مع حزبي الجمعية الديموقراطية الكرواتية والديموقراطي الصربي

نوفي ليست: هل بوسعنا العودة الآن إلى أيام الحرب؟ وهل يمكنك الإجابة عن بعض أسئلتي المتعلقة بذلك الوقت؟

لماذا لم يقم حزبك بالرد بشكل أوضح بعد هزيمة وانسحاب ستيبان كليوتش (٢٠ كانون أول (ديسمبر)، ١٩٩٢) من قمة هرم حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية، وبعد إشارات واضحة بأن حزبه كان على وشك مغادرة سراييفو؟

عزت بيغوفتش: لم يكن بوسعنا القيام بأي شيء حيال ذلك، باستثناء تحمل المسؤولية عن كل سوء فهم أو نزاع مستقبلاً مع حزب الجمعية. إن كليوتش رجل طيب وجيد، لكنه مزاجي ومتسرع جداً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى السياسة، خصوصاً السياسة في مثل هذه الأوقات الجهنمية الصعبة. ومما يعجبني أنه كان لديه دوماً غليون في فمه، كان يمكن أن يساعده على التفكير وضبط النفس. هل تعلم كيف كان تيتو يفعل ذلك؟ لقد راقبته وهو يجري بعض المقابلات، خصوصاً مع الأجانب. خلال النزاع مع الروس، كان الصحفي يطرح عليه سؤالاً ما، وغالباً ما يكون سؤالاً استفزازياً، فكان يتناول غليونه ببطء، ويقربه من فمه ببطء مماثل، ثم يسحب نفساً طويلاً، طويلاً من الدخان، ثم يعيده ويفرغه، وبعدها يجيب عن السؤال. وكان يفعل هذا في كل مرة. إننا لسنا بمثل هذه العبقرية، ولذلك يكون رد فعلنا سريعاً ودقيقاً بنفس الوقت. ولو أني لم أترك التدخين، لكنت قد استخدمت الغليون. لقد أرسل إلي كليوتش رسالة قصيرة في صباح أحد الأيام يخبر فيها رئاسة البوسنة والهرسك باستقالته التي لا رجعة عنها من منصب عضو الرئاسة. وهذه الرسالة محفوظة في ملفات أرشيف الرئاسة. خلال ساعة قمت بترتيب موعد اجتماع عاجل، لكن

كليوتش لم يحضر. وكان هذا بسبب القصف المتواصل، فقد كان يسكن في الرئاسة في ذلك الوقت. ولذلك فقد أرسلنا السكرتير لإحضاره. لكن لم يتم العثور عليه في مكتبه أو في الغرفة التي كان يسكنها، لكن أحد الحراس أخبرنا أنه غادر المكان في نفس ذلك الصباح، وأخذ معه كافة حاجياته الخاصة. وكما تعلم بعد ذلك بوقت طويل، وبناء على طلبي عاد وعاود مزاولة مهام منصبه في الرئاسة، حتى انتخابات عام ١٩٩٦، لكن في أثناء ذلك الوقت، تحملنا نحن في الرئاسة أياماً صعبة جداً مع بعض الأشخاص المتشددين في حزب الجمعية الديموقراطية الكرواتية. تلك كانت أوقاتاً مجنونة. مع ذلك، فإن السلام لا يمكن اشتراطه إلا مع حزب الجمعية، إنك تتفاوض وتصل للسلام مع أولئك الذين تقاتلهم. وليس مع أولئك الذين أنت في حالة سلام معهم. ولم يكن بإمكان أي أحد الأمر بوقف إطلاق النار في الهرسك باسم الكروات إلا حزب الجمعية نفسه. ولم يكن بمقدور كليوتش فعل هذا. وفي الواقع، لو كان الأمر عائداً إليه لما كانت هناك حرب. لم تكن الحرب ولا السلام راجعين إليه، وهذه الحقيقة لم تكن تعتمد علي وإنما على كليوتش والشعب الكرواتي.

نوفي ليست: في سبليت وبتاريخ ١٢ كانون أول (ديسمبر) ١٩٩٢، أصدرت بياناً قبلت فيه رادوفان كارادجتش طرفاً مفاوضاً في الحرب. لماذا فعلت ذلك؟

عزت بيغوفتيش: كان ذلك أحد أصعب القرارات وأقساها في حياتي، وأعتقد أني أخبرتك من قبل لماذا. كان أمامي أحد خيارين: إما التفاوض مع التشتنيك أو مواصلة الحرب. كان العالم قد أخبرني عبر اللورد أوين وبشكل واضح أنه لم يكن مستعداً للتدخل في البوسنة مهما حدث، وأن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو عبر المفاوضات. وكانت أوربة مستعدة لتقديم خدماتها فقط عبر هذا السبيل، لا أعتقد أن هذا حدث في سبليت. إن ما

أحدثك عنه حدث في مكتب تودجمان في شهر كانون أول (ديسمبر) ١٩٩٣ أو كانون الثاني (يناير) ١٩٩٤.

وبالطبع. فإنه بعد المعركة يصبح الجميع جنرالات. أعتقد بأني فعلت الشيء الوحيد الذي كان بالإمكان فعله لإطالة أمد حياة البوسنة أو على الأقل لتأخير تدمير البوسنة وشعبي معها. كان لابد من شراء الوقت. هذا هو السبب الذي جعلني أقبل المفاوضات.

نوفي ليست: لدى الإعداد لأول مجلس شيوخ بشناقي (أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣)، من المعروف أنه كان هناك مقترحات وعروض لحل المجلس القانوني لجمهورية البوسنة والهرسك، وتشكيل برلمان بشناقي عوضاً عنه، وهو أمر مشابه لما قام به كارادجتش وبوبان سابقاً في "الجمهوريات" التي كانا يحكمانها. هل كنت في ذلك الوقت مثل ما أنت عليه اليوم "متبصراً بأوضاع البوسنة والهرسك" لأنك كنت تتحدث عن نسب مئوية وترتيباتها للبوسنة والهرسك على أساس "النسبة المئوية المشروعة لكل شعب"؟

عزت بيغوفتش: لم يكن كفاحي من أجل البوسنة مستقيم الخط. فالحقائق التاريخية تتكشف، وأنا لا أنوي ولا حتى بمقدوري تغييرها. إنه خط اقتناصي مفاجيء وعاجل ومتعرج، بحسب الأحوال التي في البوسنة ذاتها وخارجها، ولكن المسار العام كان نفسه على الدوام وهو: الحفاظ على البوسنة دولةً كاملة ضمن حدودها المعترف بها دولياً. كان هنالك مشاريع وخطط كارينغتون، وكوتيلييرو، وفانس- أوين، وأوين- شتولتينبيرغ، وأخيراً (اتفاقية) دايتون. العديد من الأشياء قد تغير، لكن الثابت والدائم في كل هذه الخطط والمشاريع كان الحفاظ على البوسنة كدولة. وفقاً لمنطق كافة القوانين العسكرية والسياسية، فيما يتعلق بعلاقات القوى وسلوك العالم، فإنه كان بالإمكان أن تكون البوسنة قد محيت عن خريطة الأرض السياسية. تذكر أنه في إحدى

الفترات، والتي كانت طويلة جداً وبلا حدود بالنسبة إلينا، من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢ حتى نيسان (أبريل) ١٩٩٤، كنا محاصرين تماماً، على ثلاث جبهات: كارادجتش، وبوبان، وعبدتش. ولكن وكما ترى، بقيت البوسنة حية، ولعبت المفاوضات دورها في هذا لأننا عملنا في نفس الوقت على تقوية دفاعاتنا وضمان مستوى معين من الحضور في العالم للبوسنة. لا أدري إن كنت قد قمت على الدوام بإجراء أفضل التحركات والتنقلات الممكنة، ولكن كنت على الدوام أبذل ما في وسعي حسب معرفتي وضميري، وكنت مستعداً على الدوام للاستماع إلى النصح والمشورة من الآخرين. لم أتصرف أبداً تصرفاً مبعثه الخوف أو أي سبب شخصي آخر. سيكون من الضروري وجود مسافة تاريخية معينة ليتم تقييم الأمور موضوعياً منصفاً للحقوق[1].

إجابة أخرى لسؤال مشابه:

قارئ أفاز: كنت أقرأ مقالاً لأحد الشعراء يهاجم فيه حزب العمل الديموقراطي لعدم قيامه بتشكيل حكومة بالتعاون مع الأحزاب المدنية بدلاً من الحزب الديموقراطي الصربي والجمعية الديموقراطية الكرواتية بعد انتخابات عام ١٩٩٠. لو أن حزب العمل كان فعل هذا، كما يَدَّعي الكاتب، "لكنا غنينا أغنية أفضل". هل يمكن أن تعلق على زعم هذا الشاعر؟

عزت بيغوفتش ربما كنا نغني أغنية أفضل، لكن لن يكون هناك دولة. وعندما يقوم شاعر بكتابة المقالات السياسية بدلاً من القصائد الشعرية، فإن شيئاً ما يسير على نحو خاطئ. فالشعراء لا يحبون الحقائق. ويعتبرون أن الحقائق "سخيفة وغبية" ولذلك يجادلون حولها، بإمكان الشعراء فعل هذا، ولكن أنا ينبغي عليّ عدم فعله، وهذا ما كانت تبدو عليه هذه الحقائق السخيفة. في تلك الأوقات المؤسفة: كان هناك في برلمان جمهورية البوسنة والهرسك، في كلا

(١) (إجابات إلى دراغو بيلسيل، صحفي مراسل نوفي ليست، رييكا، ٧ شباط (فبراير) ١٩٩٨).

مجلسيه. ما مجموعة (٢٤٠) عضواً، وكانت الصورة، بناءً على الانتخابات الحرة تبدو كالتالي: حزب العمل: ٨٦ عضواً، والحزب الصربي ٧٣، والحزب الكرواتي ٤٣، وحزب السنجاق ١٩ عضواً، والإصلاحيون ١٣ عضواً، وMBO عضوان وSPO عضو واحد. وبما أنه كانت هناك حاجة للأغلبية للتصويت على الحكومة، والذي يعني حداً أدنى من (١٢١) صوتاً، فإنه لم يكن بإمكان حزب العمل الديموقراطي تكوين أغلبية بأي شكل من الأشكال بالائتلاف مع الأحزاب المدنية. كان بوسعه تجميع (١٢٣) صوتاً، ولكن نظرياً فقط، أي إذا صوتت العناصر التشتنيكية في حزب السنجاق ولدى الإصلاحيين مثل كالينيتس، مع الحزب الصربي. وبإمكانك الحكم على إمكانية حدوث هذا الأمر بنفسك.

بالطبع، هذا أحد وجهي العملة. أما الوجه الآخر، فهو أنه كان بوسعنا تجاهل خيار الشعب الكرواتي والشعب الصربي، بغض النظر عما كان يمكن أن يكون ذلك الخيار. ولو فعلنا هذا، لما كانت الحرب قد بدأت في عام ١٩٩٢ وإنما في عام ١٩٩١، ولكانت حرباً أهلية. لقد حدد الشيوعيون البوسنة والهرسك دولة ذات ثلاثة شعوب. ولم يكن بالإمكان عمل خلاف ذلك، ولم يكن بإمكان أي كان فعل ذلك في البوسنة. إن الشعراء، وأولئك الذين يمتلكون مواهب الشعراء في السياسة، يحبون وضع فرضيات. على سبيل المثال كان يمكن أن يكون كل شيء مختلفاً لو أن ميلوشفتش لم يكن في بلغراد، ولو أن تودمان لم يكن في زغرب، ولو أن ماركوفتش قد بقي، ولو أن الإصلاحيين فازوا بالانتخابات ولو أن الجيش اليوغسلافي لم يكن على النحو الذي هو عليه، ولو أن البوسنة كان لديها بترول، إلخ. مئات من "لو". لكن ميلوشفتش كان في بلغراد وتودجمان كان في زغرب وماركوفتش ترك، ولم يفز الإصلاحيون في الانتخابات، وكان الجيش اليوغسلافي على النحو الذي كان عليه، ولم يكن في

البوسنة بترول،... إلخ. وأن الافتراضات الجيدة والسيئة لها نفس القيمة هنا، أي لا شيء، لأنها مجرد افتراضات. بالنسبة إليها نحن الذين كان يتعين علينا اتخاذ قرار، فإن كل الحقائق المذكورة هنا كانت تمثل المقادير الموجودة التي لم يكن بوسعنا تغييرها. كان بوسعنا، في حينها، تجاهلها أو أخذها بالحسبان. وكأناس مسؤولين، قررنا الخيار الثاني. وخلافاً لشاعرك، فإني أزعم ما يلي: لو أننا في عام ١٩٩١ سعينا إلى تشكيل حكومة دون تصويت الأحزاب الصربية والكرواتية لها، ولو أننا تجاهلنا خيارهم، لما كان جرى الاعتراف بالبوسنة، ولما كانت الحرب قد وقعت عام ١٩٩٢ وإنما في عام ١٩٩١، ولكانت حرباً أهلية، ولكنّا خسرناها، ولكان اللوم التاريخي للفوضى التي حصلت قد وقع علينا. إذن، تلك هي الحقائق، وما عداها مجرد حديث لا مسؤول[1].

حرية الصحافة والأعلام في البوسنة والهرسك

"لم يكن هناك رقابة حتى خلال الحرب. وفي الخطاب الذي ألقيته أمام مجلس الكونغرس لرجالات الفكر البشناق في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧ قمت بانتقاد بعض المجلات قائلاً: إنها لم تكن مستقلة أو مهنية في عملها. لم تكن مستقلة، لأنها كانت ممولة من قبل مصادر أجنبية، ولم تكن مهنية محترفة في عملها؛ لأنها لم تلتزم بقاعدتين من القواعد الأساسية للمهنة وهما: التحقق من صحة الأخبار والاستماع لكلا الطرفين. وكان هذا أول تصريح "خطير" صدر عني. لم يحدث أبداً أن جرى ملاحقة أي صحفي من قبل الدولة بسبب شيء (كتبه/ كتبته) ولن يحدث مثل ذلك أبداً، دعوهم يقوموا بعملهم. ليس هناك دواء للصحفيين المستعدين للكذب في دولة ديمقراطية، باستثناء رفع سوية الشعب والارتقاء بمستوى التعليم والثقافة العامة، بحيث يستطيع الناس أنفسهم تمييز الكذب من الحقيقة، والغث من السمين.

---

(١) (دنيفني أفاز، سراييفو، ٥ آب (أغسطس) ١٩٩٩).

ولكن هذا الأمر لا يمكن للسياسة تحقيقه، وإنما تحققه الثقافة فقط. وهـذا العمـل صعب ويستغرق الكثير من الوقت، لكنه السبيل الوحيـد. فإلى الآن لـم يخترع أي شخص أي فكرة أفضـل. والأكاذيب الصحفية والمبالغـات الصحفيـة نواتـج حتمية لحرية الصحافة والإعلام. ويبدو أن أحدها لا يوجد دون وجـود الآخـر. إذا أردت القضاء على الأكاذيب فإنك ستقضي على الحرية. فالاثنتان مرتبطـان معاً مثل النار والدخـان. علـى أيـة حـال، فـأنت صحفـي وتعـرف هـذا أفضـل مني"[١].

عودة اللاجئين

سؤال طرحه أحد اللاجئين:" إنني لاجئ من يانيا، وهـي بلـدة غنيـة صغيرة بالقرب من بيليينا، حيـث كـان يعيش حوالـي (٢٠,٠٠٠) مـن البشـناق قبـل الحرب. في عام ١٩٩٢ جرى تشـريدهم وطردهـم جميعـاً. معظمهـم ذهـب إلى الخـارج عـبر هنغاريـة. عـائلتي وأنـا قدمنـا إلى سـراييفو. إنـي عـالم بالاقتصـاد الزراعي وأعمل هنا معلماً في إحدى المـدارس الثانويـة. ولـدي زوجـة وطفـلان (١٤ و١٦ سنة). لقد تركت خلفي بيتـاً واسـعاً وأرضـاً تنـوف مسـاحتها عـن (١٠٠) هكتـار مـن الأرض الخصبـة. وقـامت عائلتـان صربيتـان مـن سـراييفو باحتلال أراضي منذ عام ١٩٩٥. أسـكن الآن في اليدجـا في شـقة مـن غرفتـين تملك إحدى العائلات الصربية حق تأجيرها قبل الحـرب. وكـانت الشـقة حـين تسلمتها مهدمة تمامـاً، وجـرى إصـلاح التمديـدات الأساسـية مـن قبـل إحـدى المنظمات الإنسانية الألمانية، وقمتُ بـإصلاح البـاقي بنفسـي، والآن أحـد أفـراد العائلات التي كانت تحتل أرضي في يانيا يطلب استرجاع الشقة. وخلال يومين استطاع الحصول على مذكرة رسمية تطـالب بحقـه باسـترجاع الشـقة، وهكـذا توجب علـي الإخـلاء منهـا كذلـك. إننـي أدري أنـه يعيـش حاليـاً في أملاكـي

(١) (مقابلة لمجلة نوفي ليست من ريبيكا ٧ شباط (فبراير) ١٩٩٨).

وأرضي في يانيا، لكنه ينكر هذا. هذه هي الحالة الحادية عشرة التي أعلم عنها، حينما يأتي أحد الصرب ويحصل على وثيقة رسمية لعقار ما، وبيعها من خلال محام (أو يؤجر الشقة لمدة خمس سنوات في العادة)، ويأخذ المال ويرجع إلى أملاك البشناق ليسكن فيها. هنالك أيضاً حالات يعودون فيها لشققهم لكن لم يحدث أبداً أن أعادوا للبشناق بيوتهم في جمهورية صرب البوسنة. وإذا استمر حدوث مثل هذا الأمر لمدة طويلة، فستكون النتيجة أن يصبح لدى الصرب شقق في سراييفو (أو المال المقابل لها) وبيوت البشناق في جمهورية صرب البوسنة في نفس الوقت، بينما لن يكون لدى البشناق أي شيء مما يجعل النتيجة (٢: صفر) ما قبل الغش والخديعة. وإذا كان هناك العديد ممن حصيلتهم صفر، وأخشى أنه سيكون كذلك، فإننا بالنهاية سنخسر البوسنة عملياً. وإني أرغب بمعرفة: هل ترى خطر هذا، وإذا كنت تفعل، ما الذي تقوم به لوقف هذه النتيجة الكارثية؟

السيد الرئيس، كنت معتاداً على إيجاد مخرج في أثناء الحرب حتى عندما كان يبدو أن ليس هناك أي مخرج، فهل ستجد مخرجاً من هذا الفخ الواضح الذي ينصب لشعبنا من قبل بعض الأشخاص من المجتمع الدولي؟ لا أصدق أنهم لا يشاهدون ما يجري، إنهم فقط يواصلون ذلك، وبوسعنا رؤية نتيجة هذا. ماهذا القانون ومن أي نوع هذا الذي يعطي كل شيء لأحد الأطراف، ويأخذ كل شيء من الطرف الآخر؟ في هذه اللحظة تقول البيانات والمعلومات الرسمية: إن معدل أو نسبة عودة الصرب إلى الاتحاد تبلغ عشرة أضعاف نسبة عودة البشناق والكروات إلى جمهورية صرب البوسنة، ففي أول شهرين عاد (٤٢٥ صربياً و(٥١٥) كرواتية و(٨٥) بوشناقياً إلى الاتحاد الفدرالي، بينما عاد (٩٠) بوشناقياً وكرواتية واحداً إلى جمهورية صرب البوسنة - بيانات صادرة عن وكالة الإغاثة واللاجئين ونشرت في مجلة أوسلوبودجينه بتاريخ ٣ أيار (مايو

١٩٩٩)، فإن العوامل الدولية لا تزال تصرخ في وجه سراييفو وتهددنا بالعقوبات. أليست هذه سياسة تم وضعها من أجل "تحييد" أو بالأحرى "تهميش" بشكل كامل لما يسمى العنصر المسلم في البوسنة والهرسك؟ ومن ثمّ، هل تتمثل بذهنك هذا التهديد؟

عزت بيغوفتش: نعم، بالتأكيد، لكن علي أن أخبرك أن ما تدعوه "المجتمع الدولي" يمثل جمهوراً عريضاً جداً. فهنالك أشخاص لا يهمهم كثيراً مسائل العدالة والظلم، لكن السيد ويستيندورب بالتأكيد ليس واحداً منهم. والحقيقة هي أنه يوجد حوله العديد من المصالح المختلفة التي تختلف من دولة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، وإني أود إبلاغك بأني طرحت سؤالاً مشابهاً تماماً تقريباً (من دون الجزء الأخير لأسباب مفهومة) على الممثل الأعلى خلال اجتماعنا أمس. وأخبرته أنه بالنسبة إلينا، آخذين بالاعتبار الوضع الذي قمت بوصفه، فإن عمليات العودة مستقبلاً لا يمكن إلا أن تسير باتجاهين. وقلت أيضاً: إننا مستعدون لاتخاذ خطوتين إلى الأمام لنكون مثالاً، ليس على الغباء والعمى كما يقولون، إنما مثالاً على الأشخاص العقلاء والمنطقيين الذي يمكنهم المجازفة بقليل من الخطر، ولكن ليس بأي حال من الأحوال بخطر لا محدود. وفي العام الأخير، ووفقاً لتقديرات دقيقة عاد (٩,٤٣٠) صربياً وكرواتية إلى سراييفو. وقلت: إنه حان الآن دور بانيالوكا وموستار. وأكدت أننا مستعدون لتطبيق قرار الرئاسة المتعلق بالعودة حسب العلاقة بين سراييفو- وموستار- بانيالوكا (الخطة ٢٠٠٠ + ٢٠٠٠ + ٢٠٠٠) ولكن هذا المبدأ هو مبدأ ثنائي الاتجاه بشكل قطعي، وذكرت كذلك بعض المواضيع الأخرى المتعلقة بقراره حول الممتلكات، وسلمت له رأيي مكتوباً بالصيغة المسماة الكتابة غير الورقية).

لكن مع ذلك كله، علينا أن نبقى ملتزمين بمبدأ عودة "كل شخص إلى موطنه" وهذا هو السبيل الوحيد للحفاظ على بوسنة وهرسك موحدة وكاملة.

وإذا لم تكتمل عمليات العودة على الأقل على مستوى معيار ذي دلالة، فإن البوسنة لاتكاد تبقى على قيد الوجود. كذلك علينا أيضاً الأخذ بعين الاعتبار مصلحة البوشناق الذين يريدون، ويستطيعون، أو سيكونون بالفعل قادرين على العودة إلى منازلهم وشققهم وأحلامهم. علينا أن نضع أنفسنا مكانهم وأن نحاول النظر إلى المشكلة عبر عيونهم. هل فكرت على سبيل المثال كيف ينظر مواطن من موستار إلى هذه المشكلة، بينما هو يحتل ويشغل سكناً مؤقتاً على الجانب الشمالي من نيرتيفا وينظر إلى بيته على الجانب الأيمن لمدة خمس سنوات؟ هل يطلب منه حدود معينة؟ لا أعتقد ذلك، ومن المنطقي أنه لابد أن يكون مع العودة غير المشروطة، والتي تعني دون حدود ودون استثناءات، والحالة مشابهة بالنسبة للأهالي من برتشكو، وبريدور وغيرها.

سأعمل على أن يتم ترجمة رسالتك إلى اللغة الإنجليزية وتقدم إلى السيد ويستندورب لأنها تعني عدداً كبيراً جداً من أهالينا المشردين والمنفيين. لا أدري ما سيكون جوابه، لكن يمكنني القول: إنه إلى الآن ليس لدي أي سبب للتشكيك بحسن نوايا الممثل الأعلى عندما يتعلق الأمر بالمصالح الطويلة المدى للبوسنة والهرسك. والسؤال الثاني هو كيف يمكن له أن يفهم كافة أسباب ونتائج ما يجري حالياً، ويفهم كافة مشاكل بلدنا ذي الوضع المعقد جداً في زمن معقد جداً"[١].

مرة أخرى حول عودة اللاجئين

"أحييكم نيابة عن الأجهزة العليا لحزب العمل الديموقراطي التي بادرت بعقد اجتماع اليوم.

لقد اجتمعنا مرة أخرى، في ظروف متغيرة. وآمل أن أستطيع القول، في ظروف أفضل، لمناقشة أحد المواضيع الملتهبة في بلدنا: وهو عودة الأشخاص

---

(١) (تصريح إلى دنفني افاز، سرايفو ٦ أيار ٨مايو ١٩٩٩).

المطرودين إلى بيوتهم. إنكم أفضل المحاورين في هذا الموضوع، لأنكم جميعاً كنتم من المنفيين المطرودين.

اسمحوا لي تقديم بعض الأفكار حول موضوع العودة. لقد كان هدفنا الأسمى والدائم وما يزال الحفاظ على كامل تراب البوسنة والهرسك. وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون عودة اللاجئين إلى بيوتهم. ولهذا السبب فإن الملحق رقم (٧) يبقى جزءاً مهماً من اتفاقية دايتون للسلام بالنسبة إلينا. ولهذا السبب فإن مسائل هذه الاتفاقية مبررة إذا لم يتحقق عودة الأملاك لأصحابها.

لا يمكنني التأكيد بدرجة كافية على أهمية وضرورة أن تكون عمليات العودة هذه ذات اتجاه ثنائي مزدوج: البشناق والكروات إلى جمهورية صرب البوسنة والصرب إلى الاتحاد الفدرالي.

هنالك إشارات عديدة على أن العديد من اللاجئين أنفسهم قد قرروا أن الوقت قد حان، وبمبادرة ذاتية منهم، وهم يعدون ترتيبات عودتهم. يجب أن تستغل هذه الحالة النفسية وأن تعطي دفعة قوية للأمام لعملية الافتتاح، من خلال تقديم الدعم المادي وغيره من أشكال الدعم الممكنة لبرامجها المحلية وغيرها من البرامج. ونتوقع من المجتمع الدولي تقديم مساعدة مناسبة لهذا العمل الهام.

وأرغب بإزالة بعض الشكوك التي تظهر حالياً فيما يتعلق بالموضوع. إن حق اختيار مكان الإقامة حق لا يمكن إنكاره. لكل شخص الحق في اختيار المكان الذي يحب العيش فيه، لكن هذا لا يمكن أن يكون العذر المبرر للاحتفاظ بمتعلقات وأملاك الآخرين. لكن إذا كانت تلك أملاك دولة وليست أملاكاً "خاصة" فبإمكانهم تلبية ذلك الحق فقط مع وجود النية وقصد العودة، وليس المتاجرة بها. فاللاجئ لا يمكن أن يجبر على النزوح، ما لم يعرض عليه عودة أملاكه أو إعطائه إسكاناً آخر مناسباً، ويرفض ذلك. أعتقد بأن تلك المبادئ يجب أن تسري في مناطق البوسنة والهرسك كافة، وبنفس القدر في جمهورية صرب البوسنة.

وأخيراً، أود تقديم شكري لممثلي سفارات الدول والمنظمات الصديقة الحاضرين. فمن خلال حضورهم يعبرون عن اهتمامهم بالمشكلة التي لا يمكن حلها بطريقة ناجحة دون مساندتهم ومساعدتهم.

شكراً لكم، وأتمنى لكم عملاً مثمراً[١].

رجالات الفكر الحياديون

"هناك عادة لدى زيارة إحدى المدارس الأساسية في سراييفو من حين إلى آخر للتحدث مع الأطفال، وبمقارنة أفكار الأطفال مع أفكار بعض المفكرين، فإن بوسعي القول: إن حكمي غالباً ما يكون لصالح الأطفال. قد لا يتفق البعض مع هذا، لكن تلك مشكلتهم هم، فالأطفال واضحون جداً بشأن بلدهم البوسنة، والشعب الذي ينتمون إليه. بالنسبة إليهم، فإن هذه المفاهيم واضحة. وليس هناك أي تشويش أو التباس في عقولهم. واسمع المفكرين يقولون:" أنا حيادي، وليس لي أي شأن بالحرب، إني فوق وأعلى من هذا كله." إنهم دائماً فوق شيء ما، وخارج شيء ما... الخ. وفي هذا الصراع الذي يتم فيه قتل الأطفال واغتصاب النساء هم حياديون، هل يملك أي كان الحق بأن يكون حيادياً في مثل هذا الوضع؟ إن هذا الزمن بالفعل هو زمن التناقض، ولم يحدث أبداً أن تصادم الخير والشر على هذا النحو الواضح، فحتى الشخص الأعمى يمكنه تمييز ومعرفة ماهية كل منهما (أيهما الخير وأيهما الشر) لكن مع ذلك فهم حياديون، العار والخزي لهم[٢].

---

(١) (خطاب في احتماع لحزب العمل الديموقراطي بعنوان "كل في أملاكه الخاصة"، سراييفو، الأول من تموز (يوليو) ١٩٩٩).

(٢) (من خطاب في توزلا ١٩٩٤ والمنشور لاحقاً في كتاب الرسائل والمقابلات ١٩٩٨ صفحة ١٦٨).

... المفكرون

"إن سلوك بعض المفكرين يمثل قصة خاصة، إنهم لم يكونوا أبداً من الثائرين أو المتمردين، لكنهم يحبون أن يتصرفوا كما لو كانوا كذلك. كيف يمكنهم أن يكونوا مستقلين إذا كانوا على الدوام يعيرون أهمية لما يراه الآخرون فيهم وبالصورة التي يتصورها الآخرون عنهم، ولما سيقولون عنهم، وهل سيمدحونهم على أنهم "مودرن" عصريون أو أوربيون... إلخ؟ والأوربيون لا يعبؤن أبداً بما يعتقده الآخرون فيهم. ولم يكونوا يوماً تابعين، لهم مبادئهم الذاتية، وسواء قادوا شعبهم أو عنّفوهم تعنيفاً، أو انتقدوا سلوكياتهم أو مدحوهم، فهم على الدوام مع شعوبهم. أما مفكرونا فهم على الدوام فوق وخارج الأمور، حتى في الحرب حين يجري قتل الرجال واغتصاب النساء فإنهم حياديون. يلفّون ويدورون حول المشكلة. وهم غير مستعدين للقول بصراحة ووضوح من الذي يطلق النار ويقتل ويغتصب، وعلى النحو الذي هم عليه، لن نستطيع أبداً الوصول إلى أي مكان. ولحسن الحظ ليسوا جميعاً هكذا، لكن مما يدعو للدهشة أن العديد منهم كذلك[1] .

ردود فعل

كانت هناك ردود أفعال للتصريح الماضي الذي أدليت به فيما يتعلق بالمفكرين، وقد وجه إلي أحد القراء من تيشانيه سؤالاً: فيما إذا كان حكمي (عليهم) قاسياً جداً[2] . "ولقد تابعت ردود الأفعال تلك. أول شيء يمكنني قوله هو أنني لم أقم (لا سمح الله) بوضع جميع المفكرين في سلة واحدة. كما لو أنه كان بالإمكان القيام بتنفيذ هذا النضال من أجل إنشاء دولة وجيش إذا لم يكن هناك العديد من الرؤوس أو العقول المتعلمة والذكية في الجانب الصحيح، وإذا لم يكن لدى أمتنا وشعبنا هذه المجموعة المهمة جداً من الذكاء

---

(١) (دنفيني أفاز، سرايفو، ٨ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).

(٢) (أفاز) بتاريخ ١٥ نيسان (أبريل) ١٩٩٩.

النشط والفعال لحظة وقوع العدوان، فإن المقاومة ستكون مستحيلة. علاوة على ذلك، فإني أزعم أن أي أمة ذات مستوى منخفض من التعليم العام من المؤكد أنها ستهزم. ففي غوراجده وهي تحت الحصار، قام رجالنا بصنع سنترالات صغيرة على نهر درينا. ومن دون المحطات الصغيرة تلك لم يكن بالإمكان حصولنا على الحد الأدنى من الطاقة الكهربائية أو الحد الأدنى من الاتصالات الهاتفية، وأنتم تعلمون مدى أهمية ذلك ومعناه. لقد تمكنوا من عمل ذلك؛ لأنهم كانوا يعرفون كيفية عمله. مع ذلك فإن عدداً كبيراً من المفكرين وهم من يعود اعتراضي إليهم حتى إذا قالوا على خجل من الطرف المعتدي الذي يقوم بالقصف والقتل والاغتصاب (لأن ذلك واضح) لم يقولوا أبداً، أو كانوا يتجنبون القول بصوت عال وواضح، من الطرف الذي كان يدافع عن البوسنة، ومن الذي ينظم المقاومة ضد القتلة والمغتصبين، فهم لا يزالون بكل سرور يلتزمون الصمت حيال ذلك.

"صراع الحضارات"

إنه لشرف عظيم لي أن أحيي جميع المشاركين في جلسة حوار هذا اليوم. إن أصدقاءنا من المجتمعات التي تعاني مثل مجتمعاتنا لديهم الكثير ليقولوا لنا وللسماع منا، هنا في البوسنة والهرسك. إن محادثاتنا تجري في سياق برنامج كبير يطلق عليه اسم الجسر، ونشعر أن هذا هو الاسم المناسب لهذا البرنامج، لأن البوسنة والهرسك تحتل مكانة فريدة. إنها جسر بين الحضارات والثقافات والأديان. فقريباً من المكان الذي نقف فيه الآن توجد الكنيسة الصربية الأرثوذكسية، وهناك معبد يهودي قريب من النهر، والكاتدرائية تقع على بعد أقل من (١٠٠م) إلى الشرق، وعلى بعد (٢٠٠) متر منها يوجد المسجد الرئيسي. وهكذا في نصف قطر مقداره أقل من (٢٠٠) متر نستطيع رؤية الدور الرمزي لمعالم البوسنة والهرسك بوصفها مكاناً لالتقاء الحضارات. وبمواجهة

هذه الصورة، نتساءل فيما إذا كان أجدادنا أعقل وأفضل منا، فمن خلال هذه اللحمة النسيجية المتداخلة، تمكنت حضارات الماضي العظيمة من تحقيق مستوى رفيع من التفاهم المتبادل. وعلى العكس، فإن بإمكان الحضارات إيجاد جذور عامة مشتركة، ومعرفة وقيم عامة مشتركة، تفوق الفروق والاختلافات التي بينها. إن البوسنة والهرسك تمثل المكان الذي جرى فيه اختبار هذه الاحتمالية بكل مخاطرها، وبدلاً من كونها موقع نزاع فإن بإمكان البوسنة والهرسك أن تكون مكاناً يمكن أن يتم فيه بناء مجتمع يسود وينتصر فيه التسامح والاحترام المتبادل. وإني أؤمن وأعتقد أن حديثنا اليوم سيسهم في هذه الجهود. ولأننا ندرك أن أصدقاءنا في إيرلندة الشمالية وجنوب إفريقية قد مروا عبر اضطرابات ومغريات مشابهة، فإننا نرى أننا جميعاً من نفس النوع، وأننا ننتمي إلى نفس العالم، لكل ما تشمله هذه العبارة(١).

مكانة المرأة (١)

إخواني وأخواتي الأعزاء، لقد قلت أخواتي مع أنـي لا أرى أياً منهن هنا. عندما ذهبت للحج قبل عامين، رأيت مئات الأزواج والزوجات يؤدون الطواف معاً، بينما لا أراهم معاً هنا ولا أدري ما سبب ذلك.

نصف الجنس البشري يتكون من النساء بالإضافة إلى نصف الأمة في الحرب التي مضت حرب البقاء والحرية حملت النساء أعباء الحرب ومشاكلها معاً. فقد قتلن وعانَيْن وجعن معاً، ونحن نتوقع منهن الولادة وتربية أجيال من البشناق مما سيحافظ على ما كسبناه ونكسبه وما لم نستطع كسبه. وأن مثل هذا الجيل من الأشخاص المعتزين بأنفسهم وذوي الضمائر الحية لا يمكن أن تربيه وتنشئه نساء يعانين من الإذلال والإحباط(٢).

---

(١) (من خطابي إلى اجتماع الجسر، سراييفوا، ١٧ آب (أغسطس) ١٩٩٨).

(٢) (خطاب في أيفاتوفيشا ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٩٧).

مكانة المرأة (٢)

إن النساء مثل الرجال، كائنات بشرية جديرة بالاحترام. إنهن أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا. ويقمن بتنشئة أطفالنا. ولا يمكن لنا السماح بقمعهن وحرمانهن التعليم. العالم الذي نحيا فيه ليس مثالياً، لكن بالإمكان أن يكون أفضل مما هو عليه اليوم. وهذا يعتمد على الأشخاص الذين هم الآن في طور النمو وعلى أولئك الذين لم يولدوا بعد. يجب أن يكون الجيل القادم أفضل من الحالي فالتقدم يكمن في هذا. ودور المرأة لا يمكن الاستغناء عنه. فالمرأة التي تُقمع والتي تحرم من فرصة التعلّم لا يمكنها تربية وتنشئة جيل يمكنه جعل عالمنا أفضل مما هو عليه الآن. لذا علينا أن نحافظ على كرامة المرأة وندافع عنها [1].

تيتو عام ١٩٩٦

أفاز: والآن اسمح لي أن أسالك سؤالاً غير متوقع نوعاً ما. في الأيام الأخيرة كان هناك العديد من الآراء المتناقضة حول مسألة فيما إذا كان تيتو قد ساعد البشناق أم لا. أنت كنت في السجن في أثناء فترةحياته وخلال استمرار السلطة الاشتراكية بعد رحيله. ويبدو- آخذين بالاعتبار معتقداتك وحياتك في هذا العقد من الزمان- أنه من المثير جداً للاهتمام، وربما من المهم سماع حكم شعبك بشأنه؟

عزت بيغوفتيش: لقد فأجاتني بهذا السؤال، وهذا لا يعني أنني لم أفكر به أبداً، على العكس من ذلك، هنالك قدر معين من التعاطف مع هذا الرجل لم أحاول أبداً إخفاءه. صحيح أنني لم أحب عقيدته أو أيديولوجيته أبداً، ولم يكن يعجبني أسلوب حياته، والفلل والمنازل التي كان يمتلكها في جزيرة في البحر الأدرياتيكي للصيد والرحلات... إلخ، لكن كان لدي شعور بأنه كان

(١) (من رسالة المؤتمر الخاص بمكانة المرأة في العالم، المنعقد في طهران في ١٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٧).

رجلاً طيب القلب، وأعتقد أني لست مخطئاً. ببساطة لم يكن شخصاً سيئاً كما يقول الناس. لقد كان شيوعياً، ولكنّه ليس بلشفياً. فقد أضفى ملمحاً إنسانياً، ويمكن تحمله لنظام كان خاطئاً. إنهم يقولون: إنه كان محباً للحياة، وهو ما استنتج منه أنه لم يكن يكره الناس، لأن هذين الأمرين مرتبطان معاً، من جهة أخرى هناك زهاد، لا يزهدون في الحياة بسبب معتقداتهم وإنما نتيجة إحباطاتهم الشخصية، فهم لا يعرفون كيف يعيشون ولا يقدرون على العيش، ومن ثمّ فإنهم لا يدعون الآخرين يعيشون. وعليه فإن أولئك الذين كان لديهم معرفة أفضل وأوثق عن تيتو يقولون: إنه لم يكن استراتيجياً عظيماً. لكن لا أحد ينكر كونه سياسياً كبيراً وربما كان أحد أكبر السياسيين في هذه المنطقة من العالم في القرن العشرين. وربما أن هذا الرأي أو الحكم يعارض حقيقة انهيار يوغسلافية بعده. ولكن لا أعتقد أن غلطته أن السيطرة والزعامة السياسية التي كان قد جرى ترسيخها وزرعها وراثياً في أساس يوغسلافية كانت تحمل في طياتها بذور الفناء. لقد حارب تيتو بحق وصدق هذه النزعة للتزعم السياسي، لكن للأسف لم يكسب المعركة بل خسرها. مع ذلك فإن الأشياء الإيجابية الجيدة في يوغسلافية أتت في أغلبها من شخصيته والأشياء السيئة كان مصدرها عقيدته، أو إنها كانت ببساطة موروثة[١].

مرة أخرى... تيتو

إن أي حكم عام على تيتو هو حكم غير صحيح: فقد كان طيباً...وكان سيئاً. ولم يكن هذا ولا ذاك. والحقيقة هي: أنه كان طيباً وسيئاً. وربما كان شخصاً جيداً يرأس نظاماً ما سيئاً. أو سيئاً في الفترة الأولى من حكمه، ولكنه تغير لاحقاً وأصبح في وضع أفضل. قد حكم تيتو لمدة ٣٦ عاماً (١٩٤٤-١٩٨٠). في الأعوام الـ ٢٢ الأولى (١٩٤٤-١٩٦٦). كانت يوغسلافية تيتو

---

(١) (دنفيني أفاز، سرايفو، ٢٧ كانون أول (ديسمبر) ١٩٩٩).

دولة بوليسية يديرها رئيس الشرطة ألكساندر رانكوفيتش. إنها عملية داهــوس، وسجن غولي أتوك، وملاحقة المسلمين الشباب. وهو زمن دون جوازات سفر. إنما فيه رقابة على الصحافة، وتفقد الأسماء لمعرفة الكتّاب غير الملـتزمين بـالخط السياسي الرسمي، وحركات قمع في كوسوفو (إطلاق نار"، إلخ). أما فترة الـ ١٤ عاماً التي لحقت فقد كانت أفضل، حتى أنها كـانت في بعض الفـترات (١٩٧٥-١٩٨٠) جيدة لنمو معايير فريــدة وللمزيـد مـن الحريـات، وإعطـاء جـوازات سـفر لغالبية الشبان. وهكذا فإن ثلثي عهـد حكـم تيتـو كـان سيئاً، والثلـث كـان جيـداً نسبياً.

إن مسألة الحكم على يوغسلافية في عهد تيتو مسألة نسـبية. إذا قارنتهـا مـع النمسة، فلن تجتاز علامة النجاح من حيث مستويات الحياة ومعاييرها أو حقوق الإنسان. لكن إذا نظرت إلى بلغارية ورومانية في ذلك الوقت (أو لا سمح الله، ألبانيا في عهد خوجا، فإن يوغسلافية تيتو ستبدو مثل أمريكا. وبالنسبة للتشيك (التي توغلت في بلدهم الدبابات السوفياتية بشكل وحشي وجلبت معهـا عهـداً من الرعب عام ١٩٦٨، فإن يوغسلافية كانت أمريكا).

بإيجاز، من جانب كان هنـاك رعـب وإرهـاب رانكوفيتـش، وغولـي أتـوك، ورقابة على الصحافة، ومحاكمة على الأقوال، دين خارجي بلغ ٢٠ مليار دولار أمريكي، ونظام اقتصادي ضعيف وغير كفء، ونزعـة سيطرة، سياسـة حربيـة (وهما سـببان رئيسـيان لدمـار يوغسـلافية وانهيارهـا)، و٧٠٠,٠٠٠ عـامل في الخارج (لم يكن بوسعهم الحصول على عمل في يوغسلافية)، إلخ.

ومن جانب آخر كان هناك سلام ونظـام تعليـم وضمـان اجتمـاعي وحريـة تنقل. إلخ. كلا الأمرين بشأن يوغسلافية في عهد تيتو صحيـح. (امـزج الاثنـين معاً، خضّ [الزجاجة] جيــداً، وسـيكون لديـك تيتـو" (سـلوبودنا بوسـنة، أيـار (مايو) ٢٠٠٠).

الجنرال روز وكتابه (معركة من أجل السلام)

"لم أقرأ الكتاب كاملاً، قرأت أجزاء منه، لكنني أعرف الجنرال روز من لقاءاتنا المتعددة حينما كان قائداً لمنظمة قوات المراقبة التابعة للأمم المتحدة الخاصة بالبوسنة والهرسك. وهكذا فإن لديّ فكرة عن الكتاب وعن المؤلف. المؤلف ينتمي إلى مجموعة الأشخاص الذين لديهم تحيز ظالم بشأن المسلمين والإسلام، والذين هم للأسف كُثر. إضافة لذلك، من الواضح أنه أتى إلى هنا معتقداً أننا كنا نعمل على إثارة الشتنيك لقصفنا ومهاجمتنا، ليتم التدخل العسكري [الخارجي]. كان هذا في ذهنه على الدوام. فقد كان يرانا مصدراً للإثارة والاستفزاز في كل شيء، حتى عندما كانوا يقصفون المستشفى بشكل متواصل من التلال المجاورة. كان دائماً الذنب ذنبنا. بالطبع، لكل شخص الحق بالعيش ضمن كذبة إذا أراد ذلك، لكن من غير المقبول لمثل أولئك الأشخاص أن يأتوا إلى البوسنة في أسوأ الأوقات بالنسبة إلينا وأن يقرروا مصيرنا. ولكن للأسف، هكذا كان الحال مع الجنرال روز، ولم يكن هو الوحيد. هل تذكر أكاشي وجانفييه وغيرهم، بإمكانك أن تتخيل مقدار الضرر الذي تسببوه لنا، وكم من المتاعب كان بإمكانهم أن يجنبونا إياها. لكنهم لم يفعلوا لأنهم كانوا منحازين. إن كتاب روز مملوء بالتناقضات والأكاذيب الصارخة. فهو يقول: إننا عملنا تمثيلية درامية حول الأحوال والظروف السائدة في غوراجده وبيهاتش، وبعدها، بعد عدة فصول، يقتبس من تقرير من ضباطه يقول: إن الدبابات الصربية في طريقها لدخول المدينة. إنه لا يعرف حتى الحقائق الأساسية. ففي موضع ما يقول: "كان بوسع المسلمين تجنب حدوث الحرب لو أنهم وقّعوا على خطة أو مشرع فانس -أوين" فهو لا يعرف أننا وقعنا على هذه الخطة. فقد قمنا بذلك في نيويورك في أوائل عام ١٩٩٣، بينما رفضها الجانب الصربي. إنه لا يعرف هذا لأنه قدم إلى هنا في أوائل شهر آذار (مارس) من عام

١٩٩٣، وبالنسبة إليه فإن تاريخ حرب البوسنة ابتدأ مع وصوله. فلم يكن لدينا فقط التشتنيك على أعناقنا، وإنما أيضاً بعض الأشخاص من المجتمع الدولي الذين كان لديهم نفور قوي وغير مفهوم. أعتقد أن بقاءنا كان أعجوبة[١].

تشويه سمعة حزب العمل الديموقراطي وإضفاء صفات شيطانية عليه

"جزء من القصة يتمثل في تشويه سمعة حزب العمل الديموقراطي. ويمكن رؤية ماتكتبه الصحافة، لكني غير متأكد في ما إذا كنت تعرف القصص التي تدور في الردهات وبين جماعات النفوذ والضغط. فقد أخبرني أحد الأصدقاء الأجانب الذين ليس هناك أي سبب للتشكيك في صدقه، عن المعاملة المنظمة والمدروسة التي نتلقاها نحن هنا من الأجانب وهو يقول: "لا يمر أي اجتماع أو غداء عمل أو أي تجمع اجتماعي غير رسمي دون وجود شخص يرى من الضروري التحدث عن حزب العمل الديموقراطي بصورة سلبية. في ليلة قريبة ماضية عندما ذكر اسم الحزب، امتعض أحدهم، وبدا كما لو أنه شرب زيت سمك. ولأنه لاحظ أنه (بالتأكيد لا أتفقُ معه) حزبٌ يجمّع البدائيين، وأن كل الأطراف هنا شبيهة بعضها ببعض، ولكن البشناق أقل شراً لأنهم ضعفاء. لو كان لديهم القوة، الخ، أخبرته بأني أعرف عزت بيغوفتش وسيلادجتش، وبيشاكشيتش، ونما نيتش وأدر وشيفتيش، وشاتشير بيغوفتش وغيرهم معرفة جيدة، إنهم لا يبدون بالنسبة إلي زعماء لشعب بدائي على الإطلاق. وفيما يتعلق بالقوة، فإنهم كانوا أقوياء خلال سنوات الحرب الثلاث كان بإمكانهم قتل كل خصومهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك. هذا هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه لصحافة المعارضة والمستقلة قول ماتريد. إن الكاتدرائية كل متكامل، والكنائس الأرثوذكسية أيضاً، ولوّح بهذا مشيراً بيده. كان هناك حوالي ٢٠

---

(١) (مقابلة مع محطة راديو سراييفو، ٢٩ كانون أول (ديسمبر)، ١٩٩٨).

شخصاً حاضراً، كان الصمت يلف الجميع، لم يؤيّد رأيي أحد. واختتم صديقي الأجنبي قوله: هذا ما يتوجب عليك معرفته[١] .

التشتنيك والاستاشا الجدُل

"هنالك ظاهرة تستحق الدراسة: سواء في هــذه الحرب أم التي قبلها كـان هناك تشتينيك وأستاشا مشـاركون في المشـهد. ليس مهمـاً السبب الـذي تـم استدعاؤهم من أجله، ولكن المهم ما كانوا عليه، وكيف بكثير وبكل شكل من الأشكال من أولئك الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانيـة. فقـد كـانت مقـار رئاسة دراتزا قريبة من مسجد ألادجا لمدة طويلة في عام ١٩٤٢، ولـم يجـرؤ أي كان حينها بمهاجمته وهدمه/ لكن التشيتنيك في "زمننا"، ومن جيلنا، قاموا بفعل ذلك وهدموا ودمّروا مئات المساجد والمعالم الثقافية التي لم تكن صربيـة. وقـد حكم اليوستاشا في الحرب العالمية الثانية موستار لحوالي أربعة أعوام وبقــي كـل شيء فيها تقريباً كاملاً لــم يُمـس. وكـان يقتـل بعـض السـكان الصربيّـن هنـا وهناك، لكن لم يكن هناك تصفية وحشية من الجذور.

كافة تلك الأشياء الفظيعة كانت على يد "جيلنا" من التشيتينك والأستاشـا. لماذا؟ بالطبع، هذه الظاهرة تستحق الدراسة بتمعن وعمق، لكن هنـاك ملاحظة واحدة تفرض نفسها. ما حدث قبل ٥٠ عاماً كـان تعصبـاً قوميـاً، ومـا يحـدث الآن هو تعصب قومي مضاف إليه كفر وإلحـاد. فقـد تـم غـرس نبتـة التعصـب القومي في أرض خربــة أخلاقيـاً ودينيـاً. ومـن ثـم فقـد أثمـرت ثمارهـا الأشـد والأخطر سميّة[٢] .

(١) (دنيفني أفاز، شريفيو، ٨ نيسان (أبريل) ١٩٩٩).
(٢) (دنيفني أفاز، ٨ نيسان (أبريل)، ١٩٩٩).

قيامنا بتحويل سراييفو إلى منطقة ريفية

سؤال: حينما تتحدث عن سراييفو، فإن المعارضة تزعم أنها لم تعد كما كانت، وأن حزب العمل الديموقراطي قد حول المدينة إلى منطقة ريفية.

عزت بيغوفتش: جزء من المعارضة يقول ذلك، وهو جزء بلا قلب، إنهم يستهدفوننا؛ لأننا نسمح للاجئين بدخول المدينة. وقال أحد رجال المعارضة علانية: إنه إذا حكم حزب العمل لمدة عام آخر، فلن تعود سراييفو موجودة كمدينة. وجرى نشر هذا الهراء في الصحافة، ومن المثير للاهتمام أنه لم يتسبب في أية ردود فعل، لقد كانت رسالة مفادها أنه يتوجب علينا طرد الناس من فيشغراد وفوتشا وسريبرنيتسا، الذين التجؤوا إلى سراييفو التي كانت حينها تحت القصف وجائعة. لا تنوي فعل ذلك، وليس هناك أية عقوبات يمكن أن تدفعنا وتجعلنا نقوم بمثل ذلك. هذه السراييفو الريفية التي يوجد بها ٧٠,٠٠٠ لاجئ جاؤوا إليها من بونو وميلان سكالا، ويتم عقد أمسيات سراييفو الشتوية. وأيام شعرية، ومهرجانات أفلام. إن المعارضة تتحدث أحاديث لايكترثون لوقعها على الآخرين[1]..

السجلات العسكرية للنقد الأجنبي

"كنت قد تحدثت عن هذا الموضوع بضع مرات، لكن يبدو أنه من المفيد تكرار ما قلته. ما هو مكتوب في هذه الكتب أو السجلات ليست نقوداً، وليس نقداً جاهزاً للدفع. إنه الالتزام المكتوب للدلالة إلى الجنود الذين يدعون أن الدولة، وبناء على الزمن الذي خدموه في الدولة، مدينة لهم بمبالغ ١٠,٠٠٠، أو ١٧,٠٠٠، أو ٢٣,٠٠٠، إلخ من الماركات الألمانية. ومن جانب آخر، وعلى الرغم من أن هذا ليس نقداً جاهزاً للدفع (كاش)، فإن تلك المبالغ مغطاة.

---

(١) (في تصريح الصحيفة دنفيني أفاز، سراييفو، ٢٩ تشرين أول (أكتوبر)، ١٩٩٨).

فهذا البلد يوجد فيه مصانع ومبان وشقق سكنية. وبالتالي فإن الدولة لديها ما يغطي عدة أضعاف على الأقل المبالغ والقيم الموجودة في هذه السجلات. ستكون الغالبية العظمى من الجنود قادرين على شراء شقة سكنية أو متجراً أو قطعة أرض في إزالة التأميم هذا، أي الخصخصة. ويتوجب عليّ الإشارة إلى أن: هذا ليس نقوداً جاهزة للدفع، إنما واجب والتزام ثابت من الدولة نحو الجنود، وأن هذا الالتزام مغطى"(١).

حول الانتصار على الفاشية (يوم نصر):

سؤال من قارئ أفاز: هل أنت موافق على أنه تم الاحتفال بعيد الانتصار في البوسنة والهرسك بشكل متواضع جداً بدرجة ملحوظة؟

عزت بيغوفتش: نعم، أوافق على أن الأمر تم كذلك، ولكني لا أوافق أنه وربما يجب ألا يكون يوماً للتجمعات. وإنما يوماً للمحاضرات. كان يتوجب أن يتم إعطاء الصغار والشباب في المدارس والجامعات من خلال محاضرات عن الفاشيّة أسماء وأشكال جديدة.

وأن نبحث عن أسباب هذا الاحتفال المتواضع، كما نسميه، بهذه المناسبة المهمة في تاريخ العديد من الشعوب، بما فيها شعبنا، فإن ثلاثة أسباب تقفز إلى ذهني:

أولاً: أننا نتعامل مع مشاكل ومسائل ساخنة يومياً، ولا يوجد لدينا رغبة بالاحتفال، وهنالك أيضاً تشبّع من العُطل على نحو معين، فقد كان هناك العديد منها في الشهور الستة الأخيرة.

السبب الآخر أنه في عام ١٩٤٥م جرى (مؤقتاً) هزيمة الفاشية، لكنّه كان أيضاً انتصاراً لستالين Stalin. نظامه الرهيب الذي نتج عنه، واستمر في عمل

(١) (مقابلة مع محطة مذياع وتلفاز البوسنة والهرسك، ١٠ تموز (يوليو) ١٩٩٦).

ذلك، نفس القدر من السوء والشر بالنسبة للأهالي كما الفاشية. لقد كان هناك بعض المرارة والخوف في هذا النصر. السبب الثالث والأهم هو أن: يوم الانتصار على الفاشية يتم الاحتفال به، وان الفاشية كما هو واضح لم يتم هزيمتها. بعد يوم التاسع من أيار (مايو) الشهر من عام ١٩٤٥، ظهرت الفاشية (وغيرها من الدكتاتوريات غير الإنسانية والمضادة للإنسانية) في مختلف أنحاء العالم بأشكال مختلفة. ولكن أسوأ شكل من أشكالها ظهر وكشف عن وجهه في البوسنة والهرسك؛ أن التشتنيك والأستاشا في جوهرهم حركات فاشية؛ لأنها ترفع شعوبها فوق الشعوب الأخرى، وتطلق يد شعبها، محررة إياهم من أي قانون أو مبدأ حينما يتعلق الأمر بالآخرين المختلفين عنها، وتكون نتيجة هذه الجرائم ماشاهدناه في البوسنة وكوسوفو هذه الأيام. وهذا يعني أن النصر النهائي على الفاشية مؤجل إلى المستقبل، هذا إذا أتى، هذا هو سبب قول الناس: إن مقدار الشر في العالم ثابت، وإن ما يتغير فيه هو الشكل فقط[١].

---

(١) (دنفيني أفاز، سراييفو، ١٣ أيار (مايو)، ١٩٩٩).

فهرس عام

* * *

مستخلص

علي عزت بيغوفتش الرئيس الذي استطاع أن يكافح بعـزم وإخـلاص مـن أجـل نهايـة عادلـة للصراع الذي مزّق بلاده في التسعينات من القرن الماضي. إذ لـم يـأل جهـداً في المطالبـة بتحقيـق العدالة في داخل البوسنة وخارجها بالرغم مما واجهه من عدم اكتراث أوربـة التـي مضـى خمسـون عاماً على وعدها بعدم السماح بتكرار معسكرات الاعتقال.

يراه فريق أنه صعب المراس، متشبث بموقفه، فيما يراه فريـق آخـر رجـلاً سـعى جـاهداً ليحيـا حياةً على أسمى المبادئ.

كتب خلال الثمانينات عندما كان أحد سجناء الرأي قائلاً: ((إنني سوف أموت عندما أفقـد كل الأسباب التي تجعلني أبقى على قيد الحياة)).

إن سيرته الذاتية هذه محطات لرجل واحد وحياة حافلة.

وُلِد عزت بيغوفتش عام ١٩٢٥ وتلقى تعليمه في سراييفو قبل أن يصبـح محامياً. وأودع السـجن مرتين من قبل السلطات الشيوعية اليوغسلافية في الأعوام ١٩٤٦-١٩٤٨ و ١٩٨٣-١٩٨٨.

وأودع السـجن في المرة الثانيـة بسـبب كتاباتـه الإسـلامية حيـث أمضـى خمـس سـنوات مـن محكوميته البالغة أربع عشرة سنة.

وانتخب رئيساً للبوسنة والهرسك بعد فوز حزبه السياسي في انتخابات عام ١٩٩٠ وسـقوط الشيوعية.

وقف إلى جانب شعبه طوال سنوات الحرب العدوانية على بلده في التسعينات فقاد شعبه بكـل ثقة وجرأة وإيمان بمبادئه الإسلامية والأوربية في آن معاً.

وقّع اتفاقية دايتون للسلام في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٥، وأُعِيـد انتخابـه واحـداً مـن الأعضاء الثلاثة في الرئاسة الجماعية في عام ١٩٩٦.

كانت المبادئ التي تبنّاها هي السبب الكامن وراء تقديمه لاستقالته من منصبه في عام ٢٠٠٠، حيث أعلن أن المجتمع الدولي يدفع الأمور باتجاهٍ وطريقةٍ لا يستطيع التعايش معهما.

إنَّ علي عزت بيغوفتش هو أحد الأشخاص القلائل الملهمين الذين استطاعوا قيادة شعوبهم في أحلك اللحظات، وفي كفاحهم من أجل الحرية، مما أكسبه احترام وإعجاب كافة شعوب العالم.

تتحدث هذه المذكرات بتفصيل عن مهنته محامياً، وناشطاً وسياسياً ومقـاتلاً (مجاهداً) وباحثـاً (عالماً).

إنَّ حياته كمسلم أوربي التي تمتد من أوائل القرن الماضي إلى أوائل القرن الحالي أثارت اهتمام الباحثين والساسة والقارئين المسلم منهم وغير المسلم أيضاً.

Summary

Alija Izetbegović may best be known as the President who single-mindedly struggled for a just end to the conflict which ravaged his country in the 1990s. In the face of the indifference of Europe, which had lapsed on its fifty year old promise of 'never again' as concentration camps once more sprang up in its midst, he tirelessly campaigned for justice at home and abroad. To some he is difficult and uncompromising; to others he is a man who sought to live his life by the highest of principles. As a prisoner of conscience in the 1980s he once wrote, 'When I lose the reasons to live, I shall die.'

This major autobiography is the account of one man and his remarkable life. Born in 1925, he was educated in Sarajevo before qualifying as a Lawyer. He was imprisoned twice by the communist government of Yugoslavia (1946-48 and 1983-88). On the second occasion, as a Muslim intellectual, he served five years of a fourteen year sentence merely for his written word. In 1990, as his political party came to power with the fall of communism, Alija Izetbegović was elected as President of Bosnia and Herzegovina. He stood by his people throughout the war of aggression against his country in the 1990s, leading his people with nerves of steel, living by his principles both as a European and as a a Muslim. He signed the Dayton peace Accord in November 1995 and was re-elected to a three-member collective Presidency in 1996. It was his principles, however, for which he eventually resigned his position in 2000, announcing that the international community was pushing things forward in a manner with which he could not live.

Alija Izetbegović is one of those rare individuals who have managed to both inspire and lead a whole nation in its pursuit of freedom, winning the admirration of people the world over. His esteemed career as a lawyer, activist, politician, freedom fighter and scholar is detailed in these memoirs. His life spanning two centuries, as a model European Muslim will interest scholars, politicians and the general reader, Muslim and non-Muslim, alike.